زهر الآداب

وثمر الألباب

لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني

عارضه بمخطوطات القاهرة وحققه وضبطه
وشرحه ووضع فهارسه
علي محمد البجاوي

الجزء الأول

الطبعة الثانية
[فيها زيادة شرح وتعليق]

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وبيان

كتاب « زهر الآداب » من أمهات كتب الأدب ؛ ويشبه في طريقته « الأمالي » لأبي علي القالي ، و « البيان والتبيين » للجاحظ ؛ فمؤلفه يرسل القول إرسالا ، ويُتْبِع اللمحة بالطُّرْفة ، والقصيدة بالرسالة ، وينتقل من جدّ إلى فكاهة ؛ ويستدرج قارئه من حديث إلى حديث ؛ ويتخلّل كل ذلك وقفات نقدية تدل على ذوق رفيع وأدب أصيل .

وقد طُبِع هذا الكتاب مرات على هامش « العقد الفريد » ؛ ثم طُبِع منفصلا بإشراف المرحوم الدكتور زكي مبارك ، وكانت الطبعات الأولى غير مضبوطة ، فضلا عن أنها غير مستقلة . أما الطبعة الأخيرة فكانت مستقلة[1] ، ولكن المشرف عليها لم يرجع إلى أصل من أصول الكتاب الخطية ؛ بل إنه لم يرجع إلى دواوين الشعراء ، وكتب الأدب ؛ فكثرت لذلك فيها الأغاليط .

وقد زاد على ذلك أنه ملأ صفحات الكتاب بعنوانات ضخمة ليست من الكتاب ، أخلّت بنظام عقده ، وبعثرت حبات درّه ، وأضلّت القارئ ؛ إذ خلطت بين أصول الكتاب وغيرها .

على أن هذه الطبعات كلها كانت ناقصة ؛ وقد أكملنا الكتاب في هذه الطبعة من النسختين المغربيتين اللتين سنتحدث عنهما فيما بعد . ويكفي أن يعرف القارئ أن الكتاب كان مبتورا من آخره ، وأن هذا النقص قد بلغ ست صفحات متوالية في بعض المواضع ، وأربعا متوالية في بعضها الآخر . هذا إلى فقرات كاملة ، وعبارات مكمّلة ، وغير ذلك مما يُرَى بين قوسين في ثنايا الكتاب .

---

(١) رمزنا إليها بالحرف (ط) .

وقد رجعنا فى تحقيق هذه الطبعة إلى أربع نسخ خطية ؛ وجدناها — بعد البحث الطويل — بدار الكتب ، وقد كانت هذه النسخ — بضبطها وتحقيقها — خير معين لنا على إخراج الكتاب على هذه الصورة التى يراها القراء .

وهذا بيان تلك النسخ :

(١) نسخة خطية برقم ٥٤٩٩ أدب ، بدار الكتب ، وقد كتبت بخط النسخ الجميل ، وضبطت بالشكل التام ، وعدد أوراقها ٣٨٠ ورقة ، وعليها تمليك غير واضح .

وليس بهذه النسخة ما يدل على تاريخ كتابتها ، وهى تبدأ من أول الكتاب ، وتنتهى بالبيت الآتى :

فأجزى بالكرامة أهل ودى وأجزى بالضغائن أهل ضرى[1]

وقد كتبت فى آخرها العبارة الآتية :

كمل السفر الأول من زهر الآداب وثمر الألباب على يد الفقير إلى الله تعالى أمير وابن الشجاع بن المتاج الحصنى ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين . والحمد لله رب العالمين . ثم العبارة الآتية : طالعه عبد المجيد بك نافع سنة ١٢٧٩ هـ .

وقد رمزنا إليها بالحرف (س) .

(٢) نسخة خطية برقم ٥٥٠٠ أدب ، بدار الكتب ، وعدد أوراقها ١٥٩ ورقة ، وخطها مغربى دقيق ، وقد كتبت هذه النسخة فى سنة ٦٢٨ هـ . وتكاد تتصل بالأولى[2] ، وتنتهى بانتهاء الكتاب ، وقد كتب على صفحتها الأولى والأخيرة كلمة « وقف » . وقد أفادتنا هذه النسخة كثيراً ، ووجدنا بها زيادات ذات بال .

وقد رمزنا إليها بالحرف (ا) .

(٣) نسخة خطية برقم ٤١٦ أدب تيمور ، بدار الكتب ، وعدد صفحاتها ٩٨ صفحة . وقد كتبت بخط النسخ ، مع ضبط بعض الكلمات . وابتدأت من أول الكتاب ، وانتهت بالعبارة الآتية : وأتى الناضرى يوماً الحسن بن زيد فقال :

---

(١) صفحة ٥٥٩ من هذه الطبعة . (٢) تبدأ فى صفحة ٥٦٤ من هذه الطبعة .

جعلت فداك ، إنى عصيت الله ورسوله . قال : بئس ما صنعت . وكيف ذاك ؟ قال : لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال[1] .

وقد رمزنا إليها بالحرف (ت) .

(٤) نسخة خطية برقم ٤٦ م ، وأولها : ما يتعلق[2] بالبخلاء واحتجاجهم وحكمهم . وتنتهى بآخر الكتاب ، وهى مخطوطة بقلم مغربى ، وقد كتبت فى سنة ٥٢٤ هـ ، وتتفق مع النسخة المغربية السابقة فيما اشتملت عليه من زيادات .

وهى أقدم النسخ المخطوطة التى عثرنا عليها .

ولم نقتصر فى التحقيق على هذه النسخ الخطيّة ؛ بل إننا رجعنا إلى الطبعة الأميرية لهذا الكتاب[3] ، وإلى معجمات اللغة ، وكتب الأدب ، ودواوين الشعراء ، ورجعنا فى كل بيت إلى ديوان قائله ، وفى كل نص أدبى إلى كلام صاحبه فى الكتب الأدبية المختلفة ، وحرصنا على أن نشرك معنا القارئ فى هذا العمل الأدبى ، فأشرنا فى هامش الكتاب إلى الصفحات التى رجعنا إليها من تلك الكتب والدواوين .

وفى آخر الكتاب فهرس بهذه الكتب التى اعتمدنا عليها فى التحقيق .

وكانت طريقتنا فى المعارضة أن نثبت من الروايات ما نرجّحه ، ثم نثبت فى هامش الكتاب الروايات الأخرى .

وقد حاولنا أن نقيم للكتاب معالم ؛ فوضعنا له عناوين عامة ، ثم عناوين جانبية تفصّل تلك العناوين العامة ، وتساعد القارئ على الفهم والبحث ومتابعة المؤلف .

ولكى نميز هذه العنوانات من عناوين الكتاب الأصلية وضعناها بين قوسين ؛ ليعرف كل من يطلع على الكتاب أنها ليست من أصوله .

ثم وضعنا للكتاب فهارس للموضوعات ، وللأعلام ، وللقوافى والشعراء ، وللكتب والمراجع .

---

(١) صفحة ١٦١ من هذه الطبعة . (٢) صفحة ٨٣٢ من هذه الطبعة .

(٣) وقد رمزنا إليها بالحرف (ق) .

وبما تقدم نستطيع أن نقول : إن هذه أول طبعة أخرجت كاملة للكتاب محققة مضبوطة ، مشتملة على الفهارس التى لايستغنى عنها باحث أو أديب.

وقبل أن نختم هذه الكلمة ينبغى أن نشير إلى ما يأتى :

١ ـ مؤلف هـــذا الكتاب هو أبو إسحاق إبراهيم بن على بن تميم المعروف بالحُصْرى القيروانى .

وقد ذكر صاحب وفيات الأعيان أن له ديوان شعر ، وكتاب زهر الآداب وثمر الألباب ، وكتاب المصون فى سر الهوى المكنون .

ثم قال : وكان شبان القيروان يجتمعون عنده ويأخذون عنه ، ورأس عنـــدهم ، وشرف لديهم ، وسارت تآليفه ، وانثالت عليه الصلات . وبعد أن أورد شيئاً من شعره قال : وقد توفى سنة ٤١٣ هـ . وقال ابن بسام : بلغنى أنه توفى سنة ٤٥٣ هـ .

٢ ـ أن المؤلف هذا الكتاب كتابا آخر ، اسمه «جمع الجواهر فى الملح والنوادر» طبع باسم آخر هو « ذيل زهر الآداب » ولناشره تعليل لهذه التسمية لا نقره عليها ؛ لأنه كتاب مستقل للمؤلف .

ونرجو أن يوفقنا الله لإخراجه محققاً[1] فى القريب إن شاء الله .

٣ ـ أننا أخرجنا هذا الكتاب فى جزأين مع أن المؤلف جعله فى ثلاثة أجزاء ، كما جاء فى كشف الظنون : ١ ـ ٤٥٨ إذ قال : « زهر الآداب وثمر الألباب فى ثلاثة أجزاء جمع فيه كل غريب ...» لأن التقسيم لايؤثر فى منهج الكتاب أو الفائدة منه .

٤ ـ أن هذا الكتاب قد اختصره الإمام أبو الحسن على بن محمد بن على بن برى، وفى دار الكتب نسخة من هذا المختصر فى مجلد بقلم مغربى جيل مكتوبة عن نسخة بخط المؤلف المختصر ، ورقمها ١٤٠٩٤ أدب ، واسم هذا المختصر : « اقتطاف الزهر واجتناء الثمر » .

٥ ـ أننا عثرنا ـ بعد إتمام العمل فى هذا الكتاب ـ على جزء منه مخطوط

(١) قد حقق هذا الكتاب ، وأخرجته دار إحياء الكتب أيضاً .

بالأمانة العامة لجامعة الدول العربية ، يبدأ من « فقر من كلام المتصوفة[1] » . وعدد أوراقه ١٨٠ ورقة ، وهو منقول من « أيا صوفيا » ، وعلمنا أنه أحدث عهداً من النسختين المغربيتين اللتين رجعنا إليهما .

وبالأمانة العامة عمل دائب لتنظيم المخطوطات والفهارس من شأنه أن يؤخر إمدادنا بهذه النسخة ، ونأمل أن نعود إليها إذا قُدِّر لنا أن نعيد طبع هذا الكتاب .

ونرجو أن نكون قد وفقنا فى إخراج الكتاب على ما يرضى الأدب والأدباء . وأن ينفع الله به بقدر ما بذلنا فيه من جهد .

إنه نعم الموفق والمعين . ؟

علی محمد البجاوی

---

(١) صفحة ٨١٠ من هذه الطبعة .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي اختصَّ الإنسانَ بفضيلةِ البيانِ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين[١]، المرسلِ بالنور المبين، والكتابِ المستبين ، الذي تحدَّى الخلقَ أن يأتوا بمثله، فعجزوا عنه ، وأقرّوا بفضْلِه ، وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فهذا كتابٌ اخترتُ فيه قطعة كافيةً من البلاغات ؛ في الشعر والخبر ، والفصول والفِقَر ، مما حسُن لفظُه ومعناه، واسْتُدِلَّ بفَحْوَاه على مَغْزاه[٢]، ولم يكن شارداً حُوشِيًّا ، ولا ساقطاً سُوقيًّا ؛ بل كان جميعُ ما فيه ؛ من ألفاظه ومعانيه ، كما قال البحتري[٣] :

في نظامٍ من البلاغة ما شَـ ـكَّ امرُؤٌ أنَّهُ نِظَـامٌ فَرِيدُ
حُزْنَ مستعملَ الكلامِ اختياراً وتجنَّبْنَ ظُلْمةَ التعقيـد
وركبن اللفظَ القريبَ فأدركْـ ـنَ به غايةَ المرادِ البَعيدِ

ولم أذهب في هــذا الاختيار إلى مطوّلات الأخبار ، كأحاديث صَعْصَعَة بن صُوحان[٤] ، وخالد بن صفوان[٥] ، ونظائرها ؛ إذْ كانت هذه أجلَّ لفظا ، وأسهلَ حفظا .

وهو كتابٌ يتصرَّف الناظرُ فيه من نثره إلى شعره ، ومطبوعه إلى مصنوعه ، ومحاورته إلى مُفاخرته ، ومُناقَلتِه إلى مُساجَلَتِه[٦] ، وخطابه المُبهِت[٧]، إلى جوابه المُسْكِت، وتشبيهاته المُصيبة إلى اختراعاته الغريبة؛ وأوصافه الباهرة إلى أمثاله السائرة، وجِدِّه المعجب إلى هَزْلِه المُطْرِب ، وجَزْلِه الرائع إلى رقيقه البارع .

---

(١) في ت : أنبيائه . (٢) فحوى الكلام : معناه . ومغزاه : مقصده .
(٣) ديوانه ٢ — ١٩٥ . (٤) كان خطيباً بليغاً وله مع معاوية مواقف .
(٥) من فصحاء العرب المشهورين له أخبار مع عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك .
(٦) المناقلة : أن تحدثه ويحدثك . والمساجلة : المباراة والمفاخرة . (٧) المبهت : المحير .

وقد نزعتُ فيما جمعت عن ترتيب البيوت ، وعن إبعاد الشكل عن شكله، وإفراد الشيء من مثله ؛ فجعلتُ بعضه مُسَلْسَلا، وتركتُ بعضه مُرْسَلا ؛ ليحصلَ محرَّرَ[1] النَّقْد ، مقدَّرَ السَّرْد[2] ؛ وقد أخذ بطَرَفي التأليف، واشتمل على حاشيَتَي التصنيف؛ وقد يعِزُّ[3] المعنى فألحق الشَّكْلَ بنظائره ، وأعلّق الأول بآخره ، وتبقى منه بقيةٌ أفرّقها[4] في سائره ؛ ليسلَمَ من التطويل المملّ، والتقصير المخلّ، وتظهر في التجميع[5] إفادة الاجتماع؛ وفي التفريق لذاذة الإمتاع[6]؛ فيكمل منه ما يُونق القلوبَ والأسماع[7]؛ إذ كان الخروجُ من جِدّ إلى هزل ، ومن حَزْن إلى سَهْل أنفى للكَلَل ، وأبعد من الملل ؛ وقد قال إسماعيل بن القاسم [هو أبو العتاهية] [8] :

لا يصلِحُ النفسَ إذ كانت مدابِرةً[9] إلا التنقّلُ من حالٍ إلى حالِ

وكان السببُ الذى دعانى إلى تأليفه وندَبنى إلى تصنيفه ، ما رأيته من رغبة أبي الفضل العباس بن سليمان — أطال الله مُدّته وأدام نعمته — في الأدب ، وإنفاقِ عمره في الطلب مالمعرفي الكتب ؛ وأن اجتهادَه في ذلك حمله على أن ارتحل إلى المشرق بسببها ، وأغمَض في طلبها[10] ، باذِلًا في ذلك ماله ، مستعذِباً فيه تعبَه ، إلى أن أورد من كلام بلغاء عصره ، وفصحاء دهره ، طرائفَ طريفة ، وغرائب غريبة ؛ وسألني أنْ أجْمَع له من مُختارها كتابا يكْتَفِي به عن جملتها ، وأضيفَ إلى ذلك من كلام المتقدّمين ما قاربَه وقارنَه ، وشابَهه وماثَله ؛ فسارعتُ إلى مراده ، وأعنْتُه على اجتهاده ، وألّفتُ له هذا الكتاب ؛ ليستغنيَ به عن جميع كتبِ الآداب؛ إذ كان موشّحا من بدائع البديع ، ولآلىء الميكالي ، وشذىّ الخوارزمي ، وغرائب الصّاحب ، ونفيس قابُوس ، وشذور أبي منصور[11] بكلامٍ يمتزجُ بأجزاء النفس لطافة ، وبالهواء رِقّةً ، وبالماء عذوبة .

---

(١) في ت : مجرد . (٢) السرد : نسج الدرع . (٣) في ت : يعن . (٤) في ط : أصرفها . (٥) في ت: الجمع . (٦) في ت : الاستمتاع . (٧) يونق : يعجب . (٨) من ت . (٩) في ت : مصرفة . والمدابرة : غير المقبلة . (١٠) أغمض في الأمر : ذهب . (١١) كل هؤلاء من أعلام الأدب اختار المؤلف من نظمهم ونثرهم .

وليس لى فى تأليفه من الافتخار أكثرُ من حُسْنِ الاختيار ؛ واختيارُ المرء قطعةٌ من عقله تدلُّ على تخلُّفه أو فَضْلِه ؛ ولا شكّ — إن شاء الله — فى استجادة ما استجدْتُ ، واستحسانِ ما أوْرَدت ؛ إذ كان معلوما أنه ما انجذبت نفسٌ ، ولا اجتمع حِسٌّ ، ولا مال سِرٌّ ، ولا جال فِكْر ، فى أفضلَ مِن معنى لطيف ظهر فى لفظٍ شريف ؛ فكساه من حسن الموقع قَبولا لا يُدفع ، وأبرزه يَختالُ من صفاء السبك ، [ونقاء السّلك][1] ، وصحة الدّيباجة ، وكثرة المائية ، فى أجمل حُلّة ، وأجلّ حِلية :

يستنبطُ الروحَ اللطيفَ نسيمهُ أرَجًا ويؤكل بالضمير ويُشْرَبُ

وقد رغبتُ فى التجافى عن المشهور فى جميع المذكور ، من الأسلوبِ الذى ذهبتُ إليه ، والنحو الذى عوّلتُ عليه ؛ لأن أوّل ما يقرَعُ الآذان أدْعى إلى الاستحسان مما مجّته النفوسُ لطُولِ تكراره ، ولَفَظَته العقولُ لكثرة استمراره ؛ فوجدْتُ ذلك يتعذّر ولا يتيسّر ، ويمتنع ولا يتّسع ؛ ويوجب ترك ماندر إذا اشتهر ؛ وهذا يوجب فى التصنيف دَخَلا[2] ، ويكسب التأليف خَلَلا ؛ فلم أعرض إلّا عما أهانه الاستعمال ، وأذَاله[3] الابتـــذال ؛ والمعنى إذا استدعى القلوبَ إلى حِفْظِه ما[4] ظهر من مُسْتَحْسَن لفظه ؛ من بارع عبارة ، وناصـــع استعارة ، وعذوبةِ مَوْرِد ، وسهولة مَقْصِد ، وحسن تفصيل ، وإصابة تمثيل ، وتطابق أنحاء ، وتجانس أجْزَاء ، وتمكّن ترتيب ، ولطافة تهذيب ، مع صحّة طَبْع ، وجودة إيضاح ، يثقفه تثقيفَ القِداح ، ويصوره أفضلَ تصوير ، ويقدّره أكمَلَ تقدير ؛ فهو مشرق فى جوانب السمع ، لا يُخلقه[5] عوده على المستعيد :

وهو الشيّع بالمسامع إن مضى وهو المضاعف حُسْنُه إن كُرِّرا

---

(١) من ت . (٢) الدخل : العيب . (٣) أذاله : أهانه .

(٤) فى ت : بما ظهر . (٥) أخلقه : ذهب بجدته ورونقه .

وإنْ كنتُ قد استدركتُ على كثير ممن سبقنى إلى مثل ماجَرَيْتُ إليــه ، واقتصرت فى هذا الكتاب عليه ، لِمُلَحٍ أوردتُها كنَوَافِثِ السحْرِ ؛ وفِقَرٍ نظمتُها كالفِنَى بعد الفقر ، من ألفاظ أهلِ العصر ، فى محلول النثر ، ومعقود الشعر ؛ وفيهم من أدركتُ عصرى ، أو لحقه أهْلُ دهرى ؛ ولهم من لطائف الابتداع وتوليدات الاختراع أبكارٌ لم تَفْتَرِعْها الأسماع ، يَصْبُو إليهــا القلبُ والطَّرْف ، ويقطر منها ماء المَلَاحة والظَّرفِ ، وتمتزجُ بأجزاء النفس ، وتسترجع نافِرَ الأُنْس ، تَخَلَّلت تضاعيفَه ، ووشّحت تأليفه ، وطرّزت ديباجه ، ورصّعت تاجه ، ونظَمت عقوده ، ورقمت بُرودَه ؛ فنوْرها يرفّ ، ونورها يشِفّ ، فى روض من الكلم مُونِق ، ورَوْنَق من الحكم مشرق :

صفا ونَقَى عنه القَذَى فكأنهُ ... إذا ما استشفّته العيون مصمّد[1]

فهو كما قلت :

بديعُ نَثْرٍ رقّ حتّى غدا ... يجْرِى مع الرُّوح كما تَجْرِى
من مُذهب الوَشْىِ على وجهِهِ ... ديباجة ليستْ مِنَ الشعر[2]
كزهرةِ الدنيــا وقد أقبلت ... تَرُود[3] فى رَوْنَقِها النَّضْرِ
أو كالنسيم الغضّ غِبَّ الحَيَا[4] ... يَخْتَال فى أردية الفَجْــرِ

ولعلّ فى كثير مما تركتُ ما هو أجودُ من قليل مما أدركت ؛ إذ كان اقتصاراً من كلٍّ على بَعْض ، ومن فَيْضٍ على بَرْض[5] ؛ ولكنى اجتهدتُ فى اختيــار ماوجدتُ ؛ وقد تدخلُ اللفظةُ فى شفاعة اللفظات، ويمرُّ البيت فى خِلَال[6] الأبيات ، وتعرض الحكايةُ فى عرض الحكايات ، يتمُّ بها المعنى المراد ؛ وليست مما يُسْتَجاد ،

---

(١) فى ط : تصعدا . (٢) وشى مذهب : مطرز بالذهب .
(٣) ترود : تختال ، وفى ت : تروق . (٤) غب : عقب . الحيا : المطر .
(٥) البرض: القليل . (٦) فى ت : خلل .

ويبعث عليها فَرْطُ الضرورة إليها [في إصلاح خَلَل][1] ؛ فمهما تَرَ من ذلك في هذا الاختيار فلا تُعرِضْ عنه بطَرْفِ الإنكار ؛ وما أقلّ ذلك في جميع المسالك الجازية في هذا الكتاب ، الموسوم بزَهْرِ الآداب وثمر الألباب ؛ لكني أردت أن أشاركَ من يخرج مِنْ ضيق الاعتذار إلى فسحة الاعتذار :

ويسيء بالإحسان ظنًّا لا كمن   يأتيك وهو بشِعْرِه مَفْتُونُ

والله المؤيد والمسدِّد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

[فضـــــل البيان]

روى عن عبد الله بن عبّاس رضوان الله عليهما ، قال[2] : وَفَدَ إلى رسول الله الزبرقان وابن
صلى الله عليه وسلم الزِّبْرِقَانُ بن بَدْر وعَمْرو بن الأهتم ؛ فقال الزبرقان : يارسولَ الله! الأهتم
أنا سيدُ تميم ، والمطاعُ فيهم ، والمجابُ منهم ، آخُذُ لهم بحقّهم ، وأمنعهم من الظلم ؛ عند رسول
وهذا يعلم ذلك — يعني عَمْرا .

فقال عَمْرو : أَجَلْ يارسولَ الله ؛ إنه مانعٌ لِحَوْزَته[3] ، مُطَاعٌ في عَشِيرته ، شديد المَارِضة فيهم[4] .

فقال الزبرقان : أما إنه والله قد علم أكثرَ مما قال ؛ ولكنه حسدني شَرَفي !

فقال عمرو : أما لئن قال ما قال ؛ فوالله ما علمتُه إلا ضَيِّقَ العَطَن[5] ، زَمِرَ المروءة[6] ، أحمق الأب ، لئيم الخال ، حديث الغِنَى .

فرأى الكراهةَ في وَجْه رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا اختلفَ قولُه ؛ فقال : يارسول الله ؛ رضيتُ فقلتُ أحسنَ ما علمت ، وغضبتُ فقلت أقْبَحَ ما علمت ، وما كذبتُ في الأولى ، ولقد صَدَقْتُ في الثانية !

---

(١) ليست في ت .   (٢) البيان والتبيين : ١ — ٣١ ، العقد الفريد : ١ — ١١٧ ، مجمع الأمثال : ١ — ٥ .   (٣) حوزة الرجل : ما يحوزه ويملكه .

(٤) المارضة : قوة الكلام .   (٥) ضيق العطن كناية عن البخل .

(٦) زمر المروءة ، أي قليل المروءة . وفي ط : زمن ، وهذا من ت .

فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : إنّ من البيان لَسِحْرا ، وإنّ من الشعر لحِكْمَة . ويروى لَحُكْما[١] ؛ والأول أصح[٢] . والذى روى أهل الثَّبَت[٣] ، من هذا الحديث ، أنّه قَدِم رجلان من أهْل المشرق خطيبا؛ فعجب الناسُ لبيانهما ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّ من البيان لسِحْرا ، أو إن من بعض البيان لسحرا .

وعَمْرو بن الأهتم هو عَمْرو بن سِنَان بن سُمَيّ [بن سِنَان بن خالد][٤] بن مِنْقَر ابن عُبيد بن الحارث[٥] ، والحارث هو مقاعس بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم . وسُمّى سِنان الأهتم ؛ لأنّ قيس بن عاصم المِنقرى سيدَ أهلِ الوبر ضربه بقوسه فهتّم فاه . هذا قول أبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة[٦] . وقال غيره : بل هُتم فُوه يوم الكُلَاب الثانى، وهو يومٌ كان لبنى تميم على أهل اليمن . وكان عمرو يلقب المكحّل لجماله ، وبنو الأهتم أهلُ بيتٍ بلاغةٍ فى الجاهلية والإسلام . وعبد الله ابن عمرو بن الأهتم هو جدّ خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة . وكان يقال : الخطابة فى آلِ عَمْرو ، وكان شعره حُلَلًا منشَّرَة عنـد الملوك تأخذُ منه ماشاءت . وهُو القائل[٧] :

ذَرِينى فإنّ البخلَ ياأمّ مالكٍ[٨] … لصالحِ أخـلاقِ الرجالِ سَرُوقُ

لعمركِ ماضاقت بلادٌ بأهلها … ولكنّ أخلاقَ الرجالِ تَضِيقُ

والزِّبْرِقان اسمه حُصَين[٩] بن بَدْر بن امرىْ القيس [بن الحارث][٤] بن بَهْدَلة بن عوف ابن كعب بن سعيد[١٠] . وسمى الزّبرقان لجماله ؛ والزبرقان : القمر [قبل تمامه][١١] .

(١) النهاية لابن الأثير : ١ ــ ٢٤٦ ، والحكم : العلم والفقه والقضاء بالعدل .
(٢) قال فى النهاية : ويروى لحكمة ، وهى بمعنى الحكم . (٣) الثبت ، بفتح الباء وتسكن: الحجة العدل الضابط . (٤) ليس فى ت. (٥) فى ت : عبيد الحارث بن مقاعس .
(٦) الشعر والشعراء : ٦١٤ . (٧) عمرو بن الأهتم ــ الشعر والشعراء ٦١٥ ، والمفضليات : ١٢٣ . (٨) فى المفضليات : ياأم هيثم . (٩) فى ط :حصن . (١٠) فى ت :سعد .
(١١) من ت .

وقيل : لأنه كان يُزَبْرِقُ عمــامته ، أى يصفّرها فى الحرب . وكانوا يسمّون الــكلام الغريب السِّحر الحلال ، ويقولون : اللفظ الجميل من إحدى النّفثات(١) فى العُقَد .

وذكر بعضُ الرُّواة(٢) أنه لما استخلف عمرُ بنُ عبدالعزيز رضى الله عنه قدم عليه وفودُ أهلِ كل بلد ؛ فتقدم إليه وفدُ أهلِ الحجاز فاشرَأبَّ(٣) منهم غلامٌ للكلام ، فقال عمر : يا غلام ؛ ليتكلَّمْ مَنْ هو أسَنُّ منك ! فقال الغــلام : يا أمير المؤمنين إنما المرء بأصْغَرَيْهِ قلبِه ولسانه ، فإذا منَح اللهُ عبدَه لساناً لافظاً ، وقلباً حافظاً ، فقد أجاد له الاختيار ؛ ولو أن الأُمور بالسنّ لكان ها هنا مَنْ هو أحقّ بمجلسك منك.

فقال عمر : صدقت ، تكلم فهــذا السحر الحلال ! فقال : يا أمير المؤمنين ، نحن وفد التهنئة لا وفد المَرْزِئَة(٤) ، ولم تُقْدِمْنا إليك رغبةٌ ولا رهبة ؛ لأنّا قد أمِنّا فى أيامك ما خِفنا ، وأدركنا ما طلبنا !

فسأل عمر عَنْ سنّ الغلام ، فقيل : عشر سنين .

وقد روى أن محمــد بن كعب القرظى كان حاضرا فنظر إلى وجه عمر قد تهلّل عند ثناء الغلام عليه ، فقال : ياأمير المؤمنين ؛ لايغلبَنّ جهلُ القوم بك معرفتَك بنفسك؛ فإنّ قوماً خدعهم الثناء ، وغرّهم الشكر ؛ فزلّت أقدامُهم، فهوَوْا فى النار . أعاذك الله أن تكون منهم ، وألحقك بسالِفِ هذه الأمة ؛ فبكى عمر حتى خِيفَ عليه ، وقال : اللهم لا تُخْلِنا من واعظ !

وقد رُوى أن عمرَ قال للغلام : عِظْنى ، فقال هــذا الكلام ، وفيه زيادة يسيرة ونقص .

أخذ قولَ عمر : « هذا السحر الحلال » أبو تمــام فقال يعاتب أبا سعيد محمد ابن يوسف الطائى(٥) :

---

(١) ق ت : النفاثات . (٢) مروج الذهب : ٢ — ١٦٩ . (٣) اشرأب : اطلع .
(٤) المرزئة : طلب العطاء ، أى لسنا وافدين للعطاء . (٥) ديوانه : ٤٠٦ .

إذا ما الحاجةُ انبعَثَتْ يَدَاهَا   جَعَلْتَ المَنْعَ منكَ لها عِقَالاَ
فأين قصائدٌ لى فيكَ تَأبَى[1]   وتأنفُ أنْ أُهَانَ وأنْ أُذَالا
هى السِّحرُ الحلالُ لمُجْتَلِيه[2]   ولم أرَ قبلها سِحْرًا حَلاَلا

رسالة لابن العميد

وكتب أبو الفضل بن العميـــد إلى بعض إخوانه جوابا عن كتاب وردَ إليه [فأحمده][3] :

وصل ماوصلتَنى به ـ جعلنى الله فِدَاكَ ـ من كتابك، بل نعمتك التامة، ومنّتك العامة ؛ فقرّتْ عينى بوروده ؛ وشُفِيَتْ نفسى بوفوده ؛ ونَشَرْته، فحَكَى نسيمَ الرياض غِبَّ[4] المطر ، وتنفُّسَ الأنوار فى السَّحَر ؛ وتأمَّلْتُ مُفْتَتَحه ، وما اشتمل عليه من لطائف كَلِمك ، وبدائع حِكَمك ؛ فوجدته قد تحمَّل من فنون البرّ عنك ، وضروب الفَضْل منك جِدًّا وهزلا ، ملأ عينى ، وغَمَرَ قلبى ، وغلب فِكْرى ، وبَهَرَ لُبِّى ؛ فبقيتُ لا أدرى : أسُمُوطُ[5] دُرٍّ خَصَصْتَنى بهـا ، أم عقود جوهر مَنَحْتَنِيها ؟ كما لا أدرى أبِكرًا زَفَفْتها فيه ، أم روضةً جهزتهـا منه ؛ ولا أدرى أخدودا ضُرِّجت حياء ضَمَّنته ؛ أم نجوما طلعت عِشـاء أودعته ؛ ولا أدرى أجِدُّك أبلغ وألطف ، أم هَزْلك أرفع وأظرف ؛ وأنا أُوكِّلُ بتتبع ما انطوى عليه نَفْسًا لا ترى الحظَّ إلا ما اقْتَنَتْه منه ، ولا تَعُدُّ الفضل إلّا فيما أخذَتْه عنه، وأُمتِّع بتأمله عينا لا تقرُّ إلّا بمثله، مما يَصْدُر عن يَدِك ، ويَرِدُ من عندك ، وأُعْطِيه نظرا لا يملُّه، وطَرْفا لا يطرِف دونه، وأجعله مِثـالاً أرْتَسمه وأحْتَذِيه ، وأمثِّل خُلق بَرْوَنَقِه ، وأغـذِّى نفسى ببَهْجَتِه ، وأمزِجُ قريحتى برِقّته ، وأشْرَحُ صَدْرى بقراءته ؛ ولئن كنتُ عن تحصيل ما قلته عاجزا ، وفى تعديد ما ذكرتَه متخلِّفًا ، لقد عرفت أنه ما سمعتُ به من السِّحْرِ الحلال .

---

(١) فى الديوان : تأبى . (٢) فى ت : من السحر الحلال لمجتنيه . (٣) من ت .
(٤) غب : بعد . (٥) السمط بالكسر : خيط النظم ، والقلادة ، والجمع سموط (القاموس) .

وقال بعض المحدثين يمدح كاتباً :

وإذا جرى قلمٌ له في مُهْرَقٍ عَجْلانَ في رَفَلانِه ووجيفِه[(١)]
نظمت مراشفُه قلائدَ نُظِّمَتْ[(٢)] بنَفِيسِ جَوْهَرِ لفظِه وشريفِه
بِدَعاً من السِّحْرِ الحلال تولَّدَتْ عن ذِهْنِ مصقولِ الذَّكاء مَشُوفِه[(٣)]
مَثَلا لضاربِه وزادَ مُسَافِرٍ جُمِعَتْ وتُحفةَ[(٤)] قادمٍ لأليفِه

وعلى ذكر قوله : « وتُحْفَةَ قادم » قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي : وصف رجلٌ رجلا فقال : كان والله سَمْحًا[(٥)] سَهْلًا ، كأنما بينه وبين القلوب نَسَبٌ ، أو بينه وبين الحياةِ سببٌ ، إنما هو عيادة مريض ، وتُحْفَةَ قادم ، وواسطة عِقْدٍ[(٦)] .

وأخذ بعضُ بني العباس رجلا طالبيًّا فهمَّ بعقوبته ، فقال الطالبي : واللهِ لولا أنْ أُفْسِدَ دِيني بفساد دُنياك لملكت من لساني أكثرَ مما ملكتَ من سَوْطك ، والله إنّ كلامي لَفَوْقَ الشعر ، ودون السِّحْر ، وإن أيسره لَيَثْقُبُ الْخَرْدَلَ[(٧)] ، ويحطّ الجَنْدَل .

حسن الحديث

وقال عليّ بن العباس يصف حديث امرأة[(٨)] :

وحديثُها السِّحْرُ الحلالُ لو انه لم يَجْنِ قتلَ المسلمِ المتحرِّزِ
إنْ طال لم يُمْلَلْ وإنْ هي أوْجَزَتْ وَدَّ المحدَّثُ أنها لم تُوجِزِ
شَرَكُ العقولِ ونُزْهَةٌ ما مِثْلُها للمطمئنّ وعُقْلَةُ المستوفِزِ[(٩)]

ألمَّ في بيته الآخر بقول الطائي[(١٠)] :

كَواعِبُ أتْرَابٌ لغَيْدَاءَ أصبحتْ وليس لها في الحسن شَكْلٌ ولا تِرْبُ[(١١)]

---

(١) المهرق : الصحيفة . رفل : تبختر أو خطر بيده . والوجيف : الاضطراب ، وضرب من سير الإبل . (٢) في ت : فصلت . (٣) المشوف : المجلو . (٤) التحفة : الطرفة .
(٥) في ت : سمحا . (٦) في ت : قلادة . (٧) الخردل : حب شجر .
(٨) ابن الرومي ، ديوانه : ٤٠٩ ، والمختار من شعر بشار : ٤١ . (٩) في الديوان : علقة ، واستوفز في قعدته : انتصب فيها غير مطمئن ، وعقلة : قيد . (١٠) ديوانه : ٣٠ .
(١١) الترب : من ولد معك ، أو الشبيه .

لها منظرٌ قَيْدَ النواظِرِ لم يَزَلْ ... يَرُوحُ ويَغْدُو فى خَفَارَتِهِ الحُبُّ

وأول من استثار(١) هذا المعنى امرؤ القيس بن حُجر الكندى فى قوله(٢) :

وقد أغتَدِى والطيرُ فى وُكُناتِها ... بمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأوَابِدِ هَيْكَلِ(٣)

وقالت عُلَيَّة بنت المهدى :

اشرب على ذِكْرِ الغَزَالِ ... الأغيــد الحلو الدَّلال

اشرب عليـــه وقُلْ له ... يا غُلَّ ألبــابِ الرجالِ

وكانت عُلَيَّةُ لطيفةَ المعنى ، رقيقة الشعرِ ، حسنةَ مجارى الكلام ، ولها ألحانٌ حِسَانٌ ، وعَلِقت بغلام اسمه « رشأ » وفيه تقول(٤) :

أضحى الفؤاد بزينبا ... صبًّا كئيباً مُتْعَبا

فجعلتْ زَيْنَبَ سترةً ... وكَتَمْتُ أمراً مُعْجبا

[قولها : بزينب تريد برشأ](٥) .

فنُمِى الأمر إلى أخيها الرشيد فأبعده ، وقيل قتَله . وعلقت بعده بغلام اسمه « طل » ، فقال لها الرشيد : والله لئن ذكرتِه لأقتلنّك ! فدخل عليهـا يوماً على حين غَفْلة وهى تقرأ : فإن لم يُصِبْها وابلٌ فما نهى عنه أميرُ المؤمنين ، فضحك وقال : ولا كلّ هذا . وهى القائلة(٦) :

يا عاذِلى قد كنتُ قبلك عاذلاً ... حتى ابتُليتُ فصرت صبًّا ذاهلا

الحبُّ أول ما يكون مَجَانةً(٦) ... فإذا تحكّم صار شُغْلا شاغِلا

[أرْضَى فيغضب قاتلى فتعجّبوا ... يَرْضَى القتيلُ ولا يُرضَّى القاتلا](٧)

---

(١) فى ت : استثار . (٢) ديوانه : ٣٤ . (٣) الوكنات جمع وكنة : وهى العش ، والمنجرد : الفرس القصير الشعر ، والأوابد : الوحوش لأنها تمر على الأبد ، وقيد الأوابد : يسبقها فكأنه [قيدها] ، والهيكل الضخم . (٤) شاعرات العرب : ٢٣٥ . (٥) من ت .
(٦) فى ت : لجاجة . (٧) ليس فى ت .

وهى القائلة[١] :

وُضع الحبُّ على الجوْرِ فلو   أنصف المشوق فيــه لَسَمُجْ
[وقليلُ الحبِّ صِرْفًا خالصًا   لك خيرٌ من كثيرٍ قد مُزِجْ][٢]
ليس يَسْتَحْسِنُ فى نَعْتِ الهوى   عاشق يُحْسِنُ تأليف الحُجَجْ

وكأنها ذهبت فى الأول إلى قول العباس بن الأحنف :

وأحسن أيام الهوى يومُك الذى   تُروَّع بالهجران فيــه وبالعَتْبِ
إذا لم يكن فى الحب سُخْطٌ ولا رِضًا   فأين حَلَاوَاتُ الرسائل والكُتْبِ

وقد زاد النميرى فى هذا فقال :

رَاحَتِى فى مقــالةِ العُــذَّال   وشِفائى فى قِيلِهِمْ بَعْدَ قالِ[٣]
لا يَطيبُ الهوى ولا يَحسُنُ الحبُّ لِصَبٍّ[٤] إلَّا بِخَمْسِ خِصَــال
بسماعِ الأذى وعَــذْلِ نَصِيحٍ   وعِتــابٍ وهِجْرةٍ وتَقَــالِ[٥]

وقال بعض المحدثين :

لولا اطِّرادُ الصيد لم تَكُ لذةٌ   فتطارَدِى لى فى الوصال قليلا
هذا الشراب أخُو الحياةِ ومالَهُ   من لذةٍ حتى يُصِيبَ غليلا[٦]

وقال آخر[٧] :

دَعِ الصبَّ يَصْلَى بالأذى[٨] من حبيبه   فإنَّ الأذى ممن تُحِبُّ سُرورُ
غُبارُ قطيعِ الشاء فى عَيْنِ ذِئبها   إذا ما تلا آثارَهنَّ ذَرُورُ[٩]

وأنشد الأصمعى [لجميل بن مَعْمَر العذرى][٢] :

لا خَــيْرَ فى الحبِّ وقفًا لا تُحرِّكُهُ   عوارضُ اليأسِ أو يَرْتاحُهُ الطمعُ

---

(١) الصناعتين ٨٣ ، شاعرات العرب ٢٣٥ . (٢) من ت . (٣) فى ت : وشفائى فى سؤالهم عن حالى . (٤) فى ت : بخلق . (٥) التقال : التباغض .
(٦) الغليل : الظمأ الشديد . (٧) المختار من شعر بشار : ٥٩ .
(٨) فى ت : بالهوى . وفى المختار : دع الحب ... (٩) الذرور : ما يذر فى العين .

لوكان لى صَبْرُها أو عندها جَزَعى   لكنتُ أملك ما آتى وما أدَعُ
إذا دعا باسْمِها داعٍ ليحزننى   كادت له شُعْبةٌ من مُهْجَتِى تقعُ
لا أحمل اللومَ فيها والغرام بها   لا حمَّلَ اللهُ نفساً فوقَ ما تسعُ

وهذا البيت كقول على بن العباس الرومى[1]:

لاتُكْثِرَنَّ ملامةَ المشّاقِ   فكفاهُمُ بالوَجْدِ والأشواقِ
إن البلاء يطاقُ غيرَ مُضاعَفٍ   فإذا تضاعَفَ كان غيرَ مُطاقِ
لاتُطفِئَنَّ جوًى بلَوْمٍ إنهُ   كالريح تُغْرِى النارَ بالإحراق

ويشبه بيت عليّة الآخر بيت أنشد فى هذا[2] بشعر رُوِىَ لأبى نواس ، ورواه قوم لعنان جارية الناطق وهو :

حُلو العتابِ يهيجُهُ الإدلالُ   لم يَحْلُ إلا بالعتابِ وصالُ
لم يَهْوَ قطُّ ولم يُسَمَّ بعاشقٍ   من كان يصرف وجهه العُذّالُ[3]
وجميعُ أسبابِ الغرام يسيرةٌ   ما لم يكن غَدْرٌ ولا استبدالُ
تصف القضيبَ على الكثيب قناتُها   ولها من البدر المنير مثالُ
ولربَّ لابسةٍ قناعَ مَلاحَةٍ   حسناء سار بحسنها الأمثالُ
كَسَتِ الحَداثةُ طَرْفَها وجمالَها   نُورًا فتاه شبابها يختالُ
وكأنها والكأسُ فوق بَنانِها   شمسٌ يمُدُّ بها إليك هلالُ
حتى إذا ما استأنست بحديثها   وتكلمت بلسانها الجِرْيالُ[4]
قلنا لها : إن صدَّقت أقوالَها   أفعالُها وجرى بهنَّ الفالُ
قولى فليس تَرَاكِ عينُ نميمةٍ   حضر النصيح وغابَتِ العُذّال
وضميرُ مااشتملَتْ عليه ضلوعُنا[5]   سِرٌّ لدى أبوابه أقفال

---

(١) ديوانه : ٢٠٣ ، المختار من شعر بشار : ٨٩ .   (٢) ف ت : فى أول .
(٣) العذال : اللوم .   (٤) الجريال : الخمر .   (٥) ف ت : صدورنا ؛

وقد أخذ أبو الطيب المتنبي معنى « قيد الأوابد » فقال — يصف كلباً[(١)] :

نَيْلُ المُنى وحُكْمُ نَفْسِ الْمُرْسِلِ ... وعُقْلَةُ الظَّبْيِ وحَتْفُ التتفل[(٢)]

كأنه من عِلْمِهِ بالمَقْتَلِ ... عَلَّمَ بُقْرَاطَ فِصَادَ الأَكْحَلِ[(٣)]

وقال في بني حَمْدَان[(٤)] :

مُتَصَعْلِكِينَ على كَثَافَةِ مُلْكِهِمْ ... متواضعينَ على عَظِيمِ الشَّانِ[(٥)]

يَتَقَيَّلُونَ ظِلالَ كُلِّ مُطَهَّمٍ ... أَجَلِ الظَّلِيمِ ورِبْقَةِ السِّرْحَانِ[(٦)]

وقال أعرابي يصف فرساً : إنه لَدَرَكُ الطالِبِ ، ومَنْجَى[(٧)] الهارب ، وقَيْدُ الرِّهان ، وزَيْنُ الفِناء .

وقال بعضُ أهل العصر في وصفِ غلام : وجهُه قَيْدُ الأبصار ، وأَمَدُ الأفكار ، ونهاية الاعتبار .

وقال أبو القاسم إسماعيل بن عباد :

وقد أغتدي للصَّيْدِ غُدوةَ أصْيَدٍ[(٨)] ... أُعاجِلُ فيها الوحشَ والوحشُ هُجَّدُ

فعَنَّتْ[(٩)] ظِباءٌ خِفْنَ تَحقيقَ مطلقِ الْـ ... ـيدين به أيْدي الوحُوش تُقَيَّدُ

فأدركتها والسيفُ لَمْعَةُ بارقٍ ... ولم يُغْنِها إحضَارُها[(١٠)] حين تجهدُ

وقد رُعْتُها إذ كانَ شَعْرِيَ راثماً ... وطَرْفُ مشيبي عن عِذَارِيَ أرمَدُ

وما بلَغَتْ حَدَّ الثلاثين مُدتي ... وهذا طِرازُ[(١١)] الشيبِ فيه يُجَدَّدُ[(١٢)]

---

(١) ديوانه : ٣ — ٢٠٦ . (٢) في الديوان وفي ت : التتفل . وعقلة الظبي : قيده ؛ والتتفل : ولد الثعلب . أما التتفل فهي الى استبيان معناها . (٣) بقراط : طبيب ، والأكحل : عرق في اليد . (٤) ديوانه : ٤ — ١٧٩ . (٥) الصعلوك : الفقير . والكثافة : الكثرة .

(٦) يتقيلون : يتبعون . والمطهم : الفرس التام كل شيء فيه على حدة فهو بارع الجمال . والظليم : ذكر النعام . والربقة : ما يكون في رقبة الشاة . والسرحان : الذئب .

(٧) في ت : نجاء . (٨) الأصيد : من يرفع رأسه كبرا . (٩) عنت : عرضت .

(١٠) الإحضار : نوع من السير . (١١) الطراز : الموضع الذي تنسج فيه الثياب ، وعلم الثوب . (١٢) في ت : تجدد .

المختار في حسن الحديث

وأبياتُ ابن الرومى من أجود ما قيل فى حسن الحديث ، وقد توسّع الشعراء فى هذا الباب ، وكَثُر إحسانُهم ، كما كَثُرَ افتنانُهم ، وسأجْرِى شَأْوًا فى مختار ما قيل فى ذلك ، وأعود إلى ما بدأت به .

قال القُطامى[1] واسمه عُمَيْر بن شُيَيم التغلبى[2] ــ وسمى القُطامى لقوله[3] :

يَحُطُّهن[4] جانبًا فجانبا حطَّ القُطامىّ القَطَا القواربا[5]

وقال أبو عبيدة : ويقال للصقر قُطامى وقَطَامِى .

وفى الخُدُورِ غَمامَاتٌ بَرَقْنَ لنا حتى تَصَيَّدْنَنَا من كلِّ مُصْطادِ
يَقْتُلْنَنَا بحديثٍ ليس يَعْلَمهُ مَنْ يتَّقِينَ ولا مَكْنونه بادِى
فهنَّ يَنْبِذْنَ مِنْ قَوْلٍ يُصِبْنَ به مواقعَ الماء من ذى الغُلَّةِ الصَّادِى

وقال أبو حية النّميرى ، واسمه الهيثم بن الربيع[6] :

وخبَّرَكِ الواشون أن لن أحبَّكُم بلى ، وسُتُورِ اللهِ ذاتِ المحارمِ
وإنّ دمًا لو تعلمين جنيته على الحىّ ، جانِى مِثْله غيرُ سالمِ
أصدُّ وما الصدُّ الذى تعلمينه عزاءً بكم[7] إلا ابتلاعَ العلاقمِ
حياءً وبُقْيا[8] أنْ تشيعَ نميمةٌ بنا وبكم أُفٍّ لأهلِ النّمائمِ
أما إنه لو كان غيرُكِ أرقلَتْ إليه القَنا بالراعفاتِ اللهاذمِ[9]
ولكنه واللهِ ما طَلَّ مُسْلمًا كَغُرِّ الثنايا واضحاتِ الملاغمِ[10]

---

(١) الشعر والشعراء : ٧٠١ ، والمختار من شعر بشار : ٥٥ . (٢) فى ط : شبيم التغلبى .
(٣) اللآلى : ١٣١ . (٤) فى اللآلى : يصكهن ، وفى ت : يحطها .
(٥) فى ت : القواربا . (٦) المختار من شعر بشار : ٣٨ ، الأمالى : ٢ ــ ٢٨٠ ، اللآلى : ٩٢٥ . (٧) فى ط : بنا . (٨) البقيا : الخوف ، وفى الأمالى ، وفى ت : وبقيا .
(٩) أرقلت : أسرعت . الراعفات : الرماح يسيل منها الدم ، يعنى الأسنة . اللهاذم : القاطعات من الأسنة . (١٠) الوضوح : البياض والإشراق ، والملاغم : ما حول الفم ، وفى ط : ماطل مسلما لغر الثنايا .

إذا هنَّ ساقَطْنَ الأحاديثَ للفتى[1]   سُقُوطَ حَصَى المَرْجَانِ من كَفِّ ناظمِ
رَمَيْنَ فأنْفَذْنَ القلوبَ ولا تَرَى   دَماً مائراً إلا جَوًى في الحيازمِ[2]

وقال أيضاً[3] :

حديثٌ — إذا لم تَخْشَ عيناً — كأنه   إذا ساقَطَتْهُ الشَّهْدُ أو هُو أطْيَبُ
لو انك تستشفي به بعد سَكْرَةٍ   من الموتِ كادتْ سَكْرَةُ الموتِ تَذْهَبُ

إلى هذا ينظر[4] قول الآخر وإن لم يكن منه :

أقول لأصْحَابي وهم يعذُلونني   ودَمْعُ جُفُوني دائمُ العَبَرَاتِ
بذكر مِنًى[5] نفسي فبلُّوا ، إذا دَنَا   خروجي من الدنيا ، جُفُوفَ لَهَاتي

وقال سُدَيف مولى بني هاشم يصفُ نساء[6] :

وإذا نطقْنَ تَخَالُهنَّ نَوَاظِماً   دُرًّا يُفَصِّلُ لُؤْلؤاً مكنونا
وإذا ابتسمْنَ فإنهنَّ غمامةٌ   أو أُقحوان الرَّمْل بات معينا[7]
وإذا طَرَفْنَ طرفن عن حَدَقِ المَهَا   وفَضَلْنَهنَّ مَحَاجراً وجُفُونا[8]
وكأنَّ أجيادَ الظباء تَمُدُّها   وَخُصُورهنَّ لطافةً ولُدُونا[9]
وأصحُّ ما رأتِ العيونُ مَحَاجراً[10]   ولهنّ أمرضُ ما رأيت عيونا
وكأنهنَّ إذا نَهَضْنَ لحاجةٍ   ينهضْنَ بالعقدات من يَبْرِينا[11]

---

(١) في ت : كأنه . (٢) المائر : السائل . الحيزوم : ما اكتنف الحلقوم من جانب الصدر وما استدار بالظهر والبطن . وفي ت : فأقصدن القلوب . وفي ط : يطرق قول .
(٣) المختار من شعر بشار : ٣٩ . (٤) في ط : إلا جرى .
(٥) في ت : يذكرني . (٦) المختار من شعر بشار : ٣٦ ، والبيت الخامس في النويري ٦ — ٦ منسوباً لإسحاق الموصلي . (٧) الأقحوان : زهر أبيض . (٨) المها : الغزلان .
(٩) اللدون : اللين . وفي ت : وخصورهن . (١٠) في المختار : جوارحا .
(١١) يبرين : موضع .

وقال الطائى(١) :

تُمْطِيكَ مَنْطِقَها فَتَعْلَمُ أنهُ ... لِجَنَى عُذُوبَتِه يَمُرُّ بِثَغْرِها
وأظُنُّ حَبْلَ وصالها لِمُحِبِّها ... أَوْهَى وأضعفَ قُوَّةً من خَصْرِها

أخذه أبو القاسم بن هانىء ، فقال يمدح جعفر بن على ، إلاَّ أنه قَلَبَه فقال :

قد طَيَّبَ الأفواهَ طِيبُ ثَنائِه ... من أجل ذا تَجِدُ الثغورَ عِذَابا
وكأنما ضَرَبَ السماء سُرَادِقاً ... بالزَّاب أو رَفَعَ النجومَ قِبابا(٢)
أرضاً وطِئْتَ الدُّرَّ رَضْرَاضَها ... والمِسْكَ تُرْباً والرياض جَنَاباً(٣)

وقال الطائى(٤) :

بسطت إليك(٥) بنانةً أُسْرُوعا ... تصف الفِرَاقَ ومُقْلةً يَنْبُوعا(٦)
كادتْ لِعِرْفَان النَّوَى ألفاظها ... من رِقَّة الشَّكْوَى تكونُ دُمُوعا

ومن جيِّد هذا المعنى وقديمه قول النابغة الذبيانى(٧) :

لو أنها عرضتْ لأشْمَطَ رَاهِبٍ ... عبدَ(٨) الإلهَ صَرُورَةٍ مُتَعَبِّدِ(٩)
لرَنَا لِبَهجتِها(١٠) وطِيب حَدِيثِها ... ولخالَهُ رشداً وإن لم يَرْشُدِ
نظرت إليك بحاجة لم تَقْضِها ... نَظَرَ السليم(١١) إلى وجوه العُوَّدِ

ومن مشهور الكلام قول الآخر :

وكنتُ إذا مازُرْتُ سُعْدَى بأرْضِها ... أرى الأرضَ تُطْوَى لِى ويَدْنُو بَعِيدُهَا
مِنَ الخَفِرات البِيضِ وَدَّ جَلِيسُها ... إذا ما انقضَتْ أُحدوثةٌ لو تعيدُها

---

(١) المختار من شعر بشار : ٣٩ . وفى ت : وقال . (٢) الزاب : بلد .
(٣) الرضراض : صغار الحصى . (٤) ديوانه : ٤٩٨ . (٥) فى الديوان : إلى .
(٦) الأسروع : دود أحمر الرأس تشبه به الأنامل (٧) ديوانه : ٣٨ .
(٨) فى الديوان : يخشى . (٩) صرورة : لم يتزوج . (١٠) فى الديوان : لرؤيتها وحسن ، وفى ت : لبهجتها وحسن . (١١) السليم : السقيم ، وفى ت : السقيم .

تَحَالَّ [1] أحقادِى إذا ما لقيتُها   وتَرْمى بلا جُرْمٍ عَلَىَّ حُقُودُها

وقال بَشّار [2] :

وكأن رَجْعَ حديثها   قِطَعُ الرّياض كُسِينَ زَهْرا
حَوراء إنْ نظرَتْ إليْـ   ـكَ سَقَتْكَ بالعينَيْنِ خَمْرا [3]
تُنْسى الغَوِىَّ مَعَادَهُ [4]   وتكون للحكماء ذِكْرا
وكأنها بَرْدُ الشرا   بِ صَفَا ووافَقَ فيه فِطْرا [5]
وكأنَّ تحتَ لسانِها   هَارُوتَ يَنْفُثُ فيه سِحْرا
وتخالُ ما جُمِعَتْ عَلَيْـ   ـهِ ثيابُها ذَهَبًا وعِطْرا

وسمع بشار قول كُثَيِّر بن عبد الرحمن [6] :

ألا إنما لَيْلَى عَصا خَيْزُرانَةٍ   إذا غَمَزُوها بالأَكُفِّ تَلِينُ

فقال : قاتل الله أبا صخر ! يزعم أنها عصا ، ويَعْتَذِر بأنها خَيْزُرانة ! ولو قال : عصا مُخّ أو عصا زُبْد لكان قد هجّنها مع ذكر العصا ، هلّا قال كما قلت [7] :

ودَعْجَاء المَحاجِرِ [8] من مَعَدٍّ   كأنَّ حديثَها ثَمَرُ الجِنَانِ
إذا قامت لحاجتها [9] تثنَّتْ   كأنَّ عِظامَها من خَيْزُرانِ

وبعد قول كثير : « ألا إنما ليلى عصا خيزرانة » :

تمتّعْ بها ما ساعَفَتْك ولا يَكُنْ   عليك شجًى في الصَّدْرِ حين تَبِينُ
وإنْ هى أعطَتْكَ اللِّيانَ فإنّها   لآخرَ مِنْ خُلّانِها سَتَلِينُ
وإن حلفَتْ لا يَنْقُضُ النأىُ عهدَها   فليس لمخضوبِ البنانِ يَمِينُ

---

(١) تحالّ : تذهب . (٢) المختار من شعر بشار : ٣٣ ، الأغانى : ٣ ــ ١٥٠ .
(٣) فى ت : سحرا . (٤) فى ت : معاده . (٥) فى ط : قطرا .
(٦) المختار من شعر بشار : ٣٤ ، الكامل : ٤٩٧ . (٧) المختار من شعر بشار : ٣٤
(٨) فى المختار : وحوراء المدامع . والدعج : سواد العين مع سعتها .
(٩) فى المختار : إذا قامت لشيتها ، وفى ت : لسبحتها .

وقال البحترى[١] :

ولما التقينا واللوى[٢] موعدٌ لنا ... تعجَّبَ رائى الدُّرِّ حُسناً ولاقطُه[٣]

فمن لؤلؤ تَجْنيه[٤] عند ابتسامِها ... ومِنْ لؤلؤ عنـد الحديثِ تُساقِطُه

وقال المتنبى[٥] :

أمُنْعِمَةٌ بالعَوْدةِ الظبْيَةُ التى ... بغَيْرِ وَلِيٍّ كانَ نائلَها الوَسْمِى[٦]

تَرَشَّفْتُ فاهَا سُحْرَةً فكأنَّنِى ... تَرَشَّفْتُ حَرَّ الوَجْدِ من باردِ الظَّلْمِ[٧]

فتـاةٌ تَساوَى عِقْدُها وكَلامُها ... ومَبْسِمُها الدُّرِّىُّ فى النثر والنَّظْمِ

فصل الشعر عاد الحديثُ الأول ، قال أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجى : حدّثنا يوسف بن يعقوب ، قال : أخبرنى جدّى — قراءة عليه ، عن أبى داود ، عن محمد ابن عبيد الله ، عن أبى إسحاق ، عن البراء — يرفعُه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن من الشعر لحُكْما ، وإنّ من البيان لَسِحْرا ، قال أبو القاسم: هكذا رَوَيْنَا الخبر ، وراجعت فيه الشيخ فقال: نعم هو : إنّ من الشعر لحُكْما بضم الحاء وتسكين الكاف ، قال : ووجهُه عندى — إذا رُوِى هكذا : إن من الشعر ما يلزم المقول فيه كلزوم الحُكْم للمحكوم عليه ؛ إصابةً للمعنى ، وقصداً للصواب ، وفى هذا يقول أبو تمام[٨] :

ولَوْلا سبيلٌ[٩] سَنَّها الشِّعْرُ ما دَرَى ... بُغاةُ النَّدَى من أيْنَ تُؤْتَى المَكارِمُ

يُرَى حِكْمَةً ما فِيـه وهو فُكاهةٌ ... ويُرْضَى[١٠] بما يَقْضِى به وهو ظالمُ

انتهى كلام أبى القاسم .

وقد وجدنا فى الشعر أبياتاً يجْرى على رَسْمِها ، ويمضى على حكمها ؛ فقد كان

---

(١) ديوانه : ٣٣١ ، المختار من شعر بشار : ٣٩ . (٢) فى الديوان : والنقا موعد لنا.

(٣) فى ت : ولا قطه . (٤) فى الديوان وفى ت : تجلوه ؛ وفى المختار : تبديه .

(٥) ديوانه : ٤ — ٤٨ . (٦) الوسمى : المطر الأول. والولى : الذى يليه .

(٧) الظلم : ماء الأسنان وبريقها . (٨) ديوانه : ٢٨٦، ٢٨٧ .

(٩) فى الديوان : ولولا خلال . (١٠) فى الديوان وفى ت : ويقضى .

بنو أنْف الناقة إذا ذَكَرَ أحدٌ عندأحدٍ منهم أنفَ الناقة ــ فضلاعن أن ينسبهم إليه ــ اشتدَّ غضبُهم عليه ؛ فما هو إلا أن قال الحطيئة يمدحهم[١]:

سِيرِى أُمَامَ فإنَّ الأكثرِينَ حَصًى … والأطْيبين إذا ما يُنْسَبُون أَبا
قومٌ إذا عقَدُوا عَقْـداً لجارِهِمُ … شَدّوا العِنَاجَ وشدّوا فَوْقَه الكَرَبا[٢]
قوم همُ الأنفُ والأذْنَابُ غيرهُمُ … ومن يُسوِّى بأنْفِ الناقةِ الذَّنَبَا

فصار أحدُهم إذا سُئل عن انتسابه لم يَبْدَأ إلا بِهِ ؛ وأنفُ النـاقة ... جعفر بن قريع[٣] بن عوف بن كعب[٤] بن زيد مناة بن تميم .

وكان بنو العَجْلان يفخرون بهذا الاسم ، ويتشرّفون بهذا الوَسْم ؛ إذ كان عبد الله بن كعب جدّهم إنما سمّى العجلان لتعجيله القِرَى للضِّيفان : وذلك أن حيًّا من طيّىء نزلوا به ، فبعث إليهم بقِرَاهم عَبْداً له ، وقال له : اعْجَل عليهم ، ففعل العبدُ فأعتقه لَعَجلته ، فقال القوم : ماينبغى أن يُسمى إلّا العَجْلان ؛ فسمى بذلك فكان شرفًا لهم ، حتى قال النجاشى ، واسمه قيس بن عمرو بن مالك بن حزن بن الحارث ابن كعب[٥] يهجوهم :

أولئكَ أخوال اللّعين وأُسْرةُ الـ … ـهَجين ورَهْطُ الواهِنِ المتـذَلّلِ
وما سُمِّى العَجْلانَ إلا لقولِهِ … خُذِ القَعْبَ[٦] واحْلُبْ أيها العبدُ واعْجَلِ

فصار الرجل منهم إذا سُئل عن نسبه قال : كعبى ، ويكنى عن العجلان . وزعمت الرواة[٧] أنّ بنى العجلان استَعْدَوا على النجاشى ــ لما قال هذا الشعر ــ عُمَرَ بن الخطاب

---

(١) العمدة : ١ ــ ٣٥ ، مختارات ابن الشجرى : ٣ ــ ١٨ ، البيان والتبيين : ٣ ــ ٢٠٣ .

(٢) اللسان ــ مادة عنج ، والشعر والشعراء : ١ ــ ١٩٢ . والعناج : خيط أو سير يشد فى أسفل الدلو ، ثم يشد فى عروتها ، والكرب : من حبال الدلو . (٣) وت : قريع وهو تحريف

(٤) فى العمدة : بن مالك ، وفى ت : بن كعب بن سعد بن زيد .

(٥) الشعر والشعراء : ٢٩٠ ، البيان والتبيين : ٣ ــ ٢٠٣ .

(٦) القعب : القدح الضخم . (٧) العمدة ١ ــ ٣٨ ، الشعر والشعراء : ١ ــ ٢٩٠ ، حماسة ابن الشجرى : ١٣٦ .

رضى الله عنه ، وقالوا : هَجانا ، قال : وما قال فيكم ؟ فأنشدوه قوله :

إذا اللهُ عادَى أهلَ لؤمٍ ورِقّةٍ　　　فعادَى بنى العَجْلان رهطَ ابنِ مقبلِ

فقال : إنّ الله لا يُعادى مسلماً ، قالوا : فقد قال :

قُبَيِّلَةٌ لا يَغْدِرون بذِمّةٍ　　　ولا يَظْلِمُون الناسَ حَبّةَ خَرْدَلِ

فقال : وددت أن آل الخطاب كانوا كذلك ! قالوا : فقد قال :

تَعافُ الكِلابُ الضارِياتُ لحومَهُمْ　　　وتأكلُ من عوفِ بن كعب بن نهشلِ[2]

فقال : كفى ضَياعاً مَن تأكل الكلابُ لحمه ! قالوا : فقد قال :

ولا يَرِدُون الماءَ إلّا عشيّةً　　　إذا صَدَرَ الوُرّادُ عن كلِّ منهلِ

فقال : ذلك أصفى للماء ، وأقل للزّحام ! قالوا : فقد قال :

وما سُمِّيَ العَجْلانَ إلّا لقولهِم　　　خُذِ القَعْبَ واحْلُبْ أيها العبدُ واعْجَلِ

فقال : سيّد القوم خادِمُهم ! وكان عمر رضى الله عنه أعلمَ بما فى هذا الشعر ، ولكنه دَرَأَ الحدودَ بالشبهات .

جمرات العرب　وهؤلاء بنو نمير[3] بن عامر بن صَعْصعة من القوم أحدُ جمرات العرب ، وأشرفُ بيوت قيس بن عيلان بن مضر . وجمرات العرب ثلاثة : وإنما سُمُّوا بذلك لأنهم متوافرون فى أنفسهم ، لم يُدْخِلوا معهم غيرهم ؛ والتجمير فى كلام العرب التجميع ، وهم بنو نمير بن عامر ، وبنو الحارث بن كعب ، وبنو ضَبّة بن أدّ . فطفئت جمرتان وهما بنو ضبّة لأنها حالفت الرباب ، وبنو الحارث لأنها حالفت مَذْحِج ، وبقيت نمير لم تحالف ؛ فهى على كَثْرَتها ومَنَعَتِها . وكان الرجل منهم إذا قيل له : مِمَّنْ أنتَ ؟ قال : نميرى كما ترى ! إدلالاً بنسَبِه ، وافتخاراً بعنصره ، حتى قال جرير بن الخطفى لعبيد بن حصين الراعى أحد بنى نمير بن عامر[4] :

---

(١) فى ط : قبيلة . (٢) فى الشعر والشعراء : من كعب وعوف ونهشل .

(٣) العمدة : ١ — ٣٦ ، اللسان — جمر . (٤) ديوانه : ٧٥ ، العمدة : ١ — ٣٦ ، البيان والتبيين : ٣ — ٣ ، المختار من شعر بشار : ١ ٢ .

فغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ من نُمَيْرٍ   فلا كَعْباً بَلَغْتَ ولا كِلَابَا

كعب وكلاب : ابنا ربيعة بن عامر[١] بن صعصعة . فصار الرجل منهم إذا قيل له: ممن أنتَ ؟ يقول : عامرى ، ويكنى عن نُمير .

ومرّت امرأة بقوم من بنى نُمير ، فأحَدُّوا النظر إليها ؛ فقال منهم قائل : والله إنها لَرَشْحَاء[٢] ، فقالت : يابنى نُمير ، والله ما امتثلتم فىّ واحدة من اثنتين ، لاقول الله عز وجل[٣] : ﴿ قل للمُؤْمِنينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِم ﴾ . ولا قول الشاعر :

* فغُضَّ الطَّرْفَ إنكَ من نُمير *

وسايَرَ شريك بن عبد الله النُّميرى يزيد بن عمر بن هُبيرة الفزارى ، فبرزت[٤] بَغْلَةُ شَرِيك ، فقال له يزيد : غُضَّ من لجامها ، فقال : إنها مكتوبة أصلح الله الأمير ، فضحك ، وقال : ماذهبت حيث أردت ، وإنما عرّض بقوله : « غُضَّ من لجامها » بقول جرير :

* فغُضَّ الطَّرْف إنك من نُمير *

فعرض له شريك بقول ابن دَارَةَ[٥] :

لا تأمَنَنَّ فَزَارِيًّا خَلَوْتَ بِهِ   على قَلُوصِكَ واكْتُبْهَا بأَسْيَارِ[٦]

وبنو فزارة يُرمون بإتيان الإبل ، ولذلك قال الفرزدق ليزيد بن عبد الملك لماولى عمر بن هُبيرة العراق[٧] :

أميرَ المؤمنين لأنتَ مَرْءٌ[٨]   أمينٌ لستَ بالطَّبِعِ الحريصِ
أَوَلَّيْتَ[٩] العراقَ ورَافِدَيْهِ   فَزَارِيًّا أحذَّ يَدِ القَمِيصِ[١٠]

---

(١) فى ت : بن عاصم . (٢) رشحاء : كثيرة العرق . (٣) النور : ٣٠ .
(٤) سبقت . (٥) الشعر والشعراء : ٨ – ٣٦٣ ، اللسان – مادة كتب .
(٦) كتب الدابة : خزم حياءها . (٧) ديوانه : ٧٨ ، والشعر والشعراء : ٣٤ ، واللآلئ : ٨٦٢ (٨) فى الديوان : وأنت وال   شفيق لست بالوالى .
(٩) فى الديوان : أأطعمت . (١٠) أحذ : مقطوع . يريد أنه قصير اليد عن نيل المعالى .

ولم يكُ قَبْلَها رَاعِى مَخَاضٍ   ليأمَنَــهُ على ورِكَىْ قَلُوصِ
تَفَيْهَقَ[1] بالعراق أبو المثنّى   وعَلَّمَ قومَهُ أَكْلَ الخبيصِ[2]

الرافدان : دجلة والفرات .

وقال بعض التميريين يُجيبُ جريراً عن شِعْرِه :

نُميرٌ جمرةُ العرب التى لم   تَزَلْ فى الحرب تلتهب التهابا
وإنى إذ أَسُبُّ بهـا كليباً   فتحت عليهمُ لِلْخَسْفِ بابا
ولولا أن يقال هَجَا نُميراً   ولم يَسْمَعْ لشاعرهم جَوَابا
رغبنا عن هجاء بنى كليبٍ   وكيف يُشَاتِمُ الناسُ الكِلابا

فما نفع نميرا ، ولا ضرّ جريرا ، بل كان كما قال الفرزدق[3] :

ماضرَّ تَغْلِبَ وائلٍ أَهَجَوْتَها   أم بُلْتَ حيث تَنَاطَحَ البَحْرَانِ

وقال أبو جعفر محمد بن منذر مولى بنى صَبير بن يربوع فى هجائه لثقيف :

وسوف يزيدكم ضَعَةً هجائى   كما وضع الهجاء بنى نمير

وسمع الراعى منشدا ينشد[4] :

وعاوٍ عوَى من غير شىء رَمَيْتُهُ   بقافيةٍ أَنْفَاذُها[5] تَقْطُرُ الدَّما
خَرُوجٍ بأفْوَاهِ الرُّوَاةِ كأنها   قرَى هُنْدُوَانِىّ إذا هزّ صَمَّما

فارتاع له ، وقال : لمن هـذا ؟ قيل : لجرير . قال : لعن الله من يلومنى أن يغلبنى مثل هذا !

أثر الشعر وقد بنى الشعرُ لقوم بيوتاً شريفة ، وهدم لآخرين أبنية منيفة :

وما هو إلا القول يَسْرى فتغتدى   له غُرَرٌ فى أوجـــهٍ ومواسِم

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمى : سمعت أبا عَمْرو بن العلاء ورجل يقول :

---

(١) فى ط : تفيق . (٢) الخبيص : طعام يعمل من التمر والسمن .
(٣) الشعر والشعراء : ١٨٧ . (٤) ديوان جرير : ٥٤٤ ، المختار من شعر بشار : ٢٩١ ، الشعر والشعراء : ٤٣٧ . (٥) فى الديوان : بقارعة ، والأنفاذ : جمع نفذ ، وهى الجراح الواسعة النافذة .

إنما الشعر كالمِيسَم . فقال : وكيف يكون ذلك كذلك؟ والميسم يذهب بذهاب الجلد ، ويدرُس مع طولِ العهد ، والشعرُ يَبْقَى على(١) الأبناء بعد الآباء ، ما بقيت الأرض والسماء ! وإلى هذا نحا الطائى فى قوله(٢) :

وأرى رأيتُ الوَسْمَ(٣) فى خُلُقِ الفتى ... هو الوَسْمُ(٣) لا ما كان فى الشَّعْرِ والجلد

وقال عمر رحمة الله عليه : تعلَّموا الشعر ؛ فإن فيه محاسن تُبتغى ، ومساوئ تُتَّقى .

وقال أبو تمام(٤) :

إنَّ القوافىَ والمساعىَ لم تَزَلْ ... مثلَ النِّظام(٥) إذا أصابَ فَرِيدا
هِىَ جوهرٌ نثرٌ فإن ألَّفتَـهُ ... فى الشعر(٦) كان قلائدًا وعُقُودا
من أجل ذلك كانت العربُ الأُلى ... يدعونَ هذا سُؤْدُدًا مَجْدُودا(٧)
وتَنِدُّ عندهمُ العُلَا إلا إذا(٨) ... جُعِلَتْ لها مِرَرُ القصيدِ قيُودا

وقال على بن الرومى :

أرى الشعر يُحيى الناسَ والمجدَ بالذى ... تُبقِّيه أرواحٌ له عَطِراتُ
وما المجدُ لولا الشِّعْرُ إلا معاهدٌ(٩) ... وما الناسُ إلا أعظُمٌ نَخِراتُ

[شذور من كلام الرسول]

رجعت إلى ما قطعت ، مما هو أحقّ وأولى ، وأجَلّ وأعْلى ، وهو كلامُ رسول الله صلى الله عليه وسلم : الكريم النَّجْر(١٠) ، العظيم القَدْر ، الذى هو النهايةُ فى البيان ، والغايةُ فى البرهان ، المشتملُ على جَوامِع الكلم ، وبدائع الحِكَم ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أفْصَح العرب بَيْدَ أنّى من قريش ، واستُرضِعت فى سعد ابن بكر ! وليس بعضُ كلامه بأَوْلى من بعض بالاختيار ، ولا أحقّ بالتقديم والإيثار ؛ ولكنى أورد ما تيسَّر منه فى أول هذا الكتاب استفتاحاً ، وتيمّناً بذلك واستنجاحا .

---

(١) فى ت : مع . (٢) ديوانه : ١٢٩ . (٣) فى الديوان : الوشم . (٤) ديوانه : ٩٠ .
(٥) فى الديوان : مثل الجمان . (٦) فى الديوان : بالشعر صار . (٧) فى الديوان : محدودا .
(٨) فى الديوان : إلا علا . (٩) فى ت : محامد . (١٠) النجر : الأصل .

وهذه شذورٌ من قوله صلى الله عليه وسلم الصريح الفصيح ، الموجز الوَجيز ، المتضمّن بقليلٍ من المباني كثيرَ المعاني :

قوله للأنصار : إنكم لَتقلّون عند الطمع ، وتَكثُرون عند الفَزَع .

وقوله عليه السلام : المسلمون[1] تَتكافأُ دِماؤُهم ، ويَسْعَى بذمّتهم أَدْناهم ، وهم يدٌ على مَن سِوَاهم . الناسُ كإبلٍ مائة لا تجدُ فيها راحلة . إيّاكم وخَضْراءَ الدِّمَنِ . كلُّ الصَّيْدِ في جوفِ الفَرَا[2] — قاله لأبي سُفْيانَ صخر بن حرب . الناسُ معادن ، خيارُهم في الجاهلية خيارُهم في الإسلام إذا فقهوا . المؤمن للمُؤْمن كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضا . أصحابي كالنجوم بأيّهم اقتديتُم اهتديتُم . المتشبع بما لم يُعْطَ كلابِس ثَوْبَي زُور . المرأة كالضّلع إن رُمْتَ قِوامها كَسَرْتَها[3] ، وإن دَارَيتَها استمتعتَ بها . اليدُ العليا خيرٌ من اليد السفلى : مطل الغنيّ ظُلم . يدُ الله مع الجماعة . الحياء شُعبةٌ من الإيمان . مثلُ أبي بكر كالقطر ، أينما وقعَ نَفَع . لا تجعلوني في أعْجَاز كتبِكم كقَدَح الراكب . أربعةٌ من كنوز الجنة : كتمان الصَّدَقة ، والمرض ، والمصيبة ، والفاقة . جنة الرجل دارُه . الناس نيام فإذا ماتوا انْتَبَهُوا . كفى بالسلامة داء . إنكم لن تَسَعُوا الناسَ بأموالكم ، فسَعُوهم بأخلاقكم . ما قلَّ وكفى خيرٌ مما كثر وألهى . كلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له . اليمين حِنثٌ أو مندمة . دَعْ ما يَرِيبك إلى ما لا يَرِيبك . انصُرْ أخاكَ ظالمًا كان أو مظلوماً . احترسوا من الناسِ بسُوء الظنّ . الندمُ توْبة . انتظارُ الفرج عبادة . نعم صَوْمَعة الرجل بيتُه . المستشير مُعانٌ والمستشار مؤتمن . المرء كثيرٌ بأخيه . إنّ للقلوب صَدَأً كصدأ الحديد ، وجلاؤُها الاستغفار . اليوم الرِّهان

---

(١) في ت : المؤمنون . (٢) الفرا : حمار الوحش ، وهو مثل ، ومعناه أن من نال الأمر العظيم كان جديراً بأن ينسى ماسواه مما ينال الناس .

(٣) القوام : التقويم ، وفي ت : إن قومتها كسرتها .

وغَدًا السِّباق ، والجنــة الغاية . كلُّ مَن في الدنيا ضَيْف ، وما في يديه عاريَة ، والضيف مُرْتَحِل ، والعاريَة مؤدّاة .

ومن جوامع كَلِمه عليه الصلاة والسلام

ما رواه أهلُ الصحيح عن علقمة بن وَقّاص الليثى ، عن عُمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: إنما الأعمال بالنيّاتِ ، وإنما لـكل امرىء مانَوَى ، فمن كانت هِجْرَتُه إلى الله ورسوله فهِجْرَتُه إلى الله ورسوله ، ومن كانَتْ هِجرتُه إلى دُنْيا يُصيبها ، أو امرأةٍ يتزوّجها ، فهِجْرَته إلى ماهاجر إليه .

قال أبو القاسم حمزة بن محمد الـكنانى : سمعتُ أهلَ العلم يقولون : هذا الحديث ثلث الإسلام ، والثلث الثانى ما رواه النعمان بن بَشير ؛ أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الحَلَالُ بَيِّن ، والحرام بَيِّن ، وبينهما أمورٌ مشتبهات ؛ فمن تَرَكها كان أوْقَى لدينه وعِرْضِه ، ومن وَاقَعها كان كالرّاتع حَوْلَ الحِمَى ؛ ألا وإنَّ لـكل ملك حِمًى ، ألا وإنّ حمى الله محارمه .

قال: و[الثلث][1] الثالث مارواه مالك [عن][1] ابن شهاب ، عن على بن حسين — أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : مِن حُسن إسلام المرء تَرْكُه ما لا يعنيه .

وقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الشعرَ وأثابَ عليه ، ونَدَب[2] حسّان ابن ثابت إليه ، وقال : إن الله ليؤيّده برُوحِ القُدُس ما نافَحَ[3] عن نبيه . تشجيع النبى على الشعر

ولما انتهى شعرُ أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب إلى النبى صلى الله عليه وسلم شَقّ عليه ، فدعا عبد الله بن رَوَاحة فاستنشده ؛ فأنشَدَه ، فقال : أنتَ شاعرٌ كريم. ثم دعا كعبَ بن مالك فاستنشده فأنشده ، فقال : أنت تُحْسِنُ صِفَةَ الحرب .

---

(١) من ت . (٢) ندب : دعا . (٣) نافح : دافع .

ثم دعا بحسّان بن ثابت فقال : أَجِبْ عنى ، فأَخْرج لسانَه فضرب به أَرْنَبَته[١] ؛ ثم قال : والذى بعثكَ بالحق ، ما أُحِبّ أنّ لى به مِقْوَلًا فى معدّ ؛ ولو أن لسانا فَرَى الشّعر لفراه[٢] . ثم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يَمَسّ من أبى سفيان، فقال: وكيف ؟ وبينى وبينه الرَّحِم التى قد علمْتَ ؟ فقال : أَسُلُّكَ منه كما تُسَلّ الشَّعْرَة من العجين ! فقال : اذهب إلى أبى بكر ، وكان أعلَم الناس بأنساب قريش ، وسائر العرب ، وعنه أخذ جُبير بن مطعم عِلْمَ النَّسَب . فمضى حسان إليه فذكر له مما بينه، فقال حسّان بن ثابت[٣] :

وإنّ سَنَامَ المَجْـدِ من آلِ هَاشِمٍ … بنو بِنْتِ[٤] مخزوم ووَالِدُكَ العَبْدُ
ومَن ولَدَتْ أبنـاء زُهْرَةَ منهمُ … كرامٌ ولم يَقْرَبْ عَجَائِزَكَ المَجْدُ[٥]
ولَسْتَ كَعَبّاسٍ ولا كابْنِ أُمِّهِ … ولَـكِن لَئيم لا يقوم له زَنْدُ[٦]
وإنّ امرءًا كانت سُمَيَّةُ أُمَّهُ … وسَمْرَاء مغموزٌ[٧] إذا بلغَ الجَهْدُ
وأنت زَنِيمٌ نِيطَ فى آل هاشم … كما نِيطَ خَلْفَ الراكبِ القدحُ الفَرْدُ[٨]

فلما بلغ هذا الشعر أبا سفيان قال : هذا كلامٌ لم يغب عنه ابنُ أبى قُحافة[٩] . يعنى ببنى بنت مخزوم عبد الله وأبا طالب والزبير بنى عبد المطلب بن هاشم [بن عبد مناف][١٠] ، أمهم فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم ، وأخواتهم برة وأميمة والبيضاء ، وهى[١١] أم حكيم والبيضاء جدّة عثمان بن عفان أم أمه . وقوله : « ومن ولدت أبناء زهرة منهم كرام » يعنى أميمة وصفية أم الزبير بن العوام أمهما هالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زُهرة .

---

(١) الأرنبة : طرف الأنف . (٢) يفرى الشعر : يجوده . (٣) ديوانه : ١٠٩ .
(٤) فى ط : بيت . (٥) بنو زهرة : حى من قريش أخوال الرسول .
(٦) فى الديوان : * ولـكن لجين ليس يورى له زند *
(٧) فى الديوان : مغلوب . (٨) زنيم : دعى، وفى ت: ربيط . ونيط بكسر النون : علق.
(٩) يعنى أبا بكر . (١٠) من ت . (١١) فى ت : وهى وصفية أم الزبير بن العوام أ[مهم]ا هالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة .

وقوله : « ولست كعباس ولا كابن أمه » أم العباس نتيلة[١] امرأة ابن جعفر ابن واسط[٢] ، وأخوه لأمه ضرار بن عبد المطلب .

وقوله: « وإن امرأ كانت سمية أمه »: سمية أم أبي سفيان، وسمراء أم أبيه، وليس هذا موضع إطناب فى رفع الأنساب .

وكان عبد الأعلى بن عبد الرحمن الأموى عتب على بعض ولد الحارث ، فقال له مُعَرِّضا بما قال حسان :

إخالُ[٣] بالعمِّ وبالجدِّ مفتخِراً بالقَدَحِ الفَرْدِ
ألهجْ بحسَّانٍ وأشعاره فإنهـا أدْعَى إلى المَجْدِ
لولاسيوفُ الأزْدِ لم تؤمنوا ولم تقيموا سُورَةَ الحمدِ

فتوعَّدُوه خافهم ، فقال :

بنى هاشم عُفْواً عفا الله عنكمُ وإن كان ثوبُ حَشْوِ ثنييه مُجْرِمُ
لكم حَرَمُ الرحمن والبيتُ والصَّفا وجَمْعٌ وماضمَّ الحَطِيم وزمزَمُ
فإن قلتمُ بادَهْتَنَا بعظيمةٍ فأحلامكم منهـا أجلُّ وأعظمُ

وأسلم أبو سفيان — رحمه الله ، وشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم حُنَين ، وكان ممسكا بلجام بَغْلته حين فرَّ الناس وهو أحد الذين ثبتوا ، وهم — على ماذكره أبو محمد عبد الملك[٤] بن هشام — أبو بكر وعمر وعلى والعباس وأبو سفيان بن الحارث وابنه الفضل وربيعة بن الحارث وأسامة بن زيد ، وأيمن ابن أم أيمن بن عبيد قتل يومئذ ، وبعض الناس يعدّ فيهم قُثم بن العباس ، ولا يَعُدُّ أبا سفيان[٥] ، وكان أبو سفيان من أشعر قريش ؛ وهو القائل :

لقد عَلِمَتْ قريشٌ غير فخرٍ بأنَّا نحن أجْوَدُهُم حِصَانا

---

(١) ق ت : نتيلة . (٢) ق ت : من النمر بن قاسط ، وهو الصواب .
(٣) ق ت : أصائلا . (٤) ق ت : عبد الله . وهو خطأ .
(٥) ق ط : ابن أبي سفيان .

وأكثرهم دُروعاً سابغاتٍ   وأمضاهم إذا طعنوا سِنانا
وأدفعهم عن الضرّاء عنهم   وأبيَنهم إذا نطقوا لِسانا

وروى أنّ ابنَ سيرين قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سَفَرِه قدشنق ناقته بزمامها، حتى وضعت رأسها عند مقدمة الرّحل، إذ قال: يا كعب بن مالك، احْدُ بنا! فقال كعب[1]:

قضَيْنَا من تِهامة كلَّ حَقّ[2]   وخيبرَ ثم أجْمَمْنا[3] السيوفا
نُخَبِّرها[4] ولو نطقَتْ لقالَتْ   قواطعهنّ دَوْساً أو ثَقيفاً

فقال عليه السلام: والذى نفسى بيده لهى أشدُّ عليهم من رشق النبل!

ويقال: إنّ دَوْساً أسلمت فَرَقاً من كلمة كعب هذه، وقالوا: اذهبوا فخذوا لأنفسكم الأمان، من قبل أن ينزل بكم ما نزل بغيركم!

حديث قتيلة مع النبى

وقتَل[5] النبى صلى الله عليه وسلم النّضْر بن الحارث، وكان ممن أُسِرَ يوم بدر، وكان شديد العداوة لله ولرسوله، وقتله على بن أبى طالب رضى الله عنه صَبْراً، فعرضت للنبى صلى الله عليه وسلم أخته قُتَيلة بنت الحارث ـ وفى بعض الروايات أن قُتَيلة أَتتْهُ فأنشدَتْه[6]:

يا راكباً إنّ الأُثَيْلَ مَظِنّةٌ   من صُبْحِ غادية[7] وأنتَ موفَّقُ
أبْلِغْ بها مَيْتاً بأنّ تحيّةً   ما إنْ تزالُ بها النّجائب تعنقُ[8]
مِنّى إليه[9] وعَبرةً مسفوحةً   جادت بوا كِفِها[10] وأخرى تخنُقُ
هل يسمعنّى النّضْرُ إنْ ناديتُه   إن كان[11] يسمع ميّتٌ لا يَنطِقُ

(١) سيرة ابن هشام: ٤ ـ ١٢٢ . (٢) فى السيرة: كل ريب. وفى العقد: كل حتف.
(٣) أجمنا: أرحنا. (٤) فى ط: فخبرها. (٥) العمدة: ١ ـ ٤١، ديوان حسان ـ المقدمة، البيان والتبيين: ٣ ـ ٢٠٥، سيرة ابن هشام: ٢ ـ ٤١٩، شاعرات العرب ١٣٤.
(٦) أنيس الجلساء: ١٧٧ أيضا. (٧) فى ت: خامسة. (٨) العنق: نوع من السير، وفى السيرة، ت: تخفق. (٩) فى السيرة: إليك. (١٠) الواكف: الجارى.
(١١) فى السيرة: أم كيف يسمع.

ظلَّتْ سيوفُ بنى أبيه تَنُوشُه[١] ... لله أرحامٌ هنــاك تَشَقَّقُ

قَسْرًا[٢] يقادُ إلى المنيَّة مُتْعَبًا ... رَسْفَ المقيَّدِ وهو عانٍ موثَقُ

أمحمدٌ ها أنت صِنْوُ[٣] كريمةٍ ... فى قومِها والفحْــلُ فحلٌ مُعْرِقُ

ما كانَ ضَرَّكَ لو مَنَنْتَ وربَّما ... مَنَّ الفتَى وهو المَغيظُ المُحْنَقُ[٤]

فالنضرُ أقربُ مَنْ قتَلْتَ[٥] قَرَابةً ... وأحقُّهم إنْ كان عِتْقٌ يُعْتَقُ

أو كنت قابِلَ فِدْيَةٍ فَلْيُفْدَيَنْ[٦] ... بأعزِّ ما يُغلى به مَنْ يُنْفِـقُ

فذُكِر أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رَقَّ لها ودمعت عيناه، وقال لأبى بكر: لو كنتُ سمعتُ شِعْرَها ما قتلته!

والنضر هذا هو النضر بن الحارث بن عَلقمة بن كَلَدة بن عبد مناف بن عبد الدار. قال الزبير بن بكار[٧]: وسمعت بعض أهل العلم يغمز فى أبيات قتيلة بنت الحارث ويقول: إنَّها مصنوعة.

[من كلام أبى بكر]

ودخل أبو بكر الصديق رضوان الله عليه، على النبى عليه السلام وهو مُسَجًّى بثَوْبٍ[٨]، فكشف عنه الثوب وقال[٩]: بأبى أنْتَ وأمى! طِبْتَ حَيًّا وميّتاً، وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموتِ أحدٍ من الأنبياء من النبوّة، فعظُمْتَ عن الصفة، وجلَلْتَ عن البُكاء، وخَصَصْتَ حتى صرت مَسْلاة، وعَمَمْتَ حتى صِرْنا فيك سَواء، ولولا أنّ موتك كان اختياراً منك لَجُدْنا لموتك بالنفوس، ولولا أنك نهيت عن البُكاء لأنفدنا عليك ماء الشئون[١٠]، فأمّا ما لا نستطيع نفيَه عنّا فكَمَدٌ

(١) تنوشه: تتناوله. (٢) فى السيرة: صبرا. (٣) صنو: ابن، معرق: أصيل، وفى السيرة: يا خيرضنء كريمة. والضنء: النسل. (٤) من: صفح، والمحنق: المملوء بالغيظ.

(٥) فى السيرة: من أسرت. (٦) فى السيرة، وفى ت: فليتفقن ما ينفق.

(٧) فى ت: بن أبى بكر. (٨) مسجى: مغطى. (٩) سيرة ابن هشام: ٤ — ٣٣٥.

(١٠) الشئون: جمع شأن: مجرى الدموع.

وإدْناف[١] يتحالفان ولا يَبْرَحان ، اللهم فأَبْلغه عنا السلام ؛ اذكرنا يا محمد عند ربّك ، ولنكن من بالك ، فلولا ما خَلَّفْتَ من السكينة لم نَقُمْ لما خَلَّفْتَ من الوحشة ؛ اللهم أبلغ نبيَّك عنا واحفظه فينا . ثم خرج .

قوله رضى الله عنه : « لولا أن موتَك كان اختياراً منك » : إنَّما يريد قولَ النبي صلى الله عليه وسلم : لم يُقبض نبيٌّ حتى يَرَى مقعده من الجنة ثم يُخيَّر . قالت عائشةُ رضى الله عنها : فسمعتُه وقد شخص بصرُه وهو يقول : فى الرفيق الأعلى ! فعلمت أنه خُيِّر ، فقلتُ : لا يختارنا إذَن ، وقلت : هو الذى يحدثنا ، وهو صحيح .

فى يوم وفاة النبى ﷺ وكان أبو بكر لما تُوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أرضه بالسُّنْح[٢] فتواترت إليه الرسلُ ، فأتى وقد ذُهِل الناس ، فكانوا كالخرس ، وتفرقت أحوالُهم ، واضطربت أمورُهم ، فكذَّب بعضُهم بموته ، وصمت آخرون ؛ فما تكلّموا إلا بعد [التغير][٣] ، وخَلَط آخرون فلاثوا[٤] الكلامَ بغير بيَان ، وحق لهم ذلك للرزيّة العظمى ، والمصيبة الكبرى ، التى هى بيضة العُقْر[٥] ، ويتيمةُ الدهر ، ومدى المصائب ، ومنتهى النوائب ؛ فكل مصيبة بعدها جَلَلٌ عندها[٦] ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : لِتُعَزِّ المسلمين فى مصائبهم المصيبةُ بى .

وكان عمر[٧] بن الخطاب رضى الله عنه ممن كذَّب بموته ، وقال : ما مات ، وليرجعنّه الله ، فليقطعنَّ أيدِى المنافقين وأرجلهم ، يتمنون لرسول الله صلى الله عليه وسلم الموتَ ؛ وإنما واعده ربه ، كما واعَدَ موسى وهو يأتيكم .

وأما عثمان رضى الله عنه فكان ممن أُخْرِس ؛ فجعل لا يكلِّم أحداً ، فيُؤْخَذُ بيده ويُجاء به فينقاد .

---

(١) الإدناف : ثقل المرض .　(٢) السنح : موضع قرب المدينة وكان به منزل أبى بكر
(٣) ليست فى ث .　(٤) لاثوا : خلطوا .　(٥) بيضة العقر : مثل للحادث الذى يندر أن يتكرر ، وهى فى الأصل بيضة الدجاجة التى لا تبيض بعدها .　(٦) الجلل هنا : الأمر الحقير .
(٧) سيرة ابن هشام ٤ — ٣٣٤ .

وأما على رضى الله عنه فَلِيطَ به الأرض[١] ، فقعد ولم يَبْرَحِ البيت حتى دخل أبو بكر وهو فى ذلك جَلْد العقل والمقالة[٢] ، فأكب عليه ، وكشف عن وَجْهه ومسَحَه ، وقبَّل جبينه ، وبكى بكاء شديداً ، وقال الكلام الذى قدّمته . ولما خرج إلى الناس وهم فى شديد غمراتهم ، وعظيم سَكَراتهم ، قام فخطب خطبة جُلّها الصلاةُ على النبي صلى الله عليه وسلم قال فيها[٣] : أشهدُ أنْ لا إلهَ إلّا الله وَحْدَهُ لاشريكَ له ، وأشهدُ أنَّ سَيدنا محمداً عبده ورسوله ، وأشهدُ أنَّ الكتابَ كما نَزل ، وأن الدينَ كما شرع ، وأنَّ الحديث كما حدّث ، وأنَّ القول كما قال ، وأن الله هو الحقّ المبين . فى كلام طويل ، ثم قال : أيها الناسُ ؛ مَنْ كان يعبدُ محمداً فإنَّ محمداً قد مات ، ومن كان يعبدُ الله فإن اللهَ حيٌّ لايموت ، وإن الله قد تقدَّم إليكم فى أمره ، فلا تدَعُوه جَزَعاً ، وإن الله قد اختار لنبيه ما عنده على ما عندكم ، وقبضَه إلى ثوابه ، وخلَّف فيكم كتابَه ، وسنةَ نبيِّه ؛ فمن أخذ بهما عرف ، ومن فرق بينهما أنكر ؛ [٤]« يَاأيها الذين آمنُوا كونوا قَوَّامِينَ بالقِسْطِ »[٥] ، ولا يشغلنَّكم الشيطانُ بموتِ نبيكم ، ويفتننَّكم عن دِينكم ؛ فعاجِلُوه بالذى تُعجزونه ، ولا تستنظروه[٦] فيلحقَ بكم .

فلما فرغ من خطبته قال : ياعمر ! بلغنى أنك تقول مامات نبىُّ ! ، أمَا علمت أنه قال فى يوم كذا وكذا ، وفى يوم كذا وكذا : قال الله تبارك وتعالى[٧] : « إنك ميِّتٌ وإنهم ميِّتُون » . فقال عمر : والله لكأنى لم أسمعْ بها فى كتابِ الله قَبْلُ لِمَا نَزل بنا ، أشهد أن الكتابَ كما نَزل ، وأن الحديثَ كما حدّث ، وأنّ الله حيٌّ لايموت ، وإنا لله وإنّا إليه راجعون ! ثم جلس إلى جنب أبى بكر رحمه الله .

قالت عائشة[٨] رضوان الله عليها : لما قُبِض رسول الله صلى الله عليه وسلم نَجَم النّفاق[٩] ، وارتدّت العرب ، وكان المسلمون كالغنم الشارِدَة ، فى الليلة الماطرة ،

---

(١) هكذا فى ط ، ولبط به : صرع وسقط إلى الأرض ، كما فى النهاية ، وفى ت : ولبط .
(٢) جلد : ثابت . (٣) سيرة ابن هشام ٤—٣٣٥ (٤) النساء : ١٣٥
(٥) القسط : العدل . (٦) فى ت : فعاجلوه بالذى تعجزونه ، ولا تستبطئوه .
(٧) الزمر : ٣٠ (٨) سيرة ابن هشام ٤—٣٤٥ (٩) نجم : ظهر .

فحمل أبي مالو حملته الجبال لهاضها[1] ؛ فوالله إن اختلفوا في مُعظمٍ إلّا ذهب ... ورشده ، وغنائه ، وكنتُ إذا نظرتُ إلى عمر علمتُ أنه إنما خُلِقَ للإسلام ، ... والله أحْوَذيًا نسيجَ وَحْدِهِ[2] ، قد أعدّ للأمور أقرانها .

وحدث أبو بكر بن دريد عن عبد الأول بن مزيد ، قال: حدثني [رجل][3] في مجلس يزيد بن هارون بالبصرة ، قال : لما تُوفِّيَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم دُفِن ورجع المهاجرون والأنصار إلى رحالهم[4] ، ورجعت فاطمة إلى بيتها ، فاجتمع إليها نساؤها ، فقالت[5] :

اغبرّ آفاقُ السماء وكُوِّرَتْ ⁂ شمسُ النهار وأظلمَ العصرانِ
فالأرضُ من بعد النبي كئيبةٌ ⁂ أسفاً عليه كثيرةُ الرجفان[6]
فليبكهِ شرقُ البلادِ وغربُها ⁂ وليبكه مُضَرٌ وكل يمانِي
وليبكه الطُّور المعظَّم جَوُّهُ[7] ⁂ والبيتُ ذو الأستار والأركانِ
ياخاتمَ الرسلِ المبارك ضوءُه[8] ⁂ صلّى عليك منزّلُ الفرقانِ

رجع إلى الكلام أبي بكر وكان أبو بكر رضيَ الله عنه إذا أُثني عليـــه يقول : اللهم أنت أعْلَمُ بي من نفسي ، وأنا أعلم بنفسي منهم ، فاجعلني خيرا مما يَحْسَبُون ، واغفر لي برحمتك مالا يعلمون ، ولا تؤاخِذْني بما يقولون .

وقال رحمه الله في بعض خطبه[9] : إنكم في مَهَل ، من ورائه أجل ، فبادروا في مَهَل آجالكم ، قبل أن تنقطع آمالكم ، فتردكم إلى سوء أعمالكم .

وذكر أبو بكر الملوك فقال : إن الملك إذا مَلَكَ زَهّده الله في ماله ، ورغّبه في

---

(١) هاضها : دكها وحطمها . (٢) أحوذي : حاذق قاهر للأمور .
(٣) من ت . (٤) في ت : منازلهم . (٥) شاعرات العرب : ١٦٥ .
... ت : كثيرة الأحزان . (٧) في الشاعرات : الطور الأشم وجوه . وفي ت : الطود المظلم جوده .
(٨) في الشاعرات ، وفي ت : ضوؤه . (٩) البيان والتبيين : ٢–٣١

مالِ غيره[١]، وأُشْرِبَ قلبُه الإشفاق؛ فهو يسخط على الكثير ، ويَحْسُد على القليل، جَذِل الظاهر ، حَزِين الباطن ، حتى إذا وَجَبَتْ نفْسُه ، ونَضَبَ عمره ، وضَحا ظلُّه[٢] حاسبه الله فأشدَّ حسابَه وأقلَّ عفوه[٣] .

وذكر أنه وصل إلى أبي بكر مالٌ من البَحْرَيْن ، فساوى فيه بين الناس، فغضبت الأنصار ، وقالوا له: فضِّلْنا ! فقال أبو بكر : صدقتم ، إن أردتُم أن أفضِّلكم صار ما عَمِلتموه للدُّنيا ، وإن صَبَرْتم كان ذلك لِلهِ عزَّ وجل ! فقالوا : والله ما عملنا إلّا لله تعالى ، وانصرفوا ؛ فرَقِيَ أبو بكر المنبر ، فحمِدَ اللهَ وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : يا معشر الأنصار؛ إن شئتُم أن تقولوا إنَّا آويناكم في ظِلَالِنا، وشَاطَرْناكُم في أموالنا ، ونصرناكم بأنفسنا لقلتم ، وإنَّ لكم من الفضل ما لا يُحْصِيه العدد ، وإن طال به الأمد ، فنحن وأنتم كما قال طُفيل الغنوى[٤] :

جزى الله عنَّا جعفراً حين أزْلقَتْ ... بنا نَعْلُنا في الواطئين فزَلَّتِ[٥]
أَبَوْا أن يمَلُّونا ولو أنَّ أمَّنا ... تُلَاقِي الذى يَلْقَوْنَ منا لملَّتِ
هُمُ أسكنونا في ظلالِ بيوتهم ... ظلالُ بيوتٍ أدفأتْ وأظَلَّتِ

فِقَر من كلامه رضى الله عنه

صنائعُ المعرف تقِي مصارعَ السوء. الموت أهونُ مما بعده، وأشدّ مما قبله. ليست مع العزاء مصيبة ، ولا مع الجزع فائدة . ثلاث من كن فيه كنَّ عليه : البَغْي ، والنكث ، والمَكر . إنّ الله قرَن وعده بوعيده ؛ ليكون العبدُ راغباً وراهبا .

ولما تُوفى رضى الله عنه وقفت عائشة على قبره ، فقالت[٦] : نضَّر الله وجْهَكَ رناه عائشة

(١) في العقد (٤ — ٦٠) : ورغبه فيما في يدى غيره . (٢) وجبت نفسه : فاضت روحه. وضحا ظله : مات . (٣) ق ط : وأقل الأنصار عنه عقوبة .
(٤) المختار من شعر بشار : ١٩٩ . (٥) زلت : سقطت ، وفى ت: أزلقت .
(٦) العقد الفريد : ٢ — ٧ ، نهاية الأرب : ٥ — ١٦٧ .

يا أبت ، وشكر لك صالحَ سَعْيِك ؛ فلقد كنتَ للدنيا مُذِلًّا بإدْبارك عنها ؛ وللآخرة مُعِزًّا بإقبالك عليها ؛ ولئن كان أجلَّ الحوادث بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رُزْؤُك ، وأعظمَ المصائب بعدَه فقدُك ؛ إن كتاب الله لَيَعِد بحُسْنِ الصبر عنك حُسْنَ العِوَض منك ، وأنا أستنجزُ موعودَ الله تعالى بالصبر فيك ، وأستقضيه بالاستغفار لك ، أما لئن كانوا قاموا بأمر الدنيا فلقد قمتَ بأمر الدين لما وَهَى شَعْبُه[1] ، وتفاقم صَدْعه[2] ، ورجفت جوانبه[3] ؛ فعليك سلام الله توديعَ غير قالية لحياتك ، ولا زارية على القضاء فيك[4] .

وقال أبو بكر لبلال لما قُتل أمية بن خلف وقد كان يسومُه سوء العذاب بمكة فيخرجه إلى الرَّمْضاء[5] فيلق عليه الصخرةَ العظيمةَ ليفارق دين الإسلام فعصمه الله من ذلك :

هَنِيئًا زادك الرحمن خيراً	فقـــد أدركت ثارك يا بلالُ
فلا نِكْسًا وُجِدْتَ ولا جَبانا	غداة تَنُوشُكَ الأَسَل الطوالُ[6]
إذا هاب الرجالُ ثبتَّ حتى	تخالِطَ أنتَ ما هابَ الرِّجالُ
على مَضَضِ الكُلوم بمشرَفيٍّ	جَلاَ أطرافَ متْنَيه الصِّقال

[من كلام عمر]

وكتب عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه إلى ابنه عبد الله : أمّا بعد ، فإنه من اتّقى الله وَقَاه ، ومن توكّل عليه كفَاه ، ومن شكر له زَادَه ، ومن أقرَضه جزَاه . فاجْعَل التقوى عِمَادَ قلبك ، وجلاءَ بصرك ؛ فإنه لا عملَ لمن لا نيّةَ له ، ولا أجْرَ لمن لا خشيةَ له ، ولا جديدَ لمن لا خَلَق له[7] .

---

(١) وهى شعبه : تفرق شمله . (٢) تفاقم صدعه : اتسع كسره .
(٣) رجفت : اضطربت . (٤) زارية : عائبة . (٥) الرمضاء : هى الحجارة التى اشتد عليها وقع الشمس فحميت . (٦) النكس : الضعيف ، والأسل : الرماح .
(٧) الخلق : القديم البالى .

ودخل عديّ بن حاتم على عمر ، فسلّم وعمرُ مشغول ؛ فقال : ياأمير المؤمنين ! أنا عديّ بن حاتم ! فقال : ما أعرَفَني بك ! آمنتَ إذ كفروا ، ووفيتَ إذ غدَروا ، وعرفتَ إذ أنكروا ، وأقبلْتَ إذ أدْبَرُوا !

وقال رجل لعمر : مَن السيد ؟ قال : الجواد حين يُسأل ، الحليم حين يُستَجْهَل ، الكريم المجالسةِ ، الحسَن الخُلُق لِمَنْ جاوَره .

وقال رَضِيَ اللهُ عنهُ : ما كانتِ الدنيا همَّ رَجلٍ قطُّ إلا لزم قلبَه أربعُ خصال : فقرٌ لا يُدْرَكُ غناه ، وهمٌّ لا ينقضي مدَاه ، وشُغْلٌ لا يَنْفَدُ أولاه[1] ، وأمل لا يبلغُ مُنْتَهاه .

فصول قصار من كلامه رضى الله عنه

من كتم سِرَّه كان الخِيارُ في يده . أشقى الوُلَاة من شقيَتْ به رعيَّته . أعقلُ الناس أعذرُهم للناس . ماالخمر صِرْفًا[2] بأذهبَ لعقولِ الرجالِ من الطمع . لا يكن حُبُّك كَلَفًا ، ولا بُغْضُك تلَفًا . مُرْ ذَوِي القرابات أن يتزَاورُوا ، ولا يتجاوَرُوا . قلّما أدْبر شيء فأقبل . أشكو إلى الله ضَعْفَ الأمين، وخيانةَ القوىّ. تكثَّروا من العِيَال فإنكم لا تدرون بمن تُرْزَقون . لو أنّ الشكر والصبر بَعيران ما باليتُ أيهّما أركب. من لا يعرفُ الشرّ كان أجدر أن يقع فيه .

وقال معاوية بن أبي سفيان لصعصعة بن صُوحان : صِفْ لي عُمَرَ بن الخطاب ؛ فقال : كان عالمًا برعيّته ، عادلًا في قضيَّته ، عاريًا من الكِبْر ، قبولًا للعُذْر ، سهل الحِجَاب ، مَصُونَ الباب ، متحرّيًا للصواب ، رفيقًا بالضعيف، غير مُحَابٍ للقريب، ولا جافٍ للغريب[3] .

---

(١) في ط : أوله . (٢) الخمر الصرف : الخالصة .
(٣) في ت : غير عاب ولا عاف .

ورُوى أن عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه حجَّ فلما كان بضَجْنان(١) قال : لا إله إلا الله العلىّ العظيم ، المعطى مَنْ شاء ما شاء ، كنتُ فى هذا الوادى فى مِدْرَعة صوف أرْعَى إبلَ الخطّاب ، وكان فظًّا يُتْعِبنى إذا عملت ، ويَضربنى إذا قصّرت . وقد أمسيتُ الليلةَ ليس بينى وبين الله أحد ، ثم تمثل(٢) :

لا شىء مما ترى تَبقَى بشاشتُهُ ... يبقى الإله ويُودِى(٣) المالُ والولدُ
لم تُغن عن هُرْمُزٍ(٤) يوماً خزائنُهُ ... والخلدَ قد حاولتْ عادٌ فما خلَدُوا
ولا سليمان إذْ تجرى الرياحُ لهُ ... والجنُّ والإنسُ فيما بينها تَرِدُ
أين الملوكُ التى كانت نوافلُها ... من كل صَوْبٍ إليها وافدٌ يَفِدُ
حوضٌ هنالك مورودٌ بلا كدرٍ(٥) ... لابدَّ من وِرْدِه يوماً كما وَرَدُوا

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه يوم فتح مكة :

ألم تر أنَّ اللهَ أظهرَ دِينَهُ ... على كل دينٍ قبل ذلك حائدِ(٦)
وأمكنه(٧) من أهل مكة بعد ما ... تداعَوْا إلى أمرٍ من الغىِّ فاسدِ
غداةَ أجالَ الخيلَ فى عَرَصاتها ... مسوَّمةً بين الزبير وخالد
فأمسى رسولُ الله قد عزَّ نَصْرُهُ ... وأمسَى عِداه مِنْ قتيل وشاردِ

يريد الزبير بن العوام حوارىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وخالد بن الوليد سيف الله تعالى فى الأرض .

ولما قتله أبو لُؤْلُؤة غلام المغيرة بن شُعْبة، قالت عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل زوجته ترثيه(٨) :

عَيْنُ جُودِى بِعَبْرَةٍ ونَحِيبِ ... لا تَمَلِّى على الأمين النَّجيبِ

---

(١) ضجنان : جبيل بناحية مكة . (٢) العمدة : ١ — ٢٠ . (٣) فى العمدة : ويفنى .
(٤) هرمز : الكبير من ملوك العجم . (٥) فى ط ، ق : بلا كذب .
(٦) حائد : مائل ، وفى ت : جاحد . (٧) فى ط ، ق : وأسلمه .
(٨) شاعرات العرب : ١٦٨ .

فجعّتني المنونُ بالفارسِ المُعْـ ... لَمِ يوم الهيـــاج والتثويبِ[1]
عِصْمَةُ الناسِ والمُعِينُ على الدّهـ ... ـرِ وغيثُ المحروم والمحروبِ[2]
قل لأهلِ الضراء والبؤس موتوا ... قد سقته المَنُونُ كأسَ شَعُوبِ[3]

وقالت أيضاً ترثيه[4] :

وفجّعني فَيْرُوزُ لادرَّ دَرُّهُ[5] ... بأبيضَ تالٍ[6] للكتابِ مُنيبِ
رءوف على الأدنى غليظ على العِدَا ... أخي ثقـــة فى النائبات نجيب
متى مايَقُلْ لايكذبِ القولَ فِعْلُهُ ... سريع إلى الخيرات غير قَطوبِ

وعاتكة هذه هى أخت سعيد بن زيد أحد العشرة الذين شهدَ لهم النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة ، وكانت تحت عبد الله بن أبي بكر ، فأصابه سَهْمٌ فى غَزْوَة الطائف فمات منه، فتزوّجها عمر رضي الله عنه فقُتِل عنها، فتزوجها الزُّبَيْر بن العوّام فقُتِل عنها؛ فكان عليٌّ رضى الله عنه يقول : من أحبَّ الشهادة الحاضرة فليتزوّج بعاتكة !

ومن كلام عثمان بن عفان رضى الله عنه

مايَزَعُ اللهُ بالسلطانِ أكثرُ مما يَزَعُ بالقرآن[7]. سيجعلُ اللهُ بعد عُسْرٍ يُسرا، وبعـــد عِيٍّ بيانا ؛ وأنتم إلى إمام فعّال ، أحوجُ منكم إلى إمام قوّال ، قاله فى أول خلافته وقد صعد المنبر وأُرْتِجَ عليه .

وكتب إلى على رضى الله عنه وهو مَحْصُور[8] : أمّا بعد، فقد بَلَغ السَّيْلُ الزُّبَى، وجاوز الحزام الطُّبْيَيْن[9] ، وطمِع فىّ من كان لايَدْفَع عن نفسه ، ولم يُعجزك

(١) التثويب : الدعاء . (٢) المحروب : المسلوب . (٣) شعوب : هى المنية .
(٤) شاعرات العرب : ١٦٨ . (٥) لا در دره : لا كثر خيره .
(٦) فى ت : قار . (٧) يزع : يكف . (٨) الكامل : ١١ .
(٩) الزبى : جمع زبية وهى الرابيــة لا يعلوها ماء ، وبلوغ السيل الزبى كناية عن اشتداد الأمر . الطبى : بالضم والكسر : حلمات الضرع ، وبلوغ الحزام الطبيين كناية عن الشدة .

كاتم ، ولم يَغلِبْكَ كمُغَلَّب[1] ؛ فأفضِــلْ إلىّ ، معى كنتَ أو علىّ ، على أىّ أمريك أحببت .

فإن كنتُ مأكولًا فكُنْ أنتَ آكِلى[2]   وإلّا فأدرِكْنى ولَمّا أُمزَّقِ

وهــذا البيت للممزّق العبدى ، وبه سمى الممزّق[3] واسمه شأس ؛ وإنما تمثل به عثمان رضى الله عنــه ؛ وحُذّاقُ أهل النظر يدفعون هذا ، ويستشهدون على فساده بأحاديث تناقِضُه ليس هذا موضعها .

قالوا : وكان عثمان رضى الله عنه أتقَى لله أن يَسْعى فى أمره علىّ ، وعلىّ أتقى لله أن يسعى فى أمرِ[4] عثمان ؛ وهذا من قوله عليه السلام : أشقَى الناس مَنْ قتله نبىٌّ أو قتل نبيًّا .

[ومن كلام عثمان رضى الله عنه وأكرم نزله ، وقد تنكر له الناس : أمرُ هؤلاء القوم رعاع غير . تطأطأتُ لهم تطأطأ الدلاء ، وتلددتُ لهم تلدُّدَ المضطر . رأيتهم الحقَّ إخوانا ، وأوحى الباطل لهم شيطانا . أجررت المرسون رسنَه ، وأبلغت الراتع مسماته ، فتفرقوا علىّ فرقًا ثلاثًا ، فصامتٌ صمتُه أنفذُ من صَوْلِ غيره ، وشاهد أعطانى شاهدَه ومنعنى غائبَه ، ومتهافت فى فتنة زُينت فى قلبه ؛ فأنا منهم بين ألسن لداد ، وقلوب شِدّاد ، عذيرى الله منهم ألا ينهى عالم جاهلا ، ولا ينذر حليمٌ سفيهاً ، والله حسبى وحسبُهم يوم لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون .

سئل الحكم بن هشام فقال : كان والله خيار الخيرة ، أمير البررة ، قتيل الفجرة ، منصور النصرة ، مخذول الخذلة ، مقتول القتلة .

ونظير البيت الذى أنشد قول صَخْر الجَعْد :

فإن كنت مأكولا فكن أنت آكلى   فإن منايا القوم أكرمُ من بعض

---

(١) المغلب : الذى يغلب كثيراً . وهو من الأضداد . اللسان — مادة غلب .

(٢) فى اللسان : فكن خير آكل . (٣) اللسان — مادة مزق .

(٤) فى ط ، ق : أمر دم عثمان .

قال المتوكل : أتيت بأسارى فسمعت امرأة منهم تقول :

أمير المؤمنين سما إلينا   سموَّ الليث أخرجه العريف

فإن نسلم فمونُ الله نرجو   وإن نقتل فقاتلنا شريف](١)

وقد ذكر بعض أهل العلم أنه لا يُعرف لعثمان شعر ، وأنشد له بعضهم(٢) :

غِنَى النفسِ يُغْنِي النفسَ حتى يَكُفَّها   وإنْ عَضَّها حتَّى يضرَّ(٣) بها الفقرُ

وما عُسْرةٌ فاصْبِرْ لها إن تتابعتْ   بباقيةٍ إلَّا سيتْبَعُها يُسْرُ

وقول عثمان رضي الله عنه فيما روى : « ولم يغلبك كمغلّب » من قول امرئ القيس(٤) :

فإنكَ لم يَفْخَرْ عليك كفاجر(٥)   ضعيف ولم يغلبك مثل مغلَّبِ

وقال أبو تمام وذكر الخمر(٦) :

وضَعيفةٌ فإذا أصابَتْ فُرْصةً   قَتَلَتْ كَذَلِكَ قُدْرَةُ الضُّعَفاء

ومن كلام علىّ بن أبي طالب قوله رضي الله عنه

لا تَكُنْ ممن يَرْجُو الآخرة بغير عمل ، ويؤخِّرُ التوبةَ لطولِ الأَمَل . ويقولُ فى الدنيا بقول الزاهدين ، ويعملُ فيها بعمل الراغبين ، إنْ أُعْطِيَ منها لم يشبع ؛ وإن مُنِع لم يَقْنَع ، يعجز عن شُكْرِ ما أُوتى ، ويبتغى الزيادةَ فيما بَقِى ، يَنْهى ولا يَنْتَهى ، ويأمرُ بما لا يَأْتى ، يحبُّ الصالحين ولا يعملُ أعمالهم ، ويُبْغِضُ المسيئين وهو منهم ؛ يكره الموتَ لكثرة ذنوبه ، ويقيمُ على ما يكرهُ الموت له ، إن سقم ظَلَّ نادما ، وإن صحَّ أَمِنَ لاهيا ، يُعجَب بنفسه إذا عُوفى ، ويَقْنَطُ إذا ابتلى ، تغلِبُه نفسهُ على ما يظنّ ، ولا يَغلِبُها على ما يستيقن ، ولا يَثِقُ من الرزق بما ضمن له ، ولا يَعْمَل من العمل

---

(١) زيادة من ت .   (٢) العمدة : ١ — ٢١ ، المختار من شعر بشار : ٢١٣ .
(٣) فى ت : يطن .   (٤) ديوانه : ٧٠ ، واللسان — مادة غلب .
(٥) فى الديوان : لم يفخر . . . كفاخر .   (٦) ديوانه : ٣ .

بعارِضٍ عليه، إن استغنى بَطِر وفُتِن ، وإن افتقر قنَط وحَزِن؛ فهو من الذّنب والنعمة موقَرٌ ، يبتغى الزيادةَ ولا يَشكر ، يتكلّف من الناس ما لم يُؤمر ، ويضيع من نفسه ما هو أكثر ، ويُبالغ إذا سأل ، ويقصّر إذا عمل ! يخشى الموتَ ، ولا يبادِر الفَوْتَ، يستكثِر من معصية غيره ما يستقلُّ أكثره من نفسه ؛ ويستكثر من طاعته ما يستقلّه[1] من غيره ؛ فهو على الناس طاعِن ، ولنفسه مُداهن ، اللّغْوُ[2] مع الأغنياء أحَبُّ إليه من الذكر مع الفقراء ، يحكم على غيره لنفسه ، ولا يحكمُ عليها لغيره ، وهو يُطاعُ ويَعصِي ؛ ويستوفِي ولا يُوفى .

وسُئِل رضى الله عنه عن مسألة فدخل مبادراً ، ثم خرج فى حذاء ورِداء ، وهو يتبسّم ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ، إنك كنت إذا سُئِلت عن مسألة كنت فيها كالسّكّة المُحْمَاة[3] ! فقال : إنى كنتُ حاقنا ولا رَأْيَ لحاقن[4] ، ثم أنشأ يقول :

إذا المشكلاتُ تصدّين لى ... كشفتُ حقائقَها بالنَّظَرْ
وإن برقت فى مخيل[5] الصوا ... ب عَمْيَاء لا تجتليها الذكر[6]
مقنعةً بأمور الغيوب ... وضعت عليها صَحيحَ الفِكَرْ
لساناً كشِقْشِقَةِ الأرحبِىِّ ... أو كالحسام اليمانِى الذّكَرْ[7]
وقلباً إذا استنطقته العيون[8] ... أمرَّ عليها بواهى[8] الدرر
ولستُ بإمّعة فى الرّجال ... أسائل عن ذَا وذَا ما الخبر[9]
ولكننى ذَرِب[10] الأصغريْن ... أبيّن مع ما مضى ما غبر

وصف ضرار لعلى

وقال معاوية رضى الله عنه لضِرار الصدائى : يا ضِرار ؛ صِفْ لى عليّا ، فقال[11]

---

(١) ق ت : ما يحقره . (٢) ق ت : اللهو . (٣) السكة : الحديدة .
(٤) الحاقن : هو الذى احتبس بوله . (٥) ق ت : عل .
(٦) ق ت : لا تهتدى بالفكر . (٧) أرحب : بطن من همدان تنسب إليها النجائب الأرحبية . (٨) ق ت : الفنون أبر عليها بواه درر . (٩) الإمعة : الرجل الذى لا خطر له.
(١٠) ق ت : مضرب . وق ق : مدرب . ذرب الأصغرين : حديد القلب واللسان .
(١١) الأمالى : ٢ ـ ١٤٧ .

أعْفِني يا أميرَ المؤمنين . قال : لتصِفَنّهُ ؛ فقال : أما إذ أذنْتَ فلا بدَّ من صفته : كان والله بعيدَ المَدَى ، شديدَ القُوَى ، يقولُ فَصْلا ، ويحكمُ عَدْلا ، يتفجّرُ العلمُ من جوانبه ، وتنطقُ الحكمةُ من نواحيه ، يستوْحِشُ من الدنيا وزَهْرَتِها ، ويستأنس بالليل وظُلْمته ، كان والله غزيرَ الدَّمْعَة ، طويلَ الفِكْرة ؛ يقلِّبُ كفّهُ ، ويخاطب نفسَه ، يُعْجِبُه من اللِّبَاس ما قَصُر ، ومن الطعام ما خَشُن ، وكان فينا كأحدِنا ، يُجيبُنا إذا سألناه ، ويُنْبِئُنا إذا استَنْبأْنَاه ، ونحن مع تَقْرِيبه إيّانا وقُرْبه منا لا نكادُ نكلِّمه لهيبته ، ولا نَبْتَدِئه لعظمته ، يعظِّمُ أهلَ الدِّين ، ويحبُّ المساكينَ ، لا يَطْمَعُ القويُّ في باطِلِه ، ولا يَيْأَسُ الضعيفُ من عدلِه . وأشهدُ لقد رأيْتُه في بعضِ مواقفه ، وقد أرخَى الليلُ سُدُوله ، وغارت نجُومُه ، وقد مَثَل في مِحْرَابه ، قابضاً على لحيته ، يتَمَلْمَلُ تململَ[1] السليم ، ويبكي بُكاء الحزين ، ويقول : يادُنْيا ؛ إليكِ عَنّي ! غُرّي غَيْرِي ! ألي تعرّضْتِ ، أم إليّ تشوّقت ، هيهات ! قد بَايَنْتُك ثلاثاً لا رَجْعَة لي عليك[2] ؛ فعُمْرُك قصير ، وخَطَرُك حَقِير ، وخَطْبُك يسير ؛ آهٍ من قِلّةِ الزاد ، وبُعْدِ السّفَرِ ووَحْشَةِ الطريق !

فبكى معاوية حتى أخضَلَت دموعُه لحيتَه ، وقال : رحم الله أبا الحسن فلقد كان كذلك ، فكيف حُزْنُكَ عليه يا ضِرَار ؟ قال : حُزْنُ من ذُبِح وَاحِدُها في حِجْرِها !

وقال عليّ رضوان الله عليه : رَحِمَ اللهُ عبداً سَمِع فوَعَى ، ودُعِي إلى الرشاد فدَنا ، وأخذ بحُجْزَةِ هادٍ فنجا[3] ، وراقب ربَّه ، وخاف ذَنْبَه ، وقدّم خالصاً ، وعَمِل صالحا ، واكتسب مَذْخُوراً ، واجتنب محْذُوراً ، ورَمى غَرَضاً[4] ، وكابر هَوَاه ، وكذّب مُنَاه ، وحذِر أجَلا ، ودَأَب عَمَلا ، وجعل الصبرَ رغبةَ حياته ، والتُّقَى عُدّةَ وفاته ، يُظْهِرُ دون ما يَكْتُم ، ويكتفي بأقلّ[5] مما يعلم ، لزم الطريقةَ الغرّاء ، والمحجّةَ البيضاء ، واغتنم المَهَل ، وبادَرَ الأَجَل ، وتزوّدَ من العمل .

(١) السليم : الملدوغ ، سمي بذلك تفاؤلا . (٢) في الأمالي : لا رجعة فيها .
(٣) أخذ بحجزة فلان : استظهر به واستعان . (٤) في ت : وذم عرضا .
(٥) في ت : عاقل .

ولما رجع رضى الله عنه من صِفّين فدخل أوائل الكوفة إذا قَبْرٌ ، فقال[١] : قَبْرُ مَنْ هَذا ؟ فقيل : خَبّاب بن الأرَتّ ، فوقف عليه وقال : رحم الله خَبّابا ! أسلم رَاغِبا ، وهاجر طَائِعا ، وعاش مُجاهداً ، وابتُلى فى جسمه أحوالا ، ولن يضيع الله أجْرَ مَنْ أحسن عملا .

ومضى فإذا هو بقبور ، فوقف عليها وقال: السلامُ عليكم أهلَ الديار المُوحِشة، والمحالّ المُقْفِرة ، أنتم لنا سَلَف ، ونحن لكم تَبَع ، وبكم — عما قليل — لاحِقون ؛ اللهم اغْفِرْ لنا ولهم ، وتجاوَزْ عنا وعنهم بِعَفْوِك ! طُوبَى لمن ذكر المَعاد ، وعَمِل للحساب ، وقَنِع بالكَفَاف . ثم التفت رضى الله عنه إلى أصحابه فقال : أما إنهم لو تكلّموا لقالوا: وجدنا خيرَ الزّادِ التّقْوَى .

وذمّ رجلٌ الدنيا بحَضْرَةِ على رضى الله عنه فقال[٢] : دارُ صِدْقٍ لمن صدقها ، ودارُ نَجَاةٍ لمن فهم عنها ، ودارُ غِنى لمن تزوّد منها ، مَهْبط وَحْىِ الله ، ومُصلّى ملائكته ، ومَسْجِد أنبيائه ، ومَتْجَر أوليائه ، رَبِحُوا فيها الرحمة، واكتسبوا فيها الجنّة ، فمن ذا يذمّها ، وقد آذَنَتْ بِبَيْنِها ، ونادت بفراقها ، وذكرت بسرورها السرور ، وببلائها البلاء ، ترغيباً وترهيباً ؛ فيأيّها الذامّ لها ، المعلّل نفسه بغرورها ، متى خدعَتْكَ الدنيا ؟ أم بماذا استَذَمّتْ إليك[٣] ؟ أبِمَصْرَع آبائك فى البِلى ؟ أم بِمَضْجَع أمهاتك فى الثّرى ؟ كم مرّضت بكفّيك ، وكم عللت[٤] بيديك ، تَطْلُب له الشفاء ، وتستوصف الأطباء ، غَدَاة لا يَنْفَعُه بكاؤك ، ولا يُغْنى دواؤك .

---

(١) أيام العرب فى الإسلام : ٣٩٦ .   (٢) البيان والتبيين : ٢ — ١٠٢ .

(٣) فى ط ، ٤ : استذمت .   (٤) فى ت : تعللت . . تطلب له الدواء .

فِقر من كلامه رضى الله عنه

[البشاشة فخّ المودة . والصبر قبْرُ المغبون . والغالبُ بالظلم مغلوب . والحجَر المغصوب بالدار رهن بخرابها . وما ظفر من ظفرت به الأيام . فسالِمْ تَسْلَم][1] . رأْىُ الشيخ خيرٌ من مَشْهَدِ الغلام[2] . الناس أعداء ما جهلوا . بقية عُمر المؤمن لا ثمن لها ، يدرك بها ما أفات [ويحيى ما أمات][1] .

نقل هذا الكلام بعضُ أهلِ العصر وهو أبو الفتح علىّ بن محمد البستى :

بقيةُ العمرِ عنـــدى ما لها ثَمَن ... وإن غَدَا وهو محبوبٌ[3] من الثمنِ
يستدركُ المرء فيها ما أفات ويحـ ... ـيى ما أمات ويَمْحُو السوءَ بالحسَنِ

الدنيا بالأموال ، والآخرةُ بالأعمال . لا تخافنّ إلا ذنبك، ولا ترجوَنّ إلا ربك. وجِّهُوا آمالَــكم إلى مَنْ تحبه قلوبكم . الناسُ من خَوْف الذل فى الذل . مَنْ أيقَنَ بالخُلْفِ جاد بالعطية . بقيّةُ السيفِ أنْمَى عَدَدًا وأنْجَبُ ولداً — وقد تبينت صِحّة ما قال فى بَنِيه وبنى المهلب — إنّ من السكوت ما هو أبْلَغُ من الجواب[4] .

الصبرُ مَطِيّةٌ لا تَــكْبُو ، وسَيْفٌ لا يَنْبُو . خَيْرُ المالِ ما أغناك ، وخيرٌ منه ما كفاك . وخير إخوانك مَنْ وَاساك ، وخيرٌ منه من كفاك شره .

وقال بعضُ أهل العصر ما يشاكل هذا وهو أبو الحسن محمد بن لنكك البصرى:

عَدِمْنا فى زمانـنــا ... عَنْ حَدِيثِ المــكارمِ
مَنْ كفى الناسَ شَرَّهُ ... فهو فى جُودِ حاتم

(١) زيادة من ت . (٢) مشهد الغلام : ما يشهده ويراه رأى العين .
(٣) فى ت : غير محبوب . (٤) بعده فى ت :
وقال أبو العباس الناشىء :

إنى ليهجرنى الصديق تجنبا ... فأريه أن لهجره أسبابا
وأخاف إن عاتبته أغريته ... فأرى له ترك العتاب عتابا
وإذا دهيت بجاهل متجاهل ... يدع الأمور من المحال صوابا
أوليته منى السكوت تفهما ... كان السكوت عن الجواب جوابا

أبو الطيب[1] :

إنَّا لفي زَمَنٍ تَرْكُ القَبيحِ بهِ من أكثرِ الناسِ إحسانٌ وإجمالُ

إذا قدرت على عدوّك فاجْعَلْ العفوَ عنه شكراً للقُدْرَة[2] عليه . قيمةُ كلِّ امرىء ما يُحْسِن .

ذكر أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ هذه الكلمة في كتاب البيان ، فقال : فلو لم نَقِفْ من هذا الكتاب إلّا على هذه الكلمة لوجدناها شافية كافية ، ومُجْزِيَة مُغْنِيَة ؛ بل لوجدناها فاضلة عن الكفاية ، غير مقصِّرة عن الغاية ؛ وأفضلُ الكلامِ ما كان قليلُه يُغْنيك عن كثيره ، ومعناه ظاهراً في لفظِه ، وكأنّ الله قد ألبسه من ثيابِ الجلالة ، وغشّاه من نُورِ الحكمة ، على حَسَبِ نِيَّةِ صاحبه ، وتقوى قائله ؛ فإذا كان المعنى شريفاً ، واللفظ بليغاً ، وكان صحيحَ الطبع ، بعيداً من الاستكراه ، منزّهاً عن الاختلال ، مَصُوناً عن التكلّف ـ صَنَع في القلوب صَنِيعَ الغَيْثِ في التُّرْبَةِ الكريمة ، ومتى فُصِّلَت الكلمةُ على هذه الشريطة ، ونَفَذَت من قائلها على هذه الصِّفة ، أَصْحَبَها الله عزّ وجل من التوفيق ، ومنَحَها من التَّأْييد ، مالا يمتنعُ من تعظيمها به صدورُ الجبابرة ، ولا يذهل[3] عن فَهْمِها معه عقولُ الجهلة .

ومن دُعَائِه رضى الله عنه فى حروبه

اللهم أنتَ أرْضَى للرضا ، وأسْخَط للسُّخط ، وأقدر على أن تغيّر ما كرهت ، وأعلم بما تقدر ، لا تُغْلَب على باطل ، ولا تعجز عن حَقّ ، وما أنت بغافل عما يعمَلُ الظالمون .

---

(١) ديوانه : ٣ـ٢٨٧ . (٢) فى ت : شكر القدرة .

(٣) فى ت : ولا يذهب .

وقال على رضى الله عنه(١) :

لِمَنْ رايةٌ سَوْدَاءُ يَخْفِقُ ظلُّها ··· إذا قيـل قدِّمْها حُضَيْنُ تقدَّما
فيوردها فى الصَّفِّ حتى تردها ··· حياضُ المنـايا تقطرُ الموتَ والدَّمَا
جزى الله قوماً قاتلوا فى لقائهم ··· لدى الروعِ قوماً ما أعزَّ وأكْرَمَا
وأطيب أخْبـاراً وأفضلَ شيمةً ··· إذا كان أصواتُ الرجال تَغَمْغُمَا(٢)

حُضين الذى ذكره هو أبو ساسان الحُضَيْن بن المنذر بن الحارث بن وَعْلة(٣) الرقاشى ، وكان صاحبَ رايَتِه يوم صفّين .

ويروى عنه أنه قال بعد وفاة فاطمة رضى الله عنها :

أرَى عِلَلَ الدنيا علىَّ كثيرةً ··· وصاحبها حتى المماتِ عليلُ
لكلِّ اجتماعٍ من خليلين فُرْقةٌ ··· وإنَّ الذى(٤) دُونَ المماتِ قليل
وإنَّ افتقادى فاطماً بعد أحدٍ(٥) ··· دليـلٌ على ألا يدومَ خَليلُ

ولما قتل عمرو بن عبد ودّ سقط فانكشفتْ عَوْرَتُه ، فتنحّى عنه وقال :

آلى ابنُ عبد ـ حين شَدَّ ـ أليّةً ··· وحلفت فاستمعوا من الكذّابِ
ألا يفرَّ ولا يهلل فالتقى ··· أسَدَان يَضْطَرِبان كلَّ ضراب
اليـوم يمنعنى الفرارَ حفيظتى ··· ومُصَمِّمٌ(٦) فى الرَّأسِ ليس بنَابِ
أعرضت حـين رأيتُه متقطِّراً ··· كالجذع بين دَكَادكٍ ورَوَابى(٧)
وعففتُ عن أثوابه ولو اننى ··· كنت المقطَّرَ بَزَّنِى أثوابى(٨)
نصر الحجَارة من سفاهة رأيهِ ··· ونَصَرْتُ دينَ محمـد بصواب
لاتحسبُنَّ اللهَ خاذلَ دينـهِ ··· ونَبِيه يامعشر الأحزاب

فى أبيات غير هذه ، وبعض الرواة يَنْفِيها عن على رضى الله عنه .

---

(١) العمدة : ١ ـ ٢١ . (٢) التغمغم : الصوت عند القتال .
(٣) فى ت : رعلة . (٤) فى ت : وكل الذى . (٥) فى ت : واحداً بعد واحد .
(٦) المصمم : السيف لا ينبو . (٧) متقطر : صريع ، والدكادك : جمع دكداك ، وهو الرمل المتلبد بالأرض . (٨) بز : سلب .

وعمرو هــذا هو ابن عبد وُدّ بن نصر بن مالك بن حِسْل[١] بن عامر بن لؤى ، وكان قد جَزَع الذاد[٢] ، وهو موضع حفر فيــه الخندق يوم الأحزاب ، وفى ذلك يقول الشاعر :

عَمْرو بن ودّ[٣] كان أولَ فارس — جَزَعَ المذاد وكان فارسَ يَلْيَلِ[٤]

ولما صار مع المسلمين فى الخَنْدَق دعا البراز وقال :

ولقد بَحِحْتُ من النداءِ — بجمعهم هل من مُبارِزْ
ووقفت إذ نَكَل الشجاعُ — بموقفِ البَطَلِ المُنَاجِزْ[٥]
إنى كذلك لم أزَلْ — متسرِّعاً نحو الهزَاهِزْ[٦]
إنَّ السماحةَ والشجاعةَ — فى الفتى خـيرُ الغرائزْ

فبرز علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فقال : ياعمرو ! إنك عاهدتَ الله لقريش ألّا يدعوَك أحدٌ إلى خلّتين إلّا أخذت إحداهما . فقال : أجل ! قال : فإنى أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام. قال : لاحاجَةَ لى بذلك. قال: فإنى أدعوك إلى المبارزة. فقال : يابن أخى ، ماأحِبُّ أنْ أقتُلَك! قالَ على: لكنى واللهِ أُحِبُّ أن أقتلك. فحمى عمرو فاقتحم عن فرسه وعَرْقَبَه[٧] ثم أقبل إلى على :

فتجَاوَلا كغمامتين تكنّفت — مَتْنَيْهما رِيحَا صَبَاً وشَمَالِ
فى موْقفٍ كادت نفوسُ كُماته[٨] — تُبْتَرَ قبْـلَ تَوَرُّدِ الآجالِ

وعلت بينهما غبرة سترتْهُما فلم يَرُع المسلمين إلا التكبير ؛ فعلموا أن علياً قتله :

ولما قُتِلَ عمرو جاءت أخته فقالت: مَنْ قتَلَه ؟ فقيل: على بن أبى طالب. فقالت: كفءٌ كريم ! ثم انصرفت وهى تقول[٩]:

(١) فى ت : حسان . (٢) سيرة ابن هشام : ٣ ــ ٢٩٨ . (٣) فى ابن هشام ومعجم ما استعجم : بن عبد . (٤) فى ط : المزاد ، ويليل : واد ببدر .
(٥) نكل : نكص ، والمناجز : المبادر إلى القتال . (٦) الهزاهز : الشدائد والحروب لأنها تهز الرجال . (٧) عرقبه : قطع عرقوبه . (٨) جمع كمى ، وهو الشجاع .
(٩) شاعرات العرب : ١٢٦ .

لو كان قاتلَ عمرو غيرُ قاتلِهِ ... لكنت أبكى(١) عليه آخرَ الأبَدِ

لكنّ قاتلَه من لا يُعابُ بهِ ... وكان يُدْعَى قديماً بَيْضَةَ الْبَلَدِ

من هاشمٍ فى ذُراها وهى صاعِدةٌ ... إلى السماء تُميتُ الناسَ بالحسَدِ

قومٌ أبَى الله إلا أن يكونَ لهم ... مكارمُ الدّينِ والدُّنيا بلا أمَدِ(٢)

يا أم كلثوم بَكِّيهِ(٣) ولا تدعى ... بكاءَ مُعْوِلةٍ حَرّى على وَلَدِ(٤)

أم كلثوم بنت عمرو بن عبد وُدّ . و « بيضة البلد » تَمَدَّحُ به العربُ وتَذُمُّ(٥) ، فمن مَدَّح به جعله أصلا ، كما أن البيضةَ أصل الطائر ، ومن ذمّ به أراد أنْ لا أصل له . قال الراعى يهجو عدىّ بن الرِّقاعِ العاملى :

يا من توعّدنى(٦) جَهْلًا بكثرتهِ ... متى تهدّدنى بالعزّ والعددِ

أنت امرؤ نال من عِرْضِى وعِزّتُه ... كمزةِ العير يَرْعَى تَلْعَةَ الأسَدِ(٧)

لو كنتَ من أحدٍ يُهْجَى هجوتكم ... يابنَ الرِّقاعِ ولكن لستَ من أحدِ(٨)

تأبى قُضَاعة أن ترضى(٩) لكم نسباً ... وابنا نزار فأنتم بَيْضَةُ البلدِ(١٠)

وقال أبو عبيدة : عاملة بن عدى بن الحارث بن مرة بن أدد [بن زياد](١١) بن يَشْجب يُطعن فى نسبه من قحطان ، ويقال هو عاملة بن معاوية بن قاسط(١٢) بن هِنْب ؛ فلذلك قال الراعى هذا . ويقال : إن جندل بن الراعى قالها . وقد قال يحيى ابن أبى حفصة الأموى فى عاملة :

---

(١) فى الشاعرات : لقد بكيتُ . (٢) فى شاعرات العرب : العرب بلا لدد .

(٣) فى ط ، ف : ابكيه . (٤) فى ت : على كبد . (٥) قال فى اللسان : إذا مدح بها فهى التى فيها الفرخ لأن الظليم حينئذ يصونها ، وإذا ذم بها فهى التى قد خرج الفرخ منها ورمى بها الظليم ، فداسها الناس والإبل . (٦) فى ت : يأيها الموعدى . (٧) وفى ت : وغرته كغرة العير يرعى بلفة الأسد . والعير : الحمار ، وتلعة الأسد : الرابية التى يحميها .

(٨) اللسان — مادة بيض . (٩) فى اللسان : لم تعرف . (١٠) أراد أنه لا نسب له .

(١١) زيادة ليست فى ت . (١٢) فى ت : واسط بن أهيب .

ولسنا نُبَالى نَأْى[1] عاملة التى ... أجَدَّ بها من نحو بُصرى انحدارُها
تدافَعَهَا الأحيـاء حتى كأنها ... ثيـابٌ بدا للمشترين عَوَارُها
قذفنا بها لمَّا نأت قَذْفَ حاذف[2] ... بسودِ حصًى خفَّت عليه صِغَارُها

ويشبه قولَ علىّ رضى الله عنه « وعففت عن أثوابه » قولُ عنترة بن شداد العبسى[3] :

هلَّا سألتِ الخيـلَ يابنةَ مالِكٍ ... إن كنتِ جاهلةً بما لم تَعْلَمِى
يخبرك مَنْ شَهِد الوقيعـةَ أننى ... أغشَى الوغَى وأعِفّ عند المَغنم

وقال حبيب بن أوس الطائى[4] :

إنّ الأُسودَ أسودَ الغابِ هِمَّتُها ... يومَ الكريهة فى المَسْلوبِ لا السلَبِ[5]

* * *

منهج القول قد علقت بذيل ما أوْردته ، وألحقت بطرف ما جردته ، من كلام سيد الأولين والآخرين ، ورسول رب العالمين ، صلى الله عليـه وسلم وعلى آله الأخيار الطيبين الطاهرين ، قطعة من كلام الخلفاء الراشدين ، قدمتها أمام كلّ كلام ؛ لتقدمهم على الخلْق ، وأخذهم بقصَبِ السَّبْق[6] ، وهم كما قال بعضُ المتكلّمين — يصف قوما من الزهاد الواعظين : جَلَوْا بكلامهم الأبصار العليلة ، وشحَذُوا بمواعظهم الأذهانَ الكليلة ، ونَبَّهُوا القلوبَ من رَقَدَتِها ، ونَقَلُوها عن سوء عادَاتها ، فشَفَوْا من داء القسوة ، وغَبَاوة الغَفْلَة ، وداووا من العىِّ الفاضح ، ونَهَجُوا لنا الطريقَ الواضح . وآثرتُ أن ألحق بعد ذلك جملةً من سليم كلام سائر الصحابة والتابعين ، رضى الله عنهم أجمعين ، وأدرج فى دَرْج كلامهم ، وأثناء نَثْرهم ونظمهم ، ما التفَّ عليه والتفت إليه ،

---

(١) فى ت : رأى . (٢) فى ت : حاذق . (٣) ديوانه : ١٢٦ .
يوانه : ١٠ . (٥) السلب : الغنيمة . (٦) أخذ قصب السبق كناية عن الفوز .

وتعلّق بأغصانه ، وتشبّثَ بأفنانِه ، كما تقدّم ، وأخرج إلى صفات البلاغات ، وآخُذ بعد ذلك فى نظم عقود الآداب ، ورَقْم برود الألباب .

من كل معنًى يكاد الميْتُ يَفْهَمُـهُ   حُسناً ويَعْبُدُه القِرْطَاسُ والقلمُ

[من كلام الصحابة والتابعين]

قال معاوية[1] بن أبى سفيان رحمه الله : أفْضَلُ ما أعطى الرجلُ العقلُ والحلمُ ؛ فإذا ذُكِّرَ ذكر ، وإذا أساء استغفر ، وإذا وَعَد أنجز . من كلام معاوية

وصف معاويةُ الوليدَ بن عتبة فقال : إنه لبعيد الغَوْر ، ساكن الفور[2] ، وإن العود من لِحَائه[3] ، والولد من آبائه ؛ والله إنه لنبات أصل لا يخلف ، ونجل فحل لا يقرف .

ومرض معاوية مرضاً شديداً فأرجف به مَصقلة بن هُبيرة ، وساعده قومٌ على ذلك ، ثم تماثل وهم فى إرجافهم[4] ؛ فحمل زياد مَصقلة إلى معاوية وكتب إليه[5] : « إنه يجمَعُ مُرّاقاً من مُرّاق العِراق[6] فيُرْجفُون بأمير المؤمنين . وقد حملتُه إليه ليَرَى رأيه فيه » .

فقدم مَصْقَلة وجلس معاويةُ للناس ؛ فلما دخل عليه قال : ادْنُ مني ! فدنا منه ، فأخذَهُ بيده ، فجذَبه فسقط مَصْقَلة ؛ فقال معاوية :

أبقى الحوادثُ من خليـ   ـلك مثلَ جَنْدَلة المَرَاجِمْ

---

(١) فى ت : عبد الله بن أبى سفيان . (٢) بعد الغور كناية عن أصالة الرأى . الفور : الغضب . وسكون الفور : كناية عن الحلم . (٣) اللحاء : القشر .
(٤) الأرجاف : الخوض فى أخبار الفتن . (٥) الأمالى : ٢ — ٣١١ ، اللآلى : ٩٠٩ .
(٦) مراق : جمع مارق ، وهو الخارج على الجماعة .

صُلباً إذا خارَ الرجا لُ أبَلَّ ممتنِعَ الشكائم[١]
قد رامنى الأعداء قبْـ لك فامتنعْتُ عن الظالم

قال مَصْقَلة : يا أميرَ المؤمنين ؛ قد أبقى الله منكَ ماهو أعظمُ من ذلك [بطشا][٢] وحِلماً [راجحا][٢]، وكَلأً ومرعًى لأوليائك ، وسمًّا ناقعاً لأعدائك ؛ كانت الجاهلية فكان أبوك سيّدَ المشركين ، وأصبح الناسُ مسلمين وأنت أميرُ المؤمنين . وقام .

فوصله معاويةُ ، وأذن له فى الانصراف إلى الكوفة . فقيل له : كيف تركْتَ معاويةَ ؟ فقال : زعمتم أنه لما به[٣] ، والله لقد غمزنى غمزة كاد يَحْطِمُنى ، وجذبنى جَذْبَة كاد يكسر عُضْواً منى !

ودخل الأحنفُ بن قيس على معاوية وافداً لأهلِ البصرة ، ودخل معه النَّمِر ابن قُطْبة ، وعلى النمر عباءة قَطَوَانيَّة[٤] ، وعلى الأحنف مِدْرَعَةُ[٥] صوف وشَمْلة ، فلما مَثَلَا بين يدى معاوية اقتحمَتْهُمَا عينُه ؛ فقال النمر : يا أميرَ المؤمنين ! إنَّ العباءة لا تكلِّمك ، وإنما[٦] يكلمك مَنْ فيها ! فأومأ إليه فجلس ، ثم أقبل على الأحنف فقال : ثم مَهْ ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، أهلُ البصرة عددٌ يسير ، وعَظْمٌ كسير ، مع تتابع من المُحُول[٧] ، واتصالٍ من الذُّحول[٨] ، فالمُكْثِر فيها قد أطرق ، والمُقِلُّ قد أمْلَق[٩] ، وبلغ منه المُخْتَنَق[١٠] . فإنْ رأى أميرُ المؤمنين أن ينعشَ الفقيرَ ، ويَجْبُرَ الكسير ، ويسهّل العسير ، ويَصْفَح عن الذُّحول ، ويُداوِى المُحُول ، ويأمر بالعَطَاء ؛ ليكشف البَلاء ، ويُزِيل اللَّأْواء[١١] . وإنَّ السيدَ من يعمّ ولا يَخُصّ ،

(١) الأبل : الجرئ الغالب فى كل شىء ، وقيل : هو الشديد الخصومة .
(٢) الزيادة من الأمالى . (٣) فى الأمالى : أنه كبر وضعف . (٤) نسبة إلى قطوان ، وهو موضع بالكوفة . (٥) المدرعة : ثوب ولا يكون إلا من صوف . (٦) فى ط : وإن .
(٧) فى ت : النحول . (٨) الذحول : جمع ذحل وهو الثأر . (٩) أملق : افتقر .
(١٠) فى ت : وبلغ منه الضر المخنق . (١١) اللأواء : الشدة .

ومَنْ يدعو الجَفَلى ، ولا يَدْعُو النَّقَرى[١] ، إنْ أحْسِن إليه شكر ، وإن أُسِيء إليه غَفر ، ثم يكونُ وراء ذلك لرعيته عِمَاداً يرفع عنها المُلِمَّاتِ ، ويَكْشِف عنهم المعضلات .

فقال له معاوية : ها هنا يا أبا بَحْر ! ثم تلا[٢] : (ولَتَعْرِفَنَّهُم فى لَحْنِ القَوْل) .

ومن جميل المحاورات ما رواه المدائنى قال : وفَدَ أهْلُ العِرَاق على معاوية رحمه الله ، ومعهم زيادٌ ، وفيهم الأحنف ، فقال زياد : يا أميرَ المؤمنين ؛ أشْخَصتْ إليك أقْوَاماً الرغبةُ ، وأقعدَ عنك آخرين العُذْرُ ، فقد جعل الله تعالى فى سعة فضلك ما يُجْبَرُ به المتخلف ، ويُكَافأ به الشاخص . فقال معاوية : مرحباً بكم يا معشرَ العرب ، أما والله لئن فرَّقَتْ بينكم الدعوة لقد جمعتكم الرَّحِم ؛ إن الله اختاركم من الناس ليختارَنا منكم ، ثم حفظ عليكم نَسَبَكم بأن تخيَّر لكم بلاداً تُجتازعليها المنازل ، حتى صفاً كم من الأمم كما تصفَّى الفضةُ البيضاء من خَبَثِها ؛ فصُونوا أخلاقكم ، ولا تُدَنِّسُوا أنسابَكم وأعراضَكم ؛ فإنَّ الحسَنَ منكم أحْسَنُ لقُرْبكم منه ، والقبيح منكم أقبح لبعدكمْ عنه .

فقال الأحنف : والله يا أمير المؤمنين ، ما تَعْدَم منكم قائلا جزيلا[٣] ، ورأيا أصِيلا ، ووعداً جميلا ؛ وإنَّ أخاك زياداً أتْبَعُ آثارَك فينا ، فنستمتع الله بالأمير والمأمور ، فإنكم كما قال زهير ، فإنه ألقى على المدَّاحين فصول القول[٤] :

وما يكُ من خَيْرٍ أتَوْهُ فإنَّما تَوَارَثَهُ آباءُ آبائِهِم قَبْلُ
وهَلْ يُنْبِتُ الخَطِّىَّ إلّا وَشِيجُهُ وتُغْرَسُ إلّا فى مَنَابِتِها النَّخْلُ[٥]

وهذان البيتان لزهير بن أبى سلمى المزنى فى قصيدة يقول فيها[٦] :

---

(١) الجفلى : الدعوة العامة ، والنقرى : الدعوة الخاصة . (٢) سورة محمد : ٣٠ .
(٣) الجزيل : العاقل الأصيل الرأى . وفى ت : نائلا جزيلا . (٤) ديوانه : ١١٥ ، المختار من شعر بشار ٤٤ . (٥) الخطى : نسبة إلى الخط : مرفأ السفن بالبحرين وتنسب إليه الرماح لأنها تباع به لا أنه منبتها ، والوشيج : شجر الرماح . (٦) ديوانه . ١١٢

وفيهم مَقَامَاتٌ حِسانٌ وجُوهُها ... وأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُها القَوْلُ والفِعْلُ
على مُكْثِرِيهم رِزْقُ مَنْ يَعْتَرِيهمُ ... وعند المُقِلِّينَ السَّمَاحَةُ والبَذْلُ
سَعَى بَعْدَهُم قومٌ لِكَيْ يُدْرِكُوهُم ... فلم يَفْعَلُوا وَلَمْ يُلِيمُوا[1] ولَمْ يَأْلُوا

قال بعض أهـــل العلم بالمعانى : أعْجِبْ بقوله : « ولم يَأْلُوا » ؛ لأنه لـمّا ذكر السَّعْىَ بعدهم ، والتخلُّف عن بلوغ مساعيهم جاز أن يتوهَّمَ السامع أنّ ذلك لتقصيرِ الطالبين فى طلبهم ؛ فأخبر أنهم لم يَأْلُوا ، وأنهم كانوا غيرَ مقصّرين ، وأنهم — مع الاجتهاد — فى المتأخرين ؛ ثم لم يَرْضَ بأن يجعل مَجْدَهم طارفا فيهم ، ولا جـديدا لديهم ، حتى جعله إرْثًا عن الآباء ، يتوارَثُه سائرُ الأبناء ، ثم لم يَرْضَ أنْ يكون فى الآباء حتى جعله موروثا عن آبائهم ، وهذا لو تكلَّفه متكلف فى المنثور دون الموزون لما كان له هذا الاقتدار مع هذا الاختصار .

شعر زهير وكانت قريشٌ معجبةً بشعر زُهير ، وقالوا[2] للنبى صلى الله عليه وسلم : إنّا قد سمعنا كلامَ الخطباء والبلغاء وكلامَ ابن أبى سلمى فـما سمعنا مثلَ كلامه من أحد ؛ فجعلوا ابن أبى سلمى نهايةً فى التجويد ، كما ترى .

وذُكر أن عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه قال : إن من أشعَر شعرائكم زهيرا ، كان لا يُعَاظل بين الكلام ، ولا يتبع حُوشِيَّه ، ولا يمدح الرجلَ إلا بما يكون فى الرجال .

وأخذ معنى قول زهير : * سعى بعدهم قوم لكى يدركوهم * طُرَيح بن إسماعيل الثقفى ، فقال لأبى العباس عبد الله بن محمد بن على السفاح :

قد طلب الناسُ ما بلغتَ ولَمْ ... يَأْلُوا فما قارَبُوا وقد[3] جهدوا
فهم ملوكٌ ما لم يَرَوْك ، فإنْ ... لاح لهم مِنْكَ بارقٌ خَمَدُوا

---

(١) فى ط : أو لم يلموا . (٢) فى ط : وقال قائل .
(٣) فى ت : ولو . جهدوا : تعبوا .

تمروهمُ رِعْدةٌ لدَيْكَ كما قُرْقِفَ(١) تحتَ الدجْنَةِ الصَّرِدُ
لاخوفَ ظُلْمٍ ولا رِقِلَى (٢) خُلُقٍ لـكن جِلَالًا كَسَاكَهُ الصَّمَدُ
ما يُبقِكَ اللهُ للأنام(٣) فما يفقد من العالمين مفتقد

وقال معاوية رحمه الله: المروءةُ احتمالُ الجريرة(٤)، وإصلاحُ أمرِ العشيرة؛ والنبلُ: الحِلْم عند الغضب ، والعفوُ عند القدرة .

فِقَر من كلامه رضى الله عنه

ما رأيتُ تبذيراً قطُّ إلّا وإلى جَنْبِه حقٌّ مُضَيَّع . أنقصُ الناسِ عقلًا مَنْ ظَلَم مَنْ هُو دونَه . أولى الناس بالعَفْوِ أقدرُهم على العقوبة . التسلُّط على المماليك مِنْ لُؤْمِ القدرة وسوء الملَكَة .

وقال يحيى بن خالد : ما حَسُنَ أدبُ رجلٍ إلّا ساء أدبُ غِلْمانه .

وقال معاوية : إصلاحُ ما فى يدك أسْلَم من طلب ما فى أيدى الناس . غَضَبى(٥) على مَنْ أملِك ، وما غضبى على مَنْ لا أملِك(٦) .

* * *

الجمع بين التهنئة والتعزية

ولما تُوُفِّى معاويةُ رحمه الله واستُخْلِف يزيدُ ابنه اجتمع الناسُ على بابه ، ولم يقدروا على الجَمْع بين تهنئة وتعزية حتى أتى عبدُ الله بن هَمّام السَّلُولىّ ، فدخل عليه فقال(٧) : يا أميرَ المؤمنين ؛ آجَرَكَ اللهُ على الرَّزِيّة ، وبارك لك فى العطيّة ، وأعانك على الرعيّة ، فلقد رُزِئْتَ عظيما ، وأُعطيتَ جسيما ، فاشْكُرِ اللهَ على ما أُعطيت ، واصبر له على ما رُزِيت ؛ فقد فقدتَ خليفــة الله ، ومُنِحْتَ خلافة الله ، ففارقتَ جليلا ، ووُهبتَ جزيلا ؛ إذ قضى مُعـاويةُ نَحْبَه فغفر الله ذَنْبَه ؛ ووُلِّيت الرياسة

(١) فى ت : تهتز . وقرقف : أرعد . والدجنة : الظلمة وإلباس الغيم وتكاثفه ، والصرد : من وجد البرد سريعا . (٢) القلى : البغض . (٣) فى ت : ما يبعك الله الأنام .
(٤) الجريرة : الجناية ، واحتمال الجريرة كناية عن دفع الدية . (٥) فى ت : ما غضبى .
(٦) فى ت : من أملك . (٧) البيان والتبيين : ٢ — ٦٧ نهاية الأرب : ٥ — ٢١١ .

فأعطيت السياسة ؛ فأوردك الله موارِدَ السرور ، ووفقّك لصالح الأمور ، وأنشده :

اصبِرْ يَزِيد فقد فارقْتَ ذا ثقــةٍ واشكر حِبَاءَ الّذِى بالمُلْكِ أصْفَاكا[1]
لا رُزْء أصْبَح فى الأقوام نَعْلَمه كما رُزِئْتَ ولا عُقْبَى كعُقْبَاكا
أصْبَحْتَ والىَ أمرِ النــاسِ كلّهم فأنْتَ تَرْعَاهمُ واللهُ يَرْعَاكا
وفى معاويةَ الباقِى لنــا خَلَفٌ إذا نُعِيتَ ولا نسمعْ بمَنْعاكا

يريد أبا ليلى معاوية بن يزيد ، ووُلّى بعد أبيه شهوراً ، ثم انخلع عن الأمر ، فقال القائل :

* والملك بعد أبى ليلى لمن غلبا *

من جيد ما قيل فى ذلك

وأول مَنْ فَتَح الباب فى الجمع بين تهنئة وتعزية عبد الله بن همام فَوَلجه النـــاس . ومن جيّد ما قيل فى ذلك قصيدة أبى تمام الطائى يمدح الواثق ويرثى المعتصم يقول فيها[2] :

إن أصبَحَتْ هضباتُ قدس أزالهــا قدَرٌ فما زالت هِضابُ شَمامِ[3]
أو يُفتقد[4] ذو النون فى الهَيْجَا فقد دَفَعَ الإلهُ لنـــا عن الصَّمصام
أو كنت منـــا غاربا غدوا فقد رُحْنَا بأسمى غاربٍ وسنام[5]
تلك الرزّيةُ لا رزّيّة مثلهــا والقِسْم ليس كسائرِ الأقســام

وهذا المعنى كثير .

وكان معاوية رحمه الله قد ترك قولَ الشعرِ فى آخر عمره ، فنظر يوماً إلى جاريةٍ فى داره ذات خَلْق رائع ، فدعاها فوجدها بِكراً فافترعها ، وأنشأ يقول :

سئمت غوايتى فأرَحْتُ حلمى وفىَّ على تحملىَ اعتراضُ
على أنى أجيب إذا دعتنى ذواتُ الدَّلّ والحَدَق المِراضُ

---

(١) الحباء : العطاء . أصفاه : آثره . (٢) ديوانه : ٢٧٦ . (٣) شمام : اسم جبل لباهلة .
(٤) فى الديوان : أو تفتقد ذا النون . (٥) رواية الديوان : رحنا بأعلى ذروة وسنام ، وفى ت : أوجب منا غارب عدواً فقد عدنا بأعلى غارب وسنام .

فِقر لجماعة الصحابة والتابعين رضى الله عنهم

ابن عباس : الرخصة من الله صدقة ، فلا تردُّوا صدقته . لكل داخل هيبة[١] فابدءوه بالتحية ؛ ولكل طاعم حِشْمة فابدءوه باليمين .

ابن مسعود رحمه الله : الدنيا كلها هموم ، فما كان منها فى سرور فهو ربح .

عمرو بن العاص : مَنْ كثر إخوانه كَثُرَ غُرَماؤه . وقال : أكرموا سفهاءَكم ، فإنهم يكفونكم العارَ والنار .

المغيرة بن شعبة : العيشُ فى بقاء[٢] الحِشْمَة . فى كل شىء سَرَف إلا فى المعروف . هذا كقول الحسن بن سهل — وقد أنفق فى دخول ابنته بُورَان على المأمون أموالا عظيمة — فقيل له : لا خيرَ فى السَّرف . قال : لا سَرَف فى الخير . فرد اللَّفْظَ واستوفى المعنى .

معاذ بن جَبَل : الدَّين هَدْم الدين .

زياد : ارْضَ من أخيك إذا وُلِّى ولايةً بِعُشْر وُدِّه قبلها .

مصعب بن الزبير : التَّوَاضع من مصايد الشرف .

الأحنف بن قيس : من لم يَصْبِرْ على كلمة سَمِعَ كلمات ! وقيل له : مَن السيد ؟ قال : الذى إذا أقبَل هابوه ، وإذا أدْبَرَ عابُوه[٣] . وله : سرَّك مَنْ ذَمّك . وله : مَنْ تَسَرّع إلى الناس بما يَكْرَهون قالوا فيه ما لا يَعْلَمون . وله : الكاملُ مَن عُدَّت هفواته .

وقال يزيد بن محمد المهلبى :

ومن ذا الذى تُرْضَى سَجَاياه كلُّها ... كفى المرء نُبْلًا أن تُعَدَّ معايبُه

---

(١) فى ت : دهشة . (٢) فى ت : إلقاء .
(٣) فى ت : اغتابوه .

الحسن البصرى : ألّا تَسْتَحْيُونَ من طول ما لا تستحيون ! ابن آدم راحِلٌ إلى الآخرة كل يوم مرحلة . ما أَنْصَفَكَ مَنْ كَلَّفك إجلاله ، ومنعك مالَه . بَدَنٌ لا يشتكى مثل مالٍ لا يُزكى[1] . إنّ امرأً ليس بينه وبين آدم أب حى لمُعْرِق فى الموتى .

قال الطائى[2] :

تأمّل رويداً هل تُعِدَّنَّ سالمًا ... إلى آدمٍ أو هل تُعَدُّ ابنَ سالمِ

وقال أبو نواس[3] :

وما الناسُ إلا هالكٌ وابنُ هالكٍ ... وذو نسبٍ فى الهالكين عَرِيقِ

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشّفتْ ... له عن عدوٍّ فى ثياب صديقِ

وكان المأمون يقول : لو قيل للدنيا : صِفِى نفسك ما عدَت هذا البيت ؛ وهو مأخوذ من قول مزاحم العقيلى[4] :

قضَيْنَ الهوى ثم ارتَمَيْنَ قلوبَنا ... بأسْهُمِ أعداءٍ وهُنَّ صديقُ

عمر بن عبد العزيز رحمه الله : ما الجزَعُ مما لابدّ منه ؟ وما الطمعُ فيما لا يرجى ؟ لا تَكُنْ مِمَّنْ يلْعَن إبليس فى العلانية ويُواليه فى السرّ .

الشعبى : إنى لأستَحْيِي من الحقّ إذا عرفتُه ألّا أرجعَ إليه .

قطعة من كلام لبنى على بن أبى طالب أهل البيت رضى الله عنهم

[أهل الفضل والإحسان، وتلاوة القرآن، ونَبْعَة الإيمان، وصوّام شهر رمضان][5]، ولهم كلامٌ يعرض فى حُلَى البيان ، ويُنْقَش فى فصّ الزمان، ويُحفَظُ على وَجْهِ الدهر،

---

(١) فى ط : مثل ما لا يزكى . (٢) ديوانه : ٣١٨ .

(٣) ديوانه : ١٩٢ ، والوساطة : ٢٠٠ . (٤) الوساطة : ٢٠١ ، وهو هناك منسوب للبحترى، وقد روى فى ديوانه : ٣٩٨ : دعون الهوى . وفى ث : لصبن .

(٥) زيادة من ث .

ويَفْضَحُ قلائدَ الدُّر ، ويُخْجِل نورَ الشمس والبدر ، ولِمَ لا يطئون ذيولَ البلاغة ، ويجرّون فضولَ البراعة ، وأبوهم الرسولُ، وأمُّهم البَتُول[1]، وكلُّهم قد غُذّى بدَرِّ الحِكَم ، ورُبِّىَ فى حِجْر العلم :

ما منهمُ إلا مُرَبّى بالحِجَى ... أو مُبْشَرٌ بالأَحْوَذِيّة مُؤْدَمُ[2]

آخر :

نَمَتْهُ العَرَانين مِنْ هاشِمٍ ... إلى النسب الأصْرَح الأوْضَحِ[3]
إلى نَبْعَـةٍ فَرْعُها فى السماء ... ومَغْرِسُها فى ذُرَى الأبْطَحِ[4]

وهم كما قال مسلم بن بلال العبدى — وقد قيل له : خطب جعفرُ بن سليمان[5] خطبةً لم يُرَ أحسن منها ، فلا يُدرى أَوَجْهه أحسن أم خُطْبَته ؛ فقال : أولئك قوم بنور الخلافةِ يُشرِقون ، وبلسان النبوّةِ ينطِقُون ، وفيهم يقول القائل :

لو كانَ يوجَدُ عرْفُ مَجْدٍ قبلَهُمْ ... لوجدتَه منهم على أميـالِ
إن جئتَهم أبصرتَ بين بيوتهم ... كَرَمًا يَقيك مواقفَ التَّسْآلِ
نورُ النبـوّة والمكارم فيهمُ ... متوقّد فى الشِّيبِ والأطفـال

وسُئِل سعيد بن المُسَيِّب : مَنْ أبلغُ الناسِ ؟ فقال: رسولُ الله صلى الله عليه وسلم. فقال السائل : إنما أعْنى مَنْ دونه . فقال : معاوية وابنُه ، وسعيد وابنُه ، وإنّ ابنَ الزبير لَحَسَنُ الكلام ، ولكِنْ ليس على كلامِه ملح . فقال له رجل : فأين أنتَ من علىّ وابنه ، وعباس وابنه ؟ فقال : إنما عَنَيْت من تقاربَتْ أشكالُهم ، وتدانَتْ أحوالُهم ، وكانوا كسِهامِ الجَعْبَةِ[6] ؛ وبنو هاشم أعلامُ الأنام ، وحُكّامُ الإسلام.

(١) البتول : فاطمة بنت النبى ، سميت بذلك لانقطاعها عن نساء زمانها فضلا ودينا وحسنا ، والمنقطعة عن الدنيا إلى الله تعالى . (٢) الأحوذية : الإسراع فى كل شىء . رجل مؤدم مبشر وهو الذى جمع لينا وشدة مع المعرفة بالأمور . وفى الصحاح : فلان مؤدم مبشر إذا كان كاملا من الرجال . وفى ك ا ومبشر . (٣) العرانين : الأوائل ، وفى ت : العرائس . (٤) الأبطح : مسيل واسع فيه دقاق الحصى . (٥) فى ت : جعفر بن عبد الله بن العباس ابن سليمان . (٦) الجعبة : الكنانة .

فصل لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ فى ذكر قريش وبنى هاشم

قد علم الناسُ كيف كَرَمُ قريش وسخاؤها ، وكيف عقولُها ودهاؤها ، وكيف رأيُها وذكاؤها ، وكيف سياستُها وتدبيرُها ، وكيف إيجازُها وتحبيرها[1] ، وكيف رجاحةُ أحلامها إذا خفّ الحليم ، وحِدّةُ أذهانِها إذا كَلّ الحديد[2] ، وكيف صَبْرُها عند اللقاء ، وثباتُها فى اللأْواء ، وكيف وفاؤها إذا استُحسن الغَدْرُ ، وكيف جودُها إذا حُبّ المال ، وكيف ذِكْرُها لأحاديث غد ، وقلةُ صدودِها عن القَصْدِ ، وكيف إقرارُها بالحق ، وصَبْرُها عليه ، وكيف وصْفُها له ، ودعاؤها إليه ، وكيف سماحةُ أخلاقها ، وصَوْنُها لأَعْرَاقها ، وكيف وصلوا قديمَهم بحديثهم ، وطريفَهم بتَلِيدِهم ، وكيف أشْبَه علانيتهم سِرّهم ، وقولهم فِعْلهم . وهل سلامةُ صَدْرِ أحدِهم إلّا على قدر بُعْدِ غَوْرِه ؟ وهل غَفْلَتُه إلّا فى وزن صِدْقِ ظنّه ؟ وهل ظنّه إلّا كيقين غيره ؟

وقال عمر : إنك لا تنتفع بعقله حتى تنتفع بظنّه . قال أوس بن حَجَر[3] :

الأَلْمَعِىّ[4] الذى يظنّ لك[5] الظـَّ نّ كأنْ قد رأى وقدْ سَمِعا

وقال آخر[6] :

مَليحٌ نَجيحٌ أخُو مَازِنٍ[7] فصيحٌ يحـــدّثُ بالغائبِ

وقال بَلْعَاء بن قيس :

وأبْغِى صَوَابَ الرّأْيِ أعْلَمُ أنّهُ إذا طَاشَ ظَنُّ المرء طَاشَتْ مَقَادِرُهْ

---

(١) فى ط : وتحسيرها . (٢) الحديد : القوى الذهن .
(٣) اللسان ـ مادة لمع . (٤) فى اللسان : نصب الألمعى بفعل متقدم .
(٥) فى ط : بك . (٦) فى اللسان ـ مادة نجح بيت لأوس روايته :

نجيح جواد أخو ما قط نقاب يحـــدث بالغائب

ورجل نجيح ... الإصابات . (٧) وفى ت : أخو مالط .

بل قد علم الناس كيف جمالُها وقوامُها ، وكيف نماؤُها وبهاؤُها ، وكيف سَرْوُها ونَجابتها[١] ، وكيف بيانُها وجَهارتها ، وكيف تفكيرُها وبَداهتُها ، فالعرَب كالبَدَن وقريشٌ روحُها ، وقريش روحٌ وبنو هاشم سرُّها ولُبُّها ، وموضعُ غاية الدينِ والدنيا منها ، وبنو هاشمٌ مِلح الأرض وزينةُ الدنيا ، وحلى[٢] العالم ، والسنام الأضخم ، والكاهل الأعْظَم ، ولُبابُ كلّ جوهر كريم ، وسِرّ كل عُنصُر شريف ؛ والطِّينة البيضاء ، والمَغْرِسُ المبارك ، والنِّصَاب الوثيق ، ومَعْدِن الفَهْم ، وينبوع العِلْم ، وثَهْلَان ذُو الهِضَاب فى الحِلْم ، والسيفُ الحسام فى العَزْم مع الأناة والحَزْم ، والصفح [عن الجرم ، والقصد عند المعرفة ، والعفو][٣] بعد المقدرة ، وهُم الأنْفُ المقدّم ، والسّنام الأكْرم ، وكالماء الذى لا ينجّسه شىء ، وكالشمس التى لا تَخْفَى بكل مكان ، وكالذّهب لا يُعْرَف بالنقصان ، وكالنجم للحَيْرَان ، والبارِدِ للظّمآن ، ومنهم الثَّقَلَان[٤] ، والشهيدان ، والأطْيَبان ، والسِّبْطَان[٥] ، وأسد الله ، وذو الجناحَيْن ، وذو قَرْنَيْها[٦] ، وسَيّدُ الوادى ، وسَاقِى الحجيج[٧] ، وحَلِيم البَطْحَاء ، والبَحْر والحبْر ، والأنصار أنْصارهم ، والمهاجرُون من هاجر إليهم أو معهم ، والصّدّيق مَنْ صدقهم ، والفارُوق من فَرّق بين الحق والباطل فيهم ، والحَوَارِى حوارِيّهم ، وذو الشهادتين لأنّه شهِدَ لهم ، ولا خيرَ إلا لهم أو فيهم أو معهم ، أو يُضَاف إليهم ، وكيف لا يكونُون كذلك ومنهم رسولُ ربِّ العالمين، وإمامُ الأولين والآخرين، ونجيبُ المرسلين، وخاتَمُ النبيين،

---

(١) السرو : الشرف . (٢) فى ط : وحى . (٣) زيادة من ت .

(٤) اشارة إلى قول النبى فى آخر عمره : إنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى .

(٥) يشير إلى قول النبى : الحسن والحسين سبطا رسول الله أى طائفتان وقطعتان منه .

(٦) يشير بذلك إلى قول النبى لعلى بن أبى طالب : إن لك بيتاً فى الجنة وإنك لذو قرنيها — أى طرفيها أو ذو قرنى الأمة (وارجع إلى اللسان — مادة قرن) .

(٧) الذى كانت له السقاية والرفادة عبد المطلب بن هاشم. الحجيج : جماعة الحجاج .

الذى لم يتم لنبى نُبُوَّةٌ إلا بعد التصديق به ، والبِشارة بمجيئه ، الذى عمّ برسالته ما بين الخافقَين ، وأظهره الله على الدّين كلّه ولو كره المشركون .

من كلام الحسن

قال الحسن بن علىّ عليهما السلام لحبيب بن مسلمة الفِهْرى : رُبَّ مَسِيرٍ لك فى غيرِ طاعة الله ! قال : أمّا مَسِيرى إلى أبيك فليس من ذلك ! قال : بلى ! [ولكنك أطعت فلانا على دُنْيا يسيرة ؛ ولعمرى لئن كان قام بك فى دنياك][1] لقد قعد بكَ فى دينك ، فلو أنّكَ إذْ فعلتَ شرًّا قلت خيراً كنت كمن قال الله عزّ وجل[2] : « خَلَطُوا عملا صالحا وآخر سيّئا عسى الله أن يَتُوبَ عليهم » . ولكنك كما قال[3] : « كلّا بَلْ رَانَ على قُلُوبهم ما كانوا يَكْسِبُون » .

وكان الحسنُ عليه السلام جواداً كريماً ، لا يردُّ سائلًا ولا يَقْطع نائلا ، وأعْطَى شاعراً مالًا كثيراً فقيل له : أتُعْطِى شاعراً يَعْصِى الرَّحْمَن ، [ويُطيع الشيطان][1] ، ويقول البُهْتَانَ ؟ فقال : إنَّ خَيْرَ ما بَذَلْتَ من مالك ما وَقَيْتَ به عِرْضَك ، وإنَّ من ابتغاء الخير اتّقاء الشر .

وقد رُوى مثلُ ذلك عن الحسين رضى الله عنه ، وقيل : إنّ شاعراً مدحه فأجْزَل ثوابَه ، فلِيمَ على ذلك فقال : أتَرانى خِفْتُ أن يقولَ : لستَ ابنَ فاطمة الزهراء بنت رسول الله ولا ابن علىّ بن أبى طالب ! ولكنى خِفْتُ أن يقول : لست كرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا كعلىّ رضى الله عنه ؛ فيُصَدّق ويُحْمَل عنه ويبقى مخلداً فى الكتب ، محفوظاً على ألسنة الرُّواة . فقال الشاعر : أنت والله يابْنَ رسول الله أعرفُ بالمدح والذمّ منى .

رثاء الحسن

ولما تُوُفّىَ الحسن أدخله قَبْرَه الحسين ومحمد بن الحنفيّة وعبد الله بن عباس رضى الله عنهم ، ثم وقف محمدٌ على قبره وقد اغْرَوْرَقَتْ عَيْناه بالدموع وقال[4] : رَحِمَكَ اللهُ أبا محمد ! فلئن عزّتْ حياتك ، لقد هَدّتْ وفاتُك ، ولَنِعْمَ الرُّوحُ رُوحٌ

---

(١) الزيادة من ت . (٢) التوبة : ١٠٢ . (٣) المطففين : ١٤ .

(٤) العقد الفريد ٢ — ٧ ، مروج الذهب ٢ — ٥١ .

تضمَّنه بدَنُك ؛ ولنعم الجسَدُ جسَدٌ تضمَّنه كَفَنُك ، ولنِعْمَ الكَفَنُ كفَنٌ تضمَّنه لَحْدُك ، وكيف لا تكونُ كذلك وأنتَ سليلُ الهُدى ، وخامسُ أصحابِ الكِساء[1] ، وخَلَفُ أهْلِ التُّقَى ؛ جَدُّك النبيُّ المُصْطَفَى ، وأبوك عليٌّ المُرْتَضَى ، وأمُّك فاطمةُ الزَّهراء ، وعمُّك جعفر الطيَّار[2] في جَنَّةِ المأْوَى ، وغَذَتْكَ أكُفُّ الحق[3] ، ورُبِّيتَ في حِجْرِ الإسلام ، ورَضَعْتَ ثَدْيَ الإيمان ، فطِبْتَ حيًّا وميتا ؛ فلئن كانت الأنْفُس غيرَ طيبةٍ لفراقك ؛ إنها غيرُ شاكَّةٍ أنْ قد خِيرَ لك ، وإنك وأخاك لسيدَا شَبَابِ أهل الجنة ، فعليكَ يا أبا محمد منا السلام .

وقام رجلٌ من ولد أبي سُفيان بن الحارث بن عبد المطلب على قَبْرِه ، فقال : إنَّ أقدامَكم قد نقلَتْ ، وإنَّ أعناقَكم قد حَمَلَتْ إلى هذا القبر وَلِيًّا من أولياء الله يبشر نبيَّ الله بمقدمه ، وتُفَتَّحُ أبوابُ السماء لرُوحه ، وتبتهجُ الحورُ العِينُ بلقائه ، ويَأْنَسُ به سادةُ أهل الجنة من أمَّتِه[4] ، ويوحِش أهلَ الحِجَا والدين فَقْدُه ، رحمة الله عليه ، وعنده تُحْتَسَبُ المصيبةُ به .

ألفاظ لأهل العصر في ذكر المصيبة بأبناء النبوة

قد أُصِيَ سليلٌ من سُلَالة النبوة ، وفَرْعٌ من شجرة الرسالة ، وعضوٌ من أعضاء الرسول ، وجزءٌ من أجزاء الوصيِّ والبَتُول . كتبت ، وليتني ما كتبت ، وأنا ناعِي الفضل من أقطاره ، وداعي المجدِ إلى شَقِّ ثوبه وصِدَاره ، ومخبِر أنَّ شمسَ الكرم وَاجِبة[5] ، والمآثر مودَّعة ، وبقايا النبوّة مرتفعة ، وآمالَ الإمامة منقطعة ، والدينَ منخذِلٌ واجم ، وللتقوى دَمْعَانِ : هامٍ وساجم . كتابي وقد شلَّتْ يمينُ الدَّهر ،

---

(١) أصحاب الكساء هم : النبي وعلي وفاطمة ، والحسن والحسين .

(٢) هو جعفر بن أبي طالب ، وسمي الطيار لقول النبي صلى الله عليه وسلم : دخلت الجنة البارحة فرأيت جعفرا يطير مع الملائكة . (٣) في ت : النعي . (٤) في ت : من أمهاته .

(٥) غاربة .

وفُقِئت عينُ المجد، وقَصُرَ باعُ الفضل، وكُسِفَت شمسُ السامى، وخُسِفَ قمرُ المعالى، وتجدّدَ فى بيت الرسالة رُزْء جدّد المصائب، واستماد النّوائب؛ كل هذا لفقدِ من حطّ الكرمُ برَبْعِهِ، ثم أدرج فى بُرْدِهِ، وامتزج المجدُ به، فدفِنَ بدَفْنه، إنها لمصيبةٌ عمّت بيْتَ الرسالة، وغضّت طَرْف الإمامة، وتحيّفت[1] جانبَ الوَحْى المنزّل، وذكّرت بموت النبى المرسل. كئيبٌ والدهرُ ينعى مُهْجَتَه، والمجدُ يَنْدُب بَهْجَته، ومَهَابِطُ الوَحْىِ والرسالة تحنى ظهورَها أسفاً، ومآقى الإمامةِ والوصية والرسالة[2] تذْرى دموعها لهفاً؛ وذلك أن حادثَ قضاء الله استأثر بفَرْعِ النبوة، وعنصر الدين والمروءة.

[رجع إلى كلام أهل البيت]

ووقع بينَ الحسنِ ومحمد بن الحنفيّة لِحاء[3]، ومَشَى الناسُ بينَهما بالنّمائم، فكتب إليه محمدُ بنُ الحنفية: أمّا بعد فإن أبى وأباك علىُّ بنُ أبى طالب؛ لا تفضُلنى فيه ولا أفضُلك، وأمى امرأةٌ من بنى حَنيفة، وأمُّك فاطمةُ الزّهراء بنتُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، فلو مُلِئَت الأرضُ بمثل أمى لكانت أمُّك خيراً منها؛ فإذا قرأتَ كتابى هذا فأقدم حتى تترضّانى؛ فإنك أحقُّ بالفضل منى.

من كلام الحسين

وخطب[4] الحسينُ بنُ على رضوان الله عليهما غداةَ اليوم الذى استُشهِدَ فيه، فحمدَ الله تعالى وأثنى عليه؛ ثم قال: يا عبادَ اللهِ، اتّقُوا اللهَ، وكونوا من الدنيا على حَذَر؛ فإنّ الدنيا لو بقِيَتْ على أحد [أو بقى عليها أحد][5] لكانت الأنبياء أحقَّ بالبقاء، وأوْلَى بالرّضاء، [وأرْضَى][5] بالقضاء؛ غيرَ أنّ الله تعالى خلَقَ الدنيا للفناء، فجديدُها بالٍ، ونعيمُها مُضْمَحِلٌّ، ومسرورُها مُكْفَهِرّ، والمنزلُ تَلْعة[6]،

(١) تحيفت الشىء: تنقصته من حافاته. (٢) فى ت: والملائكة بدل: والوصية والرسالة.

(٣) لاحاه: نازعه. (٤) الطبرى ٦ — ٨٨، ومروج الذهب ٢ — ٨٦.

(٥) الزيادة من ت، ومن الطبرى. (٦) التلعة: مجرى الماء من أعلى الوادى إلى بطون الأرض. وفى ت: بلغة.

والدارُ قُلْعَةٌ[1] ؛ فتزوَّدوا فإنَّ خيرَ الزادِ التقوى ، واتَّقوا اللهَ لعلكم تُفْلِحُون .

وكان لمعاوية بنِ أبي سفيان، عَيْنٌ بالمدينة يكتبُ إليه بما يكونُ من أمور الناس وقُرَيش ، فكتب إليه : إنَّ الحسين بنَ على أعتق جاريةً له وتزوَّجها ؛ فكتب معاويةُ إلى الحسين : مِنْ أمير المؤمنين معاوية إلى الحسين بن علىّ . أمّا بعد ، فإنّه بلغنى أنك تزوجْتَ جاريتَك ، وتركْتَ أكْفاءَك من قُريش ، ممَّنْ تَسْتَنْجِبُه[2] للولد ، وتمجدُ به فى الصِّهْرِ ، فلا لِنَفْسك نَظَرْتَ ، ولا لِوَلدِك[3] انْتَقَيْتَ .

فكتب إليه الحُسَيْن بن على : أمّا بعد ، فقد بلغنى كتابُك ، وتَعْيِيرُك إيّاى بأنى تزوَّجْتُ مولاتى ، وتركْتُ أكْفَائى مِنْ قُرَيش، فليس فَوْقَ رسولِ الله مُنْتَهًى فى شَرَف ، ولا غايةٌ فى نسب ؛ وإنما كانت مِلْكَ يمينى ، خرجَتْ عن يدى بأمرٍ التمستُ فيه ثوابَ الله تعالى ؛ ثم ارتجعتُها على سنَّةِ نبيه صلى الله عليه وسلم ، وقد رفع اللهُ بالإسلام الخسيسةَ ، ووضع عنّا به النقيصةَ ؛ فلا لَوْمَ على امرئ مُسْلِم إلّا فى أمْرٍ مأثم ، وإنما اللومُ لَوْمُ الجاهلية .

فلما قرأ معاويةُ كتابَه نبذه إلى يزيد فقرأه وقال : لَشَدَّ ما فَخَر عليك الحسين ! قال : لا ، ولكنها ألسنةُ بنى هاشم الحِدَاد التى تَفْلِقُ الصَّخْر، وتَغْرِفُ من البحر !

والحسين رضى الله عنه هو القائل :

لَعَمْرُكَ إنَّنى لَأُحِبُّ دَارًا ... تحُلُّ بها سُكَيْنَةُ والرَّبابُ
أُحِبُّهما وأبْذُل كلَّ مَالِى ... وليس لِلَائِمٍ عِنْدِى عِتَابُ

سُكَيْنة ابنته ، والرباب أُمّها ، وهى بنت امرئ القيس [بن الجرول][4] الكَلْبية .

---

(١) الدنيا دار قلعة : أى انقلاع . (٢) فى ط : تستحسنه . (٣) فى ت : ولا على ولدك أبقيت . (٤) ليست فى ت .

وفى سُكينة يقول عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى كذباً عليها[1] :

قالت سُكَيْنَةُ والدموعُ ذَوارِفٌ ... تَجْرِى على الخدَّيْنِ والجلبابِ
ليتَ المُغِيرِيَّ الذى لم أَجْزِهِ ... فيما أطالَ تَصَيُّدِى وطِلابى
كانت تَرُدُّ لنا المُنَى أيامنا ... إذ لا نُلامُ على هوًى وتَصابِ
خُبِّرْتُ ما قالتْ فبِتُّ كأنما ... يُرْمَى الحشى بنوافذِ النُّشّابِ
أسُكَينَ ما ماءُ الفراتِ وطِيبُهُ ... منِّى على ظمأٍ وفَقْدِ شرابِ
بألذَّ منكِ وإنْ نأيتِ وقلَّما ... تَرعى النساءُ أمانةَ الغُيّابِ
إنْ تَبْذُلِى لى نائلًا أشْفِى بهِ ... داءَ الفؤادِ فقد أطلْتِ عذابى
وعصيتُ فيكِ أقاربى وتقطعتْ ... بينى وبينهمُ عُرَى الأسبابِ
فتركتِنى لا بالوصالِ مُمَتَّعًا[2] ... منهم ولا أسْعَفْتِنِى بثوابِ
فقعدتُ كالمُهرِيقِ فَضْلَةَ مائِهِ ... فى حرِّ هاجرةٍ لِلَمْعِ سَرابِ

سكينة بنت الحسين

وكانت سُكينة من أجمل نساء زمانها وأعقلهنّ ، وكان مُصْعَب بن الزبير قد جَمَع بينها وبين عائشة بنت طلحة بن عبد الله ؛ فلما قتل مصعب قالت سُكينة[3] :

فإنْ تَقْتُلُوهُ تَقْتُلُوا الماجدَ الذى ... يَرَى الموتَ إلّا بالسيوفِ حَرَاما
وقَبْلَكَ ماخاضَ الحسينُ منيَّةً ... إلى القومِ حتى أوْرَدُوه حِمَاما[4]

وقال على بن الحسين رحمه الله : لو كان الناسُ يعرفون جُمْلَةَ الحالِ فى فَضْل الاستبانة وجُمْلةَ الحال فى فضل التبيين لأعربوا عن كل مايَتَلَجْلَجُ فى صدورهم ، ولوجدوا من بَرْدِ اليقين ما يُغْنيهم عن المنازعة إلى كل حالٍ سوى حالهم . على أنّ إدراكَ[5] ذلك كان لايعدمهم فى الأيامِ القليلةِ العِدّةِ ، والفِكْرَةِ القصيرةِ المدّة ، ولكنهم من بين مغمورٍ بالجهل ، ومفتونٍ بالعُجْب ، ومعدولٍ بالهوى عن باب التثبّت ، ومصروفٍ بسوء العادة عن فَضْلِ التعلم .

---

(١) الأغانى : ١ — ١٦٢ . (٢) فى ت : ممسكا . (٣) شاعرات العرب : ١٧١ .
(٤) فى ت : خصاما . (٥) فى ت : درك .

وقال رضى الله عنه : المِرَاء يُفسِدُ الصداقةَ القديمة ، ويَحُلّ العقدةَ الوَثيقة ؛ وأقلّ ما فيه أن تكونَ به المُغالبة ، والمُغالبةُ من أمْتَن أسباب القَطيعة .

ومن دعائه : اللهم ارْزُقنى خوفَ الوعيد ، وسرورَ رجاء الموعود ، حتى لا أرْجُو إلا ما رَجّيت ، ولا أخاف [إلا][1] ما خَوّفت .

الفرزدق يمدح على ابن الحسين

وحجّ هشام[2] بن عبد الملك ، أو الوليد[3] أخوه ، فطافَ بالبيتِ وأرادَ استلامَ الحَجَر فلم يقدر ، فنُصِب له مِنْبَرٌ فجلس عليه ؛ فبينا هو كذلك إذ أقبلَ علىّ بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه فى إزار ورِداء ، وكان أحسنَ الناس وَجْهاً ، وأعطرهم رائحة ، وأكثرَهم خشوعاً ، وبين عينيه سَجّادة ، كأنها رُكبة عَنْزٍ[4] وطاف بالبيت ، وأتى ليَسْتَلِم الحجرَ ، فتنحّى له الناسُ هيبةً وإجلالا ؛ فغاظ ذلك هشاما ؛ فقال رجلٌ من أهل الشام : مَن الّذى أكرمه الناسُ هذا الإكرام ، وأعظموه هذا الإعظامَ ؟ فقال هشام : لا أعْرِفه ؛ لئلا يَعْظُمَ فى صدور أهل الشام ؛ فقال الفرزدق وكان حاضراً[5] :

هذا ابنُ خيرِ عبادِ الله كلّهم ... هذا التقىُّ النقىُّ الطاهرُ العَلَمُ
هذا الذى تَعرِفُ البَطْحاءُ[6] وطأتَه ... والبيتُ يعرفُه والحِلُّ والحَرَمُ
إذا رأتْه قريشٌ قال قائلُها ... إلى مكارمِ هذا يَنْتَهِى الكَرَمُ
يكاد يُمْسِكُه عِرْفانَ راحتِه ... رُكْنُ الحَطِيم إذا ما جاء يستلِمُ[7]
فى كفّه خَيْزُرانٌ رِيحُه عَبِقٌ ... فى كفّ أرْوَعَ فى عِرْنِينه شَمَمُ[8]

---

(١) من ت . (٢) الأغانى : ١٤ — ٧٥ ، المحاسن والمساوى : ٢٣١ ، طبع ليبزج .
(٣) فى ت : وأخوه الوليد . (٤) المراد بالسجادة أثر السجود .
(٥) الجزء الرابع من ديوان الحماسة : ١٦٧ . (٦) البطحاء : مسيل واسع فيه دقاق الحصى .
(٧) الحطيم : حجر الكعبة أو جدارها أو ما بين الركنين وزمزم والمقام .
(٨) أروع : ذكى الروع ، بضم الراء ، وهو الفؤاد . والعرنين : الأنف . والشمم : الارتفاع .

يُغضِي حياءً ويُغضَى من مَهابتِهِ ... فما يُكلَّمُ إلا حين يَبتَسِمُ

مُشتقَّةٌ من رسولِ الله نَبعَتُهُ ... طابت عناصِرُهُ والخِيمُ والشِّيَمُ[(١)]

يُنمَى إلى ذِروةِ العزّ التي قصُرت ... عن نَيلِها عَرَبُ الإسلامِ والعجَمُ[(٢)]

يَنجابُ نورُ الهدى عن نورِ غُرّتِهِ ... كالشمس يَنجابُ عن إشراقها القَتَمُ[(٣)]

حمّالُ أثقالِ أقوامٍ إذا افترحوا ... حُلوُ الشمائلِ تحلُو عنده نَعَمُ

هـذا ابنُ فاطمة إن كنتَ جاهِلَهُ ... بجدِّه أنبياءُ الله قد خُتِموا

اللهُ فضّلهُ قِدماً وشرّفَهُ ... جرى بذاك له في لَوحِهِ القلَمُ

مَنْ جدُّهُ دانَ فَضلُ الأنبياءِ لهُ ... وفَضلُ أُمّتهِ دانَتْ له الأُمَمُ

عمَّ البريّةَ بالإحسانِ فانقشعَتْ ... عنها الغيايةُ والإملاقُ والظُّلَمُ

كِلْتا يديهِ غِياثٌ عَمَّ نفعُهُما ... تَستَوكِفانِ ولا يَعرُوهما العَدَمُ[(٤)]

سَهلُ الخليقةِ لا تُخشَى بوادِرُهُ ... تَزِينُه الاثنتانِ الحِلمُ والكَرَمُ

لا يُخلِفُ الوَعدَ ميمونٌ بغُرّتهِ ... رَحبُ الفِناءِ أريبٌ حين يعترِمُ[(٥)]

ما قال « لا » قَطُّ إلا في تَشَهُّدِهِ ... لولا التشهُّدُ كانت لاءَه نَعَمُ

مِنْ مَعشَرٍ حبُّهم دِينٌ وبغضُهُمُ ... كُفرٌ وقُربُهُمُ مَنجًى ومُعتَصَمُ

يُستَدفَعُ السوءُ والبَلوَى بحبِّهِمُ ... ويُستَرَبُّ به الإحسانُ والنِّعَمُ[(٦)]

مقدَّمٌ بعد ذِكرِ الله ذِكرُهُمُ ... في كلِّ بَدءٍ ومختومٌ به الكَلِمُ

إن عُدَّ أهلُ التُّقى كانوا أئمّتَهُمْ ... أو قيلَ مَنْ خيرُ أهلِ الأرضِ قيل هُمُ

لا يستطيعُ جَوادٌ بُعدَ غايتِهم ... ولا يُدانيهمُ قومٌ وإنْ كرُموا

هُمُ الغيوثُ إذا ما أزمةٌ أزَمَتْ ... والأُسْدُ أُسْدُ الشَّرى والبأسُ مُحتَدِمُ

يأبَى لهم أنْ يحُلَّ الذمُّ ساحتَهم ... خِيمٌ كريمٌ وأيدٍ بالنَّدى هُضُمُ[(٧)]

---

(١) الخيم: الأصل. (٢) من هذا البيت إلى آخر القصيدة ليس في ت.

(٣) القتم والقتام: الغبار. (٤) العدم: الفقر.

(٥) الأريب: وافر العقل. (٦) يسترب: يصلح. (٧) الخيم: الأصل. هضم: كثير العطاء.

لا يَنقصُ العسرُ بَسْطاً من أكفِّهمُ ... سِيّان ذلك إنْ أَثْرَوْا وإنْ عدموا
أيّ الخلائق لَيْسَتْ في رِقابهم ... لأَوْلِيَّة هــذا أو له نِعَم
مَنْ يَعْرِف اللهَ يَعْرِف أوليَّتــه ... فالدينُ من بيت هــذا ناله الأُمم
وليس قولك مَنْ هــذا بضائِرِه ... العُرْبُ تَعْرِف من أنكَرْتَ والعجَمُ

وقد روى أنّ الحزين الكنانى وَفَد على عبد الله بن عبدالملك بن مروان وهو أميرٌ على مصر فأنشده قصيدة منها[1] :

لمّا وقفتُ عليه في الجُموع ضُحًى ... وقــد تعرّضت الحُجّابُ والخدَمُ
حيّيته بســلامٍ وهو مُرْتَفِقٌ[2] ... وضَجّةُ القومِ عند البــاب تَزْدَحِمُ

في كفه خيزران . . . . — والبيت الذى يليه .

ويقال : إنها لداود بن سلم في قُثَم بن العباس بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وهو الذى يقول فيه الأخطل[3] :

ولقــد غدوتُ على التِّجَار بِمِسْمَح ... هَرَّتْ عَوَاذِلُهُ هَرِيرَ الأَكْلُبِ[4]
لَقَمٍ يُقَبِّــله[5] النعيمُ كأنما ... مُسِحَتْ تَرَائِبُه بمــاء مُذْهَبِ
لبّاسِ أرْدِيةِ المــلوكِ تَرُوقهُ ... من كل مُرْتَقَب عُيونُ الرَّبْرَبِ[6]
يَنْظُرْنَ مِنْ خَلَلِ الستُّور إذا بَدَا ... نظرَ الهجانِ إلى الفَنِيقِ المُصْعَبِ[7]

ويقال: بل قالها في على بن الحسين، اللعين المنقرى[8]، وسمى اللعين؛ لأن عُمَرَ سمعه يُنْشد شعراً والناس يصلّون ، فقال : مَنْ هذا اللعين ؟ فعلق به هــذا الاسم ، ولْيَقُلْه مَنْ شاء ، فقد أحسن ما شاد وأجاد وزاد .

---

(١) ارجع إلى الشعراء : ٩ ، والأغانى : ١٤ — ٧٤ ، والحماسة : ٤ — ١٦٧ .
(٢) مرتفق : متكئ على مرفقه . (٣) الشعراء : ٤٧٠ والمسمح — بكسر الميم الأولى وفتح الثانية : السمح. أو هى بضم الميم الأولى وكسر الثانية : اسم فاعل من الإسماح .
(٤) هرت : صاحت. (٥) في ط : لذن تقبله. (٦) الربرب : الظباء والمراد بها النساء .
(٧) الهجان : البيض ، والمصعب : الجمل لا يركب ، والفنيق : كذلك . وفي ط : الفتيق .
(٨) في ط : الشنفرى .

استطراد فيما قيل في الهيبة

وقال ذو الرمة في بلال ابن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري(١) :

مِنَ آلِ أبي موسى تَرَى الناسَ حَوْلَهُ … كأنهم الكِرْوَان عَايَنَّ بازِيا(٢)

فما يعرفون الضَّحْكَ إلّا تَبَسُّماً … ولا يَنْبِسون(٣) القولَ إلّا تَنَاجيا

وما الفُحشُ منه يَرْهَبُون ولا الخَنَا … عليهِ ولكنْ هَيْبَةٌ هِيَ مَاهِيَا

فتى السِّنِّ، كَهْلُ الحِلْمِ، يُسْمَعُ قولُهُ … يُوازِنُ أدناهُ الجبالَ الرَّوَاسِيا

البحتري في الفتح

ومن أجود ما للمحدَثين في ذلك قولُ أبي عُبَادة البحتري في الفتح بن خاقان(٤) :

ولما حضرنا سُدَّةَ الإذنِ أُخِّرتْ … رجالٌ عن البابِ الذي أنا دَاخِلُهْ

فأفضيتُ من قُرْبٍ إلى ذي مَهَابَةٍ … أقابِلُ بَدْرَ التَّمِّ(٥) حين أقابِلُهْ

بَدَا لِيَ محمودَ السجيَّةِ شُمِّرَتْ … سَرَابيلُهُ عنهُ وطالت حَمَائِلُهْ

كما انتصبَ الرُّمحُ الرُّدَيْنِيُّ ثُقِّفَتْ … أنابيبُهُ واهتزَّ للطعن(٦) عامِلُهْ

وكالبدرِ وافَتْهُ لِتِمٍّ سُعُودُهُ … وتَمَّ سَنَاهُ واستهلَّت منازِلُهْ

فسلّمتُ فاعتاقَتْ جَنَانِيَ هَيْبَةٌ … تُنازِعُنِي القولَ الذي أنا قائلُهْ

إلى مُشْرِفٍ في الجودِ لو أنَّ حاتِماً … لَدَيْهِ لأضحَى حاتمٌ وهو عاذِلُهْ

فلما تأمّلتُ الطلاقَةَ وانثنَى … إليَّ بِبِشْرٍ آنستْنِي مَخَايِلُهْ

دَنَوْتُ فقبّلتُ النَّدَى من يدِ امرئٍ … جميلٍ مُحيّاهُ سِبَاطٍ أنامِلُهْ

صَفَتْ مِثْلَ ما تصفُو المدامُ خِلَالُهُ … ورقَّتْ كما رقَّ النَّسيمُ شمائِلُهْ

ووقعت حرب بالجزيرة بين بني تَغْلِب، فتولى الإصلاح بينهم الفتحُ بن خاقان؛ فقال البحتري فيما تعلّق بمعنه بذكر الهيبة(٧) :

---

(١) ديوانه : ٩٣ . وفي ت : واسم أبي موسى عبد الله بن قيس وذكر جلساء بلال .

(٢) في الديوان : أبصرن ، والبازي : الصقر . (٣) ينبسون : ينطقون .

(٤) ديوانه : ٢ — ١٦٣ . (٥) في الديوان : الأفق .

(٦) في الديوان : فالطعن واهتز . (٧) ديوانه : ٢ — ١٦٤ ، يمدح ويذكر حرب ربيعة وعفو المتوكل عنهم .

بنى تَغْلِبٍ أعْزِزْ علىَّ بأنْ أرى … ديارَكُمُ أمْسَتْ وليس لهـا أهْلُ

خلَتْ دِمْنةً[1] من ساكِنيها وأوْحشَتْ … مرابعُ من سنجار يَهْمِى بها الوَبْلُ[2]

إذا ما الْتَقَوْا يومَ الهيَاجِ تحاجَزُوا … وللموتِ فيما بينهم قِسْمَةٌ عَدْلُ

كَفِىٌّ من الإحيـاء لاقَى كَفِيَّهُ … ومِثْلٌ من الأقوام راجَمَهُ[3] مِثْلُ

إذا ما أخٌ جَرَّ الرماحَ انتحى[4] لهُ … أخٌ لا بايدٌ فى الطِّعـان ولا وَغْلُ[5]

تحوطُهم[6] البِيضُ الرِّقاقُ، وضُمَّرٌ … عِتاقٌ ، وأنسابٌ[7] بها يدرك التَّبْلُ[8]

بطَعْنٍ يكبُّ الدَّارعين دِرَاكُهُ … وضَرْبٍ كما تَرْغُو الخزَّمَةُ البُزْلُ[9]

تَجافَى أميرُ المؤمنين عَنِ التى … علمتم ، وللجَانِينَ فى مِثْلِها الثُّكل

وكانت يدُ الفتح بن خاقان عنـدكم … يدَ الغَيْثِ عند الأرض أجدبها المَحْلُ[10]

ولولاهُ طُلَّتْ بالعُقُوق دِماؤكم … فلا قَوَدٌ يُعْطَى الأذلُّ ولا عَقْلُ[11]

تلافَيْتَ يا فَتْحُ الأراقمَ بعد ما … سقاهم بأَوْحَى سُمِّهِ الأَرْقَمُ الصِّلُّ[12]

وهَبْتَ لهم بالسِّلْمِ باقى نفوسهم … وقد أشرَفُوا[13] أنْ يستتمَّهم القتلُ

أتاكَ[14] وفودُ الشكرِ يَثْنُونَ بالّذى … تقدَّمَ مِن نُعماكَ عندهم قَبْلُ

فلم أرَ يوْماً كانَ أكثر سُودداً … من اليوم ضَمَّتْهم إلى بابك السُّبْلُ

---

(١) فى الديوان : خلت بلد .
(٢) سنجار : مدينة فى نواحى الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام ، والوبل : المطر الشديد ، ويهمى : ينسكب . وفى ت : سيحان .
(٣) فى الديوان : زاحفه ، وفى ت : زاحمه .
(٤) فى الديوان ، وفى ت : انبرى له .
(٥) الوغل : الضعيف النذل .
(٦) فى الديوان : تخصهم .
(٧) فى الديوان : وأحساب .
(٨) البيض الرقاق : السيوف المرهفة ، والضمر العتاق : الخيول الضامرة الكريمة ، والتبل : الثأر .
(٩) الدارعون : لابسو الدروع ، ودراكه : تتابعه ، وترغو : تصيح ، والمخزمة : التى وضع فى شدقها الخزام ، والبزل : جمع بازل ، وهو البعير يبلغ تسع سنين .
(١٠) فى الديوان : حرقها .
(١١) طلت : أهدرت ، والعقل : الدية .
(١٢) أوحى : أسرع . والأرقم الصل : الحية التى لا تنفع فيها الرقى .
(١٣) فى الديوان : وقد شارفوا .
(١٤) فى الديوان : أتوك .

تراءوك من أقصى السماط فقصَّروا … خُطاهم ، وقد جازوا الستور وهم عُجْلُ
ولمَّا قضَوْا صدرَ السلام تهافتوا … على يدِ بسَّامٍ سجيَّته البذلُ[(١)]
إذا شرعوا في خُطبةٍ قطعتهمُ … جلالةُ طَلْقِ الوجهِ جانبُه سَهْلُ
إذا نكسوا أبصارهم من مَهابةٍ … ومالوا بلحظٍ خِلْتَ أنهمُ قُبْلُ[(٢)]
نصبتَ لهم طرْفاً حديداً ، ومنطقاً … سديداً ، ورأياً مثل ما انتضيَ النصْلُ
وسلَّتْ سخيماتِ الصدور فما لك ال … كريم ، وأبرا غِلَّها قولك الفصْلُ
بك التأم الشعْبُ الذي كان بينهم … على حين بُعْدٍ منه واجتمع الشملُ
فما برحوا حتى تعاطتْ أكفُّهم … قِراكَ فلا ضِغْنٌ لديهم ولا ذَحْل
وجرُّوا ذيول[(٣)] العصْب تضفو ذيولها … عطاء كريم[(٤)] ما تكاءدَه بُخْل[(٥)]
وما عمَّهم عمرو بن غَنْم بنسبةٍ … كما عمَّهم بالأمس نائلك الجزل
فهما رأوا من غبطة في اصطلاحهم[(٦)] … فتلك بها النُّعمى جرتْ ولك الفضلُ

عاقبة الحرب عمرو بن غنم بن تغلب بن وائل بن قاسط .

البحتري وللطائيين [أبا تمام والبحتري][(٧)] في ذلك أشعار كثيرة مختارة ، منها قول البحتري يحذِّر عاقبة الحرب[(٨)] :

أما لربيعةَ الفرسِ انتهاء … عن الزلزال فيها والحروبِ[(٩)]
وكانوا وقعُوا[(١٠)] أيامَ سِلْمٍ … على تلك الضغائن[(١١)] والندوب[(١٢)]
إذا ما الجرْحُ رُمَّ على فسادٍ … تبيَّن فيه تفريطُ الطبيبِ

---

(١) في الديوان : رسل . (٢) قبل : جمع أقبل ، وهو الذي ينظر بانحراف كأنما ينظر إلى أنفه . (٣) في الديوان : برود . (٤) في الديوان : جواد .

(٥) في الديوان : البخل . وتكاءده : منعه . (٦) في الديوان : صلاحهم .

(٧) من ت . (٨) ديوانه : ١ ــ ٨٤ . (٩) ربيعة الفرس : أبو قبيلة .

(١٠) في الديوان ، وفي ت : رقعوا . (١١) في الديوان : القوارح .

(١٢) الندوب : آثار الجروح على الجلد .

رَزِيّةُ هالكٍ جلبَتْ رَزَايا   وخَطْبٌ باتَ يَكْشِفُ عن خطُوبِ
يُشَقُّ الجيْبُ ثم يجيءُ أمرٌ   يُصَغِّرُ فيه تشقيقُ الجيُوبِ
وقبرٍ عنْ أيامنِ بَرْقَعيد(١)   إذا هى ناحرت(٢) أفقَ الجنُوبِ
يسحُّ ترابُهُ أبداً عليها   عِهاداً من مُرَاقِ دَمٍ صَبيبِ
فهل لابنَيْ عَدِيٍّ من رشيدٍ   يَرُدُّ شريد حلمِهما العزيبِ(٣)
أخافُ عليهما إمرارَ مَرْعَى   من الكلإِ الذى عُقباه تُوبِى(٤)
وأعلمُ أنَّ حَرْبَهما خَبَالٌ   على الدَّاعى إليها والمُجيبِ
لعلَّ أبا المعَمّر يَتّقيها   بِيُمْنِ الهمِّ والصَّدْرِ الرَّحيبِ(٥)
فكم من سُؤْدُدٍ قد بات يُعْطى   عطيةَ مُكْثِرٍ فيها مُطيبِ
أهيْمٌ(٦) يابنَ عبدِ الله دعوى   مشيرٍ(٧) بالنصيحة أو مُهيبِ
تناسَ ذنوبَ قومك إنَّ حفظ الـ   ـذنوب إذا قَدِمْنَ من الذّنوبِ
فَلَلسَّهْمُ السديد أحَبُّ غِبًّا   إلى الرامى من السهم المُصيبِ
متى أحرزتَ نَصْرَ بنى عبيدٍ   إلى إخلاص وُدِّ بنى حبيبِ
فقد أصبحت أغلبَ(٨) تغلبيٍّ   على أيدى العشيرة والقلوبِ

يناسب قولُه : * إذا ما الجرح رمَّ على فسادٍ * قول أبى الطيب المتنبى لعلىّ ابن إبراهيم التنوخى أحد بنى القصيص(٩) :

فلا تَغْرُرْكَ ألسِنَةٌ مَوَالٍ   تقلّبهن أفئدةٌ أعادى
وكُنْ كالموت لا يَرْثِى لباكٍ   بكى منه ويَرْوَى(١٠) وهو صادِ
فإنَّ الجُرْحَ يَنْفِر(١١) بعد حينٍ   إذا كانَ البِناءُ على فَسادِ

---

(١) برقعيد : بلدة قرب الموصل . (٢) ف ت : نازحت ، وف ط : فاخرت .
(٣) ف ط : حلمهما الغريب . (٤) ف الديوان : الذى عقباه موب . وتوبى : تهلك ، وف ت : عقباه موب . (٥) ف الديوان : والبلد الرحيب ، ويتقيها : يقيمها . (٦) ف ت : أهمّتى . (٧) ف الديوان : مشيد . (٨) ف ت : أغلب . (٩) ديوانه : ٢ — ٣٦٣ .
(١٠) ف الديوان: ليروى. (١١) جرح نغار : يسيل منه الدم.

وفى هذه القصيدة[١] :

كأنَّ الهامَ فى الهَيْجَا عُيُونٌ ... وقد طُبِعَتْ سُيُوفُك مِنْ رُقَادِ
وقد صُغْتَ الأَسِنَّةَ من هُمُومٍ ... فما يَخْطُرْنَ إلَّا فِى فُؤَادِ

كأنَّ البيت الأول من هذين ينظر إلى قول مسلم بن الوليد من طرف خَفِىّ :

ولو أن قَوْماً يَخْلقون مَنِيَّـةً ... من بَأْسِهِم كانوا بَنِى جبريلا
قومٌ إذا احْمَرَّ الهجيرُ من الوَغَى ... جَعَلُوا الجماجمَ للسيوفِ مَقِيلا

وإنما أخذه [أبو الطيب][٢] من قول منصور النميرى[٣] وذكر سيفاً :

ذَكَرٌ[٤] بِرَوْنَقِه الدِّماءُ كأنما ... يَعْلُو الرجالَ بأرجُوانٍ نَاقِعِ[٥]
وترى مَسَاقِطَ شَفْرَتَيْهِ كأنَّها ... مِلْحٌ تَبَدَّدَ من وراءِ الدَّارِعِ
وتراه مُعْتَمًّا إذا جَرَّدْتَهُ ... بدمِ الرجالِ على الأديمِ الناقعِ
وكأنَّ وقعتَهُ[٦] بجُمْجُمَةِ الفَتَى ... خَدَرٌ[٧] المُدامة أو نُعاسُ الهاجعِ

أردت هذا البيت .

وقول النميرى : * وتراه مُعْتَمًّا إذا جردته * يُشير إليـه قول أبى الطيب ، وذكر سيفاً[٨] :

يَبِسَ النَّجِيعُ[٩] عليه فهوَ مجرَّدٌ ... مِنْ غِمْدِهِ وكأنما هُوَ مُغْمَدُ
رَيَّانُ لو قَذَفَ الذى أَسْقَيْتَهُ ... لَجَرَى مِنَ المُهَجَاتِ بَحْرٌ مُزْبِدُ

وبنو عبيد ، وبنو حبيب ، اللذان ذكرهما البحترى هم بنو عبيـد بن الحارث ابن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب[١٠] ، وحبيب بن الهجرس بن تيم بن سعد ابن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب ، وفيهم حبيب بن حرقة بن تغلب ابن بكر بن حبيب بن عمرو بن غَنْم ، فلا أدرى أيهما أراد !

---

(١) ديوانه : ١ — ٣٦٠ . (٢) من ب . (٣) فى ت : التيمى .
(٤) سيف قاطع . (٥) فى ط : قاقع . (٦) فى التبيان : ١ — ٣٦٠ : موقعه .
(٧) فى التبيان : سكر ، وفى ت : خدر المنية . (٨) ديوانه ١ — ٣٣٧ .
(٩) النجيع : دم الجوف . (١٠) فى ت : بن تيم بن سعد بن جشم بن بكر الخ .

وقال البحتري[١] :

أسيت لأخوالي ربيعة أن عفت … مصانعها منها وأقوت ربوعها[٢] — وللبحتري

بكرهي أن باتت خلاء ديارها … ووحشا مغانيها وشتى جميعها

إذا افترقوا من وقعة جمعتهم … دماء لأخرى ما يطل نجيعها

تذم الفتاة الرود[٣] شيمة بعلها … إذا بات دون الثأر وهو ضجيعها

حمية شعب جاهلي وعزة … كلابية[٤] أعيا الرجال خضوعها

وفرسان هيجاء تجيش صدورهم … بأحقادها حتى تضيق دروعها

تقتل من وتر أعز نفوسها … عليها بأيد ما تكاد تطيعها

إذا احتربت يوما ففاضت دماؤها … تذكرت القربى ففاضت دموعها

شواجر أرماح تقطع بينها … شواجر أرحام ملوم قطوعها

فكنت أمين الله مولى حياتها … ومولاك فتح يوم ذاك شفيعها

وقال أبو تمام الطائي[٥] : — ولأبي تمام

مهلا بني مالك لا تجلبن إلى … حي الأراقم دؤلول ابنة الرقم[٦]

لم يألكم مالك صفحا ومغفرة … لو كان ينفخ قين الحي في فحم

أخرجتموه بكره من سجيته … والنار قد تنتضى من ناضر السلم[٧]

أوطأتموه على جمر العقوق ولو … لم يحرج الليث لم يخرج من الأجم

لولا مناشدة القربى لغادركم … حصائد المرهفين : السيف والقلم

لا تجعلوا البغي ظهرا إنه جمل … من القطيعة يرعى وادي النقم

---

(١) ديوانه : ٢ — ٣١٧ . (٢) في الديوان : مصايفها ، وأقوت : خلت .

(٣) الرود : الجميلة . (٤) في الديوان : كليبية .

(٥) ديوانه : ٢٦٩ . (٦) في الديوان : دؤلول ، وقال شارحه : الدؤلول والرقم من أسماء الداهية . (٧) السلم : شجر .

وقال أيضاً[١] :

مهلًا بنى عمرو بن غَنْم[٢] إنكم　　هدَفُ الأسِنَّة والقَنَا تتحطّمُ

ما منكُم إلا مردًّى بالحجى　　أو مُنْشَرٌ بالأحوذيّة مُؤدَمُ

عمرُو بنُ كلثوم بن مالك بن عتّـاب بنِ سعدٍ سهمكم لا يُسهمُ

خُلِقت ربيعةُ من لدُنْ[٣] خُلقت يدا　　جُشَم بنِ بكرٍ كَفُّها والمِعصمُ

تَغْزُو فتغلب تغلبٌ مثـل اسمها　　وتسيح غَنْمٌ فى البـلاد فتغنَمُ

وستذكرون غداً صنائعَ مالكٍ　　إنْ جَلَّ خطبٌ أو تُدُورِفعَ مغرمُ

ما لى رأيتُ ثَرَاكُمُ يَبَسًا له[٤]　　مَا لِى أَرَى أطْوَادَكم تتهـدّم

ما هذهِ القُرْبَى التى لا تُصطفى[٥]　　ما هـذه الرَّحِمُ التى لا تُرْحَم

حَسَدُ القرابة للقرابة[٦] قرحةٌ　　أعْيَت عَوَائِدها[٧] وجرح أقدمُ

تلكم قريشٌ لم تكن آباؤها[٨]　　تَهْفُو ولا أحـلامها تتقسّم

حتى إذا بُعِثَ النبىُّ محمـدٌ　　فيهم غدَتْ شَحْنَاؤهم تتضرّم

عَزبت عقولهُم وما مِنْ مَعْشَرٍ　　إلّا وهم منـه[٩] ألبُّ وأحزَمُ

لما أقام الوحىُ بين ظهورهم　　ورأوا رسـولَ الله أحمَدَ منهُمُ

ومن الحزامةِ لو تكونُ حَزَامةٌ[١٠]　　ألا تؤخّرَ مَنْ به تتقـدَّمُ

ومالك هو ابن طوق بن مالك[١١] بن عتاب بن زفر[١٢] بن مرة بن شريح

---

(١) ديوانه : ٢٧٣ .　(٢) فى الديوان : مهلا بنى غنم بن تغلب .　(٣) فى الديوان : مذ لدن .　(٤) فى ط : بيسالة ، وهذا من الديوان وت .　(٥) فى الديوان : لاتتق .

(٦) فى الديوان : حسد العشيرة للعشيرة .　(٧) فى الديوان : تلدت وسائلها .

(٨) فى الديوان : آراؤها ، وفى ت أقدمها .　(٩) فى ط : وهم منهم .

(١٠) فى الديوان : ومن الحزامة أيها الأنف . والحزامة : الحزم .

(١١) ليست فى ت .　(١٢) فى ت : بن فزارة ، وفى ف : زافر .

ابن عبد الله بن عمرو بن كلثوم بن مالك [بن عتاب][1] بن سعد بن [زهير بن][1] جشم بن بكر [بن وائل][1] بن حبيب بن عمرو بن غَنْم بن تغلب ، وفيه يقول دعبل يهجوه :

النَّاسُ كلُّهُم يَغْدُو لحاجتِهِ — من بين ذى فَرَحٍ منها ومَهْمُومِ
ومالكٌ ظلّ مشغولا بنسبتِهِ — يَرُمُّ[2] منهـا بناءً غير مَرْمُومِ
يبنى بيوتا خرابا لا أنيس بها — مابين عمرو إلى طوق ابن كلثوم[3]

والتكثير من المعنى المُعْتَرِض يزيغ عن ثُغرة الغَرَض، لكنى أجْرِى منه إلى حَلْبة الإجادة ، وأقْصِد قصدَ الإفادة ، ثم أعود حيثُ أُرِيد .

لابن الخياط في الهيبة

وقال ابن الخياط[4] المكى واسمه عبد الله بن سالم فى باب الهيبة فى مالك بن أنس الفقيه رحمة الله عليه . وقيل: إن هذا من قول ابن المبارك :

يَأْبَى الجوابَ فما يُراجَعُ هَيْبَةً — والسائلون نَوَاكِسُ الأذْقَانِ
أدبُ الوقار وعِزُّ سلطانِ التُّقَى — فهو المهيبُ وليس ذا سُلْطانِ

* * *

فى معنى قول الفرزدق

وقول الفرزدق : * يكادُ يمسكه عرفان راحته[5] * قد تجاذبه جماعةٌ من الشعراء؛ قال أشجع بن عمرو السلمى لجعفر البرمكى :

حبَّـذا أنت قادماً تَرِد الشا — مَ فتختال بين أرحُل عيرِكْ[6]
إن أرضاً تسرى إليها لو اسْطا — عت لسارت إليك من قبل سيْرِك

وإليه أشار أبو تمام الطائى فى قوله[7]:

دِيمَةٌ سَمْحَةُ القِيـادِ سَكوبُ — مُسْتَغيثٌ بها الثَّرَى المكروبُ
لو سَعَتْ بُقعةٌ لإعظامِ نُعْمَى — لَسَعَى نحوها المكانُ الجديبُ

(١) من ت ، ق . (٢) يرم : يصلح ، وفى ت : يؤم . (٣) ليس فى ت .
(٤) فى ت : الحياط . (٥) صفحة ٦٥ (٦) فى ط : غيرك ، وفى ق : أرحل غيرك
(٧) ديوانه : ٥٧ .

وفى هذه القصيدة فى وصف الديمة ومدح محمد بن عبد الملك الزيات .

لَذَّ شُؤْبوبُهـــا وطابَ فلو تَسـ ... ـطيعُ قامت فعانقَتْها القلوبُ

فهو[١] ماءٌ يجرى وماءٌ يَليهِ ... وعزالٍ[٢] تنشا وأخرى تصُوب[٣]

أيُّهـــا الغيثُ حىَّ أهلًا بِغدا ... ك وعنـــدَ السُّرى وحين تؤوبُ

لأبى جَعْفَرٍ خــــلائق تحـ ... ـكيهنَّ قد يشبه النجيبَ النَّجيبُ

شعر أبى تمام وأنشدها أبا جعفر بن الزيات ، فقال : يا أبا تمام ؛ والله إنك لتحلّى شِعْرَكَ من جواهر لفظك وبدائع معانيك مايزيد حُسناً على بهىّ الجواهر فى أجياد الكواعب ؛ وما يُدَّخَرُ لك شىء من جزيل المكافأة إلا يَقْصُر عن شِعْرِك فى الموازنة[٤] .

وكان بحضرته رجلٌ من الفلاسفة فقال : هذا الفتى يموتُ شابا ! فقيل له : مِنْ أينَ حَكَمْتَ عليه بهذا ؟ فقال : رأيتُ فيه من الحدَّة والذكاء والفِطْنَة مع لطافة الحسِّ ما علمتُ به أن النفسَ الروحانيـــة تأكلُ عمره كما يأكلُ السيفَ المهنَّد غِمده !

قال الصولى : مات وقد نَيَّفَ على الثلاثين .

وقال فى أبى دُلف العجلى القاسم بن محمد بن عيسى[٥] :

تَكادُ عطاياهُ يُجَنُّ جُنونُها ... إذا لَمْ يُعَوِّذْهَا بِنَغْمَةِ طَالِبِ

تَكادُ مَغانِيه تَهِشُّ عِراصُها ... فتركبُ من شَوْقٍ إلى كُلِّ رَاكبِ

وقال البحترى[٦] :

لو أنَّ مشتاقاً تَكلَّفَ فوق ما[٧] ... فى وُسْعِه لمشى إليكَ المِنْبَرُ

وقال أبو الطيب المتنبى لبدر بن عمار[٨] :

طَرِبَتْ مَرَاكِبُنَا فَخِلْنَا أَنَّهَا ... لولا حَيَاءٌ عَاقَهَا رَقَصَتْ بِنَا

لو تَعْقِلُ الشَّجَرُ التى قَابَلْتَهَا ... مَدَّتْ مُحَيِّيَةً إِلَيْكَ الأَغْصُنَا

---

(١) فى الديوان ، وفى ت : فهى . (٢) عزال : جمع عزلاء ، وأصله مصب الماء من الراوية ، والمراد بها السحابة . (٣) تصوب : تنسكب . فى الديوان : تذوب . (٤) فى ت ، ف : فى الموازاة .

(٥) ديوانه : ٤٩ . (٦) ديوانه : ٢١٢ (٧) وفى الديوان : فلو . . غيرها .

(٨) ديوانه : ٣ — ٢٠٣ .

رَجع ما انقطع

من كلام محمد ابن على

قال أعرابى لأبى جعفر محمد بن على بن الحسين رضى الله عنه : هل رأيتَ الله حين عَبَدْتَه ؟ فقال : لم أَكُنْ لأَعْبد مَنْ لم أره. قال : فكيف رأيته ؟ قال : لم تره الأبصارُ بمشاهدة العيان ، ورَأَتْهُ القلوبُ بحقائق الإيمـان ، لا يُدْرَكُ بالحواسّ ، ولا يُشَبَّه بالناس ، معروفٌ بالآيات ، منعوتٌ بالعلامات ، لا يجورُ فى القضيّات، ذلك اللهُ الذى لا إله إلا هو . فقال الأعرابى : الله أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالته .

قال الجاحظ : قال محمد بن على : صلاحُ شأنِ الدنيا بحذافيرها فى كلمتين؛ لأنّ صلاحَ شأْن جميع الناس [فى التعايش و][1] التعاشر وهو مِلء مِكْيَال : ثلثاه فِطْنة وثلثه تَغَافُل .

قال الجاحظ : لم يجعل لغير الفِطْنَةِ نصيباً من الخير ، ولا حظًّا من الصلاح؛ لأن الإنسان لا يتغافلُ عن شىء إلا وقد عرفه وفَطِن له ، قال الطائى[2] :

ليس الغبىُّ بسيِّدٍ فى قَوْمِهِ ... لكنَّ سيـدَ قَوْمِهِ المُتَغَابِى

وقال ابن الرومى لأبى محمد بن وهب[3] بن عبيد الله بن سليمان[4] :

تظلّ إذا نامت عيونُ ذوى العمى ... وإن حدّدوا زُرقًا إليك جَواحِظا

تَغَـاضَى[5] لهم وَسْنانَ بل مُتَوَاسِنا ... وتوقظهم يقظانَ بل متياقظا

كلام زيد ابن على

[وأبو جعفر هذا هو الباقر][6] ، وكان أخوه زيد بن على رضى الله عنـه دَيِّنًا شجاعا ناسكا من أَحْسَنِ بنى هاشم عبارة ، وأجملهم إشارة .

وكانت ملوك بنى أمية تكتُبُ إلى صاحب العراق أنِ امنَعْ أهلَ الكوفة من حضور زيد بن على ؛ فإنّ له لسانا أَقْطَع من ظُبَةِ السيف ، وأَحَدّ من شَبَا الأسنة ، وأبلغ من السحر والكِهانَة ؛ ومن كل نَفْث فى عُقْدَة[7]

(١) من ت . (٢) ديوانه : ٢٠ ، المختار من شعر بشار : ١٣٠

(٣) فى ت : لأبى محمد بن عبيد الله بن سليمان بن وهب . (٤) ليسا فى الديوان الذى بين أيدينا . (٥) تغاضى . (٦) من ت . (٧) النفث : النفخ . والنفاثات فى العقد : السواحر .

وقيل لزيد بن علي: الصمتُ خيرٌ أم الكلام؟ فقال: قبّح الله الساكتة، ما أفسدها للبيان وأجلبها للعِيِّ والحَصَر! والله للمُمَارَاة أسرع في هَدْمِ[1] الفتى من النار في يَبَس العَرْفَج، ومن السيل إلى الحدور[2].

وقال له هشام بن عبد الملك: بلغني أنَّك تَرومُ الخلافة، وأنت لا تصلُحُ لها لأنك ابنُ أمَة؟ قال زيد: فقد كان إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ابن أمة، وإسحاق ابن حُرَّة؛ فأخرج الله من صُلب إسماعيل خيرَ ولد آدم! فقال له: قم! فقال: إذاً والله لا تَرَاني إلّا حيثُ تَكْرَه! فلما خرج من الدار قال: ما أحبَّ أحدٌ الحياةَ قط إلّا ذلَّ. فقال له سالم مولى هشام: لا يسمعنَّ هذا الكلام منك أحدٌ. وكان زيد كثيراً ما ينشد:

شرّده الخوفُ وأزْرَى به ... كذاك من يَكْرَهُ حرَّ الجِلَاد[3]
منخرق الخُفَّين يشكو الوجَى[4] ... تَنْكُبُه أطرافُ مَرْوٍ حِدَاد[5]
قد كان في الموت له رَاحَةٌ ... والموتُ حَتْمٌ في رقاب العباد

وقد رُوِيت هذه الأبيات لمحمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين، وقد رُوِيت لأخيه موسى.

قال عبد الرحمن بن يحيى بن سعيد: حدثني رجل من بني هاشم قال: كنا عند محمد ابن علي بن الحسين، وأخوه زيد جالس؛ فدخل رجلٌ من أهل الكوفة، فقال له محمد بن علي: إنك لتَرْوِي طرائفَ من نوادر الشعر، فكيف قال الأنصاري لأخيه؟ فأنشده[6]:

لَعمْرُك ما إنْ أبو مالكٍ ... بِوَانٍ ولا بضَعيفٍ قُوَاهُ

---

(١) في ت: من هذا. (٢) مكان يتحدر منه. (٣) الجلاد: الحرب.
(٤) الوجى: الحفا أو أشد منه. (٥) المرو: حجارة بيض براقة تورى النار أو أصلب الحجارة، وتنكبه: تحاه. (٦) المختار من شعر بشار: ١٨٨، الخزانة: ٢ — ١٣٥، ونسب الشعر فيه للمتنخل الهذلي.

ولا بألدَّ لَهُ نَازِعٍ يُعَادِى أخَاه إذا ما نَهاهُ
ولـكنّه غـيرُ مِخلافةٍ كريم الطبائع حلو ثناهُ[١]
وإن[٢] شُدْتَه سدتَ مِطوَاعةً ومهما وكَلْتَ إليـه كَفاه

فوضع محمد يده على كَتِفِ زيد ، فقال : هذه صِفَتُك يا أخى ؛ وأُعيذُك بالله أنْ تـكون قتيلَ أهل العراق !

وكانت بين جعفر بن الحسن[٣] بن الحسين بن على وبين زيد رضوان الله عليهم منازعةٌ فى وصيّـة ، فـكانا إذَا تنازَعا انْثَالَ الناسُ عليهما ليسمعُوا محاوَرَتهما ؛ فـكان الرجلُ يحفظ على صاحبـه اللّفظة من كلام جعفر ويحفظُ الآخرُ اللفظةَ من كلام زيد. فإذا انفصلاوتفرّق الناسعنهماقال هذا لصاحبه: قال فى موضع كذاوكذا، وقالالآخر : فى موضع كذا وكذا ؛ فيكتبون ما قالا ثم يتعلّمونه كما يُتعلّم الواجب من الفَرْض ، والنـادرُ من الشعر ، والسائرُ من المَثل ؛ وكانا أعجوبةَ دَهْرِهما وأُحْدُوثَةعصرهما.

ولما قتل زيداً[٤] يوسفُ بن عمر وصلب جُثّته بالـكُناسة وبعث برأسه مع شَبّة من كلام ابن عقال ، وكلّف آل أبى طالب البراءة من زيد ، وقام خطباؤهم بذلك ؛ فـكان أول مَنْ قام عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على رحمة الله عليه فأَوْجَز فى كلامه ثم جَلَس، وقام عبـدُ الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب فأطْنب ، وكان شاعراً خطيباً لسِناً ناسباً ، فانصرف الناسُ وهم يقولون : ابن الطيار مِنْ أَخْطَبِ الناس ، فقيل لعبد الله بن الحسن فى ذلك ؛ فقال : لو شئت أن أقولَ لقلت ، ولـكن لم يكن مقامَ سرور ، وإنما كان مقام مُصِيبة !

---

(١) رواية البيت فى المختار من شعر بشار :
ولـكنه هين لـين كعالية الرمح عود نساه
(٢) فى المختار : إذا سدته . (٣) فى ت : جعفر بن الحسين .
(٤) فى ط : ولما قتله يوسف . . .

وعبدُ الله هذا هو أبو محمد وإبراهيم الخارجين على أبي جعفر المنصور، وهو القائلُ لابنه محمد أو إبراهيم[١] : أيْ بني ! إني مؤدٍّ حقَّ الله في تأديبك ، فأدِّ إليَّ حقي في الاستماع مني ؛ أيْ بنيّ ! كُفَّ الأذى ، وارفُض البَذَا[٢]، واستَعِنْ على الكلام بطول الفِكر في المواطن التي تَدْعوكَ فيها نفسُك إلى الكلام ؛ فإنَّ للقول ساعاتٍ يضرُّ فيها الخطأُ ، ولا يَنفَعُ فيها الصَّوابُ ، واحذَرْ مشورةَ الجاهل ، وإنْ كان ناصِحاً ، كما تَحذَرُ مشورةَ العاقِل إذا كان غاشًّا ؛ لأنه يُرْدِيكَ بمشورته ؛ واعلم يابنيّ أن رَأيك إذا احتجتَ إليه وجدتَه نائماً ، ووجدتَ هواكَ يَقْظانَ ، فإياك أن تستبدَّ برأيك ؛ فإنه حينئذ هَواك ؛ ولا تفعَلْ فِعلا إلا وأنْتَ على يقين أنَّ عاقبتَه لاتُرْدِيك ، وأن نتيجتَه لاتَجْني عليك .

وهو القائل : إياكَ ومُمَاداة الرجال فإنك لن تعدَم مَكْرَ حليم ، أو مُفَاجأة لئيم .

وكتب إلى صديق له : أوصيك بتقوى الله تعالى فإنَّ اللهَ تعالى جعل لمن اتَّقاه المخرج من حيث يَكرَه ، والرزق من حيث لايحتسب .

وعبد الله هو القائل :

أُنُسٌ حرائرُ ماهمَمْن بريبةٍ   كظباء مكّةَ صيدُهنَّ حرامُ
يُحسَبنَ من لِين الحديث دوانيا[٣]   ويصدّهنَّ عن الخَنَا الإسلامُ[٤]

عبد الملك وابن أبي ربيعة

قال : وهذا كما روى أنَّ عبد الملك بن مروان استقبل عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي فقال له : قد علِمَتْ قريشٌ أنّك أطولُها صَبْوَةً ، وأبْعَدُها تَوْبةً ؛ وَيْحَك ! أمالكَ في نساء قريش ما يَكفيك من نساء بني عبد مناف ؟ ألست القائل[٥]:

نظرتُ إليها بالمحصَّب من منًى   ولي نظرٌ لولا التحرُّجُ[٦] عارمُ

---

(١) البيان والتبيين : ١ـ ١٨٠ ، ٢ـ٨٨ . (٢) البذا : السفه والإفحاش في المنطق .
(٣) في ط : زوانيا . (٤) الخنا : الفحش . (٥) الأغاني : ١ ـ ١٠٧ ، ديوانه ٤٣ . (٦) في ط : عازم ـ بالزاي ، والعارم : الشديد.

فقلت أصبح[1] أم مصابيح راهبٍ ... بدت لك خلف السَّجف[2] أم أنتَ حالم
بعيدةُ مَهْوَى القُرْطِ إمَّا لنوفلٍ ... أبوها وإمَّا عبــدُ شمس وهاشم

فقال : يا أمير المؤمنين ، فإنَّ بَعْدَ هذا :

طلبْنَ الهوَى حتى إذا ما وجدنَهُ ... صَدَدْنَ وهُنَّ المسلماتُ الكرائمُ[3]

فاستحيا منه عبدُ الملك وقضى حوائجه ووصله .

وقال آخر فى هذا المعنى :

تَعَطَّلْن إلَّا مِنْ محاسنِ أَوْجهٍ ... فهنَّ حَوالٍ فى الصفات عَوَاطِلُ[4]
كواسٍ عَوَارٍ صامتات نواطقٌ ... بِعِفِّ الكلام باخِلاتٌ بَوَاذل
بَرَزْنَ عَفافًا واحتجَبْنَ تستُّرًا ... وشِيبَ[5] بحقِّ القولِ منهنَّ باطِلُ
فذو الحلم مرتادٌ ، وذو الجهل طامعٌ ... وهنَّ عن الفحشاء حِيدٌ نواكل

وقال المُدَيل بن الفَرْخ فيما يتطرف طرفا من هذا المعنى :

لعبَ النعيمُ بهن فى أطلاله[6] ... حتى لبسن زمانَ عَيْشٍ غافلِ
يأخذن زينتهن أحسن ما ترى ... فإذا عَطِلْنَ فهنَّ غيرُ عَوَاطلِ
وإذا خَبَأْنَ خدودهن[7] أرَيْنَنَى ... حدَقَ المَها[8] وأخذن نَبْلَ القاتلِ
يرميننا لا يستَتِرْنَ بِجُنَّةٍ ... إلا الصِّبا وعلمن أيْنَ مقاتلى
يلبسن أرْديةَ الشباب لأهلها ... ويجرّ باطلهنَّ ذَيْلَ[9] الباطلِ

---

(١) فى الأغانى والديوان : أشمس أم مصابيح بيعة . (٢) السجف : الستر .
(٣) رواية هذا البيت فى الديوان :
طلبن الصبا حتى إذا ما أصبنه ... نزعن وهن المسلمات الظوالم
(٤) حوال : جمع حالية ، والعواطل : جمع عاطل ، وهى التى تعطلت من الحلى .
(٥) شيب : مزج . (٦) فى ط : أظلاله . (٧) فى ت : وجوههن .
(٨) المها : واحدها مهاة ، وهى الظبية . (٩) فى ت : حبل .

وتعرَّضَ لعبد الله بن الحسن رَجُلٌ بما يَكْرَهُ فقال فيما أنشده ثعلب :

أظنَّتْ سَفاها من سَفَاهَةِ رأيِها ... أن أهْجُوَها لما هَجَتْني مُحارِبُ[1]

فلا وأبيها إنني بعشيرتي ... ونفسيَ عن ذاك المقام لَرَاغِبُ

وأنشد هذين البيتين أبو العباس المبرّد لرجل لم يسمّه في رجل يُعْرَفُ بابن البعير وقبلهما :

يقولون أبناء البَعِير وما لهُمْ ... سَنامٌ ولا في ذِرْوَةِ المجد غارِبُ

وسايَرَ عبدُ الله بن الحسن أبا العباس السفاح بظَهْرِ مدينةِ الأنبار وهو يَنْظُرُ إلى بناء قد بناه أبو العباس ويدور به ، فأنشد عبدُ الله :

ألم تَرَ جَوْشَنًا لما تبنَّى ... بناء نفعه لبني بُقَيْلَه[2]

يؤمِّل أنْ يُعَمَّرَ عُمْرَ نُوحٍ ... وأمْرُ الله يَحْدُثُ كلَّ لَيْلَه

وكان أبو العباس له مُكْرِماً ، ولحقّه معظّماً ؛ فتبسّم مغضَباً وقال : لو عَلِمْنا لاشترطنا حقّ المُسَايرة ! فقال عبدُ الله : بوادِرُ الخواطر ، وأغفال المسامع ؛ والله ما قلتُها عن رَوِيَّة ، ولا عارضَني فيها فِكر[3] ؛ وأنتَ أجلُّ من أقال ، وأوْلَى مَنْ صَفَح . قال : صدقت ؛ خُذْ في غير هذا .

ولما قتل المنصور ابنه محمدا ، وكان عبدُ الله في السجن بعث برأسه إليه مع الربيع حاجبه ؛ فوُضع بين يديه فقال : رحمك الله أبا القاسم فقد كنتَ من[4] « الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ . وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ » ! ثم تمثّل :

فتًى كان يَحْمِيه من الذلّ سَيْفُهُ ... ويكفيه سوءاتِ الأمورِ اجتنابُها

ثم التفتَ إلى الربيع فقال له : قُلْ لصاحبك قد مضى من بُؤْسنا مدة ،

---

(١) محارب : اسم قبيلة . (٢) بنو بقيلة : بطن من الحيرة .

(٣) في ط ، ق : ذكر . (٤) سورة الرعد : ٢٠ ، ٢١ .

نعيمك مثلُها ؛ والموعدُ الله تعالى ! قال الربيع : فما رأيت المنصور قطّ أكثرَ انكساراً منه حين أبلغتهُ الرسالة .

أخذ العباس بن الأحنف هـذا المعنى ، وقيل عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير ، فقال :

فإن تَلْحَظى حالى وحالكِ مرةً ... بنظرة عَيْنٍ عن هوى النفس تُحْجَبُ

تَجِد كلّ يوم مرّ من بُؤْسِ عيشتى ... يمرّ بيوم من نعيمكِ يُحْسَبُ

ولما قتل المنصور محمد بن عبد الله اعترضته امرأةٌ معها صبيان ، فقالت : يا أميرَ المؤمنين ، أنا امرأةُ محمد بن عبد الله ؛ وهذان ابناه ، أيتمَهُما سيفُك ، وأضرَعهما(1) خوفُكَ . فناشدتُك اللهَ يا أمير المؤمنين أن تُصَعِّرَ لهما خدَّك ، أوْ ينأى عنهما رِفدك ؛ ولتَعْطِفْك عليهما شوَابكُ النسب ، وأَوَاصِرُ الرَّحِم(2) . فالتفتَ إلى الربيع ، فقال : اردُدْ عليهما ضِياعَ أبيهما ؛ ثم قال : كذا والله أحبُّ أن تكونَ نساء بنى هاشم .

من كلام امرأة من بنى هاشم

وكان أهلُ المدينة لما ظهر محمد أجْمَعُوا على حربِ المنصور ، ونَصْرِ محمد ؛ فلما ظفِرَ المنصور أحضر جعفر بن محمد بن على بن الحسين الصادق ، فقال له : قد رأيتَ إطباقَ أهلِ المدينة على حَرْبِى ، وقد رأيتُ أن أبعثَ إليهم من يُعَوِّر عيونَهم ، ويُجَمِّرَ نخلَهم(3) . فقال له جعفر : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنّ سليمانَ أُعْطِى فشكر ، وإنّ أيوبَ ابتُلى فصبَرَ ، وإنّ يوسف قدَرَ فَغَفَرَ ؛ فاقْتَدِ بأيِّهم شئت ، وقد جعلك الله من نَسْلِ الذين يَعْفُون ويَصْفَحُون . فقال أبو جعفر : إنّ أحداً لا يُعَلِّمُنا الحِلْمَ ، ولا يعرِّفُنَا العلم ، وإنما قلت هَمَمْت ، ولم ترَنى فعلت ؛ وإنكَ لتعلمُ أن قدرتى عليهم تمنعُنى من الإساءةِ إليهم .

من كلام جعفر بن محمد

وعزّى جعفرُ بن محمد رجلاً ، فقال : أعْظِمْ بنعمة فى مصيبة جَلَبَتْ أجراً ، وأقْطِعْ بمصيبةٍ فى نعمةٍ أكسبت كُفراً ؛ هذا كقول الطائى(4) :

---

(1) أذلهما . (2) أواصر : جمع آصرة ، وهى من الرحم والقرابة .

(3) جمر النخلة : قطع جمارها . (4) ديوانه : ٣١٦ .

قد يُنعِمُ اللهُ بالبَلْوَى وإن عظُمت ... ويَبْتَلِي اللهُ بعضَ القَوْمِ بالنِّعَمِ

وكان جعفرُ بنُ محمد يقولُ : إنّى لأُمْلِقُ أحيانًا فأُتاجر اللهَ بالصدقة فيُرْبِحنى .

وقال جعفر رضى الله عنه : من تخلّق بالخلُقِ الجميل وله خُلُقُ سوء أصيل فتخلُّقُه لا محالةَ زائل ، وهو إلى خُلُقــه الأوّل آيل ، كطلى الذهب على النحاس يَنْسَحِق وتظهر صُفْرَتُه للناس . وهذا كقول المَرْجى[1] :

يأيهــا المتحلِّى غيرَ شيمتِه ... ومن خلائقه الإقصارُ والمَلَق

ارجع إلى خُلقك المعروف وارْضَ بِه ... إنّ التخلّقَ يأتِى دُونه الخُلُقُ

وكان يقول : ما توسّلَ إلىّ أحــدٌ بوسيلة هى أقرب إلىّ من يدٍ سبقَتْ منى إليه أتْبِعها أختَها لتحسن ربَّها وحِفْظَها[2] ؛ لأنّ مَنْعَ الأواخر يقطعُ لِسانَ الأوائل .

وقيل لجعفر رحمه الله : إنّ أبا جعفر المنصور لا يلبسُ مذ صارت إليه الخلافةُ إلّا الخشِن ، ولا يأكلُ إلا الجَشِب[3] . فقال : يا وَيْحَه ! مع ما مُكّن له من السلطان، وُجِبِىَ إليه من الخراج ! قالوا : إنما يَفْعَل ذلك بُخْلًا وجمعاً للمال . فقال : الحمد لله الذى حَرَمه من دُنْياه ما ترك له من دينه . انتهى .

قال : ومن دعاء جعفر رضى الله عنه : اللهم إنك بما أنت أهلٌ له من العفو أوْلى بما أنا أهلٌ له من العقوبة .

من كلام عبد الله ابن معاوية

وكان عبدُ الله [بن معاوية بن عبد الله][4] بن جعفر عالمًا ، وكان خطيباً مُفَوّهاً، وشاعراً مُجيداً ؛ كتب إلى بعض إخوانه : أما بعدُ فقد عاقَنِى الشكُّ فى أمْرِك عن عزيمة الرَّأْيِ فيك ، وذلك أنك ابتدأْتَنِى بلُطْفٍ عن غير خِبْرَة ؛ ثم أعْقَبْتَنِى جَفاء عن غير جَرِيرة ؛ فأطْمَعَنِى أوّلُك فى إخائك ، وأيأسَنِى آخِرُك عن

---

(١) المختار من شعر بشار : ١٨١ ، الكامل : ١١ ، الحماسة : ٣٤١ ، وهى منسوبة فى الكامل والحماسة إلى سالم بن وابصة الأسدى . (٢) ربّ الشىء : أصلحه .

(٣) الجشب : هو الطعام الغليظ ، أو الذى لا أدم فيه . (٤) ليست فى ت .

وفائك ؛ فلا أنا في غير الرجاء مُجْمِعٌ لك اطِّراحاً ، ولا أنا في غَدٍ[١] وانتظاره منك . على ثقةٍ ؛ فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الشكِّ في أمرك عن عزيمة الرأى فيك ؛ فاجتمعْنا على ائتلاف ، أو افترقنا على اختلاف ؛ والسلام .

وهو القائل[٢]:

رأيتُ فُضَيْــلاً كان شيئاً مُلَفَّفاً … فكشَّفه التمحيص حتى بَدَا ليا[٣]
فأنتَ أخى ما لم تكن لىَ حاجةٌ … فإن عَرَضَت أيقنتُ أن لا أخا ليا
كلانا غَنِيٌّ عن أخيــه حياتَه … ونحن إذا مُتْنَا أشــدُّ تغانيا
فلا زادَ ما بينى وبينكَ بعــدما … بلوتُك في الحاجاتِ إلَّا تماديا[٤]
فعينُ الرضا عن كل عَيْبٍ كليلةٌ … كما أنّ عينَ السخط تُبدى المساويا

والقائل أيضاً[٥]:

لَسْنَا وإنْ أحْسابُنَا كَرُمَتْ[٦] … يوماً على الأَحْسَابِ نَتَّكِلُ
نَبْنى كما كانَتْ أوائِلُنَا … تَبْنى ونَفْعَلُ مِثْلَ ما فَعَلُوا

وهذا كقول عامر بن الطُّفَيل ؛ قال أبو الحسن على بن سليمان الأخفش: أنشدنى محمد بن الحسن بن الحرون لعامر بن الطفيل[٧]:

تقول ابنــةُ العَمْرِىِّ مالَكَ بعدَما … أراكَ صحيحاً كالسَّليم المُذَّبِ[٨]
فقلتُ لهــا هَمِّى الذى تَعْرِفِينَهُ … من الثأرِ في حَيَّىْ زُبَيْدٍ وأَرْحَبِ[٩]
إن أغْزُ زُبيداً أغْزُ قوماً أعِزَّةً … ومركبهم في الحىِّ خَيْرُ مَرْكَبِ[١٠]
وإنْ أغْزُ حَيَّىْ خَثْعَم فدماؤهم … شِفَاءٌ وخــيرُ الثأر للمتأوِّبِ[١١]

---

(١) في ط ، ق : عدم . (٢) الكامل : ١ — ١٢٥ . (٣) ملفعا : مغطى . والتمحيص الاختبار . وفي ت : ملفقا . (٤) في ت : تنائيا . (٥) الأمالي : ٣ — ١٣ .

(٦) في الأمالي : لسنا وإن كرمت أوائلنا . (٧) الشعر والشعراء : ٢٩٥ ، والكامل : ١ — ٩٥ ، ذيل اللآلى : ٥٥ . (٨) السليم : الملدوغ . (٩) زبيد وأرحب : حيان من اليمن.

(١٠) في الكامل ، وفي ت : « مركبهم في الحى خير مركب » .

(١١) المتأوب : الذى يأتيك لطلب ثأره عندك .

فما أدْرَكَ الأوْتارَ مِثْلُ محقّقٍ ... بأجْرَدَ طاوٍ كالعَسيب المُشَذَّبِ[١]
وأسْمَرَ خَطّيّ وأبيضَ باتِرٍ ... وزَغْفٍ دِلاصٍ كالغدير المُثَوَّبِ[٢]
وإنى وإن كنتُ ابنَ سيدِ عامرٍ ... وفى السرِّ منها والصريح المهذَّبِ
فما سوّدتنى عامرٌ عن وراثةٍ ... أبَى الله أن أسمو بأمٍّ ولا أبِ
ولكننى أحمى حِمَاها ، وأتقى ... أذَاها ، وأرمى مَنْ رماها بمَنكِبِ[٣]

وقال أيضاً يهنّىء بعضَ الهاشميين بإملاك[٤] : زاد الله فى نعمته ، وبارك لكم فى فَوَاضِلِه وجميل نوافله ؛ ونسألُ الله — الذى قسم لكم ما تحبُّون من السرور — أن يجنِّبكم ما تكرهون من المحذور ، ويجعل ما أحدثه لكم زَيْنا ، ومتاعاً حسنا ، ورشداً ثابتا ، ويجعل سبيلَ ما أصبحت عليه تماما لصالح ما سَمَوْتَ إليه ؛ من اجتماع الشَّمل ، وحُسْن موافقةِ الأهْلِ ؛ ألّفَ اللهُ ذلك بالصلاح ، وتمّمه بالنجاح ، ومَدّ لك فى ثروة العدد ، وطِيب الولد ، مع الزيادة فى المال ، وحُسْنِ السلامةِ فى الحلال ، وقُرّة العين ، وصلاح ذات البَيْن .

بين الأسلمى والحسن بن زيد

وهجا أبو عاصم محمد بن حمزة الأسلمى المدنى الحسن بن زيد بن الحسين[٥] بن على ابن أبى طالب رحمة الله عليه فقال :

له حقٌّ وليس عليه حَقّ ... ومهما قال فالحسَن الجميلُ
وقد كان الرسولُ[٦] يَرى حقوقاً ... عليه لغيره وهو الرسولُ

فلما ولى الحسن المدينة أتاه متنكّراً فى زى الأعراب فقال :

ستأتى مِدحتى الحسنَ بن زَيْدٍ ... وتشهد لى بصِفّين القبورُ[٧]

---

(١) الأوتار : الأحقاد ، والأجرد : المنحسر الشعر ، والعسيب : السعفة.
(٢) خطى : رمح منسوب إلى الخط . والزغف : الدرع الرقيقة النسج . والمثوب : الذى تصفقه الرياح فيذهب ويجىء . والدلاص : الدرع اللينة الملساء . (٣) فى ط : من وراءها ، وفى الكامل : بعقب . (٤) الإملاك : الزواج . (٥) فى ط : بن الحسن ، والذى ولى المدينة : هو الحسن ابن زيد بن على بن أبى طالب . (٦) فى ت : النبى . (٧) صفين : موضع كانت فيه الوقعة بين على ومعاوية .

قبورٌ لم تَزل مُذْ غاب عنها　　　أبو حسن تُعاديها الدّهور
قبور لو بأحمد أو عليّ　　　يلوذُ مُجيرُها حُمِيَ الُمجير
هما أبواكَ مَنْ وَضَعَا فضَعْهُ　　　وأنت برَفْعِ مَنْ رَفَعا جديرُ

فقال : من أنت ؟ قال : أنا الأسلمى . قال : ادْنُ حيَّاكَ الله ! وبسط له رداءه وأجلسه عليه ، وأمر له بعشرة آلاف درهم .

وكان الحسن بن زيد قد عوّد داود بن سَلْم مولى بنى تيم أن يَصِلَه، فلما مدح داود بن الحسن
جعفر بن سليمان بن على ، وكان بينه وبين الحسن بن زيد تباعدٌ أغضبه ذلك ، وقدم ابن زيد
الحسن مِنْ حجّ ، أو عُمرة ، فدخل عليه داود بن سلم مهنّئاً ، فقال : أنْتَ القائل فى سلم وداود بن
جعفر بن سليمان بن على :

وكنّا حديثاً قبل تأمير جَعْفر　　　وكان المنى فى جعفر أن يُؤمّرا[1]
حوى المنبرين الطاهرين كليهما　　　إذا ما خَطَا عن منبر أمّ منبرا
كأنّ بنى حَوّاء صُفّوا أمامهُ　　　فخُيّرَ فى أنسابهم فتخيّرا

فقال داود : نعم جعلنى اللهُ فِدَاكَ ، فكنتم خيرة اختياره ! وأنا القائل :

لعمرى لئن عاقبتَ أو جُدْتَ مُنْعِماً　　　بعَفْو عن الجانى وإن كان مُعْذِرا[2]
لأنتَ بما قدّمت أوْلى بمدحِهِ　　　وأكرم فخراً إن فخرت وعُنصرا
هو الغُرّة الزّهْراء من فَرْع هاشم　　　ويدعو عَليّاً ذا المعالى وجعفرا
وزيد الندى والسِّبط سبط محمدٍ　　　وعمك بالطف[3] الزّكى المطهّرا
وما نال منها جعفر غيرَ مجلس　　　إذا ما نفاه العَزْل عنه تأخرا[4]
بحقكمُ نالوا ذُراها وأصبحوا　　　يرون به عزّاً عليكم ومظهرا[5]

---

(١) يؤمر : يولى الامارة .　(٢) معذر : قدم العذر .
(٣) فى ط ، ت : بالطف .　(٤) العزل : الضعف .
(٥) فى ت : ومفخرا .

فعاد له الحسنُ بنُ زيد إلى ما كان عليه، ولم يزَلْ يَصِلهُ ويُحْسِنُ إليه إلى أن مات.

وقوله : « وإن كان ممذوراً » لأنَّ جعفراً أعطاه على أبياته الثلاثة ألف دينار[1].

ولما ولى الحسن بن زيد المدينة دخل عليه إبراهيمُ بن على بن هَرْمَة ، فقال له الحسن : يا إبراهيم ؛ لستُ كمن باعَ لك دِينَه رجاءَ مَدْحِك ، أو خَوْفَ ذمِّك ؛ فقد رزقنى اللهُ تعالى بولادة نبيِّه صلى الله عليه وسلم المَادح ، وجنَّبنى القَابِح ، وإنَّ من حقِّه علىَّ ألاَّ أُغْضِىَ على تقصيرٍ فى حقٍّ وَجَب ؛ وأنا أُقسم لئن أُتِيتُ بكَ سكرانَ لأضربنَّك حدًّا للخمر ، وحدًّا للسكر ؛ ولأزيدنَّ لموضع حُرْمَتك بى ؛ فلْيكُن تَرْكُكَ لها لِلّه عزَّ وجل تُعَنْ عليه ، ولا تَدَعْها للناس فتُوكَل إليهم .

بين ابن هرمة والحسن ابن على

فنهض ابن هَرْمة وهو يقول[2] :

نهانى ابنُ الرسولِ عن المُدامِ ... وأدَّبنى بآدابِ الكرامِ
وقال لىَ اصطبر عنها ودَعْها ... لخوفِ الله لا خوف الأنامِ
وكيف تَصَبُّرى عنها وحُبى ... لها حُبٌّ تمكَّنَ فى عظامى
أرى طيبَ الحلالِ علىَّ خُبثاً ... وطيب العيش فى خبث الحرَامِ

وكان إبراهيم منهوماً فى الخمر ، وجَلَده خُثَيْم[3] بن عِرَاك صاحبُ شُرْطة المدينة لرباح بن عبد الله الحارثى فى ولاية أبى العباس .

ولما وفد على أبى جعفر المنصور ومدحه استحسن شِعْرَه ووصله ، وقال له : سَلْ حاجتك . قال : تكتبُ لى إلى عامل المدينة ألاَّ يَحُدَّنى إذا أُتِىَ بى سَكْرَان . فقال أبو جعفر : هذا حدٌّ من حدود الله تعالى لا يجوزُ أن أُعطِّله . قال : فاحْتَلْ لى يأميرَ المؤمنين ! فكتب إلى عامل المدينة : « من أتاكَ بابنِ هرمة سكران فاجْلِده مائة ، واجلد ابن هرمة ثمانين » .

(١) فى ط : على أبياته ثلاثة آلف دينار ! (٢) المختار من شعر بشار : ١٠٥ ، العقد الفريد : ٣ — ٣٩٩ . (٣) فى ت : خثيم .

فكان الشُّرَط يمرون به مطروحاً فى سِكَكِ المدينة ، فيقولون : مَنْ يشترى مائة بثمانين !!

من كلام موسى بن عبدالله

وقال موسى بن عبد الله[1] بن على بن أبى طالب :

إذا أنا لم أقبل من الدهر كلَّ ما ... تكرَّهْتُ منه طال عَتْبى على الدَّهرِ
إلى اللهِ كلُّ الأمر فى الخلق كلهم ... وليس إلى المخلوق شىء من الأمر
تعودت مَسَّ الضرِّ حتى ألفتُه ... وأسلمنى طولُ[2] البلاء إلى الصبر
ووسَّع صدرى للأذى الأُنسُ بالأذى ... وإن كنتُ أحياناً يضيقُ به صدرى
وصيَّرنى يأسى من النـــاس راجياً ... لسُرْعَةِ لطفِ الله من حيثُ لاأدرى

وموسى بن عبد الله هو القائل :

تولَّت بهجةُ الدنيـا ... فكل جديدها خَلَقُ[3]
وخان الناسُ كلُّهمُ ... فما أدرى بِمَنْ أثِقُ
رأيت معالمَ الخيرا ... تِ سُدَّتْ دونها الطرُق
فلا حسَبٌ ولا نَسَبٌ ... ولا دِينٌ ولا خُلُق
فلستُ مصدق الأقوا ... م فى شىء وإن صدَقُوا

وكان المنصورُ حبَسَه لخروجه عليه مع أُخَوَيْهِ، ثم ضربه ألفَ سَوْطٍ ، فما نطقَ بِحَرْفٍ واحد ؛ فقال الربيع : عذرتُ هؤلاء الفسّاق فى صَبْرِهم ؛ فما بَالُ هذا الفتى الذى نشأ فى النعمة والدَّعة ؟ فقال :

إنِّى من القوم الذين يَزِيدُهم ... جَلَداً وصَبْراً قسوةُ السلطانِ

وولدت هنـــد بنت أبى عبيدة بن عبد الله بن زَمعة موسى ، ولها ستُّونَ سنة ، ولا يعلم امرأةٌ ولدت بنت ستين سنة إلا قرشيّة .

(١) ق ت : بن الحسن بن الحسين بن على . (٢) ق ت : حسن العزاء .
(٣) الخلق : البالى .

من كلام علي بن محمد — اجتاز علي بن محمد العلوي بالجسر بحِدْثان[1] قتلِ عمر بن يحيى بن عبد الله بن الحسين ، وقاتلُه الحسينُ بن إسماعيل هناك قد جرَّد رجلا للقتل ، فلما رأت أمُّ الرجل عليا سألته أن يشفَع فيه ، قال عليٌّ إلى الحسين[2] فأنشده :

قتلت أعزَّ من رَكِبَ المطايا ... وجئتُك أستَلِينُك بالكلامِ

وعزَّ عليَّ أن أَلقاكَ إلا ... وفيما بيننا حَدُّ الحُسَامِ

ولكنَّ الجناحَ إذا أُصِيبت ... قَوَادِمُهُ يرف على الإكَامِ[3]

فقال له : وما حاجَتُكَ ؟ قال : العفوُ عن ابنِ هذه المرأة ! فتركه .

من كلام العباس بن الحسين — وسُئِل العباسُ بن الحسين[4] عن رجلٍ . فقال لجليسه : أطرب من الإبل على الحُدَاء ، ومن الثمل على الغِناء .

وذكر العباس رجلا فقال : ما الحِمام على الأحْرَار ، وطول السقم في الأسْفَار ، وعِظَم الدَّين على الإقتار ، بأشدَّ من لقائه .

وقال العباسُ بن الحسين[4] للمأمون : يا أمير المؤمنين ؛ إن لساني ينْطَلِق بمدْحِكَ غائبا ، وقد أحببتُ أن يتَزَيَّدَ عندك حاضرا ، أفتأذنُ لي يا أمير المؤمنين في الكلام ؟ فقال له : قل ؛ فوالله إنك لتقولُ فتُحْسِن ، وتحضر فتزيّن ، وتغيب فتُؤْتَمَن . فقال : ما بعدَ هذا كلام يا أميرَ المؤمنين ! أفتأذن بالسكوت ؟ قال : إذا شئت .

وذكر رجلا بليغا فقال : ما شَبَّهْتُ كلامَه إلا بثعبان ينهالُ بين رِمَال ، وماء يتغلغل بين جِبَال .

وسمِعَ المتجعِ بن نَبْهان كلامَ العباس بن الحسين فقال : هذا كلامٌ يدلّ سائرُه على غابِره وأولُه على آخره .

---

(١) حدثان الأمر : أوله وابتداؤه . (٢) في ت : إلى الحسن .
(٣) الإكام : جمع أكمة ، وهي التل ، وفي ت : يكب على الإكام .
(٤) في ت : [illegible] .

وسأل المأمونُ العبـــاسَ بن الحسين عن رجل ، فقال : رأيتُ له حِلْماً وأناة ، ولم أسمع لَحْناً ولا إحالة[١] ؛ يحدِّثك الحديثَ على مَطَاوِيه ، ويُنشِدُك الشعرَ على مَدارجه .

وكان المأمون يقولُ : من أراد أن يسمعَ لَهْوًا بلا حَرَج فليسمعْ كلامَ العباس .

والعباس بن الحسين من أشعَرِ الهاشميين ؛ وهو يُعَدّ في طبقة إبراهيم بن المهدى ، وهو القائل :

أتاح لك الهوى بِيضٌ حسانٌ ... سَبَيْنَك بالعيون وبالشعورِ[٢]
نظرتُ إلى النحور فكدتُ تقضى ... وأولى لو نظرتَ إلى الخصورِ

وهو القائل أيضاً[٣] :

صادَتْك من بعض[٤] القصو ... رِ بيضٌ نواعمُ[٤] في الخدورِ
حُورٌ تحور إلى صِبَا ... كَ بأعيُنٍ منهن حُورِ
وكأنما بثغــورهـ ... ـنّ جَنَى الرُّضاب[٥] من الخمور
يَصبغْنَ تُفّاحَ الخـــدو ... دِ بماء رُمّانِ الصدور

وهو العباسُ بن الحسين بن عبيد الله بن العباس بن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وأم عبيد الله جدّة بنت عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب عم محمد بن على أبى الخلفاء[٦] .

وكان الرشيدُ والمأمونُ يقرِّبانِ العباسَ غايةَ التقريب ؛ لِنَسَبِه وأدبه ؛ قال أبو دُلَف : دخلتُ على الرشيد وهو فى طارِمة[٧] على طِنْفِسة ، ومعه عليها شيخٌ جميلُ المنظر ؛ فقال لى الرشيد : يا قاسم ؛ ما خَبَرُ أرْضك ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، خَرَابٌ

---

(١) الإحالة : التكلم بالمحال . (٢) فى ت : وبالثغور . (٣) المختار من شعر بشار : ٢٤٩ ، الأغانى ٤ — ١٦٦ . (٤) فى المختار : من عين ... أوانس .
(٥) فى ت : جنى الرضاب على . وفى المختار : وكأنما برضابهن جنى الرحيق .
(٦) فى ت : عم الخلفاء . (٧) الطارمة : بيت من خشب كالقبة .

بِبَاب، أخْرَبَهَا الأكراد والأعراب. فقال قائل: هذا آفةُ الجبل، وهو أفسده. فقلت أنا أصْلحه . قال الرشيد : وكيف ذلك ؟ قلت : أفسَدتُه وأنت عليّ وأصْلِحه وأنتَ معي ! فقال الشيخُ[1]: إن همّته لترى به من وراء سنّه مَرْمًى بعيداً ؛ فسألت عن الشيخ فقيل : العباس بن الحسين . وكان أبو دُلَف ذلك الوقت صغيرَ السنّ .

من كلام موسى بن جعفر

ولقى موسى بن جعفر رضى الله عنه محمد بن الرشيد الأمين بالمدينة وموسى على بَغْلَة ، فقال للفضــــل بن الربيع : عاَتِبْ هذا . فقال له الفضلُ : كيف لقيت أمير المؤمنين على هــذه الدابة التى إن طَلَبْتَ عليها لم تَسْبِق ، وإن طُلبت عليها تُلحق ؟ فقال : لست أحتاجُ أن أطلب ، ولا إلى أن أُطلب؛ ولـكنها دابّةٌ تنحطّ عن خُيلاء الخيل ، وترتفع عن ذِلة العَيْر[2] ، وخيرُ الأمورِ أوسطُها .

على بن موسى

أُصِيب على بن موسى بمصيبة ، فصار إليه الحسنُ بن سهل ، فقال : إنا لم نَأْتِكَ معَزّين ؛ بل جئناك مُقْتَدِين؛ فالحمدُ لله الذى جعل حياتكم للناس رَحْمَة، ومصائبكم لهم قدوة .

وكان عليّ بن موسى الرضا رحمه الله قد ولّاه المأمون عَهْدَه ، وعقد له الخلافةَ بعده ، ونزع السّواد عن بنى العباس ، وأمرهم بلباس الخضرة ، ومات على بن موسى فى حياةِ المأمون بطُوس ، فشقّ [المأمونُ][3] قبر الرشيد ودُفِن فيه تبرّكا به ، وكان الرشيد قد مات بطُوس فدفن هناك ؛ ولذلك قال دِعْبِل بن على الخزاعى :

من شعر دعبل فى آل البيت

ارْبَعْ بطُوس على قَبْرِ الزكىّ بها[4]	إن كنت تربع من دِين على وَطَرِ[5]
ما ينفع الرِّجس من قُرْب الزكى ولا	على الزكىّ بقرب الرجْس من ضَرَرِ
هيهات كلّ امرئ رَهْنٌ بما كسبت	له يداه فخُذْ من ذاك أو فذَرِ
قَبْرَانِ فى طُوس خَيْرُ الناس كلهم	وقبر شرّهم هــذا من العِبَرِ

---

(١) فى ط ، ق : فقال الرشيد . (٢) العير : الحمار . (٣) زيادة من ت .
(٤) فى ت : له . (٥) تربع : تقيم ، والوطر : الحاجة .

وكان دعبل مداحاً لأهلِ البيت ، كثير التعصُّب لهم ، والغلوّ فيهم .

وله المرثية المشهورة وهى من جيّد شعره ، وأولها[١] :

مَدَارِس آياتٍ عَفَتْ من تِلاوةٍ ... وَمَنْزِلُ وَحْىٍ مُقْفِرُ العَرَصَاتِ[٢]
لآلِ رسولِ الله بالخَيْفِ من مِنًى ... وبالبيتِ والتَّعْرِيفِ والجَمَرَاتِ
دِيَارُ علىٍّ والحسينِ وجَعْفَرٍ ... وحمزة والسَّجَّاد ذِى الثَّفِنَاتِ[٣]
قِفا نَسْأَلِ الدَّارَ التى خفَّ أهلُها ... متى عَهْدُها بالصَّوْمِ والصلوَاتِ
وأينَ الأُلى شَطَّتْ بهم غُرْبَةُ النَّوَى ... أفانينَ فى الآفاقِ مُفْتَرِقاتِ
أُحِبُّ قَصِىَّ الدارِ من أجل حُبِّهم ... وأهْجُرُ فيهم أُسْرَتِى وثِقَاتِى

وهى طويلة[٤] .

بين المأمون وبين دعبل

ولما دخل المأمونُ بغداد أحْضَرَ دِعبلا بعد أن أعْطاه الأمان ، وكان قد هجاه وهجَا أباه ، فقال : يادعبل ؛ منَ الحَضِيضِ الأوهد ! فقال : ياأميرَ المؤمنين ، قد عفوتَ عمن هو أشدُّ جُرْماً منى ! أراد المأمون قول دعبل يهجوه[٥] :

إنِّى من القوم الذين سيوفُهم[٦] ... قتلَتْ أخاكَ وشرفَتْك بِمَقْعَدِ
شادُوا بذِكرِك بعد طولِ خُمُولِه ... واستنقذوك من الحَضِيضِ الأوْهَدِ

يفتخِرُ عليه بقَتْلِ طاهر بن الحسين بن مصعب ذى اليمينين أخاه محمدا ، وطاهر مولى لخزاعة ؛ فاستنشده هذه القصيدة التائية فاستعفاه ، فقال : لابأسَ عليك ، وقد رويتُها ، وإنما أحببت أن أسمَعَها منك . فأنشدها دعبل ؛ فلما انتهى إلى قوله :

ألم ترَ أنى مذ ثلاثين حِجَّةً ... أروح وأغدُو دائمَ الحسَرَاتِ

(١) معجم الأدباء : ١١ — ١٠٣ . (٢) العرصة : وسط الدار .
(٣) فى ط : والثفنات . والثفنة من البعير : ما لاصق الأرض منه إذا استناخ .
(٤) تجدها فى معجم الأدباء : ١١ — ١٠٣ . (٥) معجم الأدباء : ١١ — ١٠٠ .
(٦) فى ت : الذين هم قتلوا أخاك وشرفوك .

أرى فَيْئهم في غيرهم مُتَقَسَّماً ... وأيديهمُ من فيئهم صَفِرات[١]
إذا وُتِروا مدّوا إلى أهل وِتْرِهم ... أكُفًّا عن الأوتار مُنْقَبِضاتِ
وآلُ رسول الله تُحْفٌ جسومهم ... وآل زياد غُلَّظُ القَصَرَاتِ[٢]
بناتُ زيادٍ في القصورِ مَصُونةٌ ... وبنت[٣] رسول الله في الفَلَوَاتِ

بكى المأمون وجدّد له الأمان وأحْسَن له الصّلة .

ومن شعر سليمان بن قتيبة

والشيء يستدعى ماقرَع بابه ، وجذبَ أهْدَابَه[٤] ، قال سليمان بن قتيبة :

مررتُ[٥] على أبيات آل محمــدٍ ... فلم أرَها عَهْدِى[٦] بها يوم حُلّتِ
فلا يبعــد الله الديارَ وأهلَها ... وإن أصبحَتْ من أهلها قد تخلّتِ
وكانوا رجاء ثم عادوا رَزِيّةً ... ألا عظُمَت تلك الرزايا وجلّتِ
وإن قتيــل الطّفّ من آلِ هاشم ... أذلّ رقابَ المسلمين فذلّتِ[٧]

ويشبه قوله: « وكانوا رجاء ثم عادوا رزية » قولَ امرأةٍ من العرب مرّت بالجسر بجثّة جعفر بن يحيى البرمكى مَصْلُوبا ؛ فقالت: لئن أصبحت نهايةً فى البلاء لقد كنت غايةً فى الرجاء .

ألفاظ لأهل العصر فى أوصاف الأشراف

لها فى هذا الموضع مَوْقع

فلان من شرَفِ العنصر الكريم ، ومعدن الشرف الصميم . أصلٌ راسخ ، وفرع شَامِخ ، ومَجْدٌ بَاذِخ ، وحَسَبٌ شَادِخ[٨] .

---

(١) صفرات : خاليات . (٢) فى معجم الأدباء : حفل القصرات . القصرات: جمع قصرة : أصل العنق . (٣) فى معجم الأدباء ، ت : وآل رسول . (٤) فى ت : هدابه ، والهداب: ماتهدل من الأغصان . (٥) فى ت : صدرتم . (٦) فى ت : كعهدها .
(٧) قتيل الطف : الحسين . (٨) شادخ : من قولهم غلام شادخ : شاب . وفى ط : شاذخ .

فلان كريمُ الطرَفين ، شريف الجانبَين، قد ركّبَ الله دَوْحَتَه فى قرارةِ المَجْدِ، وغرس نَبْعَتَه فى محلّ الفضـــل ، أصْلٌ شريف ، وعِرْق كريم ، ومَغْرِس عظيم ، ومَغْرِز صميم . المجد لسانُ أوصافه ، والشرفُ نَسَبُ أسلافِه نسبٌ فَخم ، وشرفٌ ضخم. يستوفى شرفَ الأرومة[1] بكرم الأبوّة والأمومة، وشرف الخؤولة والعمومة. ما أتته المحاسنُ عن كَلَالَة[2] ، ولا ظَفِر بالهدى عن ضلالة ؛ بل تناول المجدَ كابراً عن كابر ، وأخذ الفخرَ عن أسِرّة ومنابر :

شرفٌ تَنَقّل كابراً عن كابرٍ ۝ كالرمح أنبوبا على أنبوبِ

استق عِرْقُه من مَنْبَع النبـوة ، ورضعت شجرَتُه من ثَدْى الرسالة ، وتهدّلت أغصـانُه عن نَبْعَة الإمامة ، وتبجّحت أطْرافُه فى عَرْصَة الشّرَف والسـيادة ، وتفقّأت بيضته عن سُلالةِ الطّهارة ، قد جَذَبَ القرآنُ بِضَبْعِه[3] ، وشقّ الوَحْىُ عن بصره وسَمْعِه ، مختار من أكْرَمِ المناسب ، منتَخَبٌ من أشْرَفِ المناصب ، مُرْتَضَى من أعْلَى المَحَاتِد[4] ، مُؤْثَر من أعظم المشاهد ، قد وَرِث الشرفَ جامعاً عن جامعٍ ، وشهد له نداء الصوامع . هو من مُضَر فى سُوَيداء قَلْبِها ، ومن هاشم فى سَوَاد طَرْفِها ، ومن الرسالة فى مهبط وَحْيِها ، ومن الإمامة فى موقف عِزّها . ينزع إلى المحامِدِ بنفس وعِرْق ، ويَحِنّ إلى المكارم بوراثة وخلق ؛ يتناسب أصْلُه وفَرْعُه ، ويتناصف نَجْرُه[5] وطَبْعُه ، وهو الطيّبُ أصْلُه وفَرْعُه، الزّاكى بَذْره وزَرْعُه. يجمع إلى عزّ النّصاب مَزِيّةَ الآداب ، لاغَرْو أن يجرىَ الجوادُ على عِرْقِه ، وتلوح مخايلُ الليثِ فى شِبْله ، ويكون النجيبُ فَرْعاً مشيداً لأصْلِه . له مع نباهة شَرَفِه نزاهةُ سَلَفِه ، ومع كرم أرومته وجَرْمِه[6] مزيةُ أدبه وعلمه . لن تخلف ثمرة غَرْس ارْتِيدَ

(١) الأرومة : الأصل . (٢) الكلالة : الإعياء ، أو ماخلا الوالد ، والولد .
(٣) الضبع : وسط العضد بلحمه يكون للإنسان وغيره ، والمراد جذبه .
(٤) جمع محتد : الأصل . (٥) فى ط : بحره . والنجر : الأصل .
(٦) فى ت : وجرمه .

لهـا من النبات أزكاها ، ومن الثمار أطيبها وأغذاها وأنماها ؛ قد جمع شرفَ الأخلاق ، إلى [شرفِ الأعراق ، وكرم الآداب إلى][(١)] كرم الأنساب ؛ له فى المجد أولٌ وآخِر ، وفى الـكرم تليدٌ وطارِف ، وفى الفضل حديثٌ وقديمٌ ؛ لا غَرْوَ أنْ يغمر فضلُه ، وهو نَجْلُ الصِّيد الأكارم ، أو يغزر علمه وهو فَيْضُ البحور الخضارم . دَوْحةٌ رسب عِرْقُها ، وسَمَق فَرْعها[(٢)] ، وطاب عُودُها ، واعتـدل عمودُها ، وتفيّأتْ ظِلالُها ، وتهدَّلَتْ ثمارُها ، وتفرّعَتْ أغصانُها ، وبرد مَقيلُها . مَجْدٌ يلحظ الجوزَاء من عالٍ ، ويطول النجمَ كلَّ مطال . شَرَفٌ تضع له الأفلاكُ خدودَها وجِباهَها ، وتَلْثِم[(٣)] النجومُ أرضَه بأفواهِها وشِفاهِها . نسبُ المجدِ به عَريق ، وَرَوْضُ الشرفِ به أنِيق ، ولسانُ الثناء بفَضْله نَطوق ؛ فَلَكُ المجدِ عليـه يَدُور ، ويدُ العُلا إليه تُشير ، محلّه شاهق ، ومَجْدُه باسِق .

---

(١) من ت ، ق .　(٢) سمق : ارتفع .　(٣) تلثم : تقبل .

[بدء الكتاب]

قد تمّ ما استفتحتُ به التأليف ، وجملتُه مقدمةَ التصنيف ، مع ما اقترن به حمد الله . وانضافَ إليه، والتفّ به ، وانعطفَ[1] عليه ، ورأيتُ أن أبتدئ مقدّمات البلاغات بغُرَرِ التحاميد وأوْصَافها ، وما يتعلّق بأثنائها وأطْرافها .

وقد قال سهل بن هارون في أول كتابٍ عمله[2] : يجب على كلّ مبتدئ مقالةً أن يبتدئ بحَمْدِ الله قبل استفتاحها ، كما بُدِئَ بالنعمة قبل استحقاقها .

ولأهل العصر : أَوْلَى ما فَغَرَ به الناطقُ فـه[3] ، وافتتح به كَلِمه حمدُ اللهِ جلّ ثناؤه ، وتقدّست أسماؤه . حَمْدُ الله خيرُ ما ابْتُدِئ به القول وخُتم ، وافْتُتِحَ به الخطابُ وتُمِّم .

وقال أبو العباس عبد الله بن المعتزّ بالله : إنّ الله جلّ ثناؤه لا يُمثَّل بنظير ، ولا يُغلَب بظَهير[4] ، جلّ عن موقع تحصيل أدوات البشر ، ولطُفَ عن ألحاظ خطرات الفِكَر ، لا يُحْمَدُ إلا بتوفيقٍ منه يَقْتَضِي حمداً ، فتى تُحْصَى نعماؤه ، وتُكافأ آلاؤه[5]؟ عَجَزَ أقصى الشكرِ عن أداء نعمته ، وتضاءل ما خلق في سعَةِ قُدْرَته؛ قَدَر فَقَدَّر ، وحَكَم فأحكم ؛ وجعل الدِّين جامعاً لشَمْلِ عباده ، والشرائع مَناراً على سبيل طاعته ؛ يَقْتَمُّها أهلُ اليقين به ، ويَحِيدُ عنها أهلُ الشك فيه .

أخذ أبو العباس قوله : «ولا يحمد إلا بتوفيق منه يقتضي حَمْداً» من قول محمود ابن الحسن[6] الوراق :

---

(١) ق : وعطف . (٢) ق ت : علمه . (٣) فغر : فتح .
(٤) الظهير : المعين . (٥) ق ت : وتكفى بلاؤه ، وفي ق: ويكافأ بلاؤه. وآلاؤه: نعمه.
(٦) ق ط ، ق : بن الحسين .

إذا كان شُكْرِى نعمةَ الله نِعْمةً ... علىَّ له فى مِثْلها يَجِبُ الشُّكْرُ
فكيف بلوغُ الشُّكْرِ إلّا بفضلِهِ ... وإن طالت الأيام واتّصَلَ العمرُ
إذا عمَّ[1] بالسراء عَمَّ سرورُها ... وإن مَسَّ بالضراء أعْقَبَها الأَجْرُ
فما منهما إلا لَهُ فيه نِعْمَةٌ ... تَضِيقُ بها الأوهامُ والبَرُّ والْبَحْرُ

وإنما أخذه محمود من قول أبى العتاهية[2] :

أحمد الله فهوَ ألهمنى الحـ ... ـدَ على الحمد[3] والمزيدُ لَدَيْهِ
كم زمانٍ بكيتُ فيه فلمَّا ... صِرْتُ فى غيره بكيتُ عليهِ[4]

وقد اضطربت الروايةُ فى هذين البيتين وقائلهما ، وهذا البيت الثانى كثير ، قال إبراهيم بن العباس[5] :

كذاك أيامُنا لا شكَّ نَنْدُبها ... إذا تقضَّت ونحنُ اليومَ نَشْكُوها

آخر :

وما مرَّ يومٌ أرْتَجى فيه راحةً ... فأُفْقِدهُ إلّا بكيتُ على أمسِ

ومن شعر محمود هو القائل أيضا : الوراق

تَعْصِى الإلهَ وأنْتَ تُظْهِرُ حبَّهُ ... هذا محالٌ فى القياسِ بديعُ
لو كانَ حبُّك صادقا لأطَعْتَهُ ... إنَّ المحب لمن أحَبَّ مُطيعُ

وكان كثيراً ما ينقلُ أخبارَ الماضين ، وحِكَم المتقدّمين ، فيحلّى بها نظامَه ، ويُزَيِّنُ بها كلامَه ، وهو القائل[6] :

إنى وَهَبْتُ لظالمى ظُلْمِى ... وشكرتُ ذَاكَ له على عِلْمِى
ورأيتُه أسْدَى إلىَّ يداً ... لَمَّا أبانَ بجَهْلِهِ حِلْمى

---

(١) ق ت : إذا مس . (٢) ديوانه : ٢٨٨ . (٣) ق الديوان : على المن .

(٤) رواية الديوان :

كم زمان بكيت منه قديما ... ثم لما مضى بكيت عليه

(٥) الطرائف : ١٥٢ . (٦) هذه الأبيات ساقطة ق ت .

رَحِمتُ إساءتَه عليه وَلِي ... فَضْلٌ فعادَ مُضاعَفَ الجُرْمِ (١)

فكأنّما الإحسانُ كانَ لهُ ... وأنا المسيء إليه في الزَّعْمِ

ما زال يَظْلِمُني وأرحمُهُ ... حتى رَثَيْتُ له من الظلمِ

وهو القائل :

أَراني إذا ما ازددتُ مالاً وثَرْوَةً ... وخَيْرًا إلى خَيْرٍ تَزيدْتُ في الشرِّ

فكيف بشُكْرِ اللهِ إنْ كنت (٢) إنّما ... أقومُ مقامَ الشُّكْرِ للهِ بالكُفْرِ

بأيِّ اعْتِذارٍ أوْ بأيّةِ حُجَّةٍ ... يقولُ الذى يَدْري من الأمرِ ما أَدْري

إذا كانَ وجهُ العُذْرِ ليس بِبَيِّنٍ ... فإن اطِّرَاحَ العُذْرِ خيرٌ من العُذْرِ

[البيان والبلاغة]

ولابن المعتز : البيان تَرجمان القلوب ، وصَيْقَل العقول ، ومُجَلِّي الشبهة ، وموجِب البيان عند ابن المعتز الحجَّة ، والحاكمُ عند اختصام الظنون ، والفرِّق بين الشَّكِّ واليقين ، وهو من سلطان الرُّسُل الذى انْقادَ به المستصعَب ، واستقام الأصْيَد (٣) ، وبهت الكافر، وسلّم الممتنع ، حتى أشِبَ الحقُّ بأنصاره (٤) ، وخَلاَ (٥) رَبْعُ الباطل من عُمَّاره ؛ وخيرُ البيان ما كان مصرِّحاً عن المعنى ؛ ليُسْرِعَ إلى الفهم تلقِّيه (٦) ، وموجَزاً ليخفّ على اللفظ تعاطيه .

وفَضْلُ القرآن على سائر الكلام معروف غيرُ مجهول ، وظاهرٌ غير خفيٍّ ؛ يشهد فضل القرآن بذلك عَجْزُ المتعاطين ، ووَهَن (٧) المتكلّفين ، وتحيّر الكذّابين ، وهو المبلّغ الذى لا يُمَلّ ، والجديد الذى لا يَخْلَق (٨) ، والحق الصادع ، والنورُ الساطع ، والماحي لظُلَم الضلال ،

---

(١) الجرم : الذنب . (٢) في ت : إن كان إنما . (٣) الأصيد : من يرفع رأسه كبرا
(٤) أشب الشجر : التف ، والمراد قوى . (٥) في ط : وخلى .
(٦) في ت : تلقيه . (٧) في ط : ورهن ، والوهن : الضعف . (٨) لا يخلق : لا يبلى .

ولسانُ الصِّدق النافي[1] للكذب ، ونذيرٌ قدَّمَته الرحمةُ قبل الهلاك ؛ وناعي الدنيا المنقولة ، وبَشيرُ الآخرةِ المخلَّدة ، ومِفتاح الخير ، ودليل الجنة . إنْ أَوْجز كان كافيا ، وإنْ أكثر كان مُذَكِّرا ، وإن أَوْمأ كان مُقْنِعاً ، وإن أطال كان مُفْهِماً ، وإن أمر فناصِحاً ... حكم فعادِلا ، وإن أَخبر[2] فصادِقا ، وإنْ بيَّن فشافِيا ، سَهْلٌ على الفهم ، صَعْبٌ على المتعاطى ، قريبُ المَأْخَذ ، بعيدُ المرام ، سِرَاجٌ تستضيء به القلوب ، حُلْوٌ إذا تذوَّقَته العقول ، بَحْرُ العلوم ، وديوانُ الحِكَم ، وجَوْهَرُ الكلِم ، ونُزْهَةُ المتوسِّمين ، ورَوْحُ قلوب المؤمنين ، نَزل به الرُّوحُ الأمينُ على محمد خاتم النبيين ، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين ؛ نخصَم[3] الباطل ، وصَدَع بالحق ، وتألَّف من الفُرقة ، وأنقذ[4] من الهَلَكة ، فوصل الله له النصر ، وأضرع به خَدَّ الكفر .

البلاغة عند الرماني قال على بن عيسى الرُّمَّانى : البلاغةُ ما حُطّ[5] التكلُّفُ عنه ، وبُنى على التبيين ، وكانت الفائدةُ أغلب عليه من القافية ، بأنْ جمع مع ذلك سهولةَ المخرج ، مع قُرْبِ المتناوَل ؛ وعذوبةَ اللفظ ، مع رشاقةِ المعنى ؛ وأن يكون حُسْنُ الابتداء كحُسْنِ الانتهاء ، وحُسن الوَصْل كحُسْنِ القَطْع ، فى المعنى والسمع . وكانت كلُّ كلمة قد وقعت فى حقها ، وإلى جَنْب أُخْتها ، حتى لا يقالَ : لو كان كذا فى موضع كذا لكان أولى ! وحتى لا يكونَ فيه لفظٌ مختلف ، ولا معنى مُسْتَكرَه ؛ ثم أُلبس بهاء الحكمة ، ونورَ المعرفة ، وشرفَ المعنى ، وجَزالةَ اللفظ ؛ وكانت حلاوتُه فى الصدر وجلالتُه فى النفس تفتِّقُ الفَهْمَ ، وتنثر دقائقَ الحكم ؛ وكان ظاهرَ النفع ، شريفَ القَصْد ، معتدلَ الوَزْنِ ، جميل المذهب ، كريمَ المطلب ، فصيحاً فى معناه ، بيِّناً فى فَحْوَاه ؛ وكلُّ هذه الشروط قد حواها القرآن ، ولذلك عَجَزَ عن مُمَارَسَتِه جميعُ الأنام .

---

(١) ق ت : لسان الصدق الباقى المبين للكذب . (٢) ق ت : أجد .
(٣) خصم : غلب . (٤) ق ت : وانتاش . (٥) ق ت : ما سقط .

ألفاظ لأهل العصر في ذكر القرآن

القرآن حَبْلُ اللهِ الممدود، وعَهْدُه المعهود، وظِلُّه العميم، وصِرَاطُه المستقيم، وحُجَّته الكبرى، ومَحَجَّتُه(١) الوُسْطى، وهو الواضح سبيلُه، الراشدُ دليلُه، الذي من استضاء بمصابيحه أبْصرَ ونَجَا، ومَنْ أعرض عنه ضَلّ وهَوَى؛ فضائلُ القرآن لا تُسْتَقْصَى في ألفِ قَرْن، حجةُ الله وعَهْدُه، ووعيدُه ووعده، به يعلمُ الجاهل، ويعملُ العامِلُ، ويتنبَّه الساهي، ويتذكَّر اللّاهي، بَشِيرُ الثواب، ونَذِيرُ العقاب، وشفاء الصدور، وجَلَاء الأمورِ؛ من فضائله أنه يُقْرَأ دائمًا، ويُكْتَب، ويُمَلّ، ولا يُمَلّ. ما أهْون الدنيا على مَنْ جعل القرآن [إمامه، وتصوَّر الموتَ أمامه، طوبى لمن جعل القرآن](٢) مصباحَ قلْبِه، ومفتاح لُبِّه. من حق القرآن حِفْظُ ترتيبه، وحُسْنُ ترتيله.

قال بعض الحكماء: الحكمة مُوقِظَةٌ للقلوب من سِنَةِ الغَفْلة، ومُنْقِذَةٌ للبصائر من سَكْرَةِ الحَيْرَة، ومُحْيِيَةٌ لها من مَوْتِ الجهالة، ومُسْتَخْرِجَةٌ لها من ضيق الضَّلالة؛ والعلمُ دواء للقلوب العليلة، ومِشْحَذٌ(٣) للأذهان الكَلِيلة، ونورٌ في الظلمة، وأُنْسٌ في الوَحْشَةِ، وصاحبٌ في الوَحْدَة، وسَمِيرٌ في الخَلْوَةِ، ووصْلةٌ في المجلس، ومادّةٌ للعقل، وتَلْقِيحٌ للفهم، ونافِيٌ للعِيِّ المُزْرِي بأهْلِ الأحْسابِ، المقصِّر بذوي الألباب؛ أنطق الله سبحانه أهلَه بالبيان الذي جعله صفةً لكلامه في تنزيله، وأيَّدَ به رُسُلَه إيضاحاً للمشكلات، وفَصْلاً بين الشبهات؛ شَرَّفَ به الوضيعَ، وأعزَّ به الذليلَ، وسوَّد به المسوَّد، مَن تحلَّى بغيره فهو معطَّل(٤)، ومن تَعَطَّل منه فهو مغفَّل(٥)، لا تُبْلِيه الأيام، ولا تَخْتَرِمُه(٦) الدهور، يتجدَّدُ على الابتذال، ويَزْكُو(٧) على الإنفاق؛ فلله على ما منَّ به على عبادِه الحمدُ والشُّكْرُ.

---

(١) المحجة: الطريق. (٢) ساقط من ت. (٣) في ت: وشحذ.
(٤) في ت: عطل. (٥) وت: غفل. (٦) من اخترمته المنية: أخذته، واختطفته.
(٧) يزكو: ينمو.

[أقوال في البلاغة]

البلاغة عند عمرو بن عبيد

قيل لعمرو بن عُبيد : ما البلاغة ؟ قال : ما بلَّغك الجنّة ، وعدَل بك عن النار ، وبصَّرك مواقعَ رُشْدِك ، وعواقبَ غَيِّك[1] . قال السائل : ليس هذا أريد . قال : من لم يُحْسِنْ أن يسكُتَ لم يُحْسِنْ أن يَسْتَمِع ، ومن لم يُحْسِن الاستماعَ لم يُحْسِن القولَ . قال : ليس هذا أُريد . قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : إنّا معشرَ الأنبياء فينا بَكْءٌ[2] ؛ أي قِلّةُ كلام ؛ وكانوا يكرهون أنْ يَزِيدَ منطقُ الرجل على عَقْله . قال السائل : ليس هــذا أُريد . قال : كانوا يخافون من فِتْنَةِ القولِ ومن سقَطاتِ الكلام ما لا[3] يخافون من فِتْنَةِ السكوت ، وسقَطاتِ الصَّمْت . قال : ليس هــذا أُريد . قال عمرو : يا هذا ؛ فكأنك تريدُ تخيّرَ[4] اللفظ في حسن الإفهام . قال: نعم. قال : إنّك إن أردتَ تقريرَ حُجّةِ الله عزّ وجل في عقول المكلّفين ، وتخفيف المؤونة عن المستمعين ، وتزْيين تلك المعاني في قلوب المُريدين ، بالألفاظ المستحسنة[5] في الآذانِ، المقبولةِ في الأذهان، رغبةً في سُرْعَةِ إجابتهم، ونَفْيِ الشواغلِ عن قلوبهم، بالموعِظَةِ الحسنة على الكتاب والسنة ــ كنتَ قد أُوتيت الحكمةَ وفَصْلَ الخطاب ، واستوجبْتَ من الله جزيلَ الثواب . فقيل لعبد الكريم بن روح الغِفاري : مَنْ هذا الّذي صبر له عَمْرٌو هــذا الصبر ؟ قال : سألتُ عن ذلك أبا حفص الشّمْرِي ، فقال : ومن يَجْتَرِئْ عليه هذه الجراءَةَ إلّا حَفْص بن سالم ؟[6]

وعمرو بن عبيد بن باب هو رئيسُ المعتزلة في وَقْته ، وهو أوّلُ من تكلّم على المخلوق ، واعتزلَ مجلسَ الحسن البصري ، وهو أول المعتزلة[7] .

ودخل عمرو بن عبيد على أبي جعفر المنصور فقال[8] : عِظْنِي . فقــال : يا أميرَ

---

(١) في ط ، ق : غيك . (٢) أصل البكء قلة اللبن . (٣) في ت : كما يخافون .
(٤) في ط ، ق : تخير . (٥) في ط : الحسنة . (٦) عيون الأخبار : ٢ ــ ٧ .
(٧) في ت : وبه سميت المعتزلة . (٨) عيون الأخبار : ٢ــ ٣٣٧ .

المؤمنين؛ إنَّ اللهَ أعطاكَ الدنيا بأَسْرِها ، فاشْتَرِ نفسَك منه ببعضها؛ يا أميرَ المؤمنين؛ إنّ هذا الأمرَ لو كان باقياً لأَحَدٍ قبلَك ما وصل إليك ؛[1] «ألم تَرَ كيفَ فَعَلَ ربُّك بِعَادٍ إِرَمَ ذاتِ العِمادِ» ! قال : فبكى المنصور حتى بَلَّ ثوبه . ثم قال : حاجتَك يا أبا عثمان ! وكان المنصور لَمَّا دخل عليه طَرَح عليه طَيْلساناً . فقال : يُرْفَعُ هذا الطيلسان عنى ! فرُفع . فقــال له أبو جعفر : لا تَدَعْ إتيانَنا ! قال : نعم ، لا يضمُّنى وإياك بلدٌ إلّا دخلتُ إليك ، ولا بَدَتْ لى حاجة إلّا سألتُك ، ولكن لا تُعْطِنِى حتى أسألك ، ولا تَدْعُنى حتى آتيك . قال : إذاً لا تأتينا أبداً !

وقد رُوِى مثلُ هذا لابن السماك مع الرشيد ، وقوله : لو كان هذا الأمرُ باقياً لأحدٍ قبلَك ما وصل إليك . كقول ابن الرومى :

لعمرُكَ ما الدُّنيــا بدارِ إقامةٍ إذا زال عن عَيْنِ البصيرِ غِطاؤها
وكيف بقاء الناسِ فيها وإنمــا يُنال بأسْبَابِ الفَنَــاء بقاؤها

ووعظ شبيب بن شَيْبَة المنصور فقــال : يا أمير المؤمنين ؛ إن الله لم يجعل فوقك أحداً ، فلا تَجْعَلْ فوق شكره شكراً .

ودخل عمرو بن عبيد على المنصور وعنده المهدى فقال له : هذا ابنُ أخيك المهدى، ولىُّ عهد المسلمين ، فقال : سمَّيْتَه اسماً لم يستحقَّ عمــله ، ويفضى إليكَ الأمرُ وأنت عنه مشغول[2] .

وكان عمرو بن عبيد يقول : اللهم أَغْنِنى بالافتقارِ إليــك ، ولا تُفْقِرْنى بالاستغناء عنك .

وقال له المنصور : يا أبا عثمان ؛ أَعِنّى بأصْحابك . قال : يا أميرَ المؤمنــين ؛ أَظْهِرِ الحقَّ يَتْبَعك أهلُه .

وقال عمر الشَّمْرِى : كان عمرو بن عبيد لا يكادُ يتــكلَّم ، وإنْ تــكلَّم لم يَــكَدْ

---

(١) الفجر : ٧ (٢) ى ت : لم يستحقه عمله ، والفضى إليه بالأمر وأنت عنه مشغول .

يُطيل ؛ وكان يقول : لا خيرَ في التكلّم إذا كان كلامُه لمن يَشْهَدُهُ دونَ قائله ، وإذا طال الكلامُ عرضَتْ للمتكلم أسبابُ التكلُّف ، ولا خيرَ في شيء يأتيك به التكلُّف .

البلاغة عند أهل الهند

قال مُعمَّر[١] بن الأشعث[٢] : قلت لبهلة الهندي أيام اجتلب يحيى بن خالد أطباء الهند : ما البلاغة عند أهل الهند؟ قال بهلة : عندنا في ذلك صحيفةٌ مكتوبة ، ولكنني لا أُحسِن ترجمتها ، ولم أعالجْ هذه الصناعة ، فأَثِقَ من نفسي بالقيام بخصائصها ، ولطيفِ معانيها . قال ابنُ الأشعث[٢] : فلقيت بتلك الصحيفة التراجمة[٣] فإذا فيها : أولُ البلاغة اجتماعُ آلة البلاغة ، وذلك أن يكونَ الخطيب رابطَ الجأش ، ساكنَ الجوارحِ ، قليل اللَّحْظِ ، متخيّرَ اللفظ ، لا يكلّم سيدَ الأمّة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام السُّوقة ، ويكون في قُوَاهُ فَضْلُ التصرف في كل طبقة ، ولا يدقّق المعاني كلّ التدقيق ، ولا يُنَقِّحُ الألفاظ كلّ التنقيح ، ولا يصفّيها[٤] كل التصفية ، ولا يهذّبها[٤] غايةَ التهذيب ؛ ولا يفعل ذلك حتى يصادفَ حكيماً أو فيلسوفاً عليماً ، ومن[٥] قد تعوّد حذْفَ فضول الكلام ، وإسقاطَ مشتركات الألفاظ ؛ وقد نظر في صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة ، لا على جهة التصفّح[٦] والاعتراض ، ووجه التطرّف والاستطراف .

البلاغة عند المقفع

قال إسحاق بن حسان بن قوهي : لم يفسر أحد البلاغة تفسيرَ عبد الله بن المقفع[٧] إذ قال : البلاغةُ اسمٌ لمعانٍ تَجْرِي في وجوهٍ كثيرة ، فمنها ما يكونُ في الاستماع ، ومنها ما يكونُ في السكوت ، ومنها ما يكون في الإشارة ، ومنها ما يكونُ في الحديث ،

---

(١) البيان والتبيين : ١ — ٥١ ، الصناعتين : ١٩ ، عيون الأخبار : ٢ — ١٧٣ .
(٢) وفي ت ، ق : أبو الأشعث .   (٣) في ط : فلقيت تلك الصحيفة المترجمة .
(٤) في الصناعتين : ويصفيها ، ويهذبها . وفي ت : ولا يصفيها ويهذبها .
(٥) في ت : ومن تعود صرف فضول الكلام .
(٦) في الصناعتين : التفصح .   (٧) الصناعتين . ١٤ ، والبيان : ١ — ٦٤ .

ومنها ما يكونُ فى الاحتجاج ، ومنها ما يكون شعراً ، ومنها ما يكون ابتداء ، ومنها ما يكونُ جوابا ، ومنها ما يكون سَجْماً ، ومنها ما يكون خُطَباً ، ومنها ما يكون رسائلَ ؛ فغايةُ هذه الأبواب الوحىُ فيها والإشارةُ إلى المعنى ؛ والإيجازُ هو البلاغة ، فأما الخطب فيما بين السِّماطين[1] وفى إصلاح ذات البين ، فالإكثارُ فى غير خَطَل[2] ، والإطالةُ فى غير إملال ، ولكن ليكن فى صَدْرِ كلامِك دليلٌ على حاجتك ، كما أنَّ خيرَ أبياتِ الشعر البيتُ الذى إذا سمعتَ صَدْرَه عرفتَ قافيته ؛ كأنه يقول فرِّق بين صدر خطبة النكاح ، وخطبة العيد ، وخطبة الصلح ، وخطبة التَّواهُب ، حتى يكونَ لكل فنّ من ذلك صَدْرٌ يدل على عَجُزه ؛ فإنه لا خيرَ فى كلامٍ لا يدلُّ على معناك ، ولا يشيرُ إلى مَغْزَاك ، وإلى العمود الذى إليه قصَدْت ، والغرض الذى إليه نَزَعْت .

فقيل له : فإن ملَّ المستمعُ الإطالة التى ذكرتَ أنها أحقُّ بذلك الموضع ؟ قال : إذا أعطيت كلَّ مقامٍ حقَّه ، وقمتَ بالذى يجب من سياسة الكلام ، وأرضيتَ من يعرف حقوقَ ذلك ، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدوّ ؛ فإنهما لا يَرْضَيان بشىء ؛ فأما الجاهلُ فلستَ منه وليس منك ، ورضا جميع الناس شىء لا يُنَال .

[الإطالة والإيجاز]

وقد مدحوا الإطالةَ فى مكانها كما مدحوا الإيجازَ فى مكانه . قال أبو داود [ابن جرير][3] فى خطباء إياد[4] :

يَرْمون بالخُطَبِ الطوال وتارةً   وحْىَ اللَّاحظِ خِيفَةَ الرقباء

قال أبو وَجْزة[5] السعدى يصف كلام رجل :

يَكْفِى قليلُ كلامِه وكثيرُهُ   ثَبَتٌ إذا طَالَ النِّضالُ مُصيبُ

---

(١) السماطان : الصفان . (٢) الخطل : الفساد ، وفى ت : إملال .

(٣) ليست فى ت . (٤) الصناعتين : ٥٨ . (٥) فى ط ، ق : وجرة .

وأنشد أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد ولم يسمّ قائله ، وهو مولّد ولم ينقصه توليده من حظّ القديم شيئاً[١] :

طَبِيبٌ بداءِ فُنُونِ الكلا ... مِ لم يَعْيَ يوماً ولم يَهْذِرِ[٢]
فإنْ هو أطْنَبَ في خُطْبَةٍ ... قَضَى للمُطِيلِ على المُنْزِرِ[٣]
وإن هو أوْجَزَ في خُطْبَةٍ ... قَضَى للمُقِلِّ على المُكْثِرِ

وقال آخر يصف خطيباً :

فإذا تكلَّمَ خِلْتَهُ متكلِّماً ... بجميعِ عِدَّةِ أَلْسُنِ الخطباءِ
فكأنَّ آدمَ كان علَّمه الذي ... قد كان عَلَّمَهُ مِنَ الأسماءِ

وكان أبو داود[٤] يقول : تلخيص[٥] المعاني رِفق ، والاستعانة بالغريب عَجْزٌ ، والتشدق في الإعراب نَقْصٌ[٦] ؛ والنظرُ في عيون الناس عِيٌّ ، ومسُّ اللحيـة هُلْك[٧] ، والخروجُ عما بُنِي عليه الكلام إسهاب .

وقال بعضهم يهجو رجلا بالعيّ :

مَلِيءٌ بِبُهْرٍ والتفاتٍ وسعلةٍ ... ومَسْحَةِ عُثْنُونٍ وفَتْلِ الأصابعِ[٨]

البليغ عند العتابي

ووصف العتابي رجلا بليغاً فقال[٩] : كان يُظهِر ما غَمَضَ من الحجّة ، ويصوِّر الباطلَ في صورةِ الحق ، ويُفهِمُك الحاجةَ من غيرِ إعادة ولا استعانة . قيل له : وما الاستِعانة ؟ قال : يقول عند مقاطع كلامه يا هناه ، واسْمَع ، وفَهِمت ! وما أشبهَ ذلك . وهذا من أمَارَاتِ العَجْزِ ، ودلائل الحصَر ! وإنما ينقطعُ عليه كلامه فيحاولُ وصْلَه بهذا ، فيكون أشدَّ لانقِطاعه .

---

(١) العمدة : ١ــ ٢١٤ . (٢) في ت: ولم يهذر . (٣) المنزر : المقل .
(٤) الصناعتين : ٣ ، وفي ت : أبو دلف . (٥) في ط : تخليص ، وهذا من س .
(٦) في الصناعتين : والتشادق من غير أهله . (٧) في الصناعتين: هلك، وهو الخوف والإحجام . وفي ت : نوك . (٨) البهر : تتابع النفس وانقطاعه من الإعياء . والعثنون: اللحية، وفي : مكي بنهد . (٩) البيان والتبيين : ١ : ٦٢ .

وكان أبو داود يقول : رَأْسُ الخَطَابة الطَّبْع ، وعمودُها الدُّربة ، وجَناحاها رأس الخطابة رِوَايةُ الكلام ، وحَلْيُها الإعراب ، وبهاؤُها تخيُّرُ اللفظ ؛ والمحبـــةُ مقرونةٌ بقلة الاستِكْرَاه .

[البيان عند الجاحظ]

وقال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ[(١)] : قال بعض جهابذةِ الألفاظ ، ونُقَّاد المعاني المعاني : المعاني القائمةُ في صدور الناس، المختلجةُ في نفوسهم، والمتصوَّرة في أذهانهم المتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكرهم، مستورةٌ خفيَّة، وبعيدة وحشيّة ، ومحجوبة مكنونة ، وموجودة في معنى[(٢)] معدومة ، لايعرفُ الإنسانُ ضميرَ صاحبه ، ولا حاجة أخيهِ وخَليطه ، ولا معنى شريكه والمعاوِن له على أمره ، وعلى مالا يبلغه من حاجاتِ نفسه إلّا بغيره ؛ وإنما يحيي تلك المعاني ذِكْرُهم لها[(٣)] . وإخبارهم عنها ، واستعمالهم إياها .

وهذه الخصالُ هي التي تقرّبها من الفهم ، وتجلّيها للعقل ، وتجعل الخفيَّ منها ظاهرا ، والغائبَ شاهدا ، والبعيد قريبا . وهي التي تلخِّص[(٤)] الملتبس، وتحل المنعقد، وتجعل المهمل مُقَيَّدا ، والمقيد مطلقا ، والمجهول معروفا ، والوحشيّ مألوفا ، [والغُفْل موسوما ، والموسوم معلوما][(٥)] ؛ وعلى قَدْرِ وضوحِ الدلالة ، وصواب الإشارة ، وحُسْنِ الاختصار ، ودقة المدْخَلِ ، يكون ظهورُ المعنى . وكلما كانت الدلالةُ أوضح وأفصح ، وكانت الإشارة أَبْيَنَ وأنور، كانت أنفعَ وأنجعَ في البيان. والدلالةُ الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذى سمعت الله يَمْدَحه ، ويَدْعُو إليه ، ويحثُّ عليه ؛ بذلك نطق القرآن ، وبذلك تفاخرت العرب ، وتفاضلت أصنافُ العجم .

---

(١) البيان والتبيين : ١ — ٤٢ .
(٢) في ت : ومحجوبة في القلب معدومة ، وفي ت : ومحجوبة مكنونة في القلب .
(٣) في ت : تحيى تلك المعاني بذكرهم .
(٤) في ت: تخلص .
(٥) الزيادة من البيان .

البيان والبيان اسمٌ لكل شيء كشف لك عن قناع المعنى، وهتك لك الحُجُبَ دون الضمير، حتى يُفضي السامعُ إلى حقيقته، ويهجم على محصوله، كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان ذلك الدليل؛ لأنَّ مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائلُ والسامع إنما هو الفَهْمُ والإفهام؛ فبأيِّ شيء بلغتَ الإفهام وأوضحتَ عن المعنى فذلك هو البيانُ في ذلك الموضع.

المعاني والألفاظ ثم اعْلَمْ حَفِظَكَ اللهُ أنَّ حُكْمَ المعاني خلافُ حكم الألفاظ؛ لأنَّ المعاني مبسوطة إلى غير غاية، وممتدَّة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني محصورة[1] معدودة، ومحصَّلة محدودة.

الدلالات على المعاني خمسة وجميعُ أصنافِ الدلالات على المعاني من لفظٍ أو غيره خمسةُ أشياء لا تنقص ولا تزيد: أوّلها اللَّفظ، ثم الإشارة، ثم العَقد، ثم الخطّ، ثم الحال التي تسمى نُصبة. والنُّصْبَة هي الحالُ الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تَقْصُرُ عن تلك الدلالات.

ولكل واحدةٍ من هذه الدلائل الخمسة صورةٌ بائنةٌ من صورة صاحبتها، وحِلْيَةٌ مخالفةٌ لحِلْيَةِ أختها؛ وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة، وعن حقائقها في التفسير، وعن أجناسها وأقدارِها، وعن خاصّها وعامّها، وعن طبقاتها في السارّ والضار، وعما يكون منها لَغْواً بَهْرَجاً[2]، وساقطاً مطَّرحا.

المعاني غير مقصورة ولا محصورة وفي نحو قول أبي عثمان: «إنَّ المعاني غير مقصورةٍ ولا محصورة» — يقول أبو تمام الطائي لأبي دلف القاسم بن عيسى العجلي[3]:

ولو كان يفنى الشعرُ أفنته ما قَرَتْ[4] ... حِيَاضُك منه في العصور الذَّواهبِ

ولكنه فيضُ[5] العقول إذا انجلَتْ ... سحائبُ منه أُعقِبَتْ بسحائبِ

---

(١) في البيان، وفي ت: مقصورة. (٢) بهرج: رديء. (٣) ديوانه: ٤٣.

(٤) قرت: جمعت. (٥) في الديوان، وفي ت: صوب.

كما أشار إلى قول أوْس بن حَجَر الأَسدى :

أقول بِمَا صَبّت علىّ غمامتى   وجهدىَ فى حبل العشيرة أحطِبُ[١]

* * *

في اللسان عشر خصال

وقال بعضُ البلغاء : فى اللسان عشرُ خصالٍ محمودة : أداةٌ يظهر بها البيان ، وشاهدٌ يخبر عن الضمير ، وحاكمٌ يفصل فى الخطاب ، وواعظ يَنْهَى عن القبيح ، وناطق يردُّ الجواب ، وشافع تُدْرَك به الحاجة ، وواصفٌ تعرف به الأشياء ، ومُعْرِب يشكَر به الإحسان[٢] ، ومُمِزٌ تذهب به الأحزان ، وحامِدٌ يُذْهِبُ الضغينةَ ، ومُونِق يلهى الأسماع .

وقال أبو العباس بن المعتز : لحظةُ القلب أسرعُ خطرةً من لحظة العين ، وأبعدُ مجالا ، وهى الغائصة فى أعماق أوْدِيةِ الفكر ، والمتأمّلة لوجوه العواقبَ ، والجامعةُ بين ما غاب وحضر ، والميزانُ الشاهدُ على ما نَفَع وضَرّ ، والقلب كالمُمْلِى للكلام على اللسان إذا نطق ، واليد إذا كتبت ؛ والعاقل يكسو المعانى وَشْىَ الكلام فى قلبه ، ثم يُبْدِيها بألفاظ كواسٍ فى أحسن زينة ، والجاهل يستعجلُ بإظهار المعانى قبل العناية بتزيين مَعَارِضها ، واستكمال محاسنها .

البيان عند جعفر بن يحيى

وقيل لجعفر بن يحيى البرمكى: ما البيان[٣] ؟ قال: أن يكونَ الاسمُ يحيط بمعناك ، ويَكْشِف عن مَغْزاك ، ويخرجه من الشركة . ولا يُسْتَعان عليه بالفكر ، ويكون سليما من التكلُّف ، بعيداً من الصَّنعة ، بَرِيئاً من التعقيد ، غَنِيّاً عن التأويل[٤] .

وذكر سهل بن هارون ، وقيل ثمامة[٥] بن أشرس جعفر بن يحيى فقال : قد جَمَع فى كلامه وبلاغته الهَدّ والتمهل[٦] ، والجزالة والحلاوةَ ، وكان يُفهم إفهاما

---

(١) يحطب فى حبل العشيرة : أى يستعين بها كما يستعين الحاطب بالحبل.

(٢) فى ت: ومعرب يشكر الله عز وجل والإخوان ، وفى س : ومعرب يشكر به الإخوان.

(٣) الصناعتين : ٤٢ . (٤) فى الصناعتين : التأمل .

(٥) الصناعتين : ٢٣ ، ٤٣ . عيون الأخبار : ٢ — ١٧٣ . (٦) الهذ : السرعة .

يُغْنيه عن الإعادة للكلام . ولو كان يَسْتَغني مستغنٍ عن الإشارة بمنطقه لاستغنى عنها جعفر . كما استغنى عن الإعادة . فإنه لا يتحبَّسُ ولا يتوقَّفُ في منطِقه ولا يتلَجْلَجُ ، ولا يتسعَّل ، ولا يترقَّب لفظا قد استدعاه من بُعْد ، ولا يلتمس معنًى[1] قد عصاه بعد طَلبِه له .

* * *

ثم فاق بشار أهل عصره

وقيل لبشّار بن بُرْد : بِم فُقْتَ أهل عصرك ، وسبقتَ أهلَ عصرك ، في حسن معاني الشعر ، وتهذيب ألفاظه ؟ فقال : لأني لم أقبل كلَّ ما تُورِدُهُ عليَّ قريحتي ، ويُناجيني به طَبْعِي ، ويبعثه فكري ، ونظرت إلى مَغَارِس الفطن ، ومعادن الحقائق ، ولطائف التشبيهات ، فسرت[2] إليها بفهمٍ جيد ، وغريزة قوية ؛ فأحكمت سَبْرَها ، وانتقيت[3] حُرَّها ، وكشفتُ عن حقائقها ، واحترزتُ من متكلّفها ، ولا والله ما ملك قِيادي قطّ الإعجاب بشيء مما آتي به .

وكان بشارُ بن برد خطيباً ، شاعراً ، راجزاً ، سجّاعاً ، صاحب منثور ومزدوج . ويلقب بالمرعّث لقوله :

مَنْ لِظَبْيٍ مُرَعَّثٍ ساحر الطرف والنظرْ*[4]
قال لي لن تنالني قلت أو يغلب القَدَرْ

وليس هذا موضع استقصاء ذكره ، واختيار شعره . وسأستقبل ذلك إن شاء الله .

[وصية أبي تمام للبحتري]

وقال الوليد بن عبيد البحتري[5] : كُنْتُ في حَدَاثتي أرُوم الشِّعْرَ ، وكنتُ أرْجع فيه إلى طَبْع[6] ، ولم أكُنْ أقِف على تَسْهيل مَأْخَذِه ، ووجوه اقتضابه[7] ،

---

(١) في ت : كلاما . (٢) في ت : فصرت . (٣) في ت : واجتنيت .
(٤) مرعث : يلبس الرعث وهو القرط . (٥) العمدة : ٢ — ١٠٩ .
(٦) في ط : إلى طبعي . (٧) في العمدة : اقتضائه .

حتى قصدتُ أبا تمام وانقطعتُ فيه إليه، واتَّكلْتُ في تعريفه عليه؛ فكان أول ما قال لي: يا أبا عبادة؛ تخيَّرِ الأوقاتَ وأنت قليلُ الهموم، صِفْرٌ من الغموم، واعلم أن العادةَ جرت في الأوقات أن يقصد الإنسانُ لتأليفِ شيء أو حفظه في وَقْتِ السَّحَر؛ وذلك أن النَّفْسَ قَدْ أخذَتْ حظَّها من الراحة، وقِسْطَها من النوم؛ وإن أردتَ التشبيب فاجعل اللفظ رشيقاً، والمعنى رقيقاً، وأكْثِر فيه من بيان الصبابة، وتوجُّع الكآبة، وقلق الأشواق، ولَوْعَة الفراق؛ فإذا أخذْتَ في مديح سيِّد ذي أيادٍ فأشْهِر مناقِبه، وأظهر مناسبه، وأبِنْ معالمه؛ وشرف مقامه[1]، ونضِّد المعاني[2]، واحذر المجهول منها؛ وإياك أن تَشين شِعْرَكَ بالألفاظ الرديئة[3]، ولتكن كأنك خيَّاط يقطِّع الثياب على مقادير الأجساد. وإذا عارضك الضجر فأرِحْ نفسَك، ولا تعمل شعرك إلا وأنتَ فارغُ القلب، واجعل شهوتك لقولِ الشعر الذَّريعة إلى حسن نظمه؛ فإن الشهوة نعم المعين. وجملةُ الحال أنْ تعتبر شعرَك بما سلف من شعر الماضين، فما استحسن العلماء فاقصده، وما تركوه فاجتنبه، ترشد إن شاء الله.

قال: فأعملت نفسي فيما قال فوقفت على السياسة[4].

* * *

وقالوا: البليغ من يَحُوك الكلامَ على حسب الأماني، ويخيط الألفاظ على صفة البليغ قدُود المعاني.

ولذكر الطائي الليل[5] ذكر بعض أهل العصر وهو أبو علي محمد بن الحسن بن المظفَّر الحاتمي الليل فقال: فيه تَجَمُّ الأذهان، وتنقطع الأشغال، ويصح النظر، وتؤلَّف الحكمة، وتدرّ الخواطر، ويتَّسع مجال القلب. والليل أخْوَأ في مذاهب الفكر،

---

(١) في ت: مقاومه. (٢) في العمدة، ت: وتقاس المعاني.

(٣) في العمدة: بالزرية، وفي ت: الردية. (٤) في ت: على سياسة قول الشعر.

(٥) لعله يشير إلى قول البحتري: وقت السحر، في كلامه السابق.

وأخْفى لعمل البر ، وأعون على صَدَقة السرّ ، وأصحّ لتلاوة[١] الذكر ، ومدبرو الأمور يختارون الليلَ على النهار ، فيما لم تصف[٢] فيه الأناة لرياضة التدبير وسياسة التقدير في دَفْع الملمّ ، وإمضاء المهمّ ، وإنشاء الكتب ، وتصحيح المعانى ، وتقويم المبانى ، وإظهار الحُجَج ، وإيضاح المَنْهَج ، وإصابة نَظْم الكلام ، وتقريبه من الأفهام .

وقال بعضُ رؤساء الكتّاب : ليس الكتاب[٣] في كل وقتٍ على غير نسخة لم تحرّر بصواب؛ لأنه ليس أحدٌ أولى بالأناة وبالرويّة من كاتب يَعْرِض عقله، وينشرُ بلاغته ؛ فينبغى له أن يعمل النسخ[٤] ويرويها ، ويقبل عَفْوَ القريحة ولا يستكرهها، ويعمل على أن جميعَ الناس أعداء له ، عارفون بكتابه، منتقدون عليه ، متفرغون إليه.

لابتداء الكلام فتنة

وقال آخر : إنّ لابتداء الكلام فتنةً تَرُوق ، وجِدةً تعجب ، فإذا سكنت القريحةُ ، وعدل التأمّل ، وصَفَت النفْس ، فلْيُعِد النظر ، وليكن فرَحُه بإحسانه مساوياً لغمّه بإساءته؛ فقد قالت الخوارج لعبد الله بن وَهْب الراسبى : نبايعك الساعة

الأناة

فقد رأينا ذلك . فقال : دَعُوا الرأى حتى يبلغ أناته ؛ فإنه لا خيرَ في الرأى الفَطير ، والكلام القضيب[٥] .

وقال معاويةُ بن أبى سفيان رحمه الله لعبد الله بن جعفر: ماعندك في كذا وكذا؟ فقال : أريد أن أصْقل عقلى بنَوْمَة القائلة[٦] ، ثم أروح فأقول بعد ما[٧] عندى ،

قال الشاعر :

إنّ الحديثَ تغرُّ القومَ جَلْوَتُه[٨] حتى يَقبِّرَه[٩] بالوَزْنِ مِضْمارُ

---

(١) في ط : وتلاوة، وهذا من ت ، س . (٢) في ت ، س : تضق فيه الأناة عن الرياضة والتدبير . (٣) الكتابة ، وفي ت : الكتب . (٤) في ت : ماينسخ .
(٥) الرأى الفطير : الذى لم ينضج . (٦) القائلة : نصف النهار .
(٧) في ت : فأقول بعد بما . (٨) في س : خلوته . (٩) في ت : حتى يعيره .

فعنـــد ذلك تستكفي بلاغتهُ أو يستمرُّ به عِيٌّ وإكثارُ

وقالوا : كل مُجْرٍ بالخَلَاء يُسَرّ(١) . وقال أبو الطيب المتنبي(٢) :

وإذا ما خَلَا الجَبَانُ بأرْضٍ طَلَبَ الطَّعْنَ وَحْدَه والنِّزَالَا

***

وكان قلم ابن المقفع يَقِفُ كثيراً ، فقيل له في ذلك ، فقال : إن الـكلام يَزْدَحِمُ في صدري ، فيقف قلمي ليتخيّر .

وقالوا : الـكِتَابُ يُتصفّح أكثر ممـــا يتصفّح الخطاب ؛ لأنّ الـكاتب متخيّرٌ ، الـكتاب والمخاطب مضطرّ ، ومن يَرِدُ عليه كتابك فليس يعلم أأسْرَعْتَ فيه أم أبطأت ؛ وإنما ينظر أأخْطَأتَ أم أصبتَ ؛ فإبطاؤك غيرُ قادح في إصابتك ، كما إن إسراعك غير مُغَطٍّ على غلَطِك .

ووصف بعضُ الـكتّاب النسخ فقال : ينبغي أن يصحَبها الفكر إلى استقرارها ، النسخ ثم تُستبرأ(٣) بإعادة النظر فيها بعد اختيارها ، ويوسّع بين سُطُورِها ، ثم تحرّر على ثقة بصحتها ، وتُتأمل بعد التحرير حَرْفاً حرفا إلى آخرها .

فقد كتب المأمون مُصْحفا اجتمع عليه ؛ فكان أوله : بسم الله الرحيم ، فأغفلوا الرحمن ؛ لأنّ العينَ لا تَعتبرُ ذلك ؛ ثقة أنه لا يُغْلَط فيه ، حتى فَطِنَ المأمون له .

وقال محمد بن عبد الملك الزيات للحسن بن وهب : حرّر هذه النسخة وبكّر بها ، فتصبّح الحسن(٤) ، فقال له : لم تصبّحت ؟ قال : حتى تصفحت !(٥)

وقال أحمد بن إسماعيل بَطَاحَة : كان بعض العلماء الأغبياء ينظر في نسخه بعد نفوذ كُتُبه ، فقال بعض الـكتاب :

---

(١) يريد أن الذي يجري فرسه بالخلاء يسر بظفره حيث لا مناضل ، وهو مثل في التهكم .

(٢) ديوانه : ٣ — ١٢٣ .   (٣) تستبرأ : المراد يتبين حالها .

(٤) التصبح : النوم بالغداة ، والمراد تأخر .   (٥) في ت : قال : ما تصبحت .

مُسْتَلَبُ اللُّب غَوِيُّ[١] الشبابْ ... عذَّبه الهَجْر أشدَّ العذابْ
يؤمل الصبر وأنّى لَهُ ... به وقد مُكّن منه التصابْ
كناظرٍ في نُسخةٍ يبتغى ... إصلاحَها[٢] بعد نفوذِ الكتابْ

أوصاف بليغة فى البلاغات على ألسنةِ أقوام من أهل الصناعات

قال بعضُ من ولَّد عقائلَ هذا المنثور : وألَّف فواصل هذه الشذور : تجمّع قوم من أهل الصناعات ، فوصفوا بلاغاتِهم ، من طريق صناعاتِهم :

فقال الجوهرى : أحسنُ الكلام نِظاما ما ثقبته يَدُ الفكرة ، ونظمته الفِطْنة ، ووُصِل جَوْهَرُ معانيه فى سُموط[٣] ألْفَاظه ، فاحتملته نُحورُ الرواة .

وقال العطار : أطيبُ الكلام ما عُجِنَ عَنْبَرَ ألفاظه بِمِسْك مَعَانيه ، ففاح نسيمُ نَشَقِه[٤] ، وسطعت رائحةُ عَبَقِه ؛ فتعلقت[٥] به الرُّوَاة ، وتعطَّرت به السَّراة .

وقال الصائغ : خيرُ الكلام ما أحْمَيْتَه بِكِير الفِكر ، وسبَكْتَه بمِشَاعِل النَّظر ، وخلَّصته من خَبَث الإطناب ؛ فبرز بروزَ الإبريز ، فى معنى وَجيز .

وقال الصيرفى : خيرُ الكلام ما نَقَدَتْهُ يدُ البصيرة ، وجَلَته عينُ الرويّة ، ووزَنْتَه بمِعْيَار الفصاحة ، فلا نظر يُزَيّفه ، ولا سماعَ يُبَهْرِجُه .

وقال الحداد : أحسنُ الكلام ما نصبت عليه مِنْفَخَة القريحة[٦] ، وأشعلتَ عليه نارَ البصيرة ، ثم أخرجْتَه من فحم[٧] الإفحام ، ورققته بمِطْلِّيس[٨] الإفهام .

وقال النجار : خيرُ الكلام ما أحكمتَ نَجْرَ معناه بقَدُوم التقدير ، ونَشَرْتَه بمِنشار التدبير ؛ فصار باباً لبيت البيان ، وعارِضةً لسَقْفِ اللسان .

---

(١) فى س : معى ، وفى ق : معنى الثبات . (٢) فى ت : صلاحها . (٣) السمط : خيط النظم ، وجمعه سموط . (٤) نشقه : شمه . (٥) فى ت . فتفاقت . (٦) فى ت : الروية .
(٧) فى ت : عم الأفهام . (٨) المطليس : المطرقة العظيمة .

وقال النجاد : أحسنُ الكلام ما لطُفت رَفَارِف ألفاظه ، وحَسُنَت مَطَارِح معانيه ؛ فتنزهت فى زَرَابىّ محاسنه عيونُ الناظرين ، وأصاخت لنمارق بهجته آذانُ السامعين .

وقال الماتح : أبيَن الكلام ما علقت وَذَمُ ألفاظه بكرة[1] معانيه ، ثم أرسلته فى قليب الفطن ، فمتحتَ به سِقاء يكشف الشبهات ، واستنبطت به معنى يروى من ظمأ المشكلات .

وقال الخياط : البلاغةُ قميص ؛ فجُرُبَّانه البيان ، وجَيْبه المعرفة ، وكُمَّاه الوجازة ، ودَخَارِيصه الإفهام[2] ، ودُرُوزُه الحلاوة[3] ، ولابِسُ جَسَدُه[4] اللفظ ، ورُوحه المعنى .

وقال الصبّاغ : أحسنُ الكلام ما لم تنضَ بهجة إيجازه[5] ، ولم تكشف صبغة إعجازه ، قد صَقَلَته يَدُ الرويّة من كُمُود[6] الإشكال ، فَرَاعَ كواعبَ الآداب ، وألّف عَذَارى الألباب .

وقال الحائك : أحسنُ الكلام ما اتَّصَلت لُحْمَةُ ألفاظه بِسَدَى معانيه ، فخرج مُفَوَّفًا مُنيرا ، ومُوَشّى محبَّرًا .

وقال البزاز : أحسنُ الكلام ما صدقَ رقم ألفاظه ، وحسن نَشْرُ معانيه ؛ فلم يستعْجِم عنك نَشر[7] ، ولم يستبهم عليك طَيّ[8] .

وقال الرائض : خيرُ الكلام ما لم يخرج عن حَدّ التَّخْليم ، إلى منزلة التَّقْرِيب[9] إلا بعد الرياضة ، وكان كالمُهرِ الذى أطمع أوَّلُ رياضته فى تمام ثقافته .

---

(١) ق ت : بكرب ، والوذم : السيور بين آذان الدلو .

(٢) الجربان للقميص : جيبه . والدخريص معرب أصله فارسى وهو عند العرب : البنيقة ، واللبنة والسبجة (لسان — دخرص) . والدخريص : مايوصل به البدن ليوسعه .

(٣) الدرز : زئبر الثوب وماؤه وجمعه دروز . (٤) ق ت ، وس : ولابسه جسد اللفظ وروح المعنى . (٥) لم تنض : لم تمح . (٦) الكمدة : تغير اللون وذهاب صفائه .

(٧) ق ت : نشره . (٨) ق ت : حله . (٩) التقريب : ضرب من العدو ، وتخلع فى مشيته : هز منكبيه ويديه ، وتخلع : تفكك فى مشيته .

وقال الجمّال : البليغُ من أخَذ بخِطام كلامِه ، فأناخَه فى مَبْرك المعنى ، ثم جعل الاختصارَ له عِقالا ، والإيجاز له مَجالا ، فلم يَنِدّ عن الآذان ، ولم يشذّ عن الأذهان.

وقال المخنّث : خيرُ الكلام ما تكسَّرت أطرافُه ، وتثنّت أعطافه ، وكان لفظه حُلّة ، ومعناه حِلْيَة .

وقال الخمّار : أبلغُ الكلام ما طبَخَتْه مَرَاجِلُ العلم ، وصفّاه[1] رَاوُوق الفَهْم ، وضمّنْته دِنان الحكمة ، فتمشّت فى المفاصل عُذُوبَتُه ، وفى الأفكار رِقّته ، وفى العقول حِدّته .

وقال الفُقّاعى[2] : خيرُ الكلام ما رَوَّحت[3] ألفاظه غَبَاوة الشكّ ، ورفعت رِقّتُه فظاظةَ الجهل ، فطاب حِسَاه فطنته ، وعَذُب مَصّ جُرعه .

وقال الطبيب : خيرُ الكلام ما إذا باشر [دواءُ][4] بيانه سقم الشّبهة استطلقت طبيعةُ الغباوة ؛ فشُفِى من سوء التفهم[5] ، وأورث صحةَ التوهّم[6] .

وقال الكحّال : كما أن الرّمد قَذَى الأبصارِ ، فكذا الشبهةُ قَذَى البصائر ، فاكْحَل عَيْنَ اللُّكنة بمِيل[7] البلاغة ، واجْلُ رَمَص الغَفْلة بمِرْوَدِ اليقظة . ثم قال: أجمعوا كلهم على أن أبلغَ الكلام ما إذا أشرقت شَمْسُه ، انكشف[8] لَبْسه، وإذا صدقت أنواؤه اخضرّتْ أحماؤه[9] .

فِقر فى وصف البلاغة لغير واحد

قال أعرابى[10] : البلاغة التقرب من البعيد ، والتباعد من الكُلْفَة ، والدلالةُ بقليل على كثير .

---

(١) فى ت : وكان صفاؤه . (٢) فى ط : الفقاع . (٣) فى ط : ما أزاحت .
(٤) ليست فى ت . (٥) فى ت : التوهم . (٦) فى ت : التلوم.
(٧) الميل : المكحال . (٨) فى ت ، س : كشف .
(٩) الأحماء : جمع حمى ، وهو المكان يحميه الرجل ويمنعه . (١٠) الصناعتين : ٤٧ .

قال عبد الحميد بن يحيى : البلاغةُ تقريرُ المعنى فى الأفهام من أقرب وجوه الكلام .

ابن المعتز : البلاغةُ البلوغُ إلى المعنى ولم يطل سَفَرَ الكلام .

سهل بن هارون : البيان ترجمان العقول ، ورَوْض القلوب ، وقال(١) : العقل رائدُ الروح ، والعلم رائدُ العقل ، والبيان تَرجمان العلم .

إبراهيم بن الإمام : يكفى من البلاغة ألا يُؤْتَى السامع من سوء إفهام الناطق ، ولا يؤتَى الناطق من سوء فهم السامع .

العتّابى : البلاغة مدّ الكلام بمعانيه إذا قَصر ، وحُسن التأليف إذا طال .

أعرابى(٢) : البلاغة إيجاز فى غير عَجْز ، وإطناب فى غير خَطَل .

[وكتب إبراهيم بن المهدى إلى كاتب له ورآه يتبع وَحْشِىّ الكلام : إياك وتتبّع الوحشى طمعاً فى نَيْل البلاغة ؛ فإن ذلك العىُّ الأكبر ، وعليك بما سهل مع تجنبك ألفاظ السفل .

وقال الصُّولى : ووصف يحيى بن خالد رَجُلًا فقال : أخذ بزمام الكلام ، فقاده أسهل مَقاد ، وساقه أجمل مَساق ؛ فاسترجع به القلوب النافرة ، واستصرف به الأبصار الطامحة .

وسمع أعرابى كلامَ الحسن البصرى رحمه الله ، فقال: والله إنه لفصيح إذا نطق ، نصيح إذا وعظ .

قال الجاحظ : ينبغى للكاتب أن يكون رقيقَ حواشى الكلام ، عَذْب ينابيع اللسان ؛ إذا حاور سدّد سهم الصواب إلى غرض المعنى ، لا يكلم الخاصة بكلام العامة ، ولا العامة بكلام الخاصة .

وقال أبو العباس المبرد : قال الحسن بن سهل لسالم الحرارى : ما المنزلة التى إذا

(١) البيان : ١ — ٤٣ . (٢) البيان ١ — ٥٤ .

نزل بها الكاتب كان كاتباً فى قوله وفعله واستحقاقه ؟ قال : أن يكون مطبوعاً على المعرفة مُحتَنِكا بالتجربة ، عارفاً بحلال الكتاب وحرامه ، وبالدهور فى تصرفها وأحكامها ، وبالملوك فى سِيَرها وأيامها ، وأجناس الخط ، وبادية الأقلام ، مع تشاكل اللفظ وقُرْب المأخذ . قال الحسن : فليس فى الدنيا إذاً كاتب][1] .

وقيل لليونانى[2] : ما البلاغة ؟ قال : تصحيح الأقسام ، واختيار الكلام .

وقيل للرّومى[3] : ما البلاغة ؟ قال : حسنُ الاقتضاب عند البداهة[4] ، والغزارة يوم الإطالة .

وقيل للهندى : ما البلاغة ؟[5] قال : وضوح الدلالة ؛ وانتهاز الفرصة ، وحُسْن الإشارة .

وقيل للفارسى[6] : ما البَلَاغَة ؟ قال : مَعْرِفَة الفَصْل من الوصل .

وقال على بن عيسى الرمانى : البلاغةُ إيصال المعنى إلى القَلْبِ فى أحسن صورةٍ من اللفظ .

ومن كلام أهل العصر فى صفة البلاغة والبلغاء

[قال على بن عيسى الرمانى][7] : أبلغ الكلام ما حَسُن إيجازه ، وقلّ مجازه ، وكثر إعجازه ، وتناسبت صدورُه وأعجازه .

أبلغُ الكلام ما يُؤْنِس مَسْمعه ، ويُوئِس مضيّعه[8] .

البليغ من يجتنى من الألفاظ أنوارَها ، ومن المعانى ثمارها .

ليست البلاغةُ أن يُطال عنان القلم أو سِنَانه ، أو يُبْسَط رِهان القول ومَيْدانه ؛ بل هى أنْ يبلغ أمَد المراد بألفاظ أعْيَان ، ومعان أفْراد ، من حيث لا تزيدُ على الحاجة ، ولا إخلال يُفْضِي إلى الفاقة .

---

(١) زيادة من ت . (٢) البيان : ١ — ٩٠ . (٣) الصناعتين : ٣٩ .
(٤) فى ت : على البداهة . (٥) الصناعتين : ٤٩ . (٦) الصناعتين : ٤٩ .
(٧) من ت . (٨) فى ت : مصنعه .

البلاغة ميدانٌ لا يقطع إلا بسوابق الأذهان ، ولا يُسْلَك إلا ببصائر البيان .

فلان يعبث بالكلام، ويقوده بألين زمام، حتى كأنّ الألفاظ تتحاسدُ فى التسابق إلى خواطره ، والمعانى تتغايَرُ فى الانثيال على أنامله . هذا كقول أبى تمام الطائى[1] :

تغايرِ الشعرُ فيه إذ سهرتُ[2] لهُ   حتى ظننتُ قوافيهِ ستقتتلُ

فلان مشرق الشرق ، وصَيْرَفُ المنطق . البيانُ أصغر صفاته ، والبلاغةُ عَفْوُ خطراته ، كأنما أوحى بالتوفيق إلى صَدْره ، وحسن الصواب بين طَبْعه وفكره .

فلان يحزّ مَفَاصِل الكلام، ويسبق فيها إلى دَرْك المرام، كأنما جمع الكلام حولَه حتى انتقى منه وانتخَب ، وتناول منه ما طَلَب ، وترك بعد ذلك أذنابا لا رءوسا ، وأجسادا لا نفوسا .

فلان يَرْضَى بعَفْو الطَّبْع ، ويقنع بما خفَّ على السمع ، ويُوجِز فلا يخلّ ، ويُطْنِب فلا يُمِلّ . لله فلان أخذ بأزمَّة القول يقودُها كيف أراد ، ويَجْذِبُها[3] أنَّى شاء ، فلا تعصيه بين الصَّعب والذلول، ولا تُسلمه عند الحزونة والسهول، كلامُه يشتدّ مرّةً حتى تقول الصَّخْر الأملس ، ويَلين تارةً حتى تقولَ الماء أو أسْلَس ، يقول فيَصُول ، ويُجيب فيُصيب ، ويَكْتُبُ فيطبّقُ المَفْصِل أو يُنسّق الدرّ المفصَّلَ ، ويردُ مشارعَ الكلام وهى صافيَة لم تطرق ، وجَامّة لم تُرَنَّقْ[4] ، خاطِرُهُ البَرْقُ[5] أو أسْرَع لمعا ، والسَّيْفُ أو أحدُّ قطعا ، والماء أو أسْلَس جَرْيا ، والفلك أو أقْوَم هَدْيا ؛ هو ممن يستَهل الكلام على لفظه ، وتتزاحَمُ المعانى على طَبْعه ، فيتناول المَرْمَى البعيدَ بقريب[6] سَعْيه ، ويستَنْبِطُ المشرع العميق بيسيرِ جَرْيه ، لسانُه يَفْلِقُ الصُّخُور ، ويغيض البحور ، ويُسْمِع الصُّمّ ، ويستنزل العُصْمَ[7] ، خطيبٌ

---

(١) ديوانه : ٢٢٧ .   (٢) ق ت : رقيت .   (٣) ق ت : ويجريها .

(٤) لم ترنق : لم تكدر .   (٥) ق ت : البراق .   (٦) ق ط : بقليل .

(٧) العصم : جمع أعصم وهو من الوعول والظباء : ما فى ذراعيه أو فى إحداهما بياض وسائره أسود أو أحمر .

لا تنالُه حُبْسة ، ولا تَرْتهنه لُكْنة ، ولا تتمشّى فى خطابه رتة(١) ، ولا تتحيَّف بيانه عُجْمَة ، ولا تعترض لسانه عُقدة .

فلان رقيق الأسلَة ، عذب العذَبة(٢) لو وُضِع لسانُه على الشعر حلقه ، أوْ على الصَّخْر فَلَقه ، أو على [الجمر أحرقه ، أو على](٣) الصَّفا خرقه؛ قد أحسن السِّفارة ، واستوفى العبارة ، وأدّى الألفاظ ، واستغرق الأغراض ، وأصاب شواكِلَ المراد ، وطبّق مَفاصِلَ السَّداد، وبسط لسانَ الخطاب، ومدَّ أطناب الإطناب ، وطلب الأمدَ فى الإسهاب ، قالَ حتى قال الكلامُ لو أُعْفِيت! وكَتَب حتى قالت الأقلامُ قد أحفيت، قد اتَّسع له مَشْرَعُ الإطناب ، وانفرج له مَسْلك الإسهاب، أرسل لسانَه فى مَيْدَانِه، وأرخى له من عِنَانه(٤) ، قال وأطال ، وجَالَ فى بَسْطِ الكلام كلَّ مَجال ، إذا اسْحَنْفرَ(٥) فى الكلام طَفَح آذِيُّه ، وسَال أتِيُّه(٦) ، وانثال عليه الكلام كانثيال الغمام ، واستجاب له الخطاب كصوب الرَّباب(٧) . ألفاظٌ كغمزات الألحاظ ، ومَعَانٍ كأنها فكُّ عانٍ(٨)! ألفاظ كما نوَّرت الأشجار، ومَعَانٍ كما تنفَّست الأسحار، ألفاظ قد استعارت حلاوةَ العِتَاب بين الأحباب ، واستلانت كتشكّى المشتاق(٩) يوم الفراق . كلامٌ قريب شاسع ، ومُطمِع مانِع ؛ كالشمس تَقْرُب ضياء، وتبعد علاء؛ أو كالماء ، يَرْخُص موجوداً ، ويغلو مفقوداً . كلامٌ لا تمجُّه الآذان ، ولا تُبليه الأزمان ، كالبُشْرَى مسموعة(١٠) ، أو أزاهير الرياض مجموعة ، ومعان كأنفاس الرياح ، تَعبَق بالريحان والرَّاح .

كلام سَهْل متسلسل ، كالدام بماء الغمام ، يقرب إذْنُه على الأفهام .

---

(١) الرتة : العجمة ، وفى ط ، س : رتة . (٢) العذبة : أصلها طرف كل شىء ، والمراد طرف اللسان . (٣) من ت . والصفا : الحجر . (٤) ساقط من ط .

(٥) اسحنفر : مضى مسرعا . (٦) الآذى : الموج ، والأتى : السيل .

(٧) الرباب : السحاب . (٨) عان : أسير . (٩) فى ت ، س : واستخفت بتشكى .

(١٠) فى ت : مجودة .

كلام كبَرْدِ الشراب ، على الأكباد الحِرَار ، وبُرْد الشباب فى خلع العِذار .

كلام كثيرُ العيونِ ، سَلِسُ المتون ، رقيقُ الحواشى ، سَهْل النواحى .

كلامٌ هو السِّحْرُ الحلالُ ، والماء الزُّلال ، والبُرُود والحِبَرَ ، والأمثال والعِبَرَ ، والنعيم الحاضر ، والشباب النَّاضِر .

نظرت منه إلى صورةِ الظَّرْف بَحْتًا ، وصورة البلاغة سَبْكا ونحتاً . ألفاظ هى خِدَع الدهر ، وعُقَد السحر .

كلامٌ يسرّ المحزون ، ويُسَهِّل الحُزُون[1] ، ويعطل الدرّ المخزون . كلامٌ بعيد من الكُلَف ، نقى من الكَلَف[2] .

كلام كما تنفّس السحر عن نسيمه ، وتبسم الدرّ عن نظيمه . ألفاظ تأنّقَ الخاطر فى تَذْهيبها ، ومعانٍ عُنِى الفهمُ بتهذيبها . ألفاظ حسبتها من رِقّتها منسوخة فى صحيفة الصَّبا ، وظننتها من سلاستها مكتوبةً فى نَحْر الهوى .

كلامٌ كالبُشْرَى بالولد الكريم ، قُرِعَ به سَمْعُ الشيخ العَقِيم .

كلام قرُب حتى أطْمع ، وبَعُد حتى امتنعَ ، وقَرُب حتى صار قابَ قَوْسَيْنِ أو أدنى ، ثم [سما و][3] علا حتى صار بالمنزل الأعْلى . رقيق المزاج ، حُلْو النتاج ، نقىّ السَّبْك ، مقبول اللَّفْظ . قرأت لفظاً جليًّا ، حَوى معنًى خفيًّا ، وكلاماً قريبا ، رَمَى غرضاً بعيداً . لو أنّ كلاماً أُذِيبَ به صَخْر ، أو أُطْفِىء به جَمْر ، أو عُوفِىَ به مريض ، أو جُبِرَ به مَهِيض[4] لكان كلامُه الذى يقودُ سامعيه إلى السجود ، ويجرى فى القلوب كجَرْىِ الماء فى العود . ألفاظُه أنوار ، ومعانيه ثِمار . كلامُه أُنْسُ المقيم الحاضر ، وزادُ الراحل المسافر . كلامُه يُصْغِى إليه المقبور ، وينتفِضُ له المصفور .

---

(١) الحزون : جمع حزن ، بفتح الحاء وهو ما غلظ من الأرض . (٢) الكلف : نمش فى الوجه . (٣) زيادة من ت . (٤) مهيض : مكسور .

كلامٌ يقضي حقَّ البيان، ويملك رِقَّ الحُسْنِ والإحسان، كلامٌ منه يجتنى الدُّر، وبه يُعقَدُ السِّحْر، وعنده يُعْتِب الدَّهر[١]، وله يَنْشَرِحُ الصدر.

ومن ألفاظهم في وصف النظم والنثر والشعر والشعراء

نَثْر كنثر الورد، نَظْمٌ كنظم العِقد. نثر كالسِّحر أو أَدَقّ، ونظمٌ كالماء أو أَرَقّ. رسالة كالرَّوْضَة الأنيقة، وقصيدة كالخُدُرة الرشيقة. رسالة تَقْطُر ظَرْفًا، وقصيدة تمزجُ بماء الرَّاح لطفاً. نثره سِحْرُ البيان، ونَظْمه قِطَعُ الجمان[٢]. نَثْرٌ كما تفتّح الزَّهَر، ونظم كما تنفّس السَّحَر. نَثْرٌ تَرِقُّ نواحيه وحَوَاشِيه، ونَظْمٌ تَروقُ ألفاظه ومعــانيه. نَثْرٌ كالحديقة تفتّحت أَحْدَاقُ وَرْدِها، ونظم كالخَرِيدة تورَّدَتْ أسرارُ خَدِّهَا. رسالة تَضْحَكُ عن غُرَر وزَهَر، وقصيدة تنطوي على حِبَر ودُرَر. لم تَرْضَ في بِرِّك بأخوات النَّثْرَة[٣] من نَثْرك، حتى وصلتهــا ببنات الشِّعْرى من شِعْرك. كلام كما هبَّ نَسيمُ السحر، على صفحات الزَّهر، ولذَّ طعمُ الكَرَى بعــد بَرْحِ السَّهر[٤]. وشِعْرٌ في نفسه شاعر، تُوسَم به المواسم والمشاعر. كلام أنْسَى حلاوة الأولاد بحلاوته، وطلاوةَ الربيع بطلاوته، وشِعْرٌ من حلَقِ الشباب مسروق، ومن طِينَة الوصال مَخْلُوق. قصيدةٌ في فنّها فَرِيدة، هي عروسٌ كُسْوَتُهــا القوافي، وحِلْيَتُهَا المعاني. شِعْرٌ يترقرَقُ فيه ماء الطبع، ويرتفع له حجابُ القَلْب والسمع. شعر لا مزية الإعجازِ أخطأته، ولا فضيلة الإيجاز تخطّته. شعرٌ رَوَيْته لما رأيته، وحفِظْتُه لما لحظته. أبياتٌ لو جُعلت حِلَماً[٥] على الزمان لتحلَّى بها مُكاثرا، وتجلّى فيها مُفَاخِراً. شِعْرٌ رَاقَني حتى شاقني، فإنه مع قُرْبِ لفظه بعيدُ المرام، مستمرّ النظام، قويّ الأَسْر، صافي البَحْر. نظمٌ قد ألبس من البداوة فَصَاحتها،

---

(١) يعتب: يرضى. (٢) في ت: الجنان. (٣) النثرة: كوكبان بينهما قدر شبر.
(٤) برح السهر: شدته. (٥) في ت: حلية.

وغُشِّيَ من الحضارة سَجَاجتها[١] ؛ فإن شئت قلت عَبِيد ولَبِيد ، وإن شئتَ حَبيب والوليد . قصيدتُه رَوْضَة تجتنَى بالأفـكار ، ونَقْلٌ[٢] يتناوَل بالأسماع والأبصار ، ونَقْلُ العلم والأدب ألذّ من نَقْل المأكل والمشرب ، وفاكهةُ الـكلام أطيبُ من فاكهة الطعام . نظمٌ كنظم الجُمَان ، ورَوْضٌ كالجِنَان ، وأمن الفؤاد ، وطيب الرُّقاد . قصيدةٌ لم أرَ غيرها بِكْراً ، استوفَتْ أقسامَ الحُنْكة ، واستـكملَتْ أحْـكامَ الدُّرْبة ؛ فعليها رونَقُ الشباب ، ولها قوّةُ المذكيَات الصِّلاب[٣] ، روحُ الشعر وتاجُ الدهر ، ومقدمة عساكر السحر . كل بيت شعر خيرٌ من بيت تِبْر . شعر يُحكم له بالإعجاز والتَّبْرِيز ، ويشبَّه في صفاء سَبْـكه بالذّهب الإبريز . شعرٌ تأتلفُ القلوب على دُرَرِه ائتلافا ، وتصير الآذان له أصدافا . لله دَرُّه ما أحْلى شعره ! وأنقى دُرّه ، وأعْلَى قدره ، وأعجبَ أمْرِه ! قد أخذ برقاب القوافي ، وملك رِقّ المعاني ، فَضْلُه بُرْهان حق ، وشعره لِسَان صدق . فلان يُغرب بمـا يَجْلِب ، ويُبْدِعُ فيما يصنع ، حَسَنُ السبك ، مُحْـكَم الرَّصْف ، بديع الوَصْف ، مرغوب في شِعْرِه ، مُتَنَافس في سحره . هو ضارِب في قِدَاح الشعر بأعْلَى السهام ، آخِذٌ في عيون الفضـــل بأوْفَى الأقسام ، شِعَاره أشعارُه ، ودأبه آدابه ، هو ممن يَنْتَقِدُهُ فيبتدع ، طبعه يُمْلِي عليه مالا يُمَلُّ الاستِماعُ إليه . قَرِيحة غير قَرِيحة ، وطَبْعٌ غير طَبِع[٤] ، وخِيم[٥] غير وَخِيم ، لَبِيد عنده[٦] بَليد ، وعَبِيد لديه من العَبِيد ، والفرزدقُ عنده أقل من فرزدقة خَمير[٧] ، وجرير يُقَاد إليه بجَرِير[٨] ، قد نسج حُلَلًا لا يُبْلِي جِدَّتَها الجديدان ، ولا تزداد إلا حُسْناً على تردُّدِ الأزْمَان . نَظْمُه قد نظم[٩] حاشيتي البَرّ والبَحْر ، وأدركَ ناحيتي الشَّرْقِ

---

(١) من سجح الخد : سهل ولان وطال في اعتدال . (٢) النقل : ما يتنقل به على الشراب .
(٣) المذكيات والمذكى من الخيل : التي أتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان .
(٤) الطبع : السجية . وهو طبع طبع : دنيء الخلق لئيمة دنس لا يستحي من سوأة .
(٥) الخيم : الطبع . (٦) في ت : غيره وهو وقصد لبيد بن ربيعة .
(٧) الفرزدقة : القطعة من العجين . (٨) الجرير : الحبل . (٩) في ت : كنظم .

والغرب. أشعارٌ قد وردَتِ المياه، وركِبَت الأفواه، وسارت في البلاد، ولم تَسِرْ بزاد، وطارَتْ في الآفاقِ ولم تَمْشِ على ساق. شعرُه أسْيَرُ من الأمثال، وأسْرَى من الخيال، سار مسيرَ الرياح، وطار بغير جَناح. أشعارُه سارت مَسيرَ الشمس، وهبَّتْ هبوبَ الريح، وطبّقت تُخُومَ الأرض، وانتظمت الشرقَ إلى الغرب. قد كادت الأيامُ تنشدها، والليالى تَحْفَظها، والجنّ تدرسها، والطير تتغنّى بها. أبياتٌ أسْفَر عنها طَبع المَجْدِ، فعلمت كيف يتكسّر الزَّهر على صفحاتِ الحدائق، وكيف يغرس الدرّ في رياض المَهَارق[1]. شِعْرٌ قد أحْسَن خِدْمَته بكمال فِكْره، ووقف كيف شاء عند عَالِى أمْره. شعرٌ يُعلَّق في كَعْبَة المجد، ويتوّج به مَفْرِق الدهر. جاءت القصيدة وعليها عِزّة المُلك، وعليها رُواء الصدق، وفيها سِيماء العلم، وعندها لِسانُ المجد، ولها صِيَال الحقّ، لا غروَ إذا فاضَ بَحْرُ العلم على لسانِ الشِّعْر أن ينتج مالا عين وقعَتْ على مثله، ولا أُذُن سمِعَتْ بشبهه. شعر يكتب في غُرّة الدهر، ويشرح[2] في جَبْهَة الشمس [والبدر][3].

وهذه جملة من فصول أهل العصر تليق بهذا الموضع

كتاب لابن العميد كتب أبو الفضل بن العميد إلى أبي محمد خلاد[4] الرامهرمزى القاضى: «وصل كتابُكَ الذى وصلت جَناحَه بفنون صِلَاتك وتفقّدك، وضروبِ بِرّك وتعهّدك؛ فارتَحْتُ لكلّ ما أوْلَيْت، وابتهَجْتُ بجميع ما أهْدَيت، وأضفْتُ إحسانَك فى كلّ فصل إلى نظائره التى وكلت بها ذِكرى، ووقفت عليها شُكرى، وتأمّلْت النظم فلكنى المعجب به، وبَهَرَنى التعجُّب منه، وقد رمتُ أن أجرى على العادة فى تشبيه بمستَحْسَنٍ من زهر جَنِىّ، وحُلَلٍ وحُلِىّ، وشذور الفرائد، فى نُحُور الخرائد.

وبالعذارى غَدَوْنَ فى الحلل البيـ ـض وقد رُحنَ فى الخطوط السُّودِ

---

(١) المهارق: جمع مهرق، الصحيفة البيضاء يكتب فيها، فارسى معرب.

(٢) فى ت: ويشدخ جبهة. (٣) من ت. (٤) فى ت: أبى خلاد.

فلم أره لشيء عِدْلا[1] ، ولا أرضى ما عددته له مثلا ؛ والله يزيدك من فضله، ولا يخلّيك من إحسانه ، ويُلْهِمُك مِنْ بِرِّ إخوانك ما تتمّم به صنيعك لديهم ، ويُرَبُّ معه إحسانُك إليهم » .

كتاب الصاحب

وكتب أبو القاسم إسماعيل بن عباد الصاحب إلى أبي سعيد الشبيبي[2] :

« قد رأى شيخُ الدولتين كيف أتكلّف بسادَتِي من أهل ميكال أيدهم الله ، بين وِدّ أضْمِره على البُعْد ، وإيثارٍ أظهره على تراخي المَزار ، وتقريظٍ يعليه على المَلَوان[3] ، ومَدْحٍ أنطِقُ فيه بلسان الزّمَان ، حتى إن ذِكْرَهم إذا جَرَى على لساني اهتزّتْ له نَفْسِي ، وفَضْلَهم إذا جرى على سَمْعِي انفرج له صَدْرِي ؛ فتلك عصبةٌ خيرٍ فَضْلُها باهِر، وشرفُها على شرف النجاء زاهِر ، وشجرةٌ طيبة أصلُها ثابت وفرْعُها في السماء [ناظر][4] ، والله يتمّمُ أعدادها ، ولا يعدمني وِدَادها ؛ وإذا كان إكباري لهم هذا الإكبار فكلّ منتسب إلى جنبهم أثيرٌ لديّ ، كثير في يديّ . وطرأ عليّ فلانٌ منتسباً إلى جملتهم ، وحبذا الجلة ، ومُعْتزِياً إلى خدمتهم ، ونِعْمَت الخدمة ، ففررناه عن طَبْعٍ سَمْحٍ[5] ، ولَفْظٍ عَذْب ، وصلةِ نثرٍ بنظم ؛ فإن شاء قال : أنا الوليد ، وإن شاء قال : أنا عبد الحميد ؛ ولم أعظم بمن خرّجته تلك النعمة ، ونتجته تلك الشّدّة أنْ يأخذَ من كلّ حسنة بِعُرْوَة ، ويقدح في كل نارٍ بِجَذْوَة ؛ وآنَسَنا بالمقام مُدّة ، أكّدتها شوافع عِدّة ، إلى أن تذكّر معاهدَ رَأى فيها الدّهرَ طَلْقا ، والزمان غُلاما ، والفضلَ رهنا ، والإفضال لِزاما ؛ فحنّ حنينَ الرّكاب ، ورَكِبَ عزيم الإياب »[6] .

كتاب الميكالي

فصل [من كتاب][7] كتبه الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي إلى

---

(١) العدل — بفتح العين وكسرها : المثل والنظير .　(٢) في ت : الشبي .

(٣) الملوان : الليل والنهار .　(٤) من ت .

(٥) فررناه : اختبرناه ، والفر في الأصل : اختبار أسنان الدابة ليعرف ماسنها .

(٦) العزيم : العدو الشديد ، وفي ت : وعزم عزيم الإياب ، وفي س : غريم الإياب .

(٧) من ت .

أبي القاسم الداوودي[1] جواباً عن كتاب له ورد عليه . وأبو الفضل رئيس نَيْسابور[2] وأعمالها في وقتنا هـذا ، وسيمرُّ من كلامه ونثره ونَظْمه ما يغني عن التنويه ، وَيكْفِى عن التنبيه ، ويجلُّ عن التشبيه ، ويكون كما قال أبو الحسن الأخفش علىّ ابن سليمان : استهدى إبراهيم بن المدبّر[3] أبا العباس محمد بن يزيد جليساً يجْمَعُ إلى تأديب ولده الإمتاعَ بإينَاسِه ؛ فندَبَنى لذلك ، وكتب إليه معى : قد أنفذت إليك — أعزّك الله — فلانا ، وجلة أمره أنه كما قال الشاعر :

إذا زُرت الملوك فإنّ حسبى … شفيعاً عنـدهم أن يَخبُرُونى

وله أيضاً وفصل لأبى الفضل : وقفتُ على ما أتحفنى به الشيخ : من نَظْمِه الرائق البديع ، وخَطِّه المُزْرِى بِزَهْرِ الربيع ، مُوَشّحًا بغُرَرِ ألفاظه ، التى لو أُعيرت حِلْيَتُها لعطّلت قلائد النّحور ، وأبكار معانيه التى لو قُسّمت حَلَاوتُها لأَعْذَبَتْ مَوَارِدَ البحور ، فسرّحْتُ طَرْفى منها فى رياضٍ جادَتْها سحائبُ العلوم والحِكَم ، وهبَّ عليها نسيمُ الفضل والكرَم ، وابتسمَتْ عنها ثغورُ المعالى والهِمَم ، ولم أدرِ — وقد حيّرتْنى أصنافُها ، وبهرتنى ثغورُها[4] وأوصافها — حتى كدّتْنى اهتزازاً وإعجاباً ، وأنشأت بينى وبين التماسك سِتْرًا وحجاباً ، ولم أدرِ أدهَشَتْنى[5] لها نَشْوَةُ راح ، أم ازْدَهَتْنى نَغْمَةُ[6] ارتياح ؛ وانتظم عندى منها عِقد ثَناء وقَريض ، أم قَرَع سَمْعِى منها غناء مَعْبَد وغَرِيض ، وكيفما كان فقد حَوَى رتبة الإعجاز والإبداع ، وأصبح نُزْهَةَ القلوب

---

(١) فى ت : الروادى . (٢) فى ت : كان أمير نيسابور قبل إنشائى لهذا التأليف ، وإحكامى لهذا التصنيف ، إلا أن يكون اخترمه المقدار ولم تأتنا بموته الأخبار لبعد المحلة ونأى الدار ، وكان ابتداء إخراجى لهذا الكتاب من القوة إلى الفعل ، وإظهاره من العدم إلى الوجود فى شهر الله المعظم سنة خمس وأربعمائة . وأبو الفضل الإصابة والإجابة وبيت المملكة والسيادة .

وله الفضل قدم وقدم ، وفى جده يقول أبو بكر بن دريد القصيدة المشهورة :

إن ابن ميكال الأمير انتاشنى … من بعد ما قد كنت كالشىء اللقا

(٣) فى ت : إبراهيم بن المهدى . (٤) فى ت : نعوتها .

(٥) هكذا فى ت ، ق . وفى ط : أدهشتنى . (٦) فى ت : نخوة .

والأسماع ، فما من جارحةٍ إلّا وهي تودُّ لو كانت أذنا فتلتقط درره وجواهره ، أوعينا تجتلي مطالعه ومناظره ، أو لسانا يدرُس محاسنه ومفاخره .

كتابه إلى الثعالبي

وله فصل من كتاب إلى أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي : وصل كتابُ مولاي وسيدي ، أبدع الكتب هَوَاديَ وأعجازا[1] ، وأبرعها بلاغةً وإعجازا ، فحسِبْت ألفاظه دَرَّ السحاب ، أو أصفى قطراً ودِيمة ؛ ومعانيه دُرَّ السِّخاب[2] ، بل أوفى قَدْرا وقيمة . وتأملت الأبياتَ فوجدتها فائقة النَّظْم والرَّصْف ، عبِقَةَ النسيم والعَرْف ، فائزة بقِدَاح الحُسْن والظَّرْف ، مالكة لزِمام القلْب والطَّرْف[3] ؛ ولا غَرْوَ أن يصدرَ مثلُها عن ذلك الخاطر ، وهو هَدَف الفِقَر والنوادر ، وصَدَف الدرر والجواهر ، والله يمتِّعه بما منحه من هذه الغُرَر والأوضاح ، كما أطلق فيه ألسنة الثناء والامتداح .

* * *

الثعالبي وبعض مؤلفاته

وأبو منصور هذا يعيش إلى وقتنا هذا [على طريق التخمين لا على حقيقة اليقين][4] وهو فريدُ دهره ، وقَرِيع عصره ، ونسيجُ وحده ، وله مصنفات في العلم والأدب ، تشهدُ له بأعلى الرتب ، وقد فرّقْت ما اخترته منها في هذا الكتاب ، مع ما تعلّق بشاكلته من الخطاب ؛ منها من كتاب سماه « سحر البلاغة » قال في صدر هذا الكتاب : « أخرجتُ بعضه من غُرَر نجوم الأرض ، ونُكت أعيان الفضل ، من بلغاء العصر ، في النثر ، وحلّيت بعضه من نظم أمراء الشعر[5] ، الذين أوردت مُلَح أشعارهم في كتابي المترجم بيتيمة الدهر ، فلفقتُ[6] جميع ذلك وحرّرته[7] ، ونسقته ونسّقته ، وأنفقت عليه ما رُزِقته ، وعملته بكدّ الناظر ، وجهد الخاطر ، وتعَبِ اليمين ، وعرَقِ الجبين ؛

---

(١) أصل الهادى : العنق والجمع الهوادى ، والمراد الأوائل . والأعجاز جمع عجز : مؤخر الشيء . (٢) السخاب : قلادة من قرنفل ، وعلب بلا جوهر (هامش ق) .

(٣) الطرف : العين . (٤) من ت . (٥) في ق : أمراء الشعراء .

(٦) في ط : فلفقت . (٧) في ت : وجردته .

وتعمّدتُ فيه لَذّةَ الجدّة ، ورَوْنَق الحداثة ، وحلاوة الطّراوة ، ولم أشُبْهُ بشيء من كلام غير أهل العصر ، إلا فى قلائل وقلائد من ألفاظ الجاحظ وابن المعتز ، تخلّلت أثناءه ، وتوشّحت[1] تضاعيفه ، ولم أخْل كلماته — التى هى وسائط الآداب ، وصياقل الألباب ، وما تستَمْتِعُه[2] أنفسُ الأدباء ، وتلذّ أعين الكتاب — من لفظ صحيح[3] ، أو معنًى صريح ، أو تجنيس أنيس ، أو تشبيه بلا شبيه ، أو تمثيل بلا مَثِيل ولا عَديل ، أو استعارة مُختارة أو طِباق ، ذى رَوْنق باق ؛ فمن رَافَقَ هذا الكتاب قَرُبَ تناوُلُه من الكُتّاب ، إذا وشّوا ديباجةَ كلامهم بما يقتبسونه من نُوره ، وسماحة قياده لأفراد الشعراء إذا رصّعوا عقودَ نظامِهم بما يلتقطونه من شُذُوره ، فأمّا المخاطبات والمحاورات ، فإنها تتبرّج[4] بغُرّة من غُرَره ، وتتَوّج بدرة من دُرَرِه .

وقد ذكر جلة مَنْ أخرج معظم كتابه من نثرهم ونظمهم ، وهم الصابيان ، والخالديّان ، وبديع الزمان ، وأبو نصر[5] بن المرزبان ، [وعلى بن عبد العزيز القاضى ، وأبو محمد القاضى ، وأبو القاسم الزعفرانى ، وأبو فراس الحمدانى][6] ، وابن أبى العلاء[7] الأصبهانى ، وأبو الطيب المتنبي ؛ وأبو الفتح البستى ، وأبو الفضل الميكالى ، وشمس المعالى ؛ والصاحب بن عبّاد ، وجماعة يكثر بهم التعداد ، قد ذكرهم فى كتابه ، فكلُّ ما مرّ أو يمر من ذكر ألفاظ أهل العصر فمن كتابه نقلْتُ ، وعليه عوّلت .

وفى أبى منصور يقول أبو الفتح على بن محمد البستى[8] :

قلبى رَهِينٌ بنيسابورَ عند أخ ... ما مثلُهُ حين تُستقرَى البلادُ أخُ
له صحائفُ أخْلاق مهذّبة ... من[9] الحجَا والعُلا والظَّرف تُنتسخُ

---

(١) فى ب : وتوسطت . (٢) فى ت : وماتشتهى . (٣) فى ت : فصيح .
(٤) فى ت : تبرج . (٥) فى ت : وأبو نصر المرزبان .
(٦) زيادة من ت . (٧) فى ت : وأبو العلاء الأصبهانى .
(٨) يتيمة الدهر : ٤ — ٢٩٩ . (٩) فى ت : منها الحجا .

وأما الذين ذكر أسماءهم في كتابه فسأظهر من سرائر شعرهم الرصين ، وأجلو من جواهر نثرهم الثمين ما أخذ من البلاغة باليمين .

* * *

بعض رسائل الميكالي

فصل لأبي الفضل: وصل كتابُ الشيخ المبشر من خبر سلامته التي هي غُرَّة الزمان البهيم[1] ، وعذر الدهر المليم[2] ، بما أشرقت له آفاقُ الفضل والكرم ، وتمت به[3] نفائسُ الآلاء والنعم ، فسرَّحتُ طَرْفي من محاسن ألفاظه ، في أنوار تَرُوق أزاهرُها ، وقلائدَ تروعُ دُرَرُها وجواهرُها ، ومَبَارّ يسترقُّ الرِّقابَ باطنُها وظاهرُها .

رسالة منه إلى أبي سعيد

وله إلى أبي سعيد بن خلف الهمداني :

وصل كتابُكَ متحملا من أخبار سلامته[4] ، وآثارِ نعمِ الله بساحته[4] ، ما أدّى روحَ البرّ ونسيمه ، وجمع فنونَ الفضل وتقاسيمه ، وجدّد عندي من غَمْر[5] مواصلته ، ومعسول كلامه ومحاورته ما ترك غُصْنَ المِقَة[6] غضًّا تروق أوْراقه ، ووَجْهَ الثقة طَلْقًا يتهلّلُ إشراقُه ، فكم جنيت عنه من ثمر مَسَرّة كانت عوائقُ الأيام تجاذِبُنيه ، وحويت به من عِلْق مَضِنّة[7] قلّما يجودُ الدهرُ بمثله لبنيه .

رسالة منه إلى بعض الحكام

وله فصل إلى بعض الحكام بجُوَيْن :

وصل كتابُ الحاكم وقد وشّحه بمحاسن فِقَره ، ونتائج فِكَره ، من لفظ شهيّ أعطته القلوبُ فَضْلَ المقادَة ، ومعنى سنيّ جاده صَوْبُ الإصابة والإجادة ، وبِرّ هنيّ اتفقَتْ على الاعترافِ بفضله ألسنةُ الثناء والشهادة ، فسرّحتُ طَرْفي فيما حواه

---

(١) البهيم : الأسود . (٢) المليم : الذي يأتي بما يلام عليه . (٣) في ت : وطمت به نفايس ، وفي س : نفائس الآلاء . (٤) في ت : كتابه . وفي ط : سلامتك . . بساحتك (٥) في ت : من عهد . (٦) المقة : الحب . (٧) وهكذا علق مضنة : نفيس يضن به .

من بدائع وطُرَف ، قد جمعت فى الحسن والإحسان بين واسطة وطَرَف، حتى لم تبقَ فى البلاغة يتيمةٌ إلا نظمتْها ، ولا فى الظَّرف غنيمةٌ إلا اقتسمتْها ، ولا فى البر نقيصة إلا جبرتْها وتمّمتْها .

رسالة منه إلى أبيه

وله إلى الأمير السيد أبيه يهنئه بالقدوم :

كتبتُ وأنا بمنزلة من ارتدَّ إليه شبابُه بعد الشيب ، وارتدى برداء من العمر قشيب ، والحمد لله رب العالمين . وصل كتابُ مولاى مبشّرًا من خبر عَوْده إلى مقرّ عزّه وشرَفه ، محروسا فى حفظ الله وكَنَفه ، بما لم تزل الآمالُ تتنسّم روائحه ، وتترقّب غادىَ صُنْع الله فيه ورائحَه ، واثقةً بأنّ عادةَ الله الكريمة عنده تُسَايِره وتُرَافقه ، وتلزم جَنَابَه فلا تُفَارِقه ، حتى تخرجَه من غَمْرة الفَهاء[1] خروجَ السيف من[2] الغِمْد ، والبدر بعد السِّرار[3] إلى الانجلاء ، فغدوتُ يوم وُروده عيداً أعاد عهد السُّرور جَديداً ، وردّ طَرْفَ الحسود كليلاوقد كان حَديداً، ولم أشبِّهْه فى إهداء الرَّوح والشفاء ، وتلافى الرُّوح بعد أنْ أشْفَى على المكروه كل الإشفاء[4] إلا بقميص يوسف حين تلقّاه يعقوبُ عليه السلام من البشير، وألقاه على وجهه فنظر بعَيْن البصير ، فكم أوسعتُه لثْما واستلاما ، والتقطت منه بَرْداً وسلاما ، حتى لم تبق غُلّة فى الصدر إلا بَرَدتْها ، ولا غُمّة فى النفس إلا طَرَدتْها ، ولا شريعة من الأنس إلا وردتْها .

فصل من رسالة له

وله فصل من رسالة :

وكان فرطُ التعجب مرّة وعِظَمُ الإعجاب تارة يقفُ بى عند أول فصل من فصوله، ويثبّطنى عن استيفاء غُرَره وحُجُوله ، ويُوهمنى أنّ المحاسنَ ماحوته قلائدُه ، ونظمته

---

(١) الفهاء : الداهية . (٢) فى ت : خروج السيف من يد الجلاء .
(٣) السرار من الشهر : آخر ليلة منه . (٤) أشفى على المكروه : أشرف عليه .

فرائدُه ؛ فليس فى قوس إحسان وراءها مِنْزَع[١] ، ولا لاقتراح جَنَان فوقها مُتطلَّع[٢] ، حتى إذا جاوزته إلى لفقه[٣] ، وتَرْبيته ، وأجلْتُ فكرى فى نُكته وعُيونه ، رأيتُ ما يُحيِّر الطَّرْف ، ويُعْجِز الوَصْفَ ، ويَعْلُو على الأول مَحَلًّا ومكانًا ، ويَفُوقه حسنًا وإحسانًا، فرتَعْتُ كيف شئتُ فى رياضه وحدائقه ، واقتبست نورَ الحِكَم من مطالعه ومَشَارقه ، وسلَّمت لمعانيه وألفاظه فضيلَة السَّبق والبَرَاعة، وتلقَّيتها بواجبها من النَّشْر والإذاعة ؛ فإنها جمعت إلى حُسْنِ الإيجاز درجةَ الإعجاز، وإلى فضيلة الإبداع جلالة الموقع فى القلوب والأسماع .

وله من فصل : وفصل من رسالة له

وصل كتابُ الشيخ فنشر عندى من حُلل إفضاله وإكرامه ، ومحاسن خطابه وكلامه ، ما لم أشبِّهه إلا بأنوار النُّجُود[٤] ، وحِبر البرود[٥] ، وقلائد العُقود .

وذكر أبو منصور الثعالبى الأمير أبا الفضل فى كتاب ألفَه[٦] فقال فى بعض فصوله: ذكر الثعالبى للميكالى

مَنْ أراد أن يسمعَ سِرَّ النظم ، وسِحْرَ الشعر ، ورُقْيَةَ الدهر ؛ ويرى صَوْب العَقْل، وذَوْب الظَّرف ، ونتيجة الفَضْل ـ فليستنشد ما أسْفَرَ[٧] عنه طبعُ مَجْدِه ، وأثمَرَه عالى فكره ، من مُلَحٍ تمتزجُ بالنفوس لنفاستها ؛ وتُشْرَبُ بالقلوب لسلاستها :

قوافٍ إذا ما رَوَاها الشو ق هزَّت له الغانيات القُدُودا
كسَوْنَ عبيداً ثيابَ العَبِيد وأضحى لَبيد[٨] لديها بَليدا

وايمُ الله ما مرّ يومٌ أسعفنى فيه الزمانُ بمواجهة وَجْهه ، وأسْعَدَنى بالاقتباس من نوره والاغتراف من بَحْره ، فشاهدتُ ثِمَارَ المجدِ والسؤدد تَنْتَثِرُ من شمائله ؛

---

(١) منزع ، على وزن منبر ، السهم الذى ينزع به ، ويقولون : لم يبق فى قوس الصبر منزع ، يريدون أن الصبر نفدت أسبابه . (٢) فى ت : ولا اقتراح إنسان فوقها مطلع . (٣) فى ت ، س : لفقه وقرينه . (٤) أنوار : أزهار ، والنجود : جمع نجد : المرتفع من الأرض . (٥) الحبر : الوشى . (٦) فى ط : فقه اللغة ، وفى ق : اللغة ! وهذا من ت ، س . (٧) فى ت : ما استفرغه . (٨) يشير إلى عبيد بن الأبرص ، ولبيد الشاعر الجاهلى .

ورأيت فضائلَ الدّهرِ عيالًا على فضائله ، وقرأتُ نسخة الفَضْلِ والكرم من أَلْحَاظِه، وانتَهَبْتُ فضائل الفوائد من ألفاظه ، إلّا تذكرت ما أنشدنيه أدام الله تأييده لابن الرُّومى[1] :

لولا عجائبُ صُنْعِ اللهِ[2] ما نبتت   تلك الفضائلُ فى لَحْمٍ ولا عَصَبِ

وقول الطائى[3] :

فلو صوَّرْتَ نفسَك لم تَزِدْهَا   على ما فيك من كَرَمِ الطِّبَاعِ

وقول كُشاجم :

ما كان أحوج ذا الكمال إلى   عَيْبٍ يُوَقِّيه من العَيْنِ

وربّمت بقول أبى الطيب[4] :

فإنْ تَفُقِ الأنامَ وأنْتَ مِنْهُمْ   فإنَّ المِسْكَ بَعْضُ دَمِ الغَزَالِ

ثم استمرت فيه بيانَ أبى إسحاق الصابى حيث يقول للصاحب « ورّثه الله أعمارها كما بلّغه فى البلاغة أنوارها » ـ شعر[5] :

اللهُ حسبى فيك من كل ما   تعوّد العبد على المولى[6]

فلا تَزل تَرْفُل فى نعمةٍ   أنْتَ بها من غَيْرِك الأوْلَى

فصل الثعالبى فيه وقال فى فصل منه : « وما أنسَ لا أنسَ أيامى عنده بفيروزاباد إحدى قُرَاه برستاق جُوَيْن ، سقاها الله ما يحكى أخلاقَ صاحبها من سَيْلِ القَطْرِ ، فإنها كانت ـ بطَلْعَتِه البَدْرية ، وعِشْرَتِه العِطْرِيّة ، وآدابه العلوية ، وألفاظه اللُّؤلُؤية ، مع جلائل نِعَمِه المذكورة ، ودقائق كرمه المشكورة ، وفوائد مجالسه المعمورة ، ومحاسن أقواله وأفعاله التى يَعْيَا بها الواصفون ـ أنموذجات من الجنة ، التى وُعِد[7] المتقون ، وإذا

---

(١) ديوانه : ٢١٤ . (٢) فى الديوان : لطف الله ماثبتت ، ، وقال شارحه : إن البيت رواية أخرى هى رواية هذا الكتاب . (٣) ديوانه : ١٩٥ . (٤) ديوانه : ٣ ـ ٢٠ .
(٥) ساقط من ت . (٦) فى ط : تعوذ ، وفى ت : يعوذ العبد به المولى .
(٧) فى ت : وعد بها .

تذكرتها فى تلك المَرابع التى هى مَرَاتِعُ النَّوَاظر ، والمصانع التى هى مطالع العيش الناضر ، والبساتين التى إذا أخذَتْ بدائعَ زخارفها ، ونشرت طرائفَ مطارِفها، طُوِى لهـا الديباجُ الخُسْرُوَانى[1] ، ونُفِى منها الوَشْى الصنعانى ، فلم تُشبَّه إلا بشِيَمِه ، وآثار قلمه ، وأزهارِ كلِه ، تذكرت سِحراً وَسِيما ، وخيراً عميما ، وارتياحاً مُقِيما ، وروحا ورَيْحانا ونعيما .

وكثيراً ما أَحْكِى للإخوان أنى استغرقتُ أربعة أشهر بحضرته ، وتوفّرت على خِدْمَته ، ولازَمْتُ فى أكثر أوقاتى عالِىَ مَجْلسه ، وتعطّرت [عنـد ركوبه][2] بغُبَار مَوْكبه ؛ فبالله يمينا كنتُ غنيّا عنهـا لو خِفْت حنثا فيها[3] إنى ما أنكرت طَرَفا من أخلاقه ؛ ولم أشاهد إلا مَجْداً وشرفا منْ أحواله ، وما رأيتُه اغتابَ غائبا ، أو سبَّ حاضِراً ، أو حَرَم سائلا ، أو خيَّب آملا ، أو أطاع سلطانَ الغضبِ فى الحضر ، أو تَسلَّى[4] بنار الضَّجَر فى السَّفَر ، أو بطش بَطْشَ التجبرّ ؛ ولا وجدت المآثرَ إلا ما يتعاطاه ، والمآثمَ إلا ما يتخطّاه .

وقال فى فصل منه يصفه : وأما فنونُ الأدب فهو ابن بَجْدتها[5] ، وأخُو جلتها ، وأبو عُذْرتها[6] ، ومالِك أزِمّتها ، وكأنما يُوحَى إليه فى الاستئثار بمحاسنها ، والتفرُّد ببدائعها ، ولله هو إذا غرس الدُّرَّ فى [أرض][7] القراطيس ، وطرّزَ بالظلام رِدَاء النهار ، وألقت بِحَارُ خواطره جواهرَ البلاغة على أناملـه ، فهناك الحُسْنُ برُمّته ، والحُسْن[8] بكليّته .

ذكر الطوعى للميكالى

وذكر عمر بن على المُطَّوِّعى فى كتاب ألّفه فى شعر أبى الفضل ومنثوره والشعراء فقال : رأيتُ أهل هذه الصناعة قد تشعَّبوا على طُرُق ، وانقسموا[9] على ثلاث فِرق ،

(١) الخسرواني : نوع من الثياب . (٢) من ت . (٣) هكذا فى ت وفى ط : أنعها ، وفى ق : حسامها . (٤) فى ت ، ق : تصلى . (٥) ابن بجدتها : هو الخبير بها .
(٦) هكذا فى ت ، ق . وفى ط : أبو عذرها . (٧) زيادة من ت .
(٨) فى ق : والحسن . (٩) فى ت : وتقسموا .

فنهم من اكتسى كلامُه شرفَ الاكتساب دون شرف الانتساب كالمتكسبين من الشعراء بالمدائح ، المترشحين بها لأخذ الجوائز والمنائح[1] ، وهم الأكثرون من أهل هذه الصناعة ؛ ومنهم من شرُفت بناتُ فكره عند أهل العقول ، وجلبت لديهم فضائل القبول[2] ؛ لشرف قائلها لا لكثرة عقائلها ، وكرم واشيها لا لرقّة حواشيها ، كالعدد الكثير ، والجمّ الغفير ، من الخلفاء والأمراء والجلّة والوزراء . ومنهم من أخذ بحبل الجودة من طرفيه ، وجمع رداء الحُسْن من حاشيتيه ، كامرئ القيس ابن حُجْر الكندي في المتقدّمين ، وهو أميرُ الشعراء غير مُنازع ، وسيدُهم غير مجاذَب ولا مُدافع ، وعبد الله بن المعتز بالله أمير المؤمنين في المولّدين ، وهو أشعر أبناء الخلافة الهاشمية ، وأبرع أنشاء الدولة العباسية ؛ ومَنْ جلّ كلامه في التشبيه ، عن أن يُمثّل بنظير أو شبيه ، وعَلَت[3] أشعاره في الأوصاف عن أن تتعاطاها ألسنةُ الوُصّاف ؛ والأمير أبي فراس بن حَمْدان فارس البلاغة ، ورَجل الفصاحة ، ومن حكمت له شعراء العصر قاطبةً بالسيادة ، واعترفت لكلامه بالإحسان والإجادة ، حتى قال أبو القاسم إسماعيل بن عباد الصاحب : بُدِئ الشعرُ بملك وخُتم بملك ، يعني امرأ القيس وأبا فراس ؛ وهذه الطائفة أشهرُ الثلاثة تقدّماً ، وأثبتها في مواطن الفخر ومواطئ الشرف قدَماً ، وأسبق الشعراء في مَيْدان البلاغة ، وأرجحهُم في ميدان[4] البَراعة ؛ فإنّ الكلامَ الصادرَ عن الأعيان والصدور أقرُّ للعيون وأشفى للصدور ، فشرف القلائد بمن قلّدها ، كما أن شرف العقائل بمن ولَدها :

وخَيْرُ الشِّعْرِ أكْرَمُهُ[5] رِجالًا وشَرُّ الشِّعْرِ ما قَالَ العَبِيدُ

وإذا اتفق من اجتمعت فيه هذه الشرائط ، وانتظمت عنده هاتيك المحاسن ، كان خليقاً بأن تُخلَّد في صحائف القلوب أشعارُه ، وتُدوَّن في ضمائر النفوس آثارُه ،

---

(١) العطايا . (٢) في ت ، س : وحليت لديهم . (٣) في ت : وعلت .
(٤) هكذا في ت ، ش . وفي ط : ميزان . (٥) في ت : أشرفه .

وتُكتَب على الأحداق والعيون أخبارُه ، وجديراً[1] بأن يختصّ بسرعة المجال في المجالس ، وخِفّة الدار في المدارس ، كالأمير الجليل السيد مولانا :

أبي الفضل مَنْ نال السماء بفضلهِ ... ومن وعَدتَهُ نفسُه بمزيدِ
تودّ عقودُ الدرّ لو كنّ لفظَهُ ... فينظمها من توأمٍ وفريدِ

وهذه مقطعات لأهل العصر في وصف البلاغة

قال أبو الفتح البُستي[2]:

مدحتُك فالتامت قلائدُ لم يفزْ ... بأمثالها الصِّيدُ الكِرامُ الأعاظمُ
لأنك بحرٌ والمعاني لآلئٌ ... وفكري غوّاصٌ وشِعْرِي[3] ناظمُ

وقال أيضاً[4]:

ما إنْ سمعت بنُوّارٍ له ثَمرٌ ... في الوقت يُمتِع سَمْعَ المرء والبَصَرا
حتى أتاني كتابٌ منك مبتسِمٌ ... عن كل لفظٍ ومعنى يشبه الدُّررا
فكان لفظك في لألائه زهراً ... وكان معناه في أثنائه ثمرا
تسابقا فأصابا القَصْدَ في طَلَقٍ ... لله من ثمرٍ قد سابقَ الزَّهَرَا

وقال أيضاً[5]:

لمّا أتاني كتاب منك مبتسمٌ ... عن كلّ برٍّ ولفظ[6] غيرِ محدودِ
حكَتْ معانيه في أثناء أسطرِهِ ... آثارك البيض في أحوالىَ السُّودِ

كأنه ألمّ بقول الطائي[7]:

يرى أقبحَ الأشياء أوْبَةَ آملٍ ... كَسَتْها[8] يَدُ المأمولِ حُلّةَ خائبِ
وأحسن من نَوْرٍ تُفتّحه الصَّبا ... بياضُ العطايا في سوادِ المطالبِ

(١) أى وكان جديرا . (٢) يتيمة الدهر : ٤ — ٢٩٧ . (٣) فى اليتيمة : وقولى .
(٤) يتيمة الدهر ٤ — ٢٩١ . (٥) يتيمة الدهر : ٤ — ٢٩١ .
(٦) فى اليتيمة ، و ت : وفضل . (٧) ديوانه : ٤٢ . (٨) فى ت : كسته .

وقال أبو الفتح البستي في أبي نصر أحمد بن علي الميكالي(١) :

جمع اللهُ في الأمير أبي نصـ ... ـرٍ خِصالًا تَغْلُو بها الأقدارُ
راحةً بَرَّةً(٢) وصدراً فَضاء ... وذكاء تبـــدو له الأسرار
خَطُّهُ روضةٌ وألفاظُه الأز ... هار يَضْحكن والمعـــاني ثِمارُ

وقال عمر بن علي المُطَّوِّعي يَمْدَحُ أبا الفضل الميكالي من قصيدة :

والى الأمير ابن الأمير المعتـــلى ... بــكمال سُــؤددهِ على الأمراء
وطِئت بيَ الوَجْناء وَجْنَةَ مَهْمَهٍ ... متقاذفِ الأكنافِ والأرْجاء(٣)
كيما ألاحظَ منــه في أفق العُــلا ... فَلَــكاً بَدِيرِ كواكبَ العَلْياء
كالبَدْرِ غــير دَوَامِه مُتَــكامِلًا ... كالبَحْرِ غــير عذوبةٍ وصفاء
بالفضلِ يُكنَى وهو فيه كامنٌ(٤) ... كالرِّي يَــكْمُن في زُلال المــاء
يامَنْ إذا خَطَّ الــكتابَ يمينُــهُ ... أهْدَى إلينـــا الوَشْيَ من صَنْعاء
لم تجر كفُّك في البياض مُوَقِّعاً ... إلّا تجلَّتْ عن يَدٍ بيضـــاء
قَرْمٌ يَدَاه وقَلْبُه ما منهمـــا ... في النظم والإعطاء إلا الطائي(٥)

وقال فيه أيضا :

كلامُ الأمير النَّدْب(٦) في نثر نَظْمِهِ ... يَنُوبُ عن الماء الزلال لمن يَظْمَا
فَنَرْوَى متى نَرْوِي بَدائعَ نَظْمِه ... ونَظْمَا إذا لم نَرْوِ يوماً له نَظْما(٧)

وكتب إليه أيضاً :

أقول وقد جادت جُفوني بأدْمُعٍ ... كأني قد استَمْلَيْتهنَّ من السُّحْبِ

---

(١) اليتيمة : ٤ — ٢٩٨ . (٢) في ت : ثرة ، وهذا من س .
(٣) الوجناء : الناقة الصلبة . المهمه : القفر . متقاذف الأكناف : متباعد الأطراف .
(٤) في ت : كامل . (٥) القرم : السيد. الطائي الكريم : حاتم ، والطائي الشاعر : أبو تمام . (٦) الندب: الخفيف في الحاجة الظريف النجيب .
(٧) نظما : الأولى هي ظمأ ، والثانية : النظم .

وقد عَلِقَتْ بى للنزاع نَوَازِعٌ ... كَتَبْنَ مُعَاناةَ العناء على قلبى
إلى سيّدٍ أوفى على الشَّمْسِ قدرُهُ ... وزادت معاليه ضياء على الشُّهب
أبى الفضل من راحت فواضلُ كفّه ... وراحتُه تُرْبى[1] على عَدَدِ الترب
سقى اللهُ أرضاً حلّ فيها سحائبا ... كنائله الفيّاض أو لفظه العذْبِ
سحائبُ يَحْدُوها نسيمٌ كخُلْقِهِ ... ويقدمها بَرْقٌ كصارِمه العَضْبِ[2]
ولا زال أفلاكُ السعود مُطيفةً ... بحضرته تنتابها وهو[3] كالقطْبِ

وقال أبو منصور الثعالبى للأمير أبى الفضل[4]:

لكَ فى الفضائل[5] معجزاتٌ جَمّةٌ ... أبداً لغيرك فى الوَرَى لم تُجْمَعِ
بحران بحرٌ فى البلاغة شابَهُ ... شِعْرُ الوليد وحُسْنُ لفظِ الأصمعى
كالنُّورِ أو كالسِّحر أو كالدُّرِّ أو ... كالوَشْىِ فى بُرْدٍ عليه مُوَشَّعِ[6]
شكرا فكم من فَقْرَةٍ لك كالغِنَى ... وافى الكريمَ بُعَيْدَ فقرٍ مُدْقِعِ
وإذا تفتّق نَوْرُ شِعْرِك ناضراً ... فالحسنُ بين مُرَصَّعٍ ومصرَّعِ
أَرْجَلْتَ فُرْسانَ الكلام ورُضْتَ أفـ ... ـراسَ البديع وأنت أَمْجَدُ مُبْدِعِ[7]
ونقشت فى فصّ الزمان بدائعاً ... تُزْرِى بآثارِ الربيع المُمْرِعِ[8]

[وقال فى وصف فرس أهداه إليه ممدوحه][9]:

يامُهْدِىَ[10] الطِّرْفِ الجوادِ كأنّما ... قد أنعلوه بالرياح الأربعِ
لا شىءَ أسرعُ منه إلّا خاطرى ... فى شكر نائلك اللطيفِ المَوْقِعِ
ولو أنّنى أنصفت فى إكرامه ... لجلال مُهْدِيه الكريمِ الأروعِ[11]

(١) تربى: تزيد. (٢) الصارم العضب: السيف القاطع. (٣) فى س: وهى.
(٤) يتيمة الدهر: ٤ — ٢٢٧، والمقدمة: ٣٥٥. (٥) فى اليتيمة، س: فى المحاسن.
(٦) توشيع الثوب: إعلامه. (٧) فى اليتيمة: وأنت أفرس مبدع.
(٨) الممرع: المملوء بالكلأ. (٩) الزيادة من اليتيمة. (١٠) فى اليتيمة: ياواهب.
(١١) الأروع: من يعجبك بحسنه وجهارة منظره أو بشجاعته. وفى اليتيمة: الكريم الألمعى.

أنظمته[١] حَبَّ القلوب لحُبّهِ   وجعلت مربطه سَوادَ الدَّمعِ
وخامت ثم قطعت غير مضيّقٍ[٢]   بُرْدَ الشبـابِ لحُلّة والبُرقع

وكتب إليه فى جوابِ كتاب ورد عليه :

أنسيمُ الرياض حَوْلَ الغــدير   مازَجتْه رَيّا[٣] الحبيب الأثيرِ
أم وُرُود البشير بالتّجْح من فـ   ـكّ أســيرٍ أو يُسْرِ أمرٍ عَسيرِ
فى مُلاءٍ من الشباب جديدٍ   تحت أيْكٍ من التَّصابى نضيرِ
أم كتاب الأمير سيدنا الفرْ   د فيا حبذا كتاب الأميرِ
وثمار الصــدور[٤] ما أجتنيه   من سُطورٍ فيها شفاء الصدورِ
عَمّقتْها أناملٌ تَفْتِــقُ الأنْـ   ـوارَ والزهرَ فى رياض السطورِ
كاللّى قد جُمِعْنَ فى النَّظم الفُـ[٥]   ـرّ مع الأمن من صُروفِ الدهور
يا أبا الفضــل وابنــه وأخاهُ   جلَّ باريك من لطيف خَبيرِ[٦]
شِيَمٌ يَرتَضِعْنَ دَرَّ المعـالى   ويُمَيّزْن عن نسيم العبيرِ
وسجايا كأنهنَّ لدى النشـ   ـرِ رُضابُ الحيا بأرْى مَشُورِ[٧]
ومُحيّا لدى المــلوك محيّا   صادق البِشر مُخْجِل للبدورِ

فأجابه أبو الفضل بأبيات يقول فيها فى صفة أبياته :

وهَدِيٍّ زُفّتْ إلى السَّمع بِكْرٍ   تتهادَى فى حِلْيَــةٍ وشُذُورِ[٨]
عجِب الناسُ أنْ بدَتْ مِنْ سَوادٍ   فى بياضٍ كالمِسْكِ فى الكافورِ
نُظِمت فى بلاغةٍ ومعـانٍ[٩]   مثـل نظم العقود فَوْقَ النحورِ
كم تذكّرت عنـدها من عُهُودٍ   للتلاقى فى ظلّ عَيْشٍ نَضيرِ

---

(١) فى اليتيمة : أقضمته .   (٢) فى اليتيمة : غير مضيع .   (٣) فى ث : رى .
(٤) فى ث : السرور ، وفى س : السطور .(٥) فى س : العز .   (٦) فى س : قدير .
(٧) الأرى : العسل للصق .   (٨) الهدى : العروس ، والشذور : قطع الذهب أو خرز يفصل بها النظم ، أو هو اللؤلؤ الصغار .   (٩) فى ط : من معان ، وهذه من ث ، س .

فذممتُ الزمانَ إذْ ضَنَّ عنا ... باجتماعٍ يضمّ شَمْلَ السرورِ[1]
ولئن رَاعنَا الزمانُ بِبَيْنٍ ... ألبَس الإنس ذِلّة المهجورِ
فعسى اللهُ أنْ يُعيدَ اجتماعاً ... فى أمانٍ من حادثاتِ الدُّهورِ
إنه قادرٌ على ردِّ ما فا ... ت وتَيْسير كلِّ أمْرٍ عَسيرِ

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابى فى الوزير المهلبي[2] :

قل للوزيرِ أبى محمد الّذى ... قد أعجزتْ كلَّ الوَرَى أوصافُهُ
لكَ فى المجالس مَنْطِق يَشْفِى الجوَى ... ويَسُوغُ فى أُذُنِ الأديب سُلافُهُ
وكأنَّ لفظَكَ جَوْهَرٌ متنخَّلٌ[3] ... وكأنما آذانُنا أصدافُهُ

* * *

والمهلبي هذا هو أبو محمد الحسن بن هارون[4] بن إبراهيم بن عبد الله بن يزيد من ابن حاتم بن قبيصة بن المهلب ، وزَر لأحمد بن بويه الديلمى ، وكانت وزارته سنة تسع وثلاثين وثلثمائة ، وكان أبو محمد من سَرَوات الناس وأدبائهم وأجوادهم وأعقلهم ؛ وفيه يقول أبو إسحاق الصابى[5] :

نِعَم اللهِ كالوحوش فما تأ ... لَفُ إلا الأخيارَ[6] الفُسّاكا
نفّرَتْها آثامُ قوم وصيّرْ[7] ... ن لها البرَّ والتُّقَى أشْرَاكا

وكان قبلَ اتّصاله بالسلطان سائحاً فى البلاد ، على طريق الفَقْرِ والتصوّف ، قال أبو على الصوفى : كنت معه فى بعض أوقاته أُماشِيه فى إحدى طرقاته فضَجِر لضيقِ الحال ، فقال :

ألَا موتٌ يُبَاعُ فأشتريهِ ... فهذا العيشُ ما لا[8] خَيْرَ فِيهِ

(١) ليس هذا البيت فى ت . (٢) يتيمة الدهر : ٢ — ٢٤٨ .
(٣) فى اليتيمة : لؤلؤ بدل جوهر ، ومتنخل : مختار . (٤) فى ت : بن محمد بن هارون .
(٥) اليتيمة : ٢ — ٢٧٥ . (٦) الأخيار . (٧) فى ت : مصيرن .
(٨) فى ت : لا ما .

ألا رَحِمَ المهيمن نفس حرٍّ تصــدَّقَ بالوفاةِ على أخيهِ

ثم تصرَّف بما يُرْضيه الدهر ، وبلغ المهلبى مَبْلغه .

قال أبو على : دخلت البصرة فاجتزت بشرٍّ مَنْ رأى ، وإذا أنا بناشطيات وحَرَّاقات(١) وَزَبارب(٢) وطَيَّارات فى عُدَّةٍ وعُدَد ، فسألتُ لِمَنْ هذا ؟ فقيل : للوزير المهلبى ، ونمتوا لِي صَاحبي ؛ فوصلتُ إليه حتى رأيته ، فكتبتُ إليه رقعة وتوسّلت حتى دخلتُ فسلّمت ، وجلستُ حتى خلا مجلسه ، فدفعتُ إليه الرقعةَ وفيها :

ألَا قُلْ للوزيرِ بلا احْتِشَام مقال مُذَكِّرٍ ما قد نَسِيهِ

أتذكر إذ تقولُ لضيق عيش(٣) ألَا مَوْتٌ يُبَاعُ فأشْـتَريهِ

فنظر إلىَّ وقال : نعم . ثم نهض وأنْهَضَنى معه إلى مجلس الأُنس ، وجعل يُذاكِرنى ما مَضَى ، ويَذْكُرُ لى كيف تَرقت حاله ، وقدَّم الطعام فَطَعِمْنا ، وأقبل ثلاثةٌ من الغلمان على رأسِ أحدهم ثلاثُ بِدَرٍ(٤) ، ومع الآخر تَخوتٌ وثياب ، ومع الآخر طيبٌ وبخور ، وأقبلت بَغْلة رائعة بسرْجٍ ثقيل ؛ فقال : يا أبا علىّ ؛ تفضّلْ بقبول هذا ، ولا تتخلَّف عن حاجةٍ تَعرِضُ لك . فشكرته وانصرفت ، فلما هممْتُ بالخروج من الباب استردّنى وأنشدنى بديها :

رقَّ الزمانُ لفاقتى ورَثَى لطول تحرُّقى

وأنالنى ما أرْتجى(٥) وأجارَ ممَّا أتَّقى

فلأغفرنَّ له الكثيـ رَ من الذنوب السُّبَّقِ

إلَّا جنايَتَــه التى فعلَ المشيب بمَفْرَقى

* * *

(١) الحراقات : سفن بالبصرة وفيها مرامى نيران يرمى بها العدو . والطيارات : فرس طيار : حديد الفؤاد ماض كأنه يطير . (٢) هكذا فى ط ، ق . وفى ت : وزنارات . وفى هامش س : أنواع من السفن . (٣) فى ت ، س : لضيق حال .

(٤) البدر : جمع بدرة ، وهى كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم . (٥) فى س : ما أشتهى .

العقول

قال بعض العلماء : العقول لها صُوَرٌ مثل صور الأجسام ، فإذا أنتَ لم تسلُكْ بها سبيلَ الأدب حارَتْ وضلَّت ، وإنْ بعثْتَها فى أوْدِيتها كلَّت وملَّت ، فاسلُكْ بعقلك شِعَاب المعانى والفهم ، واستبقه بالجِمَام[1] للعلم ، وارْتَد لعقلك أفضلَ طبقاتِ الأدب ، وتوَقَّ عليه آفةَ العَطَب ؛ فإنَّ العقلَ شاهدُك على الفضْل ، وحارسُك من الجهل .

واعلَمْ أنَّ مغارِسَ العقول كمغارس الأشجار ، فإذا طابت بِقاعُ الأرض للشجر زكا[2] ثمرُها ، وإذا كَرُمَت النفوسُ للعقول طاب خَبَرُها ، فاغْمُرْ نفسَك بالكرم تَسْلَمْ من الآفةِ والسقم .

واعلَمْ أنَّ العقلَ [الحسن][3] فى النفسِ اللئيمة بمنزلة الشجرةِ الكريمة فى الأرض الذميمة ينتفع بثمرها على خُبْثِ المَغْرِس ، فاجْتَنِ ثمرَ العقول وإن أتاك من لِئَام الأنفس . [وقال النبي عليه السلام: رب حامل فِقْه إلى من هو أوعى له . وقيل : رب حامل فِقْهٍ غير فقيه . ورب رَمْيَة من غير رام][3] .

ضالة المؤمن

وقيل : الحِكْمَةُ ضالَّةُ المؤمن ، أينما وجدها أخذها . وسمع الشعبي الحجاج بن الحكم يوسف وهو على المنبر يقول : أمّا بعد ، فإنَّ الله كتب على الدنيا الفناء وعلى الآخرة البقاء ؛ فلا فناء لما كُتِب عليه البقاء ، ولا بقاء لما كُتِبَ عليه الفناء ، فلا يغرّنكم شاهدُ الدنيا عن غائبِ الآخرة ، وأقصِرُوا من الأمل لقِصَرِ الأجل . فقال : كلامُ حكمة خرج من قلبٍ خراب ! وأخرج ألواحه فكتب . وقد روى ذلك عن سفيان الثورى .

وقد سُمع إبراهيم بن هشام وهو يَخْطُب على المنبر ويقول: إن يوما أشاب الصغير وأسْكَر الكبير ، ليومٌ شَرُّه مُسْتَطِير !

(١) الجمام : الراحة . (٢) زكا : نما . (٣) من ت .

[وصف الكتب]

وصف الكتاب للجاحظ

قال الجاحظ[1] : الكتاب وعاء مُلِئ عِلْما، وظَرْف حُشِي ظَرْفا، وبُسْتَان يُحمل في رُدْن[2] ، ورَوْضَة تقلب في حِجر ، ينطق عن الموتى ، ويُتَرْجِمُ كلامَ الأحياء .

وقال : من صنَّف كتابا فقد استهدف[3] ؛ فإن أحسن فقد استعطف ، وإن أساء فقد استقذف[4] .

وقال : لا أعلم جاراً أبرَّ، ولا خليطاً أنْصَف ، ولا رفيقا أطوع، ولا مُعَلِّما أخضع، ولا صاحبا أظهرَ كفاية ، وأقلَّ جنــاية ، ولا أقلَّ إملالا وإبراما ، ولا أقلَّ خلافا وإجراما ، ولا أقلَّ غِيبة ، ولا أبعــد من عَضِيهة[5] ولا أكثر أعجوبة وتصرُّفا ، ولا أقل صَلَفا وتكلُّفا، ولا أبعد من مِرَاء، ولا أترك لِشَغَب، ولا أزهد في جِدال، ولا أكفَّ عن قتال ، من كتاب . ولا أعلم قرينا أحْسَن مُوَاتاة ، ولا أعجل مكافأة ، ولا أخضر معونة ، ولا أقل مئونة ، ولا شجرة أطول عمراً ، ولا أجمــع أمْرا ؛ ولا أطيب ثمرة ، ولا أقرب مُجْتَنى ، ولا أسرع إدْرَاكا في كل أوَان ، ولا أوجد في غير إبَّان ، من كتاب . ولا أعلم نِتاجاً في حداثة سنّه ، وقُرْب ميلاده ؛ ورِخَص ثمنه ، وإمكان وجوده ، يجمع من التدابير الحسنة ، والعلوم الغريبة ، ومن آثار العقول الصحيحة ، ومحمودِ الأخبارِ عن القرون الــماضية ، والبلاد المُتَرَاخية ، والأمثال السائرة ، والأمم البائدة ما يَجْمَع الكتابُ .

وصف المأمون للكتاب

ودخل الرشيد على المأمونِ وهو يَنْظُر في كتابٍ ، فقال : ما هذا؟ فقال : كتاب يَشْحَذ الفِكْرَة ويُحْسِنُ العِشْرة . فقال : الحمدُ لله الذى رزَقَنِى من يرى بعَيْن قلبه أكثرَ مما يرى بعين جسمه .

وصف الكتب لبعض الأدباء

وقيل لبعض العلماء : ما بَلَغَ من سرورك بأدبك وكُتُبك ؟ فقال : هي إن خَلَوْت لذَّتى، وإن اهتممتُ سَلْوَتى ؛ وإن قلتَ : إنّ زَهْرَ البستان، ونَوْر الجِنان، يَجْلُوَان

---

(١) النويرى : ٧ ـ ١٧ . (٢) الردن : الكم . (٣) استهدف : صير نفسه هدفا .

(٤) استقذف : عرض نفسه للقذف . (٥) العضيهة : الإفك والبهتان .

الأبصار ، ويُمْتِعَان بحسنهما الألحاظ ، فإنّ بستانَ الكتب يَجْلُو العقل ، ويَشْحَذُ الذّهن ، ويُحْيي القلب ، ويقوّي القريحة ، ويُعِينُ الطبيعةَ ، ويَبْعَثُ نتائج العقول ، ويستثير دَقَائِقَ القلوب ، ويُمْتِعُ في الخَلْوَةِ ، ويُؤْنِسُ في الوَحْشَةِ ، ويُضْحِكُ بنوادره ، ويَسُرُّ بغرائبه ، ويفيد ولا يَسْتَفِيد ، ويُعْطِي ولا يأخذ ، وتَصِلُ لذَّته إلى القلب ، من غير سآمة تُدْرِكُكَ ، ولا مشقة تَعرض لك .

المتنبي

وقال أبو الطيب المتنبي (١) :

وللسِّرِّ مِنّي مَوْضِعٌ لا يَنَالُهُ … نَدِيمٌ ولا يُفْضِي إليه شَرَابُ
وللخَوْدِ مِنّي ساعةٌ ثم بَيْنَنَا … فَلَاةٌ إلى غَيْرِ اللقاء تُجَابُ (٢)
وما العِشْقُ إلّا غِرَّةٌ وطَمَاعَةٌ … يُعَرِّضُ قَلْبٌ نَفْسَهُ فيُصَابُ
وغَيْرُ فُؤادِي لِلْغَوَانِي رَمِيَّةٌ … وغَيْرُ بَنَانِي للرِّخَاخِ رِكَابُ (٣)
تَرَكْنَا لِأَطْرافِ القَنَا كُلَّ لَذَّةٍ (٤) … فليس لنا إلّا بِهِنَّ لِعابُ (٥)
نُصَرِّفُهُ للطَّعْنِ فَوْقَ سَوَابِحٍ (٦) … قد انْقَصَفَتْ فيهنَّ مِنْهُ كِعَابُ
أَعَزُّ مَكانٍ في الدُّنَا سَرْجُ سَابِحٍ … وخَيْرُ جليسٍ في الزّمانِ كِتابُ

فِقَر في الكتب

إنفاق الفِضّة على كُتب الآداب يُخلفك عليه ذهب الألباب . إنّ هذه الآداب شَوَارِد ، فاجعلُوا الكتبَ لها أزِمَّة . كتاب الرجل عُنوان عقله ، ولسانُ فضله .

ابن المعتز — مَن قرأ سَطرًا من كتاب قد خطّ عليه فقد خان كاتِبَه ؛ لأنّ الخطّ يحرز ما تحته .

بزرجمهر — الكتبُ أصْدَافُ الحِكَم ، تنشقّ عن جواهر الكلم .

(١) ديوانه : ١ — ١٩٢ ، المختار من شعر بشار : ١٥٤ . (٢) الخود : الجارية الناعمة . والفلاة : الأرض المنقطعة البعيدة عن الماء . تجاب : تقطع . (٣) الرخاخ : من أدوات الشطرنج . (٤) في الديوان : كل شهوة . (٥) اللعاب : الملاعبة .
(٦) في الديوان : حوافر .

بعض الكتاب ـ إعجام الخطّ يمنع من استعجامه ، وشَكْله يؤمن من إشكاله .
كأن هذا الكاتب نَحَا إلى قول أبي تمام[١] :

ترى الحادثَ المستعجم الخطب معجَماً   لديه ومشكولاً إذا كان مُشْكِلا[٢]

ما كُتب قرّ ، وما حُفِظ فرّ . الخطوط المعجمة كالبرود المعلمة .
وقال ابن المعتز يصف كتابا[٣] :

وذى نُكَت[٤] موشّى نَمّقته[٥]   وحاكته الأناملُ أىَّ حَوْك
بشكل يَرْفَع الإشكالَ عنهُ   كأنّ سطورَه أغصانُ شَوْك

جملة من ألفاظ أهل العصر

فى صفة الكتب وتهاديها ، وما يتعلق بأسمائها ومعانيها

حضرة مولاى تَجِلُّ عن أنْ يُهْدَى إليها غيرُ الكتب، التى لا يترفّع عنها كبير، ولا يَمْتَنِعُ منها خَطير ، وقد فكّرت فيما أنفذت[٦] به مقيما للرَّسْم فى جملة الخدَم ، وحافظا للاسم فى غمار الحشم ، فلم أجِدْ إلا الرّقّ الذى سبق ملْكُه له والمال الذى مَنَحه وخَوّله ، فعدَلْتُ إلى الأدب الذى تَنْفُقُ سوقُه[٧] بباب سيدنا ولا تَكْسد[٨] ، وتهبّ ريحُه بجانبه ولا تَرْكُد . وأنفذت كتابى هذا راجياً أن أشرف بقبوله، ويوقّع إلىّ بحصوله ؛ ولمّا وجب على ذوى الاختصاص لسيدنا إهداء ما جرت العادةُ بتسابق الأولياء إلى الاجتهاد[٩] فى إهدائه ، وجب العدول فى إقامة رسم الخدمة إلى اتباع

(١) ديوانه : ٢٥٣ . (٢) فى الديوان : وإن . المشكول : المعلم بالشكل ، والمشكل : المشتبه . (٣) ديوانه : ورواية البيتين فى الديوان :

ودونك موشى نمته . . .
بشكل يأخذ الحرف المحل

(٤) هكذا فى س، ط. وفى ق : وذونكت . وفى ت : ودونك .
(٥) فى س ، ت : نمته . (٦) فى ت : فيما أتقرب به .
(٧) نفقت السوق : قامت . (٨) فى ط: تكد ، وفى ت : ولا يفسد ، وهذه رواية س.
(٩) فى ت ، س : الاحتشاد .

ما صدر عنه من الرخصة فيما تسهل كلفته، وتجل عند ذوي الألباب قيمته، وتحلو ثمرته وهو علم يُقتنى، وأدب يُجتنى. قال أبو الحسن بن طباطبا العلوي:

لا تُنْكِرَنْ إهداءنا لك منطقا ... منك استفدنا حُسْنَه ونظامَهُ
فالله عز وجل يشكر فعل من ... يتلو عليه وحيه وكلامَهُ

وأهدى أحمد بن يوسف إلى المأمون في يوم مهرجان هدية قيمتها ألف ألف درهم، وكتب:

على العبد حقٌّ فهو لابدَّ فاعله ... وإن عظُم المولى وجلَّت فضائله
ألم ترنا نُهدي إلى الله ماله ... وإن كان عنه ذا غنًى وهو قابله

وقال أبو الفتح البستي[1]:

لا تُنكِرَنَّ إذا أهديت نحوك من ... علومك الغرّ أو آدابك النتفا
فقيّم الباغ[2] قد يهدي لمالكه ... برسم خدمته من باغه التحفا

وكتب أبو إسحاق الصابي إلى عضد الدولة في هذا المعنى: العبيد تُلاطف ولا تُكاثر الموالي في هداياها، والموالي تقبل اليسور منها قبولا هو محسوب في عطاياها.

الإهداء إلى الوالي الصابي

ولما كان — أدام الله تعالى عزه — مبرّزا على ملوك الأرض في الخطر الذي قصّروا عنه شديداً، والسّمْى[3] الذي وقفوا منه بعيداً، والآداب التي عجزوا عن استملائها فضلا عن عِلمها، والأدوات التي نَكِلُوا[4] عن استفهامها فضلا عن فهمها، وجب أن يُعْدَل عن اختياراتهم فيما تحظى به الجسوم البهيمية، إلى اختياره فيما تحظى به النفوس العليّة، وعما يَنْفُق في سوقهم العامية، إلى ما يَنْفُق في سوقه الخاصية، إفراداً لرُتبته العلياء،

(١) يتيمة الدهر: ٤—٣٠٧. (٢) الباغ: الطيب.
(٣) في ط: والمدى، وهذه من ت، س.
(٤) نكل: نكص وجبن.

وغايته القصوى ، وتمييزاً له عمن لا يَجْرِى معه فى هذا المضمار ، ولا يتعلّقُ منه بالغُبَار ؛ وقد حملت إلى الخزانة — عمرها الله — شيئاً من الدفاتر وآلة النجوم ؛ فإنْ رأى مولانا أن يتطوّل على عَبْدِه بالإذن فى عَرْضِ ذلك عليه مُشَرّفاً له وزائداً فى إحسانه إليه فعل إنْ شَاء الله تعالى .

المتنبى وأهدى أبو الطيب المتنبى إلى أبى الفضـل بن العميد فى يوم نوروز قصيدة مدحه فيها يقول فى آخرها[1] :

كَثُرَ الفِـكْرُ كيفَ نُهْدِى كما أهْـدَى[2] إلى ربِّها الرئيسِ عِبَادَهْ
والذى عندَنا من المالِ والخَيْلِ فَمِنْهُ هِبَاتُهُ وقِيَادُهْ
فبعثنا[3] بأربعـين مِهَار كُلُّ مُهْرٍ مَيْدَانُه إنْشَادُهْ
فارْتَبِطْهَا فإنَّ قلْباً نَمَاهَا[4] مَرْبَطٌ تَسْبِقُ الجيـادَ جِيَادُهْ

وفى هذه الكلمة يقولُ وقد احتفل فيها ، واجتهد فى تجويد ألفاظها ومعانيها ، فتعقّب عليه أبو الفضل فى مواضع وقف عليها فقال[5] :

هـل لِعُذْرِى إلى الهُمَام أبى الفضل قَبُولٌ سَوَادُ عَيْنِى مِدَادُهْ
أنَا من شدّةِ الحياءِ عَلِيلٌ مَكْرُمَاتُ المُعِلِّهِ[6] عُوّادُهْ
ما كفانِى تقْصِيرُ ما قُلْتُ فيهِ عن عُلاهُ حتى ثَنَاهُ انْتِقَادُهْ
ما تعوّدْتُ أن أرَى كأبى الفضـل وهَذَا الذى أتَاهُ اعْتِيَادُهْ[7]
غَمَرَتْنِى فوائدٌ شاء منها[8] أن يكونَ الكلامُ مِمّا أفَادُهْ
ما سَمِعْنَا بِمَن أحبّ العطايا فاشتهى أن يكونَ منْها فؤادُهْ

وقد كان مدحه بقصيدته التى أولها[9] :

بادٍ هَوَاكَ صَبَرْتَ أم لم تَصْبِرَا وبُكَاكَ إن لم يَجْرِ دَمْعُكَ أو جَرَى

(١) ديوانه : ٢ — ٥٦ . (٢) فى الديوان : كما أهدت . (٣) فى الديوان : قد بعثنا .
(٤) عاها : صنعها . (٥) ديوانه : ٢ — ٥٣ . (٦) المعله : المعل له .
(٧) فى ت : وهذا الذى أنا اعتاده . (٨) فى الديوان ، س : فيها .
(٩) ديوانه : ٢ — ١٦٠ .

وفيها معان مخترعة ، وأبيات مبتدعة ، يقول فيها(١) :

مَن مُبلغُ الأعْرابِ أنّى بعدَها ... جالَسْتُ رَسْطَالِيسَ والإسكَنْدَرَا(٢)
ومَلِلْتُ نَحْرَ عِشَارِها فأضافَنِي ... مَنْ يَنْحَرُ البِدَرَ النُّضَارَ لمن قَرَى(٣)
وسمِعْتُ بطْلَيْمُوسَ دَارِسَ كُتْبِهِ ... متَمَلِّكًا متَبَدِّيًا متحَضِّراً
ورأيتُ(٤) كلَّ الفاضِلِينَ كأنَّما ... رَدَّ الإلهُ نفوسَهم والأعْصُرَا
نُسِقُوا لنا نَسَقَ الحسابِ مقدَّماً ... وأتَى فذلكَ إذْ أتيتَ مُؤَخَّرَا

وفيها يقول(٥) :

فدعاكَ حُسَّدُكَ الرئيسَ وأمْسَكُوا ... ودَعَاكَ خالِقُك الرئيسَ الأكْبَرَا
خَلَقَت صِفَاتُك في العيونِ كَلَامَهُ ... كالخَطِّ يَمْلأُ مِسْمَعَيْ مَنْ أبصَرَا

أخذه من قول الطائي يصف قصائده(٦) :

بِقُربٍ(٧) يراها مَنْ يَرَاها بسمعِهِ ... ويَدْنُو إليها ذو الحِجَا وهو شَاسِعُ

[فِقَر في وصف الكتب]

كتابٌ كتب لي أمانًا من الدهر ، وهنّاني أيام العمر . كتاب أوجب من الاعتداد فوق الأعداد ، وأودع بياض الوداد سواد الفؤاد . كتابٌ النظر فيه نعيمٌ مقيم ، والظفرُ به فتحٌ عظيم . كتابٌ ارتحت لعِيَانه(٨) ، واهتززت لعُنوانه . كتابٌ هو من الكتب الميَامين ، التي تأتي من قِبل اليمين . كتاب عددته من حُجول الدهر وغُرَرِه(٩) ، واعتدَدْتُه من فُرَصِ العيش وغرَرِه . كتابٌ هو أنفَس طالع ، وأكرَم متطلَّع ، وأحْسَن واقع ، وأجلّ متوقع . كتاب لو قُرِئَ على الحجارة لانفجَرت ، أو على الكواكب لانتثَرت : كتابٌ كِدت أبْليه طيًّا ونشرًا ، وقبّلته ألفًا ، ويدَ حامله

(١) ديوانه : ٢ — ١٧٠ . (٢) رسطاليس : حكيم رومى ، وأصله أرسطاطاليس .
(٣) البدر . جمع بدرة وهى الكيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم .
(٤) فى الديوان : ولقيت . (٥) ديوانه : ٢ — ١٦٨ . (٦) ديوانه : ٤٨٠ .
(٧) فى الديوان و ت : بقرب ، ويريد بها قصائده القراء . (٨) لمشاهدته .
(٩) جمع غرة ، وفى ت : من حجول الدهر وغرره .

عشراً . كتابٌ نسيت لحسنه الرَّوْضَ والزَّهر ؛ وغفرتُ للزمان ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر . كتاب أملَتْه هِزَّةُ المَجْدِ على بنانك، ونَطَقَ به لسانُ الفضْل عن لسانك. أنا ألتقِط من كلِّ حَرْف تدبِيرُه[1] أناملَك تُحْفة ، وآخُذُ من كلِّ سَطْرٍ تتجشَّم تخطيطه نُزْهة . إذا قرأت من خطِّك حَرْفا وجدتُ على قلبي خِفّاً[2] ، وإذا تأمَّلت من كلامك لفظا ازددت من أُنْسِى حَظّا . كتاب كتَبَ لى أماناً من الزمان ، وتوقيعٌ وقع منّى مَوْقِع الماء من العطشان . كتاب هو نَمِلَّةُ المسافر[3] وأُنْسَةُ المستوحش ، وزبدة الوصال، وعُقْلة المستَوْفِز[4]. كتاب هو رُقْية القلب السليم[5] ، وغرَّة العيش البهيم[6] . كتاب تمتَّعت منه بالنعيم الأبيض ، والعيش الأخْضر ، واستلذته استِلَام الحجر الأسود ، ووكلت طرف من سُطُوره بوَشْيٍ مهلَّل ، وتاج مُكَلَّل ، وأوْدَعْت سَمْعى من محاسنه ما أنْسانى سماعَ الأغانى من مطربات القوانى . نشأت سَحَابة من لفظك غَيْمُها نِعْمةٌ سابِغَةٌ[7] ، وغَيْثُها حِكْمَةٌ بالغة ، سقتْ رَوْضَةَ القلب ، وقدْ جهدتها[8] يَدُ الجَدْبِ ؛ فاهتزَّتْ وربَتْ ، واكتست ما اكتَسَبت . كتــابٌ حسبته ساقطاً إلىَّ من السماء ، اهتزازاً لمطْلَعه ، وابتهاجاً بحُسْنِ مَوْقِعه ، تناولتُه كما يتناول الكتابُ المرقومُ ، وفضَضْتُه كما يُفَضُّ الرحيقُ[9] المختوم . كتابٌ كالمشترى شَرُفَ به المسير ، وقميص يوسفَ جاء به البشير . كتابٌ هو من الحسن رَوْضَة حَزْن[10] ، بل جَنَّة عَدْن ، وفى شَرْحِ النفس وبَسْطِ الأُنس بَرْدُ الأكباد والقلوب وقميص يوسف فى أجفان[11] يعقوب .

---

(١) فى ت : تدبيره . (٢) الخف : الارتياح . (٣) نملة المسافر : مايتعلل ويتلهى به المسافر . (٤) استوفز فى قعدته : انتصب فيها غير مطمئن ، أو استقل على ركبتيه ولما يستو قائما وقد تهيأ للوثوب . (٥) السليم : الملدوغ . (٦) البهيم : المظلم .
(٧) فى ت : غيثها نعمة متتابعة . (٨) فى ق ، ت : جهد بها . (٩) الرحيق : الخمر .
(١٠) الحزن : المرتفع . (١١) فى ت : إذ واق .

قد أهديت إلىّ محاسنَ الدنيا مجموعةً فى ورقه ، ومباهج الحلى والحُلَل محصورة فى طبقه . كتابٌ ألصقتُه بالقلْبِ والكبد ، وشممته شمّ الولد[١] . وردَ مِنْكَ المِسْكُ ذكيا ، والزّهر جَنِيًا ، والماء مريًا[٢] ، والعيش هنيًا ، والسحر بابليًا . كتاب مَطْلَعه مطلع أهِلّة الأعياد ، وموقعه مَوْقع نَيْلِ المراد . كتاب وجدته قصيرَ العمر ، كليالى الوِصال بعد الهَجْر ، لم أبدأ به حتى استكمل ، وقارَب الآخِر منه الأوّل .

كتاب منتقض الأطراف ، منقطع الأكتاف ، أبْتَر الجوارح ، مُضْطَرِب الجوانح ، كتابٌ كأنه توقيع متحَرِّز ، أو تعْرِيض مُتَبرّز[٣] ، كاد يلتق طَرَفاه ، ويتقارب مُفتَتحه ومُنْتَهاه . كتاب التقَتْ طَرَفاه صِغَرًا ، واجتمعت حاشيتاه قِصرا . ما أظنى ابتدأْته حتى ختَمْتُه ، ولا استفتحْتُه حتى أتممته[٤] ، ولا لمحته حتى استوفَيْتُه ، ولا نشرتُه حتى طويته ، وأحْسبنى لو لم أجوِّد ضبطه[٥] ، ولم ألْزِم يَدِى حِفْظَه ، لطار حتى يختلطَ بالجوّ فلا أرى منه إلا هباء منثورا ، وهواء منشوراً . كتاب حسبته يطيرُ من يدى لخفّته ، ويلطف عن حِسّى لقلّته ، وعجبت كيف لم تحْمِلْه الرِّياح قبل وصوله إلىّ ، وكيف لم يختلط بالهواء عند حصوله لدىّ . كتاب قصّ الاقتصارُ أجنحته ، فلم يدعْ له قوادمَ ولا خَوَافِيَ[٦] ، وأخذ الاختصار جثته[٧] ، فلم يبق ألفاظًا ولا معانى . طلعَ كتابُك كإيماءٍ بطَرْف ، أو وَحْى بِكفّ .

وقال أبو العباس عبد الله بن المعتز : استعرتُ من على بن يحيى المنجّم جُزْءًا فيه أخبار مَعْبد بخط حماد بن إسحاق الموصلى ، وكان وعدنى به ، فبعث إلىّ بستّ ورقات لِطَاف ، فرددتُها وكتبتُ إليه : « إن كنتَ أردتَ بقولك جُزْءًا الجزء الذى

---

(١) فى ت : الوالد الولد . (٢) المرى : المرىء الهنىء .

(٣) برز الرجل : فاق أصحابه فضلا أو شجاعة . وفى ت ، س : تعريض متحرز ، وتوقيع متبرز . (٤) فى ت : استتممته . (٥) فى ت : لفظه .

(٦) القوادم : ريشات فى مقدم الجناح . والخوافى : ريشات إذا ضم الطائر جناحيه خفيت .

(٧) فى ت : جدته .

لا يتجزأ فقد أصبت ، وإن كنت أردت جُزْءًا فيه فائدةٌ للقارئ ، ومُتْعَةٌ للسامع ، فقد أحلْتَ[١] ؛ وقد رددْتُه عليك بعد أن طار اللَّحظ عَلَيْهِ طَيرة .

فأجابني : إذا كان السَّفر عِنْدَك منْجاة فما أصْنع ؟

[المحادثة والمجالسة]

وقال أبو العباس : دخل رجلٌ على الحسن بنِ سهل بعد أن تأخّر عنه أياما ، فقال : ما يَنْقَضِي يومٌ من عُمْرِي لا أراك فيه إلا علمت أنه مبتورُ القَدرِ ، منحوس الحظّ ، مَغْبُون الأيام .

فقال الحسن : هذا ؛ لأنك توصل إلى بحضورك سُروراً لا أجدُه عند غيرك ، وأتنسَّم من أرواح عِشْرَتك ما تجدُ الحواسُّ به بُغْيَتَها ، وتستوفى منه لذَّتها ، فنفسُك تألف مني مثل ما آلفه منك .

وكان يقال : محادثة الرِّجال تَلْقيح الألباب .

وقال ابن الرومي[٢] :

ولقد سَئِمْتُ مَآرِبي ... فكأنَّ أطيَبها خَبيثُ
إلّا الحـديثَ فإنّهُ ... مِثْلُ اسْمِهِ أبداً حَدِيثُ

قال مُخَارق : لقيني أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم قبل نسكه ، فقال : أنا والله صَبٌّ بك ، ولُوع[٣] إليك ، مغمورُ القلب بشكرك واللسانِ بذِكْرك ، متشوِّف إلى رُؤيتك[٤] ومفاوضتك ، وقد طالتِ الأيامُ على ما أعد به نَفْسِي من الاجتماع معك ، ومن قضاء الوَطَرِ منك ؛ فما عندك ؟ أنا الفِدَاء لك ، أتزورني أم أزورك ؟

قلت : جعلني الله فِدَاك ، ما يكونُ عند مَنْ هو مثلك بهذا الموضع وفى هذا المحلّ

---

(١) أحال : أتى بالمحال . (٢) ديوانه : ٢ — ١٦ ، المختار من شعر بشار : ١٤٥ ، النويرى : ٢ — ٦٠ . (٣) فى ت : هلوع . (٤) فى ت : متشوف إلى قربك ، وفى س : متشوق .

إلا الانقيادَ إلى أمرك ، والسمعُ والطاعةُ لك، ولولا أن أسيء الأدبَ في أمرٍ بدأتَ فيه بالفضل لقلت : إن كثيرَ ما ابتدأتَ به من القول يقل فيما عندى من الشوق إليك، والشغف بك دون ما حرّكه هذا القولُ منى، فوجبت لك به المنّة علىّ، وأنا بين يديك؛ فأتنِ عِنانى إلى ما أردت ، وقدْنى كيف شئت ، تجدنى كما قال القائل :

ما تشتهيه فإنّى اليوم فاعلُهُ والقلبُ سبُّ لما جشّمته جشما

وذكر سهل بن هارون رجلا ، فقال : لم أرَ أحسن منه فهمًا لجليل ، ولا تفهماً لدقيق — أشار إليه أبو تمام فقال(١):

وكنت أعزّ عِزًّا من قنوع تعرّضه صَفوح من مَلول(٢)
فصرتُ أذلّ من معنًى دقيقٍ به فقرٌ إلى ذهنٍ(٣) جليلِ

وقال سعيد بن مسلم للمأمون : لو لم أشكُر الله تعالى إلّا على حُسْنِ ما أبلانى من أمير المؤمنين من قصْدِه إلىّ بحديثه ، وإشارته إلىّ بطرْفه لقد كان فى ذلك أعظمُ الرفعة ، وأرفعُ ما توجبه الحرمة . فقال(٤) : يفعل أميرُ المؤمنين ذلك ؛ لأن أمير المؤمنين يجدُ عندك من حُسْن الإفهام إذا حدّثت، وحسن الفهم إذا حُدّثت، ما لا يجدُه عند أحدٍ ممن مضى ، ولا يظنُّ أنه يجده عند أحدٍ ممن بَقِى ، فإنك لتستقصى حديثى، وتقفُ عند مقاطع كلامى ، وتُخبِرُ بما كنت أغفلته منه .

وقال المتوكل لأبى العَيْناء : ما تحسنُ ؟ قال : أفهَم وأُفهِم .

وقال بعضُ الحكماء لتلميذه، وقد ضرب الموسيقى: أفهمت؟ قال: نعم . قال: بل لم تفهم ؛ لأنى لا أرى عليك سرورَ الفهم ! وقد قيل : من نظر إلى الربيع وأنواره ، والروض وأصْباغه ولم يبتهج كان عديمَ حِسّ أو سقيم نفس.

(١) ديوانه : ٣٠٥ . (٢) فى الديوان : تعوضه صفوح عن جهول .
(٣) فى الديوان : إلى فهم جليل . (٤) أى المأمون — هامش س .

شجيّ الصوت

ومرّ أبو تمام بأبرشهر[١] من أرض فارس فسمعَ جارية تغنّي بالفارسية فشاقه شجيّ الصوت ، فقال[٢] :

ومُسْمِعَةٍ تروقُ السَّمعَ حسناً[٣] ... ولم تُصْمِمْهُ لا يصمم صَدَاها
لوت[٤] أوتارها فشجت وشاقت[٥] ... فلَوْ يَسْتطيعُ حاسدُها فَدَاها
ولم أفهم معانيها ولكن ... وَرَتْ كبدي فلم أجهل شَداها[٦]
فكنت[٧] كأنّني أعمى معنّى ... يُحِبُّ الغانياتِ ولا يَرَاها

عشق الآذان

قال أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر : قلت لأبي تمام : أخذت هذا المعنى من أحد؟ قال : نعم ، أخذتُه من قول بشار بن برد :

ياقوم أذني لبعض الحيِّ عاشقةٌ ... والأذن تَعْشق قبلَ العين أحيانا
قالوا بمَنْ لاترى تَهْذِي؟ فقلت لهم ... الأذن كالعَيْن تُوفِي القلبَ ما كانا

وقال بشار أيضاً في هذا المعنى :

قالت عَقِيل بن كعب إذ تعلَّقها ... قَلْبي فأضْحَى به من حُبِّها أثرُ
أنَّى ولم ترها! تَهْذِي ! فقلت لهم ... إنّ الفؤادَ يرَى مالا يَرَى البصَرُ

وقال :

يزهّدني في حُبِّ عَبْدَةَ معشرٌ ... قلوبُهُم فيها مخالِفَةٌ قلبي
فقلت دَعُوا قلبي وما اختارَ وارْتَضَى ... فبالقَلْبِ لا بالعين يُبْصِر ذو اللُّبِّ[٨]
وما تُبصِرُ العينان في موضع الهوى ... ولا تسمع الأذنان إلا من القلب

---

(١) في ت ، س : بأبرسهر . (٢) ديوانه : ٤٦٧ .
(٣) في الديوان : ومسمعة يحار السمع فيها . وفي س : تفوق .
(٤) في ت : صبت . (٥) في الديوان : مرت أوتارها فشفت وشاقت .
(٦) في الديوان ، ت ، س : فلم أجهل شجاها . (٧) في الديوان : فبت . . .
(٨) في ت ، س : ذو الحب .

وقد قال أبو يعقوب الخريمي في هذا المعنى ، وكان قد عور ثم عمي ، وقيل إنها للخليل بن أحمد :

قالت أُمَيْمَةُ في غَداةِ لقيتُها ... يا للرِّجالِ لصَبْوَةِ العميانِ

فأجبتها : نفسي فداؤكِ إنما ... أُذْني وعيني في الهوى سِيَّانِ

وقريب من هذا قول الحكم بن قنبر[1] وإن لم يكن منه[2] :

إن كنتَ لستَ معي فالذكرُ منكَ معي ... يرعاكَ قلبي وإن غُيِّبْتَ عن بَصَرِي

العينُ تُبْصِرُ مَنْ تَهْوَى وتفقدُهُ ... وناظرُ القلبِ لا يَخْلُو من النظرِ

وقال آخر[3] :

أما والذي لو شاءَ لم يَخْلُقِ الهوى[4] ... لئن غِبْتَ عن عيني فما غِبْتَ عن قلبي

تُرِينيك عَيْنُ الوهمِ[5] حتى كأنني ... أُناجيك من قُرْبٍ وإن لم تكن قُرْبِي[6]

وقال أبو عثمان سعيد بن الحسن الناجم[7] :

لئن كانَ عن عيني أحمدُ غائبا ... فما هو عن عَيْنِ الضمير بغائبِ

له صورةٌ في القلب لم يُقْصِها النوى ... ولم تتخطَّفْها أكفُّ النوائبِ

إذا ساءني منه شحوطُ[8] مَزارِه ... وضاقت بقلبي في نواه[9] مذاهبي

عطفتُ على شخصٍ له غيرِ نازحٍ ... محَلَّتُه[10] بين الحشا والترائبِ

---

(١) في ت : قتيبة . (٢) المختار من شعر بشار : ٥٠ .

(٣) عيون الأخبار : ٤ — ٨٦ ، المختار من شعر بشار : ٥٠ . وهما لأبي العتاهية .

(٤) في عيون الأخبار : النوى . (٥) في س : عين الذكر .

(٦) في عيون الأخبار :

يوهمنيك الشوق حتى كأنني ... أناجيك عن قرب وما أنت في قربي

(٧) المختار من شعر بشار : ٥٣ ، معجم الأدباء : ٤ — ٢٣١ . (٨) الشحوط : البعد .
وفي ت ، س : نزوح زيارة . (٩) في ت ، س : على في نواه .

(١٠) المحلة : المنزل .

طرفة

وذكر أبو عبيدة كَيْسَان مُسْتَمْليه فى بعض الأمر فقال : ما فَهِم ، ولو فهم لَوَهِم(١) . وكان كيسان يوصف بالبَلادة والغَفْلة .

قال الجاحظ : كان يَكْتُبُ غير ما يَسْمَع ، ويستفى(٢) غير ما يَكْتب ، ويَقْرَأ غير ما يَسْتَفْتى ، ويُمْلِى غَيْرَ ما يقرأ ، أمليت عليه يوما :

عجبت لمعشر عدلوا   بمعتمر أبا عمر

فكتب أبا بشر ، وقرأ أبا حفص ، واستَفْتَى أبا زَيْد .

أدب الحديث والسماع

قال أبو عباد : للمحدِّثِ على جليسه السامع لحديثه أنْ يجمع له بالَه ، ويُصْغِى إلى حديثه ، ويَكْتُمُ عليه سِرَّه ، ويَبْسُط له عُذْره . وقال: ينبغى للمحدِّث إذا أنكر عينَ السامع أن يستَفْهمه عن مَعْنَى حديثه ، فإن وجدَه قد أخلص له الاستماع أتمَّ له الحديث ، وإن كان لاهياً عنه حرمه حُسْنَ الإقبال عليه ، ونَفْعَ المؤانسة له ، وعرّفه بسوء الاستماع والتقصير فى حقّ المحدث .

وقال : نَشَاطُ المحدّث على قَدْر فهم المستمع .

وكان عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول : حدّث الناس ما حَدَّجُوك(٣) بأسماعهم ، ولحظوك بأبصارهم ، فإذا رأيت منهم فُتُورا(٤) فأمسك .

وقال أبو الفتح البستى(٥) :

إذا أحْسَسْت فى لَفْظى فتورًا   وحفظى والبلاغة والبيانِ
فلا تَرْتَبْ بفَهْمِى إنَّ رَقصِى(٦)   على مقدار إيقاعِ الزَّمانِ

وقال عامر بن عبد قيس : الكلمةُ إذا خرجَتْ من القلب وقعت فى القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم تُجاوز الآذان .

---

(١) وهم : غلط .   (٢) فى ط ، س ، ق : ويستفى ، وهذا عن ت .

(٣) التحديج : التحديق . وفى ط ، ق : جدحوك .   (٤) فى ت ، س: فترة .

(٥) المختار من شعر بشار : ٢١٥ ، ولابن المعتز فى ديوانه : ٣٢٦ .

(٦) فى ت : حفظى .

وقال الحسن ـ وقد سمع متكلّمًا يَعِظُ فلم تَقَعْ مَوْعِظَته من قَلْبِه ولم يرقّ لها : يا هذا ؛ إن بقلبك لشرًّا أو بقلبي !

إعادة الحديث

وقال محمد بن صبيح المعروف بابن السماك لجاريته : كيف ترين ما أعِظُ الناس به؟ قالت : هو حَسَن ، إلا أنك تُكرِّره ، قال : إنما أُكرِّره ليفهمه مَنْ لم يكن فهمه .

قالت : إلى أن يفهمه البطىء يَثْقُل على سَمْع الذكى .

واستعيد ابن عباس حديثًا فقال : لولا أنى أخافُ أن أغُضّ من بهائه ، وأُريق من مائه ، وأُخلِق من جِدَّة رُوَائه ، لأعدته .

وقال أبو تمام الطائى يصف قصائده[1] :

مُنَزَّهة عن السَّرَق المُوَدّى[2] مكرّمة عَنِ المعنَى المُعَادِ

أخذه البحترى فقال[3] :

لا يعمـل اللفظُ[4] المكرّ رُ فيـه واللفظُ[5] المردَّدْ

والإطالةُ مَمْلُولة كما يُمَلُّ التكرير .

مقطعات الحديث والسمر

وقد قال الحسن بن سهل : الآدابُ عشرة؛ فثلاثةٌ شهرجانية، وثلاثة أنوشروانية، وثلاثة عَرَبيّة ، وواحدة أرْبَتْ عليهن . فأما الشهرجانية فضربُ العُود ، ولعب الشطْرَنج ، ولعب الصَّوَالج . وأما الأنوشروانية فالطّبّ ، والهندسة ، والفروسية . وأما العربية فالشِّعْر ، والنَّسب ، وأيام الناس . وأما الواحدة التى أرْبَتْ عليهن : فقطعات الحديث ، والسَّمر ، وما يتلقّاه الناسُ بينهم فى المجالس .

وكان يُقال : خُذ من العلوم نُتَفها ، ومن الآداب طُرَفها . وكان يقال : مقطّعات الأدب قُراضاتُ الذهب .

---

(١) ديوانه : ٨١ . (٢) رواية الديوان : الورى .

(٣) ديوانه : ١ ـ ١٤٣ . (٤) فى الديوان : القول المكرر .

(٥) فى الديوان : والرأى .

وحضر بشارُ بن بُرْد مجلسا فقال: لا تجعلوا مَجْلِسَنا غِناء كلّه ، ولا شعراً كله ، ولا سَمراً كله ، ولكن انتهبوه انتِهابا .

وقال الحسن رحمه الله : حادِثُوا هذه القلوب فإنها سريعةُ الدُّثور ، واقدَعُوا هذه الأنفسَ فإنها طلِعة[1] ، وإنكم إلّا تقدَعُوها[2] تنزعْ بكم إلى شرّ غاية .

وقال: ازدشير بن بابك : إن للأذهان كلالا ، وللقلوب مَلالا[3] ، ففرّقوا بين الحكمتين يكن ذلك استجماما .

ويروى في حكمة آل داود : لا ينبغي للعاقل أنْ يُخْلِيَ نفسه من أربع : عُدّة لِمَعَادِه ، وصلاحٌ لِمَعاشه ، وفِكْرٌ يقفُ به على ما يُصْلِحُه من فساده ، ولذة في غير محرّم يستعينُ بها على الحالات الثلاث . وما أحسن ما قال أبو الفتح بن كشاجم :

عَجَبِي مِمَّنْ تَنَاهَتْ حَالُهُ ... وكفاه اللهُ ذِلّاتِ الطَّلَبْ
كيف لا يَقْسِم شَطْرَىْ عُمْرِه ... بين حالَيْن نَعيم وأدَبْ
ساعة يُمتِع فيها نَفْسَهُ ... من غذاء وشرابٍ منتخَب
ودُنُوٍّ من دُمًى هُنَّ لَهُ ... حين يشتاقُ إلى اللّعب لعَب
فإذا ما نَالَ مِنْ ذَا حَظَّه ... فحديثٌ ونشيد وكُتُب
مرة جِدٌّ وأخرى راحة ... فإذا ما غَسَقَ[4] الليل انتَصَبْ
فقضى الدنيا نَهاراً حقَّها ... وقضى لله ليلًا ما وَجَبْ
تلك أقسامٌ متى يَعْمَلْ بها ... دَهْرَهُ يَسعد ويَرشد ويُصِبْ

تقسيم الأيام عند كسرى

وقال أبو العباس محمد بن يزيد : قسَّمَ كسرى أيامه فقال : يَصْلُح يَوْمُ الريح للنوم ، ويوم الغَيْم للصيد ، ويومُ المطَر للشرب واللّهو ، ويوم الشمس لقضاء الحوائج .

قال الحسن بن خَالَوَيْه : ما كان أعْرَفهم بسياسة دُنْياهم، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهُمْ عن الآخرة هم غافلون ، ولكن نبيّنا صلى الله عليه وسلم قدْ جَزّأ نهارَه

---

(١) طلعة : تكثر التطلع إلى الشيء . قدعه كمنعه : كفه كأقدعه . (٢) في ت : تنزعوها. وفي ق ، س : إلا تطيعوها. (٣) في ت: مللا . (٤) غسق: أظلم .

ثلاثةَ أجزاء: جُزْءٌ لله ، وجزءٌ لأهله، وجزءٌ لنفسه، ثم جُزْءٌ جزأه بينه وبَيْنَ الناس؛ جزأالتي نهاره
فكان يستعين بالخاصّة على العامة، وكان يقول: أبْلِغُونِي حاجةَ من لايستطيعُ إبلاغي؛
فإنه من أبلغَ [ذا سلطان][1] حاجةَ مَنْ لا يستطيع إبلاغَها آمنه اللهُ تعالى يَوْمَ الفَزَعِ الأكبر.

[رجع إلى الإطالة والإيجاز]

رأى شبيب ابن شيبة

وقال شبيب بن شيبة : إن ابتُليتَ بمقام لابد لك فيه من الإطالة فقدِّم إحكام البلوغ في طلب السلامة من الخَطَل قبل التقدّم من إحكام البلوغ في شَرَفِ التَّجْوِيد؛ ثم إياك أنْ تعدل بالسلامة شَيْئًا ، فقليلٌ كافٍ خَيْرٌ لك من كثير غير شاف.

رأي جعفر ابن يحيى

وكان جعفر بن يحيى يقول لكُتّابه[2]: إن استَطَعْتم أن يكون كلامُكم كلّه مثل التوقيع فافعلوا.

رأي ثمامة

وقال ثمامة بن أشرس :

لم أرَ قط أنْطَقَ من جعفر بن يحيى بن خالد ، وكان صاحبَ إيجاز.

غيرهم

وكان أبو وائلة إياس بن معاوية على تقدُّمه في البلاغة، وفَضْلِ عقله وعلمه بالإكثار مَعِيبا ، وإلى التطويل مَنْسوبا ، وقال له عبد الله بن شبرمة : أنا وأنْت لا نتفق ، أنْتَ لا تشتهي أن تسكت ، وأنا لا أشتهي أن أسْمَع. وقيل له[3] : ما فيك عيبٌ إلا كَثْرة كلامك ، قال : أفتسمعون صوابًا أم خطأً ؟ قالوا : بل صوابا . قال: فالزيادةُ في الخير خيرٌ.

رأي الجاحظ في التطويل

قال الجاحظ : وليس كما قال : بل للكلامِ غايةٌ ، ولنشاط السامعين نِهايةٌ ، وما فَضَلَ عن مقدار الاحتمال ، ودعا إلى الاستثقال والكلال فذلك هو الفضَالُ[4] والهَذَر والخَطَلُ والإسهاب الذى سمِعْتُ الخطباءَ يَعِيبونه.

---

(١) من ت . (٢) البيان : ١ — ٦٣ . (٣) البيان : ١ — ٥ . (٤) في ت : الفاضل .

وذكر الأصمعي[١] أن ابن هُبيرة لما أراد إياساً على القضاء قال: إني والله لا أصْلُح له . قال: وكيف ذلك ؟ قال: لأني دَميم، ولأني حَديد، ولأني عَيِيّ . قال ابنُ هبيرة: أما الحِدّة فإن السَّوْط يقوِّمك . وأما العِيّ فقد عبَّرْتَ عما تُريد ؛ وأما الدَّمامة فإني لا أريد أن أحَاسِنَ بك . ولم يصفه أحدٌ بالعِيّ وإنما كان يُعابُ بالإكثار ، ولكنه أراد المدافعة عن نَفْسه .

بعض الملح والحديث ذو شُجُون :

قال أبو العيناء: ذُكِرْتُ لبعض القِيَان فعشقتني على السماع، فلما رأتني استقبحتني، فقلت :

وشاطرةٍ[٢] لما رَأتْني تنكّرتْ وقالت : قبيحٌ أحْوَلٌ ما لَه جِسمُ
فإن تُنكرى مني احْولالاً فإنني أديبٌ أريبٌ لا عَيِيٌّ ولا فَدْمُ[٣]

[فاتصل بها الشعر ،][٤] فكتبَتْ إليّ : إنا لم نرد أن نُوَلّيك ديوانَ الزِّمام !

وكان عمرُ بن عبد العزيز رحمه الله تعالى كتب إلى عدي بن أرطاة[٥]: إنّ قِبَلَك رَجُلَين من مُزَينة — يعني بكر بن عبد الله[٦]، وإياس بن معاوية ؛ فوَلِّ أحَدَهما قضاءَ البَصْرَة؛ فأحضرهما . فقال بكر : والله ما أحْسِنُ القضاء ؛ فإن كنتُ صادقاً فما تَحِلُّ تَوْلِيَتي، وإن كنتُ كاذباً فذلكَ أوْجَبُ لِتَرْكي . فقال إياس: إنكم وَقَفْتُمُوه على شَفِير جهنَّم، فافْتَدَى منها بيَمينٍ يكفرها، ويستَغْفِرُ الله تعالى منها . فقال له عديّ: أما إذا اهتديت لها فأنْتَ أحقُّ بها ، فولّاه .

ودخل إياس[٥] الشام وهو غلامٌ صغير ، فقدّم خَصْماً له إلى بعض القضاة ، وكان الخَصْمُ شَيْخاً ، فصالَ عليه إياس بالكلام ، فقال له القاضي : خَفِّض عليك ، فإنه

(١) البيان : ١ — ٥٥ . (٢) في ت : وناظرة .
(٣) الفدم : العي عن الكلام في ثقل ورخاوة وقلة فهم . (٤) من ت .
(٥) البيان ١ — ٥٦ . (٦) في ت : بن عبيد الله .

شَيْخٌ كبير ، قال : الحقُّ أكبرُ منه . قال : اسكت ! قال : فمَنْ يَنطِقُ بحُجّتى ؟ قال : ما أراكَ تقولُ حقًا ، قال : لا إله إلا الله ! فدخل القاضى على عبد الملك فأخبره ؛ فقال : اقضِ حاجتَه الساعة وأخرِجه من الشام لا يُفسِد أهلَها !

* * *

الضجر من التطويل

وقال أحمد بن الطيب السَّرْخَسِى تلميذ يعقوب[1] بن إسحاق الكندى : كنتُ يوماً عند العباس بن خالد ، وكان ممن حبّبَ الله إليه أن يتحدّث ، فأخذ يحدّثنى ، وينتقلُ من حديثٍ إلى حديث ، وكنا فى صَحْنٍ له ، فلما بلغتنا الشمس انتقلنا إلى موضع آخر ، حتى صار الظلُّ فيئا . فلما أكثرَ وأضجَر ، وملِلت حُسْنَ الأدبِ فى حُسْنِ الاستماع ، وذكرت قول الأوزاعى : إن حسنَ الاستماع قوةٌ للمحدث ، قلت له : إذا كنتُ وأنا أسمعُ قد عَيِيتُ مما لا كُلْفَةَ علىَّ فيه ، فكيف أراك وأنتَ المتكلم؟ فقال : إنّ الكلام يحلّلُ الفضولَ اللَّزِجة الغليظة التى تعرض فى اللهَوَاتِ ، وأصلِ اللسان ومنابِت الأسنان ، فوثبْتُ وقلت : لا أراني معك اليوم إلا « إيارج الفَيْقرا »[2] ؛ فأنت تتغَرغَرُ بى[3] فاجتهد فى أنْ أجلسَ فلم أفعل .

قال أحمد بن الطيب : كنا مرّةً عند بعض إخواننا[4] فتكلّم وأعجَبه من نفسه البيان ، ومِنّا حسنُ الاستماع ، حتى أفرَطَ ، فعرض مَنْ حَضَر مَلَلٌ ، فقال : إذا بارك الله فى الشىء لم يَفْنَ ؛ وقد جعل الله تعالى فى حديث أخينا البركة !

ولعبد الله بن سالم الخياط فى رجل كثيرِ الكلام :

لى صاحبٌ فى حديثه البركة   يزيدُ عند السكونِ والحركَه
لو قال لَا فى قليلِ أحرُفِها   لردّها بالحروفِ مشتبِكَه

ومن طرائف التطويل ما أنشأه البديع ، وسيمرّ من كلامه ما هو آنق من زَهْرِ الربيع .

---

(١) فى ت : أبى يعقوب . (٢) الإيارجة : معجون مسهل ، وجمعه إيارج ، معرب إيارة وتفسيره الدواء الإلهى . والفيقرا : الداهية . (٣) الغرغرة : ترديد الماء فى الحلق كالتغرغر .
(٤) فى ت : بعض إخوانه فتكلم ذلك الأخ .

[الملح]

قال الأصمعي : بالعلم وصَلْنا وبالمُلَح نِلْنا . وقال الأصمعي أيضاً : أنشدت محمد ابن عمران قاضي المدينة ، وكان أعْقَلَ مَنْ رَأيْتُه :

يأيها السائلُ عن مَنْزِلي نَزلت في الخانِ على نَفْسي
يغدو عليَّ الخُبْزُ من خابزٍ لا يقبل الرَّهن ولا يُنْسِي[1]
آكُلُ مِن كِيسِي، ومن كِسْرتي[2] حتى لقد أوجعني ضِرْسي

فقال : اكتب لي هذه الأبيات . فقلت : أصلحك الله ، هذا لا يُشْبِهُ مثلَك ، وإنما يَرْوِي مثل هذا الأحداثُ . فقال : اكتُبْها فالأشرافُ تُعجِبُهم المُلَح .

وقد قال أبو الدَّرداء رحمه الله تعالى : إني لأستَجِمُّ[3] نَفْسي ببعض الباطل ، ليكونَ أقْوَى لها على الحقّ .

[وقال ابن مسعود رحمه الله : القلوب تمل كما تمل الأبدان ، فاطلبوا لها طرائف الحكمة][4] .

وقال ابن الماجشون : لقد كنّا بالمدينة وإن الرجلَ ليحدّثني بالحديث من الفِقْه فيُمْليه عليّ ، ويذكر الخبَرَ من المُلَح فأستعيدُه فلا يفعل ، ويقول : لا أُعطيك مُلَحِي ، وأهَبُك طَرْفي وأدبي .

وقال ابن الماجشُون : إني لأسْمَع بالكلمة المَليحة ومالي إلّا قَمِيصٌ واحد ، فأدْفَعه إلى صاحبها ، وأستكْسِي اللهَ عزَّ وجلّ .

ملح الناضري وقال الزبير بن بكار : رأى الناضريَّ يُنَازِعُ أشعب الطمع عند بعض الوُلاة ، ويقول : أصْلَح اللهُ الأمير ! إنّ هذا يدخلُ عليّ في صناعتي ، ويطلبُ مشاركتي في بِضاعتي ، وهيْأتُه هيئةُ قاضٍ ، والأمير يضحك . وكانا جميعاً فرسَيْ رِهان ورضيعَيْ

---

(١) ينسى : ينسئ ، أي يؤخر . (٢) الكسرة : القطعة من الشيء المكسور .
(٣) عبارة اللسان في هذا المعنى : إني لأستجم قلبي بشيء من اللهو لأقوى به على الحق .
(٤) من ت .

لبان فى بيانهما ؛ إلّا أنّ الناضرى [كان][1] لا يتخلّق بالطّمَع تخلّقَ أشعب .

وأتى الناضرىّ يوماً الحسنَ بن زيد فقال : جُعلتُ فداك ؛ إنى عصيتُ اللهَ ورسوله . قال : بئس ما صنعْتَ ! وكيف ذلك ؟ قال : لأنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يُفلِحُ قومٌ ولّوا أمرَهم امرأة ، وأنا أطعتُ امرأتى ، فاشتريتُ غلاماً فهرب . قال الحسن : فاخترْ واحدةً من ثلاث : إن شئتَ فثمَنُ الغلام ، قال : بأبى أنتَ ! قِفْ عند هـذه ولا تتجاوَزْها ! قال : أعرِضُ عليك الخصلتين . قال : لا ، حَسْبى هذه .

وقد رُوِى نحوُ هـذا عن أشعبَ أنه قال له بعضُ إخوانه : لو صرتَ إلى العشيّة تتفرج ؟ قال : أخاف أنْ يجىء ثقيل . قلت : ليس معنا ثالث . فمضى معى ، فلمّا صلينا[2] الظهر ودعوتُ بالطعام ، فإذا بداقٍّ يدقّ البابَ ، قال : ترى أنْ قد صِرْنا إلى ما نكره ، قلت له : إنه صديق ، وفيه عشرُ خصال إن كرِهْتَ واحدةً منهن لم آذَنْ له . قال : هات . قلت : أولها أنه لا يأكل ولا يشرب . فقال : التسعُ لك ! قل له يدخل ! من ملح أشعب

ورأى سفيان الثّوْرى الناضرى وهو يُضْحِكُ الناس؛ فقال: ياشيخُ، أوَ ماعلمْتَ أن لله يوماً يخسرُ فيه المُبْطِلون ؟ فوجَم[3] الناضرى ، وما زال ذلك يُعْرَفُ فيه حتى لَقِى اللهَ عزّ وجلّ .

وأشعب الطَّمِع هو أشعب[4] بن جُبير مولى عبـد الله بن الزبير ، وكان أخلَى الناسِ . قال الزبير بن أبى بكر : كان أهلُ المدينة يقولون : تغيّرَ كلُّ شىء إلا مُلَحَ أشعب ، وخُبْزَ أبى الغيث ، ومِشية برّة ؛ وكان أبو الغيث يعالج الخُبْزَ بالمدينة ، وبرّة بنت سعيد بن الأسود كانت مِنْ أجْمَلِ النساء وأحسنهِنّ مِشْيَة . وأشعب يضربُ

---

(١) ساقط من س . (٢) ق ط : وصلنا . (٣) وجم : سكت على غيظ .
(٤) ارجع إلى ترجمة له فى نهاية الأرب : ٤ — ٢٦ .

به المثلُ في الطَّمع ، وكان[1] أشعبُ قد نشأ في حِجْر عائشة بنت عثمان رحمها الله مع أبي الزِّناد . قال أشعب : فلم يَزَلْ يعلو وأنحطّ حتى بلغنا الغاية .

وقال أشعب : أسلمتني أمي إلى بزّاز ، فسألتني بعد سنة أين بلغتَ ؟ فقلت : في نصف العمل . قالت : وكيف ؟ قلت : تعلمت النَّشر وبقي الطَّيّ ، قالت : أنتَ[2] لاتفلح .

وسألته صديقةٌ له خاتما ، فقالت : أذْكُرُكَ به . قال : اذكُري أنك سألتِني ومَنَعْتُك ! وقيل له : كم كان أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بَدْر ؟ قال : ثلثمائة وثلاثة عشر درهما ! ثم تنسّك[3] في آخر عمره ، وغَزَا ومات على خَيْرٍ ، رحمه الله تعالى .

وقيـــل لأشعب : أرأيتَ أطمعَ منك ؟ قال : نعم كلبة آل فلان ، رأتْ رجلين يَمْضُغان عِلْكا[4] ، فتبعتْهما فرسخين تظنُّ أنهما يأكلان شيئاً .

وأهدى رجلٌ من ولد عامر بن لؤى إلى إسماعيل الأعرج فالُوذَجة وأشعبُ حاضر ، فقال : كُلْ يا أشعب . فأكل منها ؛ فقال : كيف تَرَاها ؟ فقال : عليـــه الطلاق إن لم تكن عُمِلَت قبل أنْ يُوحِي ربُّك إلى النَّحْل ! أي ليس فيها حَلَاوة .

بديهة أبي نواس

وروى أبو هفان قال : دخـــل أبو نواس الحسن بن هانئ على يحيى بن خالد فقال له : أنشدني بعض ما قُلْتَ ، فأنشده[5] :

إني أنا الرجلُ الحــكيمُ بطَبعِه ... ويَزِيد في علمي حِكايَةُ مَنْ حَـكَى
أتتبّع الظُّرَفاء أكتبُ عنهمُ ... كيما أحدِّث مَنْ أحِبُّ فيَضْحَكا

---

(١) نهاية الأرب : ٤ — ٢٦ . (٢) في ط : إذن . (٣) في س : نسك .
(٤) العلك : مايمضغ . (٥) ديوان أبي نواس : ٣٨٣ ، والبيت الأول ليس في ديوانه الذي بين أيدينا ، ورواية الثاني فيه :

تتبّع الظرفاء إعجـــابا به ... حتى تحدث من تحب فتضحكا

فقال له يحيى [بن خالد](١) : إن [أول](١) زَنْدك لَيُورِى بأوّلِ قَدْحة(٢) ،
فقال ارتجالا في معنى قول يحيى :

أما وزَنْدُ أبي عليّ إنه — زَنْدٌ إذا اسْتَوْرَيْتَ سهل قَدَحَكا
إنّ الإلهَ لِعِلْمِهِ بعبادِهِ — قد صَاغَ جَدَّكَ للسماح ومَنْحَكا
تأْبَى الصنائعَ هِمَّتِى وقَرِيحتى — من أهلها ونَمَاكَ إلّا مَدْحَكا(٣)

ووصف أبو عبد الله الجماز أبا نواس فقال : كان أظرفَ النّاسِ منطقاً ، وأغزَرَهم أدبا ، وأقدَرَهم على الكلام ، وأسْرَعَهم جوابا ، وأكثرهم حياء ؛ وكان أبيضَ اللّوْنِ جميل الوَجْهِ ، مليح النغمة والإشارة ، ملتفّ الأعْضاء ، بَيْنَ الطّويلِ والقصير ، مَسْنُونَ الوَجْه(٤) ، قَائِم الأنْف ، حَسَنَ العينين والمَضْحَك ، حُلْوَ الصُّورَة ، لَطيفَ الكَفّ والأطراف ؛ وكان فصيحَ اللسان ، جَيّدَ البيان ، عَذْبَ الألفاظ ، حُلْوَ الشمائل ، كثيرَ النوادر ، وأعْلَمَ الناس كيف تكلّمت العرب ، رَاوِيةَ للأشعار ، علّامة بالأخبار ، كأن كلامَه شعرٌ موزون(٥) .

طرف أبي نواس

وأقبل أبو شُرَاعة العبسى ، والجَمّازُ في حديثه ، وكان أقبح الناسِ وجها ، وكانت يَدُ أبي شراعة كأنها كَرَبة(٦) نَخْلٍ ؛ فقال الجماز : فلو كانت أطرافه على أبي شراعة لتمّ حُسْنُهُ ؛ فغَضِبَ أبو شراعة وانصرفَ يَشْتمه .

والجماز(٧) هو أبو عبد الله محمد بن عمرو بن حماد بن عطاء بن ياسر ، وكانوا الجماز يزْعمون أنّهم من حِمْيَر ، نالهمْ سِبَاء في خِلَافَةِ أبي بكر رضى الله عنه وهم موَالِيه ، وسَلْمُ الخاسر عمّه ، وكان الجماز من أخلَق الناسِ حكاية ، وأكثرهم نادرة .

---

(١) من س . (٢) في س : قدحته . (٣) رواية س : تأبى من الأوصاف إلا مدحكا
(٤) رجل مسنون الوجه : مملسه حسنه سهله ، أو في وجهه وأنفه طول .
(٥) في س: كان كلامه شعرا موزونا. (٦) كرب النخل : أصول السعف الغلاظ العراض التي تيبس فتصير مثل الكتف واحدتها كربة . (٧) اللآلى — ذيل ٢٤ .

قال بعضُ جلساء المتوكّل : كنا نُكثر عند المتوكل ذكر الجماز حتى اشتاقه ، فكتبَ في حَمْلِه إليه ، فلما دخل أُفْحِم . فقال له المتوكل : تكلّمْ فإنّي أُريدُ أن أستبْرِئك . فقال : بحَيْضَةٍ أو بحَيْضَتَيْن يا أميرَ المؤمنين ؟ فقال له الفتح : قد كلّمتُ أميرَ المؤمنين يُوَلّيكَ على القرود والكلاب ! قال : أفلستَ سامِعاً مطيعاً ؟ فضحك المتوكل وأمَر له بعَشَرَةِ آلاف درهم . وكان لا يُدْخِلُ بيتَه أكثر من ثلاثةٍ لضيقه[1] ؛ فدعا ثلاثةً فجاءه ستّة ، وقرَعُوا الباب ، ووقفوا على رِجل رِجل فَمَدّ أرجُلَهم من خَلْفِ الباب ؛ فلما حصلوا عنده[2] ، قال : اخرجُوا عنى ، فإنما دعوتُ ناساً ولم أدعُ كَرَاكيّ[3] .

خلط الجد بالفكاهة

وقال الطائي في عمرو[4] بن طوق التغلبي[5] :

الجِدُّ[6] شيمتُه وفيه فكاهةٌ ... سجحٌ[7] ولا جِدّ لمن لم يَلْعَبِ

شرسٌ ويتبع ذاك لِينُ خَليقةٍ ... لا خيرَ في الصّهباء ما لم تقطبِ[8]

وقال في الحسن بن وَهْب[9] :

لله أيامٌ خَطَبْنا لِينَها ... في ظلّهِ بالخَنْدَرِيس السَّلْسَلِ[10]

بمُدامة نَغَمُ السماع خفيرُها ... لا خيرَ في المعلول غيرَ معلّلِ

يفشي عليها[11] وهو يَجْلُو مُقلَتيْ ... بازٍ ويَعقلُ وهو غيرُ مُعقَّلِ

لا طائشٌ تَهْفُو خلائقُه ولا ... خَشِنُ الوَقارِ كأنّه في محفلِ

فَكِهٌ يجمّ الجِدّ[12] أحياناً وقد ... ينضى ويهزلُ عَيْشُ مَنْ لم يهزلِ

---

(١) في س : بمن يضيفه . (٢) في س : فلما جعلوا في بيته .

(٣) الكراكي مفرده كركي : طائر . (٤) في س : عمر بن طوق التغلبي .

(٥) ديوانه : ١٣ . (٦) في الديوان : الجد . (٧) في الديوان : سمح .

(٨) قطب الشراب : مزجه . (٩) ديوانه : ٢٣٤ . (١٠) الخندريس : الخمر .

(١١) في الديوان : يعشو إليها . (١٢) في ق ، س : يجد الجم .

وقال فيه[١] :

ولقد رأيتُك والكلامُ لآلئٌ … تُومٌ فبِكْرٌ في النِّظامِ وثيِّبُ[٢]
وكأنّ قُسًّا في عُكاظٍ يَخْطُبُ … وابنَ المقفّعِ في اليتيمةِ يُسْهِبُ
وكأنّ لَيْلَى الأخيليةَ تَندُبُ … وكُثَيِّر عزّةَ يومَ بَيْنٍ يَنْسِبُ
يَكْسُو الوقارَ ويستخفّ موقرا … طَوْرًا فيُبكي سامعيهِ ويُطْرِبُ

وقال أبو الفتح البستي[٣] :

أَفِدْ طَبْعَكَ المكدودَ بالهمِّ راحةً … يُرَاحِ، وعَلِّلْهُ[٤] بشيءٍ مِنَ المَزْحِ
ولكنْ إذا أعطيتَه المَزْحَ فليكُنْ … بمقدارِ ما تُعطِي الطعامَ من المِلْحِ

وما زال الأشراف يَمْزَحُون ، ويسمحون بما لا يَقْدَحُ في أديانهم ، ولا يغضّ المزح من مُرُوءاتِهم .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : بعثت بالحنيفية السَّمْحَة . وقال : إنّي لأمزَح ولا أقول إلّا حقًّا .

رواية الشعر

وقيل لسعيدبن المسيّب : إنّ قوماً من أهل العراق لا يَرَوْن إنشادَ الشعر . فقال: لقد نَسَكُوا نُسْكاً[٥] أعجميًّا .

وقيل لابن سيرين : إنّ قوماً يزعمون أن إنشادَ الشعر ينقض الوضوء ، فأنشد :

لقد أصبحَتْ عِرسُ[٦] الفرزدق ناشزاً … ولو رضيت رَمْحَ استهِ لاستقرَّتِ

وقام يُصَلِّي ! وقيل : بل أنشد :

أُنْبِئْتُ أنّ عجوزاً جئتُ أخطبها … عُرقوبُها مِثْلُ شَهرِ الصّومِ في الطُّولِ

---

(١) ديوانه : ٣٩ ، وفيه اختلاف في ترتيب الأبيات وأجزائها .

(٢) التومة : اللؤلؤة ، والقرط فيه حبة كبيرة ، وجمعه توم وتوم .

(٣) نهاية الأرب : ٤ : ٧٤ . (٤) في س : وروحه . (٥) الفعل كنصر وكرم والنسك : العبادة . (٦) العرس : امرأة الرجل .

[من النسيب]

وقيل لأبي السائب المخزومي : أترى أحداً لا يَشْتَهي النسيب ؟ فقــال : أما من يؤمن بالله واليوم الآخر فلا .

لعروة بن أذينة

وروى مصعب بن عبد الله الزّبيري عن عُروة بن عبيد الله بن عروة الزبيري قال: كان عُرْوَة بن أُذَينة نازلاً في دار أبي بالعَقِيق ، فسمعتُه يُنْشِدُ لنفسه(١) :

إنّ التي زَعَمَتْ فؤادَك مَلَّهــا ... خُلِقَتْ هواكَ كما خُلِقْتَ هوًى لها
فيكَ الذي(٢) زَعَمَتْ بها وكِلاكُمَا ... أبْدَى لِصَــاحِبِه الصَّبابَة كُلَّها
ولعمرُها لو كانَ حبُّك فَوْقَهَا ... يوماً وقد ضَحِيَتْ إذَنْ لأظَلَّهــا(٣)
فإذا وجَدْت لهــا وَسَاوِس سَلْوَةٍ ... شفع الضميرُ إلى الفؤاد فسَلَّهــا
بيضــاء باكَرَها النَّعِيمُ فصاغَها ... بلَبَاقةٍ فأدَقَّها وأجَلَّها
لَمّا عَرَضْتُ مُسَلِّمــا ، لِيَ حاجةٌ ... أخْشَى صُعُوبَتَها وأرجُو ذُلَّهــا
منَعَتْ تَحِيّتَها فقُلْتُ لصــاحِبي ... ما كانَ أكْثَرَها لنَا وأقلَّهــا
فدَنَا وقال لعلّها مَعْذورةٌ ... في بَعْضِ رِقْبَتِهَا فقلت لَعَلّهــا

قال : فأتاني أبو السائب المخزومي ، فقلتُ له بَعْدَ التَّرْحيب به: ألَكَ حاجة؟ فقال: نعم أبياتٌ لعُروة بلغني أنك سمِعْتَه يُنْشِدُها . فأنشدته الأبيات ، فلمــا بلغت قوله :

* فدنا وقال لعلهــا معذورة . . . . . . * البيت طرب ، وقال : هذا والله الدائمُ الصَّبابة ، الصادق العَهْد ، لا الذي يقول(١) :

إن كان أهلُك يمنعونكَ رَغْبَةً ... عني فأهْلي بي أضَنُّ وأرْغَبُ

لقد عَدا هذا الأعرابي طَوْرَه ، وإني لأرجو أن يغفر [الله](٤) لصاحب هــذه الأبيات لحُسْنِ الظنّ بها ، وطَلَبِ العُذْرِ لها ؛ قال : فعرضت عليه الطعــام فقال : لا والله ما كنتُ لأخلط بهذه الأبيات طعاماً حتى الليل ، وانصرف(٥) .

(١) مختار الأغاني : ٥ — ٢٩٧ . (٢) في ط : التي . (٣) ضحيت : أصابتها الشمس .
(٤) من س . (٥) القصة كلها في المرجع نفسه .

أبو السائب

وكان أبو السائب غَزِيرَ الأدب ، كثيرَ الطَّرَب ، وله فُكاهاتٌ مذكورة ، وأخبارٌ مشهورة، وكان جَدّه يكنى أبا السائب أيضاً ، وكان خليطا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا ذكره قال: نِعْمَ الخليط كان أبو السائب! لايُشَارِي ولا يُمارِي[1].

واسمُ أبي السائب عبدُ الله ، وكان أشرافُ أهلِ المدينة يستظرفونه ويقدّمونه لشَرَفِ منصبه ، وحلاوة ظَرْفه .

وكان عروة بن أذينة على زُهْدِه ، ووَرَعه ، وكَثْرةِ علمه وفَهْمِه ، رقيقَ الغزَل كثيره ، وهو القائل[2]:

ومن شعر عروة

إذا وجَدْتُ أُوارَ الحب في كَبِدي ... أقبلْتُ نحوَ سِقاء القومِ أبْتَرِدُ
هَبْني[3] برَدْتُ ببرد الماء ظاهِرَهُ ... فَمَنْ لِنارٍ على الأحْشاء تَتَّقِدُ

وقد رُوِي هذانِ البيتان لغيره .

ومرّت به سكينةُ بنتُ الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم ، فقالت له: أنتَ الذي تزعم أنّك غيرُ عاشق ، وأنت تقول :

قالتْ وأبْثَثْتُها سِرِّي[4] فبُحْتُ به ... قد كنتَ عندي تحبُّ السِّتْرَ فاسْتَتِرِ
ألسْتَ تُبْصِر مَنْ حَوْلي ؟ فقلتُ لها ... غَطَّى هواكِ وما أَلْقَى على بَصَرِي

والله ما خرج هذا من قَلْبٍ سليم قطّ .

أبو السائب ينقد للأحوص

وروى الزّبير عن رجل لم يسمّه قال : قال لي أبو السائب : أنشدني لِلأحْوَص ، فأنشدْتُه[5] :

قالت وقلت تحرَّجي وَصِلِي ... حَبْلَ امرئ بوصالكم صَبِّ

---

(١) يشاريه : يجادله، وأصله يشارره فقلبت الراء . وماراه : جادله .

(٢) الشعراء : ٥٦١ : (٣) في الشعراء : هبنا بردت . . .

(٤) في الشعراء : وجدي . (٥) الأغاني : ٤ — ٢٦٤ ، اللآلي : ١٨٩ ، الأمالي ١ — ٤٦ .

صاحب[١] إذنْ بَعْلِي؟ فقلت لها : القدرُ شيءٌ ليس من ضَرْبي
شيئان[٢] لا أدْنو لوَصْلِهما عِرْسُ الخليل وجارةُ الجنبِ[٣]
أمّا الخليلُ فلستُ فاجعَهُ والجارُ أوصاني به رَبّي
عُوجا[٤] كذا نَذْكُرْ لغانيةٍ بعضَ الحديثِ مَطيَّكم صَحْبي
ونَقُلْ لها فيمَ الصُّدودُ ولم نُذْنِبْ بل انتِ بدأتِ بالذّنبِ
إنْ تُقْبِلي نُقْبِل ونُنْزِلكم مِنّا بِدارِ السَّهْلِ والرُّحْبِ
أو تُهجُرِي[٥] تُكْدَرْ معيشتُنا وتَصَدَّعِي مُتَلائم الشَّعْبِ

فقال : هذا واللهِ المحبُّ حقاً[٦] لا الذي يَقُول :

وكنت إذا حبيبٌ رَامَ هَجْرِي وجدت وَرَاىَ مُنفَسَحاً عريضاً

ثم قال: اذْهَبْ ، فلا صَحِبك الله ، ولا وسّع عليك !

رد أهل الحجاز — وخرج أبو حازم يوماً يَرْمِى الجمار ، فإذا هو بامرأة حاسِر[٧] قد فَتَنَتِ الناسَ بِحُسْنِ وجهها ، وألْهَتْهُم بجمالها ؛ فقال لها : ياهذه ، إنك بمَشْعَرٍ حرام[٨]، وقد فتنت الناس وشغلتِهم عن مَناسِكهم ، فاتقى الله واستَتِرِى؛ فإنّ الله عز وجل يقول فى كتابه العزيز[٩]: ﴿ ولْيَضْرِبْنَ بخُمُرهنّ على جُيُوبِهن ﴾ ؛ فقالت : إنى من اللاتى قيل فيهن:

أماطَتْ كِساءَ الخَزِّ عن حُرِّ وَجْهِها[١٠] وأرْخَتْ على المَتْنَيْنِ بُرْدًا مُهَلْهَلا
من اللاّئى لم يحججْن يَبْغِين حِسبةً ولكن لِيَقْتلنَ البرىءَ المُغَفَّلا

الشعر للحارث بن خالد المخزومى . فقال أبو حازم لأصحابه : تعالوا نَدْعُ الله لهذه الصورة الحسنة ألّا يعذبها الله تعالى بالنار ! فجعل أبو حازم يَدْعُو وأصحابه يؤمّنون ،

---

(١) فى الأغانى : واصل ، وفى ط : صاحت . (٢) فى الأغانى : ثنتان .
(٣) جار الجنب : اللازق بك إلى جنبك . (٤) فى الأغانى : عوجوا ، وعوجا : قفا .
(٥) فى الأغانى : أو تدبرى . (٦) فى س : عينا . (٧) امرأة حاسر : ليس على وجهها قناع . (٨) المشعر الحرام ، وتكسر ميمه : بالمزدلفة . (٩) سورة النور ، آية ٣١ .
(١٠) حر الوجه : ما بدا منه ، وخيار كل شىء .

فبلغ ذلك الشعبي فقال: ماأرَقَّكم يأهلَ الحجاز وأظرفكم ! أما والله لو كان من قُرى العراق لقال : اعْزُبى عليك لَعْنَةَ الله !

وكان أبو حازم من فضلاء التابعين ، وله مقامات جليلة من[1] الملوك ، وكلامُ أبو حازم محفوظ يدُلّ على فضله وعقله ؛ وهو القائل : كل عملٍ تَكْرَهُ من أجله الموت فاتْركه، ولا يضرك متى متَّ . وكان يقول : ما أحببتَ أن يكونَ معك غدا فقدِّمه اليوم . وكان يقول : إنما بيني وبين الملوك يوم واحد ، أما أمس فلا يجدون لذته ، وأنا وإياهم من غد على وَجل ؛ وإنما هو اليوم ، فما عسى أن يكون اليوم ؟ وقال أبو العتاهية[2] :

حتى متى نحنُ فى الأيام نحسَبُها ... وإنما نحنُ فيها بين يومَيْنِ
يومٌ تولّى ويومٌ نحن نأملُه ... لعلّه أجلَب اليومين للحَيْنِ[3]

من نسيب الفقهاء

وروى الزبير بن أبى بكر قال: قدمت امرأة من هُذَيل المدينة، وكانت جميلةً ومعها ابن لها صغير ، وهى أيِّم[4] ؛ فخطبها الناس وأكثروا ، فقال فيها عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود[5] :

أحبك حبًّا لايحبّك مثلَهُ ... قريبٌ ولا فى العالمينَ بعيدُ
أحبّك حبًّا لو علمت ببعضه ... لَجُدْتِ ولم يصعُبْ عليك شديد
وحبك يا أم الصلاه مُتَيِّمى[6] ... شَهيدِى أبو بكر فذاك شهيدُ
ويعلم وَجْدِى القاسمُ بن محمدٍ ... وعروةُ ما ألقَى بكم وسعيد
ويعلم ما أخفِى سليمانُ كلَّه[7] ... وخارجةٌ يبدى لنا[8] ويعيدُ
متى تسألى عما أقول فتخبَرِى ... فللحبُّ عندى طارفٌ وتليدُ

---

(١) فى س : مع . (٢) ديوانه : ٢٧٢ . (٣) فى الديوان : لعله أجلب الأيام . والحين : الهلاك . (٤) أيم : من لا زوج لها . (٥) الأغانى : ٩ — ١٤٨ .
(٦) فى الأغانى : يا أم الصبى مدلهى . (٧) فى الأغانى : علمه . (٨) فى ط ، ق : بنا .

فقال له سعيد بن المسيَّب : قد أَمِنْتَ أن تسألنا، ولو سألتنا ما شهدنا لك بزُور.

وكان عبيد الله أحد الفقهاء السبعة الذين انتهى إليهم عِلمُ المدينة، وقد ذكرهم عبيد الله في هــذه الأبيات ؛ وهم أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي . والقاسم بن [محمد بن][1] أبي بكر الصديق ، وعروة بن الزبير بن العوام ، وسعيد بن المسيّب بن حزن ، وسليمان بن يَسَار، وخارجة بن زيد بن ثابت الأنصاري .

وقيل لعبيد الله: أتقول الشعر على شرفك؟ فقال: لابد للمصدور أن يَنْفُث؛ وعبيد الله هو القائل[2]:

شَقَقْتِ القلبَ ثم ذَرَرْتِ[3] فيه … هَوَاكِ فَلِيمَ والتأم الفُطُورُ[4]

تَغَلْغَلَ حُبُّ عَثْمَةَ[5] في فُؤَادِي … فَبَادِيه مع الخَافِي يَسِيرُ

تَغَلْغَلَ حيث لم يبلُغ شرابٌ … ولا حُزْنٌ ولم يبلغ سرور

أخذه سَلْم بن عمرو الخاسر فقال :

سقتني بعينَيْها الهوى وسقَيْتُها … فدَبَّ دَبِيبَ الخَمْرِ في كل مَفْصِلِ

وقال أبو نواس[6] :

أُحِبُّ اللومَ فيها ليس إلّا … لترداد اسمها فيها[7] أُلامُ[8]

ويَدْخُل حبُّهـا في كل قَلْبٍ … مَدَاخِلَ لا تغلغلها المُدَام

ومنه قول المتنبي[9]:

وللسرِّ مني مَوْضِعٌ لايَنَالُهُ … نَدِيمٌ ولا يُفْضِي إليه شَرَابُ

وقال بعض المحدَثين : (بعض المحدثين)

مازلت تنويني وتطلب خُلّتي[10] … حتى حللت بحيثُ حَلَّ شرابي

---

(١) ساقط من ط . (٢) الأمالي : ٣ — ٢١٧ ، المختار من شعر بشار : ١٥٤ ، التبيان : ١ — ١٩٢ ، الأغاني : ٩ — ١٥١ . (٣) في س ، ق : دررت .

(٤) الفطر : الشق ، وجمعه فطور . وفي الأغاني : صدعت القلب .

(٥) في س ، ق : غنمة . (٦) ديوانه : ٣٩٢ . (٧) في س ، ق : فيما .

(٨) في الديوان : لذكرهم و اسمها فيها ألام . (٩) ديوانه : ١ — ١٩٢ .

(١٠) الخلة الخليلة ، والصداقة المختصة لا خلل فيها تكون في عفاف وفي غيره .

ثم انصرفت بغير جُرْمٍ كان لى   ما هكذا الأحْبابُ للأحْبابِ

أخذ أبو نواس قوله: «أحبُّ اللوم فيها» ... البيت من قول [أبي محمد][1] بن أبي أمية:

وحدَّثنى عن مَجْلِسٍ كُنْتِ زينَهُ   رسولٌ أمينٌ والنساءُ شهودُ

فقلت له رُدَّ الحديثَ الذى مضى   وذِكْرُكِ من بيْنِ الحديث أُريدُ

أناشدُهُ باللهِ إلّا أعَدْتَهُ   كأنى بطىءُ الفَهْمِ عنه بَعيدُ

وقول أبي نواس فى البيت الأول كقوله[2]:

إذا غاديتنى بصَبُوحِ لَوْمٍ[3]   فمزوجاً بتَسْمِيَةِ الحبيبِ   من نسيب أبي نواس

فإنى لا أعدّ اللَّوْمَ فيهـا[4]   عليك إذا فعلت من الذنوبِ

ولا أنا إن عمدت[5] أرى جَنَانا   وإن ضنَّتْ بمخبوءِ النَّصيبِ[6]

مقنّعة بثَوْبِ الحسن ترمى   بغير تكلّف ثمر القلوبِ

وفى جَنان هذه يقول أبو نواس: من شعر أبي نواس في جنان

ياذا الذى عن جَنان ظَلَّ يُخْبِرُنا   باللهِ قُلْ وأعِد ياطيِّبَ الخبرِ

قالوا اشتكتك وقالت ما ابتليتُ بهِ   أراه من حيث ما أقبلتُ فى أثَرِى

ويرفع الطَّرْفَ نحوى إن مررتُ بهِ   حتى ليخجلنى من شِدةِ النظر

وإن وقفت له كيما يُكلّمنى   فى الموضع الخلو لم ينطق من الحَصَرِ[7]

ما زال يفعلُ بى هـذا ويُدْمِنهُ   حتى لقد صار من همّى ومن وَطَرِى[8]

وفى جنان أيضا يقول أبو نواس وكان بها صبًّا ولها محبًّا[9]:

جَنَانُ تسبّنى[10] ذكِرَتْ بخير   وتزعم أننى رجلٌ خبيث

---

(١) من ق ، س . (٢) ديوانه : ٣٦٩ . (٣) فى الديوان ، وس : عذل فشوبيه .

(٤) فى الديوان : العذل فيه . (٥) فى الديوان : عمرت .

(٦) فى الديوان : وإن بخلت بمحبوس النصيب . وفى ق : بمحسوس .

(٧) الحصر : العى فى النطق . (٨) أدمن الشىء : أدامه ، الوطر : الحاجة ، أو حاجة لك فيها هم وعناية . (٩) ديوانه : ٣٦٩ . (١٠) فى س : تسون .

وأنَّ مودَّتى كذِبٌ ومَيْنٌ … وأنى للذى تطوى[1] بثوث[2]
وليس كذا ولا ردٌّ عليها … ولكنَّ المَلول هو النَّكوثُ[3]
ولى قلبٌ يُنازِعنى إليها … وشوقٌ بين أضلاعى حَثيث[4]
رَأَتْ كَلَفى بها وقديمَ وَجْدِى … فَمَلَّتنى كذا كانَ الحديث[5]

[وكانت جنان مولاة لبعض الثقفيين][6].

وفى معنى قول ابن أبى أمية يقول العباس بن الأحنف[7] :

وحدَّثتنى يا سَعْدُ عنها فزدتنى … جنوناً فزِدْنى من حديثك ياسَعْدُ

ظرف أهل المدينة — وأهل المدينة أكثر الناس ظَرْفاً ، وأكثرهم طِيبا ، وأحلاهم مزاحا ، وأشدهم اهتزازاً للسماع ، وحسن أدب عند الاستماع . وقال عبد الله بن جعفر[8] : إن لى عند السماع هِزَّة لو سُئلت عندها لأَعْطَيْتُ ، ولو قاتلت لأَبْلَيت .

وروى أبو العيناء قال : قال الأصمعى : مررت بدار الزبير بالبَصْرَة فإذا شيخٌ قديم من أهل المدينة من ولد الزبير يكنى أبا ريحانة جالسٌ بالباب عليه شَمْلة[9] تستُرُه ، فسلّمتُ عليه ، وجلستُ إليه ؛ فبينا أنا كذلك إذ طلعَتْ علينا سويداء تحمل قِرْبة ؛ فلما نظر إليها لم يتمالكْ أن قام إليها ، فقال لها : بالله غنّينى صوتاً . فقالت : إن موالىَّ أعجلونى ، فقال : لابدَّ من ذلك ، قالت : أما والقِرْبة على كتفى فلا . قال : فأنا أحمِلها ، فأخذ القربة منها فاندفعت تغنّى :

فؤادِى أسيرٌ لا يفكُّ ومُهْجَتى … تفيضُ وأحْزانِى عليك تَطُولُ
ولى مُقْلَةٌ قَرْحَى لطول اشتياقها … إليك وأجْفانى عليك هُمُولُ

---

(١) فى الديوان : أهوى . (٢) بث الخبر : نشره . (٣) نكث العهد : نقضه .
(٤) الحثيث : السريع . (٥) ليس هذا البيت فى ديوانه الذى بأيدينا .
(٦) ساقط من س . (٧) ديوانه : ٥٨ . (٨) فى س : بن هفوان .
(٩) شملة : كساء يشتمل به .

فديتك ، أعدائى كثيرٌ وشُقّتى   بعيدٌ وأشياعى لَدَيْك قليـــل

فَطرِب وصرخ صَرْخَةً وضرب بالقِرْبة إلى الأرض فشقّها ؛ فقامت الجارية تبكى ، وقالت : ما هذا بِجَزَائى منك ؛ أستَغَثْتُكَ بحاجتك فعرّضتَنى لما أكره من موالىّ . قال : لا تغتمى فإنّ المصيبة علىّ حصلت ، ونزع الشَّمْلة ووضع يدًا من خلف ويدًا من قُدّام ، وباع الشَّمْلة وابتاع لها قِرْبةً جديدة ، وقعد بتلك الحال ؛ فاجتاز به رجلٌ من ولد على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه فعرف حاله فقال : أبا ريحانة ! أحسبك من الذين قال الله تعالى فيهم[1] : ﴿ فما رَبِحَتْ تجارَتُهم وَمَا كَانُوا مُهْتَدِين ﴾ . قال : لا يَا بْنَ رسُولِ الله ، ولكنى من الذين قال[2] الله تعالى فيهم[3] : ﴿ فبشّر عِبَادِ الذين يستمعونَ القَوْلَ فيتَّبِعُونَ أَحْسَنَه ﴾ ؛ فضحك وأمر له بألف درهم .

ومرّ بالأوقص المخزومى ، وهو قاضى المدينة ، سكرانُ [وهو][4] يتغنّى بليل ، فأشرف عليه وقال : يا هــذا ، شَرِبت حَرَاما ، وأيقظْتَ نياما ، وغنّيت خطأ ؛ خذه عنى ، وأصلح له الغناء .

طرب الفقهاء

ابن المسيب

وسمع سعيد بن المسيب منشِداً ينشد[5] :

فلم تَرَ عينى مثل سِرْبٍ[6] رأيتهُ   خرجن من التنعيم مُعْتَمِراتِ

مَرَرْنَ بِفَخٍ[7] ثم رُحْنَ عَشِيّةً   يلبين للرّحمن مؤتجراتِ

ولما رأتْ رَكْبَ النُّميرى أعرضَتْ   وكنّ من ان يَلْقَيْنَهُ حَذِرات

دعت نسوةً شُمَّ العرانين بُزّلاً[8]   نواعم لا شُعْثًا ولا غبرات

فأبرزن لما قمن يحجبن دونها   حِجَابًا من القَسّىِّ[9] والحبراتِ

(١) سورة البقرة ، آية ١٦ . (٢) فى س : الذين يقول لهم . (٣) سورة الزمر ، آية ١٧

(٤) ساقطة من س . (٥) المختار من شعر بشار : ١١٦ ، النويرى : ٤ــ٢٧٢ ، والأغانى ٥ ــ ٧ ، ٦ ــ ٢٤ ، والأمالى : ٢ــ ٢٤ . (٦) أصل معنى السرب : القطيع من البقر والظباء ، والمراد به هنا جماعة من النساء . (٧) فخ : موضع بمكة دفن فيه ابن عمر ، وفى س : بفجر .

(٨) فى س : بدنا أوانس . (٩) فى ط ، ق ، س : القيسى ، والقس : موضع بين العريش والفرما من أرض مصر منه الثياب القسية ــ وقد يكسر .

تَضَوّع طِيباً بَطْنُ نَعْمان إذ مشَتْ ... به زينبٌ في نسوةٍ عَطِرات[١]

يُخَبِّئن أطرافَ البنَان من التُّقَى ... ويَخْرُجْنَ شَطر الليل مُعْتَجِرات[٢]

فقال سعيد : هذا والله مما يلذّ استماعه ، ثم قال :

وليست كأُخرَى وسَّعَتْ جيب دِرْعها ... وأبدت بَنانَ الكَفِّ للجَمَرات

وغالَتْ بِبَان المسك وَحْفاً[٣] مُرَجّلا ... على مِثْل بَدْرٍ لاحَ في الظُّلُمَاتِ

وقامت تَرَاءَى بين جَمْع فأَفْتَنَتْ ... برؤيتها مَنْ راح من عَرَفاتِ

الحجاج يطرب للنسيب

قال : فكانوا يرون[٤] أنّ الشعرَ الثانى له ، والأول لمحمد بن عبد الله[٥] بن نمير الثقفى يقوله فى زينب بنت يوسف أخت الحجاج ؛ [وطلبه الحجاج][٦] حتى ظَفِر به فقال : أنت القائل ما قلت ؟ قال : وهل قلت أصلح الله الأمير إلّا :

يخبّئن أطرافَ البَنان من التقى ... ويخرجن شطرَ الليل مُعْتَجِرات

قال له : كم كُنْتُم إذ تقول : * ولما رأت رَكْبَ النميرى أعرَضت * قال : والله ما كنت إلا أنا وصاحب لى على حمارٍ هَزِيل ! فضحك وعفا عنه ، وهو القائل :

أهاجَتْكَ الظَّعائنُ يوم بَانُوا ... بذِى الزِّىِّ الجميل من الأثاثِ

ظَعائن[٧] أسلَكَتْ فى بَطْن قَوٍّ ... تَحثّ إذا ونت[٨] أى الحَثَاثِ

كأنّ على الهوادج يَوْمَ بانوا ... نِعَاجاً تَرْتَعِى بَقْل البراث[٩]

يهيّجك الحمام إذا تغنّى ... كما سجع النَّوَادِب بالمَرَاثى

---

(١) فى المختار والأمالى : خفرات . (٢) الاعتجار : لبسة للمرأة .

(٣) الوحف : الشعر الكثير الأسود الحسن ، وفى الأمالى : وغالت فتات . (٤) فى س : يروون الشعر . (٥) فى س : لعبد الله بن محمد . (٦) ساقطة من ط .

(٧) الظعائن : جمع ظعينة ، وهى المرأة فى الهودج . (٨) فى س : ونت . . .

(٩) البرث : الأرض السهلة ، والجمع براث .

[من أدب ابن المعتز]

وقال ابن المعتز : وعْدُ الدنيا إلى خَلَف ، وبقاؤها إلى تَلَف ، وبَعْدَ عطائها المنع ، من نثره وبعد أمانها الفَجْع[1] ، طوّاحة طرّاحة ، آسِيَة جرّاحة ، كم راقد في ظلّها قد أيقظته ، وواثق بها قد خَانَته ، حتى يلفظ نفَسَه ، ويودّع دُنياه ، ويَسْكُن رَمْسَه ، وينقطع عن أمله ، ويشرف على عمله ، وقد رَجَح الموتُ بحياته[2] ، ونقَضَ قُوَى حَرَكاته ، وطَمَس البِلَى جمالَ بَهْجته ، وقطع نظامَ صُورته ، وصار كخَطّ من رَماد تحت صفائح أنْضَاد[3] ؛ وقد أسلمه الأحباب ، وافترش التّراب ، في بيت تَجَرّتْه المَعَاوِل ، وفرشتْ فيه الجنادل ؛ ما زال مضطربا في أمَلِه ، حتى استقرّ في أجَله ، ومحت الأيامُ ذِكْرَه ، واعتادتِ الألْحَاظُ فَقْدَه[4] .

وكتب وهو معتقل إلى أستاذه أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب[5] يتشوّقه[6] من شعره

ما وَجْدُ صَادٍ بالجبالِ مُوثَقٍ بمَاءِ مُزْنٍ باردٍ مُصَفَّقِ[7]
بالرِّيح لم يَكْدُرْ ولم يُرَنَّقِ جادت به أخلافُ دَجْنٍ مُطْبِقِ[8]
بصخرةٍ إن تَرَ شمسًا تَبْرُقِ مَادَ[9] عليها كالزُّجاج الأزرقِ[10]
صَرِيحُ غَيْثٍ خالصٍ لم يُمْذَقِ[11] إلّا كوَجْدِي بك لكنْ أتّقِي
يا فاتحا لكلّ بابٍ[12] مُغْلَقِ وصَيْرَفِيًا ناقِدًا للمَنْطِقِ[13]

---

(١) الفجع : أن يوجع الإنسان بشيء يكرم عليه فيعدمه . (٢) رجح : مال .
(٣) النضد : ما نضد ، والجمع الأنضاد . (٤) في ط ، ق : فقره .
(٥) في المختار : أحمد بن يحيى ثعلبا كان أحد مؤدبيه فقطعه وقتا فكتب إليه .
(٦) ديوانه : ١٢٤ ، المختار من شعر بشار : ٥٤ . (٧) التصفيق : التقليب، وتحويل الشراب من إناء إلى إناء ممزوجا ليصفو . وفي المختار : كماء مزن .
(٨) الأخلاف : الأثداء يفيض منها اللبن ، والدجن المطبق هو السحاب المتراكم .
(٩) في ت : فهو علينا . (١٠) هذا البيت والذى قبله ليسا في الديوان المطبوع بأيدينا ، وفي المختار : فهو عليها كالزجاج الأزرق . (١١) لم يمذق : لم يخالط .
(١٢) في الديوان : ملم . (١٣) في المختار : عالما بالمنطق .

إنْ قال هـذا يَهْرَجٌ لم ينفُقِ ‏ ‏ إنَّا على البِعـاد والتفرُّقِ
لنلتقي[١] بالذِّكر إن لم نَلْتَقِ

فأجابه : أخذتَ أطال الله بقاءك أولَ هـذه الأبيات مما أمليته عليك من قول جميل[٢] :

وما صَادِياتٌ حُمْنَ يوماً وليـلةً ‏ ‏ على الماء يخشين[٣] العِصِيَّ حوانِ
كواعبُ[٤] لم يصدُرْنَ عنه لوجْهَةٍ ‏ ‏ ولا هُنَّ من بَرْدِ الحياض دَوَانِ
يَرَيْنَ حَبابَ الماء والموتُ دونَهُ ‏ ‏ فهنَّ لأصواتِ السُّقاةِ رَوَانِ
بأكثرَ منى غُـلَّةً وَصَبابةً ‏ ‏ إليكِ ولـكنَّ العدوَّ عرانِ[٥]

وأخذت آخرها من قول رُؤْبَة بن العجاج[٦] :

إنّى وإنْ لَمْ تَرَنى فإنَّنى ‏ ‏ أخوك والرَّاعى إذا[٧] استرعيتَنى
أراك بالوُدّ وإنْ لم تَرَنى

قال : فاستخفّنى[٨] فى ذلك ، ونسب إلىَّ سوء الأدب .

ابن المعتز وكان أبو العباس عبد الله بن المعتز فى المنصب العالى من الشعر والنثر ، وفى النهاية فى إشراق ديباجة البيان ، والغاية من رقَّة حاشية اللسان . وكان كما قال ابن المرزبان: إذا انصرف من بديع الشعر إلى رقيق النثر أتى بحلال السحر ، وليس بعد ذى الرُّمة أكثرُ افتنانا وأكبرُ تصرّفا وإحسانا فى التشبيه منه . وإنما فرقتُ جملة ما اخترتُ من شعره ونثره فى جملة هذا الكتاب ؛ لئلا أخرج عما تقدّم به الشرط فى البسط ، وآتى ههنا ببعض ما أختاره له . قال :

بعض المختار له

وفِتيانٍ سَرَوْا والليـلُ داجٍ ‏ ‏ وضوء الصبح متّهمُ الطلوعِ
كأن بُزاتهم أمراء جيش ‏ ‏ على أكتافهم صدأُ الدروعِ

---

(١) فى الديوان : نلتق . (٢) ديوانه : ٦٢ ، المختار من شعر بشار : ٥٤ .
(٣) فى المختار : يخبين العصى حرائى ، وفى ق : يقشين . (٤) فى المختار : لواغب لا يصدرن .
(٥) فى المختار : عدانى . (٦) المختار من شعر بشار : ٥٤ . (٧) فى المختار : الذى .
(٨) فى س : فاستجفنى .

وقال أيضاً[١] :

من شعره أيضاً

في ليلةٍ أكَلَ المحاقُ هلالَها حتى تبدَّى مثلَ وَقْفِ العاجِ[٢]
والصبحُ يتلُو المشترى فكأنَّهُ عُرْيانُ يمشِي في الدُّجَا بسِراجِ

وقال أيضاً يصف فرساً[٣] :

ولقد غدوت على طِمِرٍّ سابحٍ[٤] عقدتْ سنابكُه عَجَاجَةَ قَسْطَلِ
متلثّم لجُمَ الحديد يَلُوكُها لوكَ الفتاة مَسَاوِكًا من إسْحِلِ[٥]
ومُعَجَّل غير اليمين كأنَّه متبختر[٦] يمشِي بكُمٍّ مُسْبَلِ

وقال[٧] :

قد أغتَدِي بقارِحِ مُسَوَّمٍ يَعْبُوبِ[٨]
يقق الحصَى بحافرٍ كالقَدَحِ المكبوب
قد[٩] ضحكت غُرَّتُهُ في موضع التّقطيبِ

وقال أيضاً :

ولقد وطئتُ الغيثَ يحملُني طِرْفٌ كلَوْنِ الصبح حين وَفَدْ[١٠]
جمّاع أطرافِ الصُّوار[١١] فما الأ أخرى عليه إذا جَرَى بأشَدْ
يمشي فيعرض في العِنانِ كما صدف المشَّق ذو الدَّلالِ وصَدْ
فكأنّه موجٌ يذوب إذا أطلقتهُ فإذا حبست جَمَدْ

---

(١) ديوانه : ٢ — ٧٤ .   (٢) الوقف : السوار .
(٣) ديوانه ٢—١٢٦ .   (٤) في الديوان : فارح   رفعت حوافره غمامة ...
(٥) الإسحل — بالكسر : شجر يستاك به .   (٦) في س : متجشم .
(٧) ديوانه : ٢ — ٩٦ .   (٨) اليعبوب : الفرس السريع الطويل ، أو الجواد السهل في عدوه .   (٩) في الديوان : وضحكت .   (١٠) في س : وقد .
(١١) الصوار : القطيع من البقر .

وقال أيضاً يصف سيفاً[١] :

وَلِي صارمٌ فيـــه المنايا كَوَامِنٌ ... فما يُنتضَى إلّا لسَفْكِ دِماء
تَرى فَوْقَ مَتْنَيْـه الفِـرِنْد كأنّهُ ... بقيّةُ غَيْمٍ رَقّ دُونَ سَماء

وقال يَصِفُ ناراً[٢] :

مشهّرةٌ لا يحجب النخـلُ ضوءها ... كأنّ سيوفا بين عيـــدانها تُجْلى
يفرّج أغصان الوقود اضطرامُها ... كما شقّت الشقراء[٣] عن مَتْنِها جلّا[٤]

* * *

من كلام أهل العصر في النار

وقال بعض أهل العصر وهو السَّرى الوصلى[٥] :

ويوم رذاذ مُمَسَّك الحجْبِ ... يَضْحَكُ فيه السرورُ من كَثَبِ
ومجلسٍ أُسبلت ستـــائرُهُ ... على شُموس البهـاء والحسبِ
وقد جرت خيـلُ راحنا خَبَباً ... في حَلْبِها[٦] أو هممن بالخبَبِ
والتهبت نارُنا فمنظَرُها ... يُغْنيك عن كل منظرٍ عجب
إذا ارتمت بالشرار فاطّردت ... على ذُرَاها مطـارد اللّهَبِ
رأيت ياقوتةً مشبـكةً ... تطيرُ عنهـا قُراضَةُ الذهبِ
فانهض إلى المجلس الذى ابتسمت ... فيـــه رياضُ الجمـالِ والأدبِ

وقال بعضُ أهل العَصْرِ ، وهو أبو الفَرَج الببغاء :

فحمًا قدّم الغـــلام فأهْدَى ... في كوانينه حياةَ النُّفُوسِ
كانَ كالآبنوس غَيْرَ عَلَى ... فغدا وهو مُذْهَب الآبنوسِ
لقى النارَ في ثيابِ حِدَادٍ ... فكسته مُصَبَّغاتِ عَرُوسِ

---

(١) ديوانه : ٢ ــ ١٠٥ . (٢) ديوانه : ٢ ــ ١٢٧ .
(٣) الشقراء : اسم فرس ، وارجع إلى القاموس ــ مادة شقر .
(٤) روايةالبيت فيديوانه: تفرج أغصان الوقود إذا التقت ... إذاشقت الشقراء عرقتها حلا
(٥) يتيمة الدهر : ٢ ــ ١٥٩ . (٦) في اليتيمة : في جريها .

وقال أبو الفضل الميكالي :

كأنَّ الشَّرار على نارِنا وقد راقَ مَنظَرُها كلَّ عَيْن
سُحَالةُ تِبْرٍ إذا ما علا(١) فإمّا هَوَى فَقُشارُ اللُّجَيْن

* * *

وقال ابن المعتز يصف سحابة(٢) :   رجع إلى ابن المعتز

ومُوقَرةٍ بِثقل الماء جاءتْ تَهادَى فوق أعناقِ الرياحِ
فباتت(٣) ليلها سَحًّا ووَبْلًا وهَطْلًا مثلَ أفواهِ الجِرَاحِ
كأنَّ سماءها لما تجلَّتْ خِلالَ نجومها عند الصباحِ
رياضُ بَنَفْسَجٍ خَضِلٍ(٤) ثَرَاهُ تفتَّح بينه نَوْرُ(٥) الأقاحِ

وقال :

ولُجَّةِ للمنايا خُضْتُ غَمرتَها بصارمٍ ذَكَرٍ صَمْصامَةٍ خَذِمِ(٦)
وقارحٍ صبغ الخيلانُ دُهْمَتَهُ بشُهْبةٍ كاختلاط الشَّيْحِ بالظُّلَمِ

وقال(٧) :

وليلٍ كَكُحْل العين خُضْتُ ظلامَه بأزرقَ لمّاعٍ وأبيضَ صارمِ
ومَضْبورةِ الأعضادِ(٨) حَرْفٍ كأنها(٩) تصافح رَضْراضَ الحصى بعَمائمِ(١٠)

وقال يصف حيّة :

نَعَتُّ رقطاء لا يُحيي لُدْغَتَها لو قدَّها السَّيف لم يعلق به بَلَلُ
تلقى إذا انسلخت في الأرض جلدتَها كأنها كُمُّ دِرعٍ قدَّهُ بَطَلُ

---

(١) في س : ما بدا . (٢) ديوانه : ٢ — ١١٠ . (٣) في الديوان : فجاءت .
(٤) في الديوان ، س : نداه . وخضل : ندي . (٥) في الديوان : ورد .
(٦) خذم : قاطع . (٧) ديوانه : ٢ — ١٢٨ . (٨) في الديوان : وطيارة بالرجل .
(٩) في س : كأنما . (١٠) في الديوان : بجماجم .

وقال أيضاً[١] :

وأسأرَ[٢] مني الدهرُ عَضْباً مُهنّداً ... يفُلُّ شَبا خَطْبِى[٣] وقلباً مشيَّعاً

ورأياً كمرآة الصَّنَاع أرى به ... سرائرَ غَيْبِ الدهر من حيث ماسعى[٤]

* * *

بعض النقد أخذه من قول المنصور لابنه المهدى : لا تُبْرِمَنّ أمراً حتى تفكّر فيه ؛ فإن فِكْرة العاقل مرآته ، تريه قُبْحه وحسنه .

ولما دُفِنَ المنصور وقف الربيعُ على قبره فقال : رَحِمَك اللهُ يا أمير المؤمنين ، وغفر لكَ ؛ فقد كان لك حِجًى من العقل لا يطيرُ به الجهل ؛ وكنت ترى باطنَ الأمر بمرآةٍ من الرأى ، كما ترى ظاهره . ثم التفت إلى يحيى بن محمد أخى المنصور فقال : هذا كما قال أبو دَهْبل[٥] الجمحى :

إنّ النساءَ بمثلهِ عُقْمُ ... عَقِمَ النساء فما يَلِدْنَ شبيهه

وبعده :

متهلّلٌ بنَعَمْ بِلَا متباعدٌ ... سِيّان منه الوفْرُ والعدمُ

نَزْرُ الكلامِ من الحياء تخالُه ... ضَمِناً[٦] وليس بجسمه سقمُ

أخذ البيت الأخير من قول ليلى الأخيلية[٧] :

لا تَقْرَبَنّ الدهرَ آلَ مُطَرِّفٍ ... إنْ ظالماً يوماً وإنْ مَظْلُوما

قومٌ رِباطُ الخيلِ حَوْلَ بيوتهم ... وأسنةٌ زرقٌ[٨] يُخَلْنَ نُجُوما

ومُخَرَّقٍ[٩] عنهُ القميص تخالُه ... وسطَ البيوت من الحياء سقيما

حتى إذا رُفِعَ اللواءُ رأيتَهُ ... يوم الهياج على الخميس زعيما[١٠]

(١) ديوانه : ١ — ٤٠ . (٢) فى الديوان : وغادر . (٣) فى الديوان : خصمى .
(٤) هذا البيت ليس فى الديوان . (٥) فى ط ، ق : دعبل .
(٦) ضمن : مريض . (٧) قالت هذه الأبيات فى مدح آل مطرف — شاعرات العرب : ١٥١ .
(٨) فى ط : وأسنة زرقا . (٩) فى الشاعرات ، س : ومخرق .
(١٠) اللواء : الراية ، والخميس : الجيش ، والزعيم : الرئيس .

وقال :

يُشبّهون ملوكا فى تجلّتهم وطول أنصِبَة[1] الأعنَاق واللّمَم
إذا بَدا المسك يَجرى فى مفارقهم راحُوا كأنهم مَرْضى من الكرم

وقال أبو على الحاتمى : وما أحسن أبياتا أنشدها أبو عمر[2] المطرز غلام ثعلب ، يعترض فى أثنائها هذا المعنى :

تخالُهم للحلم صُمًّا عن الخَنَا وخُرْسا عن الفَحْشَاء عند التّهاتُرِ
ومَرْضَى إذا لاقوا حياء وعِفّةً وعند الحروب كالليوث الخَوَادرِ
لهم عزُّ إنصافٍ وذلُّ تواضعٍ بهم ولهم ذَلّتْ رِقابُ المعاشرِ
كأنّ بهم وَصْماً يخافون عارَهُ وليس بهم[3] إلّا اتقاء المَعَايرِ

وأنشد :

أحْلام عادٍ لا يخَافُ جَليسهُم وإن[4] نطق العَوْراء[5] عيبَ لسانِ
إذا حُدّثوا لم يُخشَ سوء استماعهم وإن حَدّثوا أدّوْا بحُسْن بيانِ

* * *

وقال ابن المعتز[6] : رجع إلى قول ابن المعتز

وعاقد زُنّارٍ[7] على غُصُن الآسِ دقيق المَعَانِى مُخطَفِ[8] الخصر ميّاسِ
سقانى عُقاراً صَبّ فيها مِزَاجها[9] فأضْحَكَ عن ثَغْرِ الحباب فَمَ الكاسِ

وقال[10] :

يا ليلةً نَسِىَ[11] الزمانُ بها أحْدَاثه ، كُونِى بلا فَجْرِ

---

(١) الأنصبة : جمع نصاب ، وهو الأصل . وفى ق : منصبة . (٢) فى ط : أبو عمرو .
(٣) فى س : لهم . (٤) فى س : إذا . (٥) فى س ، ق : عذب .
(٦) ديوانه : ٢ — ٤٩ . (٧) أصل الزنار : ما على وسط النصارى والمجوس .
(٨) فى الديوان : رقيق ، ومخطف الخصر : ضامره . (٩) مزاج الشراب : مايمزج به
(١٠) ديوانه : ٢ — ١٢١ . (١١) فى س : ينسى .

فاح السا،[1] بيدرها وَوَشَتْ   فيهـا الصَّبا بمواقع القَطْرِ
ثم انقضت والقَلْبُ يَتْبَعُها   فى حيث ما سقطَتْ مِنَ الدَّهْرِ

وقال[2] :

يارُبَّ إخوانٍ صحبتهمُ   لايملكون لِسَـلْوَةٍ قَلْبَا
لو تستطيع قلوبُهم نَفَرَتْ   أجسامهم[3] فتعانقت حُبَّا

هذا كقول ابن الرومى[4] :

أعانقه[5] والنفسُ بَعْدُ مَشُوقَةٌ   إليه ، وهل بَعْدَ العِنَاقِ تَدَانى
وألثِمُ فَاهُ كى تَزُولَ حَرَارَتى   فيشتدّ ما ألقى مِنَ الهَيَمَان
ولم يكُ مِقْدارُ الذى بى مِنَ الْهَوَى[6]   ليروِيَهُ ما تَرْشُفُ الشَّفَتان[7]
كأنّ فؤادى ليس يشفى غليلَهُ   سوى أن يُرَى الروحان[8] يمتزجانِ

ومن منثوره : لا يَزالُ الإِخْوَانُ يسافرون فى المودَّة ، حتى يبلغوا الثقة ، فإذا
ومن نثره بلغوها ألقَوْا عَصَا التَّسيار ، واطمأنَّت بهم الدار ، وأقبلت وفودُ التصافى ، وأمنت
خَبايَا الضمائر ، فحلُّوا عُقَد التحفّظ ، ونزعوا ملابسَ التَّخَلُّق .

وله : سار فلان فى جيوشٍ عليهم أرْدِيَة السيوف ، وأقمِصَةُ[9] الحديد، وكأنَّ رماحَهم قرونُ الوُعُولِ، وكأنَّ دُروعَهم[10] زَبَدُ السيولِ، على خيل تأكُل الأرضَ بحوافرها ، وتمدّ بالنَّقْع سُرادقها، قد نُشرت فى وجوهها غُرَرٌ كأنها صحائف الرّق، وأمسكها تحجيلٌ كأنه أسورة اللجين ، وقُرِّطت عُذُراً كأنها الشُّنف ، تتلقف الأعداء أوائله ولَم تَنْهَض أواخره ، قد صُبَّ عليهم وقارُ الصبر ، وهبَّت معهم ريح النَّصر .

---

(١) فى الديوان: راح الزمان . (٢) ديوانه: ١ — ١٠٦ . (٣) فى الديوان: فقدت أجسادها وتعانقت . (٤) ديوانه : ٢٧ . (٥) فى الديوان : أعانقها . (٦) فى س : الجوى .
(٧) فى الديوان : وما كان مقدار الذى بى من الجوى ليشفيه ماتلثم . . . وفى ف ، س : ماقد ترشف الشفتان . (٨) فى الديوان : الروحين . (٩) فى س : قمصان .
(١٠) فى س : أدراعهم .

وله فى عليل : آذنَ اللهُ فى شفائك ، وَتَلَقَّى داءك بدوائك ، ومسحَ بيدِ العافية عليك ، ووجَّه وَفْدَ السلامة إليك ، وجعل عِلَّتك ماحيةً لذنوبك ، مضاعِفَةً لثوابك .

وكتب إلى عُبيد الله بن سليمان بن وَهب فى يوم عيد : أَخَّرَتْنِى العِلَّةُ عن الوزير أعزَّه الله ، فحضرت بالدعاء فى كتابى لِيَنُوبَ عنى ، ويَعْمُرَ ما أخْلَتْه الموانِعُ منى ، وأنا أسألُ الله تعالى أن يجعلَ هـذا العيدَ أعْظَمَ الأعيادِ السالفةِ بركةً على الوزير ، ودونَ الأعيادِ المستقبَلة فيما يُحِبُّ ونُحِبّ له ، ويَقْبل ما توسّل به إلى مَرْضَاته ، ويضاعفُ الإحسانَ إليه ، على الإحسان منه ، ويمتّعه بصحبةِ النعمة ، ولباسِ العافية ، ولا يُرِيه فى مسرَّةٍ نقصاً ، ولا يقطع عنـه مَزيدا ، ويجعلنى من كل سوء فِدَاه ، ويصرف عيون الغير عنه ، وعن حظّى منه .

وله إلى بعض الرؤساء : لاتَشِنْ حُسْنَ الظفَر بقُبحِ الانتقام ، وتجاوز عن كل مُذْنِب لم يَسْلُكْ من الأقدار[1] طريقا حتى اتَّخذ من رجاء عَفْوِكَ رفيقا .

وله اعتذار إلى القاسم بن عبيد الله : ترفَّع عن ظُلْمِى إن كنتُ بريئاً ، وتفضَّل بالعفو إن كنتُ مسيئاً ، فوالله إنى لأَطْلُبُ عَفْوَ ذَنْبٍ لم أَجْنِه ، وأَلْتَمِس الإقالةَ مما لا أعرفه ؛ لتزدادَ تطوّلا وأزداد تذلّلا ؛ وأنا أُعِيذُ حالى عندك بكرمك من وَاشٍ يكيدها ، وأحْرُسها بوفائك من باغٍ يحاوِلُ إفسادها ، وأسأل الله تعالى أنْ يجعلَ حظِّى منك بقدر وُدِّى لك ؛ ومحلّى من رجائك بحيث أسْتَحِقُّ منك .

وله إليه : لو كان فى الصمْتِ مَوضعٌ يَسَعُ حالى لخفَفْت عن سَمْعِ الوزيرِ ونَظَرِه ، ولم أشغل وَجْهاً من فِكْره ؛ وما زالت الشكوى تَعْرُبُ عن لسانِ البَلْوَى ، ومن اختلّت حالته كان فى الصّمْتِ هَلَكَتُه ، وقد كان الصبرُ ينصرُنى على سَتْرِ أمْرِى حتى خذلنى .

---

(١) فى ط : الأعذار .

وهذا كقول أحمد بن إسماعيل: فصاحةُ الشكوى على قَدْرِ البلوى، إلا أن يكونَ بالشاكى انقباضٌ، وبالمشكوِّ إليه إعْراض .

[وصف الماء وما يتصل به]

وقد أحسن أبو العباس بن المعتز فى صفة المـاء فى أرجوزته التى أنشدتها آنفاً .

وقد قال فى قصيدة له وذكر إبلا(١):

فتبـدّى لهن بالنّجف الد ... ر ماء صافى الجمام عَرِىُّ(٢)
يتمشّى على حصى يسلب(٣) الأ ... قذاء فمتنـه مَجْلِىُّ(٤)
وإذا داخلته دُرّةُ(٥) شمس ... خِلْته كُثّرت عليـه الحلىّ

وقال(٦):

لا مثـل منزلة الدُّوَيرة منزلٌ ... يادارُ جادكِ وَابِلٌ وسقاكِ
بُؤساً لدهرٍ غـيرتكِ صروفُه ... لم يَمحُ من قلبى الهوى ومحاكِ
لم يَحْلُ للعينين بعـدك منظرٌ(٧) ... ذُمّ المنـازل كلّهنّ سواكِ
أىّ المعـاهد منك أندُبُ طيبَه ... مُمساكِ بالآصال(٨) أم مَغْـداكِ
أم بَرْدُ ظلّك ذى الغصون وذى الجنى(٩) ... أم أرضك الميثاء أم رَيّاكِ(١٠)
وكأنما سطعت(١١) مجامرُ عنبرٍ ... أو فُتَّ فأرُ المسكِ فوق ثَراكِ
وكأنما حَصْباء أرضك جَوْهرٌ ... وكأنّ ماء الوردِ دَمْعُ نَداكِ

---

(١) ديوانه : ١ — ٦١ . (٢) فى الديوان : فتبدى لهن بالنجف القفر .

(٣) فى ق : يسكب . (٤) فى الديوان : يتمشى على حصى سلب الريح .

(٥) فى الديوان :ضاحكته ، وفى س : غرة . (٦) ديوانه : ٢ — ٨٨ ، المختار من شعر بشار : ٢٦٤ ، ديوان المعانى : ٢ — ١٠ . (٧) فى المختار : منزل .

(٨) فى الديوان والمختار ، س : ذا الآصال . (٩) فى الديوان : الحيا ، وفى المختار : وذى الندى . (١٠) فى الديوان : أم مرباك ، والميثاء : اللينة .

(١١) فى الديوان : سقطت .

[وكأنما أيدى الربيع ضُحَيَّةً   نَشَرَتْ ثيابَ الوَشْىِ فوق رُباكِ][١]
وكأنّ دِرْعاً مُفْرغا من فِضَّةٍ   ماءُ الغدير جَرَتْ عليه صَبَاكِ

وعشقت عاتكة المرية ابنَ عمٍّ لها، فراودها عن نفسها، فقالت[٢]:

فما طَعْمُ ماءٍ أىّ ماءٍ تقولُهُ   تَحَدَّرَ عن غُرٍّ طوالِ الذوائبِ
بمنعرَجٍ من بَطْنِ وَادٍ تقابلتْ   عليه رياحُ الصيفِ من كل جانبِ
نَفَتْ جَرْيَةُ الماءِ القَذَى عن متُونِهِ   فما إن به عَيْبٌ تَرَاهُ لِشَارِبِ
بأطيبَ ممن يقصِرُ الطرْفَ دونَهُ   تُقَى الله واستحياءُ بَعْضِ العواقبِ

وأنشد الأصمعى قال: أنشدنى أبو عمرو بن العلاء لجابر بن الأزرق[٣] وقال: هو أحْسَنُ ما قيلَ فى معناه:

أيا وَيْحَ نَفْسِى كلا الثَّخْتُ[٤] لوحةً   على شَرْبَةٍ من ماءِ أحْوَاضِ مَأْرِبِ
بقايا نِطَافٍ[٥] أوْدَعَ الغيم صَفْوَها   مصقَّلةِ الأرْجاءِ زُرْقِ المشاربِ
ترقرق دَمْعُ المُزْنِ فيهنّ والتَوَتْ   عليهن أنْفَاسُ الرياحِ الغرائبِ

وأنشد إسحاق بن إبراهيم للأُبَيْرِد اليربوعى، ورويت لمضرّس بن ربعى الأسدى[٦]:

فألقَتْ عَصَا التَّسْيَارِ عنها وخَيَّمت   بأرْجاءِ عَذْبِ الماءِ زُرْقٍ[٧] مَحَافِرُهْ
أزَالَ القَذَى عن مائه وَافِدُ الصَّبا   يروحُ عليه ناعماً ويُبَاكِرُه

وأول من أتى بهذا زهير بن أبى سلمى فى قوله[٨]:

فلمّا وَرَدْنَ الماءَ زُرْقاً جِمَامُهُ   وَضَعْنَ عِصِىَّ الحاضِرِ المُتَخَيِّمِ[٩]

---

(١) من س، ق.   (٢) شاعرات العرب: ٢٠١.   (٣) فى س: رالاق.
(٤) التاج: عطش   (٥) النطفة: الماء الصافى، وجمعه نطاف.
(٦) فى شرح ديوان زهير: منسوب إلى الأول صفحة ١٤.
(٧) فى شرح ديوان زهير: بيض، وفى س: زرق الماء عذب.   (٨) ديوانه: ١٣.
(٩) الجمام: ما اجتمع من الماء. وضعن عصى: أقمن. المتخيم: المقيم.

وقال ابن الرومى :

وماء جَلَتْ عن حُرّ صفحته القَذَى ... من الريح مِمْطَارُ الأصائل والبُكَرْ
به عَبَق مِمّا تَسَحّبَ فوقَه ... نسيم الصبا يجرى على النَّوْرِ والزَّهَرْ

[وصف الدور والقصور]

بركة الجعفرى للبحترى ويتعلق بهذا الباب قولُ البحترى يصف بِركة الجعفرى، وهو قصر ابتناه المتوكل فى سُرَّ من رأى(١):

يا مَنْ رَأى البِركَةَ الحسناءَ رؤيتها(٢) ... والآنساتِ إذَا لاحَتْ(٣) مَغَانيها
ما بالُ دجلة كالغَيْرَى تُنَافِسُها ... فى الحُسْنِ طَوْراً وأطْوَاراً تُبَاهيها !
إذا عَلَتْها الصَّبا أبدَت لها حُبُكا ... من الجواشِن(٤) مَصْقولا حَوَاشيها
فحاجِبُ الشمسِ أحيانا يُغازلُها(٥) ... وريّقُ الغيث أحيانا يُباكيها
إذا النجومُ تراءتْ فى جوانبها ... ليلًا حسِبْتَ سماء رُكِّبَتْ فيها
كأنها الفِضّةُ البيضاء سائلةً ... من السّبائك تجرى فى مَجاريها
تنصبُّ فيها وفودُ الماء مُعْجِلَةً ... كالخيلِ خارجةً من حَبْلِ مُجريها
كأنَّ جنَّ سليمان الذين وَلُوا ... إبداعَها فأدَقُّوا فى مَعانيها
فلو تمرُّ بها بِلْقيسُ معرضةً(٦) ... قالت : هى الصَّرْحُ تمثيلًا وتشبيها
[لا يبلغ السَّمَكُ المحصور غايتها ... لِبُعْدِ ما بين قاصيها ودانيها](٧)
يَعُمْنَ فيها بأوْسَاطٍ مُجَنَّحَةٍ ... كالطَّيْرِ تنقض(٨) فى جوٍّ خَوَافيها

(١) النويرى : ١ — ٢٨٥ ، المختار من شعر بشار : ٣١٩ ، ديوانه : ٢ — ٣١٩ .
(٢) فى الديوان : الحسناء رؤيتها . (٣) فى النويرى : التى لاحت .
(٤) الحبك من الماء : الجعد المتكسر ، والجوشن : الصدر ، والدرع .
(٥) فى الديوان : يضاحكها . (٦) فى الديوان والنويرى : عن عرض .
(٧) من ق ، س . (٨) فى الديوان : تنقض .

ولم يُنْفِق أحدٌ من خلفاء بنى العباس فى البناء ما أنفقه المتوكل ؛ وذلك أنه أنفق فى أبنيته ثلثمائة ألف ألف . وفى أبنيته يقول على بن الجهم[١] :

دور المتوكل لعلى بن الجهم

وما زِلتُ أسْمَع أنّ الملو ... ك تَبْنى على قَدْرِ أخطارِها
وأعــلمُ أنّ عقولَ الرجا ... ل يُقضَى عليهـا بآثارها
صُحونٌ تسافر فيهـا العُيون ... فتَحْسِر[٢] من بُعْد أقطارِها
وقُبّةُ مُلكٍ كأنّ النجو ... م تُفضى إليها[٣] بأسْرَارها
إذا أُوقِدَت نارُها بالعراق ... أضاء الحجازَ سَنَا نارِها
لها شُرُفات كأنّ الربيعَ ... كساها الرّياض بأنوارها
فهنّ كمصطحباتٍ خَرَجْنَ ... لِفِصْح[٤] النّصارى وإفطارها
تظمّنّ القِسِيَّ كنظم الحلى ... بِعُونِ النساء وأبكارِها
فمن بين عاقصــةٍ شَعْرَها ... ومُصلحة عَقْد زُنّارِها[٥]

والبحترى فيها

وللبحترى فيها شعرٌ كثير منه[٦] :

أرى المتوكليّــة قد تعالَتْ ... مصانعها[٧] وأكملت التماما
قصور كالكواكب لامعاتٌ ... يكدن يُضئن للسارى الظلاما
وروض[٨] مثل بُرْدِ الوَشْى فيه ... جنى الحوْذان يُنشر والخُزامى[٩]
غرائب من فنون النَّور[١٠] فيها ... جنَى الزهر الفُرادى والتّؤاما
يضاحك نورها[١١] طوراً وطورا ... عليه الغيم[١٢] يَنسجمُ انسجاما

---

(١) ديوان على بن الجهم : ٢٨ ، الأغانى : ١٠ — ٢٣٣ .
(٢) حسر البصر : كل وانقطع من طول مدى ، وفى س : من بعد . (٣) فى ق : إليه.
(٤) فصح النصارى : عيدهم . (٥) الزنار : ما على وسط النصارى والمجوس .
(٦) ديوانه : ٢ — ٢٢٥ . (٧) فى الديوان : محاسنها . (٨) فى الديوان : وبر .
(٩) الحوذان والخزامى : من النباتات . (١٠) فى الديوان : النبت .
(١١) فى الديوان : تضاحكها الضحى . (١٢) فى الديوان ، س : عليها الغيث .

ولو لم يستهلّ لها غمامٌ   بريِّقه لكنتَ لها غماما(١)

وقال أيضاً(٢) :

قد تمَّ حُسْنُ الجعفريّ ولم يكن   ليتمَّ إلّا للخليفة جعفرِ
ملكٌ تبوّأ خيرَ دارٍ أُنشئت   [في خير مبدى(٣) للأنام ومحضَرِ](٤)
[في رأس مشرفة حصاها لؤلؤٌ](٤)   وترابُها مِسْكٌ يُشابُ بعنبرِ
مخضرّة والغيثُ ليس بساكبٍ   ومضيئة والليلُ ليس بمُقْمِرِ
رفعت بمُنْخرق الرياح وجاورت   ظِلَّ الغمام الصيِّب المستعبر(٥)

وبعده :

ورفعت بُنْيانا كأن زُهاءه(٦)   أعلامُ رَضْوَى أو شواهقُ ضَيْبر(٧)
عالٍ على لَحْظِ العيونِ كأنما   ينظرنَ منه إلى بياضِ المشترى
ملأت جوانبُه الفضاء وعانقتْ   شُرفاته قِطَعَ السحابِ المُمْطِرِ
وتسيل(٨) دجلة تحته ففناؤهُ   من لُجَّةٍ فُرِشت(٩) وروضٍ أخضرِ
شجر تُلاعبه الرياحُ فتنثني   أعطافُه في سَاطِعٍ متفجِّرِ

الصنوبري يصف موضعا

أخذ أبو بكر الصنوبري قولَ البحتري في صفة البركة فقال يصف موضعا(١٠) :

سقى حلباً سافِكٌ دمعهُ   بَطيءُ الرُّقوء(١١) إذا ما سَفَكْ
ميادينُه يُسطِحنَ(١٢) الرياض   وساحاتُه(١٣) بينهن البِرَكْ

---

(١) ريق الشباب : أوله وأصله .   (٢) ديوانه : ١ — ٢١٣ .   (٣) في ق : بدو .
(٤) من س ، ق .   (٥) رواية هذا البيت في الديوان :
ظهرت لمخترق الشمال وجاورت   ظل الغمام الصائب المتفزر
(٦) في الديوان : مناره .   (٧) في ط ، ق : مثبر ، وفي الديوان : صبير ، وفي س : صبر وصنبر . وأرجح ما أثبت عن معجم ما استعجم : ٨٨٤ .   (٨) في الديوان : وتسير .
(٩) في الديوان ، س : من لجة غمر .   (١٠) المختار من شعر بشار : ٢٦٤ .
(١١) رقأ الدمع : جف وسكن .   (١٢) في المختار : ميادينها وسطحن .
(١٣) في المختار : وساحاتها وسطهن .

ترى الريح تَنْسِج من مائه[١] دُرُوعاً مضاعفةً أو شَبَكْ
كأن الزجاجَ عليها أذيبَ وماء اللُّجَيْنِ بهـا قد سُبِكْ
هى الجوُّ من رِقّة غـير أنَّ مكانَ الطيورِ يَطيرُ السَّمَكْ
وقد نُظِمَ الزهر نَظْمَ النجوم فمفترق النَّظم أو مشتبك
كما درَّج المـاء مَرُّ الصَّبا ودبَّجَ وجهَ السماء الحُبُكْ
يُبَاهِين أعـلام قُمص القِيان ونَقْشَ عَصَائبها والتِّكَكْ[٢]

وأخذ قوله : * إذا النُّجوم تراءتْ فى جَوانبها * فقال :

ولـمّا تعالى البدرُ وامتدَّ ضوءهُ بدجلة فى تشرين فى الطّولِ والعَرْضِ
وقد قابل المـاء المفضّض نورهُ وبعضُ نجوم الليل يَقْفُو سَنَا بَعْضِ
توهَّم ذُو العين البصـيرة أنهُ يرى باطن الأفلاكِ مِنْ ظاهرِ الأرضِ

ولأهلِ العصر فى هـذا النَّحوِ كلامٌ كثير : قال الأمير أبو الفضل الميكالى ، يصف بركة وقع عليها شعاع الشمس فألقته على مَهْوٍ[٣] مطلّ عليها يقول :

أما ترى البركة الغراء قد لبسَتْ نوراً من الشمس فى حافاتها سطعَا
والمَهْوُ من فوقها يُلْهيك منظرُهُ كأنهُ ملكٌ فى دَسْتِه ارتفَعَا[٤]
والمـاء من تحته ألقى الشعاع على أعلى سمـاواته فارتجّ مُلْتَمِعا
كأنه السيفُ مصقولًا تُقَلّبُه كفُّ الكمىّ إلى ضَرْبِ الكمىّ سَعَى

وقال على بن محمد الإيادى يمدح المعزّ ويصف دار البحر بالمنصورية :

الإيادى يصف دار البحر

ولـما استطال المَجْدُ واستولت البُنى على النَّجْم واشتدَّ الرواق المروّقُ[٥]
بنى قبـةً للملك فى وَسْطِ جَنّةٍ لها منظرٌ يُزهى به الطَّرْفُ مُونِقُ
بمشنوقة الساحات أمَّا عِراصُها فخضرٌ وأمّا طيرها فهى نُطّقُ

(١) فى المختار ، س : من مائها . (٢) القمص : جمع قميص . والتكة : رباط السراويل ، وجمعها تكك . (٣) فى ط : بهو ، وهذا من ق ، س . والمهو : الحصى الأبيض .
(٤) فى ط : والبهو . والدست : صدر البيت . (٥) بيت مروق : له رواق .

تحفّ بقَصْرٍ ذى قُصُورٍ كأنما ... ترى البحر فى أرجائه وهو مُتأَقُ(١)

له بِركَةٌ للماء مِلْء فضائه ... تَخُبُّ بقصريها العيون وتُعنق(٢)

لها جَدْوَلٌ يَنْصَبُّ فيها كأنه ... حُسامٌ جَلَاه القَيْن بالأرضِ مُلْصَقُ

لها مَجْلِسٌ قد قام فى وَسْط مائها ... كما قام فى فَيْضِ الفراتِ الخَوَرْنَق(٣)

كأنّ صفاء الماء فيها وحُسْنَه ... زُجاجٌ صَفَتْ أرجاؤه فهو أزرقُ

إذا بثّ فيها الليلُ أشخاصَ نَجْمِه ... رأيتَ وجوهَ الزِّنج(٤) بالنارِ تُحْرَقُ

وإن صافَحَتْها الشمسُ لاحَتْ كأنها ... فِرِنْدٌ على تاج المُعِزِّ ورَوْنَقُ

كأنّ شُرافات القَاصر حولها ... عَذارى عليهنّ المُلَاء المُمَنْطَقُ

يذوب الجفاء الجمْد عن وَجْهِ مائها ... كَذاب آلُ الصَّحْصَحانِ(٥) الرَّقْرَقُ

النهشلي يصف موضعا

وقال عبد الكريم بن إبراهيم :

يارُبَّ فتيان صِدْقٍ رُحْتُ بينهمُ ... والشمس كالدَّنِف المشوقِ(٦) فى الأُفُقِ

مَرْضَى أصائلُها حَسْرَى شمائلُها ... تروّح الغُصُن المَطْور فى الوَرَقِ

مُمَاطِيا شمسَ إبريقٍ إذا مُزِجَتْ ... تقلّدَتْ عِقْدَ مرجان من الزَّرَقِ

عن ماجِلٍ طافح بالماء مُغْتَلِج ... كأنما(٧) نَفْسُه صِيغَتْ من الحَدَقِ

تَضُمُّهُ الرِّيحُ أحيانا وتَفْرِقُهُ ... فالماء ما بَيْنَ محبوس ومُنْطَلِقِ

مِنْ أخضر ناضرٍ والظِّلُّ يلحقه ... وأبيض تحت قيظ الضُّحَى يَقَقِ

تهزُّهُ الريحُ أحيانًا فيمنحُها ... للزَّجْر خَفْقَ فؤادِ العاشقِ القَلِقِ

كأنّ حافاتِه نُطِّقن من زَبَدٍ ... مُنَاطقًا رُصِّعَتْ مِنْ لؤلؤ نَسَقِ

---

(١) أتأقه : ملأته . (٢) العنق والخبب : من أنواع السير، والفعل من الأول أعنق : سارع وأسرع . (٣) الخورنق : اسم قصر . (٤) فى س : الماء .

(٥) هكذا فى كل الأصول ، والآل : السراب . والصحصحان : موضع بين حلب وتدمر .

(٦) الدنف : المريض ، وفى س : كالدنف المشغوف . (٧) فى س : كأن نفسه .

كأن قُبّتَه من سُنْدُسٍ نمطٍ(١) … حسناء مجلوّةَ اللَّبّاتِ والعُنُقِ
إذا تبلّج فَجْرٌ فوق زُرْقتـهِ … حسبته فرساً دهماء في بَلَقِ
أو لا زَوَرْدًا جَرَى في مَتْنِهِ ذَهَبٌ … فلاحَ في شارقٍ من مائه شرِقِ
عشية كملت حُسنا وساعدَها … ليـلٌ يمُدّدُ أطنابًا على الأفُقِ
تجلى بغُرّةِ وَضّاح الجَبِين له … ما شئتَ من كرمٍ وافٍ ومن خُلُقِ

ألفاظ لأهل العصر في وصف الماء وما يتصل به

ماء كالزُّجاج الأزرق . غديرٌ كعين الشمس . موَارد كالمبَارِد ، وماء كلِسَان الشمعة ، في صفاء الدمْعَة ، يسبح في الرَّضْرَاض سَبْحَ النَّضْنَاض(٢) . ماء أزرق كمَتْنِ السَّنّور ، صاف كقضيب البلّور . ماء إذا مسَّتْه يَدُ النسيم حكى سَلاسِلَ الفضة . ماء إذا صافحته رَاحةُ الريح لبِسَ الدِّرْعَ كالمسيح . كأنّ الغديرَ بتراب الماء رِدَاءٌ مُصَنْدَل . بركة كأنها مرآة السماء . بركة مفرُوزَةٌ(٣) بالخضرة ، كأنَّها مِرْآة مجلوّة ، على ديباجة خضراء . برْكَةُ ماء كأنها مِرْآةُ الصَّنَاع(٤) . غدير ترقرقت فيه دموع السحائب ، وتواتَرَتْ عليـه أنفاسُ الرياح الغرائب . ماء زُرق جِمَامُه ، طامية أرْجاؤه ، يَبُوحُ بأسْرَاره صَفَاؤه ، وتلوحُ في قراره حَصْبَاؤه . ماء كأنما يفقده مَنْ يَشْهَدُه ، يتَسَلْسَل كالزّرافين(٥) ، ويرضع أوْلاد الرَّياحين . انحلّ عقد السماء ، ووَهَى عقد الأنواء . انحلّ سلكُ القطر عن دُرّ البَحْر . أسْعَد السحاب جفونَ العُشّاق(٦) ، وأكفَّ الأجواد ، وانحـلَّ خَيْطُ السماء ، وانقطع شِرْيَانُ الغَمَام . سحابة يتجلّى عليها ماء البحر ، وتفضّ علينا عقودَ الدّر . سحابٌ

(١) في س : في سندس نمط . (٢) حية نضناض : لا تستقر في مكان ، أو إذا نهشت قتلت من ساعتها ، أو التي أخرجت لسانها تنضنضه أي تحركه . (٣) ثوب مفروز : له تطاريف.
(٤) الصناع : المرأة الماهرة فيما تصنع . (٥) الزرافين : الحلق .
(٦) أسعد : من الإسعاد ، وهو المشاركة في البكاء .

حكى المحبَّ فى انسكاب دموعِه ، والتهاب النارِ بين ضُلُوعِه . سحابة تحدو من الغيوم جِمالًا ، وتمدُّ من الأمطار حِبالا . سحابة ترسلُ الأمطارَ أمواجاً ، والأمواجَ أفواجاً . تحلّت عقد السماء بالدِّعـقِ الهَطّلاء . غيث أجشُّ[1] يروى الهضاب والآكام[2] ، ويُحيى النبات والسوام . غيثٌ كغزارة فَضْلِك ، وسلامة طبعك ، وسلامة عقدك ، وصفاء وُدِّك . وَبْل كالنيل . سحابة لاتجفُّ جفونُها ، ولايخفتُ أنينها . دِيمة روّت أديمَ الثرى ، ونبهت عيونَ النَّوْرِ من الـكَرى . سحابةٌ ركبت أعناق الرياح ، وسحّت كأفْوَاه الجِراح . مطر كأفْوَاه القِرَب ، ووَحـل إلى الرُّكب ؛ أندِيَة مَنَّ الله معها على البيوت بالثُّبُوت ، وعلى السقوف بالوُقُوف . أقبَـل السَّيْلُ يَنْحَدِرُ انحدارا ، ويحمل أحجاراً وأشجارا ، كأن به جِنّة ، أو فى أحشائه أجِنّة .

وبعض مامرّ من هذه الألفاظ محلول نظامما تقدّم إنشاده .

ولهم فى مقدمات المطر

لبست السماء جلبابها ، وسحبت السَّحَائِبُ أذيالهـا . قد احتجبت الشمسُ فى سُرَادِقِ الغَيم ، ولبس الجوُّ مُطْرَفه[3] الأدْكَن . باحت الريحُ بأسْرَارِ النَّدَى ، وضربت خَيْمَة الغمام ، ورشّ جيش النسيم ، وابتلّ جناحُ الهواء ، واغرورقت مُقْلَةُ السماء ، وبشر النسيم بالنّدَى ، واستمدّت الأرضُ للقطر . هبّتْ شمائِلُ الجَنَـائِب ، لتأليف شَمْل السَّحَائب . تألفت أشتاتُ الغيوم ، وأسبلت الستور على النجوم .

وفى الرعد والبرق

قام خطيبُ الرَّعْدِ ، ونبض عِرْقُ البَرْقِ . سحابة ارتجزت رَوَاعدها ، وأذهبت ببروقها مطاردها . نطـقَ لسانُ الرَّعْد ، وخفق قَلْبُ البرق . فالرَّعْدُ ذُو صخَب ،

---

(١) الأجش : الغليظ الصوت من الإنسان ومن الرعد وغيره .

(٢) الآكام : جمع أكمة وهى التل . (٣) المطرف : رداء من خز مربع ذوأعلام .

والبَرْقُ ذو لَهَب . ابتسم البَرْقُ عن قَهْقَهة الرعد. زأرت أُسْدُ الرّعد، ولمت سيوفُ البَرْقِ . رعدت [سيوفُ][(١)] الغمائم وبَرَقَتْ ، وانحلّت عَزَالِي[(٢)] السَّمَاء فطبقت . هَدَرَتْ رَوَاعدها ، وقربت أبَاعِدها ، وصدقت مَوَاعدها . كأنّ البرق قَلْبُ مَشُوق، بين التهاب وخُفُوق .

ويتصل بهذه الأنحاء

ماحكاه عمر بن علي المطوّعي قال : رأى الأميرُ السيد أبو الفضل عبيد الله بن أحمد — أدام الله عزه — أيام مقامه بجُوَيْن[(٣)] أن يطالع قرية من قرى ضِيَاعِيـــه تدعى نَجَاب[(٤)] على سبيل التنزّه والتفرّج[(٥)] ، فكنتُ في جملة من استصْحَبَه إليها من أصحابه ، واتّفق أنّا وصلنا والسماء مُصْحِيَة ، والجوّ صاف لم يطرّز ثوبه بعلَم الغَمَام ، والأفق فيروزج لم يَعْبَقْ به كافورُ السحاب ؛ فوقع الاختيار على ظلّ شجرةٍ باسقةِ الفروع ، متّسِقَةَ الأوْرَاق والغصون ، قد سترت ما حواليْهَا من الأرْضِ طولا وعَرْضاً ، فنزلنا تحتها مستظلّينَ بِسَمَاوَةِ[(٦)] أفْنَانِهـــا ، مستَتِرِينَ من وَهَج الشمس بِستارة أغصانها ، وأخذْنَا نتجاذبُ أذْيالَ المُذاكرة ، ونتَسَالب أهْدَابَ المُنَاشَدَة والمحاورة؛ فما شعرنا بالسماء إلا وقد أرْعَدَتْ وأبرقت، وأظلمَتْ بعد ما أشرقت، ثم جادَتْ بِقطرٍ كأفْوَاهِ القِرَب فأجادَتْ ، وحَكَتْ أنَامِلَ الأجْوَادِ ومدامع العُشّاقِ ، بل أوْفَتْ عليها وزادت ، حتى كاد غيثُها يعودُ عَيْثا[(٧)]، وهمّ وَبْلُها أن يستحيلَ وَيْلاً ؛ فصبرنا على أذَاها ، وقُلنَا : سَحَابَةُ صَيْفٍ عما قليلٍ تَقَشّع، فإذا نحنُ بها قد أمطرتنا

(١) من س . (٢) العزالي : مصاب الماء . (٣) جوين : كورة بخراسان .
(٤) الضبط من س. (٥) في س : التفرج . (٦) السماوة : السماء ، والسقف .
(٧) العيث : الإفساد .

بَرَداً كالثُّغُورِ ، لكنها من ثغور العَذَاب ، لا من الثغور العِذَاب ، فأيقنّا بالبَلاء ، وسلّمنا لأسباب القضاء ؛ فامرت الإساعةُ من النهار ، حتى سمعنا خَرِيرَ الأنهار ؛ ورأينا السَّيْلَ قد بلغ الزُّبَى ، والماءَ قد غمَرَ القِيعان والرُّبَى [1] ؛ فبادرنا إلى حِصْن القرية لائذين من السَّيْل ... بها ، وعائذين من القطر بأبنيتها ، وأثوابنا قد صَنْدَل كافوريَّها ماء الوَبْل ، وعلَّف طِرازيَّها طِينُ الوَحْل ، ونحن نحمدُ اللهَ تعالى على سلامةِ الأبدان ، وإن فقدنا بياضَ الأكمام والأردان ، ونشكره على سلامةِ الأنفس والأرواح ، شُكرَ التاجر على بقاء رأس المــال إذا فُجِع بالأرباح ؛ فبتنا [2] تلك الليلة في سماء تكِفُ ولا تكُفُ [3] ، وتبكي علينا إلى الصباح بأدمع هَوّام ، وأربعة سِجَام ؛ فلما سُلَّ سيفُ الصبح من غِمد الظلام ، وصُرِفَ بِوالى الصحو عامِلُ الغَمام ، رأينا صوابَ الرأى أن نُوسِع الإقامة بها رفضاً ، ونتخذ الارتحالَ عنها فَرْضاً ؛ فما زِلْنا نطوى الصحارى أرضاً فأرضاً ، إلى أن وافينا المستقر رَكضاً ؛ فلما نَفَضْنا غُبارَ ذلك السير ، الذى جمعنا في رِبْقَة الأسير ، وأفضَيْنا إلى ساحةِ التيسير ، بعــد ما أُصِبْنا بالأمر العسير ، وتذاكرْنا ما لقينا من التعب والمشقّة ، في قطــع ذلك الطريق وطَىّ تلك الشُّقة ، أخذ الأمير السيد أطال الله بقاءَه القلم فعلق هــذه الأبيات ارتجالا :

دَهَتْنَا السماءُ غَدَاةَ السَّحَاب	بغيثٍ على أُفْقِهِ مُسْبِلِ
فجاءَ بِرَعْدٍ له رَنَّةٌ	كَرَنَّةِ ثَكْلَى ولم تثكلِ
وثنَّى بوَبْلٍ عدَا طَوْرَهُ	فعاد وَبَالاً على المُمْحِلِ [4]
وأشرفَ أصحابُنا مِنْ أذَاهُ	على خَطَرٍ هائلٍ مُعْضِلِ

---

(١) الزبية : الرابية لا يعلوها ماء . والقاع : السهل المطمئن من الأرض ، والربى ، جمع ربوة : المرتفع من الأرض . (٢) في س : في تلك . (٣) تكف : تسيل ، وتكف : تمتنع .

(٤) في س : المجل .

فمِنْ لائذٍ بِفناء الجدار ... وآوٍ إلى نَفَقٍ مُهْمَلِ
ومن مستجيرٍ يُنادي: الغريقَ ... هناك ، ومن صارخٍ مُعْوِلِ
وجادَتْ علينا سَمَاء السقوف ... بِدَمْعٍ من الوَجْدِ لم يُهْمَلِ
كأنَّ حَرَاماً لهـا أن تَرَى ... يَبيساً من الأرض لم يُبْلَل
وأقبَـلَ سيْلٌ له رَوْعةٌ ... فأدْبرَ كُلٌّ عن المُقْبِلِ
يُقلِّعُ ما شاء من دَوْحَة ... وما يلقَ من صخرَةٍ يحمل
كأنَّ بأحْشائه إذ بَدَا ... أجنّةَ حُبْلَى ولم تحبـل(١)
فمِنْ عامرٍ ردَّهُ غامراً(٢) ... ومن مَعْلَمٍ عادَ كالمَجْهَل
كَفانا بليَّته ربُّنـا ... فقد وجب الشكْرُ للمُفْضِلِ
فقل للسماء ارعُدى وابْرُقى ... فإنّا رجعنـا إلى المَنْزِلِ

أخذ المطوعى قوله : « فلمـا سلَّ سيف الصبح من غمد الظلام » من قول أبي الفتح البستى :

رُبَّ ليـلٍ أغمد الأنوار إلّا ... نورَ ثَغْرٍ أو مدام أو ندام
قد نعمنا بدَيَاجيه إلى أن ... سُلَّ سيفُ الصبحِ من غِمْدِ الظلام

[وقال بعض أهل العصر ، وهو أبو العباس الناشئ](٣):

خليليَّ هل للمُزنِ مُقْلةُ عاشقٍ ... أم النار في أحشائِها وهى لا تَدْرى
أشارتْ إلى أرض العراقِ فأصبحتْ ... وكاللؤلؤ المنثورِ أدْمُعُها تجْرِى
سحابٌ حكَتْ ثَكْلَى أُصيبَتْ بواحد ... فعاجَتْ له نحوَ الرياضِ على قَبْرِ
تَسَرْبل وشْياً من خُزوزٍ تطرّزَتْ ... مَطارِفها طرزاً من البَرْق كالتِّبْرِ
فوَشْيٌ بلا رقمٍ ورقمٌ بلا يَدٍ ... ودمْعٌ بلا عَيْنٍ وضِحكٌ بلا ثَغْرِ

---

(١) في س : تحمل . (٢) غامر : خراب . (٣) ساقط من ط .

وقال آخر :

أرقتُ لبرقٍ شديد الوَميض ... تَرَاءَى غواربه بالشُّهب

كأنّ تألّقــه في السماء ... سطورٌ كُتِبْنَ بمــاء الذهب

وقال ابن المعتز[١] :

كأنّ الرَّباب الجون دون سَحابهِ[٢] ... خليع من الفِتْيان يسحبُ مِئْزَرا

إذا لحقته خيفة من رعودهِ[٣] ... تلفّتَ واستلّ الحسام المُذَكَّرا

وقد قال حسان بن ثابت :

كأن الرَّباب دُوَيْن السَّحاب ... نَعــامٌ تعــلَّقَ بالأرجــل

وقال ابن المعتز[٤] :

باكية يضحكُ فيهــا بَرْقُهــا ... موصلةٌ[٥] بالأرض مُرْخَاةُ الطُّنُبْ

رأيت فيهــا برقها منــذ بدا ... كمثل طرفِ العين أو قَلْبٍ يَجِب[٦]

جرت بها ريحُ الصَّبا حتى بدا ... منها لي البرق كأمثالِ الشُّهب

تحسبه طوراً إذا ما انصدعَتْ ... أحشاؤُها عنه شُجاعاً يضطرب[٧]

وتارةً تحسبـــه[٨] كأنّهُ ... أبلق مَالَ جُلُّه حين وَثَب[٩]

وتارةً تحسبـــه[١٠] كأنّهُ ... سلاسل مَفصولة[١١] من الذهب[١٢]

---

(١) ديوانه : ١ — ٣٢ . (٢) الرباب : السحاب . والجون : الأسود والأبيض ، وفي ق: سحامه. والسحام السواد، وفي س : سحابة . (٣) في الديوان : روعة من ورائه .

(٤) ديوانه : ١ — ١٢ . (٥) في الديوان : موصولة . (٦) في الديوان : لما وثب. ويجب : يضطرب ، وفي س : مذ بدت . (٧) رواية البيت في الديوان :

إذا تعرى البرق فيهــا خلته ... بطن شجاع في كثيب يضطرب

(٨) في الديوان : تبصره . (٩) البلق: سواد وبياض ، وارتفاع التحجيل إلى الفخذين . والجل : ماتلبسه الدابة لتصان به . (١٠) في الديوان : تخاله إذ بدا .

(١١) في الديوان ، س : مصقولة . (١٢) رواية هذا البيت في س :

حتى إذا مارفع الآل الضحى ... سبته سلاسلا من الذهب

وقالَ الطائي[١] :

يا سهمُ[٢] للبَرْقِ الذى استطارا   صار على رغم الدُّجى نهارا
آضَ لنا ماءً وكان نارا[٣]

وينشد أصحاب المعانى :

نارٌ تجــدد للعينين نضرتها   والنارُ تلفحُ عيــدانا فتحترق

وقال ابنُ المعتز يمدح الشُّرْب فى الصَّحْوِ ويذمّه فى المطر :

أنا لا أشتهى سماء كبطن الـ   ـعَيْرِ والشرب تحتها فى خرابِ
بين سَقْفٍ قد صار مُنخلَ ماء   وجــدارٍ ملقًى وتلٍّ ترابِ
وبيــوت يوقِّع الوَكْف فيهـ   ـنَّ وإيقاعُهُ بغــيرِ صــوابِ
إنمــا أشتهى الصَّبوحَ على وَجْـ   ـهِ سماء مَصقولة الجلبابِ
ونسيم مِنَ الصَّبا يتمشّى   فوق رَوْضٍ نَدٍ جديدِ الشبابِ
وكأنّ الشمس المضيئة دينـا   رٌ جَلَتْه حدائدُ الضرّابِ
فى غداة وكأسُها مثــلُ شمسٍ   طلَعَتْ فى مُلاءة من سَرابِ
أو عروس قد ضُمِّخت بخلوقٍ   فهى صفراء فى قميص حَباب
وغنــاء لا عُذْر للعودِ فيــهِ   يتَندّى الأوتارِ والمضراب
ونقاء البساط من وَضَرِ الطيـ   ـن ومسْحِ الأقدام فى كلّ بابِ
ونشاط الغلمان إن عرضَتْ حا   جاتنا فى مجيئهم والذهابِ
وجفاف الريحان والنرجس الغـ   ـضّ بأيدى الخلانِ والأصحابِ
لا تنــدّى أنوفَهم كلما حَيَّوْا   بضغث ندى أنوف الــكلاب
ذاك يومٌ أراه غنما وحظاً   مِنْ عَطاء المُهيمنِ الوهّابِ

---

(١) أبو تمام ، ديوانه : ٤١٨ .   (٢) فى ق : بأسهم البرق ، وفى س : ياسهم البرق .
(٣) آض : رجع وصار .

وقال الصنوبرى :

أنيس ظباء بوحش الظبا ... وصبغ حَيًا مثل صبغ الحيا

ويوم تكلله الشمس من ... صَفاء الهوى وصفاء الهوا

بشَمْسِ الدِّنان وشمسِ القِيانِ ... وشمسِ الجِنانِ وشمسِ السَّما

وشبيه بالأبيات التى كتبها ثعلب إلى أبى العباس بن المعتز لجميل[1] قول الآخر :

وما وَجْد مِلْوَاح من الهيم حُلِّيت ... عن الوِرد حتى جَوفها يتصلْصَلُ[2]

تَحُوم وتَغْشاها العصىُّ وحَوْلها ... أقاطيع أنعامٍ تَعُلُّ وتَنْهَلُ

بأكثرَ مِنِّى لوعةً وصبابةً ... إلى الوِرْد إلَّا أنَّنى أتجمَّلُ

وقال أبو حيّة النميرى :

كَفَى حَزَنًا أنِّى أرَى الماء معرَضا ... لعينى ولَكِنْ لا سبيلَ إلى الوِرْدِ

وما كنت أخْشَى أن تكون منيتى ... بكفِّ أعزِّ الناسِ كلهم عِنْدى

[وصف أخ لابن المقفع]

قال ابنُ المقفَّع : كان لى أخٌ أعظم الناس فى عينى ، وكان رَأْس ما عظَّمه فى عينى صِغَرَ الدنيا فى عينه ، وكان خارجا من سلطان بَطْنه ، فلا يشتهى ما لا يجد ، ولا يُكْثِر إذا وجد ، وكان خارجاً من سُلْطانِ فَرْجه ، فلا تدعوه إليه مؤنة[3] ، ولا يستخفُّ له رأيا ولا بدنا . وكان لا يتأثر عند نِعْمَة ، ولا يستكينُ عند مصيبة . وكان خارجاً من سُلْطانِ لسانه ، فلا يتكلَّمُ بما لا يعلم ، ولا يُمارِى فيما علم ، وكان خارجاً من سُلْطانِ الجهالة ، فلا يتقدَّم أبدا إلا على ثقة بمنفعة[4] ، وكان أكثر دَهره صامتا ، فإذا قالَ بَزَّ القائلين[5] ، وكان ضعيفا مستَضْعَفا ، فإذا جدَّ الجدُّ فهو اللَّيْثُ

(١) هكذا بكل الأصول . (٢) الملواح : العطشان . والهيم جمع هيماء : وهى التى تهيم فى الأرض . ويتصلصل : يصوت . (٣) فى س : فلا يدعو إليه مؤنة . (٤) فى ط : بنفسه .
(٥) بز : غلب ، بالذال والزاى .

عاديا . وكان لا يدخل فى دَعْوَى، ولا يُشارِكُ فى مِرَاء، ولا يُدْلى بِحُجَّةٍ، حتى يرَى قاضيا فَهِما وشهودا عُدُولا . وكان لا يلومُ أحداً فيما يكونُ العُذْرُ فى مثله حتى يعلمَ ما عُذْرُه .

وكان لا يَشْكُو وجعه إلّا عند مَنْ يرجو عنده البُرْء ، ولا يستشيرُ صاحبا إلا أنْ يرجوَ منه النصيحة . وكان لا يتبرّم ولا يتسخّط ، ولا يتشكّى ولا يتشهّى ، ولا ينتقم من العدوّ ، ولا يَغْفُل عن الولىّ ، ولا يَخُصُّ نفسه بشىء دون إخوانه من اهتمامه وحيلته وقُوّتِه . فعليك بهذه الأخلاق إنْ أطقتها ، ولَنْ تطيق ، ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع .

وعلى ذكر قوله : « وإن قال بَزَّ القائلين » . قال ابن كناسة ، واسمه محمد بن عبد الله ، ويكنى أبا يحيى ، فى إبراهيم بن أدهم الزاهد :

رأيتُك لا تَرْضَى بما دونه الرضا	وقد كان يَرْضَى دون ذاكَ ابنُ أدْهَما
وكان يَرَى الدُّنْيَا صغيراً عَظيمُها	وكان لِأمْرِ اللهِ فيها مُعَظِّمَا
وأكْثَرُ ما تلْقَاهُ فى النـاس صامتا	وإنْ قال بَزَّ القائلين فأفْحَمَا
يُشِيعُ الغِنَى فى الناسِ إن مسّهُ الغِنَى	وتلق به البأساء عيسى ابْنَ مريما
أهانَ الهوى حتى تجنّبَه الهوى	كما اجتنب الجانى الدم الطالبَ الدّما

ألفاظ لأهل العصر فى ذكر التقى والزهد

فلان عَذْبُ المَشْرب ، عَفُّ المَطْلَب ، نَقِىُّ الساحة من المآثم ، بَرِىء الذمة من الجرائم ، إذا رضى لم يَقُلْ غيرَ الصدق ، وإذا سخط لم يتجاوَزْ جانبَ الحق ، يرجعُ إلى نفسٍ أمّارة بالخير ، بعيدةٍ من الشر ، مدلولةٍ على سبيل البِرّ ؛ أعْرَضَ عن زِبْرِجِ[1] الدنيا وخُدَعها ، وأقبل على اكتساب نِعَم الآخرة ومُتَعِها . كَفَّ كَفَّه

(١) أصل الزبرج : الزينة من وشى أو جوهر أو الذهب .

عن زُخْرف الدنيا ونَضْرَتها ، وغَضَّ طَرْفَه عن متاعها وزَهْرتها ؛ وأعرض عنها وقد تعرَّضَت له بزينتها ، وصدَّ عنها وقد تصدَّت له في حِلْيتها .

فلانٌ ليس ممن يَقِف في ظِلّ الطمع ، فيُسِفّ إلى حَضيض الطَبَع[1] ، نَقِيّ الصحيفة، عَلِيٌّ[2] عن الفضيحة، عَفّ الإزار، طاهرٌ من الأَوْزار، قد عاد لإصلاح المعاد ، وإعداد الزاد .

* * *

ابن المقفع وكان ابنُ المقفع من أشراف فارس، وهو من حكماء زمانه، وله مصنّفات كثيرة، ورسائلُ مختارة ؛ وكان مُحْجِماً عن قول الشعر، وقيل له : لِمَ لا تقولُ الشعر ؟ فقال : الذي أرضاه لا يَجيئني والذي يجيء لا أرضاه .

أخذ هذا بعضهم فقال :

أبى الشعرُ إلَّا أنْ يَفِىءَ رَدِيئُهُ إلىَّ ويَأْبَى منه ما كَانَ مُحْكَما
فياليتنى إذْ لم أجِدْ حَوْكَ وَشْيِهِ ولم أكُ من فُرْسانه كنت مُفْحَما

وكان ظريفا[3] في دينه ، وذكر أنه مرّ ببيت النار ، فقال :

يا بيتَ عاتكةَ الَّذى أتعزَّلُ حَذَرَ العِدَا وَبِه الفؤادُ مُوَكَّلُ
أصبحتُ أمنحك الصدودَ وإننى قَسَما إليك مع الصدود لأَمْيَلُ

البيتان للأحوص بن محمد بن عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح[4] الأنصاري أخي بني عمرو بن عوف. وعاصم بن ثابت حَمِيّ الدَّبْر[5] قتله بنو لحيان من هُذَيل يوم الرَّجيع، فأرادوا أن يَبْعثوا برأسه إلى مكة . وكانت سلافة بنتُ سعد نذرت لَتَشْرَبَنّ في رأسه الخَمْر، وكان قتل بعضَ ولدها من طلحة بن أبي طلحة أحد بني عبد الدار يوم أُحُد، فلما

(١) الطبع : العيب . وفي ق ، س : حضيض التصنع . (٢) في ط : علا .
(٣) في س : ضنينا . (٤) الأفلح بالفاء في س ، وهــذا عن اللآلي : ٧٣ ، والشعراء : ٤٩٩ . (٥) الدبر : النحل والزنابير .

أرادوا أَخْذَ رأسه حته الدَّبْرُ — وهى النحل — فلم يَجِدُوا إليـه سبيلا ، وجعلوا يقولون : إنّ الدَّبر لو قد أمسى حِرْنا إلى حَشْوِ استه ، فلما أمسوا بعثَ الله أتِيًّا[1] فواراه منهم .

وعاتكة التى ذكر هى عاتكةُ بنت يزيد بن معاوية .

[ألطف تعريض]

ولما دخلَ أبو جعفر المنصور المدينة قال للربيع : ابْغِنى رجلا عاقلا عالما بالمدينة ليَقِفَنى على دُورِها؛ فقد بَعُدَ عَهْدِى بديار قومى؛ فالتَمسَ له الربيع فتًى من أعقل الناس وأعلمهم ، فكان لا يبتدِيء بإخْبارٍ حتى يسأله المنصور فيجيبه بأحْسَن عبارة ، وأجودِ بيان ، وأوفى معنى ؛ فأعْجِب المنصور به ، وأمر له بمالٍ فتأخّر عنه ، ودعته الضرورة إلى استنجازه ، فاجتاز ببيت عاتكة ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ هـذا بيت عاتكة الذى يقول فيه الأحوص « يابيت عاتكة الذى أتعزّل » . . . البيت . ففكر المنصور فى قوله وقال : لم يُخالف عادته بابتداء الإخبار دون الاستخبار إلا لأمر . وأقبل يردّد القصيدة ويتصفحها[2] بيتا بيتا حتى انتهى إلى قوله فيها :

وأراكَ تَفْعَلُ ما تقولُ وبعضُهم مَذِقُ اللسان يقولُ مالا يَفْعلُ[3]

فقال : يا ربيع ؛ هل أوصلت إلى الرجلِ ما أمَرْنا له به ؟ فقال : أخَّرْتُه عنه لعلّة — ذكرها الربيع ، فقال : عَجِّلْه له مضاعفا .

وهذا ألطف تعريض من الرجل ، وحُسْنُ فهم من المنصور .

[الحسد والحساد]

ومن كلام ابن المقفع : الحاسدُ لايزالُ زارِيًا على نعمة الله ولا يجِدُ لها مَزَالًا[4]، لابن المقفع ومكدِّرا على نفسه ما به من النعمة فلا يجِدُ لها طَعْما، ولايزالُ ساخطا على مَن لا يترضَّاه،

(١) الأتى : السيل . (٢) فى ط : وينفضها . (٣) مذق اللسان : يمزج الجد بالهزل .
(٤) زاله من مكانه وأزاله .

ومتسخِّطا لما [لا][1] ينال ، فهو كَظُوم[2] هَلُوع جَزُوع، ظالم أشبه شيء بمظلوم ، محروم الطِّلبَة[3] ، منغَّص المعيشة ، دائم التسخّط ، لا بما قُسِمَ له يَقْنَع ، ولا على ما لم يُقسَم له يغلب ، والمحسودُ يتقلّب في فَضْلِ نعم الله مباشرا للسرور ، مُمَهَّلًا فيه إلى مُدّةٍ لا يقدر الناسُ لها على قَطْعٍ ولا انتقاص ، ولو صبر الحاسِدُ على ما به لكان خيراً له ؛ لأنه كلما أراد أنْ يُطفِىءَ نورَ الله أعلاهُ ، وَيأْبَى اللهُ إلّا أنْ يتمّ نورَه ولو كَرِهَ الكافرون .

لبعض الشعراء في الحسد

قال الطائي[4] :

لولا التَّخَوُّفُ للعَوَاقِبِ لم تَزَلْ ... لِلْحاسدِ النُّعْمَى على المحسودِ
وإذا أراد الله نَشْرَ فضيلةٍ ... طُوِيَتْ أتاحَ لها لسانَ حَسُودِ
لولا اشتعالُ النارِ فيما جاوَرَتْ ... ما كان يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ

أخذه البحتري فقال[5] :

ولَنْ تَستَبِينَ الدَّهْرَ مَوْضِعَ نِعْمَةٍ ... إذَا أنْتَ لم تُدْلَلْ عليها بحَاسِدِ

ولقد أحسنَ القائل[6] :

إن يحسدوني فإني غيرُ لائمهمْ ... قَبْلِي من الناس أهْلُ الفضلِ قد حُسِدُوا
فدام لي ولَهُمْ ما بي وما بِهِمْ ... ومات أكثرُنا غَيْظًا بما يَجِدُ
أنا الذي يَجِدُوني في صدورِهِمُ ... لا أرْتَقِي[7] صَدَرًا عنها ولا أَرِدُ

وقال ابن الرومي لصاعد بن مَخْلَد[8] :

وجَدٍّ لكم لا زَالَ يَسْفُلُ جَدُّهُ ... ولا برِحَتْ أنفاسه تَتَصَعَّدُ
يَرَى زِبْرِجَ الدنيا يُزَفُّ إليكم[9] ... ويُقْصَى عن استحقاقكم فهو يُفْأَدُ[10]

(١) زيادة من ق ، س . (٢) في ق : مكظوم . (٣) الطلبة : ماطلبته .
(٤) ديوانه : ٨٥ ، المختار من شعر بشار : ٦٩ ، النويري : ٣ — ٩٦ ، ٢٨٨ .
(٥) ديوانه : ١٣٦ ، المختار من شعر بشار : ٧٠ . (٦) المختار من شعر بشار : ٦٧ ، القالي : ٢ — ١٩٨ ، النويري : ٣ — ٢٨٧ . (٧) في س ، ق : لا أتقي . (٨) المختار من شعر بشار : ٧٠ . (٩) في الديوان ، س : يرف عليكم . (١٠) فأده : أصاب فؤاده .

ولو قاس باستحقاقكم[1] مامُنِحْتُمُ ... لأطفأَ ناراً في الحَشا تتوقَّدُ[2]
وأنقُ من عِقد العقيلةِ جيدُها ... وأحسن من سِربالها المتجرَّدُ

وقال معن بن زائدة[3] :

إني حُسِدتُ فزادَ الله في حَسَدي ... لا عاشَ مَنْ عاش يوماً غيرَ محسودِ
ما يُحْسَدُ المرءُ إلّا مِنْ فضائلهِ ... بالعلم والظَّرْفِ أو بالبأسِ والجُودِ

ألفاظ لأهل العصر في ذكر الحسد

دَبّتْ عقاربُ الحَسَدَة ، وكمنت أفاعيهم بكلّ مَرْصَدٍ[4] . فلان مَعْجُون من طينة الحسد والمُنافَسة ، مضروبٌ في قالب الضّيق والمناقشة . قد وكلَ بي لَحْظاً يَنْتَضِلُ بأسْهُم الحسد . فلان جَسَدٌ كلّه حسد ، وعقد كلّه حِقد . الحاسدُ يَعْمَى عن محاسن الصُّبح ، بعين تُدْرِكُ حقائقَ القُبح .

[فضل الملوك والوزراء]

تعريض في حاجة للملك الواثق — كتب محمد بن حماد يُعرِّض في حاجةٍ له ببيتي شعر إلى الواثق يقول :

جذبتْ دَواعي النفسِ عن طلبِ المُنَى ... وقلت لها كُفّي عن الطلَبِ المُزْرِي
فإنّ أميرَ المؤمنين بكفِّهِ ... مَدارُ رحًى بالرزق دائبة تَجْرِي

فوقّع تحتهما : جَذْبُك نفسَك عن امتهانها بالمسألةِ دعاني إلى صَوْنِك بِسَعة فضلي عليك ؛ فخُذْ ما طَلَبْتَ هنيئاً .

على باب الحسن بن سهل — قال علي بن عبيدة : أتيت الحسن بن سهل بفم الصلح ؛ فأقمتُ ببابه ثلاثةَ أشهرٍ لا أحْظَى منه بطائل ، فكتبت إليه :

مدحت ابنَ سهل ذا الأيادي ومالهُ ... بذاك يدٌ عندي ولا قَدَم بَعْدُ

---

(١) في المختار ، س : باستيجابكم . (٢) في المختار ، س : في حشاه توقد .
(٣) المختار من شعر بشار : ٦٦ . (٤) في س ، ق : مرصدة .

وما ذَنْبُه ، والناس — إلا أقلَّهم — عيالٌ له إن كان لم يَكُ لي جَـدُّ
سأحمده للناس حتى إذا بَدَا له فيَّ رأيٌ عادَ لي ذلك الحمد

فكتب إليَّ : باب السلطان يَحْتاجُ إلى ثلاث خِلال : عقل وصَبْرٍ. ومال فقلت للواسطة : تؤدّى عنى ؟ قال : نعم . قلت : تقول : لو كان لى مال لأغنانى عن الطلب إليك ، أو صبرٌ لصبرت عن الذُّلّ ببابك ، أو عقل لاستدللت به على النزاهة عن رِفْدك ! فأمر لى بثلاثين ألف درهم .

* * *

من كلام على ابن عبيدة فى الشوق

وقال على بن عبيدة الريحانى يوماً ، وقد رأى جارية يَهْواها : لولا البُقيا على الضمائر لَبُحْنا بما تُجنّه السرائر ، لكن نِيرَان الحُبِّ تُتَدارك بالإخفاء ، ولا تعجل بالإبداء؛ فإن دوامها مع إغلاق أبواب الكِتْمان، وزوالها فى فتح مصارع الإعلان.

وقد قال محمد بن يَزيد الأموى :

لا وحبّيك لا أصا فح بالدّمع مدمعا
من بكى حبّه استرا ح وإن كان مُوجَعا

ومن كلام عليّ بن عبيدة : اجعَل أُنْسَك آخِرَ ما تَبْذُل من وُدِّك ، وصُن[1] الاسترسال منك ، حتى تجدَ له مستحقًا ؛ فإن الأُنْس لِباسُ العِرض ، وتُحفَة الثِّقَة ، وحِبَاء الأكفاء ، وشِعار الخاصّة ، فلا تُخلق جِدّته إلا لمن يعرف قَدْرَ ما بذلت له منك .

وقال : لولا حركاتٌ من الابتهاج أجد حِسَّها عند رؤيتك فى نفسى لا أعرِفُ لها مُثيراً من مظانِّها إلّا مُؤانَستك لى ، أبقَيْت عليك من العناء ، وخفَّفت عنك مؤونة اللقاء ؛ لكنى أجد من الزيادة بك عندى أكثر من قَدْرِ راحتك فى تأخُّرك عنى ، فأضيق عن احْتِمال الخسران بالوَحدة منك .

---

(1) فى ط : ومن .

وقال : لوجلى من طُلُوعِ اللائمة بَكرَ اللقاء أستخِفُّ التجافى مع شدّةِ الشوقِ ، ليَبقى جِدّةُ الحالِ عند من أُحِبُّ دوامَه لى ؛ وردُّ طَرْفِ الشوق باطنا أيْسَر من مُعاناةِ الجفاء مع الودّ ظاهرا .

وقال بعض المحدَثين[1] :

في الشوق لبعض الشعراء

كم استراحَ إلى صبر فلم يُرَحِ ... صَبٌّ إليكم من الأشواق في تَرَحِ[2]
وَكَمْ قَلْبَه من حُزْنٍ فُرْقتكم ... لو يُرْزَق[3] الوصل لم يَقدِرْ على الفَرَحِ

وقال أعرابى :

ألا قُلْ لدارٍ بين أكثبةِ الحمَى ... وذاتِ الغَضَى : جادَتْ عليكِ الهوَاضِبُ[4]
أجِــدّكِ لا آتيكِ[5] إلّا تتابعَتْ ... دموعٌ ، أضاعت ما حفظتُ ، سَوَاكِبُ
ديارٌ تقسّمتْ المُنَى نَحْــوَ أرْضها ... وطاوَعَنى فيهـا الهوَى والحبائبُ
ليـالىَ لا الهجرانُ مُحتكِمٌ بهــا ... على وَصْلِ مَنْ أهْوَى ولا الظنُّ كاذِبُ

[في مجلس الحكم]

تنازع إبراهيم بن[6] المهدى وابن بختيشوع الطبيب بين يدى أحمد بن أبى دُوَاد فى مجلس الحكم فى عقار بناحية السّواد ، فأرْبَى عليه إبراهيم وأغلَظَ له ، فأحفظ ذلك ابنَ أبى دُواد ، فقال : يا إبراهيم ، إذا نازعتَ فى مجلس الحكم بحضرتنا امرأ فلا أعلمنّ أنك رفعتَ عليــه صَوْتا ، ولا أشرْتَ بيد ، وليكن قصدُك أمَمًا ، ورِيحُك ساكنة ، وكلامُك معتدِلا ، مع وفاء مجالس الخليفة حقوقَها من التّعظيم ، والتوقير ، والاستكانة ، والتوجّه إلى الواجب ؛ فإنّ ذلك أشْكَلُ بك ، وأشْمَلُ لمذهبك فى مَحْتَدِك ، وعظيم خَطرك ؛ ولا تعجَلَنّ ؛ فرُبَّ عَجَلة تَهَبُ رَيْثا ،

(١) المختار من شعر بشار : ٢٥٢ (٢) فى ط : يرح .
(٣) فى المختار : إن يرزق . (٤) الأكثبة جمع كثيب : وهو التل من الرمل . والغضى : شجر . والهواضب : السحب الماطرة . (٥) فى س : لا آتاك .
(٦) العقد الفريد : ١ — ٢٧ .

والله يعصمك من خَطَلِ [1] القَوْل والعَمَل ، ويتمُّ نعمتَه عليك كما أتمَّها على أبويك من قبل ، إن ربَّك حَكيم عَليم .

فقال إبراهيم : أصْلَحَكَ اللهُ تعالى ؛ أمَرْتَ بسداد ، وحضَضْتَ على رَشاد ؛ ولَسْتُ عائداً لما يَثْلِمُ مُرُوءتى عندك ، ويُسْقطنى من عينك ، ويُخرجنى من مقدارِ الواجب إلى الاعتذار ، فهأنا معتذرٌ إليك من هذه البادرة اعتذارَ مُقرّ بذنبه مُعْتَرِف بجُرْمه ، ولا يَزال الغضبُ يستفزُّنى بعوادّه ، فيردّنى مثلُك بحِلْمِه ؛ وتلك عادةُ الله عندك وعندنا مِنْك ؛ وقد جعلت حقّى من هذا العقار لابن بختيشوع ، فليتَ ذلك يكون وافيا بأَرْش [2] الجنَايةِ عليه ؛ ولم يتلَف مال أفادَ موعظة ؛ وحَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوكيل .

[مدح أردشير وحكمته]

لما استوثق أمْرُ أردشير بن بابك وجمع ملوكَ الطوائف ، وتمّ له مُلْكه ، جمع الناسَ نخطبهم خطبة حضّ فيها على الألفة والطاعة ، وحذّرهم المعصيةَ ومفارقة الجماعة ، وصفّ الناسَ أربعة صفوف ؛ فخرُّوا له سجّدا ؛ وتكلّم متكلّمهم فقال : لا زلتَ أيها الملك محبوًّا من الله تعالى بعزّ النصر ، ودَرَك الأمل [3] ، ودوام العافية ، وتمام النّعمة ، وحُسْن المزيد ، ولا زلت تتابَعُ لديكَ المكرمات ، وتَشْفَع إليك الذّمامات ، حتى تبلغَ الغايةَ التى يؤْمَنُ زَوَالها ، وتصل إلى دار القرار التى أعدّها الله تعالى لنظرائك من أهْل الزُّلْفَى عنده والمكانة منه ، ولا زال ملكك وسلطانك باقيَيْن بقاءَ الشمس والقمر ، زائدَيْن زيادَة النجوم والأنْهار ، حتى تستوىَ أقْطارُ الأرض كلُّها فى عُلُوّ قَدْرِك عليها ، ونفاذِ أمْرِك فيها ، فقد أشْرَقَ علينا [4] من ضياء نُورِك ما عمّنا عمومَ ضياء الصبح ، ووصل إلينا من عظيم رأفتك ما اتّصل بأنْفُسنا اتصالَ النسيم ؛ فأصبحت قد جمع اللهُ بك الأيدى بعد افتراقها ، وألّف القلوبَ بعد توقّد نيرانها ؛ فضلُك الذى لا يُدْرَك بوصف ، ولا يُحَدُّ بنَعْت .

---

(١) ... : فساد . (٢) الأرش : الدية .

(٣) الدرك — بالتحريك : اللحاق . (٤) فى س : عليها .

فقال أردشير : طوبَى للممدوح إذا كان للمدح مستَحِقًّا ، وللداعى إذا كان للإجابة أهلا .

أى الكنوز أعظم

وقيل لأردشير : أيُّها الملك الرفيع ، الذى حَلَبَ العصور ، وجرَّبَ الدُّهور ، أى الكنوزِ أعْظَمُ قَدْراً ؟ قال : العلم الذى خفَّ محملُه، فَثَقُلَتْ مفارقته ، وكَثُرَتْ مُرافقته، وخَفِىَ مكانه؛ فأُمِنَ من السرق عليه ؛ فهو فى الملأ جَمَال ، وفى الوَحْدَة أنيس ، يُؤْنَسُ به الخَسِيس ، ولا يمكن حاسدَك عليه انتقاله عنك . قيل له: فالمال؟ قال: ليس كذلك. مَحْمِلُه ثَقِيل ، والهمُّ به طَوِيل ؛ إن كنت فى مَلأ شغلك الفِكْرُ فيه ، وإنْ كنتَ فى خَلْوَةٍ أتعبتكَ حراسَتُه .

[سِيَر الملوك]

قال الجاحظ : حدثنى الفضل بن سَهْل ، قال: كانت رسلُ الملوك إذا جاءت بالهدايا يُجْمَلُ اختلافُهم إلىّ ، فتكون المؤمراتُ فيما معهم من ديوانى ، فكنت أسألُ رجلا رجلا منهم عن سِيَرِ ملوكهم ، وأخبار عظمائهم ؛ فسألتُ رسولَ ملك الروم عن سيرة ملكهم ، فقال : يَبْذُل عُرْفه(١)، وجرَّدَ سَيْفَه، فاجتمعت عليه القلوبُ رغبةً ورهبة، لا يُنْظِر جُنْده ، ولا يُحْرِج رعيَّته ؛ سَهْلُ النَّوال ، حَزْن(٢) النكال، الرجاء والخوفُ معقودان فى يده .

قلت : فكيف حُكْمُه ؟ فقال: يردُّ الظُّلْم(٣)، ويَرْدَعُ الظالم ، ويُعْطِى كلَّ ذى حق حقَّه ؛ فالرعيةُ اثنـــان : رَاضٍ ، ومغتبط .

قلت : فكيف هَيْبَتُهم له ؟ قال : يتصور فى القلوب ، فتُغْضِى له العيون .

قال: فنظر رسولُ ملك الحبشة إلى إصْغَائى إليه؛ وإقبالى عليه؛ فسأل الترجمان: ما الذى يقولُه الرومىّ ؟ قال : يَذْكُرُ ملكهم ، ويَصِفُ سيرتَه ؛ فتكلّم مع الترجمان بشىء، فقال لى الترجمان : إنه يقول : إنّ ملكهم ذو أناة عند القُدْرَة ، وذو حلم عنـد

---

(١) العرف : المعروف . (٢) أصل الحزن ما غلظ من الأرض . (٣) فى ط : المظالم .

الغضب ، وذو سَطْوَةٍ عند الغـالبة ، ، وذو عقوبةٍ عند الاجْتِرام[1] ، قد كسا رعيّته جميلَ نِعْمَتِه ، وخوّفهم عَسْفَ نِقْمَتِه ؛ فهم يتراءونه رَأْيَ الهلال خيالا ، ويخافونه مخافةَ الموتِ نَـكالا ؛ وَسِعَهم عَدْلُه ، ورَدَعَتْهم سَطْوَتُه ، فلا تَمْتَهِنه مَزْحَة ، ولا تؤمّنه غَفْلة ؛ إذا أعطى أوْسَع ، وإذا عاقب أوْجَع ؛ فالنـــاسُ اثنان : راجٍ ، وخائف ؛ فلا الراجي خَائِبِ الأمل ، ولا الخائف بَعِيــد الأجل . قلت : فـكيف هيبتهم له ؟ قال : لا تَرْفَـعُ إليه العيونُ أجْفَانَها ، ولا تُتْبِعُه الأبصارُ إنْسَانَها ، كأنّ رعيّته قَطًا رفرفت عليها صقورٌ صَوائِد .

فحدّثتُ المأمون بهذين الحديثين ، فقال : كم قيمتُهما عندك ؟ قلت : ألفا درهم . قال : يافَضْل ؛ إن قيمتهما عندي أكْثَرُ من الخلافة ؛ أما عرفت قول عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه : قيمةُ كلّ امرئٍ ما يحسن . أفتعرفُ أحداً من الخطباء البُلغاء يُحْسِنُ أن يصِفَ أحداً من خلفاء الله الراشدين المهديين بهذه الصِّفَة ؟ قلت : لا . قال : فقد أمَرْتُ لها بعشرين ألف دينار ، واجعل العُذْر مادة بيني وبينهما في الجائزة [على المعوز][2] ؛ فلولا حقوقُ الإسلام وأهْله لرأيْتُ إعطاءهما ما في بيتِ مال الخاصة والعامة دونَ ما يستحقّانه .

وقال الجاحظ : حدّثني حميد بن عطاء ، قال : كنتُ عند الفَضْلِ بن سهل ، وعنده رسولُ ملك الخزَرِ ، وهو يحدّثنـــا عن أُخْتٍ لملكهم ، قال : أصابتنا سَنَةٌ احتـدم شُوَاظُها علينا بحرّ المصائب ، وصنوفِ الآفات ؛ ففَزِع الناسُ إلى الملك ، فـلم يَدْرِ ما يُجيبهم به ، فقالت أخته : أيها الملك ؛ إن الخوفَ لله[3] خُلُق لا يَخْلُق جَديدُه ، وسببٌ لا يَهِن عزيزه ، وهو دالُّ المَلِكِ على استصلاح رَعيَّته ، وزاجرُه عن استفسادها ، وقد فَزِعَتْ إليك رعيّتُك بفضلِ العَجْزِ عن الالتجاء إلى مَن لا تَزيدُه

---

(١) الاجترام : ارتـكاب الذنب . (٢) ساقط من ط .

(٣) في ط : خوف الله .

الإساءةُ إلى خلقه عِزّا ، ولا يُنقِصه العودُ بالإحسانِ إليهم مُلكا ، وما أحدٌ أولى[1] بحفظِ الوصية من الوصّى ، ولا بركوب الدلالة من الدّال ، ولا بحُسْن الرعاية من الرّاعى . ولم تزل فى نعمة لم تغيرها نِقْمَة ، وفى رِضاً لم يكدّره سُخْط ، إلى أن جَرَى القدَر بما عَمِىَ عنه البَصر ، وذهل عنه الحَذَر ، فسلب الوهوب ، والواهب هو السالب ؛ فعُدْ إليه بشُكرِ النعم ، وعُذْ به من فظيع النِّقَم ، فتى تَنْسَه يَنْسَك ؛ ولا تجعلنّ الحياءَ من التذلّل للعزّ الذل سترا بينك وبين رعيتك ، فتستحقّ مذمومَ العاقبة ؛ ولكن مُرْهُم وتمسك بصرف القلوب إلى الإقرار له بكُنْهِ القُدْرة ، وبتذلّل الألْسُن فى الدعاء بمَحْضِ الشُّكرِ له ؛ فإن المالك ربما عاقبَ عَبْدَه ليرجعه عن سَيّئ فِعْلِه إلى صالح عمل ، أو ليَبْعَثه على دائب شُكرٍ ليحرِزَ به فَضْلَ أجْر .

فأمَرها الملك أن تقومَ فيهم فتنذرهم بهذا الكلام ، ففعلت ؛ فرجع القومُ وقدعلمَ الله منهم قبولَ الوَعْظِ فى الأمر والنهى ؛ فحال عليهم الحَوْل وما منهم مفتقدُ نِعْمَةٍ كان سُلِبها ، وتواترت عليهم الزيادات بجميل الصّنع ؛ فاعترف لها الملك بالفَضْل ؛ فقلّدها المُلْك ؛ فاجتمعت الرعيةُ لها على الطاعة فى المكروه والمحبوب . قال : وهذا وهُمْ أعداء الله تعالى ، وضرائر[2] نِعمته ، ومستوجبو نِقْمَتِه ، أعاد لهم بالشكر ما أرادوا ، وأعطاهم بالإقرار له بكُنْه قدرته ما تمنّوا ، فكيف بمن يَجْمَعُه على الشكر نوران اثنان : قرآن منزل ، ونبيّ مرسل ، لو صدقت النيّاتُ ، واجتمعت على الافتقار إليه الطلبات ؛ لكنهم أنكروا ما عرفوا ، وجهلوا ما علموا ، فانقلَبَ جدّهم هَزْلا ، وسكونهم خَبْلا[3] .

---

(١) فى ط : أحق. (٢) الضرتان : الزوجتان، وكل منها ضرة للأخرى، وهن ضرائر.

(٣) الخبل : الفساد فى الأعضاء . أو هو الخبل ـ بالفتح ـ الجنون .

قطعة صادرة من أقوال الملوك دالة على فضل كرمهم وبعد هممهم

غَضِبَ كسرى أنوشروان على بعض مَرَازِبته[١]، فقال: يُحَطُّ عَنْ مرتبته، ولا يُنْقَصُ من صِلَته؛ فإنّ الملوكَ تؤدِّب بالهجران، ولا تعاقِب بالحِرْمَانِ.

واصطنع أنوشروان رجلا فقيل له: إنه لا قديمَ له. قال: اصطناعُنا إياه شرَفُه.

قال معاوية رضى الله عنه: نحن الزمان من رَفَعْنَاه ارتفع، ومن وضعناه اتّضع.

وكان يقول: إنى لَآنَفُ مِنْ أن يكونَ فى الأرض جَهْلٌ لايسَعُهُ حِلْمِى، وذَنْبٌ لايسَعُهُ عَفْوِى، وحاجة لايَسَعُها جُودِى.

عبدُ الملك بن مروان ـ أفْضَلُ الناسِ مَنْ تَوَاضَعَ عن رِفْعَة، وعَفَا عن قُدْرَة؛ وأنْصَفَ عن قُوَّة.

زياد ـ استشفعوا لِمَنْ وراءكم؛ فليس كلُّ أحدٍ يصِلُ إلى السلطان، ولا كلُّ من وصل إليه يَقْدِرُ على كلامه.

المهلب ـ عَجِبتُ لمن يَشْتَرِى المماليكَ بماله، كيف لايشترِى الأحرارَ بمعروفه!

وقد روى هـذا لابن المبارك.

وقال لبنيه: يا بَنِيّ؛ أحسن ثيابكم ما كان على غيركم.

قال أبو تمام الطائى يَسْتَهْدِى فَرْوًا وعرَّض بقول المهلب[٢]:

فهل أنتَ مُهْدِيه بمثل شَكِيرِه   من الشُّكْرِ يعلو مُصْعِدًا أو يصوِّبُ[٣]

فأنتَ العليمُ الطَّبُّ أى وصيـةٍ   بها كان أوْصَى فى الثيابِ المهلَّبُ

يزيد بن المهلب ـ استَكْثِرُوا من الحمد فإنّ الذمّ قلَّ مَنْ[٤] ينجو منه.

---

(١) المرزبة: رياسة الجيش، وهو مرزبانهم، وجمعه مرازبة. (٢) ديوانه: ٥٥.

(٣) شكير: شعره. ويعلو ويصوب: يرتفع وينخفض. (٤) فى س: ما.

السفاح — ما أقبح بنا أن تكون الدنيا لنا وأولياؤنا خالُون من أثرها .

المأمون — إنما تُطْلَبُ الدنيا لتُملك ، فإذا مُلكت فَلْتُوهَب .

وقال : إنما يتكثّر بالذهب والفضة من يَقِلّان عنده .

الحسن بن سهل — الأطراف مَنَازِل الأشْرَاف ؛ يتناولون ما يريدون بالقُدْرَة ، ويتناولهم مَنْ يُرِيدهم بالحاجَةِ .

وتعرّضَ له رجل فقال له : من أنت؟ قال: أنا الذى أحسنتَ إلىّ يوم كذا وكذا. فقال : مرحبا بمن توسّل إلينا بنا .

ولما أراد المعتصم أنْ يشرّف أشناس[1] التركى بعقب فَتْح الخرمية أمر أصحابَ المراتب بالترجّل إليه ، فترجّل إليه الحسنُ بن سهل ، فنظر إليه حاجبُه يَمْشِى ويتعثّر فى مَشْيه فبكى ، فقال : ما يبكيك ؟ إن الملوكَ شرّفتنا وشرُفت بنا .

ومن كلام أهل العصر

للأمير شمس المعالى قابوس بن وَشْمَكير — من أقْعَدَتْه نِكايةُ الأيام أقامته إغاثة الكرام ؛ ومن ألبسه الليلُ ثوبَ ظلماته نزَعه النهار عنه بضيائه .

وله — ابتناء المناقب باحتمال المتاعب ، وإحرازُ الذّكر الجميل بالسّعْى فى الخطب الجليل .

الصاحب بن عباد[2] :

وقائلةٍ لِمْ عرَتْكَ الهمومُ   وأمْرُكَ مُمْتَثَلٌ فى الأُمَم ؟
فقلت : ذَرِينى لما اشتكى[3]   فإنّ الهمومَ بِقَدْرِ الهِمَمْ

أبو الطيب المتنبى[4] :

أفاضلُ الناسِ أغْرَاضٌ لِذَا الزّمَنِ   يَخْلُو من الهَمّ أخلاهُمْ مِنَ الفِطَنِ

(١) فى س : اسناس .   (٢) اليتيمة : ٣ — ٢٤٩ .

(٣) فى اليتيمة : فقلت دعينى على غصتى .   (٤) ديوانه : ٤ — ٢٠٩ .

أبو الفتح البستى :

صاحبُ السلطانِ لا بُدَّ لهُ ... من هُمُومٍ تَعْتَرِيهِ وغُمَمْ

والذى يَرْكَبُ بحْرًا سَيَرى ... قُحَمَ الأهْوَالِ من بَعْدِ قُحَمْ (١)

ومن كلام الملوك الجارى مجرى الأمثال (٢)

اردشير : إذا رغبت الملوكُ عن العَدْلِ رغبت الرعيّةُ عن الطاعة .

افريدون ـ الأيام صحائفُ آجالكم ؛ فخلِّدُوها أحْسَنَ أعمالكم .

وقيلَ للإسكندر : ما بالُ تعظيمك لمؤدِّبك (٣) أكثر من تعظيمك لأبيك ؟ قال : لأنّ أبى سبَبُ حياتى الفانية ومؤدِّبى (٣) سبَبُ حياتى الباقية .

ودخل محمد بن زياد مؤدّب الواثق، على الواثق، فأظهر إكرامَه ، وأكثر إعظامَه ؛ فقيل له : مَنْ هــذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : هذا أولُ مَن فَتَقَ لسانى بذِكْرِ الله ، وأدْنانى من رحمة الله .

وأشير على الإسكندر بتَبْييت الفرس (٤) ، فقال : لا أجعل غَلَبتى سَرِقة .

وقيل له : لو تزوّجت بنت دارا ؟ فقال : لا تغلبنى امرأة غَلَبْت أباها .

أنوشروان ـ الملك إذا كثر ماله مما يأخذ من رعيّته كان كمن يعمر سَطْحَ بيته بما يَقْتَلِعه من قواعد بُنْيانه .

ابرويز ـ أطِعْ مَنْ [فوقك يطعك مَن] (٥) دونك .

السفاح ـ إن من أدْنَى الناس ووضعائهم من عَدَّ البخل حَزْماً ، والعفو ذُلًّا .

وكان يقول: إذا كان الحلم مفسدة كان العفوُ معجزة، والصبرُ حَسَن إلا على ما أوقع

---

(١) قحم : مصاعب . (٢) هذا العنوان ساقط من ط . (٣) فى س : لمعلمك ... ومعلمى .

(٤) بيت العدو : أوقع بهم ليلا . (٥) ليس هذا فى ط .

بالدَّين ، وأوْهَى السلطان ؛ والأناةُ محمودة إلا عند إمكان الفرصة .

وقد قال ابن المعتز :

كم فرصةٍ ذَهَبَتْ فعادَتْ غُصَّةً　　　تشجى بطُول تَلَهُّفٍ وتَنَدُّمِ

ولما عزم المنصور على الفَتْك بأبي مسلم فزِع من ذلك عيسى بن موسى فكتب إليه :

إذا كنت ذَا رَأْيٍ فكن ذا تَدَبُّرٍ　　　فإنّ فسادَ الرَّأْى أنْ تتعجَّلَا

فأجابه المنصور :

إذا كنتَ ذَا رَأْيٍ فكن ذَا عزيمةٍ　　　فإنّ فسادَ الرأى أن تتردَّدَا
ولا تُمْهِل الأعداء يوما بِقُدْرَةٍ[1]　　　وبادِرْهُمْ أن يملكوا مِثْلها غَدَا

وهذا في موضعه ؛ كقول الإمام على كرّم الله وجهه : من فكَّر في العواقب لم يشجُع .

وقال سعد بن ناشب فأفرط[2] :

عليكم بدارى فاهدمُوها فإنها　　　تُراثُ كريمٍ لا يَخَافُ العواقبا
إذا همّ ألقى بين عينيه عَزْمَهُ　　　ونكّبَ[3] عن ذِكْر العواقب جانبا
ولم يَسْتَشِر في رَأْيه[4] غيرَ نفسِه　　　ولم يرضَ إلا قائمَ السيفِ صاحبا
سأغسِلُ عنى العارَ بالسيف جالبًا　　　علىَّ قضاءُ الله ما كانَ جالِبا
ويصغر في عيني تِلادِي إذا انثنت　　　يمينى بإدْرَاكِ[5] الذى كُنْتُ طالِبا

وكان سَعْدٌ من مَرَدَةِ العرب وشياطين الإنس ، وفيه يقول الشاعر :

وكيف يُفيق الدهرَ سعدُ بن ناشب　　　وشَيْطانُه عند الأهِلَّةِ يُصرَعُ

---

(١) في س : بقدرة . (٢) المختار من شعر بشار : ١٠١ ، القالى : ٢ — ١٧٥ ، الشعراء : ٤٣٨ ، اللآلىء : ٧٩٤ . (٣) في س : وأعرض . (٤) في س : أمره .
(٥) في س : لإدراك .

كتب مروان بنُ محمدٍ الجعدى إلى عبد الله بن علىّ يسألُه حِفْظ حرمه ، فقال له: الحقّ لنا فى دمك وعلينا فى حرمك .

وقال الرشيد لإسماعيل بن صبيح: إياك والدالّة[1] فإنها تُفسد الحرمة؛ ومنها أُوتى البرامكة.

وقال المأمون : الملوكُ تَحْتَمِلُ كلَّ شىء إلّا ثلاثا: إفْشاء السر، والقدح فى الملك، والتعرض للحُرَم .

المعتصم ـ إذا نُصِر الهوى بَطَل الرّأى .

المنتصر ـ لَذّةُ العَفْوِ أطْيَبُ من لذّة التشفى ؛ وذلك أن لذةَ العَفْو يلحقها حَمْدُ العاقبة ، ولذّةُ التشفى يلحقها ذمُّ الندم .

* * *

قتل المتوكل

والمنتصر يقول عن تجربة ؛ لأنه قتل أباه المتوكل ، والأمْرُ فى ذلك أشهر من أن يُذكَرَ ولكنى أُلْمِعُ منه باليسير :

كان المتوكّلُ قد عَقَدَ لولدِه المنتصر والمعتزّ والمؤيّد ولايةَ العهد ، ثم تغيّر على المنتصر دون أَخَوَيْهِ ، وكان يسمّيه المنتظِر ، ويقول له : أنتَ تتمنّى موتى ، وتنتظر وَقْتِى ! ويأمرُ الندماء أن يعبثوا به إلى أن أوْغَر صَدْرَه ، وأقلَّ صبره ؛ فلما كانت ليلة الأربعاء لثلاثٍ خلَوْنَ من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين كان المتوكّلُ يَشْرَبُ مع الفَتْحِ فى قصره المعروف بالجعفرى ، ومعه جماعةٌ من الندماء والمغنّين ، وكان المنتصر معهم ، فلما انصرمت[2] ثلاث ساعات من الليل قال لزرافة التركى : ألا تَسَمُّرنى ساعةً حتى أشكو إليك ما يمرُّ بى ؟ قال : بلى ، وجعل يماطله ويطاوله ، وغلّقَ بُغا[3] الشرابى الأبواب كلها إلا باب الماء ، ومنه دخل الذين قتلوه ، فأوّل مَنْ ضربه باغر التركى ضربةً قطع بها حبل عاتقه ، وتلقّاه الفتح بنفسه فأكبّ عليه ،

(١) فى ف : والدلة . (٢) فى س ، ق : انصرف . (٣) فى س : بغاء الشرابى .

فقُتِلا جميعاً ، وبويع المنتصر من ساعته ، وكانت مدّة المنتصر فى الخلافة مدة شيرويه ابن كسرى — حين قتل أباه — ستة أشهر .

وقال إبراهيم بن أحمد الأسدى يرثى المتوكّل :

رثاء الأسدى للمتوكل

هكذا فلتكُنْ مَنايا الكِرامِ ... بين نايٍ ومِزْهَرٍ[1] ومُدَامِ
بين كأسين أَرْوَتاه جميعاً ... كأسِ لذّاته وكأسِ الحِمامِ
يقظٌ فى السرور حتى أتاهُ ... قَدَرُ الله ، حتفُه فى المنامِ
والمنايا مَرَاتبٌ يتفاضَلْـ ... نَ وبالمُرْهَفَاتِ مَوْتُ الكرام
لم يزد نفسه رسولُ المنايا ... بصنوفِ الأوجاعِ والأسقَام
هابَه مُعْلِناً فدَبَّ إليه ... فى سُتُورِ الدُّجى بحدِّ الحُسَام

أخذ هذا المعنى عبد الكريم بن إبراهيم التيمى ، فقال يرثى عيسى بن خلف صاحب خراج المغرب ، وكان قد تناول دواء فمات بسببه :

منايا سدَدْتَ الطُّرْقَ عنها ولم تَدَعْ ... لهـا مِن ثَنَايَا شَاهِقٍ مُتَطلَّعا
فلمـا رأتْ سُورَ المهابة دونَها ... عليك ولما لم تَجِدْ فيك مَطْمَعا
ترقّت بأسبابٍ لِطافٍ ولم تكد ... تُوَاجِـهُ موفورَ الجَلالة أرْوَعا
فجاءتك فى سِرِّ الدواء خَفِيَّةً ... على حينَ لم تَحْذَرْ لداء تَوَقُّعـا
فـلم أر ما لا يُتقى مثل سَهْمِها ... ولا مثلَها لم تَخْشَ كيداً فترجعا

وقد رثاه البحترى ويزيد المهلبى بمرثيتين من أجْوَدِ ما قيل فى معناهما ، وكانا حاضرَيْن ليلة قَتْلِه . فاختفى أحدُهما فى طىّ الباب ، والآخر فى قناة الشاذَرْوَان ؛ فمن قصيدة البحترى[2] :

رثاء البحترى للمتوكل

تغيّر حُسْنُ الجَعْفَرِىّ وأُنْسُهُ ... وقُوِّضَ بادِى الجعفرىِّ وحاضِرُهْ
تحمَّل عنه ساكنوهُ فُجَاءَةً ... فآضت[3] سواءً دورُه ومقابرُهْ

(١) المزهر : العود الذى يضرب به . (٢) ديوانه : ١ — ٣١٥ .
(٣) فى الديوان : فعادت . وآضت : رجعت وصارت .

ولم أر مثل[١] القصر إذ ريعَ سِربُهُ　　وإذ ذُعرت أطلاؤه وجآذرُه
وإذ صِيحَ فيه بالرَّحيل فهتّكت　　على عَجَلٍ أستارُهُ وستائرُهْ
إذا نحن زُرْناه أجدَّ لنا الأسَى　　وقد كان قبل اليوم يَبْهَجُ زائرُه
فأين عميدُ الناسِ فى كل نَوْبَةٍ　　تَنُوب وناهِى الدهر فيهم وآمرُهْ
تخفّى له مُغْتَالُهُ تحتَ غِرةٍ　　وأولى لمن يَغْتَالُه لو يُجاهِرُه
صريعٌ تقاضاه السيوفُ حُشاشةً　　يجودُ بها والموت حُمْرٌ أظافِرُه
حرامٌ علىّ الراح بعدك أو أرى　　دماً بدم يجرى على الأرض مائرُه[٢]
وهل يُرْتَجَى أن يطلب الدم طالب[٣]　　مَدَى الدهر والموتورُ بالدم وَاتِرُه
فلا مُلِّى الباق تُرَاثَ الذى مضى　　ولا حَمَلت ذاك الدعاءَ منَابِره

وهى طويلةٌ ، وكان أبو العباس ثعلب يقول فيها : ما قيلت هاشمية أحسن منها ، وقد صرّح فيها تصريح من أذهلته المصائب عن تخوّف العواقب .

ارتياح البحترى إلى ذكر المتوكل والفتح

وقد كان البحترى يرتاح فى كثير من شعره إلى ذكره وذِكْرِ الفتح بن خاقان ، فمن ذلك قوله لبعض من يمدحه[٤] :

تداركَنى الإحسانُ منكَ ونالنى[٥]　　على فاقةٍ ذاك النَّدى والتطوُّلُ
ودافعتَ عنى حين لا الفتحُ يُرتجى　　لدَفْعِ الأذى عنى[٦] ولا المتوكّلُ

وقال[٧] :

مضى جعفرٌ والفتحُ بين مُوَسَّدٍ　　وبين قتيل[٨] فى الدماء مضرَّجِ
أأطْلُبُ أنصاراً على الدهر بعدما　　ثوَى منهما فى الترب أوسِى وخَزْرَجى

---

(١) فى الديوان : ولم أنس وحش .　(٢) فى ق : ماطره .
(٣) فى الديوان : واتر . . يد الدهر .　(٤) ديوانه : ٢ — ٢٠٣ .
(٥) فى الديوان : ومسى على حاجة ذاك أُهدا .　(٦) فى الديوان : يبتغى لدفع الذى أختشى
(٧) ديوانه : ١ — ١٠٦ .　(٨) فى الديوان : بين صريع وبين صريع بالدماء . . .

وقال فى غلام له[١] :

عسى آيِسٌ من رَجْعَةِ الوصل[٢] يوصَلُ ... ودَهرٌ تَوَلَّى بالأحبّـةِ يُقبلُ
أيا سكناً فات الفِراقَ بنفسـه[٣] ... وحالَ التّمادى دونَه والتّرَيُّلُ
أتعجبُ لمّا لم يغل[٤] جسمىَ الضَّنا ... ولم يخترم نفسى الحِمامُ المعجَّـلُ
فقبلك بانَ الفتحُ منى مودّعاً ... وفارقنى شفْعاً له المتوكّل
فما بلغ الدّمعُ الذى كنت أرتجى ... ولا فعـل الوجدُ الذى خِلت يفعلُ
وما كلّ نيران الجوى تحرقُ الحشا ... وما كلّ أدواء الصّبابة تقتـل

وقال أبو خالد يزيد بن محمد المهلبى فى قصيدة أولها[٥] :

رثاء المهلبى للمتوكل

لا وجد إلا أراه دون ما أجِدُ ... ولا كمن فقدتْ عَيْنَاى مفتقَدُ

يقول فيها :

لا يَبْعَدَنْ هالكٌ كانت مَنيَّتُهُ ... كما هوى من عضاهِ الزُّبية الأسَدُ[٦]
جاءت منيَّتُهُ والعينُ هادِيَةٌ ... هلّا أتتـه المنايا والقنا قِصَدُ[٧]
نُحِرٌ فوق سريرِ الملك مُنْجدِلًا ... لم يحْمِه مُلْكه لمّا انقضَى الأمَدُ
لا يدفع النـاسُ ضَيْماً بعـد ليلتهم ... إذ لا يُهزُّ إلى الجـانى عليك يَدُ
علتك أسيافُ مَنْ لا دونَه أحـدٌ ... وليس فوقك إلا الواحدُ الصّمَدُ
إذا بكيتُ فإن الدمعَ مُنْهَمِـلٌ ... وإن رَثَيْتُ فإنّ الشعرَ مُطَّرِدُ
إنّا فَقَدْناك حتى لا اصطبارَ لنـا ... ومات قَبْلك أقوامٌ[٨] فما فقدوا
قد كنتُ أُسْرِفُ فى مالى فتُخْلِفُه ... فعلّمتنى الليـالى كيف أقتصِدُ

---

(١) ديوانه : ٢ — ١٩٨ . (٢) فى الديوان : من رجعة البين .
(٣) فى الديوان : بأنسه . (٤) فى الديوان : فلا تعجبن إن لم يغل .
(٥) العقد الفريد : ٣ — ٢٨٨ ، الكامل : ٢ — ٣١١ .
(٦) العضاهة : أعظم الشجر، والجمع عضاه. وفى العقد : من غطاء . والزبية : الرابية لا يعلوها ماء ، وفى س : الربية . (٧) قصد : متكسرة . (٨) فى س : أملاك .

وقال فيها يذكر الأتراك ويحضّ على اصطناع العرب :

لما اعتقدتُم أناساً لاحِفاظَ لهم ... ضِعتُم وضيعتمُ مَنْ كان يُعتقَدُ
ولو جعلتم على الأحرار نِعمتكم ... حمتكم الذّادة المنسوبة الحُشُدُ
قومٌ همُ الأصلُ والأسماء تجمعكم ... والدّينُ والمجدُ والأرحامُ والبلدُ
إنّ العبيدَ إذا أذللتهم صَلَحوا ... على الهوانِ وإن أكرمتهم فَسَدُوا

* * *

وقال أبو حيّة النميرى(١):

رَمَتْهُ فتاةٌ(٢) من ربيعة عامرٍ ... نَؤوم الضُّحى فى مَأْتَمٍ أىَّ مأتمِ
فقلن لها فى السرِّ نَفْديك لايَرُح ... صحيحاً وإلّا تَقْتُليه(٣) فألْمِمى
فألقَتْ قِناعاً دونه الشَّمْسُ واتّقت ... بأحسن موصولَين كفٍّ ومِعصَمِ
وقالت فلما أفرَغَتْ فى فؤادهِ ... وعَيْنَيه منها السِّحْرَ قالت له نَمِ(٤)
فأصبح لا يَدْرِى أفى طَلْعَة الضحى ... تروّح أم داجٍ من الليلِ مُظلِمِ

أخذ قوله : « فألقت قِناعا دونه الشمس » من قول النابغة الذبيانى(٥):

قامت تَراءى بين سَجْفَىْ كِلَّةٍ ... كالشمس يوم طلوعها بالأسعُدِ(٦)
سقط النَّصِيف(٧) ولم تُرِد إسقاطَهُ ... فتناولَتْه واتّقَتْنا باليدِ

أبوحية يرثى وقال أبو حية يرثى سلمة بن عياش :

كأنّ أباحفصٍ فتى البأسِ لم يجبْ(٨) ... به اللّيلَ والبيض القِلاصُ النّجائبُ
إلى الغايةِ القُصْوَى ولم تَهد فتيةً ... كراما وتخطوه الخطوبُ النوائبُ
ويُعمِل عتاقَ العِيس حتى كأنّها ... إذا وُضِعت عنها الولايا(٩) المشاجب

---

(١) الحماسة : ٣ — ٣٠٨ . (٢) فى الحماسة ، س : أناة . (٣) فى س : فاقتليه .
(٤) فى الحماسة : قلن له قم . (٥) ديوانه : ٣٦ . (٦) السجف : الستر الرقيق .
الكلة: غطاء يخاط كالبيت يتوق به من البعوض . (٧) النصيف : الخمار .
(٨) فى س : لم يخب . (٩) الولايا ، جمع ولية : البرذعة ، وفى ط ، ق : الملايا مشاجب .

بعيـــد مثانى الهمِّ يُغشى وما لهُ ... سوى الله والعَضْبِ السُّرَيجىّ[١] صاحِبُ
يَرُومُ جَسِيماتِ العُـلا فينالُهـا ... فتى فى جسيماتِ المكارِمِ راغِبُ
فإنْ يُمسِ وَحْشاً بابه فلرُبّمـا ... تَوَاتَرُ أفواجاً إليــه المواكِبُ
يحيّون بسّاما كأنّ جَبِينهُ ... هِلالٌ بَدَا وانجاب عنـه السَّحائِبُ
وما غائب مَنْ غاب يُرْجَى إيابهُ ... ولكنه من ضُمِّنَ اللَّحْـدَ غائِبُ

وزعم الصولى أن أبا حَيَّة إنما قالها فى محمد بن سليمان بن على بن عبيدالله بن العباس.
وكان أبو حيّة جَيِّد الطبع ، مألوفَ الكلام ، رقيق حواشى الشِّعر .

[الشباب]

وسُئِل الأصمعى عن قيس بن الملوّح المجنون ، فقال : لم يكن مجنونا ، وإنما كانت به لُوثة كلوثة أبى حَيَّة[٢] ، وهو القائل[٣] :

رمتنى وسترُ الله بينى وبينها ... عشيةَ أحجارِ الكِناسِ رميمُ[٤]
رميمُ التى قالت لجارات بيتهـا ... ضمنت لكُمْ ألّا يزال يَهِيمُ
ألا رُبَّ يومٍ لو رمتنى رَمَيْتُها ... ولكنّ عهدى بالنصال[٥] قديم
فيا عجباً مِنْ قاتلٍ لى أودّهُ ... أشاط دمى شخصٌ علىّ كريم[٦]
يرى الناسُ أنى قد سَلَوْتُ ، وإننى ... لدمن[٧] إخناء الضلوع سَقِيم

وأنشدنى[٨] إسحاق بن إبراهيم الموصلى فى مثله ولم يسمّ قائله :

هل الأُدْم كالآرام والدهر كالذى ... معـاودُنى أيامهنّ الصّوالِحُ
زمانَ سلاحى بينهن شبيبتى ... لها سائف[٩] من حسنهن ورامِحُ

---

(١) سريج : قين تنسب إليه السيوف السريجية . (٢) اللوثة ، بالضم : مس الجنون .
(٣) الأمالى : ٢ — ٢٨٠ ، الحماسة : ٣ — ٢٦٩ ، وقد اختلف فى نسبة هذه الأبيات .
(٤) رميم : اسم امرأة كما استشهد به عليها فى اللسان — مادة — رمم . والكناس : موضع . معجم ما استعجم : ١١٣٥ . وفى الحماسة : ونحن بأكناف الحجاز رميم .
(٥) فى ط والحماسة : بالنضال . (٦) أشاط : أحرق . (٧) فى ط : لمدنف .
(٨) فى س : وأنشد . (٩) سائف : ضرب بالسيف ، وفى ط : سائق .

فأقسمنَ لا يسقينى قَطْرَ مُزْنَةٍ ... لشَيْبى ولو سالَتْ بهن الأباطحُ

وقال هارون بن على بن يحيى المنجّم :

الغانيـات عهـودُهـ ... نّ إلى انصرام وانقضـاب
مَنْ شابَ شِبْنَ له المو ... دّة بالخديعة والكِذَابِ(١)
فانعم بهنّ وزَنْدُ جِد ... تِكَ فى الشّبيبة غيرُ خابِ
ما دُمْتَ فى وَرَقِ الصّبا ... وَغُصُونه الخُضْرِ الرِّطابِ
فافخَـرْ بأيّام الصبا ... واخْلَعْ عِذارَكَ فى التَّصَابى
واغْطِ(٢) الشبابَ نَصيبهُ ... ما دُمْتَ تعـذر بالشَّبابِ

وقال أشجع بن عمرو السلَمى :

وما لىَ لا أُعطِى الشبابَ نصيبهُ ... وغُصْنَاه يهتزّانِ فى عُودِهِ الرَّطْبِ
رَأيْتُ الليـالى يَنْتَهِبْنَ شبيبتى ... فأسْرَعْتُ باللذات فى ذلك النَّهبِ
فإنّ بنات الدَّهرِ يَخْلِسْنَ لذّتى ... فقد جُزْنَ سَلْمِى وانْتَهَيْنَ إلى حَرْبِى
وقد حوَّلَتْ حالى الليالى وأسْرَجت ... على الرأس أمثالَ الفَتيل من العُطْبِ(٣)
وموتُ الفتى خيرٌ له مِنْ حَيَاتِه ... إذا كان ذا حالَيْنِ يصبُو ولا يُصْبِى

وقال آخر :

ما العَيْش إلا أن تُحِبَّ ... وأن يحبّك مَنْ تُحِبّهْ

فقر تتصل بهذه الأبيات فى وصف الشباب

أطاع الشبابَ وغِرّته ، وأجاب الصبا وشِرّته . جَرَّ إزَار الصِّبا ، وأذَال(٤) ذيُولَ الهوَى ، وركض فى مَيْدَان التّصَابى ، وجَنَى ثمرات المَلاهى . هو فى اقتبال شَبابه، وحَدَاثة أتْرابه ، ورَيْعان عمره ، وعُنْفُوان أمْره . هو فى إبّان شبابه واعْتِدَاله،

---

(١) شبن : مزجن ، الكذاب : الكذب . (٢) فى س : أعط .
(٣) العطب : القطن . (٤) أذال : أرسل .

وريعان إقباله واقتباله . بعثه على ذلك أشَرُ[1] الصبا ، ولين الغصن ، وشرخ الشبيبة، وسكر الحداثة . فتيّ السن ، رطيب الغصن، عمره في إقباله، ونشاطه في استقباله، وشبابه في اقتباله ، وماؤه بحاله . فلانٌ في حكم الأطفال ، الذين لم يمضوا على نواجذ الرجال . هو في عنفوان شبيبةٍ تُخاف سقطاتها وهفواتها ، ولا يؤمن جيشاتها ونزواتها. هو في سكرَي الشباب والشراب، وبين نزوات الشبان، ونزغات الشيطان. شبابه أعمى عن الرشد، أصم عن العذل، قد لبّى داعيَ هواه، وانغمس في لُجّة صباه. قد هجم بسُكر الحداثة على سكرات الحوادث، يجري إلى الصبا جريَ الصبا . فلان غُفْلٌ من سِمة التجربة ، جامحٌ في عِذار الغفلة ، صَعْبُ الرأس على لِجام العظة. هو رِهنُ سلطان الصبا في النوبة الأولى ، قد خلع عِذاره ومقوده، وألقى إلى البطالة باعه ويده . هو بين خُمار[2] الغداة وسكر العشي، لا يعرف الصحو ، ولا يفارق اللهو . فلان لا يفيق ، ولا يذكر التوفيق ، هو بين غرر الشباب ، وغرر الأحباب .

ويتعلق بهذه الألفاظ ألفاظ لهم في نجابة الشباب وترشحهم المعالي

قد جمع نضارةَ الشباب إلى أُبهة المشيب ، وهو على حدوث ميلاده وقرب[3] إسناده شيخ قدرٍ وهيبة ، وإن لم يكن شيخَ سنٍّ وشيبة . هو بين شباب مُقتبل ، وعقل مكتمِل ، قد لبس بُرْدَ شبابه على عقل كهل ، ورأي جزل ، ومنطق فصل . للدهر فيه مقاصد ، وللأيام فيه مواعد ، أرى له في فصل ضمانِ الأيام وودائع الحظوظ والأقسام ، تباشيرَ نُجح ، ومخايلَ نصرٍ وفتح ، قد استكمل قوة الفضل ، ولم يتكامل له سِنُّ الكهل. ما زالت مخايله وليدا وناشئا ، وشمائله صغيراً ويافعا، نواطقَ بالحسن عنه، وضوامنَ للنُّجح فيه ! قدمها إلى مراتبِ أعيان الرجال ، التي لا تُدرك

---

(١) الأشر : المرح . (٢) الخمار : صداع الخمر وألمها ، وما خالط من سكرها .
(٣) سند في الجبل وأسند : صعد .

إلا مع الكمال والاكتهال . حُمِدَتْ عزائمه ، قبل أن حُلَّت تمائمه ، وشهدت مكرماته ، قبل أن تَدرجَ لِدَاتُه(١) .

وقال البحترى(٢) :

لا تنظرنَّ إلى العباس(٣) من صِغَرٍ ... فى السّن وانظر إلى المجد الذى شادَا

إنّ النجومَ نجومَ الأفق(٤) أصغرها ... فى العين أذهبُها فى الجوّ إصْعَادَا

وقال آخر :

رأيت العقلَ لم يكن انتهاباً ... ولم يُقْسَم على قَدْرِ السنينا

فلو أنّ السنين تقسّمته ... حَوَى الآباء أنصبةَ البنينا

وقال الفضل بن جعفر الكاتب :

فإن خلّفته السنُّ فالعقلُ بالغٌ ... بهِ رُتبةَ الكَهْلِ المؤهّلِ للمَجْدِ

فقد كان يحيى أُوتىَ الحُكْمَ قبله ... صَبِيًّا وعيسى كلَّمَ الناسَ فى المهدِ

[أثر الأيام والليالى]

رجع إلى أبى حية

وكان أبو حيّة كثير الرواية عن الفرزدق ، وعُمِّرَ حتى التقى بابن مناذر فاستنشده شعره ، فأنشده أبو حيّة(٥) :

ألا حىِّ من أجل الحبيب المَغَانيا ... لَبِسْنَ البِلى مما لَبِسْنَ اللّياليا

إذا ما تقاضَى المرءَ يومٌ وليلةٌ ... تقاضاه شىءٌ لا يملُّ التّقاضيا

حَنَتْكَ الليالى بعد ما كنتَ مرةً ... سوىَّ العصا لو كُنَّ يُبْقِينَ باقيا

فقال ابن مناذر : أَوَ شعرٌ هـذا ؟ فقال أبو حيّة : ما فى شعرى عيب ، غير أنك تسمعه .

---

(١) فى ق : تدرج لداته . وتدرج : تدبّ فى السير . (٢) ديوانه : ١ — ٢٠٣ .
(٣) فى الديوان : إلى العباس . (٤) فى الديوان : نجوم الليل .
(٥) الأمالى : ٢ — ١٨٥ ، اللآلى : ٢٠٨ .

وفى هذه القصيدة يقول أبو حيّة :

ولما أبَتْ إلا التواء بوُدّها … وتكديرَها الشربَ الذى كان صافيا

شربتُ برَنْقٍ[1] مِنْ هَوَاها مكدَّرٍ … وكيف يعاف الرَّنْقَ[2] من كان صاديا

مثل قول أبى حية

وقد قال عَمْرُو بن قَمِيئَة فى معنى قول أبى حية :

كانت قناتى لا تلين لغامزٍ … فألانها الإصباحُ والإمساء

ودعوت ربى فى السلامة جاهداً … ليُصحّنى فإذا السَّلَامَةُ دَاء

وقال النَّمِر بن تولب[3] :

يَوَدُّ الفتى طولَ السلامة والبَقا[4] … فكيف يرى طولَ السلامة يفعلُ

يعودُ الفتى من بَعْد حُسنٍ وصحةٍ[5] … ينوء إذا رَامَ القيامَ ويُحمَلُ

وقد روى فى الحديث الشريف : كفى بالسلامة داء .

وقد أحسن حُمَيد بن ثور فى قوله[6] :

أرَى بَصَرِى قد رَابنى بعد صحةٍ … وحَسْبُك داء أن تَصحّ وتَسْلَمَا

ولن يَلْبَثَ العصران يومٌ وليلةٌ … إذا طلبا أن يدركا ما تيمّما[7]

وهذان البيتان من قصيدة طويلة وهى أجودُ شعر حُمَيد ؛ ومن أجْوَد ما فيها :

وما هاجَ هذا الشوقَ إلّا حمامةٌ … دَعَتْ ساقَ حُرٍّ تَرْحةً وتَرَنُّما

تَرُوحُ عليه وَالهاً ثم تَغْتَدِى … مولَّهةً تَبْغِى له الدَّهرَ مَطعَما

تؤمل منه[8] مُؤْنِسًا لانْفرادِها … وتَبْكِى عليه إنْ زَقَا وتَرَنَّما

---

(١) رنق الماء : كدر ، وفى ت ، وس : برِيق . (٢) فى س ، ق : الريق .

(٣) جمهرة أشعار العرب : ١٩٩ . (٤) فى الجمهرة : والغنى .

(٥) فى الجمهرة : يود الفتى بعد اعتدال وصحة . (٦) الشعراء : ٤٩، ٣٤٩ ، ٣١٠ ، اللآلى : ٣٨٢ ، ٥٣٢ . (٧) فى س : يتمما . (٨) فى ط : فيه .

كأنّ على إشراقه نورَ خمرةٍ ... إذا هُوَ مَدَّ الجيدَ منه لِيطْعَما
فلمّا اكتسى الرّيشَ السُّحامَ[1] ولم يجدْ ... لها مَعَهُ في ساحةِ الحيّ مَجْثَما
تنحّتْ قريباً فوقَ غُصنٍ تَذَاءَبَتْ[2] ... به الريحُ صِرْفاً أيَّ وجهٍ تيمّما
فأهْوَى لها صَقْرٌ مُسِفٌّ فلم يَدَعْ ... لها وَلَدًا إلا رِماماً وأعْظُما
فأوْفَتْ على غُصن ضُحَيّاً ولم تَدَعْ ... لنائحةٍ في نَوْحِها مُتَلَوَّما
عَجِبْتُ لها أنّى يكونُ غِناؤُها ... فصيحاً ولم تَفْغَرْ بمَنْطِقِها فَما
فلم أرَ مِثْلي شاقَهُ صَوْتُ مِثلِها ... ولا عربيًّا شاقَهُ صَوْتُ أعْجَما

من خبيث الهجاء — ومن خبيث الهجاء قولُه في هذه القصيدة يخاطب رجلين بمثهما :

وقُولا إذا جاوزتُما أرْضَ عامرٍ ... وجاوزتُما الحَيّين نَهْدًا وخَثْعَما[3]
نَزِيعان مِنْ جَرْمِ بنِ[4] زَبّان أنهم ... أبَوْا أنْ يريقوا في الهَزاهِزِ مِحْجَما[5]

وما هُجِيت جَرْمٌ بأشدَّ من هـذا ، يريد أنهم لذلتهم لم يَتِرُوا أحداً فيطالبهم بذَحْلٍ[6].

البقاء — وقال الأصمعي : قيل لبعض الصالحين : كيف حالُك ؟ قال : كيف حالُ من يفنى ببقائه ، ويَسْقَم بسلامَتِه، ويُؤْتَى من مَأْمنه .

وقال محمود الوراق :

يُحِبُّ الفتى طولَ البقاء كأنّهُ ... على ثقـةٍ أنَّ البقاء بَقَاء
إذا ما طوى يوماً طوى اليومُ بعضَه ... ويَطْويه إنْ جَنَّ المساء مَسَاء
زيادتُه في الجسمِ نقصُ حَيَاتِه ... وأنّى على نَقْصِ الحياة نَماء
جديدان لا يَبْقَى الجميعُ عليهما ... ولا لهما بَعْدَ الجميع بقاء

---

(١) السحام : السواد . (٢) تذاءبت الريح : جاءت في ضعف من هنا وهنا .
(٣) نهد : قبيلة باليمن. وخثعم : أبو قبيلة من معد . (٤) بطن من قضاعة ، وفي س ، ق : بن ربان. (٥) الهزاهز : تحريك البلايا والحروب بين الناس . والمحجم : ما يحتجم به .
(٦) الذحل : الوتر والثأر .

وقال المتنبي(١) :

زِيادةُ شَيْبٍ وَهْيَ نَقْصُ زِيادَتِي   وقُوَّةُ عِشْقٍ وَهْيَ مِنْ قُوَّتِي ضَعْفُ

وبيت محمود الأخير كقول البحتري(٢) :

أَنَاةً أَيُّها الفَلَكُ المُدَارُ   أَنَهْبٌ ما تصرّف أم جُبارُ(٣)
ستَفْنى مِثْلَ ما تُفْنِي وتَبْلَى   كما تُبْلِي فيُدْرَكُ مِنْكَ ثارُ
تُنابُ النائبات إذا تَنَاهَتْ   ويَدْمُرُ في تَصَرُّفِهِ الدَّمارُ
وما أَهْلُ المَنازِلِ غَيْرُ رَكْبٍ   مطاياهم رَوَاحٌ وابْتِكارُ

ويقول فيها :

لنا في الدَّهر آمالٌ طِوَالٌ   نُرَجِّيها وأَعمارٌ قِصارُ
أما وأبي بني حارِ بْنِ كعبٍ   لقد طرد الزمان بهم فساروا
أصاب الدَّهرُ دولةَ آلِ وَهْبٍ   ونالَ الليلُ مِنهم والنهارُ
أعارهُمُ رداءَ العِزِّ حتى   تقاضاهم فردّوا ما استعاروا
وقد(٤) كانوا وأوْجُهُهم بدورٌ   لمبصرها(٥) وأيديهم بِحارُ

أخذ قوله : « ستَفْنَى مثل ما تُفْنِي » أبو القاسم بن هانئ فقال :

تَفْنَى النجومُ الزُّهرُ طالِعةً   والنَّيِّرانِ الشَّمْسُ والقمرُ
ولئن تبدَّتْ في مَطالِعِها   منظومةً فلسوف تَنْتَثِرُ
ولئن سعى الفلك المُدَارُ بها   فلسوف يُسْلِمُها ويَنْفَطِرُ

(١) ديوانه : ٢ — ٢٨٣ . (٢) ديوانه : ٢ — ٤٦ .
(٣) في الديوان : ماتطرق ، وفي س : ماتطرف ع وجبار : الهدر والباطل ، ومن الحروب : مالاقود فيها . (٤) في الديوان : وما كانوا فأوجههم .
(٥) في الديوان : لمختبط .

وقد استقصى على بن العباس الرومى المعنى الأول فقال[١] :

والدّهرُ يُبْلِى الفتى من حيثُ يُنشئه   حتى تَكُرَّ عليه لَيلة القَرَبِ[٢]
يَغْذوهُ فى كلِّ آنٍ وَهو يأكُلُه   ويَحْتَسى نُغَبًا مِنْهُ على نَغَبِ[٣]
يُودِى بحالٍ فَحال من شَبيبته   تسرُّبَ الماء فى مُسْتأنَفِ الكُتَبِ[٤]
حَسْبُ امرىءٍ مِنْ خَنَى[٥] دَهْرٍ تَطَاوُلُهُ   وإنْ أجمَّ فلمْ يُنْكبْ ولم يُنَبِ
فى هُدْنَةِ الدَّهْرِ كافٍ من وَقائعه   والعُمْرُ أقْدَحُ[٦] مِبرَاةً من الوَصَبِ

وقال أيضاً[٧] :

يا بَانِىَ الحصْنِ أرْسَاه وشَيَّدَهُ   حِرْزًا لِشِلْوٍ من الأعداء مَشْجونِ[٨]
انظر إلى الدهر هل فاتتــه بنيتهُ   فى مطمح النسر أو فى مَسْبَح النُّون[٩]
ومن تحصَّن مَنْخُوبًا[١٠] على وَجَلٍ   فإنَّمـا حصنه سِجنٌ لمسجونِ
أشكو إلى الله نُـكْلًا قد أضَرَّ بنا   بل ليس جهلا ولكن عِلْمُ مَفْتونِ

وقال الطائى[١١] :

وإن تُبْنَ حيطانٌ عليه فإنّما[١٢]   أولئك عُقَّالاتُهُ لا مَعاقِلُه[١٣]

ودخل يحيى بن خالد على الرشيد وقد ابتــدأت حاله فى التغيّر ، فأُخْبِر أنه مشغول ، فرجع فبعث إليه الرشيد : خُنْتَنى فاتّهمتنى ، فقال : إذا انقضَت المُدّة كان الحَتْفُ فى الحيلة ، والله ما انصرفتُ إلا تخفيفا . أخذه ابن الرومى فقال — وقد قصده

---

(١) ديوانه : ١–١٩٥ .   (٢) القرب : سير الليل لورد الغد ، وألا يكون بينك وبين الماء إلا ليلة .   (٣) فى ط ، س : تعبأ منه على تعب . والنغب : جمع نغبة وهى الجرعة .
(٤) فى ط ، س : الكتب . والكتب جمع كتبة : السير تخرز به القربة .
(٥) فى ط ، س : جنى .   (٦) فى ط ، س : أقدح .   (٧) ديوانه : ٢٥ .
(٨) فى الديوان : مشحون . والشجون : المشعوب والمكسور .   (٩) النون : التمساح .
(١٠) فى الديوان : محبوسا .   (١١) ديوانه : ٢٣١ .
(١٢) فى الديوان : وإن يبن حيطانا .   (١٣) العقالات : القيود ، والمعاقل : الملاجىء .

بعضُ الأطباء، فزعم أن الفَصْد زاد فى علّته(١) :

غلط الطبيبُ علىَّ غلطة موردٍ   عجزت مَحالتُه(٢) عن الإصدار
والناسُ يَلْحَوْنَ الطبيب وإنّما   غَلَطُ الطبيبِ إصابةُ المقـدارِ(٣)

[وصف الثغور]

وقال أبو حيّة النميرى(٤) :

سقتنى بكأسِ الحبِّ صِرْفاً مروّقاً   رِقاقَ الثّنايا عَذْبة المُترنَّقِ(٥)
وخُمصانةٍ تَفْـتَرُّ عن متنشّقٍ   كنَوْرِ الأقاحى طيِّب التذوّقِ(٦)
إذا امتضغت بعد امتناع من الضّحى   أنابيبَ من عود الأراك المخلّقِ(٧)
سقتْ شُعَبَ(٨) المسواكِ ماء غمامةٍ   فَضيضاً(٩) بخُرطوم الرّحيقِ المُروَّقِ

وأنشد الثورى(١٠) :

ترى الدُّرَّ منثوراً إذا ما تـكلّمت   وكالدُّرّ منظوماً إذا لم تَـكلّمِ
تُعبِّدُ(١١) أحرارَ القلوبِ بِدَلّها   وتملأ عَيْنَ النـاظر المُتوسِّمِ

والبيت الأول من هذين كقول البحترى(١٢) :

فمن لؤلؤ تَجْلُوه عـند ابتسامها   ومن لؤلؤ عند الحديث تُساقِطُه

وقد تقدّم .

قال أبو الفرج الرياشى : سمعتُ الأصمعى يقول : أحسن ما قيل فى وصف الثغر قول ذى الرمة(١٣) :

وتَجْلُو بفَرْعٍ من أراكٍ كأنّه   من العَنْبرِ الهِنْدِىِّ والمِسْكِ يُصْبَحُ

(١) ديوانه : ٤٨١ . (٢) المحالة : الحيلة . (٣) فى الديوان: الأقدار .
(٤) المختار من شعر بشار : ٢٣٨ . (٥) رنق الماء : كدره وصفاه ، والترنيق أيضاً: إدامة النظر . (٦) خمصانة : ضامرة البطن . (٧) فى ط : امتناع . المخلق : المدهون بالخلوق ، وهو ضرب من الطيب . (٨) فى المختار : شعث السواك .
(٩) الفضيض : ماتناثر من الماء . (١٠) المختار من شعر بشار : ٣٧ .
(١١) فى س: تقير . (١٢) ديوانه : ٢ ــ ٣٣١ ، المختار من شعر بشار : ٣٩ ، النويرى : ٢ ــ ٧١ . (١٣) ديوانه : ١ ــ ٢ .

ذُرَى أُقْحُوانٍ وَاجَهَ الليلَ وارْتَقَى ... إليهِ النَّدَى من رامةَ المتروَّحُ

هِجانَ الثَّنايا مُغْرِبٌ[1] لو تَبَسَّمَتْ ... لِأَخْرَسَ عنه كاد بالقولِ يُفْصِحُ

ومن قدم هذا المعنى وجيّده قولُ النابغة الذبيانى فى صفة المتجردة امرأة النعمان ابن المنذر .

تَجْلُو بقادمتى حَمامة أيكةٍ ... بَرَدًا أُسِفَّ لِثاتُه بالإثمِدِ

كالأُقْحُوان غداةَ غِبِّ سمائهِ ... جَفَّتْ أعاليه وأسْفَلُه نَدِى

زَعَم الهُمامُ بأنّ فاهَا بارِدٌ ... عَذْبٌ مُقَبَّلُه شَهِىُّ المَوْرِدِ

زَعَم الهُمامُ ولم أَذُقْه أنه ... يشفى[3] بِرَيَّا رِيقِها العَطِشَ الصَّدِى

ومن قوله : « ولم أذقه » أخذ كلّ من أتى بهذا المعنى فتقه الناس بَعْدَه ،

قال المتوكل الليثى :

كأنَّ مُدامةً صهباءَ صِرْفًا ... ترقرق بَيْنَ راوُوقٍ ودَنِّ

تُعَلُّ بها الثَّنايا من سليمى ... فِراسةُ مُقْلَتِى وصحيحُ ظَنِّى

وقال بشّار[4] :

يا أَطْيَبَ الناس ريقا غير مُخْتَبَرٍ ... إلّا شهادة أطرافِ المساويكِ

قد زُرْتِنا مرةً فى الدهر واحدةً ... ثَنِّى ولا تجعليها بَيْضَةَ الدِّيكِ

يا رَحمةَ الله حُلِّى فى منازلنا ... حَسْبِى برائحة الفردوس من فِيكِ

وقيل لبشار : يا أبا معاذ ، كم بين قولك، وأنشد هذه الأبيات ، وبين أن تقول[5] :

إنما عظمُ سُلَيمى خُلّتى[6] ... قَصَبُ السكر لا عَظْمُ الجَمَلْ

وإذا قُرِّبَ[7] منها بَصَلٌ ... غلب المِسْكُ على ريحِ البَصَلْ

فقال: إنما الشاعر المطبوع كالبحر : مرةً يقذِف صدَفه ، ومرةً يقذف جِيَفه[8] .

---

(١) فى الديوان : مقربا ، وفى س : مغرب . (٢) ديوانه : ٣٧ ، المختار من شعر بشار : ٥٥ . (٣) فى ط : يروى . (٤) الصناعتين : ٢٥٠ ، الوساطة: ٢٣١ ، الأمالى ١ — ٢٢٨ . (٥) الصناعتين : ١١٦ . (٦) فى الصناعتين : حبق . (٧) فى الصناعتين : وإذا أدنيت منها . (٨) فى س : جشفه .

[السواد]

وقدتناول هذا المعنى أبوالحسن علىّ بن العباس الرومى من أقرَب متناوَل ، فقال وكشفه بأوْضح عبارة فى صفته لجارية أبى الفضل عبد الملك بن صالح السوداء ، بعد أن استوفى جميعَ صفاتها ؛ وكان قد اقترح عليه وصْفَها[1] :

وصَفْتُ فيهـا الّذى هَويت على الـ ... وهم ولم نَخْتَبِرْ ولم نَذُقِ
إلّا بأخبـارك التى رُفِعَتْ ... منك إلينا عن طيبة الزَّرَقِ
حاشا لسَوْداء منظر سكَنَتْ ... ذُراكَ إلا عَنْ مَخْبِرٍ يَقَقِ[2]

وهذه الأبياتُ من قصيدةٍ له وصف فيها السواد ، واحتجّ بتفضيله على البياض ، حتى أغْلَقَ فيه الباب بعده، ومنع أن يَقْصِد فيه أحدٌ قصده، إلّا كان[3] مقصّر السهم عن غَرَضِ الإحسان . وقد نبّه على بن عبد الله بن العباس [المسيب على][4] فضائلها، وأجاد التشبيه ، وكشف عن وجوه الإبداع ، وضروبِ الاختراع .

وقد مدح الناسُ السوادَ والسُّود فأكثروا . فمن جيدما قالوا فيه قول أبى حفص الشطرنجى :

أشْبَهَكِ المِسْكُ وأشبهتِهِ ... قائمةً فى لَوْنِه قاعِـدَهْ
لا شكَّ إذ لَوْنُكما واحدٌ ... أنّكما من طِينةٍ واحدَهْ

فأخذ ابنُ الرومى هذا المعنى وأضاف إليه أشياء أخر توسّعاً واقتداراً ، فقال :

يذكرك المِسْك والغَوالى والسُّـ ... ـكّ[5] ذوات النسيم والعَبَقِ

وهذه الأشياء وإن كانت ناقصةً عن المسك، فهى ممدوحةٌ بالطيب، غير مستغنى عن ذكرها فى التشبيه ؛ فأما زيادته على جميع من تعاطى مدح السواد فقوله :

سوداء لم تنتسب إلى بَرَصِ الشُّـ ... ـقْرِ ولا كُلْفَةٍ ولا بَهَقِ

---

(١) ليست فى ديوانه المطبوع بأيدينا . (٢) يقق ــ بفتح القاف الأولى وكسرها : شديد البياض ناصعه . (٣) فى س : كل . (٤) هكذا فى الأصول ، وما بين القوسين ليس فى س.
(٥) السك : نوع من الطيب يركب .

والأبيض الشديد البياض مَعيب ، وقد دلّ عليه قوله :

وبَعْضُ ما فُضّـلَ السوادُ بهِ   والحقّ ذو سُلَّمٍ وذو نَفَقِ
ألا يعيبَ السَّوادَ حُلْـكَتُهُ   وقد يُعابُ البياضُ بالبَهَقِ

قوله : «الحق ذو سُلّم وذو نَفَق» أراد أنّ الحقّ يتصرّفُ فى جهات، وضَرَبَ الصعودَ والنزولَ لذلك مثلا ؛ ثم قصد لوَصْفِ هذه السوداء بالكمال فى الصفة ؛ ومن عيب السُّودان أن أكفّهم عابسَة[1] متشقّقة ، وأطرافهم ليست بناعمة لينة ، وكذلك لا يزال القَلَحُ[2] فى شفاههم ، وهى الشقوق المذمومة الموجودة فى أكثر السُّودان فىأوساط الشفاه، وأيضاً فإن الأسودمهجوّ بخبث العَرَق، فنفىهذه الصفات المذمومة الموجودة فى أكثر السودان عنها فقال :

لَيْسَتْ من النَّبْسِ الأكُفّ ولا الـ   قلحِ الشِّفـاهِ الخبائثِ العَرَقِ

ثم عاج بخاطره على وصف هذه السوداء بأضداد تلك الصفات المذمومة ، فقال :

فى لِينِ سَمُّورةٍ تخيَّرها الـ   فرّاءُ أو لِينِ جيّد الدَّلَقِ[3]

ومن بديع مدح السوداء قوله :

أكسبها الحبّ أنها صُبِغَتْ   صِبغةَ حَبِّ القلوب والحَدَقِ
فانصرفت نحوها الضمائرُ والـ   أبصار يَعْشَقْن أيّما عَشَقِ

فأخبر أنّ القلوب إنما أحبتّها بالمجانسة التى بينها وبين حَبِّ القلوب من السواد ، وكذلك الحَدَق .

ومن جيّد تشبيهات أبى نواس وقد نبّه نديماً للصبوح فأخبر عن حاله وقال :

فقام والليلُ يَجْلوهُ الصباحُ كما   جَلا التبسُّم عن غُرِّ الثّنِيّاتِ

---

(١) من عبس ــ كفرح : يبس . (٢) القلح : الشق .
(٣) دويبة كالسمور ــ معربة .

ولعلى بن العباس عليه التقدم بقوله :

يَفْتَرُّ ذاكَ السَّوَادُ عن يَقَقٍ ... من ثَغْرِهَا كاللآلِئ النَّسَقِ[١]

كأنهـا والمِزاحُ يُضْحِكُها ... لَيْلٌ تَعَرَّى[٢] دُجاهُ عَنْ فَلَقِ

وفَضْلُ هذا الـكلام على ذاكَ أنَّ هذا قدَّمَ لمنافى التشبيه مُقَدِّمةً أبدَتْهُ، ووطَّأتْ له الآذان ، وأصْغَت الأفهام إلى الاستحسان ، وهى قوله :

* يَفْتَرُّ ذَاكَ السَّوَادُ عَنْ يَقَقِ *

وفى هـذه السوداء يقول ، وقد سأله أبو الفضل الهاشمى أن يَسْتَغْرِقَ صفات محاسنها الظاهرة والباطنة فقال :

لهـا حِرٌ يَسْتَعِيرُ وَقْدَتَهُ ... من قَلْبِ صبٍّ وصَدْرِ ذِى حَنَقِ

كأنـه حَرُّهُ لِخَابِرِهِ ... ما ألهبتْ فى حَشَاهُ مِنْ حُرَقِ

يَزْدَادُ ضيقاً على المِراسِ كما ... تَزْدَادُ ضِيقاً أُنْشُوطَةُ الوَهَقِ[٣]

ثم فـكَّرَ فيما فـكَّر فيـه النابغة ، وقد أمره النعمانُ بوَصْفِ المتجرِّدة ، فوصف ما يجـوزُ ذِكْرُه من ظاهر محاسنها ، ثم كَرِهَ أنْ يَذْكُرَ من فضائلها مالا يَسُوغُ بمثله أن يَذْكُرَ منهـا ، فردَّ الأخبار عن تلك الفضائل إلى صاحبها وهـو الملك ، فقال[٤] :

زَعَمَ الهُمَامُ بِأَنَّ فَاهَا بَارِدٌ ... عَذْبٌ إذا قبَّلته قلت ازْدَدِ[٥]

فاحتذى علىّ بنُ العباس هذا ، فقال بعد ما سأله أن يستغرقَ فى وصف فضائلها الظاهرة والباطنة :

خُذْهَا أبا الفَضْلِ كسوة لك من ... خَزِّ الأماديح لا مِنْ الخِرَقِ

---

(١) النسق من الخرز : المنظم . (٢) ف س : تفرى .

(٣) الأنشوطة : عقدة يسهل انحلالها ، والوهق : الحبل المغار يرمى فيه أنشوطة فتؤخذ فيه الدابة والإنسان ، وفى س : الرهق . (٤) ديوانه : ٣٧ .

(٥) فى الديوان : عذب مقبله شهى المورد .

وصفت فيها التى هويت على الـ ... وَهْمِ ولم نَخْتَبِرْ ولم نَذُقِ
إلّا بأخبــارك التى وَقَعَتْ ... منكَ إلينا عن طَبْيَةِ البُرَقِ
حاشا لسوداء مَنْظَرٍ سَكَنَتْ ... ذُرَاكَ إلا عَنْ مَخــبرٍ يَقَقَ

وهذا المعنى أومأ إليه النابغة إيماء خفيًا تذهبُ معرفتُه عن أكْثرِ الناس ، ولو آثَرَ النابغةُ تَرْكَ الاختصار ، وهمَّ بكَشْفِ المعنى وإيضاحِه مازادَ على هذا الـكشف الذى كشفه ابن الرومى .

وأصحاب المعانى ينشدون للفرزدق :

وجفن سـلاح قد رُزِئت فلم أَنُحْ ... عليــه ولم أَبْعَثْ عليه البَوَاكِيَا
وفى بَطْنِهِ مِنْ دَارِمٍ ذُو حَفِيظَةٍ ... لو أن النَّايا أَنْسَأَتْه لَيَالِيـا[1]

ومعناه عنــدهم أنه رثى امرأة توفِّيت حاملا ، فقال على بن العبــاس وقد وصف هذه المرأة الســوداء :

أخلِقْ بها أن تقــومَ عن ذَكَرٍ ... كالسيف يَفْرِى مُضاعف الحلَقِ
إنَّ جفونَ الســيوفِ أكْثرِهَا ... أسود والحقّ غــير مُخْتَلقِ

فهذه زيادةٌ بينة ، وعبارة واضحة ، لم تحتج إلى تفاسير أصحاب المعانى ، وقال مما لم ينشده المتنبى :

غصن من الآبنوس ركِّب فى ... مؤتَزَرٍ مُعجب ومنتطَق
يهتزّ من ناهــديه فى ثمرٍ ... ومن دوّاجى[2] ذُرَاه فى ورَقِ

وهذا معنى قد بلغ قائِلُه من الإجادة ، فوق الإرادة ، وامتثل أبو الفضل الهاشمى ما أشار به ابن الرومى فأولدها فأنجبت .

وفى معنى قول الفرزدق قال الطائى وأحسن وذكر وَلَدَيْن توأمين ماتا لعبد الله ابن طاهر[3]:

---

(١) أنسأته : أخرته . (٢) ق ط ، ق : دواحى . (٣) ديوانه : ٣٨٠ .

إن تُرْزَ فى طرفَىْ نهارٍ واحدٍ ... رُزْأين هاجَا لَوْعـةً وبَلَابِلا

فالثقلُ ليس مضاعفا لمطيَّـةٍ ... إلا إذا ما كانَ وَهْماً بازِلا[1]

لهفى على تلك الشاهدِ[2] منهما ... لو أُمهِلتْ حتى تكون شمائلا

لغدا سكونهما حِجًى وصباهما ... حُكماً[3] وتلك الأريحيَّةُ نائلا

إن الهلالَ إذا رأيت نماءهُ[4] ... أيقنت أن سيكون[5] بدرا كاملا

وعلى ذكر التوأمين ألفاظٌ لأهل العصر فى التهنئة بتوأمين

تيسَّرت مِنْحَتَانِ فى وَطَن ، وانتظمت مَوْهِبتان فى قَرَن[6] ، طالع فى أفُق الكمال[7] نَجْماً سَعْد ، وشِهَابا عِزّ ، وكَوْكَبا مَجْد ، فتأهلت بهما رُبوعُ المحاسن ، ووُطِّئَت لهما أكْنَافُ المكارم ، واستشرفَتْ إليهما صدورُ الأسرَّةِ والمنابر . بلغنى خَبَرُ الموهبة المشفوعة بِمِثْلِها ، والنِّعْمَة المقرونة بِعِدْلها[8] فى الفارسَيْنِ المقبلَيْن ، رضيعى العزّ والرفعة ، وقرِيعَى المجدِ والنّعمة ، فشملنى من الاغتباط ما يُوجِبُه ازْدِوَاجُ البُشْرَى ، واقترانُ غَادِيةٍ[9] بأخْرَى .

والشىء يُذْكَر بما قارب ناحيةً من أنحائه ، وجاذبَ حاشيةً من رِدَائه .

[من التضمين والهجاء]

وقال بعض أهل العصر يهجو رجلا وضمّن قول النابغة[10] :

* كالأقحوان غَدَاةَ غبَّ سَمَائه *

(١) الوهم : الجمل الضخم القوى ، والبازل : المكتمل السن .

(٢) فى الديوان : الشواهد فيهما . (٣) فى الديوان : حلما .

(٤) فى الديوان : نموه . (٥) فى الديوان : سيعود . (٦) القرن : الحبل .

(٧) فى س : الملك . (٨) العدل : النظير (٩) فى س : عارفة .

(١٠) سبق فى صفحة ٢٢٨ . وتمامه : جفت أعاليه وأسفله ندى .

وأزاحه عن بابه ؛ فجاء مليحا فى الطبع ، مقبولا فى السمع :

يا سائلى عن جعفر عهدى به ... رَطْب العِجَان وكفُّه كالجلمَد[١]
كالأُقْحُوَان غَدَاةَ غِبّ سمائه ... جفّت أعاليه وأسفله نَدِى

ومن مستحسن ماروى فى هذا التضمين قول الآخر وضمّن بيتاً لمهلهل بن ربيعة :

وسائلةٍ عن الحسَن بن وَهْبٍ ... وعمّا فيه من كَرَمٍ وخِيرِ[٢]
فقلت هو المهذَّب غيرَ أنى ... أراه كثيرَ إرخاء الستور
وأكثر ما يغنّيه فتاهُ ... حُسَيْنٌ حين يخلو بالسُّرور
فلولا الريحُ أسمعَ من بِحُجْرٍ ... صَليلَ البيض تُقْرَعُ بالذُّكور[٣]

أول كذب العرب

وهذا البيت لمهلهل مما يعدّونه من أول كذب العرب ، وكانت قبل لا تكذبُ فى أشعارها ، وكان بين الموضع الذى كانت فيه هذه الواقعة وهى بالجزيرة وبين حُجْر وهى قَصَبَة باليمامة مسافةٌ بعيدة ، فأخرجَه هذا الشاعر بقوّة مُنّته ، ونفاذِ فِطنَته إلى معنًى آخر مستظرف فى بابه . وهذا المذهبُ أحْسَنُ مذاهب التضمين .

ومن مليح ماقى هذا الباب تضمينات الحمدونى فى طيلسان أحمد بن حرب المهلبى ، وسيأتى ما أختارُه من ذلك فى غيرِ هذا الموضع .

[رجع إلى وصف الثغور وما يتصل بها]

وقد جاء فى صفةِ الثغور والأفواه والرّيق شعرٌ كثير . قال جميل :

تمنّيْتُ منها نظرةً وهى وَاقِفٌ ... تُرِيك نقيّاً واضِحَ الثغر أشْنَبا[٤]
كأنّ عَرِيضًا من فَضيض غمامةٍ ... هزيمُ الذّرى تمرى له الريحُ هَيْدَبا[٥]

---

(١) العجان : العنق ، وتحت الذقن ، والأرداف . (٢) الخير : الكرم والشرف والأصل.
(٣) مهذب الأغانى : ١ ــ ١٩٠ . (٤) الشنب ، محركة : ماء ورقة وبرد وعذوبة فى الأسنان . (٥) العريض : السحاب . والفضيض : كل متفرق ، والهزيم : الصوت . والهيدب : السحاب المتدلى .

يُصَفِّقُ بالمسك الذكيّ رُضابهُ إذا النَّجْمُ من بعد الهدوء تَصَوَّبا[١]

وقال[٢] :

وكأن طارقَها على عَلَلِ الكَرَى والنجم وَهْناً قد بَدَا لِتَغَوُّرِ
يَسْتَافُ رِيحَ مُدامةٍ معلولةٍ[٣] بِرُضابِ مسكٍ فى ذكىِّ[٤] العنبرِ

وقال عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى[٥]:

يَمُجُّ ذَكِيَّ المِسْكِ منها مُفَلَّجٌ نقىّ الثنايا ذو غُروب[٦] مُؤَشَّرُ
يَرِفُّ[٧] إذا تَفْتَرُّ عنه كأنّهُ حَصَى بَرَدٍ أو أُقحوان مُنَوِّرُ

وقال الهذلى :

وما صَهْباء صافيةٌ لِصَبٍّ كلون العِرْف مُنْجابٌ قَذاها
تُشَجُّ بنُطْفَةٍ مِن ماء مُزْنٍ أحلّته بِرَضْراضٍ عُراها[٨]
بأطيبَ مشرعاً من طَعْمِ فيها إذا ما طار عن سِنَةٍ كَراها

وقال آخر :

وشقّ عنها قِناع الخزّ عن بَرَدٍ كالدُّرّ لا كَسَسٌ فيه ولا ثَعَلُ[٩]
كأنه أُقحوانٌ باتَ يَضْرِبُهُ طَلٌّ من الدَّجْنِ سَقّاطُ النَّدَى هَطِلُ
كأنّ صِرفاً كُمَيْتَ اللَّوْنِ صافيةً شُجَّتْ بماء سماء شَنَّه جَبَلُ[١٠]
فُوها إذا ما قَضَتْ من نومها سِنَةً أو اعتراها سُباتُ النوم والكَسَلُ

---

(١) تصوب : انحدر . (٢) ديوانه : ٢٩ . (٣) فى الديوان : معجونة ، ويستاف : اشتم . (٤) فى الديوان : أو سحيق . (٥) المختار من شعر بشار : ٢٣٧ .
(٦) فى ط : غروب . (٧) فى المختار : يرق . (٨) تشج : تخلط وتمزج .
النطفة : الماء الصافى . الرضراض : الحصى أو صغارها .
(٩) الكسس : قصر الأسنان أو صغرها ، والثعل : السن الزائدة خلف الأسنان ، أو دخول سن تحت أخرى فى اختلاف من النبت . (١٠) شنه : صبه ، وبرده .

وقال آخر :

هِجانُ اللَّوْنِ واضحة المُحَيَّا ... قطيع الصَّوتِ آنِسَةٌ كسولُ

تَبَسَّمُ عن أغَرَّ له غُرُوبٌ ... فُرات(١) الرِّيقِ ليس به فُلُولُ

كأنَّ صبيبَ غادية لصبِّ ... تُشَجُّ به شآميةٌ شَمولُ

على فيها إذا الجَوْزاء حالَتْ ... محلّقة وأرْدَفَها رَعِيـلُ(٢)

وقال ابن المعتز(٣):

يا نَديميَّ اشْرَبا(٤) واسقِيانا ... قد بَدا الصبحُ لنا واسْتَبانا

واقتُلا همّي(٥) بصِرْفِ عُقارٍ ... واتركا الدَّهْرَ فما شاء كانا

إن للمكروه لَذْعةَ شرٍّ ... فإذا دامَ على المَرْء هانا(٦)

وامزجا كأسي(٧) بريقةِ ألْمَى ... طاب للعطشان وِردًا وحانَا

من فمٍ قد غُرِس الدرُّ فيه ... ناصع الريق إذا الرِّيق خانا

وقال ابن الرومي(٨):

يا رُبَّ رِيقٍ بات بَدْرُ الدُّجى ... يمجّـه بين ثَنَاياكا

يُرْوِي ولا يَنهاكَ عن شُربه ... والماء يُرْوِيك ويَنْهاكا

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر(٩):

وإذا سألتك رَشْفَ ريقك قلت لي ... أخْشَى عُقُوبةَ مالِكِ الأمـلاكِ

ماذا عليك ؟ جُعلت قبلك في الثَّرى ... من أنْ أكونَ خليفةَ المِسْواكِ

أيجوزُ عندك أن يكون مُتَيَّمٌ ... صَبٌّ بحبِّك دون عودِ أراكِ

---

(١) الغروب : كثرة الريق وبلله . وفرات : عذب . (٢) الرعيل : كل قطعة متقدمة من خيل وجراد ونجوم . وفي س ، ف : وعيل . (٣) ديوانه : ٢ — ٦٦ .

(٤) في الديوان : لا تعذلا حسنا . (٥) في الديوان : همنا .

(٦) ليس هذا البيت في ديوانه . (٧) في الديوان : كأسنا .

(٨) الأمالي ١ — ٢٢٨ . (٩) المختار من شعر بشار : ٢٣٨ .

وهذا المعنى يجاوزُ الإحصاء ، ويفوتُ الاستقصاء؛ وكلّه مأخوذ من قول امرئ القيس[١] :

كأنَّ المُدَامَ وصَوْبَ الغَمام وريحَ الخُزامى ونَشْرَ القُطُرْ[٢]

يُعَلُّ به بَرْدُ أنيابها إذا طرَّبَ الطائرُ المُسْتَحِرْ[٣]

فجمع ما فرّقوه ، وأخذه الجعفرى فقصَّر عنه[٤] :

كأن المُدامَ وصَوْبَ الغَمام وريحَ الخُزامى وذَوْب العَسَلْ

يعلُّ به بَرْدُ أنيابها إذا النَّجْمُ وَسْطَ السماء اعْتَدَلْ

ويلحق بهذه المعانى من شعرِ أهل العصر قول أبى على محمد بن الحسين بن المظفر الحاتمى — وذكر خمراً :

مِنْ كفِّ ساقٍ أهْيَفٍ حَرَكاتُه فِتَنٌ تَقَنَّعَ بالملاحةِ واعتَجَرْ

ناولتـــه كأسِى وكَسْرُ جُفونه يوحى إلىَّ أنِ ارتقبهم واصْطَبِرْ

فثنى لهـــا أقلامَ دُرٍّ رَخْصَـةٍ تَهْوِى إلى أفراد دُرٍّ ذِى أشَر

فتحدّرت من كأسِهِ فى ثَغْرِهِ كالشمس تَغْرُبُ فى هِلالٍ من قمر

وأهدى أبو الفتح كشاجم لبعض القيان مِسْواكا وكتب إليها[٥] :

قد بعثناه لـكى تَجْلُو بِهِ واضحاً كاللؤلؤ الرَّطْبِ أغَرّْ

طابَ منه العَرْفُ حتّى خِلتُه كان من رِيقِك يُسْقَى فى الشَّجَرْ[٦]

وأمَا وَاللهِ لو يَعْلمُ مَا حَظُّهُ منكِ لأثْنَى وشكَرْ

ليتنى المُهدَى فيَروِى غُلّتى بَرْدُ أنيابك فى كلِّ سَحَرْ

---

(١) ديوانه : ٨ ، المختار من شعر بشار : ٢٣٩ . (٢) النشر : الرائحة ، والقطر بالضم: العود الذى يتبخر به . (٣) استحر الطائر : غرد بسحر — اللسان مادة سحر والديوان ٨ .
(٤) المختار من شعر بشار : ٢٣٩ مع اختلاف . (٥) المختار من شعر بشار: ٢٣٨.
(٦) فى ط ، س ، ق : فى السحر .

[حديث ابن أبي ربيعة والحارث بن خالد]

وكان ذكر[1] بحضرة ابن أبي عَتيق شعرُ عمر بن أبي ربيعة والحارث بن خالد المخزوميين ، فقال رجلٌ من وَلد خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة : صاحِبُنا الحارث أشعر ، فقــال ابنُ أبي عتيق : دَعْ قولَك يا ابْنَ أخي ، فلِشعرِ ابنِ أبي ربيعة لَوْطةٌ بالقلب[2] ، وعَلَقٌ بالنفس ، ودَرْكٌ للحاجَة ليس لشعرِ الحارث؛ وما عُصِيَ اللهُ بشعرٍ قطّ أكثر مما عُصِيَ بشعر ابنِ أبي ربيعة ، فخُذْ عني ما أصِفُ لك : أشعَرُ قريش من رَقّ معناه ، ولَطُف مَدْخَله ، وسَهُل مَخْرجه ، وتعطّفَتْ حواشيه ، وأنارت معانيه ، وأعْرَب عن صاحبه . فقال ـ الذي من ولد خالد بن العاص : صاحبُنا الذي يقول :

إني وما نَحَرُوا غَداةَ مِنًى ... عند الجِمــارِ تَئُودُها العقلُ
لو بُدّلَتْ أعلى منــازِلها ... سُفْلًا وأصبح سُفلها يَعْلُو
فيكاد يَعْرِفُها الخبيرُ بهــا ... فيردُّه الإقواءُ والمَحْلُ
لعرفت مغناها بما احتمَلَتْ[3] ... مني الضلوعُ لأهلهــا قبْــلُ

فقال ابنُ أبي عتيق : يا بنَ أخي ، استُرْ على صاحبك ، ولا تشاهد المحاضر بمثل هذا ، أما تَطَـيَّرَ الحارثُ عليها حين قَلب رَبْعَها فجعل عاليه سافلَه ، ما بقي إلا أن يسألَ اللهَ حجارةً من سِجّيل وعذاباً أليماً . ابن أبي ربيعة كان أحسنَ الناسِ للرَّبع مخاطبةً وأجلَّ مصاحبةً إذ يقول[4] :

سائِلَا الرَّبْعَ بالبُلَيّ[5] وقولا ... هِجْتَ شوقاً لِيَ الغَداةَ طويلا

---

(١) المختار من شعر بشار : ٢٠٢ ، الأمالي ٢ ــ ١٥ . (٢) لوطة بالقلب : علوق به.
(٣) في المختار : لعرفتها بقديم ما احتملت . (٤) ديوانه : ٩٥ ، الأغاني : ١ ــ ١٠٦ .
(٥) البلي : تل قصير أسفل حاذة بينها وبين ذات عرق (ياقوت) ، وفي س ، ق : التلي .

أين أهلٌ[1] حلوك إذ أنتَ مسرو رٌ[2] بهم آهلٌ أراك جميلا

قال : سارُوا وأمْعنوا واستقلّوا[3] وبكُرْهِي[4] لو استطعتُ سَبيلا

سَئِمونا وما سَئِمْنَا مُقاماً واستحبّوا دَماثةً وسهولا

مزيد يسأل عن معنى قول الحارث

وهاهنا حكاية تأخُذُ بِطرَفِ الحديث : دخل مزيد المدنى على مَوْلًى لبعض أهل المدينة ، وهو جالسٌ على سرير ممهّد ، ورجلٌ من ولد أبى بكر الصديق ، وآخرُ من ولد عمر رضى الله عنهما جالسان بين يدَيْه على الأرض ؛ فلما رأى المولى مزْيَدا تجهّمه؛ وقال : يامزْيد ، ما أكْثَرَ سؤالك ! وأشدّ إلحافك ! جئتَ تسألنى شيئاً ؟ قال : لا والله ، ولكنى أردتُ أن أسألك عن معنى قول الحارث بن خالد[5]:

إنّى وما نحَرُوا غداة مِنًى عند الجمار تئودها العقلُ

لو بُدّلَتْ أعْلَى منازلها سُفْلًا وأصْبحَ سُفْلها يَعْلُو

فلما رأيتك ورأيتُ هذين بين يديك عرفتُ معنى الذى قال . فقال : اعزُبْ فى غير حِفْظ الله ! وضَحِك أهلُ المجلس .

[الأطلال وبكاء الديار]

وأخذ الحارث قوله[6]:

لعرفْتُ مَغْنَاها بما احْتَمَلَتْ منى الضلوعُ لأهْلِها قَبْلُ

من قول امرئ القيس ؛ قال على بن الصباح ورّاق أبى عكرمة قال لى أبو عكرمة : أتعرفُ لامرئ القيس أبياتا سيفية قالها عند موته فى قُرُوحه والحلة المسمومة ، غير قصيدته التى أولها[7] : * ألمّا على الرّبع القديم بعَسْعَسَا[8] * فقلت : لاأعرف غيرها فقال : أنشدنى جماعة من الرواة :

---

(١) فى الديوان والأمالى : أين حى . (٢) فى الديوان والمختار : عفوف .
(٣) فى الديوان : قال ساروا بأجماع فاستقلوا . (٤) فى المختار : ويودى .
(٥) الأغانى : ١ ـ ١٠٩ . (٦) أى قول الحارث بن خالد السابق صفحة ٢٣٨ .
(٧) ديوانه : ١٢٨ . (٨) عسعس : موضع .

لِمَنْ طَلَلٌ دَرَسَتْ آيَهُ   وغيَّره سالِفُ الأخْرُسِ[1]
تَنكَّره العَيْنُ من حادثٍ   ويعرفه شغَفُ الأنفُسِ

وقد أخذه طريح بن إسماعيل الثقفى فقال :

تَسْتَخْبِرُ الدِّمَنَ القِفَارَ ولم تكنْ   لتردَّ أخْبَارا على مُستخبِرِ
فظللت تحكم بين قَلْبٍ عارفٍ   مَغْنى أحِبَّتِهِ وطَرْفٍ مُنْكِرِ

وقال الحسن بن وهب ، إشارة إلى هذا المعنى :

أبليتَ جِسْمى من بعد جِدَّتِهِ   فما تكاد العيونُ تُبْصِرُهُ
كأنه رَسْمُ منزلٍ خلقٍ   تَعرِفُهُ العَيْنُ ثم تنكرُهُ

وقال يحيى بن منصور الذهلى :

أما يَستفيقُ القلبُ إلّا انبرى لَهُ   تَذَكُّرُ طَيْفٍ من سعاد ومَرْبَعِ
أخادع عن عرفانه العَيْنَ إنّهُ   متى تعرف الأطلال عينى تَدْمَعِ

وقال آخر :

هى الدارُ التى تَعْرِ   فُ لِمْ لاتَعْرِفُ[2] الدّارَا
تَرى منها لأحْبابِـ   ـكَ أعْلامًا وآثارًا
فيبدى القلبُ عِرفانًا   وتبدى العَيْنُ إنكارا

وقال أبو نُوَاس، وتعلق أولُ قوله بهذا المعنى، وأنا أنشد الأبيات كلها لمَلاحَتها؛ إذ كان الغرض فى هذا التصرف هو إرادة الإفادة[3] :

ألَا لاأرَى مِثْلَ امترَى اليوم[4] فى رَسْمٍ   تغصُّ[5] به عَيْنِى ويَلْفِظُه وَهْمى
أتت صُور[6] الأشياء بينى وبينه   فظنِّى كَلَا ظَنٍّ[7] وعِلْمى كلَا عِلْمِ

---

(١) الخرس — بسكون الراء — الدهر ، وجمعه أخرس . ورواية البيت فى اللسان :

لمن طلل داثر آيه   تقادم فى سالف الأخرس

(٢) فى س : أم لا تعرف . (٣) ديوانه : ٣٢٥ . (٤) فى ديوانه : مثل امترائى فى .

(٥) فى س : تغص . (٦) فى الديوان : صورة . (٧) فى الديوان : فجهل كلا جهل .

فطِبْ بحديثٍ من حبيبٍ مساعدٍ[1] وساقيــة بين المُراهق والحُــلُم
ضعيفة كَرّ الطَّرْفِ تحسب أنَّها قريبة[2] عَهْدٍ بالإفاقةِ مِنْ سُقْم
يفرّق[3] مالِي من طَرِيفٍ وتَالِدٍ تفوّقَ الصهباء من حلب الكرْم
وإنى لآتى الوَصْلَ[4] من حيث يُتَّقَى وتَعْلَمَ قومى حِينَ أنزع[5] من أرْمِى

[حديث عن شعر أبي نواس]

ورَوَى أبو هفّان ، قال : كان أبُو عبــد الله محمد بن زياد الأعرابى يطعن على أبى نواس ، ويَعِيبُ شِعْرَه ، ويضعّفه ، ويستلينه ؛ فجمعه مع بَعْضِ رُواةِ شعر أبى نواس مجلسٌ[6] والشيخُ لا يَعْرِفُه ، فقال له صاحبُ أبى نواس : أتعرفُ — أعزّكَ الله — الحَسَنَ من هذا ؟ وأنشده : « ضعيفة كَرّ الطَّرْفِ . . . » الأبيات . فقال : لا والله ، فلِمَنْ هو ؟ قال : للذى يقول[7] :

رسمُ الكَرَى بين الجفون مُحيلُ[8] عفّى عليــه بكًا عليك طَويلُ
يا ناظراً ما أقلَعَتْ لحظــاتُهُ حتى تشحّطَ بينهنّ قتيــلُ

فطرب الشيخُ ، وقال : وَيْحك ! لمنْ هذا ؟ فوالله ما سمِعْتُ أجْوَد منه لقديم ولا لمحدَث ! فقال : لا أُخبرك أو تكتبه ؛ فكتبه ، وكتب الأول ، فقال : للذى يقول[9] :

وركْبٍ تَساقَوْا على الأكوارِ بينهمُ كأس الكَرَى فانْتَشَى المَسْقِيُّ والسَّاقِي
كأنّ أرْؤُسهم[10] والنَّوْمُ وَاضِعُها على المناكب لم تُخْلَق[11] بأعناق

---

(١) في الديوان : من نديم موافق . (٢) في الديوان : حديثة .
(٣) في الديوان : تفوق ، وتفوق شرابه : شربه شيئاً بعد شيء . (٤) في الديوان : الأمر من حيث يتقى . (٥) نزع في القوس : مدها . (٦) في ط ، س : فجلس .
(٧) ديوانه : ٣٨٨ . (٨) في الديوان : محيل . (٩) ديوانه : ١٢٨ .
(١٠) في ديوانه : هامهم . (١١) في ديوانه : لم تدعم ، وفي س : لم تعمد .

سارُوا فلم يقطعوا عَقْدًا لِرَاحِلةٍ   حتى أناخُوا إليكم قَبْلَ إشراقِ[1]
من كل جائلةِ الطَّرْفين[2] نَاجِيَةٍ   مشتاقةٍ حملت أوصال[3] مُشْتاقِ

فقال: لمن هذا؟ وكتبه. فقال: للذى تَذُمُّه، وتَعِيب شعره، أبى على الحكمى! قال: اكْتُمْ علىّ، فوالله لا أعود لذلك أبداً.

* * *

شيء من النقد

أخذ قوله: «كأنّ أرْؤُسَهم والنوم واضعها» أبو العباس بن المعتز فقال يصف شَرْبًا:

كأنّ أباريقَ اللُّجَيْنِ لديهمُ   ظِباءٌ بأعْلَى الرَّقْمَتَيْنِ قِيامُ
وقد شربوا حتى كأن رُءوسهم   من اللّين لم يُخْلَقْ لهنّ عِظامُ

البيت الأول من هذين من قول علقمة بن عبدة[4]:

كأنّ إبريقَهم ظَبْيٌ على شَرَفٍ   مفدَّم بِسَبَا الكَتَّان مَلْثُوم[5]

أراد بسبائب، فحذف.

وقد أحسن مسلم بن الوليد فى قوله:

إبْرِيقُنا سَلَبَ الغزالةَ جِيدَها   وحكى المدير بمُقْلَتيهِ غزالا
يَسْقِيك بالألحاظ كأسَ صَبَابةٍ   ويُدِيرها من كفّه جِرْيالا[6]

وأنشد الحارث بن خالد أبياته[7]: * إنى وما نَحَرُوا غداةَ مِنًى * . . . . لعبد الله بن عمر، فلما بلغ إلى قوله:

لعرَفْتُ مَغْنَاها بما احْتَمَلَتْ   مِنّى الضلوعُ لأهلها قَبْلُ

---

(١) فى ق: أشواق.   (٢) فى ديوانه: الضمين ضامرة، وفى س: الناظرين.
(٣) فى ديوانه: أنقاض، وفى س: أعياء.   (٤) الشعراء والشعراء: ١٨٣.
(٥) مفدم: مسدود. وسبا الكتان: أراد سبائب فحذف باقى الكلمة، والسبائب: جمع سبيبة، وهى الشقة، وفى المفضليات: مرثوم، وهو الذى قد رثم أنفه، أى كسر.
(٦) الجريال: الخمر أو لونها.   (٧) السابقة فى صفحة ٢١٥.

قال له ابنُ عمر : قل إنْ شاء الله ، قال : إذاً يفسد الشعر يا أبا عبد الرحمن ، فقال : لاخيرَ في شيء يُفْسِدهُ إن شاء الله .

[تشبيب الحارث بن خالد]

وكان الحارثُ بن خالد أحدَ المجيدين في التشبيب ، ولم يكن يعتقدُ شيئاً من ذلك ، وإنما يقوله تظرّفاً وتحلّماً ؛ وكان أكثرُ شعره في عائشة بنت طلحة ، فلما قُتِل عنها مُصعب بن الزبير قيل له : لو خطبتَها ! قال : إني لأكرَه أنْ يتوهَّم الناسُ عليَّ أني كنتُ معتقداً لِمَا أقول فيها ، وهو القائل :

يا أمّ عِمرانَ ما زالَتْ وما بَرِحَتْ بنا الصَّبابَةُ حتى مسَّنا الشَّفَقُ
القلبُ تاقَ إليكم كَيْ يلاقيَكم كما يتوقُ إلى مَنْجاتِهِ الغَرِقُ
تُوفيك شيئاً قليلا وهي خائفةٌ كما يَمَسُّ بظَهْرِ الحيَّةِ الفَرِقُ

أخذ هذا الطائي فحسّنه فقال[1] :

تأبَى على التَّصْرِيدِ[2] إلّا نائلا إلّا يكنْ ماءً قراحاً يُمذَقِ
نَزْراً كما استكرهتَ عائرَ نفحةٍ[3] من فأرةِ المِسْكِ التي لم تُفْتَقِ

وحجّت عائشةُ بنتُ طلحة ؛ فوجّه إليها يستأذنها في الزيارة ، فقالت : نحن حَرام ، فأخِّر ذلك حتى نُحِلّ ، فلما أحلّت أدْلَجَت[4] ولم يعلم ، فكتب إليها :

ما ضرّكم لو قلتم سدَداً[5] إنّ المنيّةَ عاجلٌ غَدُها
ولها علينا نعمةٌ سلَفَتْ لسنا على الأيام نَجْحَدُها
لو تمّمت أسبابَ نِعْمَتِها تمّت بذلك عندنا يَدُها
إنّي وإيّاها كمُفْتَتِنٍ بالنار تحْرِقُه ويَعْبُدُها

(١) ديوانه : ٢١١ . (٢) التصريد : التقليل . (٣) في الديوان : عائر نفحة .
(٤) أدلج : سار من أول الليل ، وادّلج بتشديد الدال : سار من آخره .
(٥) السدد : الاستقامة .

[ابن أبي عتيق]

وابن أبي عتيق[1] هذا هو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وكان من أفاضل زمانه عِلْماً وعَفافاً ، وكان أخَفَّ الناس فكاهةً ، وأظرفهم مِزاحا[2] ، وله أخبارٌ مستظرفة سيمرُّ منها ما يُستحسن إن شاء الله .

روى الزبير بن أبي بكر أنه دخل على عائشة — يعني بنت طلحة — رضي الله عنهما، وهي لما بها ؛ فقال : كيف أنتِ جُعلت فداكِ ؟ قالت : في الموت ، قال : فلا إذاً ، إنما ظننت في الأمر فُسْحَة ، فضحكت ، وقالت : ما تَدَعُ مَزْحَك بحالٍ !

وفيه يقول عمر بن أبي ربيعة القرشي[3] :

ليت شعري هل أقولَنْ لِرَكْب	بفلاةٍ هُمُ لديها خُشُوعُ[4]
طالما عرّستمُ فاستقلُّوا[5]	حان من نَجْم الثريَّا طلوعُ
إنّ همّي قد نَفَى النومَ عنّي	وحَديثُ النفس مِنّي رَوعُ[6]
قال لي فيها عَتِيقٌ مقالاً	فجرَتْ مما يقولُ الدموعُ
قال لي : ودِّع سليمى ودَعْها	فأجاب القلب لا أستطيعُ[7]
لا تَلُمْني في اشتياق إليها	وابْكِ لي مما تُجِنُّ الضُّلوعُ

[تعريض]

الثريا عند الوليد — قال أبو العباس محمد بن يزيد: قوله : « حان من نجم الثريا طلوع » كناية ، وإنما يريد الثريا بنت علي بن عبد الله بن الحارث بن أُميّة الأصغر، وكانت موصوفةً بالجمال،

(١) مضى ذكره في صفحة ٢٣٩ (٢) في س ، ق : مزاحاً.
(٣) ديوانه : ٤٠ ، الأغاني : ١ — ١٢٣ . (٤) في الديوان : هجوع .
(٥) في الديوان : فاركبوا بي . (٦) في الديوان : وحديث النفس قدما ولوع ، وفي ق: مني ولوع .
(٧) في الديوان : أن لا أطيع .

وتزوّجها سهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى ، فنقلها إلى مصر ، وفى ذلك يقول عمر ، وضرب لهما المثل بالنجمين[١] :

أيها المنكح الثريا سهيلاً ... عمرَكَ الله كيف يلتقيانِ
هى شاميّةٌ إذا ما استقلّت ... وسهيلٌ إذا استقلّ يمانِى

فمات سُهيل عنها ، أو طلّقها ، فخرجت إلى الوليد بن عبد الملك وهو خليفة دمشق تطلب فى دَيْن عليها ، فبينا هى عند أمّ البنين ابنة عبد العزيز إذ دخل الوليدُ فقال : مَنْ هذه عندكِ ؟ قالت : الثريا ، جاءتك تطلبُ فى دَيْن ارتكبها ؛ فأقبل الوليد فقال : أترْوِين من شعر عُمَر بن أبى ربيعة شيئاً ؟ قالت : نعم . أما إنه رحمه الله كان عفيفاً ، عفيف الشعر ، أروى له قوله[٢] :

ما على الرَّسْمِ بالبُلَيَّيْنِ لو بيَّـ ... ـن رَجْعَ السَّلامِ[٣] أوْلَوْ أجابا
فإلى قصر ذى العشيرة بالصا ... ئف[٤] أمسى من الأنيس يَبابا
وبما[٥] قد أرى[٦] به حَيَّ صِدقٍ ... ظاهرى العيش نعمةً وشبابا
وحِسَاناً جَوارِيا خَفِراتٍ ... حافظاتٍ عند الهوى الأحْسابا
لا يُكثِّرْنَ بالحديث ولا يتـ ... ـبَعْنَ يَنْعَقْنَ بالبِهامِ الظِّرابا[٧]

فلمـا خلا الوليد بأم البنين قال : لله دَرّ الثريا ! أتدرين ما أرادتْ بإنشادها ما أنشدتْ من شِعْر عُمَرَ ؟ قالت : لا ، قال : فإنى لما عرّضْتُ لها بعمر عرّضت لى بأن أمى أعرابية ؛ وأم الوليد وَلّادة ابنةُ العباس بن جزء بن الحارث بن زُهير العبسى وهى أمُّ سليمان ، ولا تُعلم امرأة ولدت خليفتين فى الإسلام غيرها ، وغير الخيزران

(١) الأغانى : ١ — ١٢٢ . (٢) ديوانه : ١١٩ ، والأغانى : ١ — ٢٣٧ .
(٣) فى الديوان : التسليم . (٤) فى الديوان : فالصائف ، وفى ط : بالطائف .
(٥) فى ط : ربعاء ، وصفا عن الديوان ، والأغانى . (٦) فى ط : ثوى ، وفى ق : أوى .
(٧) فى ط ، ق : ينعق . والبهام : جمع بهمة وهى الصغير من أولاد الغنم . والظراب : الروابى الصغار .

وهى سبيّة من خَرَشَنَة ، ولدت موسى الهادى وهارون الرشيد ابنى محمد المهدى ، وشاهفرم[١] بنت فيروز بن يزدجرد بن شهريار بن كسرى ابرويز ؛ فإنها ولدت للوليد بن عبد الملك يزيد بن الوليد الناقص وإبراهيم بن الوليد المخلوع ؛ جلس فى الخلافة بعد أخيه يزيد مدةً يسيرة، ثم جاء مروان بن محمد بن مروان آخر ملوك بنى أمية فخلعه وولى بعده .

عزة عند عبد الملك

وشبيه بقول الثريا فى باب التعريض أنه دخلَتْ عَزَّةُ على عبد الملك بن مروان فقال لها : أنتِ عزّةُ كثير ؟ قالت : أنا أم بكر الضمرية ، قال لهـا : يا عزّة ؛ هل تروين من شعر كثيّر شيئاً ؟ قالت : ما أعرفه ، ولكن سمعت الرواة ينشدون له :

قَضَى كلُّ ذى دَيْن فوفّى غريمَهُ ... وعَزّةُ ممطولٌ معنًّى غَرِيمُها

قال : فتروين قوله[٢] :

وقـد زعمَتْ أنى تغيّرت بعدَها ... ومن ذا الّذِى يا عزُّ لا يَتَغَيَّرُ

تغيّرَ حالى والخليقة كالذى[٣] ... عَهِدْتِ ولم يُخْبَرْ بسرِّك مُخْبَرُ

قالت : ما سمعت هذا ولكنى سمعتُهم ينشدون[٤] :

كأنى أنادى صَخْرةً حين أعرضَتْ ... من الصُّمِّ لو تَمْشِى بها العُصْمُ زَلَّتِ

غضوباً[٥] فما تَلْقَاكَ إلا بَخِيلةً ... فمَنْ مَلَّ منهـا ذلك الوصلَ مَلَّتِ

[ابن أبى ربيعة وغزله]

قال : وكل ما ذكر ابنُ أبى ربيعة فى شعره من عتيق ، أو أبى عتيق ، فإنما هو ابنُ أبى عتيق ، وكان عمرُ بن عبد الله بن أبى ربيعة ، واسمُ أبى ربيعة حذيفة بن

---

(١) فى س : وشاهفريه . (٢) الأغانى : ٩ — ٢٧ .
(٣) فى الأغانى : تغير جسمى والخليقة كالتى . (٤) الأغانى : ٩ — ٢٧ .
(٥) فى الأغانى : صفوحا ، والصفوح : المعرضة .

المغيرة بن عبد الله [بن عمر](١) بن مخزوم ، ويكنى أبا الخطاب ، أمه أم ولد سبيّة من حضرموت ، ويقال من حمير ، ومن ثم أتاه الغزل ؛ لأنه يقال : « عشق يمانى ، ودَلّ حجازى » . قال إسحاق بن إبراهيم الموصلى :

إن قلبى بالتل تلِّ عزازٍ مع ظَبْيٍ من الظّباء الجوازى(٢)
شادن لم يَرَ العِراقَ وفيه من ظَرْفِ العراق دَلُّ الحِجازِ

وقال الطائى وذكر نفسه(٣) :

قد ثَقَّفَتْ منه الحجازُ وسَهَّلَتْ منه العراقُ(٤) ورقّقته الشرقُ

وهجرت الثريا عمر فقال(٥) :

قال لى صاحبى ليعلم ما بى أتُحبُّ القتول(٦) أختَ الرَّبابِ
قلتُ وَجْدى بها كوَجْدِك بالما ء إذا ما فقدت(٧) بَرْدَ الشَّرابِ
أزعقَتْ(٨) أمُّ نَوْفَلٍ إذ دعتْها مُهْجَتى ، ما لقاتلى من مَتابِ
أبرزوها مثل المهاة تَهادى بَيْنَ خمسٍ كواعبٍ أترابِ
وهى مكنونةٌ تحدَّر(٩) منها فى أديم الخدَّيْنِ ماء الشبابِ
ثم قالوا تحبّها ؟ قلت بهراً عَدَدَ الرَّمْلِ والحَصَى والتُّرابِ

ولما بلغ ابنُ أبى عتيق قوله :

مَنْ رسولى إلى الثريّا فإنى ضِقْتُ ذرعاً بهجرها والكِتابِ

قال : إياى أراد ، وبى هَتَفَ ونوَّه ، لا جرم ؛ لا ذُقْتُ طعاما أو أشخص إليها ، وأصلح بينهما ؛ فقال مولى لبنى تميم : فنهض ونهضتُ معه ، ثم خرج إلى السوق إلى

(١) من ق ، وفى س : من بنى عمر . (٢) الجوازى : هى الظباء التى تجتزى بالعشب عن الماء .
(٣) ديوانه : ٥٠٠ . (٤) فى الديوان : منه الشآم ، وسهلت منه العراق .
(٥) الأغانى : ١ — ٢٤١ ، ديوانه : ١١٧ . (٦) فى الأغانى : البتول .
(٧) فى الأغانى : إذا ما منعت . (٨) فى ط ، ق : أرهقت . (٩) فى الديوان : تحير .

الضمرتين[١] فأتى قوماً من بنى الديل بن بَكْر يَكْرُونَ النجائب ، فقال : بكم تكْرُونَنى راحلتين إلى مكة ؟ قالوا : بكذا وكذا درهما . فقلت لبعض التجار : استَوْضِعوا شيئاً ، فقال ابن أبى عتيق : ويحك ! إنَّ المِكاسَ ليس من أخلاق الناس[٢] . ثم ركب واحدة وركبت أخرى وأجدَّ السير ، فقلت : ارفق بنفسك . فقال : ويحك ! أبادر حَبْلَ الوصل أن يتقَضَّبا . وما أملح الدنيا إذا تم الوصلُ بين عمر والثريا ! فقدمنا مكة وأتى بابَ الثريا ، فقالت : والله ما كنتَ لَنَا زَوَّارا ، فقال : أجل ، ولكن جئتُ برسالة ، يقول لك ابن عمك عمر : ضِقْتُ ذَرْعاً بهجرها والكِتابِ . فلامه عمر ، فقال ابن أبى عتيق : إنما رأيتك مبادراً تَلْتَمِس رسولا ، فخففْتُ فى حاجتك ، فإنما كان ثوابى أن أُشْكَر .

ووصف ابنُ أبى عتيق لعمر امرأةً من قومه ، وذكر جمالًا رائعاً ، وعقلا فائقاً ، فرآها عمر فشبَّب بها ؛ فغضب ابنُ أبى عتيق وقال : تشبِّبُ بامرأة من قومى ؟ فقال عمر[٣] :

لا تَلُمْنى عتيقُ حَسْبى الَّذى بى ... إنَّ بى يا عتيقُ ما قد كفانى
إنَّ بى مضمراً[٤] من الحب قد أبْـ ... ـلى عِظامى مكنونُهُ وبَرانى

* لا تَلُمْنى وأنتَ زَيَّنْتَها لى *

فقال ابن أبى عتيق :

* أنتَ مِثْلُ الشيطانِ للإنسانِ *

فقال عمر : هكذا ورَبِّ الكعبة قلت .

فقال ابن أبى عتيق : إن شَيْطانك وربِّ القَبر[٥] ربما ألمَّ بى !

---

(١) فى س : الضمريين . (٢) المكاس : المشاحة .

(٣) ديوانه : ٦٦ ، الأغانى : ١ — ٩٥ . (٤) فى الأغانى والديوان : إن بى داخلا .

(٥) فى الأغانى : من عادة أهل المدينة القسم بالقبر وصاحب القبر — يريدون قبر النبى .

وحجّت رَمْلَةَ بنت عبد الله بن خلف أخت طلحة الطلحات فقال عمر فيها(١) :

أصبح القلبُ فى الحبال(٢) رهينا   مُقْصَدًا يوم فارَقَ الظاعنينا

ولقــد قلت يوم مكّةَ سِرًّا   قبل وَشْكِ من بينكم نَوِّلينا(٣)

أنت أهوى العبــاد قربًا وبعدًا   لو تُواتين(٤) عاشقًا محزونا

قاده الحينُ(٥) يوم سرنا إلى الحـ   ـجّ جهارًا ولم يخف أنْ يَحينا

فإذا نعجــةٌ تراعى نِعاجًا   ومهًا نُجّــلٌ(٦) النواظر عِينا

فسبَتْنى بمُقْلــةٍ وبجيــدٍ   وبوجــه يضىءُ للنــاظرينا

قلتُ من أنتمُ فصَــدَّت وقالتْ   أمُبِدٌّ(٧) سؤالَك العــالَمينا

قلت بالله ذِى الجــلالة لــما   أن تبلتِ الفؤادَ أن تصــدقينا

أىّ من تجمع المواسم أنتم(٨)   فأبينى لنــا ولا تــكذبينا(٩)

فرأت حِرْصِىَ الفتــاةُ فقالت   أخْبِريه بعــلم ما تــكتمينا

نحن من ساكنى العراق وكنّا   قبلها(١٠) قاطنين مكّةَ حيفــا

قد صدقناك إذ سألت فمن أنْـ   ـت عسى أن يجرّ شأنٌ شؤونا

ونرى أنّنــا عرَفْناك بالنّعْـ   ـت ظنونًا(١١) وما قتلْنا(١٢) يقينا

بســوادِ الثَّنِيَّتَيْنِ ونَعْتٍ   قد نراه لنــاظرٍ مستبينا

* * *

(١) الأغانى : ١ — ٢١٤ ، ديوانه : ٦٩ .   (٢) فى ديوانه : الجمال .

(٣) فى ط ، ق : بلوينا   (٤) فى الديوان : أنت أهوى البلاد قربا ودلا لو تنيلين .

(٥) فى الديوان : الطرف يوم مر إلى الحين .   (٦) فى الديوان : بهج .

(٧) أمبد : أمقسم أنت سؤالك على الناس واحداً واحداً حتى تعمهم .

(٨) فى الديوان : قولى .   (٩) فى الديوان : ولا تكتمينا .   (١٠) فى الأغانى : قبله .

(١١) فى الأغانى والديوان : بظن .   (١٢) فى ط : قلنا .

آخر من نبذ مفتاح الكعبة من خزاعة

قولها[1] : « وكنا قبلها قاطنين مكة حيناً » ـ أرادت إذ كانت مكةُ لخزاعة . وكان آخرَ من نبذ مفتاح الكعبة من خزاعة أبو غُبْشان فباعه من قُصَىّ بِزِقّ خمر ؛ فقيل في المثل : « أخسر صفقةً من أبي غُبْشان » . وكان أبو غُبْشان إذ باع المفتاح قُصيًّا مريضاً قد يئس من نفسه ، فلما أبلّ من مرضه لامَه قومه ، وسألوه استرْجاعه ، وذلك الذي هاج الحرب بين خُزَاعة وقريش ، فظفر قُصَىّ واستولى على مكة ، وجمع قريشاً بها . ولذلك سمى مجمّعا . قال مطرف الخزاعى :

أبوكم قُصَىٌّ كان يُدْعَى مجمِّعاً ... به جمَّع الله القبائلَ من فِهْرِ

وقال الطائى[2] :

ولما تَقَضَّى نوبَ الحياةِ وأوْقَعَتْ ... به نائباتُ الدهرِ ما يتوقّعُ
غدا ليس يَدْرِى كيف يصنعُ مُعْدِمٌ ... ذرى[3] دَمْعه في خدِّه كيف يصنعُ
ولم أنسَ سَعْىَ الجودِ خَلْفَ سريرِهِ ... بأكْسَفِ بالٍ يستقلُّ[4] ويظلَعُ
وتكبيرهُ خَمْسًا عليه مُعْلنًا ... وإن كان تكبيرَ المصلين أرْبعُ
وما كنتُ أدرى يَعْلَمُ اللهُ قَبْلَها ... بأنّ النَّدَى في أهْلِه يتشيّعُ
غدَوْا في زَوايا نعشِه وكأنّما ... قريشٌ قريشٌ يوم ماتَ مُجمِّعُ

وقال الشاعر في أمر قصىّ وأبي غُبشان :

أبو غبشان أظْــلَمُ من قصىّ ... وأظلم من بنى فهرٍ خزاعه
فلا تَلْحوا قُصَيًّا في شِرَاهُ ... ولوموا شَيْخَكُم إذْ كانَ باعَه

* * *

وكان عمر أسود الثنيّتين[5] .

---

(١) أراد قولها السابق الذى حكاه فى البيت الحادى عشر صفحة ٢٤٩ .
(٢) ديوانه : ٣٧٣ . (٣) فى س : مغرم ذرى .
(٤) فى الديوان : يستقيم . ويستقل ويظلع : ينهض ويسقط ، وفى ق : يطلع .
(٥) الإشارة إلى البيت الأخير فى قصيدة عمر فى الصفحة السابقة .

قال مولى ابن أبي عتيق بلال : أتيتُ الثريّا مسلمًا عليها ، فقالت : أنشدني لعمر ، فأنشدتها * أصبح القلبُ في الحِبَال رَهينا * فقالت الثريا : إي والله ، لئن سلِمت له لأردَنّ مِنْ شَأوِه ، ولأثنين من عِنَانه ، ولأعرفنّه نفسه ! فمررت فيها حتى انتهيت إلى قوله :

قُلْتُ مَنْ أنتمُ فَصَدَّتْ وقالت أَمُبِـدٌ سُؤالك العالمينا

فقالت : أو قد أجابته بهذا أي وقت ؟ فلما انتهيت إلى قوله * وترى أننا عرفناك بالنّعت * قالت : جاءت النَّوْكاء[1] بآخِرِ ما عندها في مَوْقِفٍ واحد .

وسأله أخوه الحارث وهو المعروف بالقُبَاع[2]، وكان من أفاضل أهل دهره — أن يسأله ترك يترك الشعر ، ورغب إليه في ذلك ووعظه ، فقال : أما ما دمتُ بمكة فلا أقدرُ ، ولكني أخرج إلى اليمن فخرج . فلما سار إلى هناك لم تَدَعْهُ نفسُه وتَرْكَ الشعر ، فقال[3]:

أخو عمر الشعر

هيهات من أمة الوَهّابِ منزلنا إذا نزلنا بسيفِ[4] البحر من عَدَنِ
واحتلّ أهلُك أجيادًا[5] وليس لنا إلا التذكّر أو حظٌّ من الحَزَنِ
بل ما نسيت غداةَ الخَيْف[6] موقفها وموقفي وكِلَانا ثَمَّ ذُو شجَنِ
وقولها للثريا وهي مطرقةٌ[7] والدمعُ منها على الخدّين ذُو سَنَنِ[8]
بالله قولي له في غير مَعْتَبةٍ ماذا أردتَ بطُولِ المُكْثِ في اليمن[9]
إن كنت حاولت دُنْيا أو ظفِرْتَ[10] بها فما أخذتَ بترك الحجّ من ثَمَنِ

فلما بلغ الشعر الحارث قال: قد علمنا أنه لا يَفِي.

---

(١) النوكاء : الحمقاء . (٢) إنما لقب القباع لأن عبد الله بن الزبير كان ولاه البصرة فرأى مكيالا لهم فقال : إن مكيالهم هذا لقباع . وهو الشيء الذي له قعر ، فلقب بالقباع .
(٣) الأغاني : ١ — ١١١ ، ديوانه : ٦٤ . (٤) سيف البحر : ساحله .
(٥) أجيادا : موضع بمكة . (٦) في الأغاني : ما أنس لا أنس يوم الخيف موقفها .
والخيف : موضع بمنى . (٧) في الأغاني : وهي باكية . (٨) في الديوان : يوم ذي خشب ، وذو سنن : ذو طرائق . (٩) في الديوان : في عدن . (١٠) في الديوان : أو نعمت بها .

إثارة الحنين

وروى سفيان بن عيينة عن ابن جريج ، قال : لزمني دَيْن مرّةً فضاقتْ ساحتي وبلادي بي ، فتوجّهت إلى مَعْن بن زائدة باليمن ، فقال : ماأقدمك هذه البلدة ؟ قلت : دَيْنٌ طردني عن وطني ، قال : يُقْضَى دَيْنُك ، وتُرَدّ إلى وطنك محبوًّا مَحْبُورًا . قال : فأقمت عنده ، ثم رأيتُ الناس يرحلون إلى الحج ، فحننت إلى مكة وذكرت قول ابن أبي ربيعة ، وذكر الأبيات . . . فأتيتُ باب مَعْن فقلت للحاجب : استأذِنْ لي على الأمير ، فلما دخلت عليه قال : إنّ لك لَحادثَ خَبرٍ ! قلت : أستَوْدِعُ الله الأمير وأستحفظه عليه . قال : وما هاج هذا منك ؟ فقلت : رأيت خروجَ الناس إلى الحج وذكرت قولَ عمر ؛ فحننت إلى مكّة . فقال : أنْتَ وحنينك ، وإن كنتُ بفراقك ضَنينا ، وسينْبعُك ما تحتاجُ إليه ؛ فسِرْ مصاحَبا . قال : فسِرْتُ إلى رَحْلِي فأتبعني بمالٍ وثياب ومَطَايا ودوابّ ، وسرت إلى مكّةَ من فَوْرِي .

عفة عمر ابن أبي ربيعة

وكان عمر على غَزَله وما يذكره في شعره عفيفا ؛ حدّث المغيرة بن عبد الرحمن عن أبيه قال : دخلت مع أبي مكّةَ ، فجاءه عمر فسلّم عليه ، وأنا غلامٌ شابّ وعليّ جُبّة ، فجعل يَأْخُذُ بخصلة من شَعْري[1] ، فتمتدّ في يده ثم يُرْسِلُها فترجع ، فيقول : واشباباه ! فقال لي : يابن أخي ، قد سمعتَ قولي : قُلْتُ لها وقالت لي ؛ وكلُّ مملوك لي حرّ إن كنت قطّ كشفت عن فرج حَرَام ! قال : فقمت وفي نَفْسِي من يمينه شيء ؛ فسألتُ عن رقيقه فقيل لي : أما في هذا الحول فسبعون .

قول عمر في الساعدة

ويستحسن قول عمر في الساعدة[2] :

وخِلٍّ كنتُ عينَ النّصح منهُ إذا نظرَتْ ومستمِعاً مُطِيعـا

أطاف بِغَيّـةٍ فنَهيت عَنْها وقلت له أرى أمراً شنيعـا

أَرَدْتُ رشَادَه جهـدي فلمّا أبى وعَصَى أتَيْنَاها جميعـا

(١) في ق ، س : بخصلة منها . (٢) المختار من شعر بشار ٢٢٨ ، الأغاني ٣-٧٢ .

وهذا مأخوذ من قول دريد بن الصِّمة الجُشَمى[١] :

أمرتهمُ أمرى بمُنعَرَج اللِّوى ... فلم يستبينوا الرُّشْدَ إلّا ضُحَا الغَدِ
فقلت لهم ظُنّوا بألفَىْ مُدَجَّجٍ ... سَرَاتهم فى الفارسىّ المسرَّدِ
فلما عصونى كنتُ منهم وقد رأى ... غوايتَهم وأننى غَيْرُ مُهْتَدِى
وما أنا[٢] إلّا من غَزِيّةَ إنْ غَوَتْ ... غَوَيْتُ وإن تَرْشُدْ غَزِيّةُ أرْشُدِ

من جيد شعر عمر

ومن جيد شعره[٣] :

يقولون إنى لستُ أصْدُق فى الهوَى ... وإنّىَ لا أرعاكِ حين أغِيبُ
فما بالُ طَرْفِى عفَّ عما تَساقطَتْ ... له أنفسٌ من مَعْشَرٍ وقلُوبُ
عشيةَ لا يستنكر[٤] القومُ أن يَرَوْا ... سَفَاهَ حِجًى[٥] ممن يُقال لَبِيبُ
ولا فتنةً من ناسكٍ أو مَضَتْ له ... بِمَيْنٍ الصبا كَتْلَى القيام لَغُوبُ
تروَّحَ يرْجُو أن تُحَطَّ ذُنُوبُه ... فآبَ وقد زِيدَتْ عليه ذُنُوبُ
وماالنُّسْكُ أسْلَانى ولَكِنْ لِلْهَوَى ... على العين مِنّى والفؤادِ رَقِيبُ

ونظر عمرُ بن أبى ربيعة إلى فتى من قريش يكلّم امرأة فى الطّواف ، فعاب ذلك عليه ، فذكر أنها ابنةُ عمه ؛ فقال : ذلك أشْنَع لأمرك . قال : إنى خطبتُها إلى عمى ، وإنه زعم أنه لا يزوّجنى حتى أصدِقَها أربعمائة دينار ، وأنا غيرُ قادر على ذلك ، وذكر مِنْ حاله وحبّه لها . فأتى عُمَرُ عمّه ، فكلّمه فى أمرها ، فقال : إنه مُمْلِق ، فزوّجه وساق عُمَرُ عنه المَهر .

أعتق رقبة لكل بيت

وكان عمر حين أسنّ حَلَف ألّا يقول بيتا إلا أعتق رقبة ، فانصرف إلى منزله يحدّث نفسَه ، فجعلت جاريته تكلّمه ولا يجيبُها ؛ فقالت : إن لك لشأنا ، وأراك تريدُ أن تقولَ شعرا ، فقال[٦] :

---

(١) الشعر والشعراء : ٧٢٦ . (٢) فى الشعر والشعراء : وهل أنا .
(٣) الأغانى : ١ — ١٥٠ . (٤) فى الأغانى : لا يستنكف .
(٥) فى الأغانى : سفاه امرِئٍ . (٦) الأغانى : ١ — ١٤٥ .

تقول وَليدتي لمـا رأتني ... طَرِبْتُ وكُنْتُ قد أقصرتُ حِينا
أراكَ اليوم قد أحدَثْتَ أمْرًا[1] ... وهاجَ لكَ الهوى داءً دَفِينـا
وكنتَ زعمتَ أنك ذُو عَزَاءٍ ... إذا ما شئتَ فارقتَ القَرِينـا
لعمرك هـل رأيتَ لها سَمِيًّا[2] ... فشاقكَ أمْ لقيتَ لهـا خَدِينا
فقلتُ شكا إليَّ أخٌ مُحِبٌّ ... كَبَعْض زَمانِنا إذْ تَعْلَمِينا
فقصَّ عليَّ ما يَلْقَى بهنـدٍ ... فذكَّرَ بَعْضَ ما كنا نَسِينا
وذُو الشوقِ القديم وإن تعزَّى ... مَشُوق حين يَلْقَى العاشقِينا
فكم من خُلَّةٍ أعرضتُ عنها ... لغير قِلًى وكنتُ بهـا ضَنِينًا
أردت بِعادَها فصَدَدْتُ عَنْهَا ... وإن جُنَّ الفؤادُ بهـا جُنُونا

ثم دعا تسعة من رقيقه فأعتقهم .

نسكه وتركه الشعر قال عثمان بن إبراهيم : حججت أنا وأصحابٌ لنا ، فلما رجعنا من مكّة مررنا بالمدينة ، فرأينا عمر بن أبي ربيعة ، وقد نَسَك وتَرَك قول الشعر ، فقال بعضنا لبعض : هل لكم فيه ؟ فلنا إليه ، وسلّمنا عليه ، وجلسْنا وهو ساكتٌ لا يكلّمنا . فقال له بعضنا : أيعجبك قول الفرزْدق[3] :

سَرَتْ لَمّيْنِك سَلْمَى بعد مَغْفاها ... فبِتَّ مُسْتَقِلِيًا[4] من بعد مَسْراهَا
فقلتُ أهْلًا وَسَهْلًا مَنْ هَدَاكِ لَنَا ... إن كنتِ تِمْثَالَهَا أو كُنْتِ إيّاهَا
تأتى الرياح التى من نحو بَلْدتكم ... حتى تقول دَنَتْ منـا بِرَيّاها
وقد تراخت بهم عَنّا نوًى قُذُفٌ ... هيهات مُصْبَحها مِنْ بَعْدِ مُمْساها[5]
من أجلها[6] أعنى أن يُلاقيني ... من نحو بَلْدَتِها نَاعٍ فينْعاها

---

(١) فى الأغانى : شوقا .　　(٢) فى الأغانى : بربك هل أتاك لها رسول .
(٣) الأغانى ١ — ١٧٠ ، وليس هذا الشعر فى ديوانه ، ونسب فى الأغانى إلى جنادة العذرى ، وارجع إلى الأغانى فى هذه النسبة .　　(٤) فى الأغانى : مستلبها .
(٥) نوى قذف : بعيدة .　　(٦) فى الأغانى : من حبها .

كما أقولُ افتراقٌ لا اجتماعَ[1] لهُ ... وتُضْمِرُ النفسُ يأساً ثم تَسْلاها

ولو تموتُ لراعتني وقلتُ لها ... يا بُؤْسَ للدهرِ ليتَ الدهرَ أبقاها

فلم يهشّ لذلك ! فقال الآخر : أيعجبك قول العُذْرى[2] :

لو حزّ[3] بالسيف رأسي في مودّتها ... لمرَّ يَهْوِي سريعاً نحوَها رَاسِي

ولو بَلِي تحتَ أطْبَاقِ الثّرَى جَسَدِي ... لكنتُ أبلَى وما قلبي لكم نَاسِي

أو يَقْبِضِ اللهُ رُوحِي صارَ ذِكْرُكمو ... رُوحاً أعيشُ به ما عشتُ في الناسِ

لولا نسيمٌ لذكراكم يُرَوِّحني ... لكنتُ محترقاً من[4] حَرِّ أنفاسي

عمر مع هند وأترابها

فتحرك ثم قال : يا وَيْحَهُ ! أبعد ما يحزّ رأسه يَميل إليها ؟

ثم أنشأ يحدثنا[5] فقال : أتاني خالد الدليل[6] فقال : إن هندا وأترابها بموضع كذا وكذا من الصحراء أيام الربيع . فقلت : كيف الحيلة؟ فقال: تتلثّم وتكْتَفِل[7] كأنك طالبُ ضالّة ، ففعلت فدفعت إليهن ، فقلن : يا أعرابي ، ما تطلب ؟ قلت : ضالّة لي ، فقلن : قد كَلِلْتَ يا أعرابي ، فلو جلست فأصبْتَ مِنْ حديثنا وأصبنا من حديثك ، ولعلك تروح إلى وجود ضالّتك ، فنزلت ؟ فلما امتدّ الحديثُ حسرت هندٌ لِثَامِي ، وقالت : أتُرَاك خدعتنا ؟ نحن والله خَدَعْنَاك ، وبعثنا إليك خالدا ، ورأينــا خلاء ومنظرا فأرَدْنَاك ، ونظرت في دِرْعِي[8] فأعجبني ما رَأَيْت ، فقلت : يا أبا الخطاب ! قال عمر : فقلت : لبّيك ، وفي ذلك أقول[9] :

ألم تسألِ الأطلالَ والمُتَرَبَّعا ... بِبَطْنِ حُلَيَّات دَوَارِسَ بَلْقَعا

إلى السَّرْحِ[10] من وادي المُغَمّس بُدِّلَت ... معالمُهُ وَبلاً ونَكْبَاءَ زَعْزَعا[11]

---

(١) في الأغاني : فراق لا لقاء له . (٢) الأغاني : ١ — ١٧٤ . (٣) في الأغاني : جذ.
(٤) في س : في حر . (٥) الأغاني : ١ — ١٧٥ . (٦) في الأغاني : الخريت .
(٧) اكتفل البعير : جعل له كفلا . (٨) درع المرأة : قميصها .
(٩) الأغاني : ١ — ١٧٦ ، ديوانه : ٣٣ . (١٠) السرح : موضع ، وفي الديوان : إلى الشرى . وفي ق : الصرح . (١١) نكباء زعزع : ريح شديدة .

فيبخَلْنَ أو يُخبِرن بالعِلْم بَعدَما ... نَكَأْنَ فؤاداً كان قِدْماً موجعا[1]
لهندٍ وأتراب لهنـــدٍ إذِ الهوى ... جميعٌ وإذ لم تَخْشَ أن يتصدَّعا
وإذ لا نطيعُ العاذلين[2] ولا نَرَى ... لواشٍ لدينا يَطلُبُ الهجْرَ[3] مَطْمَعا
وإذ نحنُ مثل المـاء كان مِزَاجه ... كما صفَّق الساقي الرحيقَ المُشَعْشَعا
تُنُوعِنَّ[4] حتى عاودَ القلب خَبْله ... وحتى تذكَّرت الحبيبَ المودَّعا
فقلت أُطرِبْن بالحسْنِ إنما ... ضَررْتَ فهل تَستطيعُ نَفْعا فتنفعا
وأشريت فاستشرى وقد كان قد صَحَا ... فؤاد بأمثال المَهَا كانَ مُولَعا
لئن كان ما حدَّثت حَقًّا فما أرى ... كمثل الألى أطرَيْت في الناس أربعا
فقال فقم فانظر فقلت وكيفَ لي ... أخافُ حديثـا أن يشاع[5] فيَشْنُعا
فقال اكتفل ثم التثم فأتِ باغيا ... فسلِّم ولا تُكثِرْ بأَنْ تتورَّعا
فأقبلت أهْوِي مثل ما قال صاحبي ... لموعدِه أُزجي قلوصا موقَّعــا[6]
فلمـا توافقنا وسلَّمتُ أقبلت ... وجُـوهٌ زهاها الحسن أن تتقنَّعا
تبالَهْنَ بالعِرْفَان لمَّا رأينني ... وقلنَ امرُؤٌ باغٍ أكَلَّ وأوضعا[7]
وقرَّبْنَ أسبـابَ الهوى لمتيَّمٍ ... يَقيس ذِراعا كلَّما قِسْنَ إصْبَعا
فلما تنازعن الأحاديث قُلْن لي ... أخِفت علينــا أن نغرَّ ونخدَعا
فبالأمس أرسلنـا بذلك خالداً ... إليك وَبيّنَّا له الأمرَ أجمعا
فما جئتنا إلا على وفق مَوْعدٍ ... على ملأٍ منَّا خَرَجْنا له مَعا
رأينا خلاءً من عُيونٍ ومنظراً ... دَمِيثَ[8] الرُّبى سَهْل المَحَلَّة مُمْرِعا

---

(١) في الديوان : مفجعا . ونـكأ الجرح : قشره قبل أن يبرأ فندى .
(٢) في الأغاني : الـكاشحين . (٣) في الأغاني والديوان : الصرم موضعا .
(٤) في ط ، ق : تنوجين . (٥) في الديوان : يشيع .
(٦) الموقع : البعير تـكثر آثار الدبر عليه . (٧) أكل : أعيا . أوضع : أسرع في سيره
(٨) دميث : سهل .

وقلَّ كريمٌ نال وَصْلَ كرائمٍ … فحقَّ له في اليوم أن يتمنَّعا

وقوله : « وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا » يقول : هذه الوجوهُ مُدِلّةٌ بجمالها فلا تختمر ، فتستر شيئاً عن الناظرين إليها . وقد أشار إلى هـــذا المعنى الشماخ بن ضرار يصف ناقته[1] :

كأنَّ ذِرَاعَيْها ذراعُ[2] مُدِلَّةٍ … بُعَيْدَ الشباب[3] حاولت أن تعذَّرا
من البيض أعطافاً إذا اتّصلت دعَتْ … فِراسَ بن غنم أو لَقيطَ بن يَعْمُرا
بها شَرَقٌ من زعفرانٍ وعنبرٍ … أطارت من الحسن الرِّداءَ المحبَّرا

[ستر الوجه]

قال : وكانت عائشة بنت طلحة بن عبيد الله لا تَسْتُر وجهها ، فلمـــا دخلت على مُصْعب بن الزبير قال لها في ذلك ، فقالت : إن الله تعالى وَسَمني بِمِيسَم جمال ، فأحببتُ أن يراه الناس ، والله ما بي وَصْمة أستَتِر لها .

وقال على بن العباس الرومى يصف قينة :

لم يعتصم عودُها بزامرة … ولا انْضَوى وَجْهُها إلى السِّتْرِ

وقد ردَّد معنى قوله : « لم يعتصم عودها بزامرة » فقال يصف بَرْعة الكبيرة :

غنَّتْ فلم تحوج إلى زَامِرٍ … هل تحوج الشمسُ إلى شَمْعِه
كأنما غنَّت لشَمْسِ الضحى … فألبستها حُسْنَها خِلْعه
كأنمـــا رَنَّةُ مسموعها … رِقَّةُ شَكْوَى سَبقَتْ دَمْعه
تُهْدِي إلى قلبك ما يشتهى … كأنَّها قد أطلعت طِلْعه
يجتمع الظَّرْفُ لجُلاّسِها … والحسنُ والإحسانُ في بُقْعه
طَفَّل على من حصلت عندهُ … فبعض تطفيل الفتى رِفْعَه[4]

---

(١) ديوانه : ٢٨ . (٢) في الديوان : ذراعا . (٣) وفي رواية : بعيد السباب .
(٤) التطفيل : غشيان الوليمة من غير دعوة .

ربيع غيثٍ فانتجعْ رَوْضَهُ ... فلن يُعابَ الحرّ بالنجعه[1]

[الصلع]

وكان ابن الرومى لا يزال معتماً ، وكان يغضب إذا سُئل عن ذلك . وسأله بعضُ الرؤساء لِمَ تَعْتَمّ ؟ فقال بديها :

يأيها السَّائلى لِأُخبِرَهُ ... عَنِّى لِمْ لا أرَاكَ مُعْتَجِرا

أستر شيئاً لو كان يمكننى ... تعريفه السَّائلينَ ما سُتِرا

وقد بيّن العلة التى أوجبت اعتمامه فى قوله[2] :

تعممتُ إحصَاناً لرأسى بُرْهةً ... من القَرّ يوما والحَرُورِ إذا سَفَعْ

فلمــا دهى طولُ التعمُّم لِمّتى ... وأودى[3] بها بعد الإطالة والفَرَع[4]

عزمتُ على لُبْس العمامة حيلةً ... لتستر ما جرّتْ علىّ من الصَّلَع

فيالك مِن جانٍ علىّ جِنايةً ... جملت إليه من جنايته الفَزَع

وأعجب شىء كان دائى جملتهُ ... دَوَائى على عَمْدٍ وأعجِبْ بأنْ نفعْ

وهذا كقوله ، وإن لم يكن فى معناه ، وقد رأيت من ينسبه إلى كشاجم :

طربتُ إلى المرآة فروَّعتنِى ... طوالعُ شيبتين ألمّتا بِى

فأما شَيْبةٌ ففزعتُ منهـــا ... إلى المقراض حُبًّا للتَّصَابِى

وأما شَيْبةٌ فصفحتُ عنهـا ... لتَشْهد بالبراءةِ من خِضَابِى

فأعجِبْ بالدليلِ على مَشِيبى ... أقمتُ به الدليل على شَبَابِى

وهو القائل فى صفة رجل أصلع :

يجذب من نقرته طرةً[5] ... إلى مَدى يقصرُ عن ميلهِ

(١) أصل النجعة : طلب الكلأ فى موضعه . (٢) ديوانه : ٤٥ .
(٣) فى الديوان : فأزرى بها بعد الأصالة . (٤) الفرع : مصدر الأفرع ، وهو التام الشعر . (٥) الطرة : الناصية .

فوجْهُهُ يَأْخُذُ من رأسِهِ   أخْذَ نهار الصَّيْف من لَيلِهِ

وقال أعرابي :

قد تَركَ الدَّهْرُ صَفَاتِي صَفْصَفَا   فصار رَأْسِي جَبْهةً إلى القفَا
كأنه قد كان رَبْعاً قَفْقَفَا

أعرابي يعظ سليمان بن عبد الملك

[من كلام الأعراب]

قال أعرابيٌّ لسليمان بن عبد الملك[1] : إني أُكلِّمك يا أميرَ المؤمنين بكلام فاحتمِله؛ فإنّ وراءه إن قبِلتَه ما تحبُّه . قال : هاتِه يا أعرابي ؛ فنحن نَجُودُ بسَعَةِ الاحتمال على مَنْ لا نَأْمن غَيْبَته ، ولا نَرْجُو نصيحته ، وأنت المأمون غيباً، الناصح جَيْبا[2]. قال : فإني سأُطْلِقُ لساني بما خَرِست عنه الألسُن ، تأديةً لحق الله تعالى ؛ إنه قد اكتنفك رِجَالٌ أساءوا الاختيارَ لأنفسهم ، وابتاعوا دُنْيَاك بدينهم ، ورضاكَ بسُخْطِ ربهم ، وخافوك في الله ولم يخافوا اللهَ فيك ، فهم حربٌ للآخرة ، وَسِلْمٌ للدنيا ؛ فلا تأْمَنْهم على ما ائتمنك اللهُ عليه ؛ فإنهم لم يَألُوا الأمانةَ تضييعا ، والأمةَ كسفا وخَسْفا[3]، وأنت مسئول عمـــا اجترموا ، وليسوا بمسئولين عما اجترمتَ ؛ فلا تُصْلِحْ دنياهم بفساد آخرتك ؛ فإن أعظَم الناسِ عند الله غَبْنًا مَنْ باع آخرَته بدُنْيَا غيره .

فقال سليمان: أما أنتَ يا أعرابي فقد سلَلْتَ لسانك وهو سَيْفُكَ ، قال : أجل يا أمير المؤمنين، لكَ لا عليك.

أعرابي يصف المطر

وروى العتبي عن أبيه عن مولى لعمرو بن حريث[4] قال : شخصتُ إلى سليمان ابن عبد الملك فقيل لي : إنك تَرِدُ على أفصحِ العرب ، وسيسألك عن المطر ، فانظُرْ ما تجيبه . فقلت : ما عنـــدى من الجواب إلاّ ما عند العامّة . فقيل لي : ما ذلك

(١) عيون الأخبار : ٢ ــ ٢٣٧ ، العقد الفريد : ١ ــ ٣٠٧ .
(٢) كناية عن سلامة الطوية . (٣) في عيون الأخبار : عسفا ، والعسف : الظلم ، والخسف : الذل . (٤) في س : حارث .

يُقَنِّع عنده. فلقيني أعرابي فقلت: هل لَك في دِرْهمين؟ فقال: إنّي واللهِ محتاج إليهما، حريصٌ عليهما، فما شَأْنُك(١)؟ قلت: لو سألَك سائل عَنْ هذا المطر بِمَ كنتَ تُجيبه؟ قال: أو يَعْيَا بهذا أحد؟ قلت: نعم، سارِئلك! قال: أتَعْيَا أن تقول: أصابتنا سماء، عَمَد(٢) لها الثّرَى، واتّصَل بها العُرَى، وقامَتْ منها الغُدُر، وأتتك في مثل وِجَار(٣) الضبُع. فكتبتُ الكلامَ وأعطيتُه درهمين؛ فكان هِجِّيراى على الراحلة(٤)؛ فإذا نزلت أقبلت عليه وأمثل نفسي كأنى واقفٌ بين يديه، وقد سلّمت عليه بالخلافة وهو يَسْألني عن المطر!

فلما انتهيتُ إليه سألني فاقتصَصْتُ الكلامَ، فكَسَر إحْدَى عينيه، وقال: إنّي لأَسْمَعُ كلاما ما أنت بأبي عُذْرَته(٥). قلت: صدقت! وحياتك يا أمير المؤمنين، اشتريتُه بدرهمين! فاستغرب ضَحِكا، ثم أحْسَن صِلَتي.

* * *

أعرابي يمدح رجلا

وقال أعرابي يمدح رجلا:

حَلِيمٌ مع التَّقْوَى شُجَاعٌ مع الجَدَا(٦) ... نَدِيٌّ لا يَنْدَى السَّحَابُ سَكُوبُ
ويَجْلُو أمورًا لو تَضَيَّفْنَ غيرَه(٧) ... لمات خُفاتاً(٨) أو لكادَ يذوبُ
شديد مَناطِ القَلْبِ في الموقف الذي ... به للقلوبِ الدائبين وَجِيبُ
فتًى هو مِنْ غَيْرِ التخلّق ماجِدٌ ... ومن غَيْرِ تأديبِ الرِّجَال أديبُ

* * *

مدح لبعض المحدثين

وقال بعض المحدَثين يَمْدَح:

فتًى يَجْتَنِلُ المعروفَ قبل سُؤالِه ... ويَجْعَل دون العُذْرِ فضل التكرمِ
أغرّ متى تَقْصِدْ به فَضْلَ حظِّهِ ... تُصِبْ ومتى تطلب به الغُنْم تَغْنَمِ

---

(١) في س: سيبك. (٢) عمد الثرى: بلّه المطر، فهو عَمِد، تقبض وتجعد وتدى وتراكب بعضه على بعض (اللسان — مادة عمد). (٣) الوجار: جحر الضبع وغيرها.
(٤) كان هجيراه على الراحلة: أي دأبه وشأنه. (٥) ليس بأبي عذرته: ليس صاحبه.
(٦) الجدا: العطية. (٧) في س: مثله. (٨) فجأة.

على رأيه ينضمّ منصدع الصّفا ويَنحلُّ من عُقَد العُرَى كلُّ مُبْرَمِ
له عَزْمةٌ أغنى من الجيش في الوَغَى وخَطْرَةُ رامٍ كالحُسام المصمّمِ

جملة من كلام أبى الفضل أحمد بن الحسين الهمذانى بديع الزمان

وهــــذا اسمٌ وافق مُسَمّاه ، ولفظٌ طابقَ مَعْناه ، وكلام غَضّ المكاسر ، أنيق الجواهر ، يكادُ الهواء يسرقه لُطْفًا ، والهوى يَعْشَقه ظَرْفًا .

مقامات البديع

ولما رأى أبا بكر محمد بن الحسين بن دُرَيد الأزدى أغْرَب بأربعين حديثًا ، وذكر أنه استنبطها من ينابيع صَدْره ، واستنخبها من معادِن فِكْرِه ، وأبداها للأبصــار والبَصائر ، وأهداها للأفكار والضمائر ، فى معارض أعجمية ، وألفاظ حوشيّة ؛ فجاء أكثرُ ما أظهر تَنْبُو عن قبوله الطباع ، ولا ترفعُ له حجُبَها الأسماعُ ، وتوسّع فيها ؛ إذ صرّف ألفاظَها ومعانيها ، فى وجوه مختلفة ، وضروبٍ متصرّفة ، عارضها بأربعمائة مقامة فى الكُدْيَة ، تذوب ظَرْفًا ، وتقطرُ حُسْنًا ، لا مناسبةَ بين المقامتين لفظًا ولا معنى ، وعطف مُسَاجلتها ، ووقَفَ مناقلتها بين رجلين سمّى أحدهما عيسى بن هشام ، والآخر أبا الفتح الإسكندرى ، وجعلهما يتهاديان الدّر ، ويتنافثان السِّحر ، فى معانٍ تُضْحِكُ الحزين ، وتحرّك الرصينَ ، يتطلّع منها كلّ طريفة ، ويوقف منهـــا على كلّ لطيفة ، وربما أفرد أحَدهما بالحكاية ، وخصّ أحدهما بالرواية ؛ وسأذكر منها مالا يخل طولُه بالشرط المعقود ، ولا ينافى حصوله الغرضَ المقصود .

بعض كتبه : كتاب منه إلى الميكالى

كتب إلى أبى نصر أحمد بن على الميكالى(١) :

كتابى أعزّ الله الأمير ، وبودّى أن أكونه ، فأسعد به دونه ، ولكنّ الحريص محروم، ولو بلغ الرزق فاه لولّاه قفاه. فرّق الله بين الأيام تفريقَها بين الكرام، وألهمها أن تورد(٢) بعقل ، وتُصدر بتمييز ، وما ذلك على الله بعزيز ، وأنا فى مفاتحة الأمير ،

---

(١) يتيمة الدهر : ٤ — ٢٤٧ ، رسائل البديع : ١٤٦ . (٢) فى الرسائل ، والهمذانى: بورد .

بين ثقة تَمِد ، ويد تَرْتَمِد ، ولِمَ لا يكونُ ذلك ؟ والبحر وإن لم أره فقد سمعتُ خبرَه ، ومن رأى مِنَ السيف أثره فقد عاين أكثرَه ، والليث وإن لم ألقَه[١] فلم أجهل خلقه ، وما وراء ذلك من تالدِ أصْلٍ وحَسَب ، وطارفِ فَضْلٍ وأدب ، وبُمْدهمة وصيت ، فعلوم تَشْهَد به الدفاتر ، والخبرُ المتواتر ، وتنْطق به الأشعارُ ، كما تصدق[٢] به الآثارُ ، والعين أقلُّ الحواس إدراكا ، والأذن أكثرها استمساكا ، وإن بعدت الدار فلا ضَيْر ؛ إنّ أيْسَر البعدين بُعْدُ الدارين ، وخيرَ القربين قُرْبُ القلبين .

كتاب آخر إليه — وكتب إليه في سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة[٣] : الأمير الفاضل ، والشيخ الرئيس ، رفيع مَنَاط الهمة ، بعيد منـــال الحرمة[٤] ، فسيح مجال الفضل ، رحيب منخرق[٥] الجود ، رطيب[٦] مكسر العود .

فلو نظمت الثريا والشِّعْرَيَيْنِ قَرِيضا
وكاهل الأرض ضرْبا وشعب رَضْوَى عَرُوضا
وصفتُ للدر ضدّا[٧] وللهـــواء نَقِيضا
بل لو جلوت علـــيه سُود الذوائب بِيضَا
أو ادّعيت الثريا لأخمصيه حَضِيضا
والبحر عند[٨] لهـــاه يوم العطاء مغيضا

لـــا كنت إلاّ في ذمة القصور ، وجانب التقصير ، فـكيف وأنا قاعدُ الحالة في المدح ، قاصرُ الآلة عن الشَّرْح ؟ ولـكنى أقول ؛ الثناء مُنجِحٌ أنّى سلك ، والسخىُّ

(١) في الرسائل : وإذا لم ألقه فهل أجهل خلقه ، وفي س : فلم أجهل إلا خلقه .
(٢) في الرسائل : كما تختلف . (٣) يتيمة الدهر : ٤ — ٢٧٣ ، رسائل البديع : ٦٠ . وفي الرسائل إنه كتبها إلى الشيخ أبي جعفر الميكالي . (٤) في اليتيمة والرسائل : الخدمة .
(٥) في الرسائل : مخترق . (٦) في اليتيمة والرسائل : طيب معجم العود . وفي ق : رطب .
(٧) في ق : خداً . (٨) في اليتيمة : عيد .

جوده بما ملك ، وإن لم تكن غُرَّةٌ لائحة فلَمْحَةٌ دالة ، وإن لم يكن صَدّاء[1] فماء ، وإن لم يكن خمر فخلّ ، وإن لم يُصِبْها وابل فطلّ ، وبَذْلُ الموجود غايةُ الجود ، وبعض الجهد[2] آخر المجهود ، وماش خير من لاش ، ووجود ماقلّ خيرٌ من عدم ما جلّ . وقليل في الجيب خير من كثير في الغَيْب ، وجهد المقلّ خيرٌ من عذر المخل ، وحمار أَيْس خير من فرس لَيْس[3] ، وكوخ في العيان خيرٌ من قصرٍ في الوهم . وزيت خير من ليت ، وما كان أجود من لوْ كان ، وقد قيل : عصفور في الكفّ أجودُ من كركي في الجوّ ، ولأن تقطف خَيْرٌ من أن تقف ، ومن لم يجد الجَميم[4] رعى الهَشيم[5] ، ومن لم يحسن صهيلا نَهق ، ومن لم يجد ماء تيمّم ؛ والأمير الرئيس أدام الله نعماه لا ينظر في قواق صنيعته[6] إلى رَكَاكة ألفاظها ، وبُعْد أغراضها ، ولكن إلى كثرة جفرها ، وثقل مهرها ، وقلّة كفئها ، وإنني منذ فارقت قصبة جرجان ، ووطئت عقَبة خراسان ، ما زففتها إلا إليه ، ولا وَقفْتُها إلا عليه ، هذا على تمرّغي في أعطاف المحن ، وضروري إلى أبناء الزمن ، وإن كان الأمير الرئيس يرفعُ لكلّ لفظ حجابَ سمعه ، ويُفْسِح لكل شعر فِناء طبعه ، فهاك من النثر ما ترى ، ومن النظم ما يترى[7] :

أدهق[8] الكأس فعرّف الـ فجر قد كادَ يلوحُ

فهو للناس صباحٌ ولذي الرأى صبوحُ

والذي يجرح بي في حَلْبة اللهو جموحُ

فاسقنيهـا والأماني لها عَرَف يفوحُ

إنّ للأيام أسرا رأ بهـا سوف تبُوح

(١) في الرسائل : صدر . (٢) في الرسائل : الحيلة .

(٣) الأيس : القهر ، يريد أن حمار الضرورة خير من الفرس المعدوم .

(٤) في اليتيمة والرسائل : الحميم . (٥) الجميم : النبت الغزير ، والهشيم : اليابس .

(٦) في الرسائل : صنيعه . (٧) اليتيمة : ٤ — ٢٧٧ ، والعبارة في الرسائل : فهاك من الشعر مايفرى ، ومن النظم ماترى . (٨) في اليتيمة والرسائل : اذهب .

لا يغرنّك جسمٌ   صادقُ الحِس[1] ورُوح
إنمــا نحن إلى الآ   جال نَغْــدُو ونَرُوح
ويْك هــذا العمر تبريـ   ـحٌ[2] وهذا الروح ريحُ
بينما أنت صحيح الـ   ـجسم إذ أنتَ طَريحُ
فاسقنيها مثــل ما يلـ   ـفظه[3] الدّيك الذّبيح
قبل أن يضرب في الدّهْـ   ـرِ[4] بيَ القِدحِ السَنيح[5]
إنمــا الدهرُ غَرورٌ[6]   ولمن أشْقَى نصيحُ
ولسان الدهر بالوَعْـ   ـظِ لواعيــهِ فَصيحُ
نستبيح[7] الدهر والأ يّا   مُ منــا تَستبيح[7]
نحن لاهون وآجا   ل المنــايا لا تريح[8]
باغــلام الكأس فاليأ   س من الناس مُرِيحُ
ضاع ما نحميــه من أ   نفسنا وهو مبيح[9]
وقنوعا فقــام الذّ   لّ بالمرء قبيح
أنا يا دهر بأبنــا   ئك شِقٌّ وسَطيح[10]
وبأبكار القــوافي   لا على كف‍ء شحيح
يا بني ميكال والجو   د لمِــلآني مُزِيح
شرفًا إن مجــال الـ   ـفضل فيكُمْ لفسيحُ
وعلى قدر سنــا الـ   ـممدوح يأتيكَ المديحُ
فهنــاك الشرف الأر   فع والطّرْف الطَّمُوح

(١) في اليتيمة : الحسن . (٢) في اليتيمة : تفريح . (٣) في س : مايلفظها .
(٤) في ط : في العمر . (٥) في الرسائل واليتيمة : السفيح .
(٦) في اليتيمة والرسائل : عدو . (٧) في اليتيمة : نستميح .
(٨) في اليتيمة : التي لا تستريح . (٩) في اليتيمة : يبيح ، وفي س : صريح .
(١٠) شق وسطيح : كاهنان .

والنـــدى والخُلق الطا ... هر والخَلْق[1] الصبيح
مرتقٍ مجد بحـار الـ ... ـطّ رف فيـــه ويُطيح
أىُّ هـــذا الـكرم الما ... ثل والخلق السجيح
كان هـــذا الجود ميتاً ... عادَه منــك المسيح

هـــذه أطال الله بقاء الأمير هدية الوقت ، وعَفْوُ الساعة ، وفَيْضُ البديهة ، ومسارقة القلم ، ومسابقة اليَدِ للفم ، وجرات الحدّة ، وثمرات المدّة ، ومجاراة الخاطر للناظر ، ومباراة[2] الطبْع للسّمْع ، ومجاذبة الجنان للبيان؛ والشعر إذا لم تتقدمه روّية، ولم تنضجه نيّة ، لم يفتح له السمع بابه ، ولم يرفع له القلبُ حجابه ، وإذا لبس الأمير هذه على علاتها رجوت أن يكون بعدها ماهو أفتن[3] وأحسن وأرصن ، فرأيه أيده الله فى الوقوف عليها موفقا إن شاء الله .

عتاب البديع الميكالى

وله إليه معاتبة[4]:

لَئِنْ سَاءنى أنْ نِلْتنى بمَسَاءةٍ ... لقــد سرّنى أنى خَطَرْتُ ببالك

الأمير الفاضل الشيخ الرئيس ، أطال اللهُ بقاءه إلى آخر الدعاء ، فى حالِ[5] برّه وجفائه مُتفضّل ، وفى يومَىْ إبعاده وإدْنائه متطوّل . وهنيئا[6] له من حمَانا مايُحِلّه ، ومن عرانا مايحُله ، ومن أعْرَاضنا مايستحلّه ؛ بلغنى أنه ــ أدام اللهُ عِزّه ــ استزاد صنيعته[7] ، وكنت أظنّنى مَجْنِيّاً عليه ، مُسَاءً إليـــه ، فإذا أنا فى قرارة الذّنْب، وبمثابة العتْب ، وليت شعرى أىّ محظور فى العشرة حَضَرْته ، أو مفروض من الخِدْمَة رَفَضْتُه ، أو واجبٍ فى الزيارة أهْمَلْتُه ؟ وهـــل كنتُ إلا ضيفاً أهداه بَلَدٌ[8] شاسع ، وأدّاه أملٌ واسع ، وحَدَاه فَضْلٌ وإن قلّ ، وهدَاهُ رَأْىٌ وإن

(١) فى الرسائل : والوجه. (٢) فى س : مساراة . (٣) فى الرسائل : مابعد أمتن .
(٤) رسائل البديع : ٦٣ . (٥) فى الرسائل : حالى . (٦) فى ق : وهبنا له .
(٧) فى الرسائل : صنيعه ، وفى ق : استزاره صنيعته . (٨) فى الرسائل : مَنْزع شاسع.

ضَلّ ، ثم لم يُناقِ إلّا في آلِ مِيكَالَ رَحْلَه ، ولم يَصِلْ إلّا بهم حَبْلَه ، ولم يَنْظِم إلّا فيهم شِعْرَه ، ولم يَقِفْ إلا عليهم شُكْرَه ؛ ثم ما بَعُدَتْ صحبةٌ إلا دَنَتْ مَهَانَة ، ولا زادت حُرْمَة إلا نقصت صيانة ، ولا تضاعَفَتْ مِنّة ، إلّا تراجعت[1] مَنْزِلة ، ولم تزل الصَّمَّة[2] بنا حتى صار وابلُ الإعظام قَطْرَة ، وعاد قَيضُ القيام صُدْرَة ، وذلك التقربُ ازوِرَارا ، وطويل[3] السلام اختصارا ، والاهتزازُ إيماء ، والعبارة إشارة ؛ وحين عاتبته آمل إعتابه ، وكاتبته أنتظر[4] جوابه ، وسألته أرجو إيجابه ، أجاب بالسكوت ، وأعْقَب بالقُنُوت ، فما ازددت إلّا له ولاء ، وعليه ثناء ؛ لاجَرَم أني اليوم أبيضُ وَجْهِ العهد ، واضح محجّةِ الوُدّ ، طويلُ عِنَانِ القول ، رفيع حِكْمَةِ[5] العُذْر ؛ وقد حمَّلت فلاناً من الرسالة ما تجافَى عنه القلم ؛ والأمير الرئيس أطال الله بقاءَه يُنْعِمُ بالإصغاء لما يورده موفقاً إنْ شاء الله .

رسالة أخرى إليه

وله إليه في هذا الباب :

أنا في[6] خدمة الأمير الرئيس، أطال الله بقاءَه، مترجِّحٌ بين أنْ أشْرَبها رنَقَة[7] ولا أُسيغها ، والجلج منها مُضْغَة[8] ولا أجيزها ، وبين أنْ أطويها على غَرّها ، ولا أرتضع أخْلاف دَرّها .

فلا نَفْسِي تُطاوعُني لِرَفْضٍ ولا هِمَمِي تُوَطّنني لِخَفْضِ

وبقي أن أقرُصَه بأنامل العتْبْ ، وأحْشِمَه[9] بألحاظ العَذْل ، وأعرفه أني ما أطْوِي مسافةَ مزار إلّا متجشِّما ، ولا أطأُ عَتَبَةَ دار إلا متبرِّما ؛ ولستُ كمن يَتَبسّط

---

(١) في ق : همة إلا تواضعت . (٢) في الرسائل : الصفة . (٣) في الرسائل : وذلك .

(٤) في ق : وحين عاتبته وكاتبته أرجو عتابه وأنتظر جوابه وسألته آمل ...

(٥) في الرسائل : حكم . (٦) رسائل البديع : ٦٥ . (٧) رمقة : كدرة .

(٨) ألجلج : أردد . المضغة : قطعة لحم وغيره . وفي ق ، س : وألتجلج .

(٩) حشمته : أخجلته ، وأحشمته : أغضبته ، وفي بعض الأصول : وأجمشه، وأصل الجمش المغازلة .

يدَهُ مُسْتَجْدِيا ، أو ينْقل قدمَه مُسْتَمْدِيا(١) ؛ فإن كان الأميرُ الرئيس ــ أيّده اللهُ ــ يسرح طَرْفَهُ منّى فى طامح أو طَامِع ، فلْيزِد للفِراسةِ نَظرا .

فما الفقْرُ من أرض العشيرة ساقَنا ... إليك ولـكنّا بِقُرْباكَ نبجحُ

وأجِدُنى كلّما استفزّنى الشوقُ إلى تلك المحاسن ، أطير إليها بجناحين عَجِلا ، وأرجع بمَرْجاوَيْن خَجِلا ، ولولا أنّ الرضا بذلك ضربٌ من سقوط الهمّـة ، وأن العتابَ نوعٌ من أنواع الخدمة ، لصُنْتُ مجلسه عن قلمى ، كما أصُونُه عن قدَمِى ، ولمِلْتُ إلى أرْض الدعاء فهو أنْجَع(٢) ، وإلى جانبِ الثناء فهو أوْسَع(٣) ، وسأفعل لتخفَّ مؤْنتى، ولا تثقل وَطْأتِى .

إذا ما عَتَبْت فلم تُعْتِب(٤) ... وهُنْتُ عليك فلم تُمِنْ بى

سلَوْت ولو كان ماء الحياة ... لِعفْتُ الورُودَ ولم أشْرَب

قطعة من مفردات الأبيات لأهل العصر فى معان شتى .

تجرى مجرى الأمثال

أبو فراس الحدانى :

إذا كان غيرُ اللهِ للمَرْء عُدّةً ... أتتْهُ الرّزايامن وُجوهِ المكَاسِبِ

وله :

عَفَافُك عِيٌّ إنما عِفّةُ الفَتَى ... إذا عَفّ عن لَذّاتِه وهـو قادِرُ

وقال المتنبى(٥):

كلُّ حِلْمٍ أتَى بغَيْرِ اقْتِدار ... حُجّةٌ لاجِئٌ إليها اللِّئامُ

---

(١) فى الرسائل : مستفديا . (٢) فى الرسائل : أنفع . (٣) فى الرسائل : أوقع .

(٤) أعتبه : أزال عتبه . (٥) ديوانه : ٤ ــ ٩٣ .

وله[١] :

وإذا كانتِ النفوسُ كِبارًا ... تَعِبتْ في مُرادِها الأجسامُ

وله[٢] :

وإذا أتتكَ مَذمّتي من ناقصٍ ... فهي الشّهادةُ لي بأنّيَ كاملُ

وله[٣] :

لا يُعْجِبنَّ مَضيمًا حُسْنُ بِزّتِه ... وهل تَرُوقُ دَفينًا جَوْدَةُ الكَفَنِ

وله[٤] :

من أطاقَ التِماسَ شَيءٍ غِلابًا ... واغتِصابًا لم يَلْتَمِسْهُ سُؤالا

وله[٥] :

والظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النفوسِ فإنْ تَجِدْ ... ذا عِفّةٍ فلِعِلّةٍ لا يَظْلِمُ

وله :

ماذا لقيتُ من الدنيا وأعجبُه ... أني بما أنا باكٍ مِنْه مَحْسُودُ

وله[٦] :

ذِكْرُ الفتى عُمْرُه الثاني وحاجتُه ... ما قاتَه وفُضُولُ العَيْشِ أشغالُ

والمتنبي أكثرُ المحدَثين افتِناناً وإحساناً في الإغراب بهذا الباب ؛ والاستقصاء يخرج عن شرط الكتاب .

وقال السرى الموصلي :

خذوا من العيشِ فالأعمارُ فانيةٌ ... والدهرُ مُنصَرِمٌ والعيشُ مُنقَرِضُ

وله :

فإنك كلّما استُودِعْتَ سِرًّا ... أنَمُّ منَ النّسيمِ على الرّياضِ

---

(١) ديوانه : ٣ — ٣٤٥ . (٢) ديوانه : ٢ — ٢٦٠ . (٣) ديوانه : ٤ — ٢١٣ .
(٤) ديوانه : ٣ — ١٤٧ . (٥) ديوانه : ٤ — ١٢٥ . (٦) ديوانه : ٣ — ٢٨٨

وقال أبو إسحاق الصابي :

الضبّ والنّون(١) قد يُرْجَى التقاؤهما ... وليس يُرْجَى التقاء اللبّ والذّهبِ

وقال ابن نباتة(٢) :

مثَلٌ خَلَقْتُ على الزمان رداءَه(٣) ... عَوَزُ الدَّراهمِ آفَةُ الأجْوادِ

وله(٤) :

يهوى الثنـــاءَ مبرِّزٌ ومُقَصِّرٌ ... حبُّ الثناء طبيعةُ الإنسانِ

وقال أبو الحسن السّلامى :

تبسّطنا على اللذّات لمّا ... رَأيْنَا العَفْوَ من ثَمَرِ الذّنوبِ

وقال ابن لنكك البصرى :

وماذا أُرَجِّى من حَياةٍ تَكدّرتْ ... ولو قد صَفَتْ كانَتْ كأحْلامِ نائمِ

وقال أبو طالب المأمونى :

لى فى ضَمير الدهرِ سرٌّ كامِنٌ ... لابدّ أن تستَلّهُ الأقدارُ

وقال أبو الفضل بن العميد:

الرأى يَصْدَأ كالحُسام لعارضٍ ... يَطْرَا عليه وصَقْلُه التذكيرُ(٥)

وقال أبو الفتح(٦) :

بِطِرْتم فطِرْتُم والعَصَا زَجْرُ مَنْ عَصَى ... وتقويمُ عَبْدِ الهُونِ بالهُونِ رادِعُ

وله :

إذا بلغ المرء آمالَهُ ... فليس له بعدها مُقْتَرَحْ

وقال الصاحب إسماعيل بن عباد(٧) :

إن أمّ الصقر فى الودْ ... دِ لَمِقْلاتٌ نَزورُ(٨)

---

(١) النون : الحوت ، اليتيمة : ٢ — ٢٦٧ . (٢) يتيمة الدهر : ٢ — ٣٦٤ .
(٣) فى اليتيمة : رواءه . (٤) اليتيمة : ٢ — ٣٦٤ . (٥) المذكر من السيوف : ذو الماء . (٦) فى س : وقال ابنه أبو الفتح . (٧) يتيمة الدهر : ٣ — ٢٣٩ .
(٨) المقلات : ناقة تضع واحداً ثم لا تحمل ، وامرأة لا يعيش لها ولد .

وله :

من لم يَعُدْنا إذا مَرِضْنا ... إنْ مات لم نَشْهَد الجنازَه

وله :

حِفْظُ اللسانِ راحةُ الإنسانِ ... فاحْفَظه حِفْظَ الشكر للإحسانِ

وقال إسماعيل الناشيء :

وكنتُ أرَى أنّ التجاربَ عُدّةٌ ... تخانتْ ثِقاتُ الناسِ حتى التجارب

وقال أبو الفتح البستى :

لا تَرْجُ شيئاً خالصاً نَفْعُهُ ... فالغيثُ لا يَخْلُو من العَيْثِ[1]

وله :

ولم أر مثــل الشكر جُنّة غارسٍ ... ولا مثل حُسْنِ الصبر جُبّة[2] لابِسِ

وله[3] :

وطول مُقام[4] الماء فى مستقرِّه ... يُغيّره ريحاً ولوناً ومَطْعَما

وله[5] :

ما استقامت قَنَاةُ رأيىَ إلّا ... بعد ما عوّجَ[6] الشيبُ قَنَاتِى

وقال أبو الفضل الميكالى[7] :

هو الشوك[8] لا يُعطيك وافرَ منّةٍ ... يدَ الدّهر إلا حينَ تَضْربه[9] جَلْدَا

وله[10] :

ذو الفضل لا يَسْلَمُ من قَدْحٍ ... وإنْ غدَا أقوَم من قِدْحِ

---

(١) العيث : الإفساد . (٢) فى س : جنة . (٣) اليتيمة : ٤ـ٣٠٩ .

(٤) فى اليتيمة : جام الماء . (٥) اليتيمة : ٤ـ٣٠٦ . (٦) فى اليتيمة : بعد ما قوس

(٧) اليتيمة : ٤ ـ ٣٤٦ . (٨) فى اليتيمة : هو السؤل .

(٩) فى اليتيمة : إلا حين أبصرته . (١٠) اليتيمة : ٤ ـ ٣٥٠ .

وقال شمس المعالى :

وفى السماء نجومٌ مالهـا عددٌ … وليس يُكْسَفُ إلا الشمسُ والقمرُ

هذا مأخوذ من قول الطائى[١] :

إنّ الرياحَ إذا ما استعصفت[٢] قَصَفَتْ … عيـدانَ نجْـدٍ فلم يعبأْنَ بالرَّتَمِ[٣]

بناتُ نعشٍ ونَعْشٌ لا كُسوفَ لهـا … والشمسُ والبَدْرُ منها[٤] الدهرَ فى الرَّقَمِ

وقال أبو الحسن على بن عبد العزيز القاضى :

الهجر أرْوَحُ من وَصْلٍ على حَذَرٍ … والموتُ أطْيَبُ من عَيْشٍ على غَرَرِ

وقال أبو بكر الخوارزمى :

لا تغرّنْك هـذه الأوجه الغرْ … رُ فيارُبَّ حَيَّـةٍ فى رياضِ

أبو العيناء وابن فرخان شاه

[بعد تبدل الحال]

قال أبو العيناء : كان عيسى بن فَرْخان شاه يَتِيهُ علىّ فى ولايته الوَزارَة ، فلمـا صُرِفَ رَهِبَنى ، فلقينى فسلّمَ علىّ فأحْفَى[٥]. فقلت لغلامى : مَنْ هذا؟ قال: أبو موسى؛ فدنوتُ منـه وقلت : أعزّكَ الله ، والله لقد كنتُ أقْنَع بإيمائك دون بيَانِك ، وبلَحْظِك دون لَفْظِك ، فالحمدُ لله على ما آلَتْ إليه حالُك ، فلئن كانت أخْطأتْ فيك النّعمةُ ، فلقد أصابت فيك النّقْمَةُ ، ولئن كانت الدنيا أبْدَتْ مقابحَها بالإقبال عليك لقد أظهرَتْ محاسنَها بالانصرافِ عنك ، ولله المِنّة إذ أغنانا عن الكَذِب عليك ، ونزّهَنَا عن قول الزُّورِ فيك، فقد والله أسأتَ حَمْلَ النّعَم، وما شكَرْتَ حق المُنْعِم. فقيل له : ياأبا عبد الله ؛ لقد بالغت فى السبّ ، فما كان الذّنْب ؟ قال: سألته حاجةً أقلّ من قيمته ، فردّنى عنها بأقْبحَ من خِلْقَتِه .

---

(١) ديوانه : ٣١٥ . (٢) فى الديوان : أعصفت . (٣) الرتم : نبت ضعيف .

(٤) فى الديوان : منه . والرقم : الداهية . (٥) بالغ فى إكرامه وإظهار السرور والفرح .

ابن الرومى وأبو الصقر

وقال علىّ بنُ العباس الرومى لأبى الصقر إسماعيل بن بلبل لما نكبه الموفق أبو أحمد، وألمّ فى بعض قوله بقول أبى العيناء :

لا زالَ يومُك عِبرةً لغـدِكْ   وبكَت بشجْوٍ عينِ ذى حَسَدِك
فلئن نُكِبْتَ لطالمـا نُكِبَتْ   بك هِمـةٌ لجأتْ إلى سَنَدِك
لو تسجد الأيّام ما سجدتْ   إلّا ليَوْمٍ فَتَّ فى عَضُـدِك
يا نِعْمَةً ولتْ غَضَارَتُها(١)   ما كان أقْبحَ حُسْنَها بيـدِك
فلقد غدَتْ بَرْدًا على كَبِدى   لـمـا غدَتْ حَرًّا على كَبِدِك
ورأيتُ نُعْمَى اللهِ زائدةً   لـمـا اسْتَبَانَ النقْصُ فى عَدَدِك
ولقـد تمنّت كل صاعقـةٍ   لو أنهـا صُبّت على كَبدِك(٢)
لم يَبْقَ لى ممـا يَرَى جسدى   إلّا بقـاء الرُّوح فى جَسَدِك

وله فيه أهاجٍ كثيرة لما نكب ؛ منها قوله(٣) :

خَفّضْ أبا الصّقر فكم طائرٍ   خَرّ صريعًا(٤) بَعْدَ تَحْليق
زُوّجت نعمى لم تكن كُفْأها   فَصانَهـا اللهُ بتطليق
لا قُدّست نُعْمَى تَسَرْبَلْتَها   كم حجـةٍ فيهـا لِزِنْديق

وكان أبو الصقر لما ولى الوزارة مدحه ابن الرومى بقصيدته النونية التى أولها(٥) :

أجْنَيْتَك الورد(٦) أغصان وكُثْبان   فيهن نوعان تُفّاحٌ ورمّانُ
وفوق ذَيْنِك أعنـابٌ مُهَدّلةٌ   سُودٌ لهن من الظلماء ألوانُ
وتحت هاتيك عُنّاب تَلُوح بهِ(٧)   أطرافهن قلوب القوم قِنْوَان

---

(١) الغضارة: النعمة والسعة. (٢) فى بعض الأصول : كتدك . والكتد : مجتمع الكتفين
(٣) ديوانه : ١١٠ . (٤) فى الديوان : صريعا . (٥) ديوانه : ٢٠ .
(٦) فى الديوان : أجنت لك . (٧) العناب تمر ، وفى ف ، س: تلوغ . ولاغ الشيء: أداره فى فيه ثم لفظه .

غصونُ بانٍ عليها الزهر فاكِهة ... وما الفواكِهُ مما يَحْمِلُ البانُ
ونَرجس بات سَارِى الطَّلِّ يَضْرِبهُ ... وأقحوان مُنير اللَّون رَيّانُ
أَلِفْن من كل شىء طَيِّبٍ حَسَنٍ ... فهنَّ فاكِهةٌ شتّى ورَيحانُ
ثمار صِدْقٍ إذا عاينت ظاهِرَها ... لكنها حين تَبلُو الطَّعْمَ خُطبانُ[1]
ولا يَدُمْنَ على عَهْدٍ لمعتقد ... والغانياتُ[2] كما شُبِّهن بُستانُ
يَميلُ طوراً بحِمْل ثم يعدمُهُ ... ويَكتَسِى ثم يُلقَى وهو عُريانُ

وهى أكثر من مائتى بيتٍ ، مرَّ له فيها إحسانٌ كثير ؛ فأنشدها أبا الصقر ، فلما سمع قوله[3] :

قالوا أبو الصقر من شَيْبَان قلت لهم ... كلاَّ لعمرى ولكِنْ منه شَيْبانُ

قال : هجانى . قيل له : إنَّ هذا من أحسن المدح ؛ ألاَ تسمع ما بعده :

وكم أبٍ قد عَلَا بابنٍ ذُرَى شَرَفٍ ... كما عَلَتْ برسول الله عدْنانُ

قال : أنا بشيبان لا شيبان بى . فقيل له : فقد قال :

ولم أقصِّر بشَيْبَان التى بَلَغَتْ ... بها المبالغ أعراقٌ وأغصانُ
لله شيبانُ قوم لا يَشُوبُهُم ... رَوْعٌ إذا الروع شَابَتْ منه وِلْدانُ

فقال : لا والله لا أُثِيبه على هذا الشِّعر ، وقد هجانى .

قال أبو بكر محمد بن يحيى الصولى : كنتُ يوما عند عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وقد ذكروا قصيدةَ ابن الرومى هذه النونية فقال : هذه دارُ البطيخ ، فاقرءوا تشبيهاتها[4] تعلَمُوا ذلك ! فضحك جميع من حضر .

---

(١) الخطبان من الحنظل : ما فيه خطوط خضر ، وهى خطبانة ـ بالضم ، وجمعها خطبان .
(٢) فى الديوان : أنى وهن .   (٣) مختارات البارودى : ١ ـ ٢٠٤ .
(٤) فى س ، ق : تشبيها .

وفى هذه القصيدة يقول من المختار فى النسيب(١) :

يارُبَّ حُسّانةٍ منهن قد فعلت ... سُوءًا وقد يفعل الأسْوَاءَ إحسانُ
تُشكى(٢) المحب وتُلفى الدَّهرَ شاكيةً ... كالقوس تصمى(٣) الرَّمايا وهى مِرْنانُ

وهذا كقوله فى قصيدة يَصِفُ فيها قوس البندق(٤) :

لها رَنّةٌ أَوْلَى بها من تصيبهُ ... وأَجْدَر بالإعوال مَنْ كان مُوجَعَا

يقول فيها(٥) :

لا تَلْحَيانِى وإيّاها على ضَرَعى ... وزَهْوِها ، لجَّ مَفْتون وفتّانُ(٦)
إنى مُلكت فَبى للرِّقِّ مَسْكَنَةٌ ... ومُلِّكَتْ فلها بالمُلْك طُغْيان
لى مُذْ نأت(٧) وجْنَةٌ رَيّا بعشْرَتِها(٨) ... من عَبْرَتى وفمٌ ما عِشْتُ ظمآنُ

وفيها فى مدح بنى شيبان(٩)

قومٌ سماحتهم غَيْثٌ ونَجْدَتُهم ... غَوْثٌ وآراؤهم فى الخَطْبِ شُهْبانُ
تَلْقاهُمُ ورماحُ الخطِّ حولهُم ... كالأُسد ألبسها الآجامَ خَفّانُ(١٠)
صَانُوا النفوسَ عن الفَحْشاء وابتذلوا ... مِنهنَّ فى سُبُل العلياء ما صَانُوا
المنعمون وما مَنُّوا على أحَدٍ ... يَوْمًا بنُعْمى ولو مَنُّوا لما مَانُوا(١١)

يقول فيها فى أبى الصقر :

يَفْدِيه مَنْ فيه عن مِقْدار فِدْيَتِه ... عن الفَداةِ تَقْصيرٌ ونُقْصَانُ
قومٌ كأنهُمُ موْتَى إذا مُدِحوا ... ومالهم من حَبِيرِ(١٢) الشعر أكْفان

---

(١) ديوانه : ٢٢ . (٢) فى الديوان : تصمى المحب . (٣) تصمى : تقتل وتبيد .
(٤) ديوانه : ٣٠٠ . (٥) ديوانه: ٢٣ . (٦) فى الديوان : فكلا الأمرين ديدان .
(٧) فى الديوان : مذ نأوا . (٨) فى ق : بعشرقها .
(٩) مختارات البارودى : ١ — ٤٠٣ . (١٠) خفان : مأسدة قرب الكوفة .
(١١) مان : كذب . (١٢) الحبير : الناعم الجديد .

صاحِي الطباعِ إذا سالت[1] هَواجسُه ... وإن سألت[2] يَدَيْه فهْوَ نَشْوانُ
يُصحيه ذِهنٌ ويأبى صَحْوهُ كرمٌ ... مُستحكِمٌ فهو صاحٍ وهو سكْرانُ
فردٌ جميعٌ يراهُ كلُّ ذي بَصَرٍ ... كأنه النـــاسُ طُرًّا وهو إنسانُ

وهذا كقول أبي الطيب[3]:

ولَقيتُ كلَّ الفاضلينَ كأنَّما ... ردَّ الإلهُ نفوسَهم والأعصُرَا
نُسِقوا لنا نَسَقَ الحسابِ مُقــدَّما ... وأتى فذلِكَ إذْ أتيتَ مُؤخَّرَا

وقد تقدم.

وقال[4]:

فإنْ يكُ سَيَّارُ بنُ مُكْرَمٍ انقضَى ... فإنَّكَ ماءُ الوَرْدِ إن ذهبَ الوردُ
مَضَى وبَنوهُ وانفرَدْتَ بفضْلِهِمْ ... وألفٌ إذا ما جُمِّعتْ واحِــدٌ فَرْدُ

وقال البحتري[5]:

ولم أرَ أمثالَ الرجالِ تفاوتًا ... لدى المجدِ، حتى عُدَّ ألفٌ بواحدِ

ومدحه وعاتبه بقصائد كثيرة فــا أنجحت؛ فمن ذلك قوله في قصيدة طويلة يمدحه[6]:

في وَجْهِهِ رَوْضَةٌ للحُسْنِ مونِقَةٌ ... ما راد[7] في مثلِها طَرْفٌ ولا سَرَحا
طَلُّ الحياءِ عليها ساقِطٌ[8] أبدًا ... كاللؤلؤِ الرَّطْبِ لو رَقْرقْتَه سَفَحا
أنا الزعيمُ لـكحولٍ بغُرَّتِهِ ... ألَّا يرى بعدها بُؤْسًا ولا تَرَحا
مهما أتى الناسُ من طَوْلٍ ومن كَرَمٍ ... فإنمــا دخلوا البابَ الَّذِي فَتَحا
يُعطِي المُزاحَ ويعطي الجِدَّ حقَّهما ... فالموتُ إن جدَّ والمعروفُ إن مَزَحا

---

(١) في المختارات: إذا ساءلت هاجسه. (٢) في س: أسالت.
(٣) ديوانه: ٢ — ١٧٠. (٤) ديوانه: ١ — ٣٨٠.
(٥) ديوانه: ١ — ١٣٦. (٦) مختارات البارودي: ١ — ٣٣١.
(٧) راد: ارتاد. (٨) في المختارات: واقع.

وافى عطاردَ والمرّيخ مولدهُ ... فأعطياه من الحظّين ما اقترحا
إنْ قال : لا ، قالها للآمريه بها ... ولم يقلها لمن يستمنح المنحا
فى كفّه قلمٌ ناهيك من قلمٍ ... نبلًا وناهيك من كفٍّ بما اتّشحا
يمحو ويثبتُ أرزاقَ العبادِ به ... فما المقادير إلا ما محا ووحى[1]
كأنما القلمُ العلوىّ فى يدهِ ... يجريه فى أى أنحاء البلادِ نحا
لما تبسّم عنك المجدُ قلتَ لهُ ... قهقه فلا نغلا تبدى ولا قلحا[2]
أُثنى عليك بنعماك التى عظمتْ ... وقد وجدت بها فى القولِ منفسحا
أمطر بذاك جنانى تكسه[3] زهرًا ... أنتَ الحيا ريّاه إذا نفحا

أنشدتها على متوالى[4] الاختيار ، وكذلك أجرى فى كثير من الأشعار .

وقال يعاتبه ويستبطئه[5]:

عقيدَ النّدى أطلقْ مدائحَ جمّةً ... حبائسَ حسرى[6] قد أبتْ أن تسرّحا
وكنتَ متى تنشد مديحًا[7] ظلمتهُ ... يُرى لك أهجى[8] ما يُرى لك أمدحا
عذرتُك لو كانت سماءٌ تقشّعتْ ... سحائبُها أو كان روضٌ تصوّحا
ولكنّها سُقيا حُرمتَ رويّها ... وعارضُها مُلقٍ كلاكلَ[9] جُنّحا
وأكلاء معروفٍ حرمت[10] مريعها ... وقد عاد منها السّهلُ والحزنُ مسرحا
عرضتُ لأورادى[11] وبحرُك زاخرٌ ... فلمّا أردْنَ الوردَ ألفينَ ضحضحا[12]
فلو لم تردْ أزواد[13] غيرى غمارهُ ... لقلتُ سرابٌ بالمتانِ توضّحا

(١) وحى : أشار ، وكتب . (٢) النغل : الفساد فى الدباغ ، وفى الجرح ، وسوء النية ، والإفساد . والقلح : أصله صفرة الأسنان . (٣) فى المختارات : جنابى يكسه . (٤) فى بعض الأصول : توالى . (٥) ديوانه : ٢ — ٧١ . (٦) فى الديوان : عندى . (٧) فى الديوان : ينشد مدح . (٨) فى الديوان : يكن لك أهجى كلما كان أمدحا . (٩) فى الديوان : ملق ، والكلاكل : الصدور . (١٠) فى الديوان : حيث . (١١) فى الديوان : لأزوادى . (١٢) الضحضح : الماء القليل يكون فى الغدير وغيره ، وفى الديوان : صحصحا ، والصحصح : الأرض الجرداء ذات حصى صغار . (١٣) فى الديوان : أوراد .

فيا لَكَ بَحْرًا لم أجِدْ فيه مَشْرَبًا ... وإنْ كان غيرى واجداً فيه مَسْبَحا
مَديحى عصا مُوسى وذلكَ أنّنى ... ضَرَبْتُ به بَحْرَ النّدَى فتَضَحْضَحا
سأمْدَحُ بعضَ الباخِلينَ لَعَلّهُ ... إذا اطّرَدَ المِقْيَاسُ أنْ يتَسَمّحا
فياليْتَ شِعْرِى إن ضَرَبْتُ به الصّفَا ... أيَبْعَثُ لى منهُ جَداوِلَ سُيَّحا
كَتِلْكَ الّتى أبْدَتْ ثَرَى الأرضِ[1] يابِسا ... وشَقّتْ عُيُونا فى الحِجَارةِ سُفّحا
تَمَلّكْتَ فأسْجِحْ يَا أبَا الصّقْرِ إنّهُ ... إذا مَلَكَ الأحرارَ مِثْلُكَ أسْجَحا

وما ضرع إلى أحد هذه الضراعة ، ولا فى طَوْقه هذا الاحتمال ؛ وهذه الأبيات الأخيرة إنما ولّد أكثرها من قول أبى تمام الطائى لمحمد بن عبد الملك الزيات[2] :

فلو حارَدَتْ شَوْلٌ عَذَرْتُ لِقاحَها[3] ... ولكن حرمت الدَّرَّ والضَّرْعُ حافِلُ
أكابِرَنا عَطْفًا علينا فإنّنا ... بنا ظَمَأٌ بَرْحٌ وأنْتُمْ مَناهِلُ

وفيه يقول[4] :

هــذا مقامى[5] يا بَنى وائلٍ ... من مستجيرٍ بكُمْ عائِذِ
أنْشَبَ فيه الدهرُ أظفارَهُ ... وعَضّه بالنّاب والنّاجِذِ
فأنْصِفُوا منه أخَا حُرْمَةٍ ... لاذَ بكُمْ منه مع اللّائِذِ
فما أرى الدهرَ عَلى جَوْرِهِ[6] ... يَخْرُجُ مِنْ حكمكم النّافِذِ

وقال أيضاً :

يأيُّهـا السيد الذى وَهَبَتْ ... أنْصَارُ أمْوالِهِ ولم يَهُنِ
فأصْبَحَتْ فى يَدِ الضّعيفِ وذى الـ ... قُوّةِ والبَاقِلِ[7] واللَّسِنِ
غيرى على أنّنى مؤملك الـ ... أقدم سائلٌ بذاك وامتَحِنِ

---

(١) فى الديوان : ثرى البحر . (٢) ديوانه : ٢٥٩ .

(٣) حاردت الإبل : انقطعت ألبانها أو قلت . والشائلة من الإبل : ما أتى عليها من حلها أو وضعها سبعة أشهر فجف لبنها ، وجمعه شول . (٤) ديوانه : ٢٥٧ .

(٥) فى الديوان : مقام . (٦) فى الديوان : على حكمه .

(٧) باقل : يضرب به المثل فى العى .

مادحَ عشرين حِجّــةً كُمُلا ... محرومُها عنك غَــيْرُ مُضْطَغِنِ
فضلك أوْ عَدْلُك الذى ائتمن الـ ... لّه عليــهِ أجَــلُّ مؤتَمَنِ
إن كُنْتُ فى الشعرِ ناقدًا فَطِنًا ... فلتُعْطِنى حَقَّ حِصَّةِ الفَطِنِ
وإنْ أكُنْ فيــه ساقطًا زَمِنًا ... فلتُعْطِنى حقَّ حِصَّةِ الزَّمِنِ
سمْ بِىَ ديوانك الذى عدَلَتْ ... جَدْواه بين الصحيح والضَّمِنِ(١)
كَثِّرْ بشَخْصِى مَن استطعتَ من النـ ... ـاس فإن لم أزِنْك لم أَشِنِ
ما حقّ من لانَ صَدْرُه لَكَ بالـ ... ـودّ لقــاؤه بجــانبٍ خَشِنِ

وقال أبو العباس الرومى لرجل مدحه فى كلمة :

أبَعْدُ لِقائىَ دونك كلُّ قَفْرٍ ... يَدِق الشّخْصُ فيــه أنْ يُلاقَى
وإعمــالى إليك به المَطَايا ... وقد ضربَ الظّلامُ له رِواقا
ورَفْضِى النّوْمَ إلّا أنْ تَرانى ... أعانِق واسط الكُورِ اعْتِناقا
تسوق بنا الحُداة فليس تَدْرِى ... أشوقًا كانَ ذَلك أمْ سِيَاقا
أُصادف دِرّةَ المعروف شَكْرَى(٢) ... لَدَيك ولا أذوق لهــا ذواقا

يقول فيها :

غدا يَعْلُو الجيــاد وكانَ يَعْلُو ... ـ إذا ما استَفْرَهَ ـ السِّبْتَ الرِّقاقا(٣)
أعِتّتُها الشُسُوعُ فإنْ عَراها ... حَفاه الكَدُّ أنْعَلها طِراقا(٤)
فزُوِّج بَعْدَ فَقْرٍ منــه نعمى ... أرانى اللهُ صُبْحَتَها الطّلاقا

[أبو العيناء وطرف من أخباره]

نسب أبى العيناء — قال أبو القاسم علىّ بن حمزة بن شمردل : حدثنى أبى ، قال : سألتُ أبا العَيْناء

(١) الضمن ، على وزن كتف : المريض . (٢) شكرى : مملوءة .
(٣) استفره : طلب الفاره الفتى من الخيل ، وهو يستفره الأفراس : يستكرمها ، والسبت ـ بكسر السين : كل جلد مدبوغ . (٤) الطرق : كل خصيفة يخصف بها النعل .

عن نسبه فقال : أنا محمدُ بنُ القاسم بن خلّاد بن ياسر بن سليمان ، وأصلُ قومى من بنى حنيفة من أهلِ اليمامة ، ولَحِقَهم سِباء فى أيام المنصور ؛ فلمّا صار ياسر فى قَيْدِه أعْتَقَه ؛ فولاؤنا لبنى هاشم ؛ وكان أبو العيناء ضَريرَ البَصَر ؛ ويقال : إنّ جدّه الأكبر لقى علىَّ بنَ أبى طالب رضى الله عنه فأساءَ مُخاطَبَته ؛ فدعا عليه وعلى ولده بالعَمَى ، فكلُّ من عمى منهم صحيحُ النسب !

أبو العيناء والمتوكل

قال الصولى : حدثنى أبو العيناء ، قال: لما أُدْخِلْتُ على المتوكِّل فدعوتُ له وكلّمْتُه استحسنَ كلامى ، وقال لى : بلغنى أنّ فيكَ شرًّا ! فقلتُ : يا أميرَ المؤمنين ؛ إن يكن الشرُّ ذِكْرَ المحسنِ بإحسانه والمسىء بإساءته فقد زَكّى الله تعالى وذَمّ ، فقال فى التزكية[1] : ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ . وقال فى الذم[2] : ﴿ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ .

وقال الشاعر[3] :

إذا أنا لم أمْدَحْ[4] على الخير أهْلَهُ ... ولم أذمُمِ الجِبْسَ اللئيمَ المذمّما[5]

ففيمَ عرفتُ الخيرَ والشرَّ باسْمِهِ ... وشقّ لىَ اللهُ المسامعَ والفَمَا

وإن كان الشرُّ كفعل العَقْرَبِ التى تَلْسَعُ النَّبِىَّ والذِّمِّىَّ بطَبْعٍ لا بتمييز فقد صانَ اللهُ عبدَكَ عن ذلك !

فقال لى : بلغنى أنك رَافِضىٌّ[6] . فقلتُ : يا أميرَ المؤمنين ، وكيف أكونُ رافضيًّا وبلدى البَصْرَة ومَنْشَئى فى مَسْجِد جامِعِها ، وأُستاذِى الأصْمَعى ، وليس يخلُو القومُ أن يكونُوا أرادُوا الدّين أو الدُّنيا ؛ فإن كانوا أرادوا الدِّينَ فقد أجمع

(١) سورة ص ، آية ١٧ . (٢) سورة القلم ، آية ١١ .

(٣) عيون الأخبار : ٣ـ١٧٩ ، واللآلى ـ ذيل : ٤٥ . (٤) وعيون الأخبار : أشكر .

(٥) الجبس : هو الدنىء الجبان . (٦) الرافضة : فرقة من الشيعة بايعوا زيد بن على ثم قالوا له : تبرأ من الشيخين فأبى وقال : كانا وزيرى جدى ، فتركوه ورفضوه وارفضوا عنه ، والنسبة رافضى .

النـاسُ على تقديم من أخَّروا ، وتأخيرِ من قدَّموا ، وإن كانوا أرادوا الدنيا فأنتَ وآباؤك أمراء المؤمنين ، لا دِينَ إلّا بك ، ولا دُنْيَا إلّا معك .

قال: كيف ترى دَارِى هـــذه ؟ قال: قلت : رأيت الناس بَنَوْا دُورهم فى الدنيا ، وأنت بنيتَ الدنيا فى دارك . فقال لى : ما تقول فى عبيد الله بن يحيى ؟ قلت : نِعْمَ العَبْدُ لله ولك ؛ مُقَسَّمٌ بين طاعته وخدمتك ، يُؤثِرُ رِضَاك على كلِّ فائدةٍ وما عاد بصلاحِ ملـكك على كل لذَّةٍ ، قال : فما تقولُ فى صاحب البريد ميمون بن إبراهيم ؟ وكان قد علم أنّى واجِدٌ عليه بتقصيرٍ وقَعَ منه فى أمرى . فقلت : يا أميرَ المؤمنين ، يدٌ تَسْرِق واستٌ تضرط ! وهو مثل اليهودىّ سرق نصف جِزْيَته ، فلَهُ إقدامٌ بما أدَّى ، وإحجام بما أَبقَى إساءته طبيعة ، وإحسانه تـكلّف !

قال : قد أرَدْتُك لمجالستى . قلت : لا أطيق ذاك ، وما أقولُ ذلك جهلًا بما لى فى هذا المجلس من الشرَفِ ، ولـكنى محجوب ، والمحجوبُ تختلِفُ عليه الإشـارَة ، ويَخفَى عليه الإيماء ، ويجوز أن يتـكلّم بكلام غَضْبَان ووَجْهُك رَاضٍ ، أو بكلام راضٍ ووَجْهُك غضبان ، ومتى لم أميِّز بين هذين هلـكت . قال : صدقت ، ولـكن تلزمنا . قلت : لزومَ الفرْضِ الواجبِ اللازم . فوصَلَنى بعشرة آلاف درهم.

مجالسه مع المتوكل — ولأبى العيناء مع المتوكّل مجـالسُ أدْخل الرُّوَاة بَعْضَهَا فى بَعْضٍ ، وسأورد مستطرفها إن شاء الله :

قال له المتوكل يوماً : يا أبا العَيْنَاء ؛ لا تُـكْثِرِ الوقيمةَ فى الناس ، قال : إنَّ لى فى بَصَرِى[1] لشُغُلًا عن الوقيمة فيهم . قال : ذلك أشَدُّ لحَنَقِك فى أهلِ العافية !

وقال له يوماً : هل رأيتَ طالبيًا حَسنَ الوَجْهِ قطّ ؟ فقـال : يا أمير المؤمنين ، أرأيت أحداً قطّ سأل ضريرا عن هذا ! قال : لم تـكن ضريرا فيما تقدّم ، وإنما سألتُك عمّا سلف . قال : نعم ، رأيتُ منهم ببغداد منذ ثلاثين سنة فتًى ما رأيت

(١) كان أعمى .

أجْمَل منه . قال المتوكّل : تَجِدُه كانَ مؤاجراً(١) ، وتَجِدُكَ كنتَ قوّاداً عليه ! فقال أبو العيناء : وفرغت لهذا يا أمير المؤمنين ، أتُرَاني أدَعُ مَوَالِيَّ على كَثْرَتِهم ، وأقُودُ على الغُرَبَاء ؟ قال : اسكت يا مأبون ؟ قال : مَوْلَى القوم منهم ! قال المتوكل : أردتُ أن أشتفي به منهم فاشْتَفَى لهم منّي .

وكان أبو العيناء أحــدّ الناسِ خاطراً ، وأحْضَرَهم نادرة ، وأسْرَعهم جواباً ، وأبلغهم خطاباً .

والمتوكلُ أوّلُ من أظْهرَ من خلفاء بني العباس الانهماكَ على شَهْوَته ، وكان أصحابه يتسخَّفون(٢) ويستخفُّون بحَضْرَتِه ؛ وكان يُهَاتِرُ الجلساء ، ويُفَاخِرُ الرؤساء ، وهو مع ذلك من قلوب الناس مُحَبَّب ، وإليهم مُقَرَّب ؛ إذ أماتَ ما أحياهُ الواثق من إظهار الاعتزالِ ، وإقامة سوق الجِدالِ .

قال محمد بن مكرم الكاتب : من زَعم أنّ عبــدَ الحميد أكْتَبُ من أبي العيناء كتابةً إذا أحسّ بِكرم ، أو شرع في طمَع ، فقد ظلم ؛ كتب إلى أبي عبيد الله بن سليمان وقد نكبه وأباه المعتمدُ ، وهما يُطالَبان بمــالٍ يبيعانِ له ما يَمْلِكَانه من عقّار وأثاثٍ وعَبْدٍ وأمَة ، وقد أعطى بخادم أسْوَد لعبيد الله خمسون(٣) دينارا :

قد علمت أصْلَحك اللهُ أنّ الكريمَ المنكوب أجْرَى(٤) على الأحرار من اللئيم الموفور ؛ لأنّ اللئيمَ يزيدُ مع النّعمةِ لُؤْما ، والكريم لا يزيدُ مع المِحْنَةِ إلّا كرَما ، هذا مُتَّكِلٌ على رازقه ، وهــذا يُسيء الظنّ بخالقه ، وعبدكَ إلى مِلك « كافور » فقيرٌ ، وثمنه على ما اتّصلَ بي يَسير ؛ لأنه بخدمته السلطان يمرّقني الرؤساء والإخوان ؛ ولستُ بواجدٍ ذلك في غيره من الغِلْمان ؛ فإنْ سمحت به فتلك عادَتُك ، وإنْ أمرت بأخْذِ ثمنه فهالكَ مادّتي ، أدام الله دَوْلَتَك ، واستقبل بالنعمة نَكْبَتَك . فأمرَ لهُ به .

(١) لعله من آجرت المرأة : أباحت نفسها بأجر . (٢) رجل سخيف : نزق خفيف .
(٣) هكذا بكل الأصول . (٤) في س : أجدى .

وسمع ابن مكرم رجلا يقول : من ذهب بَصَرُه قلّت حيلته . قال : ما أغفلك عن أبي العَيْناء !

وكتب أبو العيناء إلى عبيدالله بن سليمان: أنا – أعزك الله تعالى – وولدي وعيالي زَرْعٌ من زَرعِك ، إن سقيتَه راعَ وزَكا[1] ، وإن جفوتَه ذَبُل وذَوَى ؛ وقد مسّني منك جَفاء بعد بِرّ ، وإغفالٌ بعد تعاهُد ، حتى تكلّمَ عدوّ ، وشمت حاسِد ، ولعبت بي ظنونُ رجالٍ كُنْت بهم لاعباً، ولهم مجرّساً[2] ، ولله در أبي الأسود في قوله :

لا تُهِنّي بعد إذ أكْرَمْتَنِي   وشديدٌ عادةٌ مُنْتَزَعَهْ

فوقّع في رقعته : أنا أسمدك الله على الحال التي عَهِدْتَ ، ومَيْلي إليك كما علمت، وليس من أنسأناه أهملناه ، ولا من أخّرناه تركْناه، مع اقتطاع الشغْل لنا، واقتسام زماننا . وكان من حقّك علينا أن تذكّرَنا بنفسك ، وتُعلمنا أمرَك ؛ وقد وقّعت لك برزْقِ شَهرين ؛ لتريح علّتك ، وتعرفني مبلغَ استحقاقك ، لأُطْلِقَ لك باقيَ أرزاقك، إنْ شاء الله . والسلام .

وكان إذا خرج من داره يقول: اللهم إنّي أعوذُ بك من الرّكْبِ والرُّكُب[3]، والآجرّ والخَشَب ، والزّوَايا والقِرَب .

من خطابه قدامة من خطابه وجوابه :

وجوابه دخل على أبي الصقر بعدما تأخّرَ عنه، فقال : ما أخّرَكَ عنا؟ قال : سُرِق حماري. قال : وكيف سُرِق ؟ قال : لم أكُنْ مع اللص فأخبرك ! قال: فلِمَ لم تأتنا على غَيْرِه؟ قال : قعد بي عن الشراء قِلّةُ يَساري ، وكرهتُ ذِلّةَ المُكارِي ، ومِنّةَ العَوَارِي .

وزحمه رجل بالجسر على حِمَاره فضرب بيديه على أُذُنَي الحمار ، وقال : يا فتى ؛ قلْ للحمارِ الذي فوقَك يقول : الطّرِيق !

---

(١) راع : أعجب . وزكا : نما . (٢) التجريس بالقوم : التسميع بهم .
(٣) الركب (الأولى) : راكبو الدواب ، والركب (الثانية) : من قولهم طريق ركوب ذلل ، والجمع ركب .

ودخل على إبراهيم بن المدبر ، وعنده الفَضْلُ بن اليزيدى ، وهو يُلْقِى على ابنه مسائل من النَّحو . فقال : فى أىّ باب هـذا ؟ قال : فى باب الفاعل والمفعول به . قال : هذا بابى وباب الوالدة حفظها الله ! فغضب الفَضْلُ وانصرف ؛ وكان البحترىّ حاضراً فكتب بعد ذلك بقصيدته إلى إبراهيم بن المدبّر التى أولها(1):

ذكَّرتنيك روحةٌ للشَّمولِ ... أوْقدَتْ لَوْعَتى وهاجَتْ غليلى
أى شىء ألهاك عن سر من را ... ء وظلٌّ للعيش فيها ظَليل(2)

وفيها يقول(3) :

أقتِصاراً على أحاديثِ فَضْـلٍ ... وهو مستكرَهٌ كثيرُ الفضولِ
فعلام اصطفيت مُنْكَشِفَ البا ... ل(4) مُعادَ المِخْراقِ نَزْرَ القَبول
إن تَزُرْهُ(5) تجدْه أخلق من شَيْـ ... ـبِ الغَوَانى ومِنْ تَعَفِّى الطُّلولِ
مسرجاً ملجماً(6) وما متع(7) الـ ... ـضُّحى ادّلاجاً للشَّحْذِ والتَّطفيلِ(8)
غَيْرَ أنَّ المليين على حَا ... لٍ قليلو التميز مُتَّفَقى العُقولِ
فإذا ما تَذَاكرَ النَّاسُ معنى ... مِنْ مَتين(9) الأشعار والمجهول(10)
قال : هـذا لَنَا ونحن كشفنا ... غَيْبَـه للسّؤال(11) والمسئول
ضرب الأصمعى فيهم أم الأحْـ ... ـمر أم القحوا(12) بأيرِ الخليل
جُلّ ما عنده التردّد(13) فى الفا ... علِ مِنْ وَالِدَيْهِ وَالمَفْعُولِ

(1) ديوانه : ٢ — ٢٠٤ . (2) سر من راء : هى مدينة سر من رأى .
(3) ديوانه : ٢ — ٢٠٤ . (4) فى الديوان : منكشف الزيف . (5) فى س : ترده .
(6) فى الديوان : رائح مغتد . (7) متع النهار : ارتفع ، ومتع الضحى : بلغ آخر غايته.
(8) الطفيل : الذى يأتى الولائم بلا دعوة ، وقد طفل وتطفل. الشحذ : الإلحاح فى السؤال.
(9) فى س : مبين . (10) فى الديوان :

وإذا ماتنازع النـاس معنى ... من مبين القرآن أو مجهول

(11) فى الديوان : ونحن فتقنا عيبه للسئول . (12) فى الديوان : أم القحوا .
(13) فى الديوان : التعمق .

وعَزَّى بَعْضَ الأمراء ، فقال : أيها الأمير ؛ كان العزاء لك لا بك ، والفناء لنا لا لك ، وإذا كنتَ البقيَّةَ فالرزيَّةُ عطية ، والتعزيةُ تهنئة .

وسُئل أبو العيناء عن مالك بن طوق ؛ فقال : لو كان فى زَمَنِ بنى إسرائيل ونَزَلَ ذَبْحُ البقرة ماذُبِحَ غيره! قيل: فأخوه عمر؟ قال: كسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُه الظَّمْآنُ ماء حتى إذا جاءهُ لم يَجِدْهُ شيئا .

وكان موسى بن عبد الملك قد اغتال نجاح بن سلمة فى شرابٍ شَرِبه عنده ، فقال المتوكِّلُ بعد ذلك لأبى العيناء : ماتقول فى نجاح بن سلمة ؟ قال : ما قال الله تعالى : فوكَزَه موسَى فقَضَى عليـــه ! فاتَّصَل ذلك بموسى ، فلقى الوزير عُبيد الله بن يحيى ابن خاقان ، فقال : أيها الوزير ؛ أرَدْتَ قَتْلِى فلم تَجِدْ إلى ذلك سبيلا إلّا بإدخال أبى العيناء إلى أمير المؤمنين مع عَدَاوته لى ؛ فعاتب عبيدُ الله أبَا العيناء فى ذلك ، فقال : والله ما استَعْذَبْتُ الوقيعةَ فيه حتى ذَمَمْتُ سريرته لك ؛ فأمْسَك عنه .

ثم دخل بَعْدَ ذلك أبو العَيْناء على المتوكل فقال : كيف كنتَ بعد ؟ قال : فى أحوالٍ مختلفة ؛ خَيْرُها رُؤْيتك ، وشرُّها غَيْبَتُك . فقال: قد والله اشْتَقْتُكَ ! قال : إنما يَشْتَاقُ العَبْدُ ؛ لأنه يتعذَّرُ عليه لقاء مولاه ، وأما السيّدُ فتى أرادَ عَبْدَه دعاه .

وقال له المتوكل : مَنْ أسْخَى مَنْ رأيت ؟ قال : ابنُ أبى دُواد . قال المتوكِّل : تأتى إلى رجل رفضته فتنسبه إلى السخاء ؟ قال: إنَّ الصـــدقَ يأميرَ المؤمنين ليس فى موضعٍ من المواضع أنْفَقَ منه فى مجلسك ؛ وإنَّ الناس يغلطون فيمن يَنْسبونه إلى الجود ؛ لأنَّ سخاءَ البرامكة منسوبٌ إلى الرشيد ، وسخاءَ الفضل والحسن ابنى سهل منسوبٌ إلى المأمون ، وجودُ ابن أبى دُواد منسوبٌ إلى المعتصم . فإذا نَسب الناسُ الفَتْحَ وعبيد الله ابنى يحيى إلى السخاء فذلك سَخَاؤُك يا أميرَ المؤمنين . قال : صدقت ؛ فمن أبخَلُ مَنْ رأيت ؟ قال : موسى بن عبد الملك . قال : وما رأيتَ من بُخْله ؟ قال: رأيته يحرم القريب كما يحرم البعيد، ويَعْتَذِر من الإحسان كما يعتذِرُ من

الإساءة . فقال له : قد وَقَعْتَ فيه عندى مرتين ، وما أحبّ لك ذلك ؛ فالْقَهُ واعتذر إليه ، ولا يعلم أنى وجهتُ بك . قال : يا أمير المؤمنين، من يستكتمنى بحضرة ألف؟ قال : لن تخاف . قال : على الاحتراس من الخوف .

فصار إلى موسى فاعتذر كلٌّ واحد منهما إلى صاحبه ، وافترقا عن صلح ؛ فلقيه بعد ذلك بالجعفرى فقال : ياأبا عبد الله ؛ قد اصطلحنا ، فمالك لا تأتينا ؟ قال : أتريد أن تقتلَنى كما قتلت نَفْسًا بالأمس ؟ فقال موسى : ما أرانا إلا كما كُنا .

وقال له المتوكل : إبراهيم بن نوح النصرانى وَاجِدٌ عليك . قال : ولن تَرْضَى عنك اليهودُ ولا النصارى حتى تتّبع ملّتهم ! قال : إن جماعة من الكتاب يلومونك. فقال :

إذا رضِيَتْ عَنِّى كِرَامُ عشيرتى　　　فــلا زال غَضْبَانًا علىّ لِئَامها

قال المتوكل له : أكان أبوك فى البلاغة مِثْلَك ؟ قال : لو رأى أمير المؤمنين أبى لرأى عَبْدًا له لا يَرْضَانى عبداً له .

وقيل لأبى العيناء : إنّ المتوكل قال : لولا أنه ضَرِير البصر لنَادَمْتُه ، فقال : إن أعفانى من رُؤْيَة الأهلّة ، وقراءة نَقْش الفصوص ، فأنا أصْلُح للمنادمة .

ولقيه رجلٌ من إخوانه فى السَّحَر ، فجعل يعجب من بُكُوره ، فقال : أراك تشاركنى فى الفعل ، وتُفْرِدُنى بالتعجّب !

ووقف به رجلٌ من العامّة فأحسّ به، فقال : مَنْ هَذا ؟ قال : رجل من بنى آدم! قال : مرحباً بك ، أطال الله بقاك ، وبقيت فى الدنيا ، ما ظننتُ هــذا النّسْل إلا قد انقطع .

ودخل على عبيد الله بن سليمان فقال : اقْرُبْ منّى يا أبا عبد الله . فقال: أعزّ الله الوزير ، تقريبُ الأولياء ، وحِرْمَان الأعداء . قال : تقريبُك غنم ، وحِرْمَانك ظُلْم ؛ وأنا ناظرٌ فى أمرك نظراً يُصْلِحُ مِنْ حالك إن شاء الله .

وقال له يوماً : اعذرنى فإنّى مشغول . فقال له : إذا فرغت من شغلك لم نحتج إليك ، وأنشده :

فلا تَعْتَذِرْ بالشُّغْلِ عنّا فإنّما ... تُناطُ بكَ الآمالُ ما اتَّصلَ الشُّغْلُ

ثم قال : يا سيّدى قد عذرتك ، فإنه لا يَصْلُحُ لشُكْرِك مَنْ لا يَصْلُحُ لعُذْرِك .

وأقبل إليه يوما فقال : مِنْ أين يا أبا عبدِ الله ؟ قال : من مَطَارِحِ الجَفَاء !

وقال له مرّةً : نحن فى العطلة مَرْحُومُون، وفى الوزارة محرومون ، وفى القيامةِ كلُّ نَفْسٍ بما كسبَتْ رَهِينة .

وسار يوماً إلى باب صاعد بن مخلد فقيل: هو مشغولٌ يُصَلِّى ، قال: لكلِّ جديدٍ لذّةٌ ! وكان صاعدٌ نصرانيا قبل الوزارة .

ودخل إلى عبيد الله بن سليمان ، فشكا إليه حالَه ، فقال : أليْسَ قد كتبنا لك إلى إبراهيم بن المدبّر ؟ فقال : كتبتَ إلى رجلٍ قد قصَّرَ من هِمَّتِه طولُ الفقْر ، وذُلُّ الأَسْر ، ومماناةُ مِحَنِ الدّهْرِ ، فأخفقته فى طَلِبَتى ! قال: أنتَ اخترْتَه؟ قال : وما علىّ ـ أعزّ اللهُ الوزيرَ ـ فى ذلك؟ قد اختار موسى قومه سَبْعين رجلا، فما كان منهم رشيد ، واختار النبىُّ صلى الله عليه وسلم ابنَ أبى سرح كاتباً ، فرجع إلى المشركين مرتدًّا ، واختار علىُّ بن أبى طالب أبا موسى حاكما له فحَكَمَ عليه !

[البحترى يمدح إبراهيم بن المدبر]

وكان إبراهيمُ بن المدبر أَسَرَهُ صاحبُ الزَّنْج بالبصْرَة وحبَسه؛ فاحتال حتى نقب السِّجْن وهرَب؛ فلذلك ذكر أبو العيناء ذُلَّ الأَسْر ، وكان قد ضُرِبَ فى وجهه ضَرْبَةً بَقِىَ أثرها إلى أنْ مات . ولذلك قال البحترى[(١)] :

ومُبِينَةٍ شَهِرَ المُنازِلُ وَسْمَها ... والخيلُ تكْبُو فى العَجاجِ الكابى

كانت بوجهك دون عِرْضِك إذْ رأَوْا ... أنّ الوُجوهَ تُصانُ بالأحسابِ

(١) ديوان : ١ ــ ١٥ .

وَلَئِنْ أُسِرْتَ فَمَا الإسارُ على امرئٍ ... نَصَرَ الإسارَ على الفرارِ بِعَابِ[١]

نامَ المُضَلَّلُ عن سُرَاكَ ولم تَخَفْ ... عَيْنَ الرقيبِ[٢] وقَسْوَةَ البَوَّابِ

فركبْتَها هَوْلًا مَتى تُخْبِرْ بها ... يَقُلِ الجبانُ أتيتَ غَيْرَ صَوابِ

ما راعَهُمْ إلا استراقُكَ[٣] مُصْلِتًا ... في مِثْلِ بُرْدِ الأرْقَمِ المُنْسابِ[٤]

تَحْمِي أُغَيْلِمَةً وطائشةَ الخُطى ... تصلُ التلفُّتَ[٥] خَشْيَةَ الطُّلّابِ

قد كان يومَ نَدَى بِطَوْلِكَ باهرًا[٦] ... حتى أضفْتَ إليه يومَ ضِرابِ[٧]

ذِكْرٌ من البأسِ استمدتَ[٨] إلى الذي ... أُعْطِيتَ في الأخلاقِ والآدابِ

ووحيدةً أنتَ انفردْتَ بفضلِها[٩] ... لولاكَ ما كُتِبَتْ على الكُتّابِ

[صاحب الزنج]

قال أبو بكر الصولى : حدثنى محمد بن أبى الأزهر، وقد ذاكرتُه خبرَ علىّ صاحب الزنج ، قال : ادّعى أنه على بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن على بن الحسين بن علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنهم ، فنظرتُ مولده ومولد محمد بن أحمد الذى ادّعاه ، فكان بينهما ثلاث سنين . وكان لمحمد بن أحمد ولدٌ اسمه علىّ مات بعد هذا المدّعى اسمَه ونسبَه بزمانٍ . ثم رجع عن هذا النسب ، فادّعى أنه على بن محمد بن عبد الرحيم[١٠] ابن رحيب بن يحيى المقتول بخُراسان ابن زيد بن على .

قال أبو عبيدة محمد بن على بن حمزة : ولم يكن ليحيى وَلَدٌ يقال له رحيب ولا غيره؛ لأنه قُتِلَ ابن ثمانى عشرة سنة ولا وَلَدَ له .

---

(١) العاب : العيب . (٢) فى الديوان : سنة الرقيب ونشوة .
(٣) فى الديوان : امتشاقك . (٤) المصلت : السيف ، والأرقم : الحية .
(٥) فى ق : التقلب . (٦) فى الديوان : راهنا . (٧) الضراب : الطعان .
(٨) فى الديوان : ذكرت من البأس استمرت ، وفى س : استعدت . (٩) فى الديوان : وفريضة أنت استننت . (١٠) فى س : عبد الرحمن .

قال بشر بن محمد بن السرى بن عبد الرحمن بن رحيب : هو ابن عم أبى لَحًّا[١] على بن محمد بن عبد الرحمن بن رحيب ، ورحيب رجل من العجم من أهل وَرْتين من ضياع الرىّ ، وهو القائل لبنى العباس :

بنى عمنـــا إنّا وأنتم أناملٌ ... تضمنها من راحتيها عُقُودُها
بنى عمّنا وَلَّيتُمُ الترك أمرَنا ... ونحن قديماً أصلُها وعمودُها
فما بالُ عُجْم الترك تقسم فَيْئَنَا ... ونحن لديها فى البلادِ شُهُودُها
فأقسم لاذُقْتُ القَرَاح وإن أذُقْ ... فَبُلْغَةُ عَيْشٍ أو يُبَاد عبيدُها

وقال أيضاً :

لهفَ نفسى على قصورٍ ببغدا ... دَ وماقد حَوَتْهُ مِنْ كلّ عاصِ
وخمورٍ هُناك تُشْرَبُ جَهْرًا ... ورجالٍ على المعاصى حِراصِ
لستُ بابْنِ الفواطِمِ الزُّهْرِ إن لم ... أُقْحِمِ الخَيْلَ بين تلكَ العِراصِ

وله فى هذا المعنى شعرٌ كثير قد ناقضَه البغداديون ، وكانت مدّتُه حين نَجَم[٢] إلى أنْ قتل أربع عشرة سنة ، وجملةُ من قتل ألف ألف وخمسمائة ألف .

[رجع إلى حديث أبى العيناء]

وذكر أبو العيناء رجلا فقال : ضَحِكٌ كالبكاء ، وتودّد كالعزاء ، ونوادر كنَدْب الموتى !

وكان يُهاتِر ابن مكرم كثيراً ، وكتب إليه ابنُ مكرم يوماً : قد ابتَعْتُ لك غلاماً من بنى ناشر ، ثم بنى نَاعِط ، ثم من بنى نَهد .

فكتب إليه : فأتِنا بما تَعِدُنا إن كُنْتَ من الصادقين .

ووُلد لأبى العيناء وَلَد[٣]، فأتى ابنُ مكرم فسلم عليه، ووضع حجراً بين يديه وانصرف

(١) أى لاصق النسب . (٢) نجم : ظهر ونشأ . (٣) فى س : مولود .

فأحسّ به ، فقال : مَنْ وضع هذا ؟ فقيل: ابن مكرم ، قال: لعنه الله! إنما عرّض بقول النبي صلى الله عليه وسلم : الولَدُ للفراش وللعاهر الحجر .

وقال لابن مكرم وقد قدم من سفر : مالك لم تُهْدِ إلينا هدية ؟ قال : لم آتِ بشيء وإنما قدمت في خف . قال : لو قدمت في خف لخلقْتَ رُوحك !

وأتى إلى باب إبراهيم بن رياح فحُجب فقال : إذا شغل بكأس عناه ، وبحر يُسْراه ، وانتسب إلى أب لا يعرف أباه ، لا يَحْفِل بحجاب من أتاه ..

وقدّم إليه أبو عيسى بنُ المتوكل سِكْباجة ، فجعل لا تقعُ يده إلا على عظم ؛ فقال : جعلت فِدَاك ! هذه قِدر أو قبر .

ودعا ضريراً ليعشّيه ، فلم يَدَعْ شيئاً إلّا أكله ، فقال : يا هذا ، دعوتك رحمةً . فتركتني رحمة .

ألفاظ لأهل العصر في صفات الطعام ومقدماته وموائده وآلاته .

اقْرِنْ طعامَك اسم الله ، واخْتِمْه حمدَ الله . لا يَطيبُ حضور الخِوان إلّا مع الإخوان . البُخْلُ بالطَّعَام من أخلاق الطَّغَام[1] . الكريم لا يَحظُر تقديمَ مايَحْضُرُ ؛ قد قامت خطباء القدور . قدورٌ أبكار ، بخواتِم النّار . قدرٌ طار عَرْفُها ، وطاب غَرْفُها . دَهْمَاء تَهْدِرُ كالفَنِيق[2] ، وتفُوحُ كالمِسْكِ الفتيق . مائدة كدَارَة البَدْرِ ، تباعد بين أنفاس الجلّاس . مائدة مثلُ عروس . مائدة لطيفة ، محفوفةٌ بكل طريفة . مائدة تشتمل على بدائع المأكولات ، وغرائب الطيّبات . مائدةٌ كأنما عملها صُنّاع صنعاءَ ، تجمع بين أنوار الربيع ، وثِمَارِ الخريف .

وقال الجماز : جاءنا فلان بمائدةٍ كأنها زَمَنُ البرامكة على المُفاة !

وذَمّ آخر رجلا فقال : لا يَحْضُرُ مائدتَه إلا أكرمُ الخَلْق والأمهم — يريد الملائكة والذباب .

---

(١) الطغام : أوغاد الناس .

(٢) الفنيق : الفحل المكرم لا يؤذى لكرامته على أهله ولا يركب .

وقال ابن الحجاج لرجل دعاه وأخّر الطعام :

قد جُنّ أصحابُك من جُوعِهِمْ فاقرَأ عليهم سورةَ المائدَه

ولبعض أهل العصر يذم رجلا :

خِوَانٌ لا يُلِمُّ به ضُيوفٌ وعِرْضٌ مثل مِنْديلِ الخِوَانِ

رغفان كالبدور المنطقة بالنّجوم . حَمَلٌ ذهبيّ الدّثار ، فِضيُّ الشعار . أطْيَبُ ما يكون الحَمَلُ ، إذا حلّت الشمس الحَمَل(١) . جَدْى كأنما نُدِفَ على جَبينه القزّ . زِيرْبَاجة هي للمائدة دِيباجة ، تَشْفِى السّقام ، ولونها لونُ السقيم . سِكْبَاجة تفتقُ الشهوة ، واسفيذباجة تغذّى(٢) القوم ، وطَباهِجَة(٣) يتفكّه بهـا ، وخَبيص(٤) يختم بخير . طَبَاهِجة من شرط الملوك ، كأعْرَافِ الديوك ، وقلية كالعود المُطرّى . مغمومة تفرج غَمّ الجائع . هريسة نَفيسة ، كأنها خيوط قزّ مشتبكة ، كأن المُرّى(٥) عليهـا عُصَارَةُ المسك على سبيكة الفضة . أرزة مَلْبونة ، فى السكر مدفونة . شواء رشراش(٦) ، وفالوذج رَجْرَاج . طَبَاهِجة تغذى ، وفالوذجة تعزى ، واسفيذباجة تصفع قَفَا الجوع . لا فِرَاشَ للنبيذ ، كالحَمَل الحَنِيذ(٧) . دجاجة سميطة(٨) ، لها من الفضة جسم ، ومن الذهب قشرة . دجاجة دِينارِيّة نعْتا ولونا .

وهـذا محلول من قول على بن العباس الرومى يصف طعاما أكله عند أبى بكر الباقطانى(٩) :

وسَمِيطة صفراء(١٠) دينارية ثمنا ولونا زَفّها لك حَزْوَرُ(١١)

---

(١) الحمل : برج فى السماء . (٢) فى ط : تغزو القوم . (٣) الطباهجة : اللحم المشرح . (٤) الخبيص : المعمول من التمر والسمن . (٥) المرى بوزن درى : إدام كالسكامخ (هامش ق ، س) . (٦) الرشراش : السمين من الشواء .

(٧) حنذ الشاة : شواها وجعل فوقها حجارة محماة لتنضجها فهى حنيذ .

(٨) من سمط الجدى : نتف صوفه بالماء الحار . (٩) ديوانه : ٤٧٨ .

(١٠) فى الديوان : وخبيصة بيضاء . (١١) الحزور : الغلام إذا اشتد وقوى وخدم .

عظمت فكادت أن تكون أوزّةً ... وغلت[1] فكاد إهابها يتفطّرُ
طفقت تجودُ بذوبها جوذابةً ... فأتى[2] لباب اللّوز فيها السكّرُ
ظللنا نقشّرُ جلدها عن لحمها ... فكأنّ تِبرًا عن لُجَيْن يُقشَرُ
وتقدّمتها قبل ذاك ثرائدُ ... مثلُ الرّياض بمثل[3] ذاك تصدّرُ
ومرقّقات كلّهنّ مزخرفٌ ... بالبيض منها مُلبَسٌ ومدثّرُ
وأتتْ قطائف بعدَ ذاك لطائفٌ ... تَرْضَى اللّهاةُ بها ويَرْضى الحنجرُ
ضحك الوجوه من الطبرزد فوقها ... دمع العيان مِنَ الدّهان يُعصَّرُ[4]

المقامة البغدادية في وصف الطعام

قال البديع: حدثني عيسى بن هشام[5] قال: اشْتَهَيْتُ الأزاذَ، وأنا بِبَغْدَاذَ[6]، وليس مَعِي عَقْدٌ عَلَى نَقْدٍ[7]، فخرجتُ أنتهزُ محالّه، حتى أحَلَّنِي الكَرْخَ[8]، فإذا أنا بسَوَادِيٍّ يَحْدُو[9] بالجَهْدِ حمارَه، ويُطَرِّفُ بالعَقْدِ إزارَه[10]؛ فقلتُ: ظَفِرْنَا والله بصَيْدٍ، وحَيَّاكَ اللهُ أبا زَيْدٍ! مِنْ أيْنَ أقبلْتَ، وأيْنَ نزلْتَ، ومتى وافيْتَ، فهَلُمَّ إلى البيتِ. فقال السَّوَادِيّ: لستُ بأبي زَيْدٍ، وإنما[11] أنا أبُو عبيد! فقلتُ: نعم لَعَنَ اللهُ الشيطانَ، وأبْعَدَ النِّسيانَ، أنْسَانِي طُولُ العَهْدِ بِكَ[12]، كَيْفَ أبُوكَ، أشَابٌّ كَعَهْدِي أمْ شَابَ بَعْدِي؟ قَالَ: قد نَبَتَ المَرْعَى[13] على دِمْنَتِه، وأرْجو أن يُصَيِّرَه اللهُ إلى جَنَّتِه[14]، فقلْتُ: إنّا لله[15]

---

(١) في الديوان: وثوت. (٢) في الديوان: فإذا. (٣) في الديوان: بمثلهن.

(٤) هذا البيت ليس في الديوان المطبوع. (٥) المقامات: ٦٦. (٦) الأزاذ: من أجود أنواع التمر، وبغداذ: هي بغداد. (٧) ليس معي عقد على نقد: أي ليس معي نقود يعقد عليها الكيس والثوب. (٨) الكرخ: في الجانب الغربي من بغداد.

(٩) في المقامات: يسوق. (١٠) السوادي: الرجل من قرى العراق. يطرف بالعقد إزاره: أي يرد أحد طرفيه إلى الآخر. (١١) في المقامات: ولكني.

(١٢) في المقامات: أنسانيك طول العهد واتصال البعد، فكيف حال أبيك. (١٣) في المقامات: الربيع. (١٤) الدمنة: آثار الديار، ولا ينبت الربيع على الدمنة إلا حين يبعد عهدها بالمراب، يريد أن أباه مات منذ زمن طويل. (١٥) في المقامات: إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول . . .

ولا قوةَ إلا بالله، ومددت يدَ البِدار، إلى الصِّدَار(١) أريد تمزيقه، وأحاول تخريقه؛ فقبض السواديّ على خَصْرى بجُمْعه(٢)؛ وقال: نَشَدْتُك بالله لا مزّقته، فقلت: فهلم إلى البيت نُصِبْ غداء، أو إلى السوق نشترى شِوَاء؛ والسوقُ أقربُ، وطعامه أطيب، فاستفزّته حُمَةُ القَرَم(٣)، وعطفته عطفة النَّهم(٤) وطَمِع، ولم يعلم أنه وقع، ثم أتيت شوّاء يتقاطرُ شِوَاؤه عَرقاً، ويتسايل جُوذَابُه مرقاً(٥)، فقلت: أبرز(٦) لأبي زيد من هذا الشّواء، ثم زِن له من تلك الحلْوَاء، واختر من تلك الأطباق، وانضد عليها أوراقَ الرقاق، وشيئا من ماء السُّمّاق(٧)؛ ليأكله أبو زيد هنيا. فأنحى الشوّاء بساطوره، على زُبدَة تَنُّوره، فجعلها كالكحل سَحْقاً، وكالطحين دَقّاً، ثم جلس وجلست، ولا نبَس ولا نبست، حتى استوفَيْنَاه، وقلت لصاحب الحلواء: زِنْ لأبي زيد من اللُّوزينج رطلين(٨)، فإنه أجرى في الحلوق، وأسْرَى في العروق، وليكن ليليَّ العمْر، يوميَّ النَّشْر(٩)، رقيق القِشْر، كثيف الحشْو، لؤلؤيّ الدهن، كوكبي اللون، يذوب كالصَّمْغ، قبل المَضْغ، ليأكله أبو زيد هنيّا. فوزنه، ثم قعد وقعدتُ، وجرّدَ وجرّدت(١٠)، واستوفيناه، ثم قلت: يا أبا زيد، ما أحوجنا إلى ماء يُشَعْشَع بالثلج، ليقمع هذه الصّارة(١١)، ويَفْثأ هذه اللُّقَم الحارة(١٢)؛ اجلسْ أبا زيد حتى آتيك بسقّاء، يجيئنا بشَرْبة من ماء، ثم خرجت، وجلست بحيث

---

(١) البدار: المسارعة، والصدار: ثوب يلي البدن. (٢) جمع الكف، بضم الجيم: قبضته. (٣) استفزته: استهوته. الحمة: إبرة العقرب التي تلسع بها، والمراد الشدة، والقرم شدة الشهوة إلى اللحم. (٤) في المقامات: اللقم: وهو السرعة في الأكل.

(٥) الجوذاب: خبز يوضع في التنور وفوقه طائر أو لحم، وفي المقامات: جوذاباته.

(٦) في المقامات: افرز. (٧) السماق: حب أحمر صغير، وفي المقامات: ورش عليه شيئاً من ماء السماق. (٨) اللوزينج: نوع من الحلواء يصنع من نوع من الخبز ويسقى بدهن اللوز، ويحشى بالنقل. (٩) ليلي العمر: صنع من ليلته، ويومي النشر: ظهر نهاراً.

(١٠) جرد وجردت: يريد أن كلا منهما شمر عن ساعده استعداداً للمائدة.

(١١) الصارة: شدة العطش. (١٢) يفثأ: يسكن.

أراه ولا يراني ، أنظر ما يُصنع به . فلما أبطأتُ عليـــه قام السواديّ إلى حماره ، فاعتلق الشوّاء بإزاره . وقال : أين ثمنُ ما أكلتَ ؟ قال : ما أكلتُه إلا ضيفا ! قال الشوّاء : هاك وآك[1] ، متى دعوناك ؟ زِنْ يا أخا القحبة[2] عشرين ، وإلا أكلت ثلاثا وتسعين ! فجعل السواديّ يبكي ويمسح دموعه بأردانه ، ويحُلّ عقدَهُ بأسنانه ، ويقول : كم قلتُ لذلك القُرَيْد ، أنا أبو عُبَيْـد ، وهو يقول : أنت أبو زيد ! فأنشدت :

أَعْمِلْ لرزقك كلَّ آلَهْ   لا تَقْعُدَنَّ بذُلِّ[3] حالَهْ
وانهَضْ بكلِّ عزيمةٍ[4]   فالمرء يَعْجِزُ لا المَحَالَه

في وصف القطائف

ومن مليح ما قيل في القطائف قول عليّ بن يحيى بن أبي منصور المنجم :

قطائفُ قد حُشِيَت باللَّوْز   والسكر الماذِيّ حشْوَ الموزِ[5]
يسبح في آذِيّ[6] دُهْنِ الجوْز   سررت لما وقعت في حَوْزِي
سرور عَبّاسٍ بقُرْب فَوْزِ[7]

ومن ألفاظ أهل العصر في الحلواء : فالوذج بلُبَاب البُرّ ، ولُعاب النَّحْـــل على الحلواء كأنّ اللوز فيه كواكب دُرّ ، في سماء عَقِيق .

ابن الرومي يصف اللوزينج

ولم يقل أحد في صفة اللوزينج أحْسن من قول ابن الرومي[8] :

لا يُخطِئَنِّي مِنْكَ لَوْزِينَجٌ   إذا بدا أعْجَبَ أو عجَّبا
لو شاء أن يَذْهَبَ في صَخْرَةٍ   لسهَّل الطِّيبُ له مَذْهَبا
لم تُغلِق الشَّهْوَةُ أبوابها   إلّا أبَتْ زُلْفَاهُ أنْ يُحْجَبا
يَدور بالنَّفْحَـــة[9] في جامِهِ   دَوْرًا تَرَى الدُّهْنَ له لَوْلَبا

---

(١) في المقامات : فلـكه لـكة . (٢) في المقامات : القحة . (٣) في المقامات : بكل حاله . (٤) في المقامات : عظيمة . (٥) الماذي : العسل .
(٦) الآذي : الموج . (٧) فوز : هي معشوقة العباس بن الأحنف .
(٨) ديوانه : ١ — ٣٢٤ . (٩) في الديوان : بالنفخة .

عاوَنَ فيـــهِ مَنظَرٌ مَخبَرا مُستَحسَنٌ ساعَدَ مُستعذَبا
مُستَكثَفُ الحَشْوِ ولـكِنَّهُ أرَقُّ جِلْدًا(١) من نَسيمِ الصَّبا
كأنَّمـا قُدَّتْ جَلابيبُهُ من نقطة القَطْرِ إذا حُبِّبا(٢)
يُخالُ من رِقَّةِ خِرْشائِهِ شارَكَ في الأجنِحَةِ الجُنْدُبا(٣)
لو أنَّه صُوِّرَ من خُبْزِهِ ثَغرٌ لـكان الواضحَ الأشْنَبا(٤)
من كلِّ بيضاءَ يَوَدُّ(٥) الفتى أن يجعلَ الـكفَّ لها مَركَبا
مَدْهونَةٍ زَرْقاءَ مَدْقوقَةٍ(٦) صَهْباءَ(٧) تَحكي الأزرَقَ الأشْهَبا
قرةُ(٨) عَيْنٍ وفَمٍ حُسِّنَتْ وطُيِّبَتْ حتى صَبا مَنْ صَبا
ديفَ(٩) له اللوزُ فما مَرَّةً مَرَّتْ على الذائقِ إلا أبَى
وانتَقَدَ الـسُّكَّرَ نُقَّادُهُ وشاوَرُوا في نَقْدِهِ الذَّهَبا
فلا إذا العَيْنُ رَأَتْهُ(١٠) نَبَتْ ولا إذا الضِّرْسُ علاهُ نَبا
لا تُنكِروا(١١) الإدلالَ من وامِقٍ وَجْــهُ تلقاكُمُ الطَّلَبــا(١٢)

هذه الأبيات يقولها في قصيدة طويلة يمدح فيها أبا العباس أحمد بن محمد بن عبدالله ابن بشر المرثدي، ويهنّيه بابن ولده؛ وأولها(١٣):

شمسٌ وبَدْرٌ وَلَدا كَوْكَبا أقسَمْتُ باللهِ لقَدْ أنجَبا

قال أبو عثمان سعيد بن محمد الناجم: دخلت على أبي الحسن وهو يعمل هــذه

---

(١) في الديوان: أرق قشرا. (٢) في الديوان: من أعين القطر الذي قبا.
(٣) الخرشاء: الجلدة الرقيقة. (٤) الأشنب: من الشنب، وهو رقة وبرد وعذوبة في الأسنان. (٥) في الديوان: يحب. (٦) في الديوان: مدفونة.
(٧) في الديوان: شهباء. (٨) في الديوان: ملذعين. (٩) في الديوان: ذيق. وديف: خلط. (١٠) في الديوان: رأتها. (١١) في الديوان: لاتنكر.
(١٢) في ط: تلق بكم. وفي الديوان: تلقاكم.
(١٣) ديوانه: ١ — ٣١٤.

القصيدة ، فقلت : لو تفاءلت فيها لأبي العباس بسبعة من الولد ؛ لأنَّ أبا العباس[١] منكوساً سابعٌ ، لجاء المعنى ظريفاً ، فقال :

وقد تفاءَلْتُ له زاجِراً ... كُنيَتَه لا زاجِراً ثَعْلَبا
إنّي تأمَّلْتُ له كُنْيَةً ... إذا بدا مَقْلوبُها أعْجَبا
يَصوغُها العكْسُ أبا سابعٍ ... لا كَذَّبَ اللهُ ولا خَيَّبا
بل ذاكَ فألٌ ضامِنٌ سَبْعَةً ... مثْلَ الصُّقُور استشْرَفَتْ مَرْقَبا
يأتونَ من صُلْبِ فَتًى ماجِدٍ ... وذاكَ فألٌ لم يَعُدْ مَعْطَبا
وقد أتانا منهمُ[٢] واحِدٌ ... فلننتظِرْهُمْ[٣] ستَّةً غُيَّبا
في مُدَّةٍ تَعْمُرُها نِعمةٌ ... يجعلُها اللهُ له تُرْتُبا[٤]
حتى تراهُ جالساً بينَهُمْ ... أجَلَّ من رَضْوَى ومن كَبْكَبا[٥]
كالبدرِ وافَى الأرضَ من نُورِهِ ... بيْنَ نجومٍ سبعَةٍ فاجْتَبى[٦]
ولْيَشكُرِ النّاجِمُ عن هذهِ ... فإنّها من بعضِ ما بوَّبا
سَدّى وألْحَمْتُ أخٌ لم أزَلْ ... أشكُرُ ما أسْدَى وما سَبَّبا

وكان ابنُ الرومي منهوما في المآكل ، وهي التي قتلَتْهُ ، وكان مُنْجَبًا بالسمك ، فوعده أبو العباس المرتدى أن يبعثَ إليه كلَّ يوم بوظيفة لا تنقَطِع ، فبعث إليه يوم سَبْتٍ ثم قطعه ؛ فقال :

حب ابن الروى السمك

ما لِحيتانِنا جَفَتْنا وأنَّى ... أخْلَفَ[٧] الزائرونَ منتظِريهِمْ
جاء في السَّبْتِ زَوْرُهم[٨] فأتينا ... من حفاظٍ عليه ما يكفيهم
وجعلناه يوم عيدٍ عظيمٍ ... فكأنّا اليهودُ أو نحكيهم

(١) في س : العباس . (٢) في الديوان : أتاه ، وفي ط : أتى منهم له .
(٣) في الديوان : فلينتظر . (٤) الترتب : الشيء المقيم الثابت .
(٥) كبكب : جبل بعرفات . (٦) في الديوان : فاجتبى . (٧) في س : خلف .
(٨) الزور : الضيف .

وأرامِ مصممين على الهَجْـ ... ـرِ فلمْ يُسْخِطُون مَنْ يُرْضيهم
قــد سبَتْنا وما أتتنا وكانُوا ... يوم لا يَسْبِتُونَ لا تأتيهم

فاتّصل ذلك بالناجم ، فكتب إلى ابن الرومى :

أبا حسنٍ أنتَ مَنْ لا تزَا ... لُ تُحمدُ فى الفضْلِ رُجْحانَهُ
فكم تُحْسِنُ الظنَّ بالمرتدىّ ... وقــد قلَّلَ اللهُ إحسانَهُ
ألم تَدْرِ أنَّ الفتى كالسرابِ ... إذا وَعَدَ الوَعْدَ إخوانَهُ
فبَحْرُ السرابِ يَفُوتُ القلوبَ[1] ... فقــلْ فى طِلابك حيتانَهُ

ابن الرومى يصف العنب الرازقى

وخرج ابنُ الرومى إلى بعض المتنزهات وقصدوا كَرْما رازقيًّا[2]، فشربوا هناك عامّةَ يومهم ، وكانوا يتهمونه فى شِعْرِه ، فقالوا : إن كان ما تُنْشِدنا لكَ فقلْ فى هــذا شيئاً ، فقال : لا تَرِيموا حتى أقول فيه، وأنشدهم لوقته[3] :

ورازقىّ مُخْطَفِ الخصُورِ[4] ... كأنه مخازنُ البلُّورِ
قد ضُمِّنَتْ مِسْكا إلى الشطورِ ... وفى الأعالى ماء وردٍ جُورى[5]
بلا فَرِيدٍ وبلا شُــذُورِ ... له مَذاقُ العَسَلِ المَشُورِ[6]
وبَرْدُ مَسِّ الخصِرِ[7] القرورِ ... ونَكْهَةُ المِسْكِ مع الكافورِ
ورقّةُ المـــاء على الصدورِ ... باكَرْتُه والطَّيْرُ فى الوُكُورِ
بفِتْيَةٍ من وَلَدِ المنصورِ ... أملأ للعَيْنِ من البُدُورِ
حتى أتيْنــا خَيْمَةَ النَّاطورِ[8] ... قبل ارتفاعِ الشمسِ للذُّرُورِ[9]
فانْحطَّ كالطَّاوِى من الصُّقُورِ ... بطاعةِ الرّاغبِ لا المَقْهُورِ

---

(١) فى س : الطلوب . (٢) فى القاموس : هو العنب الملاحى .
(٣) ديوانه : ١٩٥ ، وهناك اختلاف كبير بين الرواية هناك وبين الرواية هنا .
(٤) ضامرها . (٥) جور : مدينة ينسب إليها الورد .
(٦) الفريد : الجوهرة النفيسة . المشور : من شار العسل : استخرجه.
(٧) الخصر : البارد . (٨) الناطور : حافظ الكرم . (٩) ذرت الشمس : طلعت .

والحرُّ عَبْدُ الخالبِ المشطورِ ... حتى أتانا بِضُروعٍ حورِ
مملوءةٍ من عَسَلٍ محصورِ ... والطَّلُّ مثل اللؤلؤ المنثورِ
ثمّ جلَسْنا جِلْسَةَ المحبورِ ... بين حِفافَيْ جَدْوَلٍ مَسْجورِ [1]
أبيض مثل المُهْرَق المنشورِ ... أو مثل متن المُنصلِ المشهورِ [2]
يَنْسابُ مثل الحيّةِ المذعورِ ... بَيْنَ حَفافَيْ شَجَرٍ مَسْطورِ
ناهيك للعقود من ظُهورِ ... فنِيلَت الأوطارُ في سُرورِ
وكلُّ ما يُقْضَى مِنَ الأمورِ ... تَعِلَّةٌ من يَوْمِنا المنظورِ
ومُتْعَةٌ من مُتَعِ الغرورِ

ألفاظ تناسب هذا النحو لأهل العصر في صفات الفواكه والثمار

كَرْم تُسْلِفه [3] الماء القَرَاح ، ويَقْضِينا أمّهات الرّاح . عنقود كالثريّا ، وعِنَبٌ كمخازن البلّور ، وضروب النّور ، وأوعيةِ السرور . أمّهات الرحيق ، في مخازن العقيق . نَخْلٌ تُسْلِفه الماء ، ويقضينا العسل . رُطَب كأنها شُهْدَة بالعقيق مقنّعة ، وبالعِقْيان [4] مُقمّعة . رُمّان كأنه صُرَر الياقوت الأحمر . سَفرجل يجْمَع طيبا ، ومنظرا حسنا عجيبا ، كأنه زِئْبِر [5] الخزّ الأغبر، على الديباج الأصفر . تفّاحٌ نفّاح، يجمع وَصْفَ العاشق الوَجِل ، والمعشوق الخَجِل ، له نسيمُ العبير ، وطَعْمُ السكر ، وسولُ المحب ، وشبيه الحبيب . تين كأنه سُفَر مضمومة على عَسَل . مشمش كأنه الشّهد في بنادق الذهب .

[وصف الليل]

قال بعضُ الرواة : أنشدت أعرابيا قول جرير بن عطية بن الخَطَفى [6] :

(١) مملوء . (٢) المنصل : السيف . (٣) نقرضه . (٤) بالذهب .
(٥) الزئبر : مايظهر من درز الثوب . (٦) ديوانه : ٥٩٥ .

أَبُدِّلَ الليلُ لاتَسْرِى كواكبُهُ   أمْ طالَ حتى حسبتُ النجمَ حَيْرانا

فقال : هـذا حسَنٌ فى معناه ، وأعوذ بالله من مثله ؛ ولكنى أنشدك فى ضدّه من قولى، وأنشدنى:

وليـلٍ لم يُقصِّرْه رُقادٌ   وقصَّر طولَه وَصْلُ الحبيبِ
نَعيمُ الحبِّ أَوْرَقَ فيه حتى   تناوَلْنا جَناهُ من قريبِ
بمجلسِ لذّةٍ لم نقوَ فيـهِ   على شكْوَى ولا عَدِّ الذُّنوبِ
بَخِلْنا أنْ نقطّعه بلفظٍ   فترْجَمَتِ العيونُ عن القلوبِ

فقلت له : زدنى ، فما رأيت أظرفَ منك شعراً ؛ فقال : أمَّا هذا الباب فحَسْبُك، ولكن أنشدك من غيره .

وكنتُ إذا علِقْتُ حبالَ قومٍ   صحِبْتُهُمُ وَشيمَتِىَ الوفاء
فأحسِنُ حين يُحْسِنُ محسنوهم   وأجتنب الإساءة إن أساءوا
أشاء سوى مشيئتهم فآتِى   مشيئتهم وأترك ما أشاء

قال الأصمعى : قرأتُ على أبى مُحْرِز خَلَف بن حيّان الأحمر شعرَ جرير ، فلما بلغتُ إلى قوله[1]:

وردِمٍ كإبهامِ القَطاةِ محبَّبٍ   إلىّ صِباهُ غالبٌ لِىَ باطِلُهْ
رُزِقْنا به الصَّيدَ الغزيرَ ولم نكن[2]   كمَنْ نَبْلُهُ محرومةٌ وحَبائِلُهْ
فيالكَ يومٌ خَيْرُه قبل شرِّهِ   تغيَّبَ واشيهِ وأقصَرَ عاذِلُهْ

فقال خلف : وَيْحَه ! فما ينفعه خيرٌ يؤول إلى شرّ ؟ فقلت له : كذا قرأته على أبى عمرو بن العلاء. فقال لى: وكذا قال جرير. وما كان أبو عمرو ليقرئك إلّا ماسمع. قلت : فكيف كان يجبُ أن يكونَ ؟ قال : الأجْوَدُ أن يقولَ : خيرُه دون شرّه ،

(١) ديوانه : ٤٨٠ ، ديوان المعانى : ١ـ٣٥٢ .   (٢) فى الديوان: ولم أكن .

فارْوِه كذلك ، فقد كانت الرواةُ قديما تُصْلِحُ أشعارَ الأوائل ، فقلت: والله لا أرويه بعدها إلّا كذا .

ومن أجود ما قيل في قِصَرِ الليل قول إبراهيم بن العباس[1] :

وليلةٍ من الليالي الغُرّ ... قابلتُ فيها بَدْرَها ببَدْرِي
لم تَكُ غيرَ شفقٍ وفَجْرِ ... حتى تقضّتْ وهي بِكْرُ الدَّهر

وقال محمد بن أحمد الأصبهاني فيما يتعلق بهذا المعنى وإن كان في ذكر النهار[2] :

كيف يُرْجَى لمقلتي هدُوّ ... ورُقادي لطَرْفِ عيْني عدُوّ
بأبي مَنْ نَعِمْتُ منه بيومٍ ... لم يزَلْ للسرورِ فيه نُمُوّ
يوم لهوٍ قد التقى طرفاهُ ... فكأنّ العشيّ فيه غُدُوّ
إذ لشَخْصِ الرقيب فيه تَنَاءٍ ... ولبَدْرِ السماء مِنّي دُنُوّ

وقال ابن المعتز[3] :

يا ربّ ليلٍ سَحَرٌ كلّهُ ... مفتضَحِ البَدْرِ عليل النَّسيمْ
تلتقطُ الأنفاسُ بَرْدَ النَّدَى ... فيه فتُهديه لِحَرّ الهُمومْ
لا أعرفُ الإصباحَ لما بدا[4] ... في ضوئه إلا بِشُكْرِ النَّديمْ
لبست فيه بالتذاذ الهوى ... ولذةِ الرّاح ثيابَ النعيم[5] .

* * *

أخذ قوله : « سحر كله » من قول عبد الملك بن صالح بن عليّ — وقد قال له الرشيد لما دخل مَنْبج : أهَذا منزلك ؟ قال : هو لك ، ولي بك يا أميرَ المؤمنين، قال: فكيف بناؤه ؟ قال: دون منازل أهلي، وفوق منازلِ الناس. قال : وكيف ذلك وقدْرُك فوق أقدارهم ؟ قال : ذلك خُلُق أميرِ المؤمنين أتأسّى به ، وأقفو أثَره ، وأحذُو حَذْوَه. قال : فكيف طِيبُ منبج ؟ قال : عَذْبَة الماء ، طَيّبةُ الهواء ، قليلة الأدْواء ،

(١) ديوانه ١٤٥ ، ديوان المعاني : ١ — ٣٥١ . (٢) ديوان المعاني : ١ — ٣٥٣ ، ونسبت فيه إلى ابن طباطبا . (٣) ديوانه : ٦٤ . (٤) في ديوانه : في ضوئه لما بدا .

(٥) هذا البيت ليس في ديوانه المطبوع بين أيدينا .

قال : فكيف ليلُها ؟ قال : سحر كله ؟

وأخذ هذا الطائى فقال(١) :

أيامُنا مصقولةٌ أطرافُها   بك والليالى كلّها أسحارُ(٢)

* * *

ولأهل العصر : قال أبوعلى محمد بن الحسين بن المظفر الحاتمى :

يا ربّ ليل سُرور خِلْته قِصَراً   كعارض البرق فى أفق الدُّجا بَرَقا

قــد كادَ يعثر أولاه بآخرِه   وكادَ يسبق منه فَجْرُه الشّفَقا

كأنّما طرَفاه طَرْفٌ اتفق اذ   جَفْنَانِ منهُ على الإطْبَاقِ وافْتَرَقا

ألفاظ فى هذا المعنى لأهل العصر

ليلةٌ من حسنات الدهر ، هواؤها صحيح ، ونسيمُها عليل . ليلة كبُرْدِ الشباب ، وبَرْدِ الشراب . ليلة من ليالى الشباب ، فِضيّة الأديم ، مِسْكيّة النسيم . ليـلة هى لُمْعَةُ العمر ، وغُرّةُ الدهر . ليلة مِسْكيّة الأديم ، كافوريّة النجوم . ليلة رقد الدّهر عنها ، وطلعت سعودُها ، وغابت عُذَّالُها . ليلة كالمسك منظرُها ومَخْبَرُها . ليلة هى باكورةُ العُمْر ، وبِكْرُ الدهر . ليلة ظلماتها أنوار ، وطوال أوقاتها قِصَار .

[الصلة بالوزراء]

كان سببُ اتصال سعيد بن حُرَيْم لذى الرياستين الفضل — وسمى ذا الرياستين ، لأنه جمع بين رياسة القلم ، ورياسة التدبير للمأمون — أنه دخل عليه يوماً فقـال : «الأجَل آفةُ الأمل ؛ والمعروف ذُخْرُ الأبد ، والبِرُّ غنيمةُ الحازم ، والتفريط مصيبةُ أخِى القدرة ، وإنّا لم نَصُنْ وجوهَنا عن سؤالك ؛ فصُنْ وجهك عن ردّنا ،

---

(١) ديوانه : ١٤٨ . (٢) مصقولة : مجلوة . الأسحار : أوقات الصباح .

وضَنّنا من إحسانك بحيث وضَنّنا أنفسنا من تأميلك » .

فأمر أن يُكْتَب كلامُه ، وسماه سعيدا الناطق، ووصله المأمون نخصّ به ، فلحقته في بعض الأوقات جَفْوَة من الفضل ، فكتب إليه : « ياحافظَ مَنْ يَضَع نفسَه عنده ، ويا ذَاكِرَ مَنْ نَسِي نصيبه منه ، ليس كتابي إذا كتبتُ استبطاء ، وما إمساكي إذا أمسكتُ استغناء؛ فكتبت مذكّرا لا مستقصراً[1] فِعلَك » .

فوصله وأحْسَن إليه ، وقد روى بعضُ هذا الكلام المنسوب إلى سعيد بن هريم لأبي حفص الكرماني مع ذي الرّياستين .

ويقول أبو محمد عبد الله بن أيوب التيمي :

لَعَمْرُكَ ماالأشْرَافُ في كل بَلْدَةٍ وإن عَظُموا لِلفَضْل إلّا صَنَائِعُ
تَرَى عظماء الناس لِلفَضْل خُشَّعاً إذا ما بدا ، والفَضْلُ لِله خاشعُ
تَوَاضَعَ لَمَّا زاده اللهُ رِفعةً وكلُّ جليل عنده مُتَواضِعُ

وقال إبراهيم بن العباس[2]:

لفضل بن سَهْلٍ يدٌ تقاصرَ عَنْهَا المَثَلْ
فباطِنُها للنَّدى وظَاهِرُهَا لِلقُبَلْ
وبَسْطَتُها لِلغنى وسَطْوَتُها لِلأَجَلْ

ابن الرومي وابن المدبر

أخذه ابن الرومي فقال لإبراهيم بن المدبر :

أصبحتُ بين ضراعة وتجمُّل والمرء بينهما يموتُ هزيلا
فامدد إليَّ يداً تعوَّدَ بَطْنُها بَذْلَ النوالِ وظَهْرُها التقبيلا

وقال يمدح عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وزاد في هــذا المعنى تشبيها ظريفا[3] :

مُقبَّل ظَهْرِ الكف وهّابُ بَطْنِها لهـا راحةٌ فيها الحَطِيم وزَمْزَمُ

---

(١) في بعض الأصول : لا مستصغرا .   (٢) ديوانه : ١٣٦ .   (٣) في س : طريفا .

فظاهرُها للناسِ رُكْنٌ مقبَّـلٌ وباطنُها عَيْنٌ من العُرْفِ عَيْلَمُ[1]

* * *

ذو الرياستين وكان ذو الرياستين يَقْبَلُ صوابَ القائلين بما في قوّته من صَفَاء الغريزة، وجَوْدَة النَّحيزة[2] ؛ فهو كما قال أبو الطيب[3] :

مِلِكٌ مُنْشِدُ القَرِيضِ لَدَيْهِ يضعُ الثَّوبَ[4] في يَدَيْ بزّازِ

وكانت مخايلُ فَضْلِه ودلائلُ عَقْلِه ظهرت ليحيى بن خالد وهو على دِين المجوسية ، فقال له : أسْلِم أجِد السبيلَ إلى اصْطِنَاعِك . قال : فأسلم على يَدِ المأمون ، ولم يزل في جَنَبَتِه[5] إلى أن رقى إلى رُتْبته .

وذكره يحيى عند الرشيد ، فأجْمَل الثناء؛ فأمر بإحضاره ، فلما رآه أُفْحِمَ ؛ فنظر الرشيد إلى يحيى كالمستفهم ؛ فقال : يأميرَ المؤمنين ، إنّ من أدلّ دليل على فَرَاهَةِ[6] المملوك أن تَمْلِكَ هَيْبَةُ مولاه لسانَه وقلبَه . فقال الرشيد : لئن كنت سكتَّ لكي تقولَ هـذا فقد أحْسَنْتَ ، ولئن كان هـذا شيئاً اعتراك عند الحَصَر لقد أجَدْتَ ؛ وزاد في إكرامه وتقريبه، وجعل لا يَسْأله بعد ذلك عن شيء إلا أجابه بأفْصَحِ لسان، وأجود بَيَانٍ .

من كلامه قال سهل بن هارون : ومما حُفِظ من كلام ذى الرياستين مما رأينا تَخْلِيدَه في الكتب ليُؤْتَمّ به، ويُنْتَفَع بمعْقول حكمته ، قوله : مَن تركَ حقًّا فقد غبن حظًّا ، ومَن قضَى حقًّا فقد أحْرَزَ غُنْما ، ومَن أتى فَضْلًا فقد أوْجَب شكراً، ومن أحْسَنَ توكُّلا لم يعدم مِنَ اللهِ صُنْعاً، ومَن تركَ لله شيئاً لم يَجِدْ لِما تركَ فَقْدًا ، ومَنِ التمسَ بمعصية الله حَمْدًا عادَ ذلك على مُلْتَمِسه ذمًّا، ومن طلب بخلاف الحقّ له دَرَكاً[7] عادما أدرك من ذلك له مُوبِقاً ؛ وذلك أوْجَب الفَلاح للمحسنين ، وجعل سوءَ العاقبة للمسيئين المقصِّرِينَ .

---

(١) العيلم : البحر . (٢) النحيزة : الطبيعة . (٣) ديوانه : ٢ـ١٨٣ .
(٤) في الديوان : واضع الثوب . (٥) جانبه . (٦) الفراهة : الحذق . (٧) الدرك : اللحاق .

ووقّع في رُقْعة ساعٍ : نحن نرى قبولَ السعاية شرًّا منها ؛ لأنَّ السِّعايةَ دلالةٌ، والقبول إجازة ، وليس مَنْ دَلّ على شيء وأخْبَر به كمَن قَبِله وأجازه ؛ فاتّقُوا السَّاعيَ؛ فإنّه لو كان في سعايته صادِقا لكان في صِدْقِه آثمـا ؛ إذْ لم يحفَظْ الحُرْمة ، ولم يستر العَوْرَة .

* * *

استطراد في السعاية

والشيء يقرن مع جِنْسِه : كتب محمد بن علي إلى محمد بن يحيى بن خالد ، وكان والياعلى أرمينية للرشيد: إنّ قوماً صارُوا إلىسبيل النُّصْحِ فذكروا ضِيَاعا بأرمينية قد عَفَت ودَرَسَتْ ، يرجع منها إلى السلطان مَالٌ عظيم ، وإني وقفتُ عن المطالبةِ حتى أعْرِف رأيك .

فكتب إليه : قرأتُ هذه الرقعةَ المذمومة ، وفهمتُها ، وسُوقُ السعاية بحمدِ الله في أيامنا كَاسِدَة ، وألْسِنَة السُّعاةِ في أيامنا كَليلة خاسئة ؛ فإذا قرَأْتَ كتابي هـذا فاحْمِل الناسَ على قانونك ، وخُذْهُم بما في ديوَانِك ؛ فإنّا لم نولّك الناحية ، لتتبَّع الرسوم العافية ، ولا لإحياء الأعْـلام الدائرة ، وجنبني وتجنّب بيتَ جرير يخاطب الفرزدق(١) :

وكنتَ إذا حللتَ بدَارِ قَوْم ... رَحَلْتَ بِخَزْيَةٍ وتركتَ عارَا

وأجْرِ أمورَك على ما يكسب الدُّعَاء لنا لا علينا ، واعلم أنهـا مدّةٌ تنتهي ، وأيامٌ تنقضي ، فإمّا ذِكْرٌ جميلٌ ، وإما خِزْيٌ طَويل .

وقال رجلٌ للمهدي : عندي نصيحةٌ يا أمير المؤمنين. فقال : لِمَنْ نَصيحتك هذه؟ لَنا ، أمْ لِعامّةِ المسلمين ، أم لنفسك ؟ قال : لك يا أميرَ المؤمنين ، قال : ليس الساعي بأعظم عورةً، ولاأقْبَحَ حالاً ممن قَبِل سِعَايته ، ولا تخلو من أن تكونَ حاسِدَ نعمة، فلا نشفي غَيْظَك ، أوْ عَدُوًّا فلانعاقب لك عدوّك! ثم أقبل على الناس فقال : لا يَنْصَحُ لنـا نَاصِحٌ إلا بما فيه لله رضاً ، وللمسلمين صَلَاح ؛ فإنما لنا الأبدانُ ، وليس

(١) ديوانه : ٢٨١ .

لنا القلوبُ ؛ ومن استَتَرَ عنّا لم نكشفه ، ومن بادَانا[1] طلبنا تَوْبَته ، ومن أخطأ أَقَلْنا عَثْرَتَه ؛ فإنى أرى التأديبَ بالصَّفح أبلغَ منه بالعقوبة ، والسلامة مع العفو أكثَرُ منها مع المُعاجلة ، والقلوب لا تبقى لِوالٍ لا يَنْعَطِف إذا استُعْطِفَ ، ولا يعفو إذا قَدَر ، ولا يغفر إذا ظفر ، ولا يَرْحَمُ إذا استُرْحِم .

* * *

ووقّع ذو الرياستين إلى تميم بن خزيمة : الأمورُ بتمامها ، والأعمالُ بخَوَاتمها ، والصنائعُ باستدامتها ، وإلى الغاية يَجْرِى الجواد؛ فهنالك كشفَت الخِبْرَةُ قِناعَ الشكّ؛ فحمد السابق ، وذمّ الساقط — وذو الرياستين هو القائل : ومن كلام ذى الرياستين

أنضيتِ أحرف « لا » مما لفظت بها ... فحوّلى رَحْلَهـا عنّا إلى نَعَم

أوْ صيِّريها إليها[2] منك منعمةً ... إن كنتِ حاولت فيها خِفة الكَلِم

قِستُمْ علينا فعارَضْنا قياسَكمُ ... يا أحْسَن الناسِ من قَرْن إلى قَدَم

ولمّا قُتل ذُو الرياستين دخَل المأمونُ على أمّه فقال : لا تَجْزَعِى فإنّى ابنُك بعد ابنك . فقالت : أفلا أبكى على ابن أكسَبنى ابناً مِثْلك ؟

[وصف الخيل]

وصف ابن القِرِّيّة[3] فرساً أهْدَاه الحجاجُ إلى عبدالملك بن مروان فقال: حَسَنُ القَدِّ ، أسِيلُ الخَدِّ ، يسبق الطَّرْفَ ، ويستَغْرِقُ الوَصْفَ .

وأهدى عبد[3] الله بن طاهر إلى المأمون فرساً وكتب إليه: قد بعثتُ إلى أمير المؤمنين بفرسٍ يلحق الأرانب فى الصَّعْداء ، ويجاوزُ الظِّباءَ فى الاستواء ، ويسبق فى الحَدُور[4] جَرْىَ الماء ، فهو كما قال تأبّط شرا :

---

(١) بادى العداوة : جاهر . (٢) فى ط : إلينا .
(٣) النويرى: ١٠–٦٩ . (٤) الحدور : المكان الذى ينحدر منه .

وَيَسْبِقُ وَفْدَ الرِّيحِ من حيث يَنْتَحِي ... بِمُنْخَرِقٍ من شَدِّهِ المُتَدَارِكِ[١]

وقال رجل لبعض النخّاسين : اشْتَرِ لى فرساً جَيِّدَ القَمِيص ، حسَنَ الفُصوص[٢] ، وَثِيقَ القَصَبِ ، نقِىَّ العَصَب ، يُشيرُ بأذنيه ، ويَنْدِسُ برِجْليه[٣] ، كأنّه موجٌ فى لُجَّة ، أو سَيْلٌ فى حَدُور .

جمع محمد بن الحسين هَذَيْنِ الكلامين ، وزاد فقال يصفُ فرساً[٤] : هو حَسَنُ القميص ، جَيِّد الفصوص ، وثيق القَصَب ، نقِىّ العَصَب ، يُبْصِرُ بأذنيه ، ويتبوّع[٥] بيديه ؛ ويُدَاخِل برِجْليه ، كأنه موجٌ فى لجّة ، أو سيلٌ فى حَدُور ، يناهب المشى قبل أن يُبْعث ، ويلحق الأرانبَ فى الصعداء ، ويجاوزُ جوارى الظباء فى الاستواء ، ويسبِق فى الحَدُور جَرْىَ الماء ، إنْ عُطِف جَارَ ، وإن أرسِل طار ، وإنْ كُلِّف السير أمْعَن وسار ، وإن حُبس صَفَن[٦] ، وإن استوقف قطن[٧] ، وإنْ رعَى أبَن[٨] ؛ فهو كما قال تأبّط شرًّا — وذكر البيت .

وأول هذه الأبيات[٩] :

وإنّى لَمُهْدٍ مِنْ ثَنَائى فَقَاصِدٌ ... به لابْنِ عمِّ الصِّدْق شَمْسِ بن مالك
أهزُّ به فى نَدْوَةِ الحىِّ عِطْفَهُ ... كما هزَّ عِطْفِى بالهِجَانِ الأوَارِكِ[١٠]
قَلِيل التَّشَكِّى لِلْمُلِمِّ[١١] يُصِيبُهُ ... كثيرُ الهوَى شتَّى النَّوَى والمَسَالِكِ
يظَلُّ بِمَوْمَاةٍ ويُمْسِى بِقَفْرِها ... جَحِيشاً ويَعْرَوْرِى ظُهورَ المَهَالِكِ[١٢]

---

(١) منخرق الرياح : مهبها . وفى النويرى : شده المتتابع . (٢) الفص : ملتق كل عظمين ، وجمعه فصوص . (٣) ندس به الأرض : ضربه . (٤) النويرى : ١٠ — ٦٩ .

(٥) التبوع : إبعاد خطو الفرس فى جريه . (٦) صفن الفرس : قام على ثلاث قوائم وطرف حافر الرابعة . (٧) فى النويرى : فطن . (٨) أبن : ترقب .

(٩) القالى : ٢ — ١٣٨ ، اللآلى : ٧٦١ ، الحماسة : ١ — ٩٠ . (١٠) الندوة : المجتمع . والهجان : الإبل الكريمة ، والأوارك : راعية الأراك . (١١) فى س ، والقالى : للمهم .

(١٢) الموماة : المفازة . جحيش : منفرد . يعرورى : يركب عريانا (اللسان — مادة عرا) .

ويسبِقُ وفْدَ الرّيحِ من حيثُ ينتحي ... بمُنْخَرِقٍ مِنْ شَدّهِ الْمُتَدارِكِ
إذا خاطَ عينيْهِ كَرَى النّومِ لم يَزَلْ ... له كالِئٌ من قَلْبِ شَيْحَانَ فاتِكِ[1]
إذا طلعت أُولى العدوّ فَنَفْره ... إلى سَلّةٍ من صارمِ الغَرْبِ باتِكِ[2]
ويجعَلُ عَيْنَيْهِ رَبِيئَةَ قَلْبِهِ ... إلى ضَرْبةٍ مِنْ حَدّ أخْلَقَ صائِكِ[3]
إذا هَزّهُ في عظمِ قِرْنٍ تَهلّلَتْ ... نواجذُ أفْوَاهِ المنايا الضّوَاحِكِ
يرى الوحشةَ الأُنْسَ الأنيسَ ويهتدي ... بحيثُ اهْتَدَتْ أمُّ النجومِ الشّوَابِكِ

* * *

سوابق خيل مصر تهدى إلى معاوية

وأهــدى عمرُو بن العاص إلى معاوية ثلاثين فرساً من سَوابِقِ خَيْلِ مِصْر ، فعُرِضَتْ عليه ، وعنده عُقْبة بن سنان بن يزيد الحارثي ، فقال له معاوية : كيفَ ترَى هداياتا يا أبا سعيد ؟ فإن أخاكَ عَمْراً قد أطْنَبَ في وَصْفِها . فقال : أراها يا أميرَ المؤمنين على ماوصف ، وإنها لمُخَيّلة[4] بكلّ خير ؛ إنها السّامِيَةُ العُيون ، لاحِقةُ البُطون ، مُصْغِيَةُ الآذان ، قَبّاء الأسنان[5] ، ضِخَام الرُّكبَاتِ ؛ مُشْرِفَاتُ الحجَبات[6] ، رِحاب المَناخِرِ ، صِلابُ الحَوَافر ، وَقْعُها تَحْلِيل ، ورَفْعُها تَعْليل[7] ؛ فهذه إنْ طُلِبت سَبَقت ، وإن طَلَبَتْ لَحِقَتْ . قال له معاوية : اصرفها إلى رَحْلك ؛ فإنّ بِنا عنها غِنى ، وبفتيانك إليها حاجة .

وقال النابغة الجعدي[8] :

وإنّا أناسٌ لا نُعَوّدُ خَيْلَنَا ... إذا ما التقَيْنا أن تَحِيدَ وتَنْفِرا

---

(١) الكالئ : الحافظ . الشيحان : الجاد في الأمر الحازم . وفي س : سبحان .

(٢) في القالي : أولى العدى . والعدى : الجماعة الذين يعدون في الحرب . وفي س ، ق : من صارم الفرناتك . وهذه رواية القالي ، وارجع إلى اللآلي : ٧٦١ — ٧٦٢ .

(٣) الربيئة : الرقيب . والصائك : اللازق . (٤) خيل فيه الخير : تفرسه ، والسحابة المخيلة — بتشديد الياء ، والمخيلة — بكسر الخاء بعدها ياء ساكنة : التي تحسبها ماطرة .

(٥) قبئا الناب : صوتت وقعقعت . (٦) الحجبتان : حرفا الوركين .

(٧) التحليل والتعليل : من حركات الخيل . (٨) جمهرة أشعار العرب : ٣٠٦ .

وَنُنْكِرُ يومَ الرَّوْعِ ألوانَ خَيْلِنا   من الطعن حتى نَحسبَ الجَوْنَ أشقرا[١]
فليس بمعروفٍ[٢] لَنَا أنْ نَرُدَّها   صِحَاحاً ولا مُسْتَنْكَرٌ أن تُعَقَّرا

وقال بعض العرب :

ولقــد شَهِدْتُ الخيلَ يوم طِرادها   بسليمِ أَوْظِفَةِ القَوَائِمِ هَيْكَلِ
فدعَوا : نَزَالِ ! فكنت أوَّلَ نازلٍ   وعَلَامَ أركبه إذا لم أنزلِ

لبعض الأعراب في وصف الخيل

ووصف أعرابي فرسا فقال[٣] : لما أرسلت الخيل جاءوا بشيطانٍ في أَشْطَان ، فأرسلوه ، فلما لَمَعَ البَرْقِ ، واستهلّ استهلالَ الوَدْقِ[٤] ، فكان أقربهم إليه الذى يقعُ عينه من بُعْدٍ عليه .

وذكر أعرابي رجلا فقال : عنده فرسٌ طويل العِذَارِ ، أمينُ العِثَار ؛ فكنت إذا رأيته عليه ظننته بَازِيا على مَرْبَأ[٥] ، عليه رُمْحٌ طويل يقصّرُ به الآجال .

وقال بعض المحدثين في هذا التطابق :

لقيناهم بأرْماحٍ طوالٍ   تبشّرُهم بأعمارٍ قِصَارِ

ووصف أعرابي خيلا لبني يَرْبُوع ، فقال : خرجَتْ علينا خيلٌ من مستطير نَقْعٍ ، كأن هواديها أعْلام ، وآذانَها أقلام ، وفرسانها أسود آجام .

ولما أنشد العمَّاني الرشيد يصف فرساً :

كأنَّ أذنيه إذا تَشَوَّفا   قادِمةٌ أو قَلَماً مُحرَّفا

ولحن ، ففهم ذلك أكْثَرُ من حضر ؛ فقال الرشيد : اجعل مكان « كأن » تَخَال ، فعجبوا لسُرْعَة تهدِّيه .

ولأبي تمام

وللطائيين في هــــذا النوع أشعارٌ كثيرة منعني من اختيارها كثرةُ اشتهارها ؛ وسأنشد بعض ذلك ، قال أبو تمام[٦] :

---

(١) الجون : الأسود ، والأبيض . (٢) في الجمهرة : وما كان معروفا .
(٣) النويري : ١٠ ـ ٦٨ . (٤) القطر . (٥) ربأ : علا وارتفع .
(٦) ديوانه : ٢١٢ .

مامُقْرَبٌ[1] يَخْتَالُ فى أشْطانِه ... ملآن مِنْ صَلَفٍ به وتَلَهْوُقِ[2]

بحَوافِرٍ حُفْرٍ وصُلْبٍ[3] أصلتٍ ... وأشاعِرٍ شُعْرٍ وخلق أخْلَقِ

ذو أولقٍ تَحْتَ العجاج وإنَّما ... من صحةٍ إفراطُ ذَاكَ الأوْلَقِ[4]

صافِ الأديم كأنما ألبسته ... من سُنْدُسٍ بُرْداً ومن إسْتَبْرَقِ

إمْلِيسةٌ إمليدةٌ[5] لو عُلِّقَت ... فى صَهْوَتيهِ العينُ لم تتعلَّقِ

مُسْوَدُّ شَطْرٍ مثلَ مااسْوَدَّ الدُّجى ... مبيضُّ شَطْرٍ كابيضاضِ المُهْرَقِ[6]

البحترى وقال أبو عبادة[7] :

وأغَرَّ فى الزَّمَنِ البهيم مُحَجَّلٍ ... قد رحْتُ منه على أغرَّ مُحَجَّلِ

وَافِى الضلوع يشُدُّ عقد حزامه ... يومَ اللقاء على مُعِمٍّ مُخْوِلِ

يَهْوِى كَمَاهَوَتِ العُقابُ إذا[8] رَأَتْ ... صَيْداً وَيَنْتَصِبُ انْتِصابَ الأجدل[9]

متوحّش بدقيقتين[10] كأنما ... تُرِيَانِ من وَرَقٍ عليه مُوَصَّلِ

كالرائع النَّشْوانِ أكْثَرُ مَشْيِهِ ... عرض على السَّنَنِ البعيدِ الأطْوَلِ

ويظنّ رَيْعَانَ الشباب يَرُوعُهُ ... من نَشْوَةٍ أو جِنَّةٍ أو أفكل[11]

هَزِجَ الصهيلِ كأنَّ فى نَبَرَاتِه ... نغماتِ[12] مَعْبَدَ فى الثَّقِيلِ الأوَّلِ

تَتَوَهَّمُ الجَوْزاء فى أرْسَاغِهِ ... والبَدْرُ غُرَّةُ وَجْهِهِ[13] المتهلّلِ

صافِ الأديمِ كأنَّما عُنِيَتْ لَهُ ... بصفاء نُقْبَته مَدَاوِكُ صَيْقَلِ[14]

---

(١) المقربة : الفرس التى تدنى وتقرب وتكرم ولا تترك ، وهو مقرب .
(٢) التلهوق : التحسن . (٣) فى الديوان : وصلب . والأصلت : السيف الصقيل والتيار الشديد الارتفاع . (٤) الأولق : الجنون . (٥) أصل الإمليس : الأرض ليس بها نبات . والإمليد والأملود : الناعم اللين . (٦) المهرق : الصحيفة .
(٧) ديوان البحترى : ٢–٢١٧ ، النويرى ١٠ – ٥١ ، ديوان المعانى : ٢–١٢٥ .
(٨) فى الديوان : وقد . (٩) الأجدل : الصقر . (١٠) فى الديوان : متوجس برقيقتين . (١١) الأفكل : الرعدة . (١٢) فى الديوان : كأن فى نفحاته نبرات .
(١٣) فى الديوان : فوق جبينه . (١٤) فى الديوان ، ق : مداوس صيقل .

وكأنما كُسِيَ الخدودَ نَوَاعِماً[١] ... معها تلاحظها[٢] بلَحْظٍ يخْجَلِ
وكأنما نفضَتْ عليه صِبْغَها ... صَهْبَاءُ للبَرَدانِ أو قُطْرُبُّلِ[٣]
مَلَكَ العيون فإن بَدَا أعْطَيْنَهُ ... نَظَرَ المحبِّ إلى الحبيبِ المقبلِ

وقال إسحاق بنُ خلف النهرواني لأبي دُلَف ، وكان له فرسٌ أدهم يسمّيه غرابا :

كم كم تجرّعه المنون ويسلمُ ... لو يستطيعُ شكَا إليكَ لَهُ الفمُ
من كل منبت شعرة من جلدِهِ ... خَطٌّ ينمّقه الحُسَامُ المِخْذَمُ[٤]
ما تُدْرِكُ الأرواح أدْنَى جَرْيِهِ ... حتى يَفُوتَ الريحَ وهو مقدَّمُ
رَجَمَتْه أطْرَافُ الأسِنَّةِ أشْقَرًا ... واللون أدْهَمُ حين ضَرَّجَه الدَّمُ
وكأنما عقد النُّجوم بِطَرْفِهِ ... وكأنَّهُ بِعُرَى المَجرَّةِ مُلْجَمُ

وقال أبو الطيب[٥]:

جَفَخَتْ وهُمْ لا يَجْفَخُونَ بِهَا بِهِمْ ...

جَفَتْنِي كأنّي لَسْتُ أنْطَقَ قَوْمِها ... وأطْعَنَهُمْ والشُّهْبُ في صُوَرِ[٦] الدُّهْمِ

وقال أبو الفتح كشاجم :

قد راح تحت الصُّبْحِ ليلٌ مظلم ... إذ لاح في السَّرْجِ المحلَّى الأدْهَمُ
ديباجُ ألوانِ الجيادِ ولم يكن ... ليُخصَّ بالديباج إلّا الأكرمُ
ضَحِكَ اللُّجَيْنُ على سوادِ أديمه ... وكذا الظلامُ تُنيرُ فيه الأنجمُ
فكأنه بيناتُ نَعْشٍ ملببٌ ... وكأنما هُوَ بالثريّا مُلْجَمُ

قلت : هذا من قول ابن المعتز :

ألَا فاسقيانِي والظلامُ مقوَّضٌ ... ونجمُ الدُّجا تحت المغارب يَرْكُضُ

---

(١) في س : تواضعا . (٢) في الديوان : تواصلها بلحظ تخجل.
(٣) قطربل : موضعان أحدهما بالعراق تنسب إليه الخمر — معجم ما استعجم ١٠٨٣ .
(٤) المخذم : القاطع . (٥) ديوانه : ٤ — ٥٠ .
(٦) في الديوان : صورة .

كأنَّ الثريا في أواخرِ ليلِها   تفتّحُ نَوْرٍ أو لِجامٌ مفضَّضُ

لأبي الفتح

وقال أبو الفتح(١):

مَنْ شكّ في فَضْلِ الكُمَيْتِ فبينهُ   فيه وبين يقينهِ المِضْمارُ
في منظرٍ مستحسَنٍ محمودةٍ   أخْبارُه إذ تُبتلَى الأخبارُ
ماء تدفّق طاعةً وسَلاسةً   فإذا استُدِرّ الحُضْرُ(٢) فيه فنارُ
وإذا عَطفْتَ به على ناوَرْدِه(٣)   لتُديرَه فكأنّه بِرْكارُ
وصف الخَلوقَ أديمُه فكأنّما   أهْدَى الخَلوقَ لجلدِه عَطّارُ(٤)
قصرَتْ قِلادةُ نَحْرِه وعِذارِه   والرّسغ، وهي من العتاق(٥) قِصارُ
وكأنما هاديه جذعٌ مُشْرِفٌ   وكأنما للضبع فيه وِجارُ(٦)
يَرِدُ الضَّحاضِحَ غير ثاني سُنْبُكٍ   ويرُودُ طَرْفَك خَلْفَه فتَحارُ(٧)
لو لم تكن للخيلِ نسبةُ خَلْقِه   حاكته من أشكالِها الأطيارُ

لابن المعتز

وقال ابن المعتز(٨):

وخَيْلٍ طَواها القَوْدُ(٩) حتى كأنّها   أنابيبُ سُمْرٌ من قنا الخط ذُبّلُ
صببنا عليها — ظالمين — سِياطَنا   فطارتْ بها أيدٍ سِراعٌ وأرْجُلُ

قولُهُ: «ظالمين» من أبْدَع حَشْوٍ جرى في بيت، وكأنّ ابن المعتز أشار إلى قول

أعرابي مولد:

وعَوْدٍ قليلِ الذنب عاوَدْتُ ضربَهُ   إذا هاجَ شوقي من معاهدها ذِكْرُ(١٠)

---

(١) النويري: ١٠–٩٥ . (٢) الحضر: ارتفاع الفرس في عدوه.
(٣) ناورد: لفظ فارسي بمعنى القتال وجولان الخيل في الميدان.
(٤) الخلوق: نوع من الطيب. (٥) في النويري، س: العتيق.
(٦) هاديه: صدره، والوجار: جحر الضب. (٧) الضحاضح: الماء اليسير، أو إلى الكعبين، أو أنصاف السوق. السنبك: طرف الحافر. (٨) ديوانه ٤٦، النويري ١٠–٩٥
(٩) القود: نقيض السوق، فهو من أمام وذاك من خلف. (١٠) العود: المسن من الإبل.

فقلت له زَلْقاه[١] – وَيْحَك – سَبَبْتَ ... لك الضَّرْبَ ، فاصبر إنْ عادتك الصَّبْرُ

وقال ابن المعتز :

أراجعني فِداك بأعْوَجِيّ ... كقدح النَّبْع في الرِّيش اللُّؤام[٢]
بأدهمَ كالظَّلام أغرَّ يجلو ... بغُرَّتِهِ دَياجير الظَّلامِ
تَرى أحجَاله يصعدنَ فيه ... صُعودَ البَرْقِ في جَوِّ الغَمَامِ

وقال أيضاً[٣] :

قد أغتَدي والصُّبْحُ كالمَشيبِ ... في أفق مِثْل مَدَاكِ[٤] الطِّيبِ
بقارحٍ مُسَوَّمٍ يَعْبُوبِ ... ذي أذن كخُوصَةِ العَسِيبِ[٥]
أو آسةٍ[٦] أوفت على قضيبِ ... يَسْبِق شَأْوَ النظرِ الرَّحيبِ
أسرَعَ من ماء إلى تَصْويبِ ... ومن رُجوع لَحظة المُريبِ[٧]

وقال[٨] :

رُبَّ رَكْبٍ عَرَّسُوا ثم هَبُّوا ... نحو إسْراجٍ وشَدِّ رِحَالِ
وعدَونا بأعنَّةِ خيلٍ[٩] ... تأكُلُ الأرضَ بأيْدٍ عِجَالِ[١٠]
زيَّنَتْها غررٌ ضَاحِكَاتٌ ... كبدورٍ في وُجُوهِ[١١] ليالِ

وقال علي بن محمد الإيادي : ... للإيادي

مسح الظَّلامُ بعُرْفِه يدَهُ ... ومَشَى فقَبَّل وَجْهَهُ البَدْرُ .

---

(١) في س : زلقاه . (٢) الأعوجي : أعوج : فرس لبني هلال تنسب إليه الخيل الأعوجيات ، وريش لؤام : يلائم بعضها بعضا . (٣) ديوانه : ٢ – ٩٧ .
(٤) المداك : الصلاءة . (٥) القارح من ذي الحافر بمنزلة البازل من الإبل . وفي ديوان المعاني : بقادح . اليعبوب : الفرس السريع . والعسيب عظم الذنب ، وفي س : كخضوة ، وفي ق : كخصوة ، وهذه عن الديوان . (٦) الآسة : الشجرة ، وفي الديوان : أسة .
(٧) تصويب : انحدار . (٨) ديوانه ١٢٦ ، ديوان المعاني ٢ – ١١٣ .
(٩) في الديوان : بأعنة خال تأخذ الأرض ، وفي ديوان المعاني : وغدونا .
(١٠) في ديوان المعاني : بأيدي . . . (١١) في ديوان المعاني : في وجوه الليالي .

للناشئ وقال الناشئ أبو العباس عبد الله بن محمد :

أَحْوَى عليه مَسَائِحٌ من لِيطَةٍ   شُهُبٌ تسيلُ على نَوَاشِرِ سَاقِهِ[(١)]
فكأنهُ مُتَلَفِّع قُبْطِيَّةً[(٢)]   أَثْنَاؤُها مشدودةٌ بِنِطَاقِهِ
فَسَوادُه كالليلِ في إظلامِهِ   وبَيَاضُه كالصُّبْحِ في إشراقِهِ
صافي الأديم كريمةٌ أنسابُهُ   أخلاقه تَعْنُو على أعراقِهِ

للثعالبي كتب أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي إلى الأمير أبي الفضل عبد الله بن أحمد بن ميكال ، وقد زاره الأميرُ في داره :

لا زال مجدُك للسِّمَاك رَسِيلا   وعلوّ جدّك بالخلود كَفِيلا
يا غُرَّةَ الزمنِ البهيمِ إذا غدَا   أهلُ العُلا لزمانهم تَحْجِيلا
يا زائرًا مَدّت سَحَائبُ طَوْلِهِ   ظِلًّا على زمنِ الجَمالِ ظليلا
وأتت بِصَوْبِ جواهرٍ من لفظِهِ   حتى انتظمْنَ لمفرقي إكْليلا
بأبي وغيْرِ أبي هلالٌ نُورُهُ   يستعجِلُ التسبيحَ والتهليلا
نقشت حَوَافِرُ طِرْفِهِ في عَرْصتي   نَقْشًا محوْتُ رسومَه تقبيلا
ولو استطعتُ فرشْتُ مَسْقَطَ خَطْوِهِ   بعيون عِينٍ لا تَرَى التَّكحيلا
ونثرْتُ رُوحي بعدما ملكَتْ يدي   وخررْتُ بين يَدَيْ هَوَاهُ قتيلا

لابن هانئ وقال أبو القاسم بن هانئ يصف خيل المعز[(٣)] :

له المُقْرَبات الجُرْدُ يُنْعِلُها دمًا   إذا قَرَعَتْ هَامَ الكُمَاةِ السَّنَابِكُ[(٤)]
يُريقُ عليها اللؤلؤُ الرطبُ ماءَهُ   ويَسْبِكُ فيها ذائبَ التِّبْرِ سابِكُ
صقيلات أجسامِ البُرُوق كأنما   أُمِرَّت عليها بالشموس المداوكُ[(٥)]

---

(١) الليطة : قشر القصبة ، والقوس والقناة . والمسيحة : الذؤابة والقوس ، وجمعه مسائح.
(٢) القبطية : ثياب تنسب إلى أهل مصر . (٣) ديوانه : ١٤٠ . (٤) المقربة : الفرس التي تدنى وتقرب وتكرم ولا تترك . وأنعل الدابة : ألبسها النعل . وقرعت : علت . والسنابك جمع سنبك : طرف الحافر . (٥) المداوك : أحجار يسحق بها الطيب .

ويقال يصف فرساً لجعفر بن علي بن حمدون :

تهلّلَ مَصْقُولَ النواحي كأنهُ ... إذا جالَ ماءُ الحُسْنِ فيه ، غريقُ
مِنَ البُهْمِ وَرْدُ اللون شِيبَ بِكُمْتَةٍ ... كما شِيبَ بالمسكِ الفَتيقِ خَلوقُ[1]
فلو مِيزَ منه كلُّ لونٍ بذاتهِ ... جَرَى سَبَجٌ منه وذابَ عَقِيقُ[2]

وقال في قصيدة يمدح بها أبا الفرج الشيباني[3] :

فتقتْ لكم ريحُ الجِلادِ بعَنْبَرِ ... وأمدَّكم فَلَقُ الصَّباحِ المُسْفِرِ
وجنيتمُ ثمرَ الوقائعِ يانعاً ... بالنَّصرِ من ورقِ الحديدِ الأخضرِ
أبني العوالي السَّمْهَرِيَّةِ والسيو ... فِ المَشْرَفِيَّةِ والعديدِ الأكثرِ
مَنْ مِنكم الملكُ المطاعُ كأنَّهُ ... تحت السَّوابغِ تُبَّعٌ في حِمْيَرِ
القائد الخيلِ العِتاقِ شوازِباً ... خُزْراً إلى لحظِ السِّنانِ الأخْزَرِ[4]
شُعْثَ النَّواصي حَشْرةً آذانُها ... قُبَّ الأياطِلِ داميات الأنْسُرِ[5]
تَنْبُو سنابكهن عن عَفَرِ الثَّرى ... فيَطَأْنَ في خَدِّ العزيزِ الأصْعَرِ[6]
في فتية صَدَأُ الحديدِ عَبِيرُهم ... وخَلوقُهم عَلَقُ النَّجيعِ[7] الأحمرِ
لا يأكلُ السِّرْحانُ شِلْوَ عَقِيرِهم[8] ... مما عليه من القَنا المتكسِّرِ

وقال في قصيدة يمدح بها إبراهيم بن جعفر بن علي :

نَفَرٌ لِطَرْفٍ أعْوَجِيٍّ أنتَ في ... صَهَواتِهِ والحُسْنُ والتَّطهيمُ
يُبْدِي لعزِّكَ نَخْوَةً فكأنَّهُ ... مَلِكٌ تَدِينُ له الملوكُ عَظيمُ

---

(١) البهم : ما لاشية فيها من الخيل . الورد من الخيل : بين الكميت والأشقر .

(٢) السبج : السواد . (٣) ديوانه : ٨١ . (٤) الشازب : الخشن . والضامر : اليابس الخزر — محركة — كسر العين بصرها خلقة أوضيقها وصغرها . (٥) القبب : دقة الخصر وضمور البطن . والأياطل : الخصور . النسر : لحمة في باطن الحافر ، أو ما ارتفع في باطن الحافر من أعلاه .

(٦) العفر : ظاهر التراب . (٧) النجيع : من الدم ما كان إلى السواد ، أو دم الجوف .

(٨) الشلو : العضو .

هادٍ على الخيلِ العِتاقِ كأنهُ ... بين الدُّجُنَّةِ والصباحِ صَريمُ[1]

سامى القَذالِ بِشِمْشِمِه عِيافةٌ ... تحت الدُّجى ولطَرْفِه تَنجيمُ

أذُنٌ مُؤلَّلةٌ وقلبٌ أصمَعُ[2] ... وحَشاً أقبُّ وكَلْكَلٌ ملمومُ

فالطَّودُ من صَهَواته متزلزلٌ ... والجيشُ من أنفاسِه مَهزومُ

خَرَقَ العيونَ فضلَّ عنها لونُه ... وصفاً فقلنا ما عليه أديمُ

فكأنما جمدت عليه مُزنةٌ ... وانجابَ عنه عارضٌ مَرْكومُ[3]

وكأنما نُجِرَتْ عليه بَوارقٌ ... وكأنما كُسِفَتْ عليه نُجومُ

وكأنك ابنُ المنذرِ النعمانُ فو ... قَ سراته وكأنه اليَحْمُومُ[4]

للإيادى أيضاً

وقال على بن محمد الإيادى يصف فرس أبى عبد الله جعفر بن أبى القاسم القائم :

وأقبٌّ من لحق[5] الجيادِ كأنهُ ... قصرٌ تباعَدَ رُكنُه من رُكنِه

لبستْ قوائمُه عصائبَ فِضَّةٍ ... وغدَتْ بِسُمْرٍ صفاً السيلِ ودُكْنِه

وكأنما انفجرَ الصَّباحُ بوجهِهِ ... حُسناً أو اختَبَسَ الظلامُ بمتنِه

قيد العيونِ إذا بصرْنَ بشخصه ... ورضا القلوب إذا اصطلَيْن بضِغْنِه

مُقَسْطِر بالراكبينَ كأنّهُ ... بازٍ تَرَوَّح به الجنوب لوَكْنِه[6]

يستوقف اللحظات فى خَطَراته ... بكمالِ خِلْقَتِه ودِقَّةِ حُسنِه

حُلْوُ الصَّهيلِ تخالُ فى لهَوَاتِه ... حادٍ يَصُوغُ بدائعاً من لَحْنِه

متجبّرٌ ينبى بعتقِ نِجارِه ... إشرافُ كاهلِه ودِقَّةُ أُذْنِه[7]

ذو نَخْوَةٍ شمخت به عن نِدِّه ... وشهامةٍ طمحت به عن قِرْنِه

وكأنّه فلكٌ إذا حرّكتَهُ ... جارٍ على سَهْلِ البلادِ وحَزْنِه

---

(١) الصريم : الصبح والليل ضد ، والقطعة منه . (٢) مؤللة : محدودة . والأصمع : القلب الذكى المتيقظ . (٣) مركوم : متراكم . (٤) اليحموم : فرس النعمان .

(٥) لحق : ضمر . (٦) الوكن : عش الطائر ، وفى س ، ق : مقسطار .

(٧) عتق النجار : كرم العنصر .

قد راح يحملُ جعفرَ بن محمدٍ حَمْلَ النسيم لوابلٍ من مُزْنه

وما أحسن ماقال أبو الطيب المتنبي(١) :

المتنبي

ويومٍ كليلِ(٢) العاشقين كَمَنْتُه أُراقبُ فيه الشَّمسَ أيّانَ تغرُبُ
وعيني إلى أُذْنَيْ أغرَّ كأنّهُ مِنَ الليلِ باقٍ بين عينيه كَوْكَبُ
له فضْلَةٌ عن جسمِهِ في إهابه تجيءُ على صدْرٍ رحيبٍ وتَذْهَبُ
شَقَقْتُ به الظَّلْماءَ أُدْني عِنانَهُ فيطْغَى وأُرْخيه مِراراً فيلْعَبُ
وأصْرَعُ أيَّ الوَحْشِ قفّيْتُهُ بهِ وأنْزِلُ عنـهُ مِثْلَه حينَ أرْكَبُ
وما الخيـلُ إلا كالصَّديقِ قليلةٌ وإنْ كَثُرتْ في عَيْنِ مَنْ لا يُجرِّبُ
إذا لم تُشاهِدْ غيْرَ حُسن شِياتِها وأعضائها فالحُسنُ عنك مُغَيَّبُ

وينخرط في سِلْكِ هذا المعنى مقامةٌ من مقامات الإسكندري في الكُدْية مما أنشأه بديعُ الزمان وأملاه في شهور سنة خمس وثمانين وثلثمائة . قال البديع(٣) :

المقامة الحمدانية في وصف الخيل

حدّثنا عيسى بن هشام قال : حضرنا مجلسَ سيف الدولة يوماً وقد عُرِضَ عليه فرس متى ما تَرَقَّ العين فيه تَسهَّل(٤) ، فلحَظَتْهُ الجماعة ؛ فقال سيف الدولة : أيكم أحسن صفته ، جعلته صِلَتَه ؛ فكلٌّ جَهد جَهْدَه ، وبذل ما عنده ؛ فقال أحد خدَمِه : أصْلَح الله الأمير ؛ رأيت بالأمس رجلا يَطأُ الفصاحة بنَعْلَيْه ، وتَقِفُ الأبصارُ عليه ، يسأل الناس ، ويشفي الياس(٥) ، ولو أمر الأميرُ بإحضاره ، لفضَلَهم بحِضاره(٦) .

فقال سيفُ الدولة : عليَّ به في هيئته ، فصار الخدمُ في طلبه ، فجاءوا للوقت به ، ولم يُعْلِموه لأيِّ حالٍ دُعِيَ به ، ثمّ قُرِّب واستُدْنِي ، وهو في طِمْرَيْنِ(٧) قد أكل الدهرُ عليهما وشرب ، وحين حضر السِّماط ، لَثَمَ البساط ، ووقف . فقال سيف

(١) ديوانه : ١ — ١٧٩ . (٢) في الديوان : كليل .
(٣) مقامات البديع : ١٩٦ . (٤) يريد أن أعلاه وأدناه مستويات في الحسن .
(٥) في ط ، ق : ويشفي البأس . (٦) الحضار — بكسر الحاء : سرعة البديهة ، أو القوة وجودة السير . (٧) الطمر : الثوب الخلق .

الدولة : بلغَتْنا عنك عارضة[١] ، فاعْرِضْها في هـذا الفرس وصِفْه . فقال : أصلح اللهُ الأمير ، كيف به قبلَ ركوبه ووثوبه ، وكَشْفِ عيوبه[٢] ؟ فقال : اركَبْه ، فركبه وأجْراه ، ثم قال : أصلح اللهُ الأميرَ ؛ هو طويل الأُذنين ، قليـــل الاثنين ، واسع المراث[٣] ، لين الثّلاث ، غليظ الأكْرُع ، غامض الأربع ، شديد النَّفس ، لطيف الخَمْس ، ضيق القَلْتِ[٤] ، رقيق السّتّ ، حديد السَّمْع ، غليظ السَّبع ، رقيق اللسان ، عريض الثّمان ، شديد الضِّلْع ، قصير التّسع ، واسع السَّحْر ، بعيد العَشْر ، يأخذ بالسّائح[٥] ، ويُطلِق بالرّامح ، ويَطْلُع بلائح ، ويَضْحَكُ عن قارح ، يحزّ وَجْهَ الـكديد[٦] ، بعداقّ الحديد ، يُخْضِر كالبَحْرِ إذا ماجَ ، والسيل إذا هاج .

فقال سيفُ الدولة : لك الفرس مُباركاً فيـه . فقال : لازلت تأخذُ الأنفاس ، وتَمْنَحُ الأفراس . ثم انصرف ، وتبعتُه ، وقلت : لكَ عليّ ما يليقُ بهذا الفرس من خِلْعَةٍ إن فسّرْتَ ما وصفْتَ . فقال : سَلْ عما أحببت . فقلت : ما معنى قولك : بَعيدُ العشر ؟ فقال : بَعيد النظر ، والخَطْو ، وأعالي الجَنْبَيْن[٧] ، وما بين الوَقْبَيْن ، والجاعِرَتَيْن ، وما بين القُرَابين ، والنخرَيْن ، وما بين الرِّجلين ، وما بين النقبة[٨] والصِّفاق ، وبعيد القامَةِ[٩] في السباق .

فقلت : لا فُضّ فُوك ، فما معنى قولك: قصير التّسع ؟ قال: هاك : قصير الشّعرة، قصير الأُطْرَة ، قصير العَسيب ، قَصير القضيب ، قَصير المَعْدَيْن ، قصير الرُّسْغَيْن ، قصير النَّسا ، قصير الظّهْر ، قصير الوَظيفِ .

فقلت : لله أنت! فما معنى قولك: عريض الثّمان ؟ قال: عريض الجَبْهَة، عريض

---

(١) العارضة : البديهة . (٢) في المقامات : وكشف عيوبه وغيوبه .
(٣) المراث : مبعر الفرس . (٤) القلت : النقرة في رأس الورك .
(٥) في المقامات : بالسابح . (٦) في المقامات : يخد . (٧) في القلت : اللحيين : وهما عظما الحنك اللتان يكون عليهما الأسنان . (٨) في المقامات : النقب .
(٩) في المقامات : الغاية .

الصَّهْوَة ، عريض السَّكَتِف ، عريض الجَنْب ، عريض الوَرِك ، عريض العَصَب ، عريض البَلْدَة ، عريض صفْحَة العنق .

فقلت : أحسنت ، فما معنى قولك : غليظ السّبع ؟ قال : غليظ الذراع ، غليظ الحزم ، غليظ الأُسكُوَّة ، غليظ الشَّوَى ، غليظ الرُّسْغ ، غليظ الفَخِذَيْن ، غليظ الحبال(١) .

فقلت : لله دَرُّك ! فما معنى قولك : رقيق الستّ ؟ فقال : رقيق الجَفْن ، رقيق السَّالِفَة ، رقيق الجَحْفَلَة ، رقيق الأَدِيم ، رقيق أعْلَى الأُذنين ، رقيق الفَرْضَتَيْن .

فقلت : أجَدْتَ ، فما معنى قولك : لطيف الخمس ؟ قال : لطيف الزَّوْر ، لطيف النَّسْر ، لطيف الجُبَّة ، لطيف المُجاية ، لطيف الرُّكْبَة .

فقلت : حياك الله ! فما معنى قولك : غامض الأربع ؟ قال : غامض أعالي السَّكَتِفَيْن ، غامض المَرْفِقَيْن ، غامض الحجاجَيْن ، غامض الشَّظَى .

قلت : فما معنى قولك : لَيِّن الثلاث ؟ قال : لَيِّن المَرْدَغَتَيْن(٢) ، لَيِّن العُرْف ، لَيِّن العِنان .

قلت : فما معنى قولك : قليل الاثنتين ؟ قال : قليلُ لَحْم الوجه ، قليل لحم المَتْنَيْن .

قلت : فمن أين نَبَاتُ هذا العلم ؟ قال : من الثغور الأُمَوية ، وبلاد الإسكندرية .

فقلت له : أنت مع هذا الفضل يعرضُ وجهك لهذا البَذْلِ ! فأنشأ يقول :

ساخِفْ زمانك جِـــدًّا فالدهر(٣) جِدُّ سَخيف
دَعِ الحَمِيَّةَ نَسْيًا وعِشْ بِخَيْرٍ وريف
وقُلْ لعبـــدك هَذا يَجِيءْ لنـــا بِرَغيف

---

(١) في المقامات : الحاذ . (٢) المردغة : ما بين العنق والترقوة .

(٣) في المقامات : إن الزمان سخيف .

سقط عنا تفسيره فى « لين الثلاث » ، وأكثرُ هذا التفسير يحتاجُ إلى تفسير ، ولم يُرِدْ بما أورد إفهام العَوامّ ، والبلاغة لمحة دالة ، وبلاغة النثر أخت بلاغة الشعر ؛ وقد قال البحترى(1) :

والشعر لمح تكفى إشارتهُ وليس بالهَذْر طُوِّلت خُطَبُهْ

تفسير لغوى وسأقول فى شرحه بكلام وجيز زيادة فى الإفادة : الوَقْبَان : نُقْرتان فوق العينين. والجاعِرتان(2) من الفرس : موضع الرَّقمتين من الحمار ، وهما منتهى ضَرْبه بذنبه إذا حرّكه . والغرابان : الناتئان من أعلى الوركين . وذكر النقبة هنا ، وهو الذى يُعرف بالمنقَبِ ، وهو من السرة حيث ينقب البيطار . والصِّفاق : الخاصرة. وقد قيل: جلد البطن كلّه صفاق ، والذى أراده الخاصرة . وأراد ببُعْد القامة فى السباق امتدادُه إذا جرَى مع الأرض . والأطْرَة هنا : طرف الأبْهر ، وهى طِفْطفة(3) غَليظة . والأبهر : عِرْق يستبطن الظّهر ، فيتّصل بالقلب ، وقيل هو الأكحل . والعسيب : عظم الذنب . والرّسْغ من الفرس : موضع القيد . والنَّسا : عرق مستبطن الفخذين ، وقِصَره محمود فى جَرْى الفرس ، ولكنه لا يسمح بالشئ. والوظيف لكل ذى أربع : ما فوق الرّسْغ إلى الساق . والصَّهوة : الظهر . والبَلْدة(4) : ما بين عينيه . والعُكْوَة : مغرز الذَّنَب . والشَّوى : الأطراف . والجبال : حبلا العاتق والظّهر . والجَحْفَلة من ذوات الحافر : كالشفة(5) من الإنسان . والغُرْضَان من الفرس : ما انحدر من قَصَبة الأنف من جانبيها . والزور : الصدر . والنُّسُر فى الحافر: لحمة يابسة فى أسفله يشبهها الشعراء بالنّوى . والجُبّة : التى فيها الحوشب . والحَوْشَب : حشو الحافر . والمُجَاية : عصَب(6) فى قوائم الفرس والبعير مركّب

(1) ديوانه : ١ ـ ٣٨ . (2) حرفا الورك المشرفان على الفخذين.

(3) الطفطفة : الخاصرة ، أو أطراف الجنب المتصلة بالأضلاع، أوكل لحم مضطرب . أو الرخص من مراق البطن (القاموس) . (4) فى القاموس : البلد والبلدة : الصدر ، ونقاوة ما بين الحاجبين . (5) ف س ، ق : وهى الشفة . (6) ف ق : عظم .

فيه فصوص من عظام كأمثال الكعاب تسكون عند الرَّسغ . والحِجَاجان : العظمان المُطيفان بالعين . والشَّظَى : عظم لاصقٌ بالذراع . والمتنان : جانبا الظهر ؛ وسقطت تفسير الثلاث من نفس المقامة .

[الوعد وإنجازه]

قال الجاحظ : قال أبو القاسم بن معن المسعودى لعيسى بن موسى : أيُّها الأمير ؛ ما انتفعتُ بك مُنْذُ عرفتُك ، ولا إلى خيرٍ وصلتُ منك منذ صَحِبْتُك ، فقال: ولِمَ ؟ ألم أُكلِّم لك أميرَ المؤمنين فى كذا وكذا ؟ قال : بلى ؛ فهل استنجزتَ ما وُعِدْتَ ، وعاودتَ ما ابتَدأْتَ ؟ فقال : حالَتْ دونَ ذلك أمورٌ قاطعة ، وأحوالٌ عاذرة . قال : أيُّها الأمير ، فما زِدْتَنى على أنْ نبَّهْتَ الهمَّ من رَقْدَتِه ، وأثَرْتَ الحزْنَ من رَبْضَتِه ، إنَّ الوعدَ إذا لم يصحَبْه إنجازٌ يحققُه كان كلفظٍ لا مَعْنى له ، وجسمٍ لا روحَ فيه .

وكلَّم منصور[1] بن زياد يحيى بن خالد فى حاجةٍ لرجلٍ ، فقال : عِدْه قضاءها . قال: فقلت : أصلحك الله ، وما يَدْعُوك إلى العِدَة مع وجود القدرة ؟ فقال : هذا قولُ من لا يعرفُ موضِعَ الصّنائع من القلوب ، إنَّ الحاجةَ إذا لم يتقدّمها مَوْعِدٌ يُنتظر به نُجْحُها لم تتجاذَب الأنفس سرورها ؛ إنّ الوَعْدَ تطعُّم ، والإنجاز طَعَام ؛ وليس من فَاجأه طعامٌ كمن وجَدَ رائحته ، وتعلَّق به ، وتطعَّمه ثم طَعِمه ؛ فدَعِ الحاجَةَ تُخْتَمَر[2] بالوَعد ؛ ليكونَ بها عند المصطنع حُسْنُ مَوْقع ، ولُطفُ محَلّ .

ووعد المهدى عيسى بن دَأْب جَارِيةً ، ثم وهبها له ، فأنشده عبد الله بن مُصْعَب الزبيرى معرِّضاً بقول مضرِّس الأسدى :

فلا تيأسَنْ مِنْ صالحٍ أنْ تَنَالَهُ ... وإن كانَ قِدْماً بين أيْدٍ تُبَادِرُه

(١) ديوان المعانى ٢ — ٢٠٤ . (٢) فى ديوان المعانى : تحمّر .

فضحك المهدى ، وقال : ادفعوا إلى عبد الله فلانة ، لجارية أخرى ؛ فقال عبدالله ابن مصعب :

أَنْجَزَ خَيْرُ الناسِ قَبْلَ وَعْدِهِ   أراح من مَطْلٍ وطُولِ كَدِّهِ

فقال ابن دَأْب : ما قلت شيئاً ، هلّا قلت :

حَلَاوَةُ الفضلِ بوَعْدٍ يُنْجَزُ   لا خيرَ في العُرْفِ كَنَهْبٍ يُنْهَزُ

فقال المهدى :

الوَعْدُ أحْسَنُ ما يكو   نُ إذا تقدَّمَه ضَمَانُ

وقد قال أبو قابوس النصرانى يمدح يحيى بن خالد :

رأيتُ يَحْيَى ، أتمَّ اللهُ نِعْمَتَهُ   عليه ، يأتى الّذى لم يأتِهِ أحَدُ

يَنْسَى الّذى كان من معروفه أبداً   إلى الرجال ولا يَنْسَى الذى يَعِدُ

وقال أبو الطيب المتنبى[1] :

قومٌ بلوغُ الغُلامِ عندَهُمُ   طَعْنُ نُحُورِ الكُماةِ لا الحُلُمُ

كأنّما يُولَدُ النَّدَى مَعَهُمْ   لا صِغَرٌ عاذِرٌ ولا هَرَمُ

إذا تَوَلَّوْا عداوةً كَشَفُوا   وإنْ تَوَلَّوْا صنيعةً كَتَمُوا

تظُنُّ من فَقْدِك اعتدادَهُمُ   أنّهُمُ أنْعَمُوا وما عَلِمُوا

ودخل أبو عليّ البصير على الفضل بن يحيى فأنشده :

وُصِفَ الصدُّ لِمَنْ أهْوَى فصدّ   وبدا يَمْزَحُ بالهَجْرِ فجدّ

ما لَهُ يعدل عنّى وَجْهَهُ   وهو لا يعدِلُهُ عندى أحَدْ

لا تُرِيدوا غرّةَ الفضلِ ومنْ   يطلب الغِرّةَ فى خِيسِ الأسَدْ[2]

ملكٌ تَدْفَعُ ما نَخْشَى به   وبه نُصْلِحُ منّا ما فَسَدْ

(١) ديوانه ٤ : ٦٠ .   (٢) خيس الأسد : عرينه .

يُنْجِزُ الناسُ إذا ما وَعَدُوا   وإذا ما أنْجَزَ الفضلُ وَعَدْ

وقال ابن الرومى فى هذا المعنى :

له مواعدُ بالخيْرَاتِ بادِرَةٌ   لكنها تَسْبِقُ الميعادَ بالصَّفَدِ[1]

يُعْطِيكَ فى اليومِ حقَّ اليومِ مبتدئاً   ولا يضيِّع بَعْدَ اليومِ حقَّ غدِ

[المعرفة بقدر النعمة]

خطب سليمانُ بن عبد الملك فقال : أيهـا الناسُ ، مَنْ لم يعلم أبوابَ مَدْخَله فى الكرامة ، وجَهِل طريقته التى وقَعَتْ به على النِّعمة كان بعرض رُجوعٍ إلى دارِ هَوَانٍ ، وانقلابٍ بفادحِ خُسْرَانٍ .

فقام إليه أبو وائلة السدُوسى ، وهو حاجِبُه ، فقال : ياأميرَ المؤمنين؛ كنا كما قال الله تعالى[2] : ﴿ هل أتَى على الإنسانِ حينٌ من الدَّهْرِ لم يكُنْ شيئاً مَذْكُوراً ﴾ ، ثم صِرنا كما قال زُهير[3] :

يَدُ الملِكِ الجليلِ تناوَلَتْهُمْ   بإحسانٍ فليس لها مُزِيلُ

لأنَّ الخيرَ أجْمَع فى يَدَيْه   ورَبِّى بالجزاء له كَفِيلُ

فقال سليمان : هذه والله المعرفةُ بِقَدْرِ النعمة ، والعلمُ بما يجب للمنعم .

ورؤى يونس بن المختار فى دار المأمون ، ومرتبَتُه فى أعْلَى مراتب بنى العباس ، قاعداً على الأرض ، فقال الحاجبُ : ارتفِعْ يا أبا المعلَّى إلى مرْتبَتِك . قال: قد رفعنى اللهُ إليها بأميرِ المؤمنين ، وليس لى عملٌ يَفِى بها ، فلِمَ لا أُكْرِمها عن القعود عنها إلى أن يتهيَّأَ لى الشكرُ عليها ؟ فبلغ الكلامُ المأمونَ ؛ فقال : هـذا والله غايةُ الشكر ، وبمثله تدرُّ النِّعَم .

---

(١) الصفد : العطاء .   (٢) سورة الإنسان ، آية ١ .

(٣) ليسا فى ديوانه المطبوع بأيدينا .

وقال رجل للمعلّى بن أيوب ــ وقد رَفَعَهُ المعتصمُ إلى مرتبةِ أهْلِ بيته : ما يَزِيدُكَ التقريبُ إلا تباعُدا . فقال : يا هذا ؛ إنى أصُون تقريبَه إياى بتباعدى منه، لئلا تفسد حُرْمتى عنده بقلّةِ الشكرِ على نعمته .

ولما استمانَ المنصورُ بالحارث بن حسّان قال له : يا حارث ؛ إنّى قد مكّنْتُكَ من حُسْنِ رَأْيِى فيك ، فاحفَظْهُ بتَرْكِ إغفال ما يجبُ عليك . قال : يا أميرَ المؤمنين ، مَنْ أغْفَلَ سببَ حُلولِ النعمة ، وَلَهَا عنِ الحال التى أصارَتْهُ إليها استصحبَ اليأسَ من نَيْلِ مِثْلِها ، وانقطع رجاؤُه من الزيادة فيها . فقال أبو جعفر : مَنْ كانت عنده هذه المعرفةُ دامَت النعمةُ له ، وبقى الإحسانُ إليه .

ولما قال المأمونُ لعبد الله بن طاهر عند قدومه من مصر : ما سرَّنى اللهُ منذ وليتُ الخلافةَ بشىء عَظُمَ[1] موقعه عندى ، بعد جميل عافيةِ الله ، هو أكثر من سرورى بقدومك . فقال عبـــدُ الله : إئْذَنْ لى يا أميرَ المؤمنين فى تفريق أموالى من طارِفٍ وتالد . قال : ولِمَ ؟ قال : شكراً على هذه الـكلمة ؛ وإلّا قَصَّر بى الحياء عن النظرِ إلى أمير المؤمنين . فقال المأمون لمَنْ حضر من أهـل بيته وقوّاده : ما شىء من الخلافة يَفِى لعبد الله ببعض شكره .

وقال أبو نواس[2] :

قد قلتُ للعبـــاس معتذرا عن[3] ضعف شكريه ومُعْتَرِفا
أنتَ امرؤٌ جَلَّلْتَنى نِعماً أوْهَتْ قُوى شكرى فقد ضَعُفاَ
فإلَيْكَ منى اليوم تَقْدِمةً تلقاك[4] بالتصريح منكشفا
لا تسدينّ إلىّ عارفةً حتى أقومَ بشكر ما سَلَفاَ

عارضه الناشى واعترض معناه ، فقال :

إنْ أنتَ لم تُحْدِثْ إلىّ يداً حتى أقومَ بشُكْرِ ما سَلَفاَ

(١) فى ق : عظيم . (٢) ديوانه : ٧١ . (٣) فى ديوانه : من .
(٤) فى ديوانه : لاقتك .

لم أحْظَ منكَ بنائلٍ أبداً   ورجعت بالحرمانِ منصرفا

وقال ابن الرومي(١):

عاقَنا أنْ نَعودَ أنَّكَ أولَيْـ   ـتَ أموراً يَضيقُ عَنْها الجزاء
غمرَتْنا منكَ الأيادي اللّواتي   ما لِمِشارِها لَدَيْنا كِفاء
فَنَهانا عنك الحياءُ طَويلاً   ثُمَّ قد رَدَّنا إليكَ الحياء
ولَنا حقٌّ إنْ قَرُبْتَ التّنائي   ولَنا حقٌّ إنْ بَرَزْتَ الجفاء
غَيْرَ أنّا أنْضاءُ شُكْرٍ أريحَتْ   وقديماً أُريحتِ الأنْضاء(٢)

ألفاظ لأهل العصر في العجز عن الشكر لتكاثر الإنعام والبر

عندي من بِرّه ما ملك الاعتذار بأزِمّتِه، وقبض ألسنةَ أمراء الكلام وأئمّته. عندي له مبارٌّ أعجزني شكرُها، كما أعوزني حَصْرُها. شُكْرُه شأوٌ(٣) بعيدٌ لا تبلغه أشواطي، ولا أتلافَى التفريط في حقّه بإفراطي. إحسانُه يُعيد العربَ عُجْماً، والفُصحاء بُكْماً. قد زحمني من مكارمه ما يُحْصَرُ عنه البين، ويصحبُه العيُّ وبئس القَرين(٤).

وقال أعرابي: لأعرابي

رهنت يَدي بالعَجْزِ عن شُكرِ بِرِّهِ   وما فَوْقَ شُكْري للشكورِ مَزيدُ
ولو كان شيئاً يستطاعُ استطعتُه   ولكنّ مالا يُستطاعُ شَديدُ

وقال يحيى بن أكثم: كنتُ عند المأمونِ، فأتى برجل ترعَد فرائصُه؛ فلما مثل بين يديه قال المأمونُ: كفرت نعمتي، ولم تشكر معروفي. فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ وأين يقعُ شكري في جنْبِ ما أنعم اللهُ بك عليّ، فنظر إليّ المأمون وقال متمثّلا(٥):   ليحيى بن أكثم

---

(١) ديوانه ١ — ٣٨.   (٢) النضو: المهزول من الإبل.
(٣) الشأو: الغاية والأمد.   (٤) في س: البكى وبئس القرين، والبكء الإبكاء. وفي ق: العي وبئس القرين.   (٥) ذيل اللآلي: ١٠٦.

ولو كان يَستغنى عن الشكر ماجدٌ　　لرفعةِ قَدْرٍ أو علوِّ مَكانِ

لما أمر اللهُ العبادَ بشكرِهِ　　فقال : اشكروا لى أيُّها الثَّقلانِ

ثم التفت إلى الرجل فقال : هلّا قلت كما قال أصرم بنُ حميد :

ماسُدت حمدىَ حتى إنّنى رَجُلٌ　　كُلِّى بكل ثناء فيك مشتغلُ

خوّلت شكرى لما خَوّلت من نِعَمٍ　　فحُرُّ شكرى لما خولتنى خَوَلُ[1]

البستى

وقال أبو الفتح البُسْتِى :

لئن عجزتْ عن شُكْرِ بِرّكَ قوّتى　　وأقوَى الوَرَى عن شكرِ بَرّكَ عاجزُ

فإنّ ثنائى واعتقادى وطاقتى　　لأفلاكِ ما أوليتنيها مَراكِزُ

الزعفرانى

وقال أبو القاسم الزعفرانى :

لى لسانٌ كأنّه لى مُعادِى　　ليس يُنْبِى عن كُنْهِ مافى فؤادى

حكم الله لى عليه فلو أنـ　　ـصف قلبى عرفت قَدْرِ ودادِى

وقال إسماعيل بن القاسم ، أبو العتاهية ، يمدحُ عُمر بن العلاء[2] :

إنى أمِنْتُ من الزمان وريْبِهِ　　لما عَلِقْتُ من الأمير حِبَالا

لو يستطيعُ الناسُ من إجلالِهِ　　لحَذَوْا له حُرَّ الوجوهِ نِعالا

ما كان هذا الجودُ حتى كنت يا　　عمر ولو يوما تزُولُ لزَالا

إنّ المطايا تشتكيكَ لأنّها　　قطعَتْ إليك سَباسِبا ورِمالا

فإذا ورَدْنَ بنا ورَدْنَ مُخِفَّةً　　وإذا صدَرْنَ بنا صَدَرْنَ ثِقالا

وهى قصيدة سهلةُ الطبع ، سالسة النظام ، قريبة المتناول .

أبو العتاهية يمدح عمر بن العلاء

وروى أنّ عمر بن العلاء وصلَه عليها بسبعين ألف درهم، فحسدته الشعراء، وقالوا: لنا بباب الأميرِ أعوامٌ نَخْدُمُ الآمالَ ، ما وصلنا إلى بعض هذا ! فاتصل ذلك به فأمر بإحضارهم ، فقال : بلغنى الذى قلتُم ؛ وإنّ أحدكم يأتى فيمدحنى بالقصيدة يشبّبُ فيها

(١) الخول : العبيد والإماء . (٢) اللآلى ٥٥١ ، القالى ١ — ٢٤٣ .

فلا يَصِلُ إلى المدح حتى تذهب لذّةُ حلاوته ، ورائقُ طلاوته ؛ وإنّ أبا العتاهية أتى فشبّب بأبياتٍ يسيرة ، ثم قال : إنّ المطايا تشتكيك لأنّها . . . وأنشد الأبيات .

وكان أبو العتاهية لمّا مدحه بهذا الشعر تأخّر عنه بِرُّه قليلا فكتب إليه يستبطئه :

أصابت علينا جودَكَ العينُ يا عُمر ... فنحن لها نَبْغي التمائمَ والنُّشَر[١]

أصابتك عَيْنٌ في سخائك صُلبةٌ ... ويارُبَّ عينٍ صُلْبَةٍ تَفْلِقُ الحجَرْ

سنَرْقيكَ بالأشعارِ حتى تملّها ... فإن لم تفقْ منها رَقَيْناكَ بالسُّوَرْ

وقال[٢] :

يابْنَ العلاءِ ويابْنَ القَرْمِ[٣] مِرْداسِ ... إنّى مدَحْتُكَ في صَحْبى وجُلّاسى

أُثْنى عليك ولِى حالٌ تُكَذّبُنى ... فيما أقول فأستحْيِى مِنَ النّاسِ

حتى إذا قيل : ما أوْلاكَ من صَفَدٍ ... طأطأْتُ من سُوءِ حالِى عندها رأسى

فأمر حاجبه أن يدفع إليه المال . وقال : لا تُدْخِلْه علىّ ، فإنى أستحْيِى منه .

وذكر بعضُ الرواةِ أنّ المهدى خرج متصيّدًا ، فسمِعَ رجلا يتغنّى من القصيدة التى مرّت منها الأبيات فى عمر بن العلاء آنفا :

يا مَنْ تفرّدَ بالجمال فما تَرَى ... عينى على أحدٍ سِوَاهُ جَمالا

أكثرتِ فى قولى عليك من الرُّقَى ... وضرَبْتُ فى شِعْرى لك الأمثالا

فأبيْتِ إلّا جَفْوَةً وقَطِيعةً ... وأبيت إلّا نَخْوَةً ودَلالا

باللهِ قولى إن سألتك واصْدُقى ... أوجدت قَتْلى فى الكتاب حَلالا

أمْ لا ، فَفِيمَ جَفَوْتِنى وظلَمْتِنى ... وجعلتنى للعالمين نَكالا

كم لائمٍ لو كنت أسْمَعُ قوله ... قد لامنى ونَهَى وعَدّ وقالا

---

(١) النشر ، جمع نشرة : رقية يعالج بها المجنون والمريض . (٢) الفالى ١ — ٢٤٣ .
(٣) القرم : السيد .

فقال المهديّ : عليّ به . فجاءه فقال : لِمَنْ هـذا الشعر ؟ قال : لإسماعيل ابن القاسم ـ أبي العتاهية ، قال : لمن يقوله ؟ قال : لِعُتْبَةَ جارية المهدي ، قال : كذبت ، لو كانَتْ جاريتي لوَهَبْتُها له ، وكانت عُتبة لرَيطة بنت أبي العباس السفاح ، وكان أبو العتاهية قد بلغ من أمرها كل مبلغ ، وكلّ ذلك فيما زعم الرواةُ تصنُّع وتخلّق ؛ ليُذْكَر بذلك .

[نسيب أبي العتاهية في جارية المهدي]

قال يزيد [بن][1] حوراء المغنّي : كلّمني أبو العتاهية أنْ أُكَلِّمَ له المهدي في عُتبة ؛ فقلت : إنَّ الكلام لا يمكنني ، ولكن قل شعراً أُغنيه إياه ، فقال :

نفسي بشيء من الدنيا مُعَلَّقَةٌ اللهُ والقائمُ المهديُّ يَكْفِيها
إنّي لأَيْأَسُ منها ثم يُطْمِعني فيها احتقارُكَ للدنيا وما فِيها

فعملت فيه لَحْنا وغنّيْتُه المهدي ؛ فقال : لِمَنْ هذا ؟ فأخبرته خَبَرَ أبي العتاهية ، فقال : ننظرُ في أمره ، فأخبرت بذلك أبا العتاهية ؛ فمكث أشهراً ، ثم أتاني فقال : هل حدَثَ خبر ؟ فقلت : لا ، فقال : غَنِّه بهذا الشعر :

ليت شِعْرِي ما عندكم ليت شعري إنّما أَخّـرَ الجوابُ لِأَمْرِ
ما جوابٌ أَوْلَى بكلِّ جميـلٍ من جوابٍ يُرَدّ من بَعْدِ شَهْرِ

قال يزيد : فغنّيْتُ به المهدي ، فقال : عليَّ بعُتبة ، فأحضرت ، فقال : إنّ أبا العتاهية كلّمني فيك ، وعنـدي لك وله ما تحبّانِ ؛ فقالت له : قد علم مولاي أمير المؤمنين ما أوْجَبه من حقّ مولاتي ، فأُريد أن أذْكرَ لها ذلك ؛ قال : فافعلي. فأَعْلَمْتُ أبا العتاهية بما جرى ومضت الأيامُ ؛ فسألني معاودةَ المهدي ، فقلتُ له : قد عرفْتَ الطريقَ فقل ما شئت حتى أُغنيه ، فقال :

أشربت قَلْبِي مِنْ رَجائك ما لَهُ عَنَقٌ إليك يَخُبُّ بي ورَسِيمُ[2]

---

(١) من س .   (٢) العنق والرسيم : من أنوع السير .

وأَمَلْتُ نحو سماء صوبِك ناظِرى ... أرْعَى مَخَايِل بَرْقِها وأشيمُ[١]
ولقد تنسَّمْتُ الرياحَ لحاجتى ... وإذا لها من راحَتَيْك نَسيمُ
ولربما استيأست ثم أقولُ : لا ... إنَّ الذى ضَمِنَ النجاحَ كريمُ

فغنّيته بالشعر ، فقال : علىّ بعُتبة ، فأتت ؛ فقال : ما صنعت ؟ قالت : ذكرتُ ذلك لمولاتى فأبَتْه وكَرِهَتْه ، فليفعَلْ أميرُ المؤمنين ما يريد . فقال : ما كنتُ لأفعل شيئاً تكرهه ، فأعلمت أبا العتاهية بذلك ، فقال[٢] :

قطَّعْتُ منك حبائِلَ الآمالِ ... وأرَحْتُ من حلٍّ ومن تَرحَالِ[٣]
ما كان أشأمَ إذْ رجاؤك قادَنِى[٤] ... وبناتُ وعدك يَعْتَلِجْنَ ببالِى
ولئن طَمِعْتُ لَرُبَّ برقٍ[٥] خُلَّبٍ ... مالَتْ بذى طَمَعٍ ولُمْعَةِ آلِ[٦]

وقد نُقِلت هذه الحكاية على غير هذا الوجه ، والله أعلم بالحقّ فى ذلك .

وضرب المهدى أبا العتاهية مائة سوط لقوله :

ألا إنَّ ظَبْيًا للخليفة صادَنِى ... وما لى على ظَبْىِ الخليفة من عَدْوِ

وقال : أَبِى يتعرَّضُ ، ولحرمى يتعرّضُ ، وبنسائى يَعْبَثُ ؟ ونفاهُ إلى الكوفة .

وفى ضربه يقول أبو دُهمان :

لولا الذى أحْدَثَ الخليفةُ للعشا ... قِ من ضَرْبِهِمْ إذا عشقوا
لَبُحْتُ باسمِ الذى أحِبُّ ولكنّى ... امرُؤٌ قد ثناني الفَرَقُ[٧]

وكان أبو العتاهية بالكوفة لما نُفِىَ يَذْكُرُ عُتبة ، ويكنّى باسمها ، فمن ذلك قوله :

قل لمن لَسْتُ أسمّى ... بأبى أنتَ وأمّى
بأبى أنتَ لقد أصـ ... ـبَحْتَ من أكْبَرِ همّى .

---

(١) أشيم : أنظر . (٢) ديوانه : ١٩٤
(٣) رواية هذا الشطر فى الديوان : وحططت عن ظهر المطى رحالى . (٤) فى الديوان : قاتلى .
(٥) فى الديوان : برقة . (٦) البرق الخلب : ما لا مطر فيه . والآل : السراب .
(٧) الفرق : الخوف .

ولقــد قلت لأهلى … إذ أذاب الحبُّ لحمى
وأرادوا لى طبيباً … فاكتفوا منّى بعلمى
من يكن يجهلُ ماألقا … هُ فإن الحبَّ سُقْمِى
إنّ رُوحِى ليبغدا … دَ وفى الكوفةِ جسْمِى

وقوله :

أمسى ببغدادَ ظَبْىٌ لستُ أذكرُهُ … إلا بكَيْت إذا ما ذِكْرُه خطرا
إنّ الحبَّ إذا شطّتْ منازلُهُ … عن الحبيب بكى أوْ حَنّ أو ذَكَرَا
يارُبّ ليْلٍ طويلٍ بتُّ أرْقُبُهُ … حتى أضاءَ عمودُ الصُّبْحِ فانفجَرا
ما كنتُ أحسِب إلّا مُذْ عرفتكُمُ … أنّ المضاجعَ مما تُنْبِتُ الإبَرا
والليلُ أطوَلُ من يوم الحسابِ على … عَيْنِ الشّجِىّ إذا ما نَوْمُه نَفَرا

ولما قدمت عُتبة ببَغْداد قدم معها أبو العتاهية وتلطّف حتى اتّصل بالرشيد فى خلافة أبيه المهدى ؛ وتمكّن منه ، وبلغ المهدىَّ خبرَه فأحضره ؛ فقال : يا بائس ؛ أنت مستقتل ، وسأله عن حاله ؛ فأنشده قصيدتَه التى يقول فيها :

أنْتَ القابلُ والمدا … بر فى المناسب والمَديد
بين العمومة والخئو … لة والأبوّة والجدود
فإذا انتمَيْت إلى أبيـ … ـك فأنت فى المَجْدِ المَشيد
وإذا انتمى خالٌ فما … خالٌ بأكْرَمَ مِنْ يَزِيد

يُريد يزيد بن منصور ؛ وكانت أم المهدى أم موسى بنت منصور الحِميرى وأنشده :

عَلِمَ العالَم أنّ المنـايا … سامعاتٌ لك فيمَنْ عَصاكا
فإذا وجّهتَها نحوَ طاغٍ … رجعَت تَرْعُفُ منه قَنَاكا
ولو انّ الريحَ بارَتْكَ يوماً … فى سماحٍ قصّرتْ عَنْ نَداكا

وأنشده :

أتَتْهُ الخلافةُ مُنْقادةً … إليــه تُجرِّرُ أذيالَها

فلم تكُ تَصْلُحُ إلّا لهُ   ولم يَكُ يَصْلُحُ إلّا لَهَا
ولو رامَها أحدٌ غيرُهُ   لَزُلْزِلَتِ الأرضُ زِلْزَالَها
ولو لم تُطِعْهُ بناتُ القلوبِ   لَمَا قَبِلَ اللهُ أعمالَهـا

فقال له المهدى : إن شئت أدّبناك بضَرْبٍ وَجِيع؛ لإقدامك على ما نُهيت عنه، وأعطيناك ثلاثين ألف درهم جائزةً على مَدْحِك لنا . وإن شئتَ عفَوْنا عنك فقط .

فقال: بل يُضيف أميرُ المؤمنين إلى كريم عفوه جميلَ معروفه ؛ ومكرُمتان أكثرُ من واحدة ، وأميرُ المؤمنين أولى من شفَع نعمَته وأتمَّ كرمه . فأمر له بثلاثين ألف درهم، وعفا عنه .

ولما قدم الرشيدُ الرَّقَّةَ[1] أظهر أبو العتاهية الزُّهد والتصوف وتَرْكَ الغَزَل ، فأمره الرشيد أن يتغزّل فأبى فحبسه فغنّى بقوله :

خَليليَّ مالى لا تَزالُ مَضَرَّتى   تكونُ على الأقدار حَتْماً من الحَتْم
كفاك بحقّ اللهِ ما قد ظلمتَنى   فهذا مقامُ المستجيرِ من الظلم
ألا فى سبيل الله جسمى وقُوّتى   ألا مُسْعِدٌ[2] حتى أنُوحَ على جِسْمِى

فأمر بإحضاره وقال : بالأمس يَنْهاك أميرُ المؤمنين المهدى عن الغزَل ، فتأبى إلّا لَجاجا ومَحْكا[3] ؛ واليوم آمرك بالقول فتأبى جُرْأةً علىّ وإقداما ، فقـــال : يا أمير المؤمنين ؛ إنّ الحسناتِ يُذْهِبْنَ السيئات ، كنتُ أقول الغزلَ ولى شبابٌ وجِدَة ، وبى حَرَاك[4] وقوّة ، وأنا اليوم شيخٌ ضعيف لا يحسن بمثلى تَصابٍ ؛ فردَّه إلى حبسه فكتب إليه :

أنا اليوم لى ، والحمدُ لله ، أشْهرٌ   يَرُوحُ علىَّ الغمُّ منك ويَبْكُرُ
تذكَّرْ أمينَ اللهِ ، حقّى وحُرْمتى   وما كنتَ تُولينى ، لعلَّك تَذْكُرُ

---

(١) الرقة : بلد على الفرات ، وآخر غربى بغداد .   (٢) معين .
(٣) محك ــ كمنع : لج .   (٤) الحراك : الحركة .

لياليَ تُدنى منك بالقُرب مجلسى ... ووجهُك من ماء البشاشة يقطُرُ

فمَنْ لِيَ بالعين التى كنتَ مرةً ... إلىَّ بها من سالفِ الدَّهر تنظُرُ

فبعث إليه : لا بأس عليك ؛ فقال :

كأنَّ الخلقَ رُكِّبَ فيه روحٌ ... له جَسَدٌ وأنتَ عليه راسُ

أمينَ الله إنَّ الحبس بأسٌ ... وقد وقَّعتَ : ليس عليك باسُ

فأخرجه .

* * *

شىء من النقد — أخذ البيتَ الأول من هذين علىّ بن جبلة وزاد فيه ، فقال لأبى غانم الطوسى :

دجلةُ تسْقى وأبو غانمٍ ... يُطْعِمُ مَنْ تَسْقى من النَّاسِ

والخلقُ جسمٌ ، وإمام الهدى ... رَأسٌ ، وأنت العينُ فى الراسِ

وكان عمر بن العلاء ممدَّحا ، وفيه يقول بشار بن برد[1] :

إذا أيقظَتْكَ حُروبُ العدَا ... فنبِّه لهـا عُمراً ثمَّ نَمْ

دعانى إلى عُمَـرٍ جودُهُ ... وقولُ العشيرة بَحرٌ خِضَمْ

ولولا الذى ذكروا لم أكُنْ ... لأمْدَح ريحانةً قبـلَ شَمْ

فتًى لايَبيت على دِمْنَـةٍ ... ولا يشرب المـاء إلَّا بدَمْ

أخذ هذا البيت أبو سعيد المخزومى ، فقال[2] :

وما يُريدون لولا الجبن[3] من رَجُلٍ ... بالليل مشتَمِلٍ بالجَمْرِ مُكْتَحِلِ

لايشربُ الماءَ إلا من قليبِ دمٍ ... ولا يبيت له جارٌ على وَجَـلِ[4]

وقال أبو الطيب[5] :

تعوَّدَ ألَّا تَقْضَمَ الحَبَّ خيْلُهُ ... إذا الهامُ لم تَرْفعْ جُنوبَ العَلائِقِ[6]

---

(١) المختار من شعر بشار ٨٠ ، السمط : ٥٥١ . (٢) اللآلىء : ٥٧٦ ، والأمالى ١ ــ ٢٠٩ مع اختلاف الرواية . (٣) فى المختار : الجبن ، وفى الأمالى : لولا الجبن من أسد .

(٤) القليب : البئر . (٥) المختار من شعر بشار ٨١ ، ديوانه : ٢ ــ ٣٣٠ .

(٦) العلائق جمع علاقة : وهى المخلاة ، وجنوبها : نواحيها .

ولا تَرِد الغدران(١) إلّا وماؤُها　　　من الدَّمِ كالرَّيحانِ تحتَ الشّقائقِ

وقال أبو القاسم بن هانئ(٢) :

مَنْ لم يرَ الميدان لم يرَ معركاً　　　أشِباً ويوماً بالأسنة أكْهَبَا(٣)

وكتائباً تَرْدِى غوارِبُها العِدَى　　　وفوارساً تَعْدو صَوالجها الظِّبا .

لا يوردون الماءَ سُنْبُكَ سابحٍ(٤)　　　أو يكتسى بدمِ الفوارس طُحْلُبا

* * *

قال : وبلغ عمر بن العلاء أن أبا العتاهية عاتبٌ عليه فى هناتٍ نالها منه فى مجلس ، وكان كثيرَ الانقطاع إليه فتخلّف عنه ، فساء ذلك عمر ، فكتب إليه : قد بلغنى الذى كان من تجنُّبك فيما استخفّك به سوء الأدب عن عِلْمِ حقيقةٍ منى ، فصرت متردّدا من العمى فى يَلاميع(٥) الشبهة ؛ ولو كان معك من علمك داعٍ إلى لقائى لكشفت لك مَوْرِدَ الأمر ومصدره ، لترجع إلى الصِّلة ، فتقال أو تأبى إلا الصَّرِيمة فتَصْرِم(٦) ؛ وقد قال الأول :

ومُستعتب أبْدَى على الظنّ عَتْبَهُ　　　وأخرج منــه المحفظاتِ غَليلُ

كشفتُ لِمعذرِا فأبصرَ وجهه　　　فعاد إلى الإنصاف وهو ذَليــلُ

فأجابه أبو العتاهية : لم أجُزْ بتقبى الحقيقةَ إلى الشبهة ، ولم أجد سعةً مع عظيم قدرتك إلى حل اللائمة ، فقصَّر بى الخوفُ من سُخْطِك ، على تَرْكِ معاتبتك ؛ لأنَّ المعاتبة لا تجتنى إلّا من المساوِى ، ولو رغبت عن الصلة إلى القطيعة لتقاضيتك ذلك عن طول الصُّحبة وسالف المَدّة ، وأنا أقول :

رضيتُ ببعض الذّلّ خَوْفَ جميعهِ　　　وليس لمثلى بالملوك يَدَانِ

---

(١) فى كل الأصول : الغربان إلا وماؤه .　(٢) المختار من شعر بشار ٨٠ ، ديوانه ١٧

(٣) الكهبة : الدهمة . أو غبرة مشربة بسواد ، والمراد الظلمة .

(٤) فى المختار : سنبك حافر ، والسنبك : طرف الحافر .　(٥) اليلاميع من السلاح : مابرق .　(٦) تصرم : تقطع .

وكنت امرأً أخشى العقابَ وأتّقى　　مَغَبَّةَ ما تَجْنى يَدِى ولِسانى

فهل من شفيعٍ منك يَضْمَنُ تَوْبَتى　　فإنى امرؤٌ أوفى بكلِّ ضَمانِ

فتراجعا إلى أحسن ما كانا عليه .

وإنما ألمّ أبو العتاهية فى قوله : إنّ المطايا تشتكيك[1] ... وما يليه ، بقول أبى الحجناء نُصَيب الأكبر :

فعاجوا فأثنَوا بالذى أنْتَ أهْلُهُ　　ولو سَكَتُوا أثْنَتْ عليك الحقائبُ

وقال أبو الطيب فى أبى المشائر الحمدانى[2] :

تُنْشِدُ أثوابُنا مدائِحَهُ　　بألْسُنٍ ما لَهُنَّ أفْوَاهُ

إذا مَرَرْنا على الأصَمِّ بها　　أغْنَتْهُ عن مِسْمَعَيْهِ عَيْنَاهُ

وهذا المعنى من النُّصْبَةِ[3] الدالة بذاتها التى ذكرتها عن الجاحظ فى أقسام البيان.

* * *

الشواهد والدلالات والآيات

وقال بعضُ الخطباء : أشهد أن فى السموات والأرض آياتٍ ودلالات، وشواهدَ قائمات ؛ كلٌّ يؤدى عنك الحجّة ، ويشهد لك بالربوبية .

أبو العتاهية وأبو نواس

ونظير هذا قول أبى العتاهية ، وروى أنه جلس فى دكان ورّاق ، وأخذ كتابا فكتب على ظهره :

فواعجباً كيف يُعْصَى الإلٰـ　　ـهُ أمْ كيف يَجْحَدُهُ الجاحِدُ

ولله فى كلِّ تحريكةٍ　　وتَسْكِينةٍ فى الوَرَى شَاهِدُ

وفى كلِّ شىءٍ له آيةٌ　　تَدُلُّ على أنّه وَاحِدُ

وانصرف ، فاجتاز أبو نواس بالموضع فرأى الأبياتَ ، فقال : لِمَنْ هذا ؟ فلوددتُها لى بجميع شِعْرى، فقيل : لإسماعيل بن القاسم ، فوقع تحتها :

سبحان مَنْ خَلَق الخَلْـ　　ـقَ من ضعيفٍ مَهِينِ

---

(١) فى صفحة ٣٢٤ .　(٢) ديوانه : ٤ — ٢٦٤ .　(٣) فى ق ، ط : القضية .

فصَاغه من قرَارٍ إلى قرار مكينِ
يحـول شيئا فشيئا في الحُجْب دونَ العيون
حتى بدَتْ حركاتٌ مخلوقةٌ مِنْ سُكُون

وقال الفضل بن عيسى الرَّقاشي : سَلِ الأرض مَنْ غَرس أشْجَارِكِ ، وشَقَّ أنهارَكِ ، وجَنَى ثمارَكِ ، فإنْ لم تُجبْك حِوَارا ، أجابَتْك اعتبارا .

وهـذا شبيهٌ بقول عديّ بن زيد ، وقد نَزل النعمان بن المنذر تحت سَرْحَة[1] ، فقال : أتدري ماتقول هذه السَّرْحَة أيها الملك ؟ قال : وما تقول ؟ قال : تقول :

ربَّ رَكْبٍ قد أناخُوا حَوْلَنَا يشربون الخَمْرَ بالمـاء الزُّلال
ثم أضْحوا لَعِبَ الدَّهْرُ بهم وكذَاكَ الدَّهْرُ حالًا بَعْدَ حَال

ويروى: « عكَفَ الدَّهْرُ بهم فتَوَوْا » . فتكدَّرَ حالُ النُّعْمان وما كان فيــه من لذَّةٍ .

ألفاظ لأهل العصر في الشـكر بدلالة الحال

لو سكت الشَّاكرُ لنطَقَت المـآثِرُ . لو صَمتَ المُخَاطِبُ لأثنَت الحقائِبُ ، ولشهِدَتْ شواهِدُ حاله على صِدْقِ مَقَاله . إن جَحَدْتُ ما أوْلَانيه ، وكَفَرْتُ ما أعطانيه نطقتْ آثارُ أياديه عليَّ ، ولمعت أعلامُ عَوَارِفه[2] لديَّ .

ولأبي الفضل الميكالي من رسالة : وردَ فلانٌ فتعاطى من شُكْرِه على نعمِ التي الميكالي ألبسه جمالها وأسحبه أذيالَها، مالولم يتحدثْ به ناشرا ومُثْنِيا، ومعيدًا ومُبْدِيًا، لأثنَت به حالُه، وشهِدَتْ به رِحالُه، حتى لقد امتلأتْ بذكره المحافلُ، وسارت بخبره الرُّكبانُ والقوافلُ ، وصارت الألسنةُ على الشكر والثناء لسانًا ، والجماعة على النَّشْرِ والدعاء

(١) السرح : شجر عظام ، أو كل شجر لا شوك فيه .
(٢) العوارف : النعم .

أنصاراً وأعواناً؛ على أنه وإن بالغ في هذا الباب، وجاوز حدّ الإكثار والإسهاب، نهايتُه القصورُ دون واجبه، والسقوطُ عن أدنى درجاته ومراتبه.

للبستي — ومما يقترن لهم بهذا المعنى من ذِكْر الشكر: قال أبو الفتح البستي[1]: الحرُّ تَحُلُّ الشكر، إن أجْنَاه المرء من خيره شكراً أجناه من بِرّه[2] شهدا.

لغيرهما — غيره: الشكر ترجمانُ النيّة، ولسانُ الطويّة، وشاهدُ الإخلاص، وعنوان الاختصاص. الشكرُ نسيمُ النِّعَم، وهو السببُ إلى الزيادة، والطريقُ إلى السعادة. الشكرُ قيْدُ النِّعْمَة، ومفتاحُ المزيد، وثَمَنُ الجنة. مَنْ شكرَ قليلا استحقَّ جزيلا. شُكْرُ المولَى، هو الأوْلَى. الشكر قَيْد النِّعَم وشِكالٌ لها، وعِقالٌ لها، وهو شبيه بالوحش التي لا تقيم مع الإيحاش، ولا تريم مع الإيناس. مَوْقِعُ الشكرِ من النعمة مَوْقِعُ القِرَى من الضيف، إنْ وجده لم يَرِم، وإن فقده لم يُقِم. الشكر غرسٌ إذا أُودِع سَمْع الكريم أثمر الزيادةَ، وحفظَ العادة. الشكرُ تعرّض للمزيد السائغ، والنعم السوابغ. شُكْرُه[3] شكرُ الأسير لمن أطلقه، والمملوكِ لمن أعتقه. أثنى عليه ثناء الرَّوْضِ المُمْحِل، على الغَيْثِ المُسْبِل[4]. أثنى عليه ثناء لسان الزَّهر على راحة المطر. أثنى عليه ثناء العطشانِ الواردِ على الزُّلالِ البارد. شكرُه شكر الأرض للدِّيَم، وزُهَيْر لهَرِم. بَسَط لسانَ الثناء والدعاء، وبلغ عنان الشكرِ عَنَان[5] السماء. شكرهُ شكراً ترتاح له المكارم، وتهتزّ له المواسم. لأشكرنّه شكراً تَشيع أنواعُه، وتَنْبَسِطُ أبْوَاعه[6]، ويلذّ ذكره وسماعُه. شكرٌ ملأ القلبَ واللسانَ، كشكر حسّان لآل غسّان. أطال عِنان الشكرِ، وفسح مجالَه، ورفع أعمِدتَه، ومدّ أرْوِقَته. شكرٌ كأنفاس الأحباب، أو أنفاس الأسحار، أو أنفاس الرِّياض غِبّ القِطار.

---

(١) في اليتيمة: ٤ — ٢٨٨: الحر تحل الشكر . . . شكدا . . . والشكد: العطاء.

(٢) في اليتيمة: من سكره. (٣) في بعض الأصول: شكر. (٤) أسبلت السماء: أمطرت. (٥) العنان: السحاب. (٦) الباع: قدر من اليدين كالبوع — بفتح الباء وضمها، وجمعه أبواع.

[من المدح]

رجع ما انقطع :

كان سببُ قولِ نصيب(١) : * فعاجُوا فأثْنوا بالذى أنتَ أهْلُهُ * أنه كان مع الفرزدق عند سليمان بن عبد الملك فقال سليمان بن عبد الملك : يافرزدق ؛ مَنْ أشعر الناس ؟ قال : أنا ياأمير المؤمنين ، قال : لماذا ؟ قال بقولى(٢) :

وركْبٍ كأنَّ الريحَ تطلبُ عندهم ... لهاتِرَةً من جَذْبِها بالعصائبِ

سرَوْا وسَرَتْ نَكْباء(٣) وهى تلفّهم ... إلى(٤) شُعَبِ الأكوارِ ذاتِ الحقائبِ

إذا آنسوا ناراً يقولون لَيْتَها ، ... وقد خَصِرَتْ(٥) أيديهم ، نارُ غالبِ

يريد أباه ، وهو غالب بن صعصعة بن ناجيــة بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع. فأعرض عنه سليمان كالمغضَب؛ لأنه إنما أراد أن يُنْشِدَ مدحاً فيه؛ ففهم نصيب مرادَه ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ قد قلتُ أبياتاً على هذا الروىّ ليست بدونها ، فقال: هاتِها ؛ فأنشأ نصيب يقول(٦) :

أقولُ لِرَكْبٍ قافلين لَقِيتهم ... قِفَا ذات أوْشَالٍ ومَوْلاك قارِبُ

فقد(٧) أخبرونى عن سليمان أننى ... لمعروفه من آل وَدَّانَ طالبُ

فعاجوا فأثْنَوْا بالذى أنتَ أهلُهُ ... ولو سكتوا أثْنَتْ عليكَ الحقائبُ

فقالوا تركْنَاهُ وفى كلِّ ليلةٍ ... يطيفُ به من طالبى العُرْفِ راكبُ

ولو كان فوقَ الناسِ حىٌّ فِعالُهُ ... كفعلكَ أو للفعلِ(٨) منكَ يقاربُ

لقُلْنَا له شِبْهٌ ولكنْ تعذَّرَتْ ... سِواكَ عن المستشفعين المطالبُ

---

(١) سبق فى صفحة ٣٣٢ . (٢) ديوانه ٨ ، المختار من شعر بشار ١٠٢ ، الأمالى : ٣ — ٤٠ . (٣) فى الديوان : سروا يخبطون الليل وهى تلفهم .

(٤) فى الديوان: على شعب الأكوار من كل جانب . (٥) فى الديوان: إذا ما رأوا . . . وفى س ، ق : وقد خصرت . (٦) المختار من شعر بشار : ١٠٢ ، الأمالى : ٣ — ٤٠ ، السمط : ٢٩١ . (٧) فى المختار : فقدوا . (٨) فى س : للفضل .

هو البدرُ والناسُ الكواكبُ حَوْلَهُ ... وهل تُشْبِهُ البدرَ المنيرَ الكواكبُ

فقال سليمانُ : أحسنتَ ، والتفتَ إلى الفرزدق فقال : كيف تسمعُ يا أبا فراس ؟
قال : هو أشعَرُ أهلِ جِلْدَتِه ، قال : وأهلِ جِلْدَتِك ؛ فخرج الفرزدق وهو يقول :

وخَيْرُ الشعرِ أكْرَمُه رجالًا ... وشَرُّ الشعرِ ما قالَ العبيدُ

قال أبو العباس محمد بن يزيد : وهذا بابٌ في المدح حسن متجاوز مُبْتَدَع لم يُسْبَق إليه.

سواد الجلد

قول نصيب : « من أهْلِ ودّان » : قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي : ذكر محمد ابن كناسة والزبيدى[1] أنّ نصيبا من أهل ودّان، وكان عبْداً لرجل من بنى كنانة هو وأهل بيته ، وزعم أبو عفّان أنه عبدٌ لعبد العزيز بن مروان ، وكان نصيبٌ شديدَ السواد ، وهو القائل :

كُسِيتُ – ولم أملك – سَوادًا وتحته ... قميصٌ من القُوهِيِّ[2] بيضٌ بَنائقُهُ
فما ضرَّ أثوابي سَوادِي وإنّني ... لكالمِسْكِ لا يَسْلُو عن المِسك ذائقُهُ

وقال سحيم عبد بنى الحسحاس[3] :

أشعارُ عَبْدِ بنى الحسحاسِ قُمْنَ لهُ ... عند[4] الفخارِ مَقامَ الأصْلِ والوَرِقِ
إن كنتُ عبدًا فنفسى حُرَّةٌ كَرَمًا ... أو أسْوَدَ اللَّوْنِ إنى أبْيَضُ الخُلُقِ

وقال أبو الطيب المتنبى لكافور الإخشيدى[5] :

إنَّما الجِلْدُ مَلْبَسٌ وابيضاضُ الخلـ ... ـق[6] خَيْرٌ من ابْيِضاضِ القَبَاءِ

وقال نصيب لبعض ملوك بنى أميـة : إن لى بنات نَفَضْتُ عليهن من سوادى . فقال : ما أحسن ما تلطّفت لهنّ ! وأمر له بصلة .

وكان أبو تمام حبيب بن أوس لما مدح أبا جعفر محمد بن عبد الملك الزيات بقصيدته التى أولها[7] :

---

(١) فى س : والزبيرى . (٢) قوهستان : كورة بين نيسابور وهراة ، ومنه ثوب قوهى لا ينسج بها . أو كل ثوب يشبهه ، وهى ثياب بيض . (٣) ديوانه : ٥٥ .
(٤) فى الديوان : يوم . (٥) ديوانه : ١ – ٣٥ . (٦) فى الديوان : النفس .
(٧) ديوانه : ٢٥٣ .

لَكَانَ علينا أَنْ نقولَ وتَفْعلا ونذكرُ بعضَ الفضلِ منك وتفضلا

وهى من أحسن شعره ، وقّع له على ظهرها :

رأيتك سَمْحَ البيع سَهْلاً وإنما يُغالَى إذا ما ضنَّ بالشىء بائعُه[1]

فأما إذا هانت بضائعُ بَيْعِهِ فيوشك أنْ تبقى عليه بضائعُه

هو الماء إن أجْمَمْته طاب وِرْدُهُ ويفسد منه أنْ تُباحَ مشارِعُه

فأجابه بقصيدة طويلة ، واحتجّ عليه واعتذر إليه فى مدحه لغيره ؛ فقال فى بعض ذلك[2] :

أمّا القَوافِى فقد حصّنْتُ غرّتَها فما يصابُ دمٌ منها ولا سَلَبُ

مَنَعْتُ إلّا مِنَ الأكفاء أيّمَها[3] وكانَ منكَ عليها العطفُ والحدَبُ

ولو عضلْتُ عن الأكفاء أيِّمَها ولم يكنْ لكَ فى إظهارها أرَبُ

كانت بنات نصيبٍ حين ضَنَّ بها على المَوالى ولم تحفِلْ بها العَرَبُ

وقد قيل إن أبا تمام أجابه بقوله :

أبا جعفر إن كنتَ أصبحتَ شاعرا أسامح فى بَيْعِى له من أبايعُه

فقد كنتَ قبلى شاعراً تاجراً بهِ تساهلُ من عادَت عليك مَنافعه

فصِرْتَ وزيراً والوزارة مَكْرَعٌ يغصُّ به بعد اللّذاذة كارعُه

وكم منْ وزيرٍ قد رأينا مسلَّطاً فعاد وقد سُدّت عليه مطالعُه

ولله قوسٌ لا تطيشُ سِهامُها ولله سيفٌ لا تفلُّ مقاطِعُه

قال أبو بكر محمد بن يحيى الصولى : ويقال إن هذه الأبيات منحولة لحبيب ، وليس مثل أبى جعفر فى جلالةِ قَدْره واصطناعه لحبيب يُعامَل بمثل هذا الجواب، ولا ينتهى جَهْلُ حبيب أن يقابل مأموله ومن يرتجى جليلَ الفائدة منه بهذه الأبيات .

---

(١) فى س : مانعه. وفى أخبار أبى تمام ١٢٠ : بائع . (٢) ديوانه : ٤٩ .

(٣) الأيم : الحرة والقرابة ، والتى لا زوج لها . وفى الديوان : ناكحها .

وقد قيل : بل قالها ، ولم ينشدها أحداً ؛ وإنما ظهرت بعد موته .

وكان ابنُ الزيات كما قال شاعراً ، ومدح الحسنَ بن سهل فى وزارته للمأمون ؛ وأعطاه عشرة آلاف درهم فقال :

لم أمتدحك رجاء المــالِ أطلبهُ ... لكن لِتُلبِسنى التحجيلَ والغُرَرَا
ما كان ذلك إلا أننى رَجُلٌ ... لا أقرب الوِرْدَ حتى أعرفَ الصَدَرا

غضب ابن الزيات على أبى تمام

قال الصولى : وكان السببُ الذى أوْجد أبا جعفر على أبى تمام حتى قال: لقد رأيتك سَهلَ البيع ... الأبيات — قولَ أبى تمام قصيدته المشهورة فى ابن أبى دُوَاد التى أولها[1] :

سَقَى عهد الحمى سيلُ العِهادِ ... ورُوِّىَ[2] حاضر منــه وبادِ
نَزَحت به رَكِيَّ الدمعِ إلا[3] ... رأيت الدمعَ مِنْ خَيْرِ العَتَاد

يقول فيها فى مدحه :

هُمُ عقد الأثافى من نِزَارٍ ... وأهلُ الهضْبِ منها والنِّجَادِ
مغرّسُ كلِّ معْضِلةٍ وخَطْبٍ ... ومنبتُ كلِّ مكرمةٍ وآدِ
إذا حدَثتْ القبائلِ ساجَلُوهم ... فإنهمُ بَنُو المجد[4] التِّـلادِ
تُفرّجِ عنهم الغمراتِ بيضٌ ... جِلادٌ تحت قَسْطَلَةٍ[5] الجِلاد
وحشو حوادث الأيام منهم ... معاقل مِطْرَدٍ وبنو طِرادِ
لهم جهلُ السباع إذا المنــايا ... تمشَّتْ فى الوغى[6] وحُلُوم عادِ
لقد أنْسَتْ مساوىَ[7] كلِّ دهرٍ ... محاسنُ أحمدَ بن أبى دُوادِ
متى تَحْلُلْ به تَحلُلْ جَنَابا ... رضيعاً للسَّوارى والغَوادِى

---

(١) ديوانه : ٧٨ ، أخبار أبى تمام : ١٥٠ . (٢) فى الديوان : سبل ... وروض .
(٣) فى الديوان : إلى . (٤) فى الديوان : بنو الدهر .
(٥) قسطلة : غبار . (٦) فى الديوان : والقنا .
(٧) فى الديوان : مساوى .

وما اشتبهت سبيلُ[1] المجدِ إلّا   هَداكَ لقِبْلَةِ المعروفِ هادِ
وما سافرتُ في الآفاقِ إلّا   ومِنْ جَدْواكَ راحلَتي وزادي
مقيمُ الظنِّ عندكَ والأماني   وإنْ قَلِقَتْ رِكابي في البلادِ

وهذه النكت التي أحْقَدت أبا جعفر ، وأعتبته على أبي تمام . وفي هذه القصيدة يقول معتذراً إليه في الذي قُرِّب به عنده من هجاء مضر[2] :

أتاني عائرُ[3] الأنباءِ تَسْري   عقاربُهُ بداهيةٍ نآدِ[4]
نَثَاخَبَراً[5] كأنَّ القلبَ منه[6]   يُجَرُّ به على شَوْكِ القَتادِ
بأنّي نِلْتُ من مُضَرٍ وخَبَّتْ   إليكَ شَكِيَّتي خَبَبَ الجوادِ
وما رَبْعُ القطيعةِ لي بِرَبْعٍ   ولا نادي الأذى مِنّي بنادِ
وأين يجوزُ[7] عن قَصْدٍ لساني   وقلبي رائحٌ برضاكَ غادِ
ومما كانتِ الحُكَماءُ قالَتْ :   لِسانُ المرءِ من خَدَمِ الفؤادِ
وقِدْماً كنتُ معسولَ القوافي[8]   ومأدومَ المعاني[9] بالسَّدادِ

وكان ابن أبي دُؤاد غالياً في التعصُّب لإياد وإلحاقها بنزار ، على مذهب نُسّاب ابن أبي دواد العَدْنانيين . قال : وكلٌّ من بالعراق من إياد دخلوا في النَّخَع[10] ، وإليهم يُنْسَبون ؛ ومن كان بالشام فلمّ على نسبهم في نزار ، وابن أبي دُؤاد يرى بالدعوة ؛ والتكثيرُ من أخباره يُخْرِجُ إلى ما أخافُهُ من تَطْويلِ التصرُّف ، في عملول التكلُّف .

وكان ابن أبي دُؤاد عالماً بضروبِ العلمِ والأدب ، متصرِّفاً في صناعة الجدال ،

(١) في الديوان : طريق . (٢) ديوانه : ٧٩ . (٣) في الديوان : عائر .
(٤) نآد : شديدة الأذى . (٥) في ق ، س : تناخبر .
(٦) في الديوان : كأن القلب أمسى . (٧) في الديوان : يجور .
(٨) في الديوان : كنت معسول المعاني . (٩) في الديوان : ومأدوم القوافي .
(١٠) النخع : قبيلة باليمن .

على مذهب أهل الاعتزال ، وكانت العداوةُ بينه وبين ابن الزيّات بيّنة ، والنفاسة فى الرياسة بينهما متمكّنة ، وقال بعض الشعراء :

أَكُلّ أبى دُواد من إيادِ   فكلُّ أبى ذؤيبٍ من هُذَيْلِ

قال   : ما تاه إلّا وضيع ، ولا فاخر إلّا سقيط ، ولا تعصّب إلّا دَخيل . وقال مدنى لرجل : ممن أنت ؟ فقال : من قريش ، والحمد لله ، قال : بأبى أنت ! التحميد ها هنا ريبة ! واسم أبى دُوَاد دُعْمِى[1] ، قال أبو اليقظان : وهم من قبيلة يقالُ لها بنو زهرة إخوة بنى جدّان ، وقد ذكره الطائى فى قوله[2] :

والغيثُ من زهْرٍ سحابة رَأْفةٍ   والرُّكْنُ من شيبانَ طَوْدُ حَديدِ

ذكر شيبان لأن خالدَ بن يزيدَ الشيبانى شفع له عنـد ابن أبى دُوَاد فيما ينساقُ الحديثُ إليه من مَوْجِدَتِهِ عليه .

قال محمود الوراق : كنتُ جالساً بطَرَفِ الجِسْرِ[3] مع أصحابٍ لى ؛ فمرّ بنا أبو تمام ، فجلس إلينا ، فقال له رجل منا : يا أبا تمام ، أىّ رجلٍ أنتَ لو لم تكن من اليمن ! قال : ما أُحِبُّ أنّى بغير الوضع الذى اختاره اللهُ لى . فمَنْ تحبُّ أن أكونَ ؟ قال : من مُضَر . قال : إنمـا شَرُفَتْ مُضَر بالنبىّ صلى الله عليه وسلم ، ولولا ذلك ما قِيسوا بملوكنا وأذوائنا ، وفينا كذا ، ومنّا كذا ـ يفخر ؛ وذكر أشياء عاب بها مُضَر . ونُمِى الخبرُ إلى ابن أبى دُوَاد وزيدَ فيه ، فقال : ما أُحِبُّ أنْ يَدْخُلَ علىّ . فقال يعتذر إليه بقصيدة أولها[4] :

سَعِدَتْ غُرْبةُ النَّوَى بِسُعَادِ   فهى طوع[5] الإتْهام والإنجادِ

يقول فيها :

بعد أن أصْلَتَ الوُشاةُ سُيُوفًا   قطّعَتْ فىَّ وهىَ غيرُ حِدادِ

---

(١) دعمى : من إياد ــ اللسان ــ دعم . (٢) ديوانه : ٨٤ . (٣) أخبار أبى تمام : ١٤٧ وفيه : بطرف الجسر جسر سر من رأى . (٤) ديوانه : ٧٥ ، وأخبار أبى تمام : ١٤٨ .
(٥) فى أخبار أبى تمام : فهى طوع .

فَنَفَى عنكَ زُخْرفَ القولِ سَمْعٌ لم يَكُنْ فرضه[1] لغيرِ السَّدادِ
ضربَ الحِلْمُ والوَقارُ عليهِ دونَ عُورِ الكلامِ بالأسْدادِ
ملأتك[2] الأحْسابُ أيَّ حياةٍ وحيا أزْمةٍ وحيَّةَ وادِ
عاتقٌ مُعْتَقٌ من الرقّ[3] إلّا من مُقاساةِ مَغْرمٍ أوْ نِجادِ
للحمالاتِ والحمائلِ فيهِ كلحوبِ الموارِدِ الأعدادِ

فما رَضِى عنه حتى تشفَّع إليه بخالد بن يزيد بن مزْيد الشيبانى ، فقال فى قصيدة[4] :

أسرَى طَرِيداً للحياءِ مِنَ التى زَعَمُوا ، وليس لقوله[5] بطَرِيدِ
كُنتَ الربيعَ ، أمامَهُ ووراءَهُ قمرُ القبائلِ خالِدُ بن يزيدِ
وغداً تَبَيَّنُ ما براءةُ ساحَتى لو قد تفضّت تهائمى ونجودى
لله درُّك أىّ[6] بابِ مُلِمَّةٍ لم يُؤْمَ فيهِ إليك بالإقليدِ
لما أظلَّتْنى غمامك أصْبَحَتْ تلك الشهودُ علىَّ وهْى شُهودى
من بعد ما ظنُّوا بأنْ سيكونُ لى يومٌ بزَعيمهم[7] كيوم عَبيدِ

يريد عبيد بن الأبرص الأسدى ، وكان النعمان بن المنذر لقيه يوم بُؤْسِه فقتله .

وكان ابنُ أبى دُوَاد كريما فصيحا جَزْلا . قال أبو العيناء : كنا عند ابن أبى دُوَاد ومعنا محمود الورّاق وجماعةٌ من أهل الأدب والعلم ؛ فجاءه رسول إيتاخ فقال : إن الحاجب أبامنصور يقرأ على القاضى السلام، ويقول : القاضى يتَعنَّى[8]، ويجىء فى الأوقات ، وقد تفاقم الأمرُ بينه وبين كاتب أمير المؤمنين ، يريد ابن الزيات ، فصاحة ابن أبى دواد

(١) فى الديوان : فرصة . (٢) فى الديوان : مليتك ، وفى س : متعتك .
(٣) فى الديوان : من الهون . (٤) ديوانه : ٨٤ ، وأخبار أبى تمام : ١٥٤ .
(٥) فى الديوان : وليس لرهبة بطريد . (٦) فى الديوان : * نفسى فداؤك أى باب ملمة * والإقليد المفتاح . (٧) فى الديوان : يوم بغيهم كيوم عبيد . (٨) يتعب .

فصار بِصَرِّنا عند قَصْدِه القاضى ، وما أحبّ أن يتمنّى إلىّ لهذا السبب ؟ إذ كنت لا أصل إلى مكافأته . فقال : أجيبوه عن رسالته ، فلم نَدْرِ ما نقول ، ونظر بعضُنا إلى بعض . فقال : أمَا عندكم جواب ! قلنا : القاضى ، أعزّه الله ، أعلمُ بجوابه منا ، فقال للرسول : اقرَأْ عليه السلام ، وقل له : ماأتيتك متكثّرا بك من قلّة ، ولامتعزّزاً بك من ذِلّة ، ولا طالبا منك رُتْبة ، ولا شاكيا إليك كُرْبة ، ولكنك رجلٌ ساعدَك زَمان ، وحرّكك سلطان ، ولا علم يُؤْلَف ، ولا أصل يُعْرَف ؛ فإنْ جئتك فبسلطانك ، وإن تركتك فلنفسك ! فعجِبْنا من جَوَابه .

[بعد تغيّر الحال]

ذم الحجاج بعد مدحه

صعد خالدُ بنُ عبد الله القسرى المنبر يومَ جمعة ، فخطب[1] وهو إذْ ذاك أميرٌ على مكة ، فذكر الحجّاج فأحْمَد طاعتَه ، وأثنى عليه خيراً ، فلما كان فى الجمعة الثانية ورَدَ عليه كتابُ سليمان بن عبد الملك يأمُرُه فيه بشَتْم الحجّاج وذِكْر عيوبه ، وإظهار البراءة منه ، وصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن إبليس كانَ مَلَكاً من الملائكة ، وكان يُظهِر من طاعة الله ما كانت الملائكة ترَى له بذلك فضلا ، وكان الله تعالى قد علم من غِشّه ما خَفِى عن الملائكة ، فلما أراد الله فضيحتَه ابتلاه بالسجود لآدَم ؛ فظهر لهم ما كان يُخْفيه عنهم فلعنوه ؛ وإن الحجاجَ كان يُظهِر من طاعة أمير المؤمنين ما كنّا نرى له بذلك فضلا ، وكان الله عزّ وجل أطلع أمير المؤمنين من غلّه وخُبْثه على ماخَفِى عنا ، فلما أراد الله فضيحتَه أجرى ذلك على يدى أمير المؤمنين ، فالعَنُوه ، لعنهُ الله . ثم نزل .

أبو تمام يعتذر من مدح الأفشين

وكان أبو تمام قد مدح الأفشين التركى ، واسمه خيذر[2] بن كاوُس ، وكان من أجلّ قوّاد المعتصم ، وأبلَى فى أمر بابك الخرمى بلاءً حمده له ؛ فلما سَخِطَ المعتصمُ عليه لِمَا نُسِبَ إليه من سوء السيرة ، وقُبْح السريرة ، وأنه يخطب درجة بابك ، ويريد التحصّن بموضع يَخْلَعُ فيه يدَه عن الطاعة ، وأظهر القاضى أحمد بن أبى دواد

---

(١) العقد الفريد ٢ : ١٥٨ ، ٣ : ١١ . (٢) فى س ، ولطائف المعارف : خيذر ، وفى ق : حيدر .

عليه أنه على غيرِ الإسلام ، قال أبو تمام معتذرا للمعتصم من تقديمه واجتبائه ، ولنفسه من مدحه وإطرائه(١) :

ما كان لولا فحشُ غَدْرةِ خيذرٍ … ليكونَ في الإسلام عامُ فِجَارِ
هذا الرسول(٢) وكان صفوةَ ربِّهِ … من خيْرِ بادٍ في الأنام وقارِ
قد خصّ من أهل النفاق عصابةً … وهمُ أشدُّ أذًى من الكفّارِ
واختار من سعدٍ لعينَ(٣) بني أبي … سرحٍ لسمر(٤) الله غيرَ خيارِ
حتى استضاء بشعلةِ السُّوَرِ التي … رفعت له سترا من الأستارِ(٥)

ثم ذكر في هـذه القصيدة أن قتل الأفشين لبابك لم يكن بصدقِ بصيرة ، ولا لصحة سَرِيرة ، فقال(٦) :

والهاشمون المستقلة ظُعْنهم … عن كربلاء بأثقلِ الأوزارِ(٧)
فشفاهم المختارُ منهُ ولم يكن … في دينهِ المختارُ بالمختارِ

أما من ذُكِر من أهل النفاق، فقد كانوا يظهرون غيرَ ما يسرون، حتى أطلع الله أهل النفاق نبيَّه عليه السلام على أخبارهم ، ونَشَر له مَطْوِيّ أسرارهم، وأما ابن أبي سَرْح فهو ابن أبي سرح
عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح بن الحسام بن الحارث بن حبيب بن خزيمة بن نصر ابن مالك [بن حسل](٨) بن عامر بن لؤيّ ، أسلم قبل الفتح ، واستكتبه النبيُّ عليه السلام، فكان يكتبُ موضِعَ « الغفورِ الرحيم » العزيزَ الحكيم ، وأشباه ذلك ؛ فأطْلَع اللهُ عليه النبيَّ عليه السلام، فهرب إلى مكة مرتدّا ؛ وأُنزل فيه(٩): «ومن قال سأُنزل مثل ما أنزل الله» . فأهدر النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح دمَه ، فهرب من

(١) ديوانه : ١٥٢ ، أخبار أبي تمام : ٩٤ .
(٢) في الديوان : هذا النبي . (٣) في ق : لقيس بني أبي سرح .
(٤) في الديوان : لوحي الله (٥) في الديوان : رفعت له سجفا من الأسرار .
(٦) ديوانه : ١٥٢ . (٧) رواية هذا البيت في الديوان :
والهاشميون استقلت عيرهم … من كربلاء بأوثق الأوتار
(٨) من ق ، وفي س : جسل . (٩) سورة الأنعام ، آية ٩٣ .

مكّة ، فاستأمن له عثمانُ رضى الله عنه ؛ فأمّنه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أخو عثمان من الرضاعة ، وأسلم فحَسُنَ إسلامُه ، وولى مصر سنة أربع وعشرين ، فأقام عليها إلى أنْ حُصِر عثمان ، ومات بقَيْسارية الشام ، ولم يدخل فى شىء من الفِتَن الحجازية فى ذلك الوقت .

المختار — وأما المختارُ الذى ذكره فهو المختار بن أبى عُبيد بن مسعود بن عمرو بن عمير بن عوف ابن عَقدة بن عروة بن عَوف بن قَسِىّ[1] وهو ثقيف ؛ وكانت لأبيه فى الإسلام آثارٌ جيلة ، وأختُ المختار صفية بنت أبى عبيد زوجُ ابن عمر ، والمختار هو كذّاب ثقيف الذى جاء فيه الحديث ، وكان يَزْعُم أنه يُوحَى إليه فى قَتَلَةِ الحسين ، فقتلهم بكل موضع ؛ وقتل عبيد الله بن زياد ، وله أسْجاع يَصْنَعُها ، وألفاظٌ يبتدعها ، ويزعم أنها تنزل عليه ، وتُوحَى إليه . وقيل للأحنف بن قيس : إنّ المختارَ يزعم أنه يُوحَى إليه ! فقال: صدق، وتلا[2]: « وإن الشياطين ليُوحُونَ إلى أوليائهم ». وأخبارُه كثيرة ليس هذا موضعها .

بعد هزيمة أمية بن خالد — لما هُزِم أمية بن خالد بنُ أسيد لم يَدْرِ الناس كيف يقولون له ، فدخل عبدُ الله ابن الأهتم عليه ، فقال : الحمد لله الذى نظر لنا أيُّها الأميرعليك، ولم ينظرْ لك علينا؛ فقد تعرّضت للشهادة بجهدك ، إلّا أن الله علم حاجةَ أهلِ الإسلام إليك فأبقاكَ لهم بخذلان مَنْ معك . فصدر الناسُ عن كلامه .

ويتعلق بهذه المقامة فصلٌ فى غرائب التكاتب

إلى عامل عزل — كتب حمدون بن مَهْرَان[3] إلى عاملٍ عُزِل عن عمله: بلغنى أعزّك اللهُ انصرافك عن عملك ، ورجوعَك إلى منزلك ؛ فسُرِرْتُ بذلك ، ولم أستَفْظِعه وأجْزَع له ؛ لعلمى بأنّ قدرَك أجلُّ وأعلى من أنْ يرفعَك عملٌ تتولّاه ، أو يضعَك عزْلٌ عنه؛ ووالله لولم تختَرْ الانصرافَ وتُرِد الاعتزالَ لكان فى لُطفِ تدبيرك ، وثُقوبِ رَوِيَّتك ،

---

(١) فى القاموس : قسى بن منبه أخو ثقيف . (٢) سورة الأنعام، آية ١٢١ (٣) فى ق : نهراق.

وحُسْنِ تأتّيك ، ما تُزيل به السببَ الداعى إلى عَزْلك ، والباعثَ على صَرْفك ؛ ونحن إلى أن نهنئك بهـــذه الحال أوْلى بنا من أن نعزّيك ؛ إذ أردْتَ الانصرافَ فأُوتيته ، وأحببْتَ الاعتزالَ فأُعطِيته ، فبارك اللهُ لكَ فى مُنْقَلَبك ، وهنّأكَ النعمَ بدَوامها ، ورزقك الشُّكْرَ الموجبَ لها الزائدَ فيها .

لنصرانى أسلم

وكتب ابن مكرم إلى نصرانى أسْلَمَ : أمّا بعد فالحمدُ لله الذى وفّقك لشكره ، ودلّك وعرّفك هدايتَه ، وطهّر من الارتيابِ قلبَك ، وما زالت مَخَايِلُك ممثِّلةً لنا حقيقةَ[1] ما وهب اللهُ فيك ، حتى كأنَّك لم تَزَلْ بالإسلام موسوماً ، وإن كنت على غيره مُقيماً ، وكنا مؤمّلين لما صِرْتَ إليه ، مشفقين ممـا كنتَ عليه ، حتى إذا كاد إشفاقُنا أن يَسْتَعْلِيَ رجاءَنا أتت السعادةُ بما لم تَزَل الأنفسُ تعدّ منكَ ؛ فأسأل اللهَ الذى أضاء لك سبيلَ رُشْدِك أن يوفّقك لصالح العمل ، وأنْ يُؤْتِيك فى الدنيـــا حسنةً وفى الآخرة حسنةً ، ويَقِيكَ عذابَ النار .

حسن التأتى

قال بعضُ الكتاب : من الحقّ ما يُسْتَحسن تَرْكُه ، ويستهجَنُ عملُه ، وقد يقع من ذلك فيما يُحِلّه الشرع ، ويكرهه الأُدباء[2] ؛ وكثيرٌ ممن يغلبُ على طبعه هذا المعنى يراه سموَّ نَفْسٍ ، وعلوَّ همـــة ، حتى رأينا من لا يحضر تزويج كريمته ، ويولّى أمرَها غيرَ نفسه ، ورأينا من يُجاوِز ذلك إلى ألّا ينكح مستنكِحاً ؛ وزاد به الغلوُّ إلى تَرْكِ ما ذِكْره أوْلَى ؛ وكنا عرفْنَا حالَ إنسان تزوّجَتْ أمه ؛ فعظُمَ لذلك همّه ، وانفرد عن أودّائه ، وتوارَى عن أصفيائه ؛ حياءً من لقائهم ، وكُرْهاً لتهنئتهم له أو عَزائهم ؛ واضطرّته الوَحْشَة إلى قَصْدِ من ظنّ به منهم المُشاكَلَة فى تحـامى خطابه فيما اجتنب لأجله خُلّانَه ، وفارق بسببه إخوانَه ، وتخيّل ذلك المقصودُ أنه إنما لجأ إليه ليسلّيه ؛ فأفاض معه فيما قَدَّر أنه قصد له من المعنى الذى جمله وحيداً خوف المفاوضة .

ثم مضت الأيامُ واختلفت الحال ، ورجع إلى العِشْرَة وأبناء المودّة ؛ فكان عنده

(١) فى س : لناجيك .   (٢) فى س : الإباء .

من لم يخاطِبْه أحْظَى ، وفى نفسه أوْقَى ، وعلى قلبه أخفّ ، وفى نفسه أشفّ ، ونَقَم على ذلك الصديق وعَتب ؛ إذْ لِـكلٍّ من الناس ، إلّا من طاب مَحْتِده وطالَ سؤدده ، حالٌ من الإلف والرغبة تُحسّن المساوى ، ثم حالٌ من المَلَل والزّهادة تقبّحُ المحاسن ؛ واعتذر التكلّفُ من التسلية بعالم يلزمه ، ولم يُرِدْه صفيُّه ، فإنه قمل ما أوجبته الأخوّة ، وحقوق الخلطة ، وأسبابُ العِشرة ، وانبساط المفاوضة ؛ ودبّتْ عقاربُ الظنون والوشاية ، إلى أن خرجا بالمُلاحاةِ إلى المُعاداة ؛ فلما وقع بعضُ الناس بينهما من معاوَدَة الحسنى ، ومراجعة الأوْلى ؛ جاهرَ هذا المازِقُ بقَرْعِ سِنّ الأسَفِ على تخْييل النهى والوقار من الممقوت ، وظاهر الممقوت بتَقْريع المـاقت ، لتزويج أمّه الذى تجشّم من كلامِه فيـه فضلًا ، وتكلّف من خطابه عليه ما من حَسْرة[1] خَلًا ؛ فأفضى الأمرُ بينهما إلى الأوْتار ، وطلب الثّار . فإن اضطرّ إلى القول فى هذا المعنى أحدٌ بأمر قاهرٍ من السلطان ، أو حوادثِ الأزمان ، أو تطارُحِ الإخوان ، فليقل وليكتُبْ ما مثّلنا إن لم يجِدْ منه بدًّا : أنت بفضْلِ الله عليك وإحسانِ تبصيره إياك من أهْل الدّين ، وخلوصِ اليقين ، فكما لا تتّبع الشهوة فى محظور تُبيحه ، فكذا لا تُتّبع الأنَفَةَ فى مُباحٍ تحضره ؛ وقد اتّصل بنا ما اختاره اللهُ والقضاء لذات الحقّ عليك ، المنسوبةِ ، بعد نسبك إليها ، إليك ، ممـا كرهه إباؤك الدُّنيوى لك ولها ، [ورَضِيَه الحلالُ الدينى له ولها][2] ، فنحن نعزّيك عن فائت محبوبك ، ونهنّئك فى الخِيرَة فى اختيارِ القَدَرِ لك ، ونسألُ الله أن يجعلَها أبداً معك فيما رضيت وكرهْتَ ، وأبَيْتَ وأتَيْتَ .

لمن تزوجت أمه

فهذا ونحوه أصْوَبُ وأسلم ، إن اضطررت إليه ، وتركُهُ أحْسن وأحزم ، إن ملكت رأيك فيه ؛ والتلطفُ للكتابة عما يُستَهْجَن ولا يستحسن التواجهُ به من أحْسنِ الأشياء وأسدّها .

---

(١) فى س ، ق : ما حسرة . (٢) ساقط من س .

لابن العميد في هذا الباب

وكتب أبو الفضل بن العميد فى بابه : الحمدُ لله الذى كشف عنا سِتْرَ الحَيْرَة ، وهدانا لسَتْرِ العَوْرَة ، وجَدَعَ بما شرع من الحلال أنفَ الغَيْرَة ، ومَنَع من عَضْلِ الأمهات ، كما منَع من وَأْدِ البنات ، استنزالًا للنفوس الأبيّة ، عن حمِيَّةِ الجاهلية ، ثم عرّض للجزيل من الأجر من استسلم لواقع قضائه ؛ وعوّض جزيلَ الثواب مَنْ صبر على نازلِ بلائِه ؛ وهنَّأك الله ، الذى شرح للتقوى صَدْرك ، ووسَّع فى البَلْوَى صبْرَك ، ما ألهمك من التسليم بمشيئته ، والرضا بقضيّته ، ووفّقك له من قضاء الواجب فى أحد أبويك ، ومن عظم حقّه عليك ؛ وجعل الله تعالى جدّه ما تجرّعْتَه من أنف ، وكَظَمْتَه من أسَف ، ممدوداً يعظّمُ اللهُ عليه أجرك ، ويُجْزِلُ به ذُخْرك ؛ وقرَن بالخاضر من امتعاضك لقمْلها المنتقلَ من ارْتماضك[1] لدَفْنها ، وعوّضك من أسِرَّة فرشها أعوادَ نَعْشِها ؛ وجعل ما يُنْعِمُ به عليك من بعدها من نعمة معرًّى من نِقْمة ، وما يوليك بعد قَبْضِها من منحة مبرأ من مِحْنَة .

ألفاظ لأهل العصر فى التهانى بالبنات

هنأ الله سيدى وِرْدَ الكريمة عليه ، وثمّر بها أعداد النّسل الطيِّب لديه ؛ وجعَلَها مُؤْذِنَةً بإخوة بَرَرَة ، يعمرون أنْدِية الفضْل ، ويَغْبُرون[2] بقيّةَ الدَّهْرِ . اتصل بى خَبَرَ المولودة ، كرّم الله غرُسَها وأنْبَتَها نباتاً حسناً ، وما كان من تغيُّرك بعد اتّضاحِ الخبَر ، وإنكارك ما اختاره اللهُ لك فى سابقِ القدَر ، وقد علمت أنهنّ أقربُ من القلوب ، وأنّ الله تعالى بدأ بهنّ فى الترتيب ، فقال جل من قائل[3] : ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إناثاً وَيَهَبُ لمن يشاء الذكور ﴾ . وما سمّاه هبة فهو بالشكر أوْلَى ، وبحُسْن التقبُّل أحْرَى . أهلا وسهلًا بعقيلة النساء ، وأمّ الأبناء ، وجالبة الأصهار ، وأولاد الأطهار ، والمبشرة بإخْوَة يتناسقون ، ونُجَباء يتلاحقون .

(١) ارتمض من كذا : اشتد عليه وأقلقه ، وارتمض لفلان : حدب عليه .

(٢) غبر : مكث وذهب ، ضد .

(٣) سورة الشورى ، آية ٤٩ .

فلَوْ[1] كانَ النِّساءُ كمِثْلِ هَذِي[2] ... لَفُضِّلَتِ النِّساءُ على الرِّجالِ

فما التَّأنِيثُ لاسْمِ الشَّمْسِ عَيْبٌ ... ولَا التَّذْكِيرُ فَخْرٌ لِلهِلَالِ

والله يعرفك البركةَ فى مَقْدَمِها، والسعادةَ فى موقعها، فادَّرع اغتباطا، واستأنِف نشاطا . الدنيا مؤنَّثة ، والرجال يخدمونها . والنارُ مؤنثة ، والذكور يَعْبُدونها . والأرض مؤنثة ، ومنها خُلِقت البرية ، وفيها كثرت الذرِّية . والسماء مؤنثة ، وقد حُلِّيت بالكواكب، وزُيِّنَت بالنجوم الثواقب. والنفسُ مؤنَّثة، وهى قِوام الأبدان، وملاك الحيوان . والحياةُ مؤنّثة ، ولولاها لم تتصرَّف الأجسامُ ، ولا عُرِفَ الأنام . والجنّة مؤنّثة ، وبها وُعِدَ المتقون ، وفيها يَنْعم المرسلون ؛ فهنأك الله ما أُوليت ، وأَوْزَعك شُكْرَ ما أعطيت ، وأطال الله بقاءك ما عُرِفَ النَّسْل والوَلَد ، وما بقى العَصْرُ والأبد، إنه فعال لما يشاء .

[مديح النساء]

ضيق نطاقه والتصرف فى النساء ضَيِّقُ النطاق، شديدُ الخِنَاق، وأكثرُ ما يُمْدح به الرجال ذمٌّ لهن ، ووصْمٌ عليهن ، قال ابن الرومى[3]:

ما لِلْحِسَان مسيئات بِنَا ، ولَنا ... إلى المسيئاتِ طولَ الدَّهْرِ تَحْنَانُ

فإن يَبُحْنَ[4] بعهدٍ فَلْنَ معذرةً ... إنّا نُسينا وفى النسوان نِسْيَانُ

لانُلْزَم الذِّكْرَ ، إنّا لم نُسَمَّ به ... ولا مُنِحْنَاه بل للذِّكْر ذُكْرَانُ

فَضْلُ الرجالِ علينا أنَّ شيمتَهم ... جودٌ وبأسٌ وأحلامٌ وأذهان

وأنّ منهم وفاء لا نقومُ لهُ ... وهل يكون مع النّقصان رُجْحَان

وقال أبو الطيب المتنبى[5] :

بنَفْسى الخيالُ الزّائرى بعدَ هَجْعَةٍ ... وقَوْلَتُه لِى بَعْدَنا الغُمْضَ تَطْعَمُ

---

(١) ديوان المتنبى : ٣ — ١٨ . (٢) فى الديوان : كُنّ فقدنا .

(٣) ديوانه : ٢٩ . (٤) فى الديوان ، س : تبعن . (٥) ديوانه : ٣ — ٨٣ .

سَلَامٌ فلولا البُخْلُ والخَوْفُ عِنْدَهُ ‏ ‏ ‏ ‏ أَقَلْنَا أبو حَفْصٍ عَلَيْنَا المُسَلِّمُ .

ألا ترى أنّ الجود ، والوفاء بالعهود ، والشجاعة والفطن[1] ، وما جرى فى هذا السَّنَنِ من فضائل الرجال ، لو مُدِح النساء به لكان نَقْصًا عليهن ، وذمًّا لهنّ ؟

ولمدح النساء أبواب تفرّقت فى الكتاب : أنشد رجلٌ زبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر المنصور : من أمثلة الخطأ فى مدحهن

أزُبَيْدَةُ ابنَةَ جَعْفرٍ ‏ ‏ ‏ ‏ طُوبَى لزائرِك المُثَابِ

تُعْطِينَ من رِجْلَيك ما ‏ ‏ ‏ ‏ تُعْطِى الأكُفُّ من الرِّغَابِ

فوثب إليه الخَدَمُ يضربونه ، فمنعتهم من ذلك ، وقالت : أراد خيراً وأخطأ ، وهو أحبُّ إلينا ممن أراد شرًّا فأصاب ، سمع قولهم : شِمالك أندى من يمين غيرك ؛ فظن أنه إذا قال هكذا كان أبلغ ، أعطُوه ما أمّل ، وعرّفوه ما جهل .

وقال كثير[2] :

ولما قضَيْنا من مِنًى كلَّ حاجةٍ ‏ ‏ ‏ ‏ ومَسَّحَ بالأركانِ مَنْ هو ماسِحُ

وشدّت على حُدْبِ المَطَايا رِحالُنا ‏ ‏ ‏ ‏ ولا يعلم الغادى الذى هو رائحُ

أخَذْنَا بأطْرَافِ الأحَادِيثِ بيننا ‏ ‏ ‏ ‏ وسَالَتْ بأعْنَاقِ المَطِىِّ الأبَاطِحُ

نَقَعْنَا قلوباً بالأحاديثِ واشْتَفَتْ ‏ ‏ ‏ ‏ بذاك صدُورٌ مُنْضجَاتٌ قَرَائحُ

ولم نَخْشَ رَيْبَ الدَّهْرِ فى كلِّ حالةٍ ‏ ‏ ‏ ‏ ولا رَاعَنا مِنه سَنِيحٌ وبَارِحُ

وقال :

تفرّق أُلّافُ الحجيجِ على مِنًى ‏ ‏ ‏ ‏ وشتَّتَهم شَحْطُ النوى مشى أربعِ

فريقان منهم سَالِكٌ بطن نَخْلَةٍ ‏ ‏ ‏ ‏ وآخرُ منهم جازع ظَهْرَ تَضْرُعِ[3]

---

(١) الفطنة والحذق . ‏ ‏ ‏ (٢) ذيل اللآلى : ٧٧ .

(٣) فى كل الأصول : تصرع ، بالصاد ، وما أثبتناه عن معجم ما استعجم : ٣١٣ ، وفيه : حزم تضرع .

فلم أرَ داراً مثلها دَار غِبْطَةٍ ولَهْوٍ إذا التفَّ الحجيجُ بمجمع
أقلَّ مقيا رَاضياً بمـكانهِ وأكثرَ جارًا ظاعناً لم يودع
فأصبح لا تلق[1] خباء عَهِدْتهُ بمَضْربه أوْتادهُ لم تُنزّع[2]
فشاقُوك لما وجّهوا كلَّ وجهةٍ فبانُوا وخلّوا عن مَنازل بَلْقع

خطأ كثير في ذلك

ودخل كثيِّر على عزّة يوماً ، فقالت : ما ينبغى أن تأْذَن لكَ فى الجلوس ، فقال: ولم ذلك؟ قالت: لأنى رأيت الأحوص أَلْيَنَ جانبا عند الغوانى منك فى شعره، وأضرعَ خدًّا للنساء ، وأنه الذى يقول :

يأيها اللّائمى فيها لِأَصْرِمها[3] أكْثَرْتَ لو كان يُغْنِى عنك إكثار
أكْثِرْ فلسْتَ مُطَاعاً إذ وشيتَ بها لا القَلْبُ سَالٍ ولا فى حُبّها عارُ

ويعجبنى قولُه[4] :

أدُورُ ولَوْلَا أنْ أرَى أمَّ جَعْفَرٍ بأبْيَاتِكم ما دُرْتُ حَيْثُ أدُورُ
وما كنتُ زوّارًا ولكنَّ ذا الهوَى إذَا لم يُزَرْ لابدَّ أنْ سَيَزُورُ
لقـد منعَتْ معروفَها أمُّ جعفرٍ وإنى إلى معروفِها لفَقِـيرُ

ويعجبنى قوله :

كم من دَنِيٍّ لها قد كُنتُ أتْبَعهُ ولو صحَا القَلْبُ عنها كان لى تَبَعَا
لا أستطيعُ نُزُوعا عن مَحَبَّتِها أو يصنع الحبُّ بى فوق الذى صَنَعَا
أدْعُو إلى هَجْرِها قلبي فيَتْبَعنى حتى إذا قلتُ هذا صادقٌ نَزَعَا
وزادنى رغبةً فى الحبِّ أن منَعتْ ، أشْهَى إلى المرء من دُنياه ما مُنِعا

وقوله[5] :

إذا أنت لم تَعْشَق ولم تَدْرِ ما الهوى فكُنْ حجَرًا من يابِس الصَّخْرِ جَلْمَدَا
وما العيشُ إلا ما تَلَذُّ وتَشْتَهِي وإن لام فيه ذو الشَّنَانِ وفَنَّدَا

---

(١) فى س : لا يلق . (٢) فى س ، ق : لم يبرح .
(٣) فى س : لأصرفها . (٤) الأغانى ٩ — ٦٥ . (٥) الأمالى : ١ — ٣٣ ، اللآلى ١٤٣ .

وإنى لأهواها وأهوى لقاءها   كما يشتهى الصادى الشراب المبرّدا
علاقة حب لجّ فى سنن الصبا   فأبلى وما يزداد إلا تجددا

هذان البيتان ألحقهما الثقفي وغيره بشعر الأحوص . وأنشدها أبو بكر بن دُرَيد لأعرابى(1) ، فقال كثير : قد والله أجاد فما استقبحت من قولى ؟ قال : قولك(2) :

وكنت إذا ما جئت أجللن مجلسى   وأظهرن منى هيبة لاتجهما(3)
يحاذرن منى غيرة قد عرفنها   قديماً فلا يضحكن إلا تبسما
تراهن إلا أن يخالسن نظرة   بمؤخر عين أو يقلبن معصما
كواظم لاينطقن إلا محورة(4)   رجيمة قول بعد أن يتفهما
وكنّ إذا ماقلن شيئاً يسرّه   أسرّ الرضا فى نفسه وتحرّما(5)

وقولك(6) :

وددت وبيت الله أنك بكرة   هجان وأنى مصعب ثم نهرب
كلانا به عرّ(7) فمن يرنا يقل   على حسنها جرباء تعدى وأجرب
نكون لذى مال كثير مغفّل   فلا هو يرعانا ولا نحن نطلب
إذا ما وردنا منهلا صاح أهله   علينا فما ننفك نؤذى ونضرب

ويحك ! لقد أردت بى الشقاء ، أفما وجدت أمنية أوطأ من هذه ؟ فخرج خجلا .

وقد تمنى بمثل هذه الأمنية الفرزدق .

وأغرب من هذا قول أبى صخر الهذلى(8) :

---

(1) ارجع إلى اللآلى ٣ : ١٤ فى نسب هذه الأبيات . (2) الشعراء : ٤٩٤ .
(3) فى س ، ق : لاتحشما . (4) المحورة : الجواب . (5) فى الشعراء : وتجرما : أى ادعى عليه الجرم وإن لم يجرم . (6) الموشح ١٥٥ . (7) جرب .
(8) المختار من شعر بشار ٢٠٤ .

تمنّيتُ من حُبّي عُلَيّة أنّنا ... على رَمَثٍ في البحر ليس لنا وَفْرُ
على دائمٍ لا يعبر الفلكُ مَوْجَهُ ... ومِنْ دوننا الأهوالُ واللُّجَجُ الخُضْرُ
فنقضيَ همَّ النفسِ في غير رِقْبةٍ ... ويُغرِقَ مَنْ نَخْشَى نَميمتَه البَحْرُ

* * *

الأماني والآمال

وقيل: الأمل رفيق مُؤْنِس؛ إن لم يُبلّغك فقد ألهاكَ.

وقال مسلم بن الوليد[1]:

وأكثرُ آمالِ الليالي إساءةٌ ... وأكثرُ ما تَلْقَى الأمانِيَ كَوَاذِبَا

وقال آخر:

مُنًى إنْ تَكُنْ حقا تكن أحْسَنَ المُنَى ... وإلّا فقد عِشْنَا بها زمنًا رَغَدَا
أمانيَّ من لَيْلَى حِسانٍ كأنّما ... سقتني بها لَيْلَى على ظَمَإٍ بَرْدا

وقال آخر:

رضِيت عن الدنيا المُنَى غير حبّها ... فلا أسأل الدنيا ولا أستزيدُها

وقيل لأعرابي: ما أمتع لذّات الدنيا؟ فقال: ممازحةُ الحب، ومحادثةُ الصديق، وأمانيّ تقطّع بها أيامك، وأنشد:

علّليني بموْعدٍ ... وامطلى ما حييت بِهْ
ودَعيني أفوزُ منْ ... كِ بنَجْوَى تطلُّبه
فعسى يعثر الزّما ... نُ بحظّي فيَنْتَبِه

[كُثيِّر وعزّة]

وكان كُثيِّر بن عبد الرحمن بن أبي جُمْعة الخزاعي[2] — ويعرف بعزّة، على جِدّةِ خاطره وجَوْدَةِ شعره — أحْمقَ الناس.

---

(١) اللآلئ — ذيل ٤٨. (٢) ارجع إلى ما كتب في صفحتي ٣، ٤ من الجزء التاسع من الأغاني عن نسبه.

دخل عليه(١) نفرٌ من قريش وهو عليل يهزءون به ، قال بعضهم : فقلت له : كيف تجدُك ؟ قال : بخير ، هل سمعتُم الناسَ يقولون شيئاً ؟ فقلت : نعم ، سمعتُهم يقولون : إنك الدجال . فقال : والله لئن قلت ذلك إني لأجدُ في عيني اليمين ضَعْفا منذ أيام. وكان رافضياً يدين بالرَّجْعة ، ويقول بإمامة محمد ابن الحنفية، والروافض يزعمون أنه دخل في شِعْب باليمن في أربعين من أصحابه ، ولا بدَّ من ظهوره ، وفي ذلك يقول(٢) :

أَلاَ إِنَّ الأَئمةَ(٣) مِنْ قُرَيْشٍ ... وُلاَةُ الحَقِّ أَرْبَعَــةٌ سَوَاءُ
عَلِيٌّ والثَّلاَثَةُ مِنْ بَنِيهِ ... هُمُ الأَسْبَاطُ لَيْسَ بِهِمْ خَفَاءُ
فَسِبْطٌ سِبْطُ إِيمَانٍ وبِرٍّ ... وَسِبْطٌ غَيَّبَتْه كَرْبَلاَءُ
وَسِبْطٌ لاَ يَذُوقُ المَوْتَ حَتَّى(٤) ... يَقُودَ الخَيْلَ يَقْدُمُهَا اللِّوَاءُ
تَغَيَّبَ لاَ يُرَى عنهم زماناً ... بِرَضْوَى عِنْدَهُ عَسَلٌ ومَاءُ

وكان خلفاء بني أمية يعلمون ذلك منه ، ويَلْبَسونه(٥) عليه .

دخل يوما(٦) على عبد الملك بن مروان فقال : نشدتك بحقِّ علي بن أبي طالب ، هل رأيت أَعْشَق منك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، لو سألتني بحقك لأخبرتُك، نعم ، بينا أنا أسيرُ في بعض الفَلَوات إذا أنا برجل قد نَصَب حبائله، فقلت له : ما أجلَسك ها هنا ؟ قال : أهلكني وأهلي الجوع، فنصبت حَبَائلي لأصيبَ لهم ولنفسي ما يكفينا سحابة يَوْمِنا . قلت : أرأيت إن أقمت معك فأصَبْنا صيدا ، أتجعَلُ لي منه جزءا ؟ قال : نعم ، فبينا نحن كذلك إذْ وقعت ظبية ، فخرجْنا مُبْتدِرين ، فأسرع إليها فحلّها وأطلقها ؛ فقلت : ما حملك على هذا ، قال : دخلتني لها رِقَّةٌ لشبهها بليلَى ، وأنشأ يقول :

---

(١) الأغاني ٩ — ٣٠ . (٢) الأغاني ٩ — ١٤ ، الشعراء ٤٩٨ .
(٣) في الأصل : اللائمة . (٤) في الأغاني : لا تراه العين حتى .
(٥) ليس قوما : تحل بهم زمانا . (٦) الشعر والشعراء : ٤٨٩ ، ذيل الأمالي : ٦٣ .

أيا شِبه لَيْلَى لا تُرَاعِى[1] فإنّنى ... لكِ اليوم من وَحْشِيَّةٍ لَصَدِيقُ
أقول وقد أطلقتُها من وِثَاقِها[2] ... لأَنْتَ – لليلى – ما حَيِيت طليقُ

وروى الكلبي وابن دَأْب أنه لما حلّها قال[3] :

اذهبي في كِلاَءَةِ[4] الرَّحْمَنِ ... أَنْتِ مِنى في ذِمَّةٍ وأَمَانِ
لا تَخافِى بأنْ تُهاجِى بسوء ... ما تَغَنَّى الحمَامُ في الأغصانِ
ترهبيني والجيدُ منكِ لِلَيْلَى ... والحشَا والبُغَامُ[5] والعينانِ

وقال قيس بن الملوّح :

راحوا يَصِيدون الظِّباء وإنّنى ... لأرى تَصَيُّدَها علىَّ حَرَاما
أَشْبَهْنَ منكِ محاجراً وسَوَالِفاً[6] ... فأرى علىَّ لهـا بذاك ذِمَاما
أعْزِزْ علىَّ بأنْ أرُوع شبيهها ... أو أنْ يَذُقْنَ على يدَىَّ حِمَاما

ومن جيد شعر كُثَيِّر[7] :

وكانت لِقَطْعِ الحَبْلِ بيني وبينها ... كناذِرَةٍ نَذْراً فأَوْفَتْ وحَلَّتِ
فقلتُ لهـا : يا عَزُّ كلُّ مُصيبةٍ ... إذا وُطِّنَتْ يوْماً لها النَّفسُ ذَلَّتِ
ولم يَلْقَ إنسانٌ من الحبِّ مَيْعَةً ... تعمُّ ولا غَمَّاء إلّا تَجَلَّتِ
أبَاحَتْ حِمًى لم يَرْعَهُ الناسُ قبلها ... وحَلَّتْ تِلاَعاً لم تكن قَبْلُ حُلَّتِ
هنيئاً مريئاً غَيْرَ دَاءٍ مُخَامِرٍ ... لعزَّةَ من أعْراضِنا ما استحلَّتِ
أسِيئى بِنَا أوْ أحْسِنى لا ملومة ... لَدَيْنا ولا مَقْلِيَّةً إنْ تَقَلَّتِ
وواللهِ ما قاربت إلا تباعدتْ ... بِهَجْرٍ ولا استكثرت إلّا أقلت

---

(١) لا تراعى : لا تفزعى . (٢) الوثاق بفتح الواو وكسرها : ما يشد به .
(٣) الشعر والشعراء : ٤٩٠ . (٤) الكلاءة بالكسر – مصدر كلأه : حرسه .
(٥) بغمت الظبية : صاحت إلى ولدها بأرخم مايكون من صوتها .
(٦) السالفة : ناحية مقدم العنق من لدن معلق القرط إلى الترقوة .
(٧) الأغانى : ٩ – ٢٩٢ ، المختار من شعر بشار : ١٧٠ ، والأمالى : ٢ – ١٠٣ .

وما مرَّ من يومٍ علىَّ كيومها ... وإن عظُمت أيام أخرى وجَلَّتِ
فياعجبا للقلبِ كيف اعترافُهُ ... وللنفس لما وُطِّنت كيف ذَلَّتِ
وإنى وتَهيامى بعزَّة بعد ما ... تخلَّيتُ مما بيننا وتخلَّتِ
لكالمرتجى ظلَّ الغمامة كلَّما ... تبوَّأ منها للمَقيلِ اضمحلَّتِ

وكان كثير قصيرا دميما ، ولذلك قال :

فإنْ أكُ معروقَ العظامِ فإننى ... إذا ما وَزنْتَ القومَ بالقومِ وَازِنُ

ودخل كثير[1] على عبد الملك بن مروان فى أول خلافته فقال : أنْتَ كثيِّر ؟ فقال : نعم ، فاقتحمه ، وقال : تَسْمَع بالمُعَيْدِىّ لا أنْ تَرَاه ! فقال : ياأميرَ المؤمنين ، كلٌّ إنسان عنـد محله رَحْبُ الفِناء ، شامِخُ البناء ، عالِى السَّناء ، وأنشد يقول[2] :

ترى الرجل النحيفَ فتزدريه ... وفى أثوابه أسَدٌ هَصُورُ
ويُعجبُك الطَّرِيرُ إذا تراهُ ... فيُخلِف ظنَّك الرجلُ الطرير[3]
بُغَاثُ الطير أطولها رقابًا ... ولم تَطُلِ البُزاة ولا الصقورُ
خَشَاشُ الطيرِ أكثرُها فِراخًا ... وأمُّ الباز مِقْلاتٌ[4] نَزُورُ
ضِعافُ الأُسْدِ أكثرُها زئيرا ... وأصْرَمُها اللَّوَاتى لا تَزِيرُ
وقد عَظُمَ البعيرُ بغيرِ لُبٍّ ... فلم يستغْنِ بالعِظَم البعير
يُنوَّخ ثم يُضْرَبُ بالهراوَى ... فلا عُرْفٌ لديه ولا نَكيرُ
يُقَوِّدُه الصبىُّ بكلِّ أرْضٍ ... ويَصْرَعُه على[5] الجَنْبِ الصغيرُ
فما عِظَمُ الرجال لهم بِزَيْنٍ ... ولكن زَيْنُهم حَسَبٌ وخِير[6]

---

(١) الأمالى: ٦٤، واللآلى : ١٩٠ . (٢) الأمالى : ١ ـ ٤٧ ، المختار من شعر بشار : ٢٠٩ ، الحماسة ٣ ـ ٢٥٤ ، اللسان ـ مادة طرر ، مع اختلاف فى نسبة الأبيات . (٣) الطرير : ذو المنظر والرواء . (٤) مقلات : لا يكثر فراخها . (٥) فى الأمالى : ويحجره على الترب .
(٦) الخير : الكرم والشرف والأصل . وفى الأمالى : كرم وخير .

فقال : قاتله الله : ما أطولَ لسانَه ، وأمدّ عِنانه ، وأوْسع جَنانه ؟ إنى لأحسبه كما وصف نفسه .

* * *

استطراد في الطول والقصر

وأنشد أحمد بن عبيد الله لشاعر قديم(١) :

وعاذلةٍ هبّتْ بليلٍ تلومُنى ... ولم يغتمرنى قَبلَ ذاك عَذُولُ
تقول اتّئد لا يَدْعُك الناس مُمْلِقاً ... وتُزْرِى بمَنْ يابْنَ الكرام تَعُولُ
فقلت : أبَتْ نفسٌ علىّ كريمةٌ ... وطارقُ ليل عند(٢) ذاك يَقُولُ
ألم تعلمى يا عَمْرَكِ الله أننى ... كريمٌ على حين الكرامُ قليلُ
وأنّىَ لا أخزى إذا قيل مُمْلِقٌ ... سَخِىٌّ وأخْزَى أنْ يُقالَ بخيلُ
فلا تَتْبَعِى النفسَ الغوِيّةَ وانظُرِى ... إلى عُنْصُر الأحسابِ كيف يَئُولُ
ولا تذهَبَنْ عيناكِ في كل شَرْمح(٣) ... له قَصَبٌ جُوفُ العظامِ أسِيلُ
عسى أن تمنّى عِرْسُه أنّنى لها ... به حين يشتدُّ الزمانُ بديلُ
إذا كُنتُ في القوم الطِّوال فطُلْتُهم ... بعارِفةٍ حتى يُقالَ طويلُ
ولا خيرَ في حُسْنِ الجسوم وطولِها ... إذا لم تَزِنْ حُسْنَ الجسومِ عقولُ(٤)
فكائِنْ رأينا من فروعٍ طويلةٍ ... تموتُ إذا لم تُحْيِهِنّ أصولُ
فإلّا يكُنْ جسمى طويلًا فإننى ... له بالفِعَالِ الصالحاتِ وَصولُ
ولم أرَ كالمعروفِ أمّا مَذاقُه ... فحُلْوٌ وأمّا وَجْهُهُ فجميلُ

وقال ابن الرومى :

ونَصيف(٥) من الرجال نحيفٍ ... راجح الوَزْنِ عند وَزْنِ الرجالِ

---

(١) الأمالى : ١ — ٣٨ ، اللآلى : ١٥٩ ، وفى الأمالى أحمد بن عبيد .

(٢) فى الأمالى : غير ذاك . (٣) الشرمح : القوى والطويل .

(٤) فى هامش س : هذا الشعر للفزارى ومثله قول أبى الطيب المتنبى :

وما الحسن فى وجه الفتى شرفا له ... إذا لم يكن فى فعله والخلائق

(٥) النصيف : النصف ، وفى س ، ق : وقصيف ، وهو ما انقصف نصفين .

فى أُناسٍ أُوتوا حُلومَ العَصَافيـ ... ـرِ فلم تُغْنِهم جُسُومُ البِغَالِ

أخذه من قول حسان بن ثابت ، وقال له بنو الديان الحارثيون : قد كنّا ونحن نطول بأجسامنا على العرب حتى قلت[1] :

دعوا[2] التَّخَاجُؤَ وامْشُوا مِشْيَةً سُجُحاً ... إنَّ الرجالَ ذوو قَدٍّ[3] وتَذْكِيرِ

لا بَأْسَ بالقومِ من طولٍ ومن عِظَمٍ ... جِسْمُ البغالِ وأحْلَامُ العَصَافِيرِ

فتركتنا لا نرى أجسامَنا شيئاً ، والعربُ تمدح الطول ، وتثنى عليه .

وقال عنترة بن شداد[4] :

بَطَلٌ كأنَّ ثِيَابَه فى سَرْحَةٍ ... يُحْذَى نِعالَ السِّبْتِ لَيْسَ بتَوْأَمِ

قوله : ليس بتوأم ، يريد ليس ممن زُوحم فى الرَّحِمِ فضعف ، كما قال الشعبى ، وقد دخل على عبد الملك بن مروان ، فجعل ينظرُ إليـــه ، وكان الشعبى قد وُلد توأماً مع أخيه ، فــكان نحيفاً ، فقال : يا أمـــير المؤمنين ، إنى زُحمت فى الرحم ، وقال :

ولما التقى الصفّان واختلف القَنَا ... نِهالًا وأسبابُ المنايا نِهالُهـا

تبيَّن لى أنَّ القماءةَ ذِلَّةٌ ... وأنَّ أعزاء الرجال[5] طِوالُها

وقال أبو نواس[6] :

وكنا إذا ما الحائن[7] الجَدِّ غرَّهُ ... سنى بَرْقِ غادٍ[8] أو ضجيج رعادِ

تردَّى له الفضلُ بن يحيى بن خالد ... بماضى الظُّبَى يُزْهاهُ طولُ نجادِ

أمام خميس[9] أرجوانٍ كأنّهُ ... قميصٌ مَحُوكٌ من قنا وجيادِ

---

(١) ديوان حسان : ٢١٤ . (٢) فى الديوان : ذروا . التخاجؤ : التباطؤ فى المشى وقيل : التبختر . والمشية السجح : السهلة . (٣) فى الديوان : ذو عصب ، والعصب : شدة الخلق . (٤) اللسان ــ مادة سبت . (٥) فى س : وأن أشداء الرجال . (٦) ديوانه : ٧٤ ، الكامل ٢ ــ ٩١ . (٧) فى الأصول : الخائن . (٨) فى الديوان : غاو . (٩) وفى : خس .

ومن هذا البيت أخذ أبو الطيب المتنبي قوله[1] :

ومَلْمُومَةٌ زَرَدٌ ثَوْبُهَا   ولَكِنَّهُ بالقَنَا مُخْمَلُ

* * *

رجع إلى كثير عزة

ودخل كثيّر على عبد العزيز بن مروان وهو عليل ، وأهله يتمنّون أنْ يبتسم ، فقال : لولا أنّ سرورَك لا يتمّ بأن تَسْلَمَ وأسقم لدعوتُ اللهَ أن يصرفَ ما بك إليّ ، ولكني أسألُ اللهَ أيُّها الأميرُ العافيةَ لك ولي في كَنَفِك ؛ فضحك وأمر له بمال، فخرج وهو يقول :

ونَعُـــودُ سيِّدَنا وسيِّدَ غيرِنا   ليت التشكّي كانَ بالعُوَّادِ

لو كان تُقْبَلُ فِدْيَةٌ لفديتهُ   بالمُصْطَفَى من طارِفٍ وتِلاَدِ

نقد شعره

قال محمد بن سلام الجمحي[2]: قال أبي: ذاكَرْتُ مروان بن أبي حفصة شِعْرَ جرير والفرزدق وكثيّر ، فذهب إلى تقديم كثيّر ، وجعل يُطْرِيه ويقول : هو أمدحهم للخلفاء . فقلت : أينْ جودة مدحه للخلفاء قوله لعبـــد الملك بن مروان :

ترى ابنَ أبي العاصي وقد صُفَّ دُونَهُ   ثمانون ألفاً قد تَوَافَتْ كُمولها

يقلّبُ عينَيْ حيّة بمَفَازَةٍ[3]   إذا أمكنَتْه شِدّةٌ لا يُقيلهـــا

فقال هذا للخليفة ودونه ثمانون ألفاً ، وجعله يقلّب عيني حية .

وقوله:

وإن أميرَ المؤمنين هو الذي   غزَا كامناتِ الودِّ منّي فنالهـــا

زعم أن أمير المؤمنين استعطفَه حتى غزَا كامناتِ صَدْرِه .

وقوله لعبد العزيز بن مروان[4] :

---

(١) ديوانه : ٣ ــ ٧١ .   (٢) الموشح : ١٤٣ .   (٣) في الموشح : بمحارة .

(٤) الموشح : ١٤٣ .

وما زَالَتْ رُقاكَ تَسُلّ ضِغْنى　　　وتخرج من مكامنها ضِبَابى

ويَرْقِيني[1] لكَ الحاوون[2] حتى　　　أجابَك حَيّة تحت الحجاب

زعم أن عبد العزيز رَمَاه[3] واحتال له ورَقَاه، حتى أجابه. أكذا تُمْدَح الملوك؟ فأسكته.

فصول قصار

من كان له من نَفْسِه واعظ كان من الله عليه حافظ. العبد حرٌّ إذا قنع، والحرُّ عبدٌ إذا طمع. الأمانى تَخْدَعك، وعند الحقائق تَدَعك. إذا كان الطمعُ هلاكا كان اليأسُ إدراكا. ليس يُعَدُّ حكيما من لم يكن لنفسه خَصِيما. تعزَّ عن الشيء إذا مُنِعْتَه، بقلة ما يصحبك إذا منحته. تجرَّعْ مَضَضَ الصبر تطفْ نار القهر. الحكمة حِفْظُ ما كلفت، وتَرْكُ ما كفيت. الصَّبْرُ عن محارم الله أيْسر من الصبر على عذاب الله.

شذور لأهل العصر فى معان شتى

قطعة من كلام الأمير قابوس بن وَشْمَكير[4] شمس المعالى فى أثناء رَسائِله: لقابوس بزَنْد الشفيع تُورى نار النجاح[5]، ومن كف المفيض يُنْتَظر فوز القِداح. الوسائل أقدام ذوى الحاجات، والشفاعات مفاتيح الطلبات. العفو عن الجرم من مُوجبات الكرم، وقبول المعذرة من محاسن الشِّيَم. وبالقوادم والخوافى قوةُ النجاح[6]، وبالأسنة والعَوَالى عمل الرماح. الدنيا دار تغرير وخداع، وملتقى ساعةٍ

---

(١) ف ق، س: ويرزقنى.　(٢) ف الوشح: الراقون.

(٣) ف ق، س: تركاه.　(٤) اليتيمة: ٤ — ٥٧.　(٥) ف اليتيمة: تورى القداح.　(٦) ف اليتيمة: الجناح.

لوداع ، والناس مُتصرِّفون بين كل وِرد وصدَر ، وصائرون خبَرًا بعد أثر . غايةُ كل متحرّك إلى سكون ، ونهايةُ كل متكون ألّا يكون ، وآخر الأحياء فناء ، والجزع على الأموات عناء ، وإذا كان ذلك كذلك فلِمَ التهالك على الهالك . حَشْوُ الدهر أحزان وهموم ، وصَفْوُه من غير كدر معدوم . إذا سمح الدهر بالحباء ، فأبشر بوَشْك الانقضاء ، وإذا أعار فاحسبه قد أغار . الدهر طعمان : حلو ومرّ ، والأيام ضربان : عُسْر ويسر . لكل شيء غاية ومنتهى وانقطاع وإن بلغ المدى . تَرْكُ الجواب داعيةُ الارتياب ، والحاجة إلى الاقتضاء كسوف في وجه الرجاء . همّ المنتظر للجواب ثقيل ، والمدى فيه وإن كان قصيرا طويل . النجيب إذا جرى لم يشقّ غبـاره ، وإذا[1] سرى لم تلحق آثاره . ومن أينَ للضباب صَوْب[2] السحاب ، وللغراب هُوِيُّ العقـاب ، وهيهات أن تكتسب الأرض لطافة الهواء ، ويصير البدر كالشمس في الضياء .

* * *

الثعالبي في شمس المعالي

وقد ترجم عن شمس المعالي أبو منصور الثعالبي في كتاب ألّفه له ؛ قال في أوله : أمّا على أثر حَمْدِ الله الذي هو أوّلُ كتابه ، وآخرُ دعوى ساكني دارِ ثوَابه ، والصلاةِ على خِيرته من بريّته ، وعلى الصَّفْوةِ من ذرّيته ، فإنّ خيرَ الكلامِ ما شغل بخِدْمَة مَنْ جمع اللهُ له عِزّةَ الملك إلى بَسْطَةِ العلم ، ونورِ الحكمة إلى نفوذِ الحكم ، وجعله مميّزًا على ملوكِ العصر ، ومدبِّري الأرض ، وولاة الأمر ، بخصائص من الفضلِ وجلائلَ من الفضل ، ودقائقَ من الكَرمِ المَحْضِ ، لا يدخلُ أيسرُها تحت العادات ، ولا يُدْرَك أقلُّها بالعبارات ؛ ومحاسنَ [سِيَرٍ][3] الأيام تحرسها ألسنةُ الأقلام ، وتدرسها ألسنةُ الليالي والأيام ، وهذه صفة تُغْنِي عن تشبيه الوصوف لاختصاصه بمعناها ، واستحقاقه إياها ، واستئثاره على جميع الملوك بها ، وليَعلَم سامعها ببديهة السّماع أنها للأمير ، شمس المعالي ، خالصةً ، وعليه مقصورة ، وبه لائقة ، وعن

---

(١) في اليتيمة : والشهاب إذا سرى . (٢) في اليتيمة : صوت .

(٣) من س ، ق .

غَيْرِه نَافِرة ؛ إذ هو بمعاينة الآثار ، وشهادة الأخيار ، وإجماع الأولياء ، واتّفاق[1] الأعداء ، كافلُ المجد ، وكافِي الخَلْق ، وواحدُ الدهر ، وغُرَّة الدنيا ، ومفزَع الوَرَى ، وحسَنةُ العالم ، ونُكْتَةُ[2] الفلَكِ الدائر ؛ فبلّغه اللهُ أقصى نهايةِ العمر ، كما بلّغه أقصى غايةِ الفخر ؛ وملّكه أزِمّة الأمر ، كما ملّكه أعِنّةَ الفضل ؛ وأدام حُسْنَ النظرِ للعباد والبلاد ، بإدامة أيامه التي هي أعْيادُ الدّهْرِ ، ومواسم اليُمْن والأمْن ، ومطالع الخير والسَّعْدِ ، وزاد دولته شباباً ونمُوّاً ، كما زادهُ في الشرف عُلوّاً ، حتى تكون السعاداتُ وَفْدَ بابه ، والبشائر قِرَى سَمْعِهِ ، والمسارّ غِذَاء نفسه ، ويترامَى به الإقبالُ إلى حيث لا يبلُغه أمل ، ولا يَقْطَعه[3] أجل .

* * *

نحا في قوله : وهذه صفة تُغْني عن الموصوف ؛ إلى قول أبي الطيب يَرْثِي أختَ سيف الدولة[4] : من النقد

يا أُخْتَ خَيْرِ أخٍ يا بنْتَ خَيْرِ أبٍ ... كِنايةً بهما عن أشْرَفِ النَّسَبِ
أُجِلُّ قَدْرَكِ أن تُسْمَى مُؤَبَّنَةً ... ومَنْ دَعاكِ[5] فقد سمّاكِ للعرَبِ

* * *

وفي شمس المعالي يقول الأمير أبو الفضل الميكالي : للميكالي في شمس المعالي

لا تعصِيَنْ شَمْسَ العُلاَ قابوسا ... فمن عَصَى قابوسَ لاقَى بوسا

وله يقولُ بديعُ الزمان في قصيدة نظمها في تضاعيف رسالةٍ موشحة : ولبديع الزمان فيه

إنَّ مَنْ كنت من مُناه بِمَرْأًى ... وتمدّاك سيّئ الاقتراح
بَيْنَ بِشْرٍ يَرُدُّ غائِضَ جاهي ... وقبولٍ يُعيد رِيشَ جَناحي

---

(١) في س : وإصفاق . (٢) النكتة : النقطة . (٣) في س ، ق : ولا يقطعهما . (٤) ديوانه : ١ ــ ٨٦ . (٥) في الديوان : ومن يصفك .

وبساطٍ ورَدْتُ مَشْرَعة الأُنْـ ... ـسِ بهِ وادَّرَعْتُ بُرْدَ النجاحِ
فاقضِ أوْطارًا التَقَتْ والمَعالِى ... فى نظامٍ من النُّهى وتَصاحِ[1]
ملك دُونَه تقطّع أبصا ... ر الليالى يَوْماً ندًى وكفاحِ
ملك لو يشاء مَدَّ على النَّجْـ ... ـمِ رواقًا وردَّ وَفْدَ الرِّياحِ
تارةً فى خُشونةِ الدَّهْرِ نَلْقَا ... هُ وطوراً فى حُسْنِ ذاتِ الوِشاحِ
ملك كلَّما بَدَا تقفُ الأفْـ ... ـلاكُ عُجْباً به وفَرْطَ ارْتياحِ
هكذا هكذا تكونُ المعالى ... طُرُقُ الجدِّ غَيْرُ طرق المزاحِ

وهى طويلةٌ ، كتبتها على طريق الاختيار .

رقعة من البديع إليه — رقعة لبديع الزمان إلى شمس المعالى ، وقد ورد حضرته[2] :

لم تَزَلِ الآمالُ ـ أطال اللهُ بقاء الأمير السيد شمس المعالى وأدام سلطانه ـ تَعِدُنى هذا اليوم، والأيامُ تمطلُنى بألسنةِ صروفِها ، على اختلافِ صنوفها ، بين خُلْوٍ استرقَّنى وضرٍّ استخفَّنى[3]، وشرٍّ صار إلىّ، وخيرٍ صِرْتُ إليه، وأنا فى خلال هذه الأحوال أذْرَعُ[4] الآفاقَ فأكون طوراً مُشَرِّقاً للمشرق الأقصى ، وطوراً مُغَرِّباً للمغرب ، ولا مَطْمَحَ إلّا حضرته الرفيعة ، وسُدَّته المَرِيعة[5] ، ولا وسيلةَ إلا المَنزع الشاسع ، والأمل الواسع ؛ وقد صرت ـ أطال اللهُ بقاء الأمير مولانا ـ بين أنيابِ النوائب ، وتجشّمتُ هَوْلَ الموارد ، وركبت أكتافَ المكارِه ، ورضْتُ أخلاقَ الموائق ، ومسحت أطْراف المراحل، حتى حضرت الحَضْرَةَ البهيّة أو كِدْتُ؛ وبلغت الأمنية أو زِدْتُ ، وللأمير السيد فى الإصغاء إلى المجد ، والبَسْطِ من عنان الفَضْل ، بتمكين خادمه من المجلس يَلْقاه بقدَمه ، والبساط يَلْثِمه بفمه ، تفضُّله ، فله الرأىُ العالى إن شاء الله .

البديع إلى بعض الرؤساء — وله إلى بعض الرؤساء وقد وعد بحضور مجلسه بالغداة ، وأمره أنْ يَزِفَّ إليـه

---

(١) ق ق : ونضاح ، وهذه من س . (٢) الرسائل : ٨٤ . (٣) ق س ، ق : استحقنى ، واستحقه : استوجبه . (٤) ق س ، ق : أزرع . (٥) المريع : الخصيب .

ما أنشأه ، فبعث به وكتب إليه[١] :

مَرْحَبًا بسلامِ الشيخ سيّدى ومولاى أطال اللهُ بقاه ، ولا كالمَرْحَبِ[٢] بطَلْعَتِه ؛ وقد وصلت تحيّتُه فشكرتُها ، وعِدَتُه الجميلةُ بالحضورِ غدا فانتظرتُها ؛ ودعوتُ اللهَ أن يَطْوِىَ ساعاتِ النهار ، ويزجَ الشمسَ فى المَغَار[٣] ، ويُقرِّب مسافةَ الفَلَكِ الدوار ، ويَرْفَع البركةَ من سيره ، ويجهز الحركةَ إلى دوره ؛ ويُسرِّى بوَفْدِ الظلام وقد نزل ، ثم لم يَلْبَثْ إلّا ريثما رَحَل ؛ وقد بعثتُ بما طلبِ سمعاً لأمره وطاعة ، والنسخةُ أسقمُ من أجفانِ الغضبانِ ، والشيخ سيدى ـ أدام اللهُ عزّه ـ يَرْكض قلمه فى إصلاحها ، وحبّذا هو فى غدٍ ، وقد طلع كالصبح إذا سطع ، والبرق إذا لمع :

يا مرحباً بغَــدٍ ويا أهلًا بهِ إن كان إلمامُ الأحبّــةِ فى غدِ

وله إلى[٤] أبى الطيب سهل بن محمد يسأله أن يصله بأبى إبراهيم إسماعيل بن أحمد ؛

البديع إلى سهل بن محمد

لو كان للكرم عن جَنابِ الشيخ مُنْصَرَفٌ لانصرفْت ، أو للأمل مُنْحَرَفٌ إلى سواه لانحرَفْت ، أو للتّجْع بابٌ سواه لوَلَجْت ، أو للفضل خاطبٌ غيره لزوّجت ، ولكنْ أبى الله أنْ يعقدَ إلا عليـــه الخنصر ، أو يتحلّى إلا بفواضله الدهر ، ولا يزال كذا يتّسِم المجدُ بسيمته ، ويجذب العلاء بهمّته ، ويُسْعِدُ الدينَ بنظره ، والدنيا بجماله ، وغلامُه أنا لو استعار الدهر لسانا ، واتّخذ الريح تَرْجمانا ، ليُشيع إنعامَه حقّ الإشاعة ، لقَصُرَتْ به يدُ الاستطاعة ، فليس إلا أن يلبس مكارمه ضافيةً سابغة ، ويرد مشارعَه صافيةً سائغة ، ويحيل الجزاء على يد قصور ، والشكر على لسان قَصير ؛ ثم إنّ حاجاتى ، إذا لم يَعْرَ من قلائدِ المجدِ نَحْرُها ، ولم يَعْطَلْ من حَلْىِ المجدِ صَدْرُها ، كَبِر مَهْرُها ، وعزّ كفؤها ، ولم أجد لها إلا واحداً أخْضَرَ الجلدة فى بيت العرب ، أو ماجداً يملأ الدّلْو إلى عقد الكَرَب[٥] . وهـــذه حاجةٌ أنا أزفّها إلى الشيخ الإمام حرس اللهُ

---

(١) رسائل البديع : ٩١ . (٢) فى الرسائل : ولا كالسرور بطلعته .

(٣) الغار والمغار والمغارة : الكهف ، وغارت الشمس : غربت . (٤) الرسائل : ٨٤

(٥) الكرب : الحبل يشد فى وسط العراقى ليلى الماء .

مُهْجَته، وأسُوقها منظومة من الصَّدْرِ إلى العجُز، كما يساقُ الماء إلى الأرض الجُرُز[1]؛ وأنا من مفتَتَح اليـوم إلى مختَتِمه، ومن قَرْنِ النهار إلى قدمه قاعد كالكركى، أو الديك الهندى، فى هذا الأُدْحِىّ[2]، يمرُّ بى أولو الحلى والحلل، ويجتاز ذوو الخيل والخَوَل[3]، وما أنا والنَّظر إلى ما لا يَلِيق[4]، والسؤال عما لا يَعْنِينى، واليوم، لما اقتضضنا عُذْرَة الصباح، ملأتُ جفونى من مَنْظَرٍ ما أحوجه إلى عَيْب يَصْرِفُ عَيْنَ كماله عن جماله، فقلت لمن حضر: مَنْ هـذا؟ فأخذوا يحرِّكون الرءوسَ استطرافاً لحالى، ويتغامزُون تعجُّباً من سؤالى، وقالوا: هذا الشيخُ الفاضل أبو إبراهيم إسماعيل بن أحمد، فقلت: حرس اللهُ مُهْجَته، وأدام غِبْطته؛ فكيف الوصولُ إلى خِدْمَته، وأنَّى مَأْتَى معرفته؟ قالوا: إن الشيخ الإمام ــ أدام الله تأييده ــ يضربُ فى مودَّته بالقِدْحِ المعلَّى، ويأْخُذ فى معرفته بالحظّ الأعلى، فإنْ رأى الشيخ ــ أطال الله بقاه ــ أن تُجْمَل عنايتُه حَرْفَ الصلة، وتفضّله لَامَ المعرفة، فعل، إن شاء الله.

[طرف من أخبار البرامكة]

يحيي وابناه قال الرشيدُ ليحيي بن خالد: يا أبت، إنى أردتُ أن أجعـلَ الخاتم الذى فى يد الفضل إلى جعفر، وقد احتشمت منه فاكْفِنِيه.

فكتب إليه يحيي: قد أمر أميرُ المؤمنين ــ أعْلَى اللهُ أمره ــ أن يحوِّل الخاتم من يمينك إلى شمالك.

فأجاب الفضل: قد سمعتُ ما قاله أمير المؤمنين فى أخى، وقد اطّلعت على أمره، وما انقَلَبَتْ عنى نِعمةٌ صارت إليه، ولا عَزَبَتْ[5] عنى رتبةٌ طلعَتْ عليه.

فقال جعفر: لله أخى! ما أنْفَسَ نفسه، وأبْيَنَ دلائلِ الفضل عليه، وأقوى

---

(١) الجرز بضمتين: الأرض لا تنبت شيئا. (٢) الأدحى: مبيض النعام فى الرمل.

(٣) الخول: العبيد والإماء وغيرهم من الحاشية. (٤) فى الرسائل: إلى ما يلهينى.

(٥) عزبت: بعدت.

مُنةُ العَقل فيه[١] ، وأوْسع في البلاغة ذَرْعه ، وأرْحب بها جنابه . يُوجب على نفسه ما يجب له[٢] ، ويَتَحَمَّلُ بكرمه فوق طاقته .

بلاغة جعفر ومعرفته

وذُكِر جعفرُ بن يحيى في مجلس ثمامة بن أشرس فقال : ما رأيتُ أحداً من خَلْقِ الله كان أبْسَط لسانا ، ولا أَلْحَن بحجّة ، ولا أقدر على كلام ، بنَظْمٍ حسن ، وألفاظٍ عذبة ، ومَنْطقٍ فصيح، من جعفر بن يحيى ، كان لا يتوقّف ، ولا يتحبَّس ، ولا يَصِلُ كلامَه بحشْوٍ من الكلام ، ولا يُعيدُ لفظا ولا معنى ، ولا يَخْرُجُ من فنٍّ إلى غيره، حتى يبلغ آخرَ ما فيه ؛ وكان لا يرى شيئاً إلّا حكاه ، ولا يَحْكي شيئاً إلّا كان أكثر منه ، ولا يمُرُّ بذهنه شيء[٣] إلا حفظه ؛ وكان إذا شاء أضحك الثَّكْلَى ، وأذْهَل الزاهد ، وخشَّن قَلْبَ العابد .

قلت : فكيف كانت معرفته ؟ قال : كان مِنْ أعلمِ الناسِ بالخبر الباهر ، والشعرِ النادر ، والمَثَل السائر ، والفصاحة التامة ، واللسان البسيط .

بلاغة يحيى وجعفر

قال سهل بن هارون ، وذكر يحيى بن خالد وابنه جعفرا ، فقال : لو كان الكلامُ متصوَّرا دُرًّا ، ويلقيه النطق جَوْهرا ، لكان كلامهما ، والمنتَقَى من ألفاظهما . ولقد عَبَرت[٤] معهما، وأدْرَكْتُ طبقةَ المتكلمين في أيامهما ، وهم يرَوْن البلاغة لم تستكْمَلْ إلا فيهما ، ولم تكُنْ مقصورة إلا عليهما ، ولا انقادت إلّا لهما . وإنهما لَلُبابُ الكرم ، وعِتْقَ منظر ، وجودَةَ مَخْبَر ، وسهولةَ لفظ ، وجزالةَ منطق ، ونزاهةَ نفس ، وكمالَ خصال ؛ حتى لو فاخرتِ الدنيا بقليلِ أيامهما ، والمأثورِ من خصائصهما جميعَ أيامِ مَنْ سواهما من لَدُنْ آدم إلى أن يُنفَخَ في الصور ، ويُبْعثَ أهلُ القبور — حاشا أنبياء اللهِ الكرام ، وسَلَفِ عباده الصالحين — لما باهت إلّا بهما ، ولا عوّلت في الفخر إلا عليهما، ولقد كانا مع تهذيب أخلاقهما ، ومَعْسُول مذاقهما،

---

(١) المنة : النعمة ، أما المنة — بضم الميم فهي القوة . (٢) في س : مايجب .

(٣) في ف ، س : ولا يمر بذهنه شيئا . (٤) مكثت .

وسنا إشراقهما ، وكمالِ خصالِ الخيرِ فيهما ، فى محاسن المأمونِ كالنُّقْطَة فى البحر ، والخَرْدَلَة[1] فى القفرِ .

من توقيعات جعفر وكلامه

ووقّع جعفرُ بن يحيى لرجلٍ اعتذر عنده من ذنب : قد قدُمت طاعَتُك ، وظهرت نصيحتُك ، ولا تَغْلِبُ سيئةٌ حسنتين .

ووقّع — وقد قرأ كتاباً فاستحسن خطّه : الخطُّ خَيْطُ الحِكْمة ، يُنظَمُ فيه منثورُها ، ويفصّل[2] فيه شذورُها .

واختصم رَجُلان بحضرته ، فقال لأحدهما : أنت خَلِيّ ، وهذا شَجِيّ ؛ فكلامك يجرى على بَرْدِ العافية ، وجوابُه يجرى على حَرّ المصيبة .

جعفر يثيب مروان بن أبى حفصة

ودخل مروان بن أبى حفصة على جعفر بن يحيى فأنشده :

أبرّ فما تَرْجُو الجيادُ لَحاقه ... أبو الفضل سَبّاقُ الأضَامِيم[3] جَعْفَرُ

وزيرٌ إذا نابَ الخلافةَ حادثٌ ... أشار بما عنه الخلافةُ تَصْدُرُ

فقال جعفر : أنشدنى مرثيتك فى معن بن زائدة، فأنْشَدَهُ :

أقَمْنَا باليمامة أو نَسِينا ... مقاماً ما نُرِيدُ به زَوالا

وقلنا أينَ نذهبُ بعد مَعْنٍ ... وقد ذهب النَّوالُ فلا نَوَالا

وكان الناسُ كلُّهم لِمَعْنٍ ... إلى أن زار حُفْرَتَهُ عِيالا

حتى فرغ من القصيدة ، وجعفر يُرْسِل دموعَه على خدّيه ، فقال : هل أثابك على هذه المرثية أحدٌ من أهْلِ بيته وولده ؟ قال : لا ، قال : فلو كان معن حيًّا ، ثم سمعها منك ، كم كان يُثيبك عليها ؟ قال : أربعمائة دينار ، قال : فإنّا كنّا نظنّ أنه لا يَرْضَى لك بذلك ، وقد أمرنا لك عن مَعْنٍ — رحمه الله — بالضِّعف مما ظننتَه ، وزِدْناك مثلَ ذلك ؛ فاقبض من الخازن ألفاً وستمائة دينار قبل أن تخرج . فقال مروان — يذكر جعفراً وما سمح به عن معن :

---

(١) الخردل : حب شجر . (٢) فى س : ويفضل . (٣) الأضامة : الجماعة .

نَفَحْتَ مكافئاً عن جُودِ مَعْنٍ ... لنا فيما تَجُودُ به سِجَالا
فعجَّلْتَ العطيةَ يابْنَ يَحيى ... لناديه ولم تُرِدِ المِطَالا[1]
فكافأ عن صَدَى مَعْنٍ جَوَادٌ ... بأَجْوَدِ راحةٍ بَذَلَتْ نَوالا
بَنَى لك خالدٌ وأبوك يحيى ... بناءً في المكارم لَنْ يُنالا
كأنَّ البرمكيَّ لكلِّ مالٍ ... تجودُ به يداه يُفيد مالا

* * *

شيء من النقد

أخذ هذا من قول زهير[2]:

تَرَاهُ إذَا ما جئتَه مُتَهَلِّلا ... كأنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أنْتَ سائِلُهْ

وهذا البيت لزهير من قصيدة يقول فيها[3]:

وذِي نِعْمَةٍ تَمَّمْتَها وشكرتَها ... وخَصْمٍ يكادُ يغلِبُ الحقَّ باطلُهْ
دفعتَ بمعروفٍ من الحقِّ صائبٍ ... إذا ما أضلَّ القائلين مَفَاصِلُهْ[4]
وذِي خَطَلٍ في القول يَحْسَبُ أنهُ ... مُصيبٌ فما يُلْمِمْ به فهو قائلُهْ
عَبَأْتُ له حلما[5] وأكرمتُ غيرَهُ ... وأعرضتُ عنهُ وهو بادٍ مَقَاتِلُهْ
وأبيضَ فَيَّاضٍ يَدَاهُ غَمَامَةٌ ... على مُعْتَفِيهِ ما تُغِبُّ نَوَافِلُهْ
غَدَوْتُ عليه غُدْوَةً فرأيتُهُ ... قُعُوداً لَدَيْهِ بالصَّرِيمِ عَوَاذِلُهْ
يُفَدِّينَهُ طَوْراً وطَوْراً يَلُمْنَهُ ... وأعْيَا فما يَدْرِينَ أينَ مَخَاتِلُهْ
فأَعْرَضْنَ عنه عن كريمٍ مُرَزَّأٍ[6] ... جَمُوحٍ على[7] الأمرِ الذي هو فاعلُهْ
أخِي ثِقَةٍ لا يُذْهِبُ الخمرُ مالَهُ ... ولكنَّه قد يُذْهِبُ المالَ نائِلُهْ

قال أبو الفرج قُدامة بن جعفر، في معنى أبيات زهير الأولى[8]: لما كانت فضائلُ الناسِ من حيث هم ناس، لا من طريقِ ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان،

(١) المطال: التسويف. (٢) ديوانه: ١٤٣. (٣) ديوانه: ١٣٨
(٤) في ق: معاضله. (٥) في الديوان: حلمى. (٦) في ق: مقرا.
(٧) في ق: عن. (٨) العمدة: ٢ ــ ١٢٥، نقد الشعر: ٣٩.

على ما عليه أهلُ الألباب من الاتّفاق فى ذلك ، إنما هى العقلُ والعفةُ والعَدْلُ والشجاعة ، كان القاصد للمَدْح بهذه الأربعة مُصيبا وبما سواها مخطئاً . وقد قال زهير :

أخِى ثقةٍ لا يُتْلِفُ الخمرُ مالَهُ ... ولكنه قد يُهْلِكُ المالَ نائِلُه

فوصفه بالعفّة لقلة إمعانه فى اللذات ، وأنه لا يُنْفِد فيها ماله ، وبالسخاء لإهلاك ماله فى النوال ، وانحرافه إلى ذلك عن اللذات ، وذلك هو العدل ، ثم قال :

تَراه إذا ما جِئْتَه مُتَهَلِّلا ... كأنك تُعْطِيهِ الذى أنتَ سائِلُه

فزاد فى وَصْفِ السخاء بأنه يهشّ ، ولا يلحقه مضَضٌ ولا تَكَرُّهٌ لفعله .

ثم قال :

فمن مثل[1] حِصْنٍ فى الحروب ومِثْلُه ... لإنْكارِ ضَيْمٍ أو لأمْرٍ يُحاوِلُه

فأتى فى هذا البيت بالوصف من جهة الشجاعة والعقل ؛ فاستوفى ضروبَ المدحِ الأربعة التى هى فضائلُ الإنسان على الحقيقة ، وزاد الوفاءَ ، وإن[2] كان داخلا فى الأربعة ؛ فكثير من الناس لا يعلم وَجْهَ دخوله فيها حيث قال : أخى ثقة ، فوصفه بالوفاء؛ والوفاء داخلٌ فى هذه الفضائل التى قدّمناها .

وقد يتفنَّنُ الشعراء فيعدّون أنواعَ الفضائل الأربع وأقسامها ، وكلٌّ ذلك داخلٌ فى جملتها ؛ مثل أن يذكروا ثقابَةَ المعرفة ، والحياءَ ، والبيانَ ، والسياسة ، والصَّدْعَ بالحجّة ، والعلم ، والحلم عن سفاهة الجَهَلَة ؛ وغير ذلك مما يَجْرِى هذا المجرى ، وهو من أقسام العقل .

وكذكرهم القناعة ، وقلّة الشَّرَهِ[3] ، وطهارة الإزار ، وغير ذلك أيضاً من أقسام العفّة . وكذكرهم الحماية ، والأخْذَ بالثّأر ، والدفاع ، والنِّكاية ، والمهابة ، وقتْلَ

---

(١) فى ط : فذلك حصن . . .   (٢) فى العمدة : وزادها ما هو وإن .

(٣) فى العمدة : وقلة الشهوة .

الأقران ، والسير في المَهامِه والقفار ؛ وما يشاكلُ ذلك ، وهو من أقسام الشجاعة ؛ وكذ كَرَم السماحة ، والتَّغابن[1] ، والانظلام[2] ، والتبرّع بالنائل ، وإجابة السائل ، وقِرَى الأضياف ؛ وما جانس هذه الأشياء ، وهو من أقسام العدل .

فأمّا تركيب بعضها على بعض فتحدث منها ستة أقسام : يحدث من تركيب العقل مع الشجاعة الصبرُ على الملمات ، ونوازل الخطوب ، والوفاء بالوعود[3] . وعن تركيب العقل مع السخاء إنجازُ الوعد ، وما أشبه ذلك . وعن تركيب العقل مع العفة التنزه والرغبةُ عن المسألة ، والاقتصار على أدنى معيشة ، وما أشبه ذلك . وعن تركيب الشجاعة مع السخاء الإخلاف ، والإتلاف ، وما أشبه ذلك . وعن تركيب الشجاعة مع العفّة إنكارُ الفواحش ، والغيرةُ على الحُرَم . ومن السخاء مع العفة الإسعاف بالقوت ، والإيثارُ على النفس ، وما شاكل ذلك . وكل واحدة من هذه الفضائل الأربع وَسَطٌ بين طرفين مذمومين .

ابن مناذر يمدح البرامكة

وقد قال أبو جعفر محمد بن مناذر لما حجّ الرشيد مع البرامكة :

أتانا بنو الإملاك مِنْ آلِ بَرْمَكٍ   فياطِيبَ أخبارٍ ويا حُسْنَ مَنْظَرِ
لهم رِحْلةٌ في كلّ عام إلى العِدَا   وأُخْرَى إلى البيتِ العتيقِ المُشهَّرِ
فتُظلِم بغدادٌ ويَجْلو لنا الدُّجا   بِمكَّةَ ما حَجُّوا ثلاثةُ أقْمُرِ
إذا نزلوا بطحاء مكة أشرقَتْ   بِيَحْيَي وبالفضل بن يحيي وجعفرِ
فما خُلِقَتْ إلّا لجودٍ أكفُّهم   وأقدامُهم إلّا لأعوادِ مِنْبَرِ
إذا راضَ يحيي الأمر ذَلَّتْ صِعابُه   وحَسْبُك مِن راعٍ له ومدبِّرِ
ترى الناسَ إجلالًا له وكأنّهم   غَرانيق ماء تحت بازٍ مُصَرْصِرِ[4]

---

(١) أصل التغابن : أن يغبن بعضهم بعضا . (٢) الانظلام : تحمل الظلم .
(٣) في س ، ق : بالأوعاد . (٤) الغرانيق ، جمع غرنوق : وهو طائر مائي أسود وقيل أبيض ، والبازي : الصقر . والمصرصر : الصائح صياحا شديدا .

[طرف من التجنيس]

الميكالى قطعة من شعر الأمير أبى الفضل الميكالى فى طَرَف أخذ بطرف من التجنيس مستطرف فى ضروب من الغزل[١] ، قال :

لقد راعنى بَدْرُ الدُّجَا بصدودهِ ... ووَكَّلَ أجفانى بِرَعْىِ كواكبِه
فياجَزَعى، مهْلًا عَسَاهُ يَعودُ لى ... ويا كَبِدى صَبْرًا على ما كَواكِ بِه

وقال :

مواعيدُه فى الفَضْلِ أحلامُ نائمٍ ... أُشَبِّهها بالقَفْرِ أو بِسَرَابِهِ
فمَنْ لى بوَجْهٍ لو تَحَيَّرَ فى الدُّجَا ... أخُو سَفَرٍ فى ليلٍ غَيْمٍ سَرَى بِهِ

وقال :

صِلْ محِبًّا أعياه وَصْفُ هواهُ ... فَضَناه يَنُوبُ عن ترجُمانه
كلما رامَهُ سِوَاكَ تصدَّتْ ... مقلتاهُ بدمعِهِ تَرْجُمَانِه[٢]

وقال :

ياذا الذى أرسل من طَرْفِهِ ... علىَّ سَيْفًا قدَّنى لو فَرَا
شفاءُ نفسى منك تَخْميشَةٌ ... تَغْرِسُ فى خدِّك نَيْلَوْفَرَا[٣]

وقال :

يا مُبْتَلًى بضناهُ يَرْجُو رحمةً ... من مالك يشفيه من أوْصَابِهِ
[أوصاك سِحْرُ جفونه بتسهُّد ... وتبلّد ، فقبلت ما أوْصَى به][٤]
اصبر على مضَضِ الهوى فلربما ... تَحْلُو مرارةُ صبرِهِ أو صابِهِ

وقال :

كتبت إليـــه أستهدى وِصالًا ... فعلَّلنى بوَعْدٍ فى الجواب

---

(١) اليتيمة : ٤ — ٣٤٠ . (٢) فعل مضارع من رجم . (٣) ضرب من الرياحين .
(٤) من س ، ق .

ألا ليت الجوابَ يكون خيراً ... فيطفئ ما أحاط من الجوَى بي

وقال :

إنْ كنتَ تأنَسُ بالحبيبِ وقُربهِ ... فاصْبِر على حُكْمِ الرقيبِ ودارِهِ

إنَّ الرقيبَ إذا صبرت لحكمِهِ ... بوّاكَ في مَثوَى الحبيبِ ودارِهِ

وقال :

شكوتُ إليـــه ما ألاقِي فقال لي : ... رُوَيداً ، ففي حُكْمِ الهوَى أنْتَ مُؤْتَلي

فلو كان حقاً ما ادّعيت مِنَ الهوَى ... لقلّ بمــا تلقى إذاً أنْ تموتَ لي

وقال :

نَوَى لي بعد إكثارِ السؤالِ ... حبيبٌ أنْ يُسامحَ بالنَّوالِ

فلما رُمْتُ إنجازاً لوعدي ... عليه أبى الوفاءَ بما نَوَى لي

وكان القربُ منـه شفاءَ نفسي ... فقد قضَتِ النوائبُ بالنَّوَى لي

وقال :

سقياً لدهرٍ مضَى والوصلُ يجمَعُنا ... ونحنُ نحكي عِناقاً شَكل تَنْوِينِ

فصِرْتُ إذ عَلِقَتْ كفّي حبَائِلَكُم ... فَسَهْمُ هجرك تَرْمِي ثم تَنْوِيني

وقال(١) :

صَدَفَ الحبيبُ بوَصْلِهِ ... فجفا رُقادِي إذْ صَدَفْ

ونثرت لؤلؤ أدمُعٍ ... أضْحَى لهـا جَفْنِي صَدَفْ

وقال :

يامَنْ يقولُ الشعرَ غيْرَ مهذّبٍ ... ويَسُومُني التهذيبَ في تهذيبِهِ

لو أنّ كلّ النّاس فيك مُساعِدي ... لعجزت عن تهذيبِ ما تَهْذِي بِهِ

وقال :

أراد أنْ يخفِي هَوَاه وقَدْ ... نمّ بمــا تُخفِي أسارِيرُهُ

---

(١) اليتيمة : ٤ ـ ٣٤٣ .

وكيفَ يُخفى داءَه مُدنَفٌ　　　قد ذابَ من فَرْط الأسى بِرُّه[1]

وقال[2] :

ومهفهف تهفو بلبّـ　　　ـب المرء منه شمائلُ
فالرِّدفُ دِعصٌ هائلٌ　　　والقدُّ غُصنٌ مائلُ
والخدُّ نورُ شقائقٍ　　　تنشقُّ عنـه خمائلُ
والعَرْفُ نَشْرُ[3] حدائقٍ　　　تحت بهنَّ شمائلُ
والطَّرْفُ سَيْفٌ ماله　　　إلا العـذار حمائلُ

البستى　ولأبي الفتح للبستى في هذا المذهب :

إنّ لي في الهوى لِسانًا كَتُوماً　　　وجَنانًا يُخفِى حَريقَ جَواهُ
غير أنّي أخافُ دَمْعِى عليه　　　سـتراه يُفْشِى الذى سَتَراهُ

ولأبي الفتح البستى في مذهب هذا البيت الأخير :

نَاظِرَاه فيما جَنَى نَاظِرَاهُ　　　أَوْدَعاني أَمُتْ بما أَوْدَعاني

وله :

خُـذِ العفوَ وأْمر بِعُرْفٍ كما　　　أُمرتَ وأَعْرِض عن الجاهلينْ
ولِنْ في الـكلام لـكلِّ الأنام　　　فمستحسَنٌ من ذوى الجاه لِينْ

وله :

إلى حَتْفِي سَعَى قَدَمِي　　　أَرَى قَدَمِي أراقَ دَمِي
فما أنفكُّ من نَدَمِي　　　وليس بنافعى نَدَمِي

وله[4] :

إنْ هزَّ أقلامَه يوماً ليُعملَها　　　أنساك كلَّ كَمِيٍّ هزَّ عامِلَهُ

---

(١) الزهر : ذاب المخ . (٢) اليتيمة ٣ ـ ٣٤١ . (٣) في اليتيمة : مثل حدائق .
(٤) اليتيمة : ٤ ـ ٢٩١ .

وإن أقرّ[1] على رقٍّ أناملهُ أقرّ بالرّقِ كتّابُ الأنامِ لهُ

وقال لمن استدعاه إلى مودّته :

فديتك قلّ الصديقُ الصّدوق وقلّ الخليلُ الحفيّ[2] الوفى

وبى راغبٌ فيك إمّا وفيت فهل راغبٌ أنت فى أن تفى

وللأمير أبى الفضل : الميكالى

أهلًا بظبْىٍ حواهُ قصْر كجنّةٍ قد حوتْ نعيما

طرّقته لا أهاب سوءًا أباحنى حبّه الحريما

فجاد منْ فيه لى براحٍ تنفى حريقاً به قديما

أفدى حريقاً أباح ريقاً لا بلْ حريما أباح ريما

وله[3] :

منْ لى بشمْلِ المنى والأنسِ أجمعهُ بشادنٍ حلّ فيه الحسنُ[4] أجمعهُ

ما زال يعرضُ عن وصْلى وأخدعهُ فالآن قد لانَ[5] بعد الصدّ أخدعه

وقال :

بأبى غزالٌ نام عنْ وصَبى[6] به ومراقِ دمْعى للنّوى وصَبيبهِ

ياليته يرثى على ولَعى بهِ لغرامِ قلْبى فى الهوى ولهيبهِ

وله فى هذا الباب من غير هذا النمط يصف غلاماً مخمورا خمش وجهه[7] :

هبْهُ تغيّر حائلا عن عهْدِه ورمى فؤادى بالصدود فأزعجا

ما بالُ نرجسِه تحوّل وردةً والوردُ فى خدّيه عاد بنفسجا

وله فى هذا المعنى :

وريم على السُّكْرِ خمّشته بقرْصٍ يعارضه أثّرا

---

(١) فى اليتيمة : أمس . (٢) فى س ، ق : الخفى . (٣) اليتيمة : ٤ — ٣٤٣ .

(٤) فى اليتيمة : الأنس أجمعه . (٥) فى اليتيمة : فى لان .

(٦) الوصب : المرض . (٧) اليتيمة : ٤ — ٣٤١ .

فأصبح نَرْجِسُه وردةً   ووردةُ خدَّيْهِ نَيلوْفَرا

وقال فى وصف العِذار :

ظَبْيٌ كَسا رَأْسَ الشبابِ بِعارضٍ   نَمَّ العِذارُ بِحافَتَيْه فلاحا[1]
فكأنما أهْدَى لِعارضِ خدِّه   شَعرى ظَلاماً واستعاضَ صَبَاحا

وقال فى غلام افتصد[2] :

ومُهَفْهَفٍ غرس[3] الجما   لُ بخدِّه رَوْضاً مَرِيعا[4]
فَصَدَ الطبيبُ ذِراعَهُ   فجرى له دَمْعِى ذريعاً[5]
وأمسّى وقعُ الحدِيـ   ـدِ بِعِرْقِه أَلَماً وَجِيعاً
فأريته من عَبْرَتى   ما سال من دَمِهِ نجيعاً[6]

فِقَر فى ذكر العلم والعلماء

العلماء ورثةُ الأنبياء . العلماء أعلام الإسلام . العلماء فى الأرض كالنجوم فى السماء .

لابن المعتز   ابن المعتز — العلماء غرباء ، لكَثْرةِ الجهل . وله : العلمُ جمالٌ لا يخفى ، ونَسَبٌ لا يُجفَى . وله : زَلَّةُ العالِم كانكسار سفينةٍ تَغْرَق ويغرق معها خَلْقٌ كثير .

لغيره   غيره — إذا زلَّ العالِم زلَّ بزلَّتِه عالَم . غيره : الملوكُ حُكَّامٌ على النــاس ، والعلماء حكام على الملوك . من لم يحتمل ذلَّ التعلم ساعة ، بقى فى ذلّ الجهل أبداً . ما صِينَ العلمُ بمثل بَذْله لأهله . من كتم علماً فكأنه جاهلُه . العلمُ يعتمُ أهله أن يعتموه أهله .

لكشاجم أبو الفتح كشاجم :

---

(١) لاح : ظهر .   (٢) اليتيمة : ٤—٣٤٩ .   (٣) فى اليتيمة : أبدى الجمال .
(٤) المريع : المخصب .   (٥) الذريع : الشفيع والسريع .   (٦) النجيع : من الدم : ما كان إلى السواد ، أو دم الجوف .

لا تمنع العلم امرأً ... والعلمُ يمنعُ جانبَهْ
أما الغبيّ فليس يفـ ... ـهم لُطفَهُ وغرائبَهْ
وتكون حاضرةُ الفوا ... ئد عنده كالغائبه
وأخو الحصافة مُستحِـ ... ـقّ أنْ ينالَ مَطالبَه
فيحقُه أعطيتَهُ ... مِنْ فَضْلِ علمك واجبَه

ومن رقَّ وجهُه عنـــد السؤال ، رقّ عِلمُه عند الرجال . علم بلا عمل ، كشجرة بلا ثمر . كما لا يُنبِتُ المطرُ الكثيرُ الصَّخرَ ، كذلك لا ينفعُ البليدَ كثرةُ التعلم . من ترفّع بعلمه وضَعَه اللهُ بعمله . الجاهلُ صغيرٌ وإن كان كبيراً ، والعالم كبيرٌ وإن كان صغيرا . من أكثر مذاكرةَ العلماء ، لم ينس ما علم ، واستفاد ما لم يعلم .

ابن المعتز : المتواضعُ في طلاب العــلم أكثرهم عِلْما ، كما أن المكان المنخفضَ لابن المعتز أكثر البقاع ماء . إذا علمت فلا تذْكرْ مَن دونك من الجهال ، واذكُرْ مَنْ فوقك من العلماء . النارُ لا يُنقِصُها ما أُخذَ منها ، ولكن يُنقِصُها ألّا تجد حطباً ، كذلك العلمُ لا يُفْنِيه الاقتباسُ منه ؛ وفَقْدُ الحاملين له سببُ عدمه . مات خَزَنة الأموال وهم أحيــاء ، وعاش خُزّانُ العلم وهم أموات . مثَلُ عِلم لا ينفع ككنز لا يُنفَقُ منه . أزهد النـــاس في عالم جيرانُه .

وقيل للصلت بن عطاء ـــ وكان مقدّماً عند البرامكة : كيف غلَبت عليهم وعندهم الصلت مَنْ هو آدَبُ منــك ؟ قال : ليس للقُرَباء طَرَافة الغُرَباء ، وكنت امرأً بعيدَ الدار ، نائي المَزار ، غريبَ الاسم ، قليلَ الجرم ، كثيرَ الالتواء ، شحيحاً بالإملاء ؛ فرغّبهم فيّ رغبتي عنهم ، وزهّدني فيهم رغبتُهم فيّ .

علم لا يَعْبُرُ معك الوادي ، لا يعمر بك النّادي . لو سكت مَنْ لا يعــلم لسقط الاختلاف . إذا ازدحم الجوابُ خَفِي الصواب . الغلط تحت اللَّغط . خرق الإجمــاع خرق . المحجوج بكلّ شيء ينطق .

استعارات فقهية تليق بهذا المكان

دخل أبو تمام الطائي على أحمد بن أبي دُوَاد في مجلس حكمه، وأنشده أبياتا يستمطرُ نائله ، وينشر فضائله ، فقال : سيأتيك ثوابُها يا أبا تمام ، ثم اشتغل بتوقيعات في يده ؛ فأحفظ ذلك أبا تمام ، فقال : احضر أيدك الله فإنك غائب ، واجْتَمعْ فإنك مفترق ، ثم أنشده :

إنَّ حَرَاماً قبولُ مِدْحَتِنا   وتَرْكُ ما نَرْتَجِي من الصَّفَدِ[1]
كالدنانيرُ والدراهمُ في الصَّرْ   فِ حرامٌ إلا يَداً بِيَدِ

فأمر بتوفير حِبَائه ، وتعجيل عطائه .

ولما ولي طاهر بن عبد الله بن طاهر خراسان دخل الشعراء يهنئونه ، وفيهم تمام ابن أبي تمام فأنشده :

هنَّاكَ ربُّ الناسِ هَنَّاكا   ما من جزيلِ الملك أعطاكا
قرَّتْ بما أُعطِيت ياذَا الحجى   والبأسِ والإنعامِ عَيْنَاكا
أشرقتِ الأرضُ بما نِلْتَهُ   وأوْرَقَ العودُ بجَدْوَاكا

فاستضعف الجماعةُ شعره ، وقالوا : يا بُعْدَ ما بينه وبين أبيه ! فقال طاهر لبعض الشعراء : أجبه ، فقال :

حيّاكَ ربُّ الناس حيّاكا   إن الذي أمّلْتَ أخطاكا
فقلتَ قولا فيه مازانهُ   ولو رأى مَدْحا لآساكا
فهاكَ إن شئتَ بها مدحةً   مثل الذي أعطيتَ أعْطَاكا

فقال تمام : أعز الله الأمير ، إنّ الشِّعْرَ بالشعر رِبًا ، فاجعل بينهما صنجاً من الدراهم[2] ، حتى يحلّ لي ولك ! فضحك وقال : إلا يكن معه شعرُ أبيه ، فمعه ظرف أبيه ؛ أعطوه ثلاثة آلاف درهم ! فقال عبد الله بن إسحاق : لو لم يعط إلا لقول أبيه

---

(١) الصفد : العطاء . (٢) هكذا في كل الأصول .

فى الأمير أبى العباس رحمه الله ــ يريد عبد الله بن طاهر[١] :

يقولُ فى قُومَسٍ[٢] صَحْبِى وقد أخذَتْ ... منّا السُّرَى وخُطَا المَهْرِيّةِ القُودِ[٣]

أمطلعَ الشمسِ تبغى أنْ تَؤُمَّ بنا ... فقلتُ : كلاَّ ، ولكن مطلعَ الجودِ

فقال : ويعطى بهذا ثلاثة آلاف.

[ولاية طاهر خراسان]

وكان سببُ ولاية طاهر خراسان بعد أبيه ما حدَّث به أبو العيناء قال : كنا عند أحمد بن أبى دُواد ، فجاء الخبر أنّ الكتبَ وردت على الواثق من خراسان بوفاة عبد الله ابن طاهر وأن الواثق يعزَّى عنه ، وأنه قد ولّى مكانه خراسان إسحاق بن إبراهيم ، وكان عدوًّا له لانخراطه فى سِلْكِ ابن الزيات ؛ فلبس ثيابَه ومضى ، وقال : لاتبرحوا حتى أعودَ إليكم ؛ فلبث قليلا ، ثم عاد إلينا فحدّثنا أنه دخل على الواثق فعزّاه عن عبد الله وجلس ، قال : فقال لى الواثق : قد ولّينا إسحاق خراسان ، فما عندك ؟ قلت : وفق الله أمير المؤمنين ولا نَدِمَهُ . قال : قلْ ما عندك فى هذا . قلت : أمرٌ قد أُمضِىَ ، فما عسيت أن أقولَ فيه . قال : لتفعلنّ . فقلت : يا أمير المؤمنين ، خراسانُ منذ ثلاثين سنة فى يد طاهر وابنه ، وكلُّ مَنْ بها صنائعُهم ، وقد خلف عبد الله عشرَ بنين أكثرُهم رجال ، وجميعُ جيش خراسان لهم عبيدٌ أو موال أو صنائع[٤] ، وسيقولون : أمَا كان فينا مُصْطَنَع ؟ وكان يجب أن يجرّبَنا أميرُ المؤمنين ، فإن وَفَيْنَا بما كان يَفِى به أبونا وجدُّنا ، وإلّا استبدلَ منا بعد عذْرٍ فينا ؛ ويقدم خراسانَ إسحاق وهو رجل غريب فينافسه هؤلاء ، ويتعصّب أهلها لهم ؛ فينتقض ما أُبْرِمَ ، ويفسد ما أُصلح .

---

(١) أخبار أبى تمام ٢٦٢ . (٢) قومس : صقع كبير بين خراسان وبلاد الجبل .

(٣) المهرية : إبل تنسب إلى مهرة بن حيدان . القود : جمع أقود وقوداء : الذلول المنقاد .

(٤) فى س : عبد أو مولى أو صنائعه .

قال : صدقتَ يا أبا عبد الله، والرأى ما قلت ؛ اكتبوا بعهد طاهر بن عبد الله على خراسان . فكتبت كتبُ طاهر، وحُرقت كتب إسحاق ، فخرجت الزنج تطيرُ بها، ثم لقيني إسحاق داخلا، فقلت : ياأبا الحسن ، لاعدمت عداوةَ رجلٍ أزال عنك ولاية خراسان بكلمة .

* * *

وجه من الاستعارات الفقهية — ومدح ابن الرومى أبا العباس بن ثوابة ، فمارضه أخوه أبو الحسن بقصيدة يمدح أخاه بها فقال ابن الرومى[1] :

أَلَيْسَ القَوَافِي بَنَاتِ الْفَتَى . إذا صورَةُ الحقّ لم تُمْسَخِ

فلا تَقْبَلَنّ أماديحَهُ حَرامٌ نِكَاحُ بَنَاتِ الأَخِ

قصيدة أبى تمام فى المعتصم — ولما أنشد أبو تمام قصيدته فى المعتصم : « السيف أصدق إنباء من الكتب » قال له : لقد جلوت عروسك يا أبا تمام فأحسنت جلاءها . قال : يا أمير المؤمنين ، والله لو كانت من الحُورِ العين لكان حُسْنُ إصغائك إليها من أوْفَى مهورِها .

للميكالى — وقال الأمير أبو الفضل الميكالى :

أقول لشادنٍ فى الحُسْنِ أضْحَى يَصيدُ بلَحْظِهِ قَلْبَ الكَمِىّ

ملكتَ الحسنَ أجمعَ فى قوام فأدّ زكاةَ منظرك البَهِىّ

وذلك أنْ تجودَ لمُسْتَهَامٍ بريقٍ من مُقَبَّلِك الشَّهِىّ

فقال : أبو حنيفة لى إمامٌ فعندى لا زكاةَ على الصَّبِىّ

وربما أنشد هذه الأبيات على قافية أخرى فقال :

أقول لشادنٍ فى الحسن فَرْدٍ يصيد بلَحْظِهِ قَلْبَ الجليدِ

ملكتَ الحسن أجمعَ فى قوام فلا تَمْنَع وجوبا عن وُجودِ

وذلك أنْ تجودَ لمستهام برَشْفِ رُضابِك العذبِ البَرودِ

---

(١) ديوانه : ٢ — ١٦٩ .

فقال : أبو حنيفة لِي إمامٌ فعنـــدى لا زَكاة على الوليـدِ

وقال :

بنفسِي غزالٌ صار للحُسْنِ قِبلةً يُحَجّ من البيت العتيق ويُقصَدُ
دعانى الهوَى فيـــه فلبَّيتُ طائما وأحْرمْتُ بالإخلاص والنّقى يَشْهَدُ
فطرفىَ بالتسهيد والدمع قارنٌ وقلبي عليـــه بالصبابة مُفْرَدُ

وقال أبو الفتح كشاجم : لكشاجم

فَدَيْتُ زائرةً فى العيد واصِلةً والهَجْرُ فى غفْلَةٍ من ذلك الخبرِ
فلم يزل خدُّها رُكْناأطوف بهِ والخالُ فى خدّها يُغنى عن الحجَرِ

وينضاف إلى هذا النظم قطعة من رسالة طويلة كتبها بديع الزمان إلى أبى نصر البديع ابن المرزبان(1) :

كتابى أطال الله بقاء الشيخ وأنا سالم(2) ، والحمد لله رب العالمين ، كيف تقلّبُ الشيخ فى دِرْع العافية ، وأحواله بتلك الناحية ؟ فإنى بِبُعْدِه مُنغّص شِرْعة(3) العيش ، مقصوص أجنحة الأُنس . وَرَدَ كتابهُ المشتملُ من خبر سلامته على ما أرغب(4) إلى الله فى إدامته ، وسكنتُ إليه بعد انزعاجى لتأخُّره ؛ وقد كان رسم أن أعرّفه سببَ خروجى من جرجان ، ووُقوعى بخُراسان ، وسببَ غضبِ السلطان ؛ وقد كانت القصةُ أنى لمـا وردتُ من ذلك السلطان حضرتَه ، التى هى كَعْبَةُ المحتاج ، لا كعبةُ الحجّاج ، ومستقَرُّ(5) الكرم ، لا مَشْعَر الحرم ، وقِبلَة الصِّلات لا قِبلَة الصلاة ، ومُنَى الضّيف ، لا مِنى الخَيْفِ ، وجدت بهـا نُدَماءَ من نَبَات العام(6) ، اجتمعوا قِيضَةَ كَلْب(7) على تلفيق خَطْب ، أزعجنى عن ذلك الفِناء ، وأشرفَ بى على الفَناء ،

(1) رسائل البديع : ٩٦ . (2) فى الرسائل : متألم . (3) فى الرسائل : شريعة .
(4) فى الرسائل : مارغبت . (5) فى الرسائل : ومشعر الكرام لامشعر الحرام . والمشعر الحرام : بالمزدلفة . (6) من نبات العام : يريد أنهم حديثو عهد . (7) قيضة كلب : القيضة بالكسر : القطعة الصغيرة من القطع . والمراد تحقيرهم بوصفهم بعظام الكلب .

لولا ما تداركه الله بجميل صنعه ، وحسن دفعه ؛ ولا أعلم كيف احتالوا ، ولا ما الذى قالوا ؛ وبالجملة(١) غيّروا رأى السلطان ، فأشار علىّ إخوانى بمفارقة مكانى ، وبقيتُ لا أعلم أيمنةً أضربُ أم شآمة ، ونجداً أقصد أم تهامة !

ولو كنت فى سلمى أجا(٢) وشعابها   لكان لحجّاجٍ علىّ دليلُ

وقد علم الشيخ أنّ ذلك السلطانَ سماءٌ إذا تغيّم لم يُرجَ صحوُه ، وماءٌ إذا تغيّر لم يُشرَبْ صفوُه ، وملكٌ إذا سخط لم يُنتظر عفوُه ، وليس بين رضاه والسخط عَوْجة(٣) ، كما ليس بين غضبه والسيف فُرجة ، وليس من وراء سُخطِه مجاز ، كما ليس بين الحياة والموت معه حِجاز ؛ فهو سيّد يغضبه الجُرْمُ الخفىّ ، ولا يُرضيه العذرُ الجلىّ ؛ وتكفيه الجناية وهى إرجاف ، ثم لا تشفيه العقوبة وهى إجحاف ، حتى إنه ليرى الذنبَ وهو أضيقُ من ظلّ الرمح ، ويعمَى عن العُذرِ وهو أبينُ من عمود الصُّبح ؛ وهو ذو أذنين يسمع بهذه القولَ وهو بُهتان ، ويحجُبُ عن هذه العذرَ وله برهان ؛ وذو يدين يبسط إحداهما إلى السّفك والسّفح ، ويقبض الأخرى عن العفو والصّفح . وذو عينين يفتحُ إحداهما إلى الجُرْم ، ويُغمِضُ الأخرى عن الحِلْم ؛ فرَّحُه بين القدّ والقطع ، وجدُّه بين السيف والنِّطْع(٤) ، ومُرادُه بين الظهور والكُمونِ ، وأمرُه بين الكاف والنون . ثم لا يَعرِفُ من العقاب غيرَ ضَرْبِ الرقاب ، ولا يهتدى من التأنيب إلا لإزالة النّعم ، ولا يعلم من التأديب غيرَ إراقة الدّم ، ولا يحتملُ الهَنَةَ(٥) على حَجْمِ الذرّة ، ودِقّةِ الشعرة ، ولا يحلُم عن الهَفْوَة كوزنِ الهَبْوَة ، ولا يُغضِى عن السَّقْطة كجِرْمِ النُّقْطة ؛ ثم إنّ النقمَ(٦) بين لفظه وقلمه ، والأرضَ تحت يده وقدمه ، لا يلقاه الولىّ إلا بفيه ، ولا العدوّ إلا بدَمِه(٧) ؛ والأرواح

---

(١) فى الرسائل : لكن الجملة أن غيروا السلطان . (٢) أجأ وسلمى : جبلان .

(٣) فى الرسائل : عرجة . (٤) النطع — بالكسر ويفتح : بساط من الأديم .

(٥) الهنة : الشيء اليسير . (٦) فى الرسائل : النعم .

(٧) فى ق : إلا بفيه ، ولا العدو إلا بدمه .

بين حَبْسه وإطلاقه ، كما أنّ الأجسام بين حلّه ووَثَاقِه[١] ؛ فنظرتُ فإذا أنا بين جُودَين : إما أن أجودَ بيأسي ، وإمّا أن أجودَ برأسي ؛ وبين رُكوبَين : إمّا المفازة ، وإمّا الجنازة . وبين طريقين : إمّا الغُرْبة ، وإمّا التربة . وبين فِرَاقَين : إمّا أن أفارق أرْضِي ، أو أُفارق عرضي . وبين راحلتين : إمّا ظهور الجِمال ، وإمّا أعْناق الرجال ؛ فاخترتُ السماح بالوَطَن ، على السماح بالبَدَن ؛ وأنشدت :

إذا لم يكُنْ إلّا المنية مَرْكَبٌ ... فلا رَأْيَ للمحمول إلا رُكوبُها

* * *

ولدما ذكر من كعبة [المحتاج لا كعبة][٢] الحُجّاج ، من قول أبي تمام :

بيتان حجّهُما الأنام فهذه ... حجُّ الغنيِّ وتلكُمُ لِلمُعْدِمِ

[أبو عليّ البصير وشيء من أدبه]

وشتم بعضُ الطالبيين أبا عليّ الفضلَ بن جعفر البصير ، فقـال أبو عليّ : والله ما نَفَسَي عن جوابك ، ولا نَعْجِز عن مسَابّتك ؛ ولكنّا نكونُ خيراً لنسبك منك ، ونحفظ منه ما أضَعْتَ ؛ فاشكُرْ توقيرَنا ما وفَّرْنا منك ، ولا يغرُنّك بالجهل علينـا حِلمُنا عنك . أدبه

وسأل أبو علي البصير بعضَ الرؤساء حاجة ولقيه ؛ فاعتذر إليه من تأخّرها ؛ فقال أبو عليّ : فى شُكْرِ ما تقدّم من إحسانك شاغلٌ من استبطاء ما تأخّر منه .

من شعره وأبو عليّ[٣] أحد مَنْ جمع له حظّ البلاغة فى الموزون والمنثور ، وهو القائلُ :

ألمّتْ بنا يَوْمَ الرحيل اختلاسة ... فأضْرَمَ نيرانَ الهوَى النَّظَرُ الخَلْسُ

تأبّتْ قليلا وهى تُرْعَدُ خيفةً ... كما تتأبّى حين تَمْتَقِل الشمسُ

تخاطبها صَمْتي بما أنا مُضمِرٌ ... وأنْبِسْتُ[٤] حتى ليس يُسْمَع لى حِسُّ

---

(١) الوثاق – بالفتح ويكسر : ما يشد به . (٢) ساقط من ط .

(٣) الآل : ٢٧٦ . (٤) النبس : أقل الكلام ، والذى فى اللسان : نبس ، كضرب ، ونبس بالتشديد أيضا .

وولّت كما ولّى الشباب لِطيّةٍ ... طوَتْ دونها كَشْحاً على يأسها النفسُ

وقال يصف بلاغةَ الفتح بن خاقان وشعره :

سَمِعْنا بأشعار الملوك فكلُّها ... إذا عَضّ مَتْنَيْه الثِّقافُ[1] تأوّدا

سوى ما رأينا لامرئ القيس، إننا ... نَراه متى لم يَشْعُرِ الفَتْحُ أوْحَدا

أقام زماناً يَسْمَعُ القولَ صامتاً ... ونحسبه إنْ رامَ أكْدَى[2] وأَصْلَدا

[فلما امتطاه راكبا ذلّ صعْبُه ... وسار فأضحى قد أغار وأنْجَدا][3]

والفتح بن خاقان يقول :

وإنّى وإياها لَكالخَمْرِ والفتى ... متى يستَطِعْ منها الزيادةَ يَزْدَدِ

إذا ازْدَدْتُ منها زاد وَجْدِى بقُرْبِها ... فكيف احتراسِى مِنْ هوًى متجدِّدِ

كتابه إلى عبيد الله بن يحيى — وكتب إلى أبى الحسن عبيد الله بن يحيى : وإن أميرَ المؤمنين لمّا استخلصك لنفسه ، وائْتَمنك على رعيّته ؛ فنطق بلسانك ؛ وأخذَ وأعطى بيدك ، وأوْرد وأصْدَر عن رأيك ، وكان تفويضُه إليك بعد امتحانِه إياك ، وتَسْلِيطه الحقّ على الهوى فيك ، وبعد أن مثّل بينك وبين الذين سَمَوْا لرُتْبتك ، وجرَوْا إلى غايتك ، فأسقطهم مَضاؤُك ، وخَفُّوا فى ميزانك ، ولم يزدك — أكرمك اللهُ — رفعة وتشريفا إلا ازددتَ له هيبةً وتعظيما ؛ ولا تسليطا وتمكينا ، إلا زِدْتَ نفسك عن الدنيا عُزوفاً وتنزيها ؛ ولا تقريبا واختصاصا ، إلا ازْدَدْتَ بالعامة رأفةً وعليها حَدَبا ، لا يخرجك فَرْطُ النصح له عن النظر لرعيّته ، ولا إيثارُ حقّه عن الأخذ بحقّها عنده ، ولا القيامُ بما هو له عن تضمين ما هو عليه ، ولا يشغلك مُعاناة كِبارِ الأمور عن تفقّد صغارِها ، ولا الجِدُّ فى صلاح ما يَنْلُحُ منها عن النظر فى عواقبها ؛ تُمْضِى ما كان الرُّشْدُ فى إمضائه ، وتُرْجِئُ ما كان الحَزْمُ فى إرجائه ، وتبذُلُ ما كان الفضلُ فى بَذْله ، وتمنعُ

---

(١) الثقاف : ما تسوى به الرماح . (٢) يقال حفر فأكدى : صادف الكدية وهى الصفاة العظيمة الشديدة . (٣) ساقط من ط .

ما كانت المصلحةُ فى مَنْعِه ، وتَلِين فى غير تكبُّر ، وتخص فى غير مَيل ، وتعمّ فى غير تصنّع، لا يَشْقَى بك الحقُّ وإن كان عدوّا ، ولا يَسْعَدُ بك المبطلُ وإن كان وليّا؛ فالسلطان يعتدّ لك من الغَناء والكِفَاية ، والذَّبّ والحِياطة ، والنُّصح والأمانة ، والعِفّة والنزاهة ، والنصَب[1] فيما أدّى إلى الراحة ، بما يراك معه ، حيث انتهى إحسانُه إليك، مستوجبا للزيادة. وكافةُ الرعية إلا من غَمِطَ[2] منهم النِّعْمة، مُثْنُونَ عليك بحُسْنِ السيرة ، ويُمْنِ النقيبة ، ويَعُدُّونَ من مآثرك أنك لم تُدْحِض لأحدٍ حُجّة ، ولم تدفع حقّا لشُبْهَة ؛ وهذا يسيرٌ من كثير ، لو قصدنا لتفصيله ، لأَنْفَدْنا الزمانَ قبل تحصيله ، ثم كان قصدنا الوقوف دون الغاية منه .

وله إليه أيضا

وله إلى عبيد الله بن يحيى : يقطعنى عن الأخذِ بحظّى من لقائك ، وتعريفك ما أنا عليه من شُكْرِ إنعامك ، وإفرادى إياك بالتأميل دونَ غيرك ، تخلّفى عن منزلة الخاصّة ، ورغبتى عن الحلول مَحَلَّ العامة ؛ وأنى لستُ معتاداً للخِدْمَةِ ولا الملازمة ، ولا قويّاً على المُغاداةِ والمُراوحة ؛ فلا يمنعك ارتفاعُ قَدْرِك ، وعلوّ أمرك ، وما تعانيه من جلائل الأحوال الشاغلة ، من أنْ تتطوّل[3] بتجديد ذِكرى ، والإصغاء إلى مَنْ يحضّك على وَصْلى وبِرّى ، ويرغّبك فى إسداء حُسْنِ الصنيعةِ عندى .

وله إليه آخر فصل من كتاب : وأنا أسألُ الله الذى رَحِمَ العبادَ بك ، على حين دعاء بلغ افتقار منهم إليك ، أن يُعيذهم من فَقْدِك ، ولا يُعيدهم إلى المكاره التى استنقذتهم منها بيدك .

[الباعث على الرحيل]

ولقى رجلٌ رجلا خارجا من مِصْرَ يريد المَغْرِب، فقال : يا أخى ! أَتَتّبِعُ القَطْرَ ،

---

(١) النصب : التعب . (٢) غمط النعمة : كضرب وسمع — بطرها وحقرها .
(٣) تطول : امتن .

وتَدَعُ مَجْرَى السيول ؟ فقال : أخرجني من مصر حَقٌّ مُضَاع ، وشُحٌّ مُطَاع ، وإقتار الكريم ، وحركةُ اللئيم ، وتغيُّر الصديق ، بين السعة والضيق ، والهربُ إلى النَّزْرِ بالعز خيرٌ من طلب الوَفْر بذُلِّ العَجْز .

[الوصايا في السفر]

بعض الحكماء لصديق — وأوصى بعضُ الحكماء صديقا له وقد أرادَ سفرا فقال : إنك تدخُلُ بلداً لاتعْرِفُه ولا يعرِفُك أهلُه ؛ فتمسَّكْ بوصيتي تنفق بها فيه : عليك بحُسْنِ الشمائل ، فإنها تدلُّ على الحرية ؛ ونقاء الأطراف فإنها تشهد بالمُلوكية ؛ ونظافة البِزَّة ، فإنها تنبي عن النَّشء في النِّعمة ؛ وطيب الرائحة ، فإنها تظهرُ المروءة ، والأدب الجميل ، فإنه يكسب المحبة . وليكنْ عقلُك دون دِينك ، وقولُك دون فِعلك ، ولباسُك دون قَدْرِك ، والزَم الحياء والأنَفَة ؛ فإنك إن استحييت من الغضاضة اجتلبت الخساسة ، وإن أنِفْتَ عن الغابة لم يتقدمْكَ نظيرٌ في مرتبة .

أعرابي يوصي في السفر — قال الأصمعي : سمعتُ أعرابيا يُوصِي آخرَ أرادَ سفراً ؛ فقال : آثِرْ بعملك مَعَادَك ، ولا تَدَع لِشَهَوَاتِك رَشادَك ، وليكُنْ عقلُك وزيرَك الذي يَدْعُوك إلى الهدى ، ويجنِّبك من الرَّدى ، واحْبِس هواك عن الفواحش ، وأطْلِقه في المكارم ؛ فإنك تبرّ بذلك سَلَفك ، وتَشِيد به شرفَك .

أعرابية توصي ابنها — وأوصت أعرابية ابنَها في سفر ، فقالت : يابني ؛ إنك تجاورُ الغرباء ، وترحَلُ عن الأصدقاء ، ولعلك لا تَلقَى غيرَ الأعداء ؛ فخالِط الناسَ بجميل البِشر ، واتَّقِ اللهَ في العَلانيةِ والسرّ .

بعض الملوك لحكيم — وقال بعضُ الملوك لحكيم وقد أراد سفراً : قِفْنِي على أشياء من حِكْمتك أعْمَلْ بها في سفري . فقال :

اجعل تأنِّيك أمام عجَلَتِك ، وحِلْمَك[1] رسولَ شِدَّتك ، وعفوَك مالِكَ قدرتك ،

---

(١) في س : وحلمك .

وأنا ضامنٌ لك قلوبَ رعيَّتك ، ما لم تُخرِجْهم بالشدةِ عليهم ، أو تُبْطِرْهم بالإحسان إليهم .

أعرابية توصى ولدها

وقال أبان بن تغلب[1]: شهدت أعرابيةً تُوصِى ولداً لها أراد سفرا وهى تقول : أى بنى! اجلس أمْتَحْك وصيتى ، وبالله توفيقُك ، قال أبان: فوقفت مستمعا لكلامها، مستحسنا لوصيَّتها ، فإذا هى تقول : أى بنى ! إياكَ والنميمة ، فإنها تَزْرَعُ الضغينة ، وتفرِّق بين المحبِّين، وإياكَ والتعرض للعيوبِ فتُتَّخذ غَرَضاً، وخليقٌ ألَّا يَثْبُتَ الغَرَضُ على كَثْرَةِ السهام ؛ وقلَّما اعتوَرَتِ السهامُ غَرَضا إلّا كَلَمَتْه، حتى يَهِيَ[2] ما اشتدَّ من قُوَّته ؛ وإياكَ والجودَ بدينك ، والبخلَ بمالك؛ وإذا هزَزْتَ فاهزُزْ كريما ، يَلِنْ لِهَزَّتك ؛ ولا تَهزُزِ اللئيمَ ، فإنه صخرةٌ لا يتفجَّرُ ماؤها ، ومثِّل بنفسك مثالَ ما استحسنتَ من غيرك فاعمل به ، وما استقبحتَ من غيرك فاجتنبه ؛ فإن المرء لا يرى عَيْبَ نفسه ؛ ومن كانت مودَّته بِشره ، وخالف منه ذلك فعله ، كان صديقُه منه على مِثْلِ الريح فى تصرُّفها .

ثم أمسكت ، فدنوتُ منها ، فقلت لها : بالله يا أعرابية ، إلّا ما زِدْتِه فى الوصية . قال : أو قد أعجبك كلامُ العرب يا حَضَرى ؟ قلت : نعم ! قالت : الغَدْرُ أقبح ما تعاملَ به الناسُ بينهم ، ومَنْ جمع الحِلْمَ والسخاء فقد أجادَ الحُلَّة رَيْطتَها وسِرْبالَها .

فقر فى مدح السفر

أبو القاسم بن عباد الصاحب : الخبر المنقول أنَّ المَبوضَ غريبا شهيد . وفى صاحب الحديث : سافروا تَغْنَموا . السفرُ أحدُ أسباب العيش التى بها قِوامه ، وعليها نِظَامه[3] . إنَّ الله لم يجمَعْ منافعَ الدنيا فى الأرض ؛ بل فرَّقها وأحوجَ بعضها إلى

---

(١) الأمالى ٢ — ٧٩ . (٢) يضعف . (٣) فى الحديث : لو يعلم الناس رحمة الله للمسافر لأصبح الناس على ظهر سفر . إن الله بالمسافر رحيم — هامش س .

بعض . المسافرُ يسمعُ العجائبَ ، ويَكتسبُ التجاربَ ، ويَجلِبُ المكاسب . الأسفارُ مما تَزيدك علما بقدرة الله وحكمته ، وتدعوكَ إلى شكر نعمته . ليس بينك وبين بلدٍ نَسَب ؛ فخيرُ البلاد ما حملك . السفرُ يُسْفِر عن أخلاق الرجال . أوحِشْ أهلَك إذا كان في إيحاشهم أُنْسُك ، واهْجُرْ وطنَك إذا نَبَتْ عنه نفسك . ربما أسفر السفر عن الظَّفَر ، وتعذَّر في الوطن قضاء الوطَر ، وأنشد :

ليس ارتحالُك تَرْتادُ الغِنَى سفراً ... بل المُقام على خَسْفٍ هو السفرُ

وهذا كقول الطائي[1] :

وما القَفْرُ بالبِيدِ القِضاء[2] بل التي ... نَبَتْ بي وفيها ساكِنُوها هِيَ القَفْرُ

أخذه المتنبي فقال[3] :

إذا تَرَحَّلْتَ عن قومٍ وقد قَدَرُوا ... ألَّا تُفارِقَهُم فالرَّاحِلونَ هُمُ

نقيض ذلك في ذم السفر والغربة

من الحديث في الحديث : إنَّ المسافرَ وماله لَعَلَى ، قلت : إلَّا ما وَقى الله ؛ أي على هلاك . شيئان لا يعرفُهما إلا من ابتُلي بهما : السفرُ الشاسع ، والبناء الواسع . السفرُ والسقمُ والقتال ثلاث[4] متقاربة ، فالسفرُ سفينة الأذى ، والسقمُ حَريقُ الجسد ؛ والقتالُ منبتُ المنايا . إذا كنت في غير بلدك فلا تَنْسَ نصيبك من الذّل . الغربةُ كُرْبة . القِلّةُ ذِلّة . الغريب كالغَرْسِ الذي زايل أرْضَه ، وفَقَد شربه ، فهو ذاوٍ لا يُثمِر ، وذابلٌ لا ينضر . الغريبُ كالوحْشِ النائي عن وطنه ، فهو لكل سَبعٍ فَريسةٌ ، ولكل رامٍ رَمِيّة ؛ وأنشد :

لَقربُ الدار في الإقتار خَيْرٌ ... من العيش الموسَّع في اغترابِ

(١) التبيان ٣ — ٣٧٢ . (٢) في التبيان : القواء .
(٣) ديوانه : ٣ — ٣٧٢ . (٤) في س : أثلاث .

البستى

وقال أبو الفتح البستى[١] :

لا يعدَم المرء شيئاً[٢] يستعينُ بهِ ومنعة[٣] بين أهليه وأصحابه
ومن نَأى عنهمُ قلّتْ مَهابتهُ كالليثِ يحقرُ لمّا غاب[٤] عن غابِه

[بعد العزل والإبعاد والحجب]

كتاب إلى المهدى

كتب أبو عبيـــد الله إلى المهدى بعد عزْلِه إياه عن الدواوين : لم يُنكر أميرُ المؤمنين حالى فى قُرْبِ المؤانسة وخصوصِ الخلطة ؛ وحالِى عنــده قَبْلَ ذلك فى قيامى بواجب خِدْمَته ، التى أدْنَتنى من نِعمته ، فلم أُبدّل ـ أعزّ اللهُ أميرَ المؤمنين ـ حال التبعيد ، ويقرّب فى محلّ الإقصاء ، وما يعلمُ اللهُ منى فيما قلت إلّا ما علمه أميرُ المؤمنين ، فإن رأى أكرمه الله أن يُعارِضَ قولى بعلمه بدءاً وعاقبةً فعل إن شاء الله .

فلما قرأ كتابه شهد بتصديقه قلبُه ، فقال : ظلمنا أبا عبيد الله ، فليردّ إلى حاله ، ويعلم ما تجدّد له من حُسْنِ رأيى[٥] فيه .

كتاب إلى المأمون

ولمـا أمر المأمونُ أن يُحجَب عنــه الفضلُ بن الربيع لسببٍ تألّمَ[٦] قلبُه منه كتب إليه :

يا أميرَ المؤمنين ! لم يُنْسِنِى التقريبُ حالى أيامَ التبعيـــد ، ولا أغفلتنى المُؤانسةُ عن شكر الابتداء ؛ فعلى أىّ الحالين أبعد من أمير المؤمنين ، ويَلْحَقنى ذمُّ التقصير فى واجب خدمته ؟ وأميرُ المؤمنين أعْدَلُ شهودى على الصّدق فيما وصفت ؛ فإن رأى أميرُ المؤمنين ألّا يكتم شهادتى فعل إن شاء الله .

بين المنصور وأبى مسلم

وقال أبو جعفر المنصور لأبى مسلم حين أزْمَع قَتْلَه : هل كنتَ قبــل قيامك

---

(١) اليتيمة : ٤ ـ ٣٠٨ . (٢) فى اليتيمة : كنا يستكن به .
(٣) فى اليتيمة : ومتعه . (٤) فى اليتيمة : إذا غاب . (٥) فى س : رأى .
(٦) فى س : ألم .

بدولتنا جائزَ الأمرِ على عَبْدين ؟ قال : لا ، يا أمير المؤمنين . قال : فلِمَ لَمْ تَمْرِضْ حالَيْ عُسْرتك ومَهانتك على أيامنا ، وتعرف لنا مايَعْرِفُ غيرُك من إجلالنا وإعظامنا ، حتى لاينا الحين عنأن الطمأنينة ؟ قال : قد كان ذلك يا أميرَ المؤمنين ، ولكنّ الزمانَ وإساءته قَلَبَا ماكان من حُسْنِ صنيعتى . قال : فلا مرغوبَ نيسك ، ولا مأسوفَ عليك ، وقى الله خَلَفَكَ منك! وأمر بقتله .

جملة من شعر أبى الفتح كشاجم فى الأوصاف

وصف أجزاء من القرآن

قال يصف أجزاء من القرآن :

مَنْ يَتُبْ خشيةَ العقابِ فإنى ... تُبْتُ أُنْسًا بهــذه الأجزاء
بمُتقى على القراءة والنُّسْ ... ك وما خِلْتُنى مِنَ القُرّاء
حين جاءت تَرُوقنى باعتدالٍ . ... من قُدودٍ وصيغةٍ واستواء
سيمة أشْبَهَتْ لىَ السيمةَ الأَنْـ ... ـجم ذاتَ الأنوار والأضواء
كُسيت[1] من أديمها الحالِكِ اللَّوْ ... نِ غِشاءً ، أَحْبِبْ به من غِشاء
مشبها صبغة الشَّبَابِ ولمّا ... تِ العَذارى ولِبْسة الخطباء
ورأت أنها تُحسنُ بالضـ ... ـدّ فتاهَتْ بحِلْيةٍ بيضاء
فهى مسودّةُ الظهور وفيها ... نورُ حقٍّ يَجْلُو دُجَى الظَّلْماء
مطبقات على صحائفَ كالرَّيْـ ... ـطِ[2] تُخَيِّرْنَ مِنْ مُسوكِ الظّبَاء
وكأنّ الخطوطَ فيها رياضٌ ... شاكِراتٌ صنيعةَ الأنواء
وكأنّ البياضَ والنُّقَطَ السُّو ... دَ عبيرٌ رشَشْتَهُ فى مُلاء
وكأن المشورَ والذّهبَ السا ... طع فيها كواكبٌ فى سماء
وهى مشكولةٌ بمدّةِ أشْكا ... لٍ ومقروءةٌ على أنحاء

---

(١) فى س : كسيت .

(٢) الريطة : كل ملاءة ذات لفقين كلها نسج واحد وقطعة واحدة ، وجمعها ريط .

فإذا شئتَ كان حمزةُ فيهـــا   وإذا شئت كان فيها الكِسائى
خُضْرة فى خلالِ حُمرٍ(١) وصُفْرٍ   بين تلك الأضعاف والأثناء
مثل ما أثّرَ الدّبيبُ من الذّ   رّ على جِلْدِ بَضّةٍ عَذْراء
ضُمِّنَتْ مُحْكَمَ الكتابِ كتاب الله ذى المكرُمات والآلاء
لِحَقيقٌ علىّ أنْ أتلوَ القر   آنَ فيهن مُصْبِحى ومَسائى

وصف تخت

وقال يصفُ التخت الذى يُضْرَب عليه حِساب الهند :

وقلم مِدادُهُ تُرابُ   فى صُحُفٍ سُطُورُها حِسابُ
يَكثُرُ فيها المَحْوُ والإضرابُ   من غير أنْ يسوّد الكتابُ
حتى يبينَ الحقُّ والصواب   وليس إعجامٌ ولا إعرابُ
فيه ولا شكٌّ ولا ارتيابُ

وقال يصف بِرْكاراً استهداه :

وصف بركار

جُدْ لى ببركارك الذى صَنَعَتْ   فيه يَدَا قَيْنِهِ الأعاجيبا
ملتئم الشُّعبتَيْن معتــدلٌ   ماشِينَ من جانبٍ ولاعِبِيَا
شخصان فى شكلٍ واحد قدرا   ورُكّبا بالعقولِ تركيبا
أشبه شيئين فى اشتكالهما   بصاحب لا يزالُ مصحوبا
أُوثِقَ مسمارُه وغُيِّبَ عن   نواظر الناقدين تغْييبا
فتَيْنُ مَنْ يجتليــه يحسبُهُ   فى قالب الإعتدال مَصْبوبا
قد ضَمّ قُطْرَيْهِ مُحْكِماً لهما   ضَمّ مُحِبّ إليــه محبوبا
يزداد حِرْصا عليه مُبصِره   ما زاده بالبَنانِ تقليبا
ذو مُقْلَةٍ بصَرتْه مَنسبة   لم تألُهُ رِقّةً وتهذيبا
ينظرُ فيها إلى الصوابِ فما   بها يزالُ الصوابُ مطلوبا
لولاه ما صحّ خطُّ دائرةٍ   ولا وَجَدْنا الحسابَ محسوبا

(١) فى س ، ق : جهد .

[الحقّ فيه فإن عدّدتَ إلى ... سواء كان الحسابُ تقريبا][1]

لو عَيْنُ إقليدسٍ به بَصُرتْ ... خرّ له بالسجودِ مكبوبا

فابعثْه واجْنُبه[2] لى عِشطَرَةٍ ... تُلْفِ الهوَى بالثناء مَجْنُوبا

وصف بيكات

وقال يصف بيكانا[3] :

روحٌ من الماء فى جِسْمٍ من الصُّفْرِ ... مولّد[4] بلطيف الحِسِّ[5] والنظرِ

مستعبرٌ لم يَغِبْ عن طَرْفِه سَكَنٌ ... ولم يَبِتْ من ذوى ضِغْنٍ على حَذَرِ

له على الظهر أجفانٌ محجّرةٌ ... ومقلةٌ دَمْعُها جارٍ على قَدَرِ

تُنْشَا[6] له حركاتٌ من أسافلِه ... كأنها حركاتُ الماء فى الشجرِ

وفى أعاليه حسبانٌ يُفَصّله[7] ... للناظرين بلا ذِهْنٍ ولا فِكَرِ

إذا بكى دارَ فى أحشائه فَلَكٌ ... جافٍ[8] السيرِ وإن لم يَبْكِ لم يَدُرِ

مُترجِمٌ عن مَوَاقيتٍ يخبِّرُنا ... بها فيوجَدُ فيها صادق الخبرِ

تُقْضَى به الحِسُّ فى وَقْتِ الوجوب وإن ... غطّى على الشمس سِتْرُ الغَيْمِ والمَطَرِ

وإنْ سَهِرتُ لأوقاتٍ تؤرِّقنى ... عرفتُ مقدارَ ما أَلْقَى من السَّهَرِ

مُحَدِّدٌ[9] كلَّ ميقاتٍ تُخيِّرُه ... ذَوُو التَّخيُّرِ للأسفارِ والحَضَرِ[10]

ومُخرِجٌ لكَ بالأجزاء أَلْطَفَها ... من النهار ، وقوسُ الليلِ والسَّحَرِ

نتيجة العلمِ والتفكيرِ صورَتُه ... ياحبّذا أبدع الأفكارِ فى الصورِ

وصف أسطرلاب

وقال يصفُ اسطرلابا :

ومستديرٍ كجِرْمِ البَدْرِ مَسْطوحٍ ... عن كلِّ رائعةِ الأشكال مَصْفُوحٍ

---

(١) ساقط من ط . (٢) أصل جنبه : قاده إلى جنبه . (٣) نهاية الأرب : ١ — ١٥٥ . وفيه أنه يصف طرجهارة ، وقال : هى من الآلات التى تعرف بها الساعات .

(٤) فى النويرى : مؤلف . (٥) فى س ، ق : الحسن . (٦) فى س ، ق : يقضى .

(٧) فى النويرى : حساب مفصلة . (٨) فى النويرى : خاف .

(٩) فى س ، ق : محدد . (١٠) فى النويرى : للأسباب والسفر .

صُلْبٌ يُدَارُ على قُطْبٍ يثبّتُه ... تمثالُ طرفٍ بشكرِ الحذقِ مَكْبُوحِ
ملء البنان وقد أوفت صفائحه ... على الأقاليم من أقطارِها الفيحِ (١)
تُلْفَى به السبعةَ الأفلاكَ مُحْدِقَةً ... بالماءِ والنارِ والأرضين والرِّيحِ
تُنْبيك عن طالعِ الأبراجِ هيئته ... بالشمس طَوْرًا وطَوْرًا بالمصابيح
وإن مضَتْ ساعة أو بعض ثانيةٍ ... عرفْتَ ذاكَ بعلمٍ فيه مشروحِ
وإنْ تعرَّض في وقتٍ يُقدّرهُ ... لكَ التشكُّكُ جلّاهُ بتصحيحِ
مميز في قياساتِ الضلوعِ به ... بين الشائم منها والمَنَاجيحِ (٢)
له على الظهر عَيْنَا حِكْمَةٍ بهما ... يَحْوِى الضّياءَ وتنجيه من اللوح
وفي الدواوين من أشكاله حِكَمٌ ... تنقّح العقلُ فيها أيَّ تنقيح
لا يستقلُّ لما فيه بمعرفةٍ ... إلّا الحصيفُ اللطيفُ الحِسِّ والرُّوحِ
حتى ترى الغيبَ فيه وهو مُنْغَلِقُ الْـ ... أبوابِ عمَّنْ سِوَاهُ جدّ مفتوح
نتيجة الذهنِ والتفكيرِ صورَتُهُ ... ذَوُو العقولِ الصحيحاتِ الرَّاجيحِ

* * *

وكان أبو شُجَاع فَنَاخَسْرو عَضُدُ الدولة قد نكب أبا إسحاق الصابي ، على الصابي تقدّمه في الكتابة، ومكانه في البلاغة ، واستصْفَى أمواله من غير إيقاعٍ به في نفسه، يهدق سطرلابا فأهدى إليه في يَوْمِ مهرجان اسطرلابا في دَوْر الدرهم ، وكتب إليه :

أهْدَى إليكَ بنو الحاجاتِ واحتشدوا ... في مهرجانٍ عظيمٍ أنتَ تُعْليهِ
لكنّ عبدَكَ إبراهيم حين رأى ... سُمُوَّ قَدْرِكَ عن شيء يُسَاميهِ
لَمْ يَرْضَ بالأرضِ يُهْديها إليكَ فقد ... أهْدَى لكَ الفلكَ الأعْلَى بما فيهِ

* * *

(١) الفيح : الواسعة ، جمع أفيح أو فيحاء .
(٢) المناجيح : جمع منجح ، أي صار ذا نجح .

[بعض أوصاف النساء]

وقول أبي الفتح(١) : « ملء البنان . . . . . . » البيت ــ نظيرُ قول على بن العباس الرومي يصف قلم امرأة :

يَمَّعُ السبعة الأقاليم طُرًّا   وهو في أصبعين مِنْ إقليمِ
كضميرِ الفُؤادِ يَلْتَهِمُ الدُّنْـ   ـيَا وتَحْوِيه دفّتا حَيْزُومِ(٢)

وإنما أخذه ابن الرومي من قول بعض الشعراء يذكر كاتباً :

في كَفِّهِ أخْرَسُ ذُو مَنْطِقٍ   بفائهِ واللام والميمِ
شِبْرٌ إذا قِيسَ ولكنهُ   في فِعْلِهِ مِثْلُ الأقاليمِ
محذَّفُ الرأسِ ومسودُّهُ   كإبرة الرَّوْقِ مِنَ الرِّيمِ(٣)

وهذا البيتُ الأخير مقلوبٌ من قول عَدِيّ بن الرِّقاع العامِلي، وقد وصف قَرْنَ رِيم وشبّهه بقلم عليه مداد وذكر ظبية(٤):

تُزْجِي أغَنَّ كأنَّ إبْرَةَ رَوْقِهِ   قَلَمٌ أصابَ من الدَّوَاةِ مِدَادَهَا

وقَلْبُ المعنى إذا تمكّن الشاعرُ من إخفائه يَجْرِي في السَّرِقَة(٥).

تشبيه الأوراك — وقد ترى تكثيرَ الشعراء من تشبيه أوراك النسوان بالرَّمْلِ والكُثْبَان ؛ قال الشاعر :

وبِيض تَغَنيرات الوجوه كأنما   تأزَّرْنَ دُون الأُزْرِ رملاتِ عالِجِ(٦)
خِدَالَ الشَّوى لا تحتشي غير خَلْقها   إذا الرُّسْحُ لم يصبرن دون النَّافِجِ(٧)

---

(١) في القصيدة السابقة صفحة ٣٩١ . (٢) الحيزوم : ما استدار بالظهر والبطن أو وسط الفؤاد . (٣) محذف : من حذفه تحذيفا : هيأه وصنعه . والروق : القرن . والريم : الظبي .
(٤) اللسان ــ مادة زجا . (٥) في ط : لا يجري مجرى السرقة .
(٦) موضع به رمل ــ كما في القاموس . (٧) خدال الشوى : ممتلئة الأطراف مستديرتها ، والرسح : جمع رسحاء ، وهي قليلة لحم العجز والفخذين . والنافج : حشايا توضع فوق الأرداف .

يَذَرْنَ مُرُوطَ الخزِّ مَلْأَى كأنها ... قِصَارٌ وإنْ طالَتْ بأيْدِى النَّوَاسِجِ

وهـــذا المعنى متداوَل متناقَل فى الجاهلية والإسلام ؛ فأغرب ذو الرمة فى قلبه وأحسن فقال يصف رملا(١) :

ورملٍ كأوْرَاكِ العذارى قَطَعْتُهُ ... وقد جَلَّلَتْهُ المُظْلِماتُ الحَنَادِسُ

وكذلك مدحهم ضُمورَ الكَشْحِ ، وجولان الوُشُحِ ، وصُموت القُلْبِ والخلخال ، ضمور الكشح…

وامتناع الخِدَام(٢) من الجَال ؛ قال خالد بن يزيد بن معاوية ، وذكر رَمْلَةَ بنت الزبير ابن العوام(٣) :

تَجُولُ خلاخيلُ النساء ولا أرَى ... لرملةَ خلخالاً يجولُ ولا قُلْبا(٤)

أُحِبُّ بنى العوّام طُرًّا لحبّهـا ... ومن أجلها أحببتُ أخوالها كَلْبا

وقال النابغة(٥) :

على أنّ حجليها وإن قلت(٦) أوسعا ... صموتان(٧) من ملء وقلّة منطقِ

وقال الطائى(٨) :

مَهَا الوحشِ إلّا أنّ هاتَا أوانسٌ ... قَنَا الخطِّ إلا أنّ تِلْكَ ذَوَابِلُ

من الهيف لو أنّ الخلاخيلَ صُيِّرَتْ ... لها وُشُحاً جالَتْ عليها الخَلَاخِلُ(٩)

وقال ابن أبى زُرْعة الدمشقى(١٠) :

استكتمت(١١) خلخالها كما ومشَتْ ... تحتَ الظّلام به فما نَطَقا

حتى إذا ريحُ الصَّبَا نسمَتْ ... ملأ العبيرُ بسيرها(١٢) الطُّرُقا

---

(١) الكامل : ٢ـ٧٧ . (٢) الخدمة ـ محركة : الخلخال ، وجمعه خدام .
(٣) المختار من شعر بشار : ١٥١ . (٤) القلب بالضم : السوار .
(٥) ديوانه : ٧٦ . (٦) فى الديوان : وإن جن . (٧) فى الديوان : رعوثان .
(٨) ديوانه : ٢٥٦ . (٩) الوشح بضمتين : جمع وشاح . (١٠) المختار من شعر بشار : ٩٨ . (١١) فى المختار : فاستمسكت .
(١٢) فى المختار : بسرنا .

الخصر وقال المتنبي[١] :

وخَصْرٍ تَثْبُتُ الأَبْصَارُ فيـهِ كأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ حَدَقٍ نِطَاقَا

قلب هذا كله أبو عثمان الناجم فقال يهجو قَيْنَة :

مسلولة الـكل غَيْرَ بَطْنٍ مثقَّلٍ فهى عنـكبوتُ

حُجولها الدّهر فى اصْطِخَابٍ ووُشحها كُظَّمٌ صُمُوتُ

الألحان وقال أبو عثمان يمدح قَيْنَة :

محسنة فى كلّ ألحَانها لا كالتى تحسن فى النُّدْرَه

ثم قلبه فى هجاء فقال :

عجِبْتُ منها وَبِحِّها كيف لا تُخْطِىء بالإحْسَان فى النّدره

وهذا مأخوذ من قول محمد بن مناذر يهجو خالد بن طليق ، وكان قد تقلّد قضاءَ البصرة :

يا عجباً من خالدٍ كيف لا يُخطِىءُ فينا مَرَّةً بالصوابْ

كان قضاةُ الناسِ فيما مضى مِنْ رَحْمَةِ الله وهذا عَذَابْ

قلب المعنى وهـــذا أيضاً من قلب الهجاء مديحاً ، والمديح هجاء ؛ كما قال مسلم بن الوليد يهجو قوماً:

قبُحت مَنَاظِرُهم فحين خَبَرْتُهُمْ حَسُنَتْ مناظرهم بقُبْحِ المَخْبَرِ

قلبه أبو الطيب المتنبي فقال[٢] :

وأَسْتَكْبِرُ الأَخْبَارَ قَبْلَ لِقَائِهِ فلمّا الْتَقَيْنَا صَغَّرَ الخَبَرَ الخُبْرُ

وقال أبو تمام[٣] :

عبأ[٤] الـكَمِينَ له فَضَلَّ[٥] لحينه وكَمِينهُ الحَتْفُ عليه كَمِينُ

قلبه البحترى فقال[٦] :

---

(١) ديوانه ٢ ـ ٢٩٦ . (٢) ديوانه ٢ ـ ١٥٥ . (٣) ديوانه : ٣٢٧ .
(٤) عبأ : جهز . (٥) فى الديوان : فظل . (٦) ديوانه : ١ ـ ٣٢ .

لا ييأس المرء أن ينجيه ما يحسب الناسُ أنه عَطَبُه

وقال أبو تمام[١] :

وحشيّةً تَرْمِي القلوبَ إذا غَدَتْ[٢] وَسْنَى فما تَصْطادُ غيرَ الصَّيِدِ

قلبه البحترى فقال[٣] :

على أنني أخْشَى على دارِ أمْنِها فوارس[٤] يصطادالفوارسَ صِيدُها

وقال أبو تمام[٥] :

يُشْنَأُ النيثُ وهو جِدُّ حبيبٍ رُبَّ حَزْمٍ فى بَغْضةِ الوموقِ

قلبه البحترى فقال[٦]:

يَسُرُّنِي الشيء[٧] قد يسوءكُمُ نوّهَ يَوْماً بِخَامِلٍ لَقَبُه

قال أبو الفضل أحمد بن أبى طاهر : المعنى فى الصراع الأول أبْيَنُ منه فى الثانى ؛ ألا ترى أنه لوقال : إنه ليسوءك الشيء قد يسر ، كان مثلُ ذلك المعنى مستويا ، إلا أنه قلبه لحاجته ؛ قال ابن الرومى يهجو مغنية[٨] :

قينة ملعونةٌ من أجلها رفض اللَّهْوَ معا مَنْ رفضَه

فإذا غَنّتْ ترى فى حَلقها[٩] كلَّ عِرْقٍ مثل بَيْتِ الأرَضَه[١٠]

فقلبها ابن المعتز فقال يصف أرَضةً أكلت له كتابا :

تَثْنى أنابيبَ لها فيها سبل مثل العروق لاترَى فيها خَلَل

وهذا كثير يُكْتَفَى منه باليسير .

ومن المعانى مالا ينقلب؛ ألَا تَرَى أنك تقول: نام القوم حتى كأنهم موتى، ولايحسن من المعانى مالا ينقلب أن تقول : ماتوا حتى كأنهم نيام؛ وقد أخِذ على أبى نواس قوله يصف دارا أوقف بها[١١]:

---

(١) ديوانه : ٨٢ .   (٢) فى الديوان : إذا اغتدت .   (٣) ديوانه : ١ — ١٥٤ .

(٤) فى الديوان: بنى الروع .   (٥) ديوانه : ٢١٩ .   (٦) ديوانه : ١ — ٣٢ .

(٧) فى الديوان : الأمر .   (٨) ديوانه : ٧١ .   (٩) فى الديوان : فى جيدها .

(١٠) الأرضة : دويبة .   (١١) الصناعتين : ٧١ .

كأنها إذ خرِستْ جارمٌ   بين يدىْ تفنيدِه مُطْرِقُ

قالوا : إنما يجب أن يشبه الجارم إذا عذلوه فسكت وانقطعت حجَّتُه بالدار الخالية التى لا تُجيب .

وأخذوا عليه قوله :

كأن نيراننا فى جَنْبِ حصنهمُ   معصفراتٌ على أرْسَانِ قَصَّارِ[1]

وقد تبعه أبو تمام الطائى فقال فى الأفشين لما أحرق[2] :

ما زالَ سِرُّ الكُفْرِ بَيْن ضُلُوعِهِ   حتى اصْطَلَى سِرَّ الزِّنَادِ الوَارِى

نارٌ[3] يساورُ جسمَه من حرِّها   لَهَبٌ كما عصفرتَ شِقَّ إزار

طارت له[4] شُعَلٌ يهدِّم لفحُها   أركانَهُ هَدْماً بغيرِ غُبَارِ

فصَّلْنَ منـه كلَّ مجمع مَفْصِلٍ   وفعلنَ فاقرةً بكُلِّ فَقَارِ[5]

صلّى لها حيًّا وكان وقُودَها   مَيْتاً ويدخُلها مع الكفا[6]

وكذاك أهلُ النارِ فى الدنيا هُمُ   يومَ القيامة جُلُّ أهْلِ النَّارِ

أردت البيت الثانى ، قالوا : وإنما تشبه الثيابُ المعصفرة بالنار ؛ فهذا وما أشبه لايتوازنُ انعكاسه ، وتتضادّ قضاياه؛ وإنما يصح القلبُ فيما يتحقق تضادّه أو يتقارب.

قطعة من شعر أهل العصر فى ذكر النجوم

البستى قال أبو الفتح البستى[7] :

قد غضّ مِن أملى أنى أرى عملى   أقوَى من المشترى فى أوَّل الحَمَلِ

وأننى راحِلٌ عمّا أحاولهُ   كأننى أستَدِرُ الحظَّ من زُحَلِ

---

(١) الرسن : الحبل ، وجمعه أرسان . والقصار : محور الثياب . (٢) ديوانه : ١٥٢ .
(٣) فى الديوان : نارا . (٤) فى الديوان : لها . (٥) الفاقرة : الداهية ، والفقار : ما انتضد من عظام الصلب من لدن الكاهل إلى العجب . (٦) فى الديوان : مع الفجار . (٧) اليتيمة : ٤ — ٢٩٥ .

وقال(١) :

إذا غـــدا ملكٌ باللّهو مشتغلًا   فاحكم على ملكه بالويْل والحرَبِ
ألم(٢) تر الشمس فى الميزان هابطةً   لما غدا برج نجم اللّهو والطرَبِ

وقال(١) :

وقد تُدْنِى الملوكُ لدى رِضَاها   وتبعد حين تعتقدُ احتقادا
كما المرّيخ فى التثليث يُعْطى   وفى التربيع يَسْلبُ ما أفادا

وقال(١) :

ألا فتقوا بى فإنى كما   تمدّحت فليمتحن من يُحبّْ
فما كوكبى راجعاً فى الوفاء   ولا بُرْجُ(٣) قلبىَ بالمنقلبْ

وقال(١) :

لئن كسَفُونا بلا علّةٍ   وفازت قِداحُهُمُ بالظفَرْ
فقد يَكْسِفُ المرء مَنْ دونه   كما يَكْسِفُ الشمسَ جِرمُ القمَرْ

وقال(١) :

شرف الوَعد بوعد(٤) مثله   مثل ما فيـــه زيغٍ وخَلَل
ودليل الصدقِ فيما قلْتهُ   شرفُ المرّيخ فى بيت زُحَل

وقال(٥) :

قل للذى غرّتْه عِزّةُ مُلْكِهِ   حتى أخلّ بطاعةِ النُّصَحاء
شرفُ الملوكِ بعلمهم وبرأيهم   وكذاك أوْجُ الشمسِ فى الجوزاء

وقال :

وقد يفسدُ المرء بعـــد الصلاح   فساد الأماكن والشرُّ يُعْدِى

---

(١) اليتيمة : ٤ـ ٢٩٥ .   (٢) فى اليتيمة : أما ترى .   (٣) فى اليتيمة : برج .
(٤) فى اليتيمة،س: الوعد بوعد .   (٥) اليتيمة ٤ ـ ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

كما السّعد يَقبل طبع النحوس ... إذا كان في موضع غَيْرِه

وقال[1] :

ما أُنسُ ظمآنٍ بماء باردٍ ... من بَعْدِ طولِ العهد بالموارِدِ
إلا كأُنسي بكتابٍ وارد ... من سيدٍ مَحْضِ النِّجار[2] ماجِدِ
* كأنما استملاه من عُطاردِ *

وقال[1] :

يا معشرَ الكتّاب لاتعرّضوا ... لرياسةٍ وتصاغرُوا وتخادَمُوا
إنّ الكواكب كُنّ في أشرافها ... إلا عطارد حين صُوِّر آدَمُ

وقال[1] :

دعاني إلى بيته سيّدٌ ... له الخُلُق الأشرفُ الأظرفُ
فلازَمْت بيتي ولاطَفْتهُ ... بعذر هو الأظرف[3] الأظرفُ
عطاردُ نَجْمِي ولا شكّ أن ... عطاردَ في بيتــه أشْرَفُ

وقال :

لئن تنقلْتُ مِنْ دارٍ إلى دارِ ... وصرت بعــد ثَوَاه رَهْنَ أسفارِ
فالحرُّ حرٌّ عزيزُ النفس حيث ثَوَى ... والشَّمْسُ في كل بُرْجٍ ذاتُ أنوار

وقال :

لئن صدّع الدهرُ المشتّتُ شملَنــا ... وللدهر حكمٌ للجميع صدُوعُ
فللنَّجْمِ من بعد الرجوع استقامةٌ ... وللشمس من بعد الغروب طُلوعُ

وقال لمحبوس :

حُبِسْتَ ومن بعد الكسوفِ تبلّجٌ ... تضيء به الآفاقُ للبدر والشمسِ
فلا تعتقدْ للحبس غمًّا ووَحْشَةً ... فأول كونِ المرء في أضْيَق الحَبْسِ

---

(١) اليتيمة : ٤ — ٢٩٥ ، ٢٩٦ . (٢) النجار : الأصل . (٣) في اليتيمة : هو الألطف .

يا من تولّى المشترى تدبيرَهُ   حاشاك أن تنقادَ للمرّيخ

وقال[١] :

لا تفزعنْ من كل شيء مُفْزِعٍ   ما كلُّ تدبير البروج بضائرِ

وقال يرثى أبا القاسم الصاحب :

فقدناهُ لما تمّ واعتمّ بالعُلَا   كذاك كسوفُ البدر عنــد تمامه

وقال أبو سعيد عبد الرحمن بن محمد بن درست[٢] لأبى الفضل الميكالى :

إذا ما غاب وَجْهُ البدرِ عنّا   فوجْهُك عنــدنا البدرُ المقيمُ

فإنْ رجعتْ نجومُ السعدِ يوماً   فوجهك نجمُ سعـدٍ مستقيمُ

وقال مسكويه الخالدى :

لا يُعْجِبنّك حُسْنُ القَصْرِ تنزِلُهُ   فضيلة الشمس ليستْ فى منازِلها

لو زِيدت الشمسُ فى أبراجها مائةً   ما زاد ذلك شيئاً فى فضائلها

وقال أبو بكر الخوارزمى[٣]:

رأيتك إن أيسرت[٤] خيّمتَ عندنا   لزاماً وإن أعْسَرت زرتَ لماما

فما أنت إلا البدر إن قلّ ضوءه   أغبّ وإن زاد الضياء أقاما

وهذا كقول إبراهيم بن العباس الصولى فى محمد بن عبد الملك الزيات[٥]:   الصولى

أسَدٌ ضارٍ إذا ما نهْنَهُ   وأبٌ بَرٌّ إذا ما قدرا

يعرف الأبعد إنْ أثرى[٦] ولا   يعرف الأدْنَى إذا ما افتَقَرا

وقال ابن المعتز[٧] :   لابن المعتز

---

(١) اليتيمة : ٤ — ٢٩٥ ، ٢٩٦ .   (٢) فى س : دوسب .   (٣) اليتيمة ٤ — ٢٢٤ .   (٤) فى اليتيمة : آن الشرب .   (٥) ديوانه : ١٣٣ ، المختار من شعر بشار: ١٨٩ ، الأدباء : ١ — ٢٦٩ ، اللآلى : ٦١٦ .   (٦) فى المختار : يعرف الأقصى إذا استغنى.   (٧) ديوانه : ١ — ٢٩ .

إذا ما أراد الحاسدون انهدامهُ … بناهُ إلهٌ غالبُ العزِّ قاهرُهْ[1]
وماذا يُريد الحاسدون من امرئ … تزينهمُ أخلاقهُ ومآثرُهْ
إذا ماهو استغنى اهتدى لافتقارهمْ … ولا تهتدى يَوْماً إليهم[2] مفاقِرُهْ
وكانوا[3] كرَامٍ كوكبا بِصُفَاقِهِ … فرُدَّ عليهم[4] وَبْلُهُ ومَوَاطِرُهْ

وهذا البيت كما قال بعض العرب فى إحدى الروايات[5] :

رَمانى بأمرٍ كنتُ منه وَوَالدى … بريًّا ومِنْ جَالِ الطَّوِىِّ رَمانى

الجُول والجَال : الناحية ، والطوىّ : البئر ؛ يريد رمانى بما عاد عليه ، والرواية المشهورة : ومن أجل الطَّوِىّ ، فعلى هذا تسقط المناسبة بينه وبين قول ابن المعتز .

[الأصمعى وبعض الأعراب]

قال بعضُ الرواة : كنا مع أبى نصر راويةِ الأصمعى فى رياضٍ من المُذَاكرة ، نَجْتَنِى ثمارَهَا ، ونَجْتَلِى أنوارَها ، إلى أن أفضنا فى ذكر أبى سعيد عبد الملك بن قُرَيب الأصمعى ؛ فقال : رحم اللهُ الأصمعىَّ ؛ إنه لَمَعْدِنُ حِكَمٍ ، وبحرُ عِلْمٍ ، غيرَ أنه لم نَرَ قطُّ مثل أعرابى وقف بنا فسلّم ، فقال : أيكم الأصمعى ؟ فقال : أنا ذاك . فقال : أتأذنون بالجلوس ؟ فأذِنّا له ، وعجبنا من حُسْنِ أدبه مع جفاء أدب الأعراب .

قال : يا أصمعى ، أنتَ الذى يزعمُ هؤلاء النَّفَر أنكَ أنقبُهم معرفةً بالشعر والعربية ، وحكايات الأعراب ؟ قال الأصمعى : فيهم منْ هو أعلمُ منى ، ومَنْ هُوَ دونى . قال: أفلا تنشدوننى من بعض شعر أهل الحَضَر حتى أقيسَهُ على شعر أصحابنا؟ فأنشده شعراً لرجل امتدح به مسلمة بن عبد الملك :

---

(١) رواية البيت فى الديوان :

إذا ما أراد الحاسدون من امرئ … بزينهم أخلاقه ومآثره

(٢) فى الديوان : ولايهتدى إليه يوما . (٣) فى الديوان : وكنت كرام .

(٤) فى الديوان : عليه . (٥) فى اللسان ـ مادة جول ، وارجع إلى هذه المادة فى اللسان.

أمسلم أنتَ البحرُ إن جاءَ واردٌ ... وليثٌ إذا ما الحربُ طَارَ عُقَابُها(١)
وأنت كسيف الهِنْدَوَانيّ(٢) إنْ غدَتْ ... حوادثُ من حربٍ يعبُّ عُبابُهــا
وماخُلِقتْ أُكْرُومَةٌ(٣) في امرئٍ لهُ ... ولا غاية إلّا إليك مآبُهــا
كأنك ديّانٌ عليها مُوَكَّلٌ ... بها ، وعلى كفّيك يَجْرِي حِسابُها
إليك رحلْنَا العِيسَ(٤) إذْ لم نجد لها ... أخا ثقة يُرْجَى لديه ثوابُها

قال : فتبسّم الأعرابي ، وهزّ رأسه؛ فظَنَنّا أنّ ذلك لِاسْتِحْسانه الشعر . ثم قال: يا أصمعيّ ؛ هذا شعرٌ مُهَلْهل خلق النَّسج ، خطؤُه أكثرُ من صوابه، يغطي عيوبَه حسنُ الرَّوِيّ ، ورواية المنشد؛ يشبّهون الملك إذا امتُدِح بالأسد، والأسد أبْخَر شَتيم المَنْظَر(٥)، وربما طرده شِرْذِمَةٌ من إمائنا، وتَلاعَب به صِبْيانُنا! ويشبّهونه بالبحر، والبحرُ صعبٌ على مَنْ رَكِبه ، مُرٌّ على من شربه . وبالسيف ، وربما خان في الحقيقة ، ونَبَا عند الضَّرِيبة ! ألا أنشدتني كما قال صبيٌّ من حيّنا !

قال الأصمعي : وماذا قال صاحبكم ؟ فأنشده :

إذا سألت الوَرَى عن كل مكرمةٍ ... لم يُعْزَ إكرامُها إلّا إلى الهوْلِ
فتًى جَوادٌ أذاب المــالَ نَائِلُهُ ... فالنِّيلُ يشكرُ منه كثْرَةَ النَّيْــلِ
الموتُ يكره أن يلقى منيّتهُ ... في كَرِّهِ عند لفِّ الخيل بالخيــلِ
لوزاحم الشمسَ أبقى الشمسَ كاسِفةً ... أو زاحمَ الصمّ ألجاها إلى الميْــلِ
أمضَى من النجم إن نابَتْه نائبةٌ ... وعند أعدائه أجْرَى من السَّيْلِ
لا يستريح إلى الدنيــا وزينتها ... ولا تراه إليها ساحبَ الذَّيْلِ
يقصّرُ المجدُ عنه في مكارمه ... كما يقصّر عن أفعاله قولي !

---

(١) طار عقابها : كناية عن اشتدادها .
(٢) سيف هندواني : منسوب إلى رجال الهند .
(٣) الأكرومة : فعل الكرم .
(٤) العيس : الإبل البيض يخالط بياضها شقرة .
(٥) شتيم المنظر : كريهه .

قال أبو نصر : فأَبْهَتَنا والله ما سمعنا من قوله . قال : فتأَبَّ الأعرابى ، ثم قال للأصمعى : ألّا تنشدنى شعراً ترتاحُ إليه النفس ، ويسكن إليه القلب ؟ فأنشده .

لابن الرّقاع العاملى :

وناعمةٍ تَجْلُو بعُود أراكةٍ   مؤشَّرَةً يَسْبي المعانِقَ طِيبُها
كأنَّ بها خمراً بماء غمامةٍ   إذا ارتشفَتْ بعد الرّقاد غُروبُها
أراك إلى نَجْدٍ تَحِنُّ وإنّما   مُنَى كلِّ نفس حيثُ كان حبيبُها

فتبسّم الأعرابى وقال : يا أصمعى ، ما هذا بدون الأول ، ولا فوقه . ألا أنشدتنى كما قلت ؟ قال الأصمعى : وما قلت ؟ جُعلت فداك ! فأنشده :

تَملّكتُها بِكراً وعُلّقتُ حبَّها   فقلبيَ عن كلِّ الورَى فارغٌ بِكْرُ
إذا احتجبَتْ لم يكفك البدرُ ضوءها   وتكفيك ضوءَ البدر إن حُجِبَ البَدْرُ
وما الصبرُ عنها، إن صبرتَ، وجدتَهُ   جميلاً، وهل فى مثلها يَحْسُنُ الصَّبْرُ!
[وحسبُك من خمر يفوتُك ريقُها   ووالله ما من ريقها حَسبك الخمر] (1)
ولو أنّ جلد الذّرّ لامس جِلْدَها   لكان لمسّ (2) الذّرّ فى جِلدِها أثْرُ
ولو لم يكُنْ للبَدْرِ ضِدًّا جمالُها   وتفضلهُ فى حُسْنِها لصفا البَدْرُ

قال أبو نصر : قال لنا الأصمعى : اكتبوا ما سمعتم ولو بأطراف المُدَى فى رِقاق الأكباد !

قال : وأقام عندنا شهراً ، فجمَع له الأصمعىُّ خمسمائة دينار ، وكان يتعاهدنا فى الحِين بعد الحِين ، حتى مات الأصمعى وتفرّق أصحابنا !

فِقر من كلام الأعراب فى ضروب مختلفة

أثر كلام الأعراب قال الجاحظ : ليس فى الأرضِ كلامٌ هو أمْتَع ، ولا أنْفَع ، ولا آنَقُ ، ولا ألذ فى الأسماع ، ولا أشدّ اتّصالا بالعقول السليمة ، ولا أفتق للسان ، ولا أجود

(1) من س ، ق .   (2) فى ق : لمس .

تقويما للبيان، من طُولِ استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء.

قال ابنُ المقفع – وقد جرى ذِكْرُ الشعرِ وفضيلته: أى حكمة تكون أبلغ، أو أحسن، أو أغرب، أو أعجب، من غلام بدوىّ لم ير رِيفا[1]، ولم يشبع من طعام؛ يستوحشُ من الكلام، ويَفْزَع من البشر، ويأوى إلى القَفْر واليرابيع والظّباء، وقد خالط الغِيلان، وأَنِسَ بالجان[2]؛ فإذا قال الشعر وصف مالم يَرَه، ولم يغذّ به ولم يعرفه، ثم يذكر محاسن الأخلاق ومساويها، ويمدح ويهجو، ويذمّ ويعاتب، ويشبّب ويقول ما يُكتبُ عنه، ويروى له، ويبق عليه.

وقال بعض الأعراب:

وإنى لأهدَى بالأوانس كالدُّمى ... وإنى بأطراف القَنا لَلَعُوبُ

وإنى على ما كان من عُنجُهيّتى ... ولُوثَة أعرابيتى لأدِيبُ[3]

كأنّ الأدبَ غريبٌ من الأعراب، فافتخر بما عنده منه.

فطنة الأعراب

وقال الطائى فى فطنتهم، يستعطف مالك بن طوق على قومه بنى تغلب[4]:

لا رِقةُ الحضر اللّطيف غَذَتْهُمُ ... وتباعدوا عن فِطْنَةِ الأعرابِ

فإذا كشفتهمُ وجدْتَ لديهمُ ... كَرَم النفوس وقلّةَ الآدابِ

من حكمهم

ووصف أعرابى رجلا فقال: هو أطهرُ من الماء، وأرقُّ طباعا من الهواء، وأمضى من السيل، وأهدى من النّجم.

ووصف أعرابىّ رجـلا فقال: ذاك والله من ينفع سلمه، ويتواصفُ حِلمه، ولا يُستَمْرَأ ظُلْمه.

وقال أعرابى: جلستُ إلى قوم من أهل بغداد فما رأيتُ أرجَح من أحلامهم، ولا أطيَشَ من أقلامهم.

---

(١) فى س: ريفا. (٢) فى س: بالجنان. (٣) العنجهية: الكبر. واللوثة: الحمق ومس الجنون. (٤) ديوانه: ٣٠.

وذكر أعرابي من بني كلاب رجلا فقال : كان والله الفهمُ منه ذا أذنين ، والجواب ذا لسانين ؛ ولم أرَ أحداً أرتقَ لخلل رأى ، ولا أبعد مسافة روية ، ومرادَ طَرْفٍ منه ؛ إنما كان يرى بهمّته حيث أشار إليه الكرم ، وما زال يتحسّى مرارةَ أخلاق الا ، ويسقيهم عذوبةَ أخلاقه .

وذكر أعرابيٌّ رجلا فقال : والله لكأنَّ القلوبَ والألسُن رِيضَتْ له ، فما تُعقَد إلّا على وُدِّه ، ولا تنطق إلّا بحمده .

وقال أعرابي : أقبحُ أعمالِ المقتدرين الانتقامُ ، وما استُنْبِط الصوابُ بمثل المشاوَرة ، ولا اكتُسِبَت البغضاء بمثل الكبر .

قال الأصمعي : وخطبَنا أعرابي بالبادية فقال : أيّها الناس ؛ إن الدنيا دارُ ممرٍّ ، والآخرة دار مقرّ ؛ فخذوا من ممرِّكم لمقرِّكم ، ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسرارُكم .

قال العافر بن نعيم : وقفتُ أنا ومعبد بن طَوْق العَنْبري على مجلس لبني العنبري ، وأنا على ناقة وهو على حمار ، فقاموا فبدءوني فسلّموا عليّ ؛ ثم انكفئوا على معبد فقبض يده عنهم ؛ وقال : لا ، ولا كرامة ! بدأتم بالصغير قبل الكبير ، وبالمَوْلَى قبل العربي ، وبالمفْحَم[1] قبل الشاعر . فأسكت القومُ ، فانبرى إليه غلام فقال : بدأنا بالكاتب قبل الأمّيّ ، وبالمهاجر قبل الأعرابي ، وبراكبِ الراحلة قبل راكب الحمار .

ووصف أعرابي قومَه فقال : ليوثُ حَرْب ، وغيوث جَدْب ، إنْ قاتلوا أبْلَوْا ، وإنْ بذلوا أغنَوا .

ووصف أعرابي قوماً فقال : إذا اصطفُّوا سفَرَتْ بينهم السهام ، وإذا تصافحوا بالسيوف فَغَرَ فَمَه الحِمامُ .

---

(١) في س ، ف : بالمعجم ، وأعجم : لم يفصح .

وسُئل أعرابيٌّ عن صديقٍ له فقال: صَفِرَتْ[1] عِيَابُ الودِّ بيني وبينه بعد امتلائها، واكفهرَّتْ وجوهٌ كانت بِمائها .

وقال الأصمعي : وسمعت أعرابيا يقول : إنَّ الآمالَ قطّعت أعنـــاقَ الرجال ، كالسراب غَرَّ من رآه ، وأخلف من رَجَاه ، ومَنْ كان الليلُ والنهار مَطيَّته أسرعا السير والبلوغ به .

والمرء يفرح بالأيام يقطَعُها وكلُّ يوم مضى يُدْنِي من الأَجَلِ

وذكر أعرابيٌّ مصيبة نالَتْه، فقال: إنها والله مصيبة جعلت سُودَ الرءوس بِيضا، وبيضَ الوجوه سودا ، وهوّنت المصائب ، وشيَّبَت الذوائب .

وهذا كقول عبد الله بن الزبير الأسدي[2] :

رَمَى الحِدْثَانُ نِسْوَةَ آلِ حَرْبٍ بمقدارٍ سَمَدْنَ له سُمُودَا[3]

فردَّ شعورهنَّ السُّودَ بِيضاً وردَّ وجوههنَّ البيضَ سُودا

وإنك لو رأيت بكاءَ هِنْدٍ ورملة إذ تَصُكَّانِ الخدُودَا

بَكَيْتَ بُكاءَ مُعْوِلَةٍ حَزِينٍ أصابَ الدهرُ واحدَها الفقيدا

ونظيرُ هذا التطابق بين السواد والبياض ، وإن لم يكن من هـــذا المعنى قول ابن الرومي :

يا بَيَاضَ المَشِيبِ سَوَّدْتَ وَجْهِي عند بيضِ الوجوهِ سُودِ القرونِ

فلعمري لأخفينّك جهدِي عن عِيانِي وعن عِيانِ العيونِ

ولعمري لأمنعنّك أن تَضْ حك في رَأْسِ آسفٍ محزونِ

بسوادٍ فيه ابيضاضٌ لوجهي وسوادٍ لوَجْهِكَ المَلْعُونِ

سأل أعرابيان رجلا فحرمهما ، فقال أحدُهما لصاحبه : نَزلتَ والله بوادٍ غير

---

(١) صفرت : خلت . (٢) اللسان ــ مادة سمد . الأمالي ٣ ــ ١١٥ .
(٣) سمد : قام متحيرا ، والسمود يكون سرورا وحزنا ــ كما في اللسان .

مطور ، وأتيتَ رجلا بك غير مسرور ، فلم تدرك ما سألت ، ولا نِلْتَ ما أمّلت ؛ فارتحلْ بندم ، أو أقم على عدم .

قال الأصمعي : وسمعتُ أعرابيا يقول : غفَلنا ولم يَغْفُل الدهرُ عنا ، فلم نتّعظ بغيرنا حتى وُعِظ غيرُنا بنا ، فقد أدركتِ السعادةُ من تنبّه ، وأدركت الشقاوة من غفَل ، وكفى بالتجربة واعظًا .

وقال أعرابي لرجل : اشكُرْ للمنعم عليك ، وأنعم على الشاكر لك ، تستوْجب من ربك زيادته ، ومن أخيك مُناصحته .

ومدح أعرابي رجلا فقال : ذلك والله فسيح الأدب ، مستَحْكِم السبب ، من أىّ أقطاره أتيته تُثْنِى عليه بكرم فعال ؛ وحُسْن مقال .

وذمّ أعرابي رجلا فقال: أفسد آخرتَه بصلاح دُنياه، ففارق ما أصْلح غيرَ راجعٍ إليه ، وقدم على ما أفسد غَيْرَ منتقل عنه ، ولو صدق رجلٌ نفسه ما كَذَبَتْه، ولو ألق زمامه أوْطأه رَاحِلَتَهُ .

وقال أعرابي : خرجت حين انحدرَتْ أيْدِى النجوم ، وشالَتْ أرجلها ، فما زلت أصدع الليلَ حتى انْصَدَع الفجر .

وقال أعرابي(١) :

وقد تَمَالَتْ (٢) ذَمِيلُ(٣) العَنْسِ بالسَّوْطِ فى دَيْمُومة(٤) كالتّرسِ
إذ عَرّج(٥) الليلُ بروجَ الشَّمْس

ومن مليح الاستعارة فى نحو هذا قولُ الحسن بن وهب : شربت البارحة على وَجْهِ الجوْزَاء ؛ فلما انتبه الفَجْرُ نِمْت ، فما عقلت حتى لَحَفَنى قَمِيصُ الشَّمْسِ(٦).

---

(١) اللسان ــ مادة عتل . (٢) تمالت الناقة : إذا استخرجت ما عندها من السير .
(٣) الذميل : ضرب من سير الإبل . (٤) الديمومة : الصحراء البعيدة .
(٥) التعريج : أن تحبس مطيتك مقيما على رفقتك أو لحاجة .
(٦) لحفت الرجل : إذا غطيته .

وقال أعرابي لصاحبه في شيء ذكره : قل إن شاء الله ، فإنها تُرْضِي الربَّ ، وتُسْخِط الشيطان ، وتُذْهِب الحنث ، وتَقْضِي الحاجة .

وروى العتبي عن أبيه قال : سمعت أعرابياً يقول لأخيه في معاتبة جرَتْ بينهما : أما والله لرب يوم كتَنُّور الطاهي ، رقّاص بالحامة ، قد رميتُ نَفْسى في أجيج(١) سَمُومه، أحتمِل منه ما أكره لما أحبّ .

قالَ أبو العباس محمد بن يزيد : وأحسبُ العُتْبيَّ صنع هذا الكلام . وأخذه من قول بَشّار :

ويوم كتَنُّور الإماء سَجَرْنَهُ … وأوْقَدْنَ فيه الجزْلَ حتى تضرَّما(٢)
رميتُ بنفسي في أجيج سَمُومه … وبالعِيس حتى بَضَّ منخرها دَمَا

أخذ هذا المعنى بعضُ أصحاب أبي العباس ثعلب فقال يهجو المبرد :

ويوم كتنُّور الطهاة سَجَرْنَهُ … على أنه منه أحرُّ وأوقدُ
ظللت به عند المبرّدِ جالساً … فما زلت في ألفاظه أتبرَّدُ

قال الأصمعي : حجّت أعرابيةٌ ومعها ابنٌ لها فأصيبت به ، فلما دُفن قامت على قبره ، وهي موجعـــة فقالت : والله يابنيّ لقد غَذَوْتُك رَضِيعا ، وفقدتُك سريعاً ، وكأنه لم يكن بين الحالين مدةٌ ألتذُّ بعيشك فيها ، فأصبحتَ بعد النضارة والغَضَارة ، ورونق الحياة والتنسّم في طِيب روائحها، تحت أطباق الثَّرَى جَسداً هامداً، ورُفَاتا(٣) سحيقا ، وصعيدا جُرُزا . أي بني ! لقد سَحَبَتِ الدنيا عليك أذيال الفنا ، وأسكنَتْك دَارَ البِلَى ، ورمتني بعدك نَكْبَةُ الرَّدَى. أي بني ! لقد أسفر لي وجهُ الدنيا عن صباح دَاجٍ ظلامُه .

ثم قالت : أي ربّ ومنك العدل ، ومن خَلْقك الجَوْر ، وهَبْتَه لي قُرَّةَ عين ،

(١) الأجيج : تلهب النار . (٢) سجر التنور : أحماه . والجزل : الحطب اليابس.
(٣) الرفات : الحطام .

فلم تُمتّعني به كثيراً ، بل سلبتَنيه وَشيكا؛ ثم أمرتني بالصبر، ووعدتني عليه الأجر، فصدقت وَعْدَك، ورضيت قضاءك، فرحم الله من ترحّم على من استودعْته الرَّدْم[1]، ووسدته الثّرَى ؛ اللهم ارحم غربته ، وآنِسْ وحْشَته ، واستُرْ عَوْرَته يوم تُكْشَف الهَنَات والسَّوءات .

فلما أرادت الرجوعَ إلى أهلها وقفت على قبره، فقالت ! أى بنيّ ؛ إنى قد تزوّدت لسفرى، فليت شعرى ما زادُك لبُعْدِ طريقك، ويوم مَعادِك؛ اللهم إنى أسألك له الرضا برضائى عنه . ثم قالت : استودَعْتك مَن استودَعَنيك فى أحْشَائى جنيناً ؛ وا ثُكْلَ الوالدات ! ما أمضّ حرارةَ قلوبهن ، وأقْلَق مضَاجِعهنّ ، وأطولَ ليلهنّ ، وأقصرَ نهارهن ، وأقل أنسهن ، وأشدّ وحْشتهنّ ، وأبعدهنّ من السرور ، وأقربهن من الأحزان ! فلم تزلْ تقولُ هذا ونحوه حتى أبكتْ كلَّ مَنْ سمِعها . وحمدت الله عز وجل واسترجعَتْ[2] وصلت ركعات عند قبْرِه وانطلقت.

وأخرى ترثى ابنا لها

وأنشد المفضل الضبي لامرأةٍ من العرب ترثى ابنا لها[3] :

يا عمرُو مالى عنك من صبرِ ... يا عَمْرُو يا أسَفى على عَمْرِو
لله يا عمرُو وأىُّ فتًى ... كفَنْتُ يوم وُضِعت فى القبر
أحْثُو الترابَ على مَفَارقه ... وعلى غَضارَةِ وجهه النَّضِر[4]
حين استوى وعلا الشبابُ به ... وبدا مُنِيرَ الوجه كالبدر
ورجا أقاربُه منافعَهُ ... ورأوا شمائل سيّد غَمْرِ[5]
وأهمّه همّى فساوَرَهُ ... وغدَا مع الغادِينَ فى السَّفر
تعدُو به شقراء سامِيةٌ ... مَرَطَى الجِراءِ شديدةُ الأسْرِ[6]

(١) ردم الباب والثلمة : سده ، أو أكثر من السد ، والردم : الاسم .
(٢) قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون . (٣) شاعرات العرب : ١٠٧ .
(٤) المفارق : مواضع فرق الشعر من الرأس . (٥) الغمر : الكريم الواسع الخلق .
(٦) مرطى: ضرب من العدو . والجراء : الجرى . والأسر : شدة الخلق والخلق .

نبت الجَنَانُ به ويقدمها فَلِجٌ يقلّبُ مُقْلَتَى صَقْرِ (١)

ربيّتُه دَهْراً أُفَتّقهُ فى اليُسْر أغذُوه وفى العُسْر

حتى إذا التأميلُ أمكننى فيه قُبَيْلَ تلاحُقِ الثغر

وجعلتُ من شغفى أنقّلهُ فى الأرض بين تَنَائِفٍ غُبْرِ (٢)

أدَعُ المزارعَ والحصونَ به وأحلُّه فى المَهْمَهِ القَفْرِ

ما زلت أُصْعِده وأُحْدِرُهُ من قُتْرِ مَوْمَاةٍ إلى قُتْرِ (٣)

هرباً به والمَوْتُ يطلبُه حيث انْتَوَيْتُ به ولا أدرى (٤)

حتى دفَعْتُ به لمَصْرَعِه سَوْقَ المعِيز تُسَاق للعَتْرِ (٥)

ما كان إلا أن هجعت لهُ وثنى فأغفى مطلع الفجر

وثنى الكرَى رأسى ومال بهِ رَمْسٌ (٦) يُسَاوِر منه كالسُّكْرِ

إذ راعنى صوتٌ هببتُ بهِ وذُعِرتُ منه أيّما ذُعْرِ

وإذا منيّتُه تُسَاوِرهُ قد كدّحت (٧) فى الوَجْهِ والنّحْرِ

وإذا له علَقٌ (٨) وحَشْرَجَةٌ مما يَجِيشُ به من الصّدْرِ

والموتُ يَقْبِضُه ويَبْسُطُه كالثوبِ عند الطىِّ والنّشْرِ

فدعَا لأَنْصُرَه وكنت لهُ من قبل ذلك حاضرَ النّصْرِ

فعجزتُ عنه وهى زَاهِقةٌ بين الوريد ومَدْفَعِ السَّحْرِ

فمضى وأىّ فتى فجعتُ بهِ جلّت مصيبتُه عن القَدْرِ

لو قيل تفديه بذلتُ لهُ مالى وما جمّعت من وَفْرِ

أو كنت مقتدراً على عُمُرى آثرتُه بالشّطْرِ من عُمْرِى

---

(١) فلج : كثير الظفر والفوز . (٢) التنائف : جمع تنوفة : وهى الصحراء .

(٣) القتر ـ بالضم : الجانب والناحية . (٤) انتويت : قصدت . (٥) العتر : الذبح .

(٦) الرمس : الصوت الخفى . (٧) كدح وجهه : خدشه أو عمل به ما يشينه ، مثل كدحه ، أو أفسده . (٨) العلق : الدم عامة ، أو الشديد الحمرة .

قد كنتُ ذا فَقْرٍ له فَمدًا ... ورَمَى علىَّ وقد رأى فَقْرِى
لو شاء ربى كان متّمى ... بِأَبِى وشدَّ بأَزْرِه أَزْرِى
بُنِيَتْ عليك بىَّ ، أحوج ما ... كنّا إليك ، صفائحُ الصَّخْرِ
لا يبعدنك الله يا عمرى ... إمّا مضيت فنحنُ بالإثْرِ
هذى سبيلُ النـــاس كلّهم ... لابدَّ سالكها على سَفَرِ
أوَلا تراهم فى ديارهمُ ... يتوقّعون وهم على ذُعْرِ
والموتُ يُورِدُهم مواردَهم ... قَسْرًا فقد ذَلّوا على القَسْرِ

أعرابى يمدح رجلا

وقال أعرابى يمدح رجلا(١) :

يَمُدُّ نِجادَ السّيف حتّى كأنّهُ ... بأعلى سنامَىْ فالجٍ(٢) يتَطوّحُ
ويُدلِجُ فى حاجاتِ مَنْ هو نائمٌ ... ويُورِى كريماتِ الندى(٣) حين يقدحُ
إذا اعتمَّ بالبُرْدِ اليمــانى حسبتهُ ... هلالًا بَدَا فى جانب الأفْق يَلْمَحُ
يزيدُ على فَضْلِ الرجالِ فضيلةً ... ويَقْصُر عنــه مَدْحُ مَنْ يتمدَّحُ

وأنشد ابنُ أبى طاهر لأعرابى :

وقبلىَ أبــكَى كلَّ مَنْ كان ذا هوًى ... هتوفُ البواكى والديارُ البَلاقِعُ
وهنّ على الأطلال من كل جانبٍ ... نوائحُ ما تَخْضَلُّ منهــا الأ[...]ابعُ
مُزَبْرَجَةُ الأعناقِ نُمْرٌ ظهورُها(٤) ... مُخطّمة بالدُّرِّ خُضْرٌ رَوائعُ(٥)
ترَى طُرُزًا بَيْنَ الخوافى كأنّها ... حَواشِىَ بُرْدٍ زينتها الوَشائعُ(٦)
ومن قِطَعِ الياقوتِ صِيغَتْ عيُونُها ... خواضب بالحِنَاء منهـا الأصابِعُ

---

(١) المختار من شعر بشار ٧٩ . (٢) فى س: سنامى والج ، وفى ف : سنامى دالج ، والفالج : الجمل الضخم ذو السنامين . (٣) فى المختار : كرامات الندى . (٤) مزبرج : مزين . والأنمر ما فيه نمرة بيضاء وأخرى سوداء — والنمرة : النكتة من أى لون كان .
(٥) أصل خطمه : وضع الخطام على أنفه . وفى س : خضر . (٦) الطراز : علم ثوب . الوشيعة : خشبة يلف عليها ألوان الغزل .

ومن جيد ما قيل في الحمام قول ابن الرومي[١] :

وقفتُ بِطِرَابِ[٢] المشيّاتِ والضّحَى ... فَظَلْتُ أسُحُّ الدمع مني وأسْجُمُ[٣]
حليفة شَجْوٍ هَاجَ ما بي وما بها ... تباريحُ شوق يشتكيها المتيّم
فَبَاحَ به فُوهَا وأخْفَتْه عينُها ... وباحَتْ به عَيْني وكتّمه[٤] الفَمُ

ودخل أعرابي على الرشيد فأنشده أرجوزةً مدحه بها ، وإسماعيل بن صبيح يكتبُ كتاباً بين يديه ؛ وكان من أحسنِ الناسِ خطّاً ، وأسرعهم يداً ؛ فقال الرشيد للأعرابي : صف الكاتب ؛ فقال[٥] : وصف كاتب

رقيقُ حَواشي الحلم حينَ تبورهُ[٦] ... يُريكَ الهُوَيْنا والأمورُ تَطيرُ
له قلمَا بؤسَى ونُعْمَى كلاهما ... سَحابَتُهُ في الحالتيْنِ دَرُورُ
يُناجيك عما في ضميرك خَطّهُ ... ويَفْتَحُ بابَ النُّجْحِ وهو عسيرُ

فقال الرشيد : قد وجب لكَ يا أعرابي عليه حق ، كما وجب لك علينا . يا غلام ؛ ادفَعْ له دِيَةَ الحرّ ، فقال إسماعيل: وعلى عبدِكَ دِيَةَ العَبْد .

وقال أعرابي من بني عقيل[٧] : حنين

أحِنُّ إلى أرضِ الحجازِ وحاجَتي ... خِيامٌ بنَجْدٍ دونها الطَّرْفُ يقصُرُ
وما نَظَري نحو الحجازِ بنافعي ... فتيلاً[٨] ولكني على ذاكَ أنْظُرُ
أفي كلِّ يوم نَظْرَةٌ ثم عَبْرَةٌ ... لعينَيْك يجري ماؤها يتحَدَّرُ
متى يستريح القلب إمّا مجاورٌ ... حزينٌ وإمّا نازحٌ يتذَكَّرُ

وقال أعرابي : تخلق

وإني لأُغْضِي مقلتيّ على القَذَى ... وألبَسُ ثوبَ الصبْرِ أبيَضَ أبلَجا

---

(١) ديوانه : ٨٧ . (٢) الطراب : الطروب . (٣) في الديوان : وهي ترنم . وسجم الدمع : قطر . (٤) في الديوان : وكاتمه . (٥) ديوان المعاني ٢ ـ ٧٧ .
(٦) تبوره : تختبره . (٧) المختار من شعر بشار ٢٥٢ . (٨) في المختار : أجل لا ولكني .

وإنّى لأدعو اللهَ والأمرُ ضَيِّقٌ　　علىَّ فما ينفكُّ أنْ يتفرَّجا
وكم من فتى ضاقَتْ عليه وجوهُهُ　　أصاب لها فى دَعْوَةِ اللهِ مخرَجا

وقال آخر :

ذكرتك ذِكْرى هائمٍ بك تَنْتَهِى　　إليك أمانيه وإن لم يكُنْ وَصْلُ
وليسَتْ بِذِكْرَى ساعةٍ بعدساعةٍ　　ولكنها موصولةٌ ما لَها فَصْلُ

وقال آخر :

أريتُك إنْ شطَّتْ بك السامَ نيَّةٌ　　وعالَك[1] مُصْطَافُ الحِمَى ومرابِعُهْ
أترعين ما استودعت أم أنت كالذى　　إذا ما نَأى هانَتْ عليك ودائِعُهْ
ألا إن حَسْيًا دونه قُلَّةُ الحِمَى　　مُنَى النفسِ لو كانت تُنَالُ شَرَائِعُهْ[2]

أخذتْ أزدُ العتيك شاعراً من قَيْسِ بن ثعلبة اسمه المذَّل[3] فى دَمٍ فأتاه البَيْهَس ابن وبيمة فحمله ، وأمره أن يَنْجُوَ بنفسه، وأسلم نفسه مكانه ، فقال له المذل أخيِّرك بين أن أمْدَحَك أو أمدح قومَك ؛ فاختار مدحَ قومه فقال[4] :

جزى الله فِتْيَانَ العَتيك، وإن نأَتْ　　بِىَ الدّارُ عنهم ، خيرَ ما كان جازيا
هُم خلطونى بالنفوس وأحسنوا الـ　　ـصّحابة لما حُمَّ ما كان[5] آتيا
مَتَاعُهم فَوْضَى فَضًا[6] فى رحالهم　　ولا يُحْسِنُون الشرّ[7] إلّا تَبَادِيا
كأن دنانيراً على قَسَمَاتِهِمْ　　إذا الموتُ فى الأبطال كان تحاميا[8]

وذكرت الرواة أنّ المهلب بن أبى صُفْرة عرض جُنْدَه بخراسان ، فمرض جيش بكر بن وائل، فمرّ به المذّل، فقال : هذا المذل القيسى الذى يقولُ : وأنشد الأبيات،

(١) عالى الشىء : أعوزنى وأعجزنى ، وفى ط : وغالك .　(٢) الحسى : سهول فيه ماء ، ويجمع على أحساء ، والشرائع : الموارد .　(٣) أزد العتيك : فخذ من الأزد . وقد جاء فى كل الأصول : المعدل — بالدال ، وهذا عن الحماسة .　(٤) الحماسة ٤ — ٢٧٥ .
(٥) فى الحماسة : ما كنت لاقيا .　(٦) فى الحماسة : طعامهم بدل متاعهم . وفوضى فضا : أى مختلط ، يريد أنهم لا يستأثر بعضهم على بعض ، وفى كل الأصول : فوضى قضاء بالقاف .
(٧) فى الحماسة : السر إلا تناديا .　(٨) فى الحماسة : للأبطال كان تحاسيا .

فقالوا : أيها الأمير ؛ احسبه علينا، فانطلق مائةٌ منهم، فجاءوا بمائة وصيف ووصيفة، فقالوا : أعْطِه هذا وليعذرنا .

قوله : كأنَّ دنانيرا على قسماتهم . . . نظيرُ قول أبي العباس الأعمى :

ليت شِعْرِى من أيْنَ رائحة المسـ   ـكِ وما إن إخال بالخَيْف إنْسى
حين غابت بنو أمية عنـــهُ   والبهاليلُ من بنى عبد شمس
خطباء على المنابر فُرْسَا   نٌ عليها وَقَالَةٌ غيرُ خُرْسِ
فى حلوم إذا الحلوم استُخِفَّتْ   ووجوه مثل الدنانير مُلْسِ

[طرف من أخبار أبي نواس]

ولما خلع المأمونُ أخاه محمد ابن زبيدة ووجّه بطاهر بن الحسين لمحاربته ، كان يعملُ نعى أبي نواس عن كتبا بعيوبِ أخيه تُقْرَأ على المنابر بخراسان؛ فكان مما عابه به أن قال: إنه استخلص الخمر رجلا شاعرا ماجِناً كافرا ، يقال له الحسن بن هانئ ، واستخلصه ليَشْرَبَ معه الخمر ، ويرتكبَ المآثم ، ويَهْتِكَ المحارم ، وهو الذى يقول(١) :

ألَا فاسْقِنِى خَمْراً وقُلْ لى هى الخمرُ   ولا تسقنى سرًّا إذا أمْكَنَ الجَهْرُ
وبُحْ باسم مَنْ تهوى ودَعْنى عن الكُنَى   فلا خَيْرَ فى اللَّذَّاتِ من دونها سِتْرُ

ويذكر أهلَ العراق فيقول : أهل فسوق وخمور، ومَاخُور وفجور؛ ويقوم رَجلٌ بين يديه فيُنْشِد أشعار أبي نواس فى المجون ؛ فاتصل ذلك بابن زبيدة ؛ فنهى الحسنَ عن الخمر ، وحبسه ابنُ أبي الفضل بن الربيع ؛ ثم كلّمه فيه الفضل فأخرجه بعد أن أخذ عليه ألّا يشربَ خمرا ، ولا يقول فيها شعرا ، فقال(٢) :

ما مِنْ يدٍ فى الناسِ واحدةٍ   كيَدٍ أبو العباسِ مَوْلَاها
قام(٣) الثقات على مضاجعهم   وسَرَى إلى نفسى فأحياها

(١) ديوانه : ٢٧٣ . (٢) ديوانه : ١٠٩ .
(٣) فى الديوان : نام الثقاة .

قد كنت خِفتك ثم آمننى[1] … من أن أخافك ، خَوْفُكَ اللهَ

فعفوتَ . عنى عَفْوَ مقتدرٍ … وجَبَتْ لهُ نقمٌ فألغاها[2]

من قوله فى ترك الشراب

ومن قوله فى تَرْكِ الشراب[3] :

أيُّها الرائحــان باللَّوْمِ لوما … لا أذوقُ المُدَامَ إلَّا شَمِيما

نَالَنِى باللام فيها إمامٌ … لا أرى لى خلافَهُ مستقيما

فاصْرِفاها إلى سِوَاىَ فإنِّى … لستُ إلّا على الحديث نديمـا

جُلُّ[4] حظى منها إذا هى دارتْ … أنْ أراها وأنْ أشمَّ النسيما

فكأنى وما أُزيِّن منها … قَعَدِيٌّ[5] يُزَيِّن التحكيما

[كَلَّ عَنْ حَمْلِهِ السلاحَ إلى الحر … ب فأوصى المُطيق ألّا يقيما][6]

القَعَدِيّة : فرقة من الخوارج ، يَأمرون بالخروج ولا يخرجون ؛ وزعم المبرد أنه لم يُسْبَق إلى هذا المعنى . وقال[7] :

عَيْنُ الخليفةِ بى موكَّلةٌ … عَقَدَ الحِذارُ بطَرْفِها طَرْفى

صحَّتْ عَلانيتى له وأرى[8] … دِينَ الضمير له على حَرْفِ

ولئن وعدتك تَرْكَها عِدَةً … إنى عليك لخائفٌ خُلْفى

سلبوا قِنَاعَ الدَّنِّ[9] عن رَمَقٍ … حىِّ الحياة مشارفِ الحَتْفِ

فتنفَّسَتْ فى البيت إذ مُزِجَتْ … كتنفس الرَّيْحَانِ فى الأنْفِ

* * *

(١) فى الديوان : أمننى . (٢) فى الديوان : * حلت له نقم فألغاها *

(٣) ديوانه : ٣٢٥ . (٤) فى الديوان : كل حظى . (٥) القعد : الخوارج ، ومن يرى رأيهم قعدى . (٦) من س ، ق . (٧) ديوانه : ٣٠٣ .

(٨) فى الديوان : ورأى . (٩) فى الديوان : قناع الطين .

أخذ قوله : « ولئن وعدتك تركها عدة » الحسن بن على بن وكيع فقال : من النقد

متى وَعَدْتُكَ فى تركِ الصِّبا عِدَةً ... فاشْهَدْ على عِدَتِي بالزُّورِ والكَذِبِ

أمَا تَرَى الليلَ قد ولَّتْ عَساكِرُهُ ... وأقبلَ الصبحُ فى جيشٍ له لجِبِ[1]

وجدَّ فى أثرِ الجَوْزاءِ يطْلُبُها ... فى الجوِّ رَكْضاً هِلالٌ دائمُ الطلبِ

كصولجانٍ لُجَيْنٍ فى يدَىْ ملكٍ ... أدناه من كُرَةٍ صِيغَتْ من الذهبِ

فقُمْ بنا نَصْطَبِحْ صفراءَ صافيةً ... كالنارِ لكنها نارٌ بلا لَهَبِ

عروسُ كَرْمٍ أتت تختالُ فى حُلَلٍ ... صُفْرٍ على رأسها تاجٌ من الحَبَبِ

وقال أبو الفضل الميكالى فى اقتران الهلال بالزهرة[2] :

أمَا ترى الزُّهرةَ قد لاحَتْ لنا ... تحتَ هلالٍ لونُه يحْكِى اللَّهَبْ

ككُرَةٍ من فضّةٍ مجلوّةٍ ... وافَى عليها صَوْلَجانٌ من ذَهَبْ

وعلى قول أبى نواس[3] :

صَحَّتْ عَلَانِيَتِى له وأرى ... دِينَ الضمير له على حَرْفِ[4]

كتب أبو العباس بن المعتز إلى الطيب القاسم بن محمد النميرى[5] :

يأيها الجافى ويستجفى ... ليس تجنّيك من الظَّرْفِ

إنّكَ فى الشوقِ إلينا كمَنْ ... يُؤْمِنُ بالله على حَرْفِ

محوتَ آثارَك من ودّنا ... غير أساطيرك فى الصُّحْفِ

فإن تحامَلْتَ لنا زَوْرَةً ... يوماً تحاملت على ضَعْفِ

وحدث أبو عمر الزاهد قال : دَلَّكَ بعضُ الزهاد المرائين جَبْهَتَه بثُومٍ وعصَبها ، ونام ليُصْبِحَ بها كأثَرِ السجود ، فانحرفت العِصابة إلى صُدْغه ، فأخَذَ الأثَرُ هناك ،

---

(١) جيش لجب : ذو لجب . واللجب : الجلبة والصياح . (٢) اليتيمة : ٤ — ٣٤٤ .

(٣) ديوانه : ٣٠٣ . (٤) فى القرآن الكريم : ومن الناس من يعبد الله على حرف : أى على وجه واحد، وهو أن يعبده على السراء لا على الضراء ، أوعلى شك، أوعلى غير طمأنينة على أمره . (٥) ليست هذه الأبيات فى ديوانه المطبوع بين أيدينا .

فقال له ابنه : ما هذا يا أبت ؟ فقال : أصبح أبوك ممن يَعْبُدُ الله على حرف !

* * *

من قول أبي نواس في الخمر

قال أبو نواس في الباب الأول[١] :

غَنِّنَا بالطلولِ كيف بَلِينا ... واسقِنا نُعطِكَ الثناء الثَّمينا
من سُلافٍ كأنها كلُّ شيء ... يتمنَّى مُخيَّرٌ أنْ يَكونَا
أكَلَ الدَّهرُ[٢] ما تجسَّم منها ... وتبقَّى لبابها المَكْنُونَا
فإذا ما اجتليتَها فهباءٌ ... يَمْنَعُ الكفَّ ما يُبيحُ العيونا
ثم شُجَّتْ[٣] فاستضحكت عن لآلٍ ... لو تجمَّعنَ في يدٍ لاقتُنِينا
في كئوس كأنهنَّ نجومٌ ... دائراتٌ بُرُوجُها أيْدِينا
طالعاتٌ مع السُّقاةِ علينا ... فإذا ما غَرَبْنَ يَغْرُبْنَ فينا
لو ترى الشَّرْبَ[٤] حولها من بعيد ... قلت قوماً من قِرَّةٍ[٥] يصطلونَا
وغزالٍ يُديرُها ببَنَانٍ ... ناعماتٍ يَزِيدُها الغَمْزُ لِيناً
كلما شئتُ عَلَّنِي بِرُضابٍ ... يَتْرُكُ القلبَ للسرور قرينا[٦]
ذاك عيشٌ لو دامَ لي غيرَ أني ... عِفْتُه مُكْرَهاً وخِفْتُ الأمينا

وقال[٧] :

أعاذِلَ أعتبت الإمامَ وأعتبا ... وأعرَبْتَ عمَّا في الضمير وأعرَبا
وقلتُ لساقيها : أجِزْها فلم أكن[٨] ... ليأبى أميرُ المؤمنين وأشرَبا
فجوَّزَها عني سُلافاً تَرَى لها ... لدى الشَّرَفِ الأعلى شُعاعاً مُطنَّبا
إذا عَبَّ فيها شاربُ القومِ خِلْتَه ... يُقبِّلُ في داجٍ من الليل كوكبا

---

(١) ديوانه : ٣٣٩ . (٢) في الديوان : درس الدهر . (٣) في الديوان : مزجت . (٤) في الديوان : الشاربون . (٥) القر — بالضم : البرد ، والقرة — بالكسر : ما أصابك من القر . (٦) في الديوان : خدينا . (٧) ديوانه : ٢٤٤ .
(٨) في الديوان : فلم يكن .

تَرى حينًا كانَتْ من البيت مَشْرِقاً ... ومالم تـكن فيه من البيت مَغْرِبا

يَدُورُ بها رَطْبُ البنان[١] تَرى لهُ ... على مستدار الخدّ صُدغا مُعَقْرَبا

سقام ومَتَأنِي بمينَيه مُنْيَةً ... فـكانت إلى قلبي ألذَّ وأطيَبا

قال الحسين بن الضحاك الخليع : أنشدتَ أبا نواس قولى : اغتصابه معانى الشعر

وشاطرىٌّ اللسانِ مختلق التّـ ... ـكِ ربه شابَ المُجُونَ بالنُّسْكِ[٢]

فلما بلغتُ فيه :

كأنما نُصْبَ كَأْسِهِ قَمَرٌ ... يَـكْرَعُ فى بَعْضِ أنجُم الفَلَكِ

نَعرَ[٣] نَعرَةً منكرةً ، فقلت : مالَكَ ، فقد رعتنى ؟ قال : هذا المعنى أنا أحقُّ به منك ؛ ولـكن سترى لمن يُرْوِى! ثم أنشد بعد أيام[٤] :

إذا عبَّ فيها شاربُ القوم خِلْتَهُ ... يُقَبّـلُ فى داجٍ من الليل كوكبا

فقلت : هذه مطالبة يا أبا على ! فقال : أتظنّ أنه يُرْوى لك معنى مليح وأنا فى الحياة؟

وقال ابن الرومى فـكان أحسن منهما[٥] :

ومهفهف كَمُلتْ مَحَاسِنُهُ ... حتى تجاوزَ مُنْيَةَ النَّفْسِ

تَصْبُو الـكئوس إلى مَرَاشِفِه ... وتَضِجُّ فى يده من الحَبْسِ

أبصرْتُها والـكأسُ بين فمٍ ... منه وبين أنامِلٍ خَمْسِ

فـكأنَّها وكأن شارِبَها ... قمرٌ يقبّل عارِضَ الشمس

وقال أبو الفتح كشاجم :

وسحابٍ يجرُّ فى الأرض ذيلًا ... مُطْرَفٍ[٦] زَرَّهُ على الأرض زَرّا

---

(١) فى الديوان : يدير بها ساق أغن . (٢) أصل الشاطر : من أعيا أهله خبثا . وكرهه تـكريها : صيره كريها . شاب : مزج . (٣) نعر ـ كنع وضرب : صاح وصوت بخياشيمه . (٤) ديوانه : ٢٤٤ . (٥) ديوانه : ١٠٧ . (٦) المطرف : رداء من خز مربع ذو أعلام .

بَرْقُه لَمْحَةٌ ولكنْ له رَعْـ ـدٌ بطىءٌ يكسو السامعَ وَقْرا(1)
كخَلِىٍّ منافقٍ لِلّذى يَهْـ ـواهُ يَبْكى جَهْراً ويَضْحَكُ سِرّا
قد سقتنى المُدامَ فيها فَتاةٌ سحَرَتْنى وليس تُحْسِنُ سِحْرا
فإذا ما رأيتُها تشربُ الرّا حَ أرَتْنى شمساً تُقَبِّلُ بَدْرا

[طرف من أخبار بشار]

المهدى وغزل بشار

وإنما احتذى أبو نواس فى هذه الأشعار التى وصف فيها تَرْكَ الشراب وطاعته لأمرِ الأمين مثالَ بشّار بن بُرْد، وصبّ على قالبه؛ وذلك أنّ بشاراً لما قال(2):

لا يُؤْيِسَنَّكَ من مُخَبَّأَةٍ قَوْلٌ تغلّظه وإنْ جَرَحا
عُسْرُ النساء إلى مُيَاسَرَةٍ والصعبُ يُمْكِنُ بعد ما جَمَحا

بلغ ذلك المهدى فغاظه؛ وقال: يحرّض النساء على الفجور، ويسهّل السبيل إليه! فقال له خاله يزيد بن منصور الحميرى: يا أميرَ المؤمنين؛ قد فتن النساء بشعره، وأىّ امرأة لا تَصْبُو إلى مثل قوله(2):

عجبتْ فَطْمَةُ من نَعْتى لها هل يُجيد النعتَ مكفوفُ النظرْ
بِنْتُ عَشْرٍ وثلاثٍ قُسِّمتْ بين غُصْنٍ وكثيبٍ وقمرْ
دُرّةٌ بَحْرِيّةٌ مكنونةٌ مازَها(3) التاجرُ من بين الدُّرَرْ
أذرَتِ الدمعَ وقالت وَيْلَتى من وَلوعِ الكفِّ رَكّابِ الخَطَرْ
أمّتى بدّدَ هذا لُعَبى ووِشاحى حلّه حتى انتثرْ
فدَعِينى معه يا أمّتى علّنا فى خَلْوَةٍ نَقْضى الوَطَرْ
أقبلَتْ فى خَلْوَةٍ تضربُها واعتراها كجُنونٍ مُسْتَعِرْ
بأبى واللهِ ما أحسنَهُ دَمْعُ عينٍ غسّلَ الكُحْلَ قَطَرْ

---

(1) الوقر: ثقل فى الأذن أو ذهاب السمع كله. (2) المختار من شعر بشار ١٠٦.
(3) مازه: ميزه وعزله وفرزه.

أيها النُّوّام هبُّوا وَيْحكُم   وسَلُونى اليومَ ما طَعْمُ السَّهَرْ

فأمره المهدى ألّا يتغزل ، فقال أشعاراً فى ذلك ، منها(١) :

يا منظراً حسناً رأيته   من وجه جارية فدَيْتُه
لمتْ(٢) إلىَّ تَسُومنى   ثَوْبَ الشباب وقد طويتُه
واللهِ ربِّ محمدٍ   ما إن غَدَرْتُ ولا نَوَيْتُه
أمْسَكْتُ عنكِ وربما   عَرَض البلاءُ وما ابتغَيْتُه
إنَّ الخليفة قد أبى   وإذا أبى شيئاً أبيتُه
ويَشُوقنى بيتُ الحبيـ   ـبِ إذا غَدَوت(٣) وأين بَيْتُه
قام الخليفةُ دونَهُ   فصبَرْتُ عنه وما قَلَيْتُه
ونَهانىَ المَلِكُ الهما   مُ عن النساء فما عصيْتُه
بل قد وفيتُ ولم أضِع   عَهْداً ولا رأياً رأيْتُه

وقال أيضاً(٤) :

والله لولا رِضَا الخليفةِ ما   أعطيتُ ضَيْماً علىَّ فى شجَنِ
قد عِشْتُ بين النَّدْمَانِ والرَّاح والْـ   ـمِزْهر فى ظل مَجْلِسٍ حَسَنِ(٥)
ثم نهانى المهدى فانصرفَتْ   نفسىَ صُنْع(٦) الموفَّق اللَّقِنِ

وقال :

أفنيتُ عمرى وتَقَضَّى الشبابْ   بين الحُيَّا والجَوَارِى العِذَابْ(٧)
فالآن شفَّعتُ(٨) إمام الهُدَى   وربما طِبْت لحبٍّ وطَابْ
لموت حتى رَاعَنى دَاعياً   صوتُ أمير المؤمنين المُجَابْ

(١) الأغانى : ٣ — ٢١١ ، ٢٣٩ .   (٢) لم بيده : أشار ، وفى الأغانى : بعثت .
(٣) فى الأغانى : إذا ادكرت .   (٤) الأغانى : ٣ — ٢٤١ ، المختار : ١٠٥ .
(٥) هكذا بكل الأصول ، وفى الأغانى : قد عشت بين الريحان والراح والزهر . . .
(٦) فى الأغانى : صنيع . واللقن : سريع الفهم .   (٧) الحيا من الكأس : سورتها وشدتها ، وفى ف ، س : الجوارى الأوآب .   (٨) شفعته : قبلت شفاعته .

لبيك لبيك ! هجرتُ الصِّبا ‏ ‏ ‏ ونام عُذّالى وماتَ العتابْ
أبصرت رُشْدِى وتركت المُنَى ‏ ‏ ‏ وربما ذَلَّتْ لهنَّ الرِّقابْ

فى كا[illegible]يلة يقول فيها :

يا حامد القولِ ولم يَبْلُهُ ‏ ‏ ‏ سبقتَ بالسَّيْلِ مَسَاكَ[1] السَّحابْ
الفعلُ أَوْلَى بثناء الفتى ‏ ‏ ‏ ما جاءه من خطأ أو صَوَاب
دعْ قولَ وَاهٍ وانتظرْ فِعْلَهُ ‏ ‏ ‏ يُثْنِى على اللَّقْحَةِ ما فى الحِلَابْ[2]
إذا غدا المهدىُّ فى جُنْدِهِ ‏ ‏ ‏ ورَاحَ فى آلِ الرسول الغِضَابْ
بدَا لك المعروفُ فى وجهه ‏ ‏ ‏ كالظَّلْمِ[3] يجرى فى الثنايا العِذَابْ

من غزله — ومن شعر بشار فى الغزل[4] :

أيها الساقيانِ صُبَّا شَرَابى ‏ ‏ ‏ واسقيانى من ريق بيضاء رُودِ[5]
إنَّ دائى الصَّدى وإنَّ شفائى ‏ ‏ ‏ شَرْبَةٌ من رُضَاب ثغرٍ بَرُودِ
عندها الصبرُ عن لقائى وعندى ‏ ‏ ‏ زفَرَات يأكُلْنَ قَلْبَ الجليدِ
ولها مَبْسِمٌ كغُرِّ الأقاحى ‏ ‏ ‏ وحديثٌ كالوَشْىِ وَشْىِ البُرُودِ
نَزَلَتْ فى السَّوَاد من حَبَّةِ القَلْـ ‏ ‏ ‏ ـب ونالَتْ زيادةَ المستزيدِ
ثم قالت : نَلْقَاكَ بعد ليالٍ ‏ ‏ ‏ والليالى يُبْلِينَ كلَّ جديد
لا أُبالى مَنْ ضَنَّ عنى بوَصْلٍ ‏ ‏ ‏ إنْ قَضَى اللهُ منك لى يومَ جُودِ

وقال :

تُلْقَى بتسبيحة من حُسنِ ما خُلِقَتْ ‏ ‏ ‏ وتستفزّ حَشَا الرَّائى بإرْعَادِ
كأنما صُوِّرَتْ من ماء لؤلؤةٍ ‏ ‏ ‏ فكلُّ جارحةٍ وَجْهٌ بمِرْصَادِ

---

(١) المساك — بفتح الميم : الموضع يمسك فيه الماء .
(٢) واه : واهٍ ، اللقحة : الناقة الحلوب . (٣) الظلم : ماء الأسنان .
(٤) الأغانى : ٣ — ١٨٧ . (٥) الرود : الشابة الحسنة الناعمة .

وقال :

وهبْتُ له على المسواك رِيقاً　　فطابَ له بطيبِ ثنيَّتيك
أقبّله على الذكرى كأنى　　أقبّل فيــه فاكِ ومقلتيك

وقال :

لا أستطيعُ الهوَى وهِجْرَتهــا　　قلبى ضعيفٌ وقلبها حَجَرُ
كأنّ وجْدِى بها وقد حجبت　　فى الرأس والعين والحَشَا سُكُرُ

وأنشد له أبو تمام ، وكان يقول : ما رأيتُ شعراً أغزل منه :

زوِّدينا يا عَبْدَ قَبْلَ الفراقِ　　بتلاقٍ وكيف لى بالتَّلاقِ
أنا واللهِ أشتهى سِحْرَ عينيـ　　ـك وأخْشَى مصارِعَ العشاقِ
أمّتى من بنى عقيل بن كَعْب　　موضع السِّلْكِ فى طُلَا(١) الأعْناقِ

وقال :

لقد عشقَتْ أذنى كلاماً سمعتهُ　　رَخِيا وقَلْبى للمليحةِ أعشقُ
ولو عايَنُوها لم يَلومُوا على البُكَا　　كريماً سقاهُ الخمرَ بدرٌ مُحَلِّقُ(٢)
وكيفَ تناسِى مَنْ كأنّ حديثهُ　　بأذنى وإن غنيت قُرْطٌ مُعَلَّقُ

وقال(٣) :

وقد كنت فى ذاك الشبابِ الذى مضى　　أزَارُ ويَدْعُونى الهوَى فأزُورُ
فإن فاتنى إلفٌ ظلِلْتُ كأنما　　يُديرُ حياتى فى يديه مُديرُ
ومرْتجّة الأرْدافِ مهضومة الحشَا　　تمُورُ(٤) بسِحْرِ عَيْنُها وتَدُورُ
إذا نظرت صبَّتْ عليك صبابةً　　وكادَتْ قلوبُ العـــالمين تَطِيرُ
خلوتُ بها لا يَخْلُصُ الماء بيننا　　إلى الصُّبْح دونى حاجِبٌ وسُتُورُ

---

(١) الطلا : أصول الأعناق .　(٢) ف س : محلق .　(٣) اللآلىء : ٥٩٨ .
(٤) تمور : تموج وتضطرب .

ومن هذا أخذ علي بن الجهم قوله[1] :

صِليني[2] وحَبْل الوصل لم يتشعَّبِ ... ولا تهجري[3] أفديك بالأمّ والأبِ
رَعَى اللهُ دهراً ضمّنا بعد فُرْقةٍ ... وأدْنَى فؤاداً من فؤادٍ مُعذَّبِ
عناقاً وضمّاً والتزاماً كأنما ... يرى جَسدانا جسم روح مركَّبِ
فبِتْنَا وإنا[4] لو تُرَاق زجاجةٌ ... من الخمْرِ فيما بيننا لم تَسَرَّبِ

وشعره في هذا المعنى كثير .

شعره وروى أنه قال : أنا أشْعَرُ الناسِ ؛ لأنّ لي اثني عشر ألفَ قصيدة ، فلو اختير من كل قصيدة بيتٌ لاستندر ، ومن ندرت له اثنا عشر ألف بيت فهو أشعرُ الناس؛ وقد نثرتُ نَظْمَه في أضعاف الكتاب استدعاء لنشاط القارئ وكراهة في إملاله .

وكان بشارٌ أرقّ المحدَثين ديباجةَ كلام ، وسُمّي أبا المحدثين؛ لأنه فتّق لهم أكمام المعاني ، ونَهَج لهم سبيل البديع ، فاتّبعوه ؛ وكان ابن الرومي يُقدّمه ، ويزعمُ أنه أشعرُ من تقدّم وتأخر .

ولاؤه وهو يتعلق في شعره بولاء عَقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، ويفتخرُ بالمضرية . قال له المهدي : فيمن تَعْتَزِي ؟ قال : أمّا اللسان فعربيّ ، وأما الأصل فكما قلتُ في شعري . قال : وما قلت ؟ فأنشده[5] :

ونُبّئت قوماً لهم إحْنةٌ[6] ... يقولون مَنْ ذا وكُنْتُ العَلَمْ
ألا أيها السائلي جاهلاً ... ليَعْرِفني أنا إنْفُ[7] الكَرَمْ
نَمَتْ في الكرام بني عامرٍ ... فُرُوعي وأصلي قُرَيشُ العَجَمْ
وإني لأغني مقامَ الفتى ... وأُصْبي الفتاةَ فلا تَعْتَصِمْ

---

(١) ديوان علي بن الجهم ٩٥ ، الأمالي ١ — ٢٣١ ، النويري ٢—٤ ١٠ (٢) في الديوان: ذريني أمت والشمل ... (٣) في الديوان : ولا تبعدي . (٤) في الديوان : فبتنا جميعا .
(٥) معاهد التنصيص : ١—٢٨٩ . (٦) في المعاهد: بهم جنة . (٧) في المعاهد : أنف الكرم .

البيت الأول من هذه الأبياتِ ينظرُ إلى قول جميل :

إذا ما رأوني طالعاً من ثنيةٍ … يقولون مَنْ هذا وقد عرَفوني

وفي هذه القصيدة يقول بشار[١] :

وبيضاء يضحكُ ماءُ الشبا … بِ في وجهها لكَ إذ تَبْتَسِمْ

روَاء[٢] العذارى إذا زُرْنَها … أطفْن بحَوْرَاءَ مِثْلِ الصَّنَمْ

يُرُحْنَ فيَمْسَحْنَ أركانَها … كما يَمْسَحُ الحجرَ المُسْتَلِمْ

أصفراء ليس الفتى صَخْرَةً … ولكنه نُصْبُ هَمٍّ وغَمّْ

صبيتٍ هواكِ على قلبِهِ … فضاق وأعلن ما قد كَتَمْ

ويقال: إنه مولى لأم الظباء السدوسية ، ولذلك قال أبو حذيفة واصل بن عطاء الغزّال[٣] رئيس المعتزلة لما هجاه بشار[٤] : أمَا لهذا الأعمى المُلْحِد المُشَنَّف المكتني بأبي معاذ مَنْ يَقْتُله ؟ والله لولا أنّ الغِيلة من سجايا الغالِية ، لبعثتُ إليه من يَبْعَجُ بطنه في جوف منزله ، ولا يكون إلا سَدُوسيًا ، أو عُقَيْليًا .

* * *

واصل بن عطاء

وكان واصلُ بنُ عطاء أحد أعاجيب الدنيا ؛ لأنه كان ألثغ في الراء ، فأسقطها من جميع كلامه وخطبه ؛ إذ كان إمامَ مَذْهَب ، وداعي نِحْلة ، وكان محتاجاً إلى جَوْدَةِ البيانِ ، وفصاحَةِ اللِّسانِ . قال الجاحظ[٥] : فانظر كثرةَ تَرداد الراء في هذا الكلام وكيف أسقطها ؟ قال : الأعمى، ولم يقل الضرير، قال: الملحد ولم يقل الكافر، وقال : المشنَّف ، ولم يقل المرعَّث ، وقال : المكتني بأبي معاذ ولم يقل بشاراً ولا ابن برد ، وقال : الغالية ، ولم يقل المغيرية ، ولا المنصورية[٦] ، وهم الذين أراد ، وقال :

---

(١) الأغاني ٣ ــ ١٦٤ . (٢) في الأغاني : دوار . قال : وهو صنم، وفي س : دواو .
(٣) في س : الغزال ــ بالعين . (٤) ارجع إلى الأغاني في ذلك ٣ ــ ١٤٦
(٥) الأغاني ٣ ــ ١٤٦ . (٦) في الأغاني : وقال : من سجايا الغالية ، ولم يقل الرافضة.

لبعثت ، ولم يقل : لأرْسلت ، وقال : يمَج ولم يقل : يبْقر ، وقال : في جوف منزله ، ولم يقل : في داره ، وأراد بذكر عُقَيل وسَدُوس ما ذكر من اعتزائه إليهم .

* * *

دين بشار — وزعم الجاحظ[1] أن بشاراً كان يَدين بالرَّجعة[2] ، ويُكَفِّر جميعَ الأمة ؛ وأنشد له أشعاراً صوّب بها رَأْيَ إبليس في تقديم النار على الطين ، منها قوله[3] :

الأرض مُظْلِمَةٌ والنارُ مُشْرِقةٌ ... والنارُ معبودةٌ مُذْ كانتِ النارُ

وقال داود بن رَزِين[3] : أتينا بشاراً فأذِنَ لنا والمائدةُ بين يديه ، فلم يَدْعُنا إلى الطعام ، ثم جلسنا فحضر الظهر والعصر والمغرب فلم يصلِّ ، ودعا بطَسْت فبالَ بحضرتنا ، فقلنا له : أنت أستاذُنا ، وقد رأينا منك أشياء أنكرناها . قال : ما هي ؟ قلنا : دخلْنا والطعامُ بين يديك فلم تَدْعُنا ، قال : إنما أذِنْتُ لتأْكلوا ، ولو لم تُرِدْ ذلك لم آذن لكم . قلنا له : ودعوت بالطَّست ونحن حضور ، قال : أنا مكفوف ، وأنتم مأمورون بغضّ الأبصار دوني . قلنا : وحضرت الصلاة فلم تصلّ ! قال : الذي يقبلها تفاريقَ يقبلها جملة ! هذا وهو القائل :

كيف يبكي لمَحْبَس في طُلولِ ... من سيُفْضي لحَبْسِ يومٍ طويلِ
إن في البعثِ والحساب لشغلا ... عن وقوفٍ برَسْمِ دارٍ محيلِ

وقال :

ذكرتُ بها عيشًا فقلت لصاحبي ... كأنْ لم يكُنْ ما كان حينَ يزولُ
وما حاجتي لو ساعد الدهرُ بالمُنَى ... كِعاب عليها لؤلؤٌ وشُكولُ
بدا ليَ أن الدهرَ يَقْدَحُ في الصَّفا ... وأنَّ بَقائي إن حييت قليلُ
فعِشْ خائفاً للموتِ أو غيرَ خائفٍ ... على كل نفسٍ للحِمامِ دَليلُ
خليلك ما قدمت من عمل التُّقَى ... وليس لأيّامِ المَنُون خَليلُ

(١) الأغاني ٣ — ١٤٥ . (٢) الإيمان بالرجوع بعد الموت في الدنيا .
(٣) الأغاني ٣ — ١٨٦ .

وكان بشّارٌ حاضرَ الجواب ، سجّاعا خطيبا، صاحبَ منثور ومُزْدَوَج، ورَجز[1] سجعه ورجزه ورسائل مختـارة على كثير من الـكلام ، ودخل[2] على عُقْبة بن مسلم[3] بن قتيبة ، فأنشده مديحا وعنده عقبة بن رُؤْبة ، فأنشده أرجوزة ، ثم أقبل على بشار فقال : هذا طِرازٌ لا تحسنه يا أبا معاذ ! فقال : والله لأنا أرجز منك ومن أبيك! ثم غدا على عقبة من الغَد فأنشده أرجوزته :

يا طَلَلَ الحيِّ بذاتِ الصَّمْدِ[4] بالله خَبِّرْ كيف كنتَ بعدي

يقول فيها :

صدّت بخدٍّ وجلَتْ عن خَدِّ ثم انثَنَتْ كالنَّفَسِ المُرْتَدِّ
وصاحبٍ كالدُّمَّلِ المُمِدِّ حملتُهُ في رُقْعَةٍ من جِلْدِي
حتى اغتدى[5] غيرَ فقيدِ الفَقْدِ وما درى ما رَغْبَتي من زُهْدِي

وهذا كقول الآخر :

يودّون لو خَاطُوا عليك جلودَهم ولا يَدْفع الموتَ النفوسُ الشحائحُ

وفيها يقول :

الحرّ يُلْحَى[6] والعصا للعَبْدِ وليس للمُلْحِفِ مِثْلُ الرَّدِّ
اسلَمْ وحُيِّيتَ أبا المِلَدِّ مفتاحَ باب الحَدث المُنْسَدِّ
والبس طِرَازي غيرَ مُسْتَرَدِّ لله أيامُك في مَعَدِّ

وهي طويلة[7] ، فأجزلَ صلته . فلما سمع ابن رُؤْبة ما فيها من الغريب قال : أنا وأبي وجدّي فتحْنا الغريبَ للنـــاس ، وإني لخليق أن أسدّه عليهم . فقال بشار :

---

(١) عبارة الجاحظ : وسجع ورسائل (الأغاني ٣ — ١٤٩) . (٢) الأغاني ٣ — ١٧٤ ، وفيه الأرجوزة . (٣) في الأغاني : بن سلم . (٤) الصمد : موضع في ديار بني يربوع . وماء للضباب . (٥) في الأغاني : حتى مضى . (٦) لحيت فلانا : لمته .
(٧) ارجع إليها في الأغاني : ٣ — ١٧٥ .

ارحمهم رحمك الله ! قال : تستخفّ بي ، وأنا شاعر ابن شاعر ابن شاعر ؟ قال : إذاً أنت من أهـــل البيت الذين أذهب الله عنهم الرِّجْس وطهَّرهم تطهيراً ! فضحك كلّ مَنْ حضر .

بمن طرفه ودخل(١) على المهدي وعنده خاله يَزيد بن منصور الحِميري فأنشده قصيدة ، فلما أتمّها قال له يَزيد : ما صناعتك يا شيخ ؟ قال : أثقُبُ اللُّؤلُؤ . فقال له المهدي : أتَهزَأ بخَالِي ؟ فقال : يا أميرَ المؤمنين ، فما يكونُ جَوَابي لمن يَرَى شَيْخاً أعمى يُنشِدُ شعراً فيسأله عن صِنَاعته ؟

وقال جَوَارِي المهدي للمهدي : لو أذِنْتَ لبشَّار يدخلُ إلينا يؤانسنا ويُنشِدنا فهو محجوب البَصَر ، لا غيرة عليكَ منه . وأمره فدخل إليهن واستظرَفْنَه ، وقلن له : وددنا والله يا أبا معـــاذ أنك أبُونا حتى لا نفارقك ، قال : ونحن على دِينِ كِسرى ! ، فأمر المهدي ألا يدخل عليهن .

وكأن المتنبي نظر إلى هذا فقال(٢) :

يا أختَ مُعتَنِقِ الفوارسِ في الوَغَى لَأَخُوكِ ثَمَّ أرَقُّ منكِ وأرْحَمُ
يَرْنُو إليكِ مع العفافِ وعِنْدَهُ أنَّ المجوسَ تُصيبُ فيما تَحْكُمُ

[كلمات مأثورة]

في المودة قال علي بن عبيدة الريحاني : المودَّةُ تَعَاطُفُ القلوب ، وائتلافُ الأرواح ، وحَنين النفوس إلى مَثَابة السرائر ، والاستروا حُ بالمستكنات في الغرائز ، ووحشة الأشخاص عند تَبَايُنِ اللقاء ، وظاهر السرور بكثرة التّزوار ، وعلى حسب مشاكلة الجواهر يكون اتفاقُ الخصال .

في العتاب وقال : العتابُ حدائقُ المتحابِّين ، وثمارُ الأوِدّاء ، ودليل الظنّ ، وحركات الشّوق ، وراحةُ الوَاجد ، ولسان المُشْفِق .

---

(١) الأغاني ٣ — ١٥٩ . (٢) ديوانه ٤ — ١٢٢ .

قال بعض الكتّاب : العتاب علامةُ الوفاء ، وحامّة[1] الجفاء ، وسلاحُ الأكفاء .

وقال على بن عبيدة : التجنّى رسولُ القطيعة ، وداعى القِلَى[2] ، وسبب السلوّ ، وأوّلُ التجافى ، ومنزل التهاجر .

وقال : الصدقُ ربيعُ القلب ، وزكاة الخَلْق ، وثمرة المروءة ، وشُعاعُ الضمير ، الصدق وعن جلالة القدر عبارته ، وإلى اعتدال وزن العقل يُنْسَب صاحبه ، وشهادتُه قاطعةٌ فى الاختلاف ، وإليه ترجع الحكومات .

وقال : الكذبُ شعارُ الخيانة ، وتحريفُ العلم ، وخواطر الزّور ، وتسويلُ الكذب أضغاث النفس ، واعوجاجُ التركيب ، واختلافُ البنية ، وعن خمول الذكر ما يكون صاحبه .

وعلى بن عبيدة : كثيرُ الإغارة عَلَى ما كان غَيْرُه قد استثاره .

فقر فى الكذب لغير واحد

بعض الفلاسفة — الكذّاب والميّتُ سواء ؛ لأنّ فضيلة الحىّ النُّطق ، فإذا لم يُوثَق بكلامه فقد بطلت حياته .

الحسن بن سهل — الكذّاب لصّ ؛ لأن اللصّ يسرقُ مالك ، والكذّاب يسرقُ عقلك ، ولا تأمن مَنْ كذب لك أنْ يكذب عليك ، ومن اغتاب غيرك عندك فلا تأمَنْ أن يغتابك عند غيرك . قال إبراهيم بن العباس فى هذا النحو[3] :

إنى متى أحقِد بحقْـ ... دك لا أضُرّ به سواكا
ومتى أطعتُك فى أخيـ ... ك أطعتُ فيك غداً أخاكا
حتّى أرى متقسّما ... يَوْمِى لذا وغداً لذاكا

حَسْبُ الكاذب بمقلهسقا وبقلبه خصما .

ابن المعتزّ — علامةُ الكذاب جَوْدُه باليمين لغير مستحلف ، وقال :

---

(١) يريد أنه يزيل الجفاء من أصله . (٢) البغض . (٣) ديوانه ١٦٢ .

وفى اليمين على ما أنت فاعلهُ ... ما دلّ أنك فى الميعادِ مُتَّهَمُ

وقال : اجتنِبْ مصاحبةَ الكذّاب ، فإن اضطررت إليه فلا تصدّقه ، ولا تُعْلِمه أنك تكذّبه ، فينتقل عن وُدّه ، ولا ينتقل عن طبعه . يعترى حديثُ الكذاب من الاختلاف ما لا يعترى الجَبَان من الارتعاد عند الحَرْب . لاتَصِحّ للكذّاب رُؤْيا ؛ لأنه يُخْبِر عن نفسه فى اليقظة بما لم يَرَ ، فتريه فى النوم مالا يكون . وأنشد:

لا يكذب المرء إلا مِنْ مهانتِهِ ... أو عادة السوء أو مِنْ قِلَّةِ الأدَبِ

ولأهل العصر : فلانٌ مُنْغَمِس فى عَيْبِهِ ، يكذب لذَيْله على جَيْبِهِ ، يقول بَهتاً[1] وزُوراً بَحْتاً ، قد ملأ قلبه رَيْناً ، وقوله مَيْناً[2] ؛ يدين بالكذب مَذْهبا ، ويستثير الزّور مركباً . أقاويلُ يتمشّى الزُّورُ فى مناكبِها ، ويَبْرُزُ البهتانُ فى مذاهبها .

وقال أعرابى لابنه وسمعه يَكْذِب : يابنى ، عجبتُ من الكذّاب المُشِيد بكَذِبِه ، وإنما يدلُّ على عَيْبِه ، ويتعرّضُ للعقاب من رَبّه ؛ فالآثامُ له عادة ، والأخبارُ عنه متضادّة ، إن قال حقا لم يصدّق ، وإن أراد خيراً لم يوفّق ، فهو الجانى على نفسه بفعاله ، والدّالُّ على فضيحته بمقاله . فما صحّ من صدقه نُسِب إلى غيره ، وما صحّ من كذب غيْرِه نُسِب إليه ، فهو كما قال الشاعر :

حَسْبُ الكذوب من المها ... نة بَعْضُ ما يحكى عليه
ما إن سمعت بكذبةٍ ... من غَيْرِه نُسِبَتْ إليه

[ثواب الشكر]

كتب الحسن بن سهل إلى المأمون ـ بعد أن زُفّت إليه بُوران وتوهّم القوادُ أن هذا التزويجَ قد أنْسَى الحسَن حالَه قبل ذلك : قد تولّى أميرُ المؤمنين من تَعْظِيم عبده

---

(١) بهته : قال عليه ما لم يفعل . (٢) الرين : الدنس ، ورانت النفس : خبثت . والمين : الكذب .

فى قبول أمتِه شيئاً لا يتّسعُ له الشكرُ عنه إلّا بمعونة أميرِ المؤمنين ، أدام الله عزّه فى إخراج توقيعه بتزيين حالى فى العامّة والخاصة ، بما يراه فيه صواباً إن شاء الله .

فخرج التوقيع : الحسنُ بن سهل زِمامٌ على ما جمع أمور الخاصة ، وكنَفَ أسبابَ العامة ، وأحاط بالنفقات ، ونفذ بالولاة ، وإليه الخراجُ والبريدُ واختيارُ القضاة ، جزاءً بمعرفته بالحالِ التى قرّبَتْهُ منا ، وإثابةً لشكره إيانا على ما أولينا .

[خطب النكاح]

قال يحيى بن أكثم : أراد المأمون أن يزوّج ابنته من الرضا(١) فقال : يا يحيى ؛ تكلم ، فأجللْتُه أن أقولَ : أنكحت ، فقلت : يا أميرَ المؤمنين ، أنت الحاكم الأكبر ، والإمام الأعظم ، وأنتَ أولى بالكلام ، فقال : الحمدُ لله الذى تصاغرت الأمورُ بمشيئته ، ولا إلهَ إلا هو إقراراً بربوبيّته ، وصلّى الله على محمد عند ذكره .

أمّا بعد ، فإنّ اللهَ قد جعل النكاح ديناً ، ورَضِيَه حُكْماً ، وأنزله وَحْياً ؛ ليكونَ سببَ المناسبة ؛ ألا وإنى قد زوّجت ابنة المأمون من علىّ بن موسى ، وأمهرتها أربعمائة درهم ، اقتداء بسنّةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانتهاء إلى ما دَرَج إليه السّلفُ ، والحمد لله ربّ العالمين .

قال الأصمعى : كانوا يستحبّون من الخاطب إلى الرجل حُرمته الإطالةَ ؛ لتدلّ على الرغبة ، ومن المخطوب إليه الإيجاز ، ليدلّ على الإجابة .

ما كان يستحب من الخاطب والمخطوب إليه

وخطب رجل من بنى أمية إلى عمر بن عبد العزيز أخته ، فأطال ؛ فقال عمر : الحمدُ لله ذى الكبرياء ، وصلّى الله على محمد خاتم الأنبياء ؛ أمّا بعد فإن الرغبةَ منك دَعَتْك إلينا ، والرغبة منا فيك أجابَتْ ، وقد زوّجناك على كتابِ الله : إمساكٌ بمعروف ، أو تسريحٌ بإحسان .

---

(١) على بن موسى .

وخطب رجل إلى قوم فأتى بمن يخطُب له ، فاستفتح بحمدِ الله وأطال وصلّى على النبيّ عليه السلام وأطال ، ثم ذكر البدء وخَلْقَ السموات والأرض ، واقتصّ ذِكْرَ القرون حتى ضَجِر مَنْ حضر ، والتفت إلى الخاطب ، فقال : ما اسمُك أعزّك الله ؟ فقال : والله قد أنسيت اسمى من طول خطبتك ، وهى طالقٌ إنْ تزوجتُها بهذه الخطبة؛ فضحك القوم ، وعقدوا فى مجلس آخر .

[الكتب والأقلام والخط]

الكتاب والقلم — وقال ابن المعتزّ : الكتاب وَالِجُ الأبواب، جرىءٌ على الحجّاب، مُفْهِم لا يَفْهَمُ، وناطقٌ لا يتكلَّم، به يشخص المشتاقُ إذا أقعده الفراق، والقلم مجهِّزٌ لجيوش الكلام، يخـدم الإرادة ، ولا يملّ الاستزادة ، ويسكتُ واقفا ، ويَنْطِقُ سائرا ، على أرض بياضها مُظْلِم، وسوادُها مُضِيء، وكأنه يقبِّل بِساط سلطان ،أو يفتح نُوّار بُسْتان.

وهذا كقوله فى القاسم بن عبيد الله ، قال الصولى لما عُرِض القاسم بن عبيد الله ليخلف أباه ـ قال ابن المعتزّ :

قَلَمٌ ما أراهُ أم فَلَكٌ يَجْـ ... ـرى بما شاء قاسِمٌ ويسيرُ

خاشعٌ فى يدَيْه يَلْثِمُ قِرْطا ... سا كما قبّل البساطَ شكورُ

ولَطيفُ المعنى جَليلٌ نَحيفٌ ... وكبير الأفعال وهْوَ صَغيرُ

كم منايا وكم عطايا وكم حَتْـ ... ـفٍ وعيشٍ تَضُمُّ تلك السُّطورُ

نقشت بالدُّجَا نهارا فما أدْ ... رى أخطٌّ فيهنّ أم تصْوير

هكذا مَنْ أبوه مثلُ عُبَيْد الـ ... ـلَّه ينمى إلى العُلَا ويَصير

عَظُمَتْ مِنّـةُ الإلهِ عليه ... فهناك الوزيرُ وهْوَ الوَزيرُ

صورة الخط — وقال بعض البلغاء : صورةُ الخطّ فى الأبصار سواد، وفى البصائر بَياض .

وقال أبو الطيب المتنبى[1] :

---

(١) ديوانه ٢ ـ ١٥٧ .

دَعاني إليكَ العِلمُ والحِلمُ والحِجَى ... وهذا الكلامُ النَّظمُ والنائلُ النَّثرُ
وما قُلْتُ مِنْ شِعْرٍ تَكادُ بُيوتُه ... إذا كُتِبَتْ يَبْيَضُّ مِنْ نورِها الحِبْرُ

وقال ابن المعتز فى عبيد الله بن سليمان بن وهب[1]:

عليمٌ بأعقابِ الأمورِ كأنّهُ ... بمختلساتِ الظّنِّ يسمعُ أو يرى
إذا أخذ القرطاسَ خِلْتَ يمينَهُ ... يُفتِّحُ نَوْرًا أو ينظِّمُ جوهرا[2]

بين صاحب سيف وصاحب قلم

فاخرَ[3] صاحبُ سيفٍ صاحبَ قلمٍ ، فقال صاحب القلم : أنا أقتلُ بلا غَرَرٍ ، وأنت تقتلُ على خَطَرٍ . فقال صاحب السيف : القلمُ خادِمُ السيف ، إن تمَّ مرادُه[4] ، وإلّا فإلى السيف معاده ؛ أما سمعت قول أبى تمام[5]:

السيفُ أصْدَقُ إنباءً من الكتُبِ ... فى حدِّه الحدُّ بَيْنَ الجِدِّ واللَّعِبِ
بِيضُ الصفائحِ لاسُودُ الصّحائفِ فى ... مُتُونِهنَّ جَلاءُ الشّكِّ والرِّيَبِ

وقال أبو الطيب[6]:

ما زِلْتُ أُضحِكُ إبلى كُلّما نظرَتْ ... إلى مَنِ اختَضَبَتْ أخفافُها بدَمِ
أُسيرُها بَيْنَ أصنامٍ أُشاهِدُها ... ولا أُشاهِدُ فيها عِفّةَ الصَّنَمِ
حتى رجَعْتُ وأقلامى قوائلُ لى ... المجدُ للسّيفِ لَيْسَ المجدُ للقلَمِ
اكْتُبْ بِنا أبداً بعدَ الكِتابِ به ... فإنّما نَحْنُ للأسيافِ كالخدَمِ

هذا مقلوبٌ من قول على بن العباس النوبختى ، وقد رواه أبو القاسم الزجاجى لابن الرومى ، وإنما وَهِمَ لاتفاق الاسمين[7]:

إن يَخْدُمِ القلمُ السيفَ الّذى خضعَتْ ... له الرقابُ ودانَتْ خوفَهُ الأُمَمُ
فالموتُ ـ والموتُ لا شىءٌ يُغالبُه ... ما زال يَتْبَعُ ما يَجْرِى به القلمُ

---

(١) ديوانه : ١١٦ . (٢) فى الديوان : تفتح نورا أو تنظم .
(٣) ديوان المعانى: ٢ ـ ٧٧ . (٤) فى ديوان المعانى : إن بلغ مراده . (٥) ديوانه: ٧ .
(٦) ديوانه : ٤ـ١٠٩ . (٧) ديوان ابن الرومى ٣٧٢ ، ديوان المعانى ٧٧ .

بذا[1] قضى الله للأقلام مذ بريت أن السيوف لها ــ مذ أرهفت ــ خدم

وقال ابن الرومى[2] :

لعمرك ما السيف سيف الكمى بأخوف من قلم الكاتب
له شاهد إن تأملته ظهرت على سره الغائب
أداة المنية فى جانبيه فمن مثله رهبة الراهب
سنان المنية فى جانب وحد[3] المنية فى جانب
ألم تر فى صدره كالسنان وفى الردف كالمرهف القاضب[4]

وقال أبو الفتح البستى :

إذا أقسم الأبطال يوماً بسيفهم . وعدوه مما يكسب المجد والكرم
كفى قلم الكتاب مجداً ورفعة مدى الدهر أن الله أقسم بالقلم

وقد قيل : صرير الأقلام ، أشد من صليل الحسام .

قال الصولى : أنشدنى طلحة بن عبيد الله :

وإذا أمر على المهارق كفه بأنامل يحملن شختاً مرهفا[5]
متقاصراً متطاولا ومفصلا وموصلا ومشتتاً ومؤلفا
ترك العداة رواجفاً أحشاؤها وقلاعها رقلما[6] هنالك رجفا
كالحية الرقشاء إلا أنه يستنزل الأروى[7] إليه تلطفا
يرى به قلماً يمج لعابه فيعود سيفاً صارماً ومثقفا

وقال محمود بن أحمد الأصبهانى :

---

(١) فى الديوان : كذا . (٢) ديوانه ١ ــ ١٧٤ ، ديوان المعانى ٧٨ .

(٣) فى الديوان : وسيف . (٤) القاضب : القاطع . (٥) المهرق : الصحيفة البيضاء ، والجمع مهارق . الشخت : الدقيق الضامر لا هزالا . (٦) القلعة ــ بالـ[illegible] يك : صخرة تقلع من الجبل وجمعها قلع بكسر القاف . أو هى قلع بفتحتين وهى السحب .

(٧) الأروية : أنثى الوعول . والكثير أروى .

أخرسُ يُنْبِيك بإطْراقِهِ ... عن كل ما شئتَ مِنَ الأمرِ
يُذْرِي[1] على قِرْطاسِهِ دَمْعَةً ... يُبْدِي بها السرَّ وما يَدْرِي
كعاشق أخْفَى هواه وقد ... نَمَّتْ عليه عَبْرَةٌ تَجْرِي
تُبْصِرُه في كلّ أحوالِهِ ... عُرْيانَ يَكْسُو الناسَ أو يُعْرِي
يُرى أسيراً في دَوَاةٍ وقد ... أطْلَقَ أقواماً من الأَسْر
أخرق لو لم تَبْرِه لم يَكُنْ ... يَرْشُقُ أقواماً وما يَبْرِي
كالبَحْر إذْ يجرى وكالليل إذْ ... يَغْشَى ، وكالصارم إذْ يَفْرِي

وقال أحمد بن جِدّار[2]:

أهيفُ ممشوقٌ بتحريكهِ ... يحلّ عقدَ السرِّ إعلانُ
له لسانٌ مُرْهَفٌ حَدُّهُ ... من رِيقَةِ الكُرْسُفِ رَيّان[3]
تَرَى بسيطَ الفِكْرِ في نَظْمِهِ ... شَخْصاً له حدٌّ وجُثْمانَ
كأنما يَسْحَبُ في إثْرِهِ ... ذَيْلاً من الحِكْمةِ سَحْبانُ
لولاه ما قام مَنَارُ الهدى ... ولا سَمَا لِلْمُلْكِ ديوانُ

ومن أجود ما قيل في صفة القلم قول أبي تمام لمحمد بن عبد الملك الزيات[4] :

أجود ما قيل في وصف القلم

لَكَ القَلَمُ الأعْلَى الّذِي بِشَبَاتِهِ[5] ... تُصابُ من الأمْرِ الكُلَى والمفاصِلُ
له رِيقَةٌ طَلٌّ وَلَكِنَّ وَقْعَها ... بآثارِهِ في الشَّرْقِ والغَرْبِ وَابِلُ
لُعابُ الأفاعِي القَاتِلاتِ لُعَابُهُ ... وَأَرْيُ[6] الجَنَى اشْتَارَتْهُ أيْدٍ عَوَاسِلُ
له[7] الخلوات اللاء لولا نَجِيُّها ... لما احتفلت[8] لِلمُلْكِ تِلْكَ المَحَافِل

---

(١) أذرت العين دمعها : صبته . (٢) هكذا في كل الأصول ، والضبط من س .

(٣) في ط : ريقه ، والريق : الرضاب والريقة أخص منه ، الكرسف : القطن .

(٤) ديوانه ٢٠٧ ، ديوان المعاني ٧٨ . (٥) الشباة : حد كل شيء .

(٦) الأرى : العسل . (٧) في الديوان : لك . (٨) في الديوان ، س : احتفلت .

وقال الأمير تميم بن المعز :

وذي عَجب من طول صَبْرِى على الذى ... أُلاقِى من الأرْزَاء وهو جليلُ
يقولون : ما تَشْكُو ؟ فقلت : متى شكا ... شبَا السيفِ عَضْبُ الشفرتَيْنِ صَقِيلُ
وإنّ امرأ يشكُو إلى غير نافع ... ويَشْكُو بما فى نفسهِ لجَهُولُ
عذابِىَ أنْ أشكو إلى الناس أننى ... عليلٌ ومَنْ أشكو إليه عَلِيلُ
ويَعنِى الشكوى إلى الله علمُهُ ... بجُمْلَةِ ما ألقاه قَبْلَ أقول
سأسكتُ صَبْراً واحتساباً فإننى ... أرى الصَّبرَ سيفاً ليس فيه فُلول

وقال :

يادَهْرُ ما أقساكَ من متلوّن ... فى حالتيك وما أقلّك مُنْصِفاَ
أتروح للنّكس⁽¹⁾ الجهول مُمَهّدا ... وعلى اللبيب الحرّ سيفاً مُرْهَفا
وإذا صفوتَ كدّرتَ شيمةَ باخلٍ ... وإذا وفيت نقضت أسبابَ الوَفَا
لا أرتضيك وإن كرمت لأننى ... أدْرِى بأنك لا تدومُ على الصَّفَا
زمنٌ إذا أعطى استردّ عَطَاءهُ ... وإذا استقام بَدَا له فتحرّفَا
ما قام خيرُك يا زمانُ بشرِّهِ ... أوْلَى بنا ما قلّ منك وما كَفَى

[الصدق فى النصيحة]

وكان أحمدُ بنُ يوسف منصرفاً عن غسّان بن عباد، وجرَتْ بينهما هَنَات بحضرةِ المأمون ، فقال يوماً بحضرة خاصّة أصحابه : أخبرونى عن غسّان بن عباد ؛ فإنّى أريده لأمرٍ جسيم ؛ وكان قد عزَم على تقليده السِّند مكانَ بِشْرِ بن داود ؛ فتكلّم كلُّ فريقٍ بما عنده فى مَدْحِه ؛ فقال أحمد بن يوسف : هو يا أميرَ المؤمنين رجلٌ محاسِنُه أكثرُ من مساويه ، لايتطرّفُ به أمرٌ إلّا تقدّم فيه ، ومهما تُخوّف عليه فإنه لن يَأْتِىَ أمراً يُعْتَذر منه ؛ لأنه قسّم أيامه بين أفعال الفَضْل ؛ فجعل لكلّ

(١) النكس : المقصر عن غاية الكرم .

خُلُق نَوبة ، إذا نظرتَ فى أمْرِه لم تَدْرِ أى حالاته أعجب ؛ أمَا هداه إليه عَقْلُه أمْ ما اكتسبه بأدبه ؟

فقال له المأمون : لقد مدحته على سوء رَأْيك فيه ! قال : لأنى فى أمير المؤمنين كما قال الشاعر :

كَفَى ثمنـاً لِمَا أسْـدَيْتُ أنى ... نصحْتُك فى الصديق وفى عِدَاتى[(١)]

وأنى حين تَنْدُبُنى[(٢)] لأمرٍ ... يكون هَواكَ أغلَبَ مِنْ هَوائى[(٣)]

قال الصولى : وقد رُوى هـذا لغير أحمد ، ولعلّ أحمد استعاره ؛ فأعجب المأمون ذلك منه ، وشكر غسان بن عبّاد له ، وتأكّدت الحالُ بينهما.

وكان أحمدُ بن يوسف بن القاسم بن صبيح مولى عِجْل بن لجيم عالِيَ الطبقـة فى البلاغة ، ولم يكن فى زمانه أكْتَبَ منه ، وله شعرٌ جيد مرتفع عن أشعار الكتاب . ووزر للمأمون بعد أحمد بن أبى خالد . وكان أول[(٤)] ما ارتفع به أحمد أن المخلوعَ محمد ابن الرشيد لما قُتِل أمر طاهرُ بنُ الحسين الكتّاب أنْ يكتبوا إلى المأمون ؛ فأطالوا ، فقال طاهر : أريد أخْصَر من هذا ؛ فوُصِفَ له أحمد بن يوسف وموضعه من البـ ـغة ، فأحضره لذلك ، فكتب : أمّا بعد فإنّ كان المخلوعُ قسيم أمير المؤمنين فى النَّسَب واللُّحْمَة ، فقـد فرّق بينهما حكمُ الكتاب فى الولاية والحرمة[(٥)] ، بمفارقته عِصمة الدين ، وخروجه عن الأمْرِ الجامع للمسلمين ، لقول الله عزّ وجل فيما اقتصّ [علينا][(٦)] من نبأ نوح وابنه[(٧)] : (إنه ليس مِنْ أهْلِكَ إنه عملٌ غيرُ صالح) ، ولا طاعة لأحدٍ فى معصيةِ الله ، ولا قطيعةَ ما كانت القطيعةُ فى ذاتِ الله ؛ وكتابى إلى أمير المؤمنين وقد أنجز اللهُ له ما كان ينتظرُ من سابق وَعْدِه ، والحمدُ لله الراجع إلى أمير المؤمنين معلوم حقّه ، الكائد له فيمن خَتَرَ[(٨)] عَهْدَه ، ونقَضَ عَقْدَه ، حتى ردّ به الألْفَة بعدفُرْقتها ،

[فى الهامش: أحمد بن يوسف]

(١) فى س : وفى عداى . (٢) ندبه إلى الأمر : دعاه . (٣) فى س : من هواى .
(٤) الأدباء ٥ ـ ١٦٧ . (٥) فى الأدباء : والحرمة . (٦) من س .
(٧) سورة هود ، آية ٤٦ . (٨) الختر : الغدر .

وجَمع به الأمةَ بعد شَتاتِها ، وأضاء به أعْلام الدين بعد دُرُوسها ؛ وقد بعثتُ إليك بالدنيا وهى رأسُ المخلوع ، وبالآخرة وهى البُرْدة[1] والقضيب؛ والحمدُ لله الآخذِ لأمير المؤمنين حقَّه ، الراجع إليه تُراثَ آبائه الراشدين .

من كلامه وكان أحمد بن أبى خالد كثيراً ما يَصِفُ أحمد للمأمون ويحثُّه عليه ، فأمره المأمونُ بإحضاره ، فلما وقف بين يديه قال : الحمدُ لله يا أميرَ المؤمنين الذى استخصَّك فيما استحفظك من دينه ، وقلَّدك من خلافته ، بسوابغ نِعَمه ، وفضائل قِسَمه ، وعرَّفك من تيسير كلِّ عسيرٍ حاولك عليه متمرِّد ، حتى ذلّ لك ما جمله تكملة لما حَبَاك به من مواردِ أمورِه بنُجْح مصادرها ، حمْدًا نامياً زائدا لا يَنْقَطِعُ أولاه ، ولا يَنْقَضِى أُخْراه ، وأنا أسألُ الله يا أميرَ المؤمنين من إتمام بلائه لديك ، ومِنَنِه عليك ، وكفايته ما ولَّاك واسترعاك ، وتحصين ما حازَ لك ، والتمكينِ من بلادِ عدوِّك ، ما يَمنعُ به بَيْضَةَ[2] الإسلام ، ويُعِزُّ بك أهْلَه ، ويُبِيح بك حِمَى الشِّرْكِ ويجمعُ لك مُتَبايِن الألْفَة ، ويُنْجِز بكَ فى أهل العِنَاد والضلالة وَعْدَه ؛ إنه سميع الدعاء ، فعّال لما يشاء .

من كتابه فقال المأمون : أحسنتَ ، بُورِكَ عليك ناطقا وساكتا ، ثم قال بعد أنْ بَلَاه واختبره : ياعجباً لأحمد بن يوسف ! كيف استطاع أن يَكْتُم نَفْسَه !

وكتب إلى المأمون يستجدى لزوّار على بابه[3] : إن داعِى نَدَاك ، ومُنَادِى جَدْوَاك ، جَمَعا ببابك الوُفُود ، يرجون نائلَك المَعِيد[4] ، فمنهم من يَمُتُّ بحُرْمَة ، ومنهم من يُدْلِى بسالِف خِدْمَة ، وقد أجْحَفَ بهم المقام ؛ فإن رأى أميرُ المؤمنين أن يَنْعَشهم بسَيْبِه ، ويحقق ظنَّهم بطَوْله[5] ، فعل .

فوقّعَ المأمونُ فى عرض كتابه :

---

(١) فى س : البرد . (٢) البيضة : حوزة كل شىء . (٣) الأدباء ٥ — ١٦٩ .
(٤) فى الأدباء : المعهود . (٥) السيب : العطاء . والطول : الفضل .

الخيرُ متَّبَع ، وأموالُ الملوك مَظَانّ لطلّاب الحاجات ؛ فاكتُبْ أسماءهم ، وبيِّن مرتبةَ كلّ واحد منهم ، ليصيرَ إليه على قَدْرِ استحقاقه ؛ ولا تكدِّرنّ معروفنا بالمَطْلِ[1] والحجاب ؛ فقد قال الشاعر :

فإنّك لَنْ تَرَى طَرْداً لحُرّ كإلصاقٍ بهِ طرَفَ الهَوَانِ
ولم تُجْلَبْ مودّةُ ذِي وَفَاء بمثل الوُدّ أو بَذْلِ اللّسَانِ

قال أحمد بن يوسف : أمرنى المأمون أن أكتبَ فى زيادة قناديل شهر رمضان ؛ فأعْيَا علىّ ، ولم أجِدْ مثالا أحتذِى عليه ؛ فبتّ مغموماً ، فأتانى آتٍ فى النوم فقال : اكتب : فإنّ فيها إضاءة للمتهجِّدين ، ونفياً لمكان الرِّيَب ، وأنْساً للسابلة[2] ، وتنزيهاً لبيوتِ الله من وَحْشَةِ الظُّلَم . فأخبرت بذلك المأمون فاستظرفه ، وأمر أن تمضى الكُتُبُ عليه .

وأهدى إلى المأمون فى يوم نوروز طبقَ جَزْعٍ عليه ميل من ذَهب ، فيه اسمه منقوش ، وكتب إليه :

هذا يوم جَرَتْ فيه العادةُ ، بإلطاف العبيد السادة ، وقد بعثتُ إلى أمير المؤمنين طبق جزع فيه ميل .

فلما قرأ المأمون الرقعة قال : أجاءت هديةُ أحمد بن يوسف ؟ قالوا : نعم . قال : هى فى دارى أمْ دارى فيها . فلما رفع المنديل استظرف الهديّة واسترجح مُهْدِيها .

وأهدى إلى إبراهيم بن المهدى هدية وكتب إليه : الثقةُ بك قد سهّلت السبيلَ إليك ، فأهْدَيْتُ هديةَ من لا يَحتشِم إلى من لا يَغْتَنِم .

وكتب إلى بنى سعيد بن سلم : لولا أنّ الله عزّ وجل ختم نبوّته بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وكتبَه بالقرآن ، لنزّل فيكم نبيّ نِقْمَة ، وأنزل فيكم قرآنَ غَدْرٍ ؛ وما

(١) المطل : التسويف ، وفى س ، ف : ولا تكهمون . (٢) السابلة من الطرق : المسلوكة ، والقوم المختلفة عليها .

حَسِبتَ أن أقول في قوم محاسنُهم مساوى السُّفل، ومساويهم فضائحُ الأمم، وألسنتُهم معقولة بالعيّ، وأيديهم معقودة بالبُخْل، وهم كما قال الشاعر :

لا يكبرون وإن طالت حياتهمُ ولا تَبِيد مخازيهم وإنْ بادُوا

وغنى مُغَنٍّ بحضرة أحمد بن يوسف ولم يكن مُحْسنا ، فلم يُنْصِتوا له ، وتحدّثوا مع غنائه ، فغضب المغنّى ؛ فقال أحمد بن يوسف : أنت عافاك الله تحمّل الأسماع ثقلا ، والقلوب مَلَلا ، والأعيُن قباحة ، والأنف نتانة ، ثم تقولُ : اسمعوا منى ، وأنصتوا إليّ ! هذا إذا كانت أفهامُنا مُقْفلة ، وآذاننا صَدِئة ، فإما رضيت بالعَفْو منا ، وإلا قمت مذموماً عنا .

ألفاظ لأهل العصر في ذم المغنّين

يترنّم فيُتْعِبُ ولا يُطْرِب . إذا غنّى عَنَّى ، وإذا أدّى آذى . يميت الطرَب ، ويحيي الكُرَب . ضَرْبُهُ يُوجِب ضَرْبَه . من عجائب غنائه أنه يُورِد الشتاء في الصيف . ما رؤى قطّ في دار مرتين . وحضر جحظة مجلساً فيه عليّ بن بسام ، فتفرّق القومُ المخادّ ، فقال جحظة : فالى لم تعطوني مخدّة ؟ فقال علي بن بسام : غنّ فالمخادّ كلها إليك تصير ! وفيه يقول ابن بسّام :

يا مَنْ هَجَوْناه فغنّانا أنت، وبيتِ الله ، أهجانا
سيّان إن غنّى لنا جَحْظةٌ أو مرّ مجنون فزنّانا[1]

وكان خالد يَسْتَبرِد ، فبعث بعضُ الظرفاء غلامَه يشترى له خمسة أرطال ثلج ، فأتاه بخالد وقال : يا مولاى ، طلبت خمسة أرطال ، وهذا حِمْل !

وتغنّى بحضْرَة محموم ؛ فقال : ويحك ! دَعْنا نعرق !

وقال بعض المحدثين في قريص المغنى :

(١) في ط : فغنانا .

ألا فاسقنى[1] قدحاً وافراً ... يُعِينُ على البَلْغَمِ الهـــائجِ
أ كلنا قَرِيساً[2] وغَنّى قريس ... فنحنُ على شرف الفَالجِ

ولقى أبو العبــاس البرد برد الخيار المغنى فى يوم تَلْج بالجسر ، فقال : أنت البرْد وأنا برد الخيار ، واليوم كما تَرى ، اعبرْ بنا لا يهلك الناس بالفالج بسببنا .

وقال ابن عباد الصاحب فى مغنّ يعرف بابن عذاب :

أقول قولا بلا احتشام ... يعقله كلُّ مَنْ يَعيه
ابن عذَاب إذا تغنّى ... فإننى منه فى أبيه

* * *

من شعر أحمد ابن يوسف

ومن شعر أحمد بن يوسف :

ضَمِيرُ وَجْدٍ بقَلْب صَبٍّ ... تَرْجَمَ دَمْعِى بهِ فشَاعاَ
فصاردَمْعى لِسانُ وَجْدى ... ضيّع سِرّى بهِ فذاعاَ
لولا دموعى وفَرْط حُبّى ... ما كان سِرّى كذا مُضاَعا

وقال :

وعاملٍ بالفجورِ يأمُرُ بالْـ ... ـبِرِّ كهادٍ يخوضُ فى الظُّلَمِ
أو كطبيب قد شفَّهُ سَقَم ... وهْو يُدَاوِى من ذلك السَّقَمِ
يا واعظَ الناسِ غير متّعظٍ ... ثَوْبَكَ طَهِّرْ أوّلا فلا تَلُمِ

وقال :

إذا ما التقينا والعيونُ نواظرٌ ... فألْسُنُنا حَرْبٌ وأبصارنا سِلْمُ

وقال فى الحزن[3] :

كثيرُ هموم القلبِ حتى كأنما ... عليه سرورُ العالَمين حَرَامُ

---

(١) فى س : اسقنى . (٢) سمك قريس : طبخ وعمل فيه صباغ وترك حتى جمد ، والقريس : البرد الشديد ، وأكثف الصقيع . (٣) الأدباء ٥ — ١٨٢ .

إذا قيلَ ما أضْناكَ! أسبَلَ دَمْعَهُ ... فأخبرَ ما يلقى وليس كلامُ[١]

وقال :

كريمٌ له نفسٌ يَلينُ بِلينِها ... ليردَعَ عَنْ سلطانِه سُنَنَ الكِبْرِ
إذا ذكّرَتْه نفسه عظْمَ قَدْرِها ... دعاه إلى تسكينِها عظم القَدْرِ

من توقيعاته — ووقّع في كتابِ رجل يحثّه على استتمام صنائعه عنده: مستتمُّ الصنيعةِ من عدّل زَيْغَها[٢] ، وأقام أودَها ، صيانةً لمعروفه ، ونصرةً لرأيه؛ فإن أول المعروف مستخفٌّ، وآخره مستثقَل، يكاد أول الصنيعة يكون للهوى، وآخرها للرّأي ، ولذلك قيل : رَبُّ الصنيعة أشد من ابتدائها[٣] .

أحمد بن يوسف وأبو العتاهية — وكان أبو العتاهية له صديقا قبل ارتفاع حالِه، فأحسّ منه في حين وزارته تغيّرا ؛ فكتب إليه :

أمنت إذ استغنيت من سَوْرةِ الفقرِ ... فصرتَ تَرَى الإخوانَ بالنَّظَرِ الشَّزْرِ
أبا جعفر إنّ الشريفَ يَهينهُ ... تَتَايُهه دونَ الأخلاء بالوَفْرِ[٤]
فإنْ تِهتَ يوماً بالذي نلتَ من غنى ... فإن غنائى بالتجمّل والصّبْرِ
ألم تر أنّ الفقرَ يُرْجَى له الغنى ... وأنّ الغِنَى يُخْشَى عليه من الفقرِ

وروى أبو بكر يموت بن المزرع عن خاله الجاحظ قال : حجب أحمدُ بن يوسف أبا العتاهية ، ثم عاد، فقيل : هو نائم ، فكتب إليه:

لئن عدتُ بعد اليوم إنى لظالمٌ ... سأصْرِفُ وجهى حيث تُبْغَى المكارمُ
متى يظفر الغادى إليكَ بحاجةٍ ... ونِصْفُك محجوب ونِصْفُك نائمُ

وقال :

يا أبو جعفر أخى وخَليلى ... فى عِدَادِ الموتى وفى ساكنى الدنـ

---

(١) رواية الأدباء : يبوح بما يخفى وليس كلام . (٢) فى س : زيغها .
(٣) الرب : التعهد بالإصلاح . (٤) الوفر : الغنى .

ميِّتٌ مات وهْو في رونق العَيْـ ـشِ مقيما في ظِلِّ عَيْشٍ ظليلِ
لم يمت ميتةَ الوَفاةِ ولٰكنْ مات عن كلِّ صالحٍ وجميلِ

مخاصمة ابن يوسف رجلا بين يدى المأمون

وخاصم أحمدُ بنُ يوسف رجلا بين يدى المأمون وكان صَغَا(٢) المأمون إليه على أحمد ، ففطن لذلك ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنه يَسْتَمْلِى من عينيك ما يَلْقَانِى به ، ويستَبِينُ بحركته ما تُجِنّه له ، وبلوغُ إرادتك أحبُّ إلىّ من بلوغ أملى ، ولذةُ إجابتك أمتعُ عندى من لذّةِ ظفرى ؛ وقد تركتُ له ما نازعنى فيه ، وسلّمتُ له ما طالبنى به . فاستحسن ذلك المأمون .

ومن كلام أحمد بن يوسف : مجالسةُ البُغَضاء تُثِيرُ الهمومَ ، وتَجْلِبُ الغموم ، وتُؤْلِمُ القَلْبَ ، وتقدح فى النّشاط ، وتَطْوِى الانبساط .

ألفاظ لأهل العصر فى صفات الثقلاء

فلان ثقيل الطَّلْعَةِ ، بَغيضُ التفصيل والجُمْلَةِ ، باردُ السكونِ والحركةِ ؛ قد خرج عن حدِّ الاعتدال ، وذهب مِنْ ذاتِ اليمين إلى ذات الشِّمال . يحكى ثقل الحديث المُعَاد ، ويَمْشِى فى القلوب والأكباد ، ولا أدرِى كيف لم تحمل الأمانةَ أرضٌ حملتْهُ ؟ وكيف احتاجت إلى الجبال بعد ما أقلّته ؟ كأنّ وجهَهُ أيامُ المصائب ، وليالى النوائب ، كأنما قُرْبه فَقْدُ الحبائب ، وسوء العواقب . وكأنما وصلُه عدمُ الحياة وموتُ الفجأة ، وكأنما هَجْرُه قوة المنّة ، وريحُ الجنّة . يا عجبى من جِسْمٍ كالخيال ، وروحٍ كالجبال . كأنه ثقل الدَّيْنِ ، على وَجعِ العين . هو ثقيلُ السكون ، بغيضُ الحركةِ ، كثيرُ الشؤم ، قليلُ البركة . هو بين الجَفْنِ والعينِ قَذَاة ، وبين الأخمص والنّعل حصاة . ما هو إلا غداة الفراق ، وكتاب الطلاق ، وموت الحبيب ، وطلوع الرقيب . ما هو إلّا أربعاء لا تَدُورُ فى صفر ، والكابوسُ فى وَقْتِ السَّحَر ، وأثقل

(١) يقال : صغاه معك ، أى ميله .

من خَراج بلا غلّة ، ودَوَاه بلا عِلّة ، وأبغَض من مثلٍ غيرِ سائرٍ ، وأجْمَع للعيوبِ من بغلة أبى دُلامة ، وحمار طيّار ، وطيلسان ابنِ حَرْب، وأيرِ أبى حكيمة، وأنشد:

مشى فدعا من ثقله الحوتُ ربَّهُ وقال إلهى زِيدَتِ الأرضُ ثانِيَه

وأنشد :

تحمل منه الأرض أضعافَ ما يحمله الحوتُ من الأرضِ[1]

وأنشد :

مشتَمِل بالبُغْضِ لا تَنْثَنى إليه لَحْظاً مُقْلَةُ الرّامِقِ
يظلُّ فى مجلسنا قاعداً أثقلَ من وَاشٍ على عَاشِقِ

وقال الحدونى:

سألتك باللهِ إلّا صدقتَ . وعِلْمِى بأنّك لا تصدقُ
أتُبْغِضُ نفسَك من ثقلها وإلا فأنت إذاً أحْمَق

وكتب أبو عبد الرحمن العطوى إلى بعض إخوانه :

إذا أنت لم تُرْسِلْ وجئتُ فلم أصل مَلأْت بعذرٍ منكَ سَمْعَ لَبيبِ
أتيتك مشتاقاً فلم أرَ حاجباً ولا صاحباً إلا بوجهٍ قطوبِ
كأنى غريمٌ مُقْتَضٍ أو كأننى طلوعُ رَقيبٍ أو نهوضُ حَبيبِ

وكان أبو عبيدة معمر بن المثنى يستثقلُ جليساً اسمه زنباع ، فقال له رجل يوما : ما الزنبعة فى كلام العرب ؟ قال : التثاقُل ، ولذلك سُمّى جليسُنا زنباعا .

وقد كَثَّرَ الناس فى الثقلاء، وأنا أستحسن قول جحظة، وإن كان غيره قد تقدّمه فى مثله :

يالفظة النعْىِ بموْتِ الخليل ياوقفة التوْديع بين الحمولْ
ياشربةَ اليارج[2] ياأجرةَ الـ ـمَنْزِلِ ياوَجْهَ العَذُولِ الثَّقيلْ

---

(١) إشارة إلى الخرافة التى تزعم أن الأرض يحملها حوت . (٢) معجون مسهل .

يا طلعةَ النَّعْش ويا منزلًا ... أقفَرَ من بعد الأنيس الحُلُولْ
يانهضةَ المحبوب عن غَضْبَةٍ ... يانعمةً قد آذَنَتْ بالرَّحيلْ
ويا كتاباً جاء من مُخْلِفٍ ... للوعد مملوءًا بعُذرٍ طويلْ
يا بُكرة الثَّكْلَى إلى حُفْرةٍ ... مستودعٍ فيها عزيزُ الثُّكُولْ
ياوثبةَ الحافظِ[1] مستَعْجِلًا ... بصَرْفه القينات عند الأصيلْ
ويا طبيباً قد أتى باكراً ... على أخي سقمٍ يعاه البقول
يا شوكةً في قدمٍ رَخْصَةٍ ... ليس إلى إخراجها من سبيل
يا عِثْرَةَ المجذوم في رَحْله ... ويا صُعود السِّعْرعند المُعيل[2]
يا رَدَّة الحاجب عن قَسْوَةٍ ... ونَكْسَةً من بعد بُرْءِ العليل

* * *

وجَحْظَةَ هذا هو[3] أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن جعفلة برمك، وقال أبو الحسن على بن على بن محمد بن مقلة الوزير: سألتُ جَحْظَةَ مَنْ لقَّبه[4] بهذا اللقب؟ فقال: ابنُ المعتز لقيني يوماً، فقال لي: ما حيوان إنْ نَكَّسُوه أتانا آلة للمراكب البحرية[5]، فقلت: عَلَقٌ إذا نُكِّس[6] صارَ قِلْماء، قال: أحسنت ياجحظة؛ فلزمني هذا اللقب. وكان ناتِىءَ العينين جدًّا، قبيحَ الوجه، ولذلك قال ابن الرومى[7]:

نبتْ جَحْظَةَ يستميرُ جُحوظَهُ ... مِنْ فيل شِطرَنْج ومن سرطانِ
يا رحمتى لمُنَادِميه تحمَّلوا ... ألمَ العيونِ للذَّةِ الآذانِ

وكان طيِّبَ الغناء، ممتدَّ النفَس، حسنَ المسموع؛ إلا أنه كان ثقيلَ اليدِ فى الضرب؛ وكان حُلْوَ النادرة، كثير الحكاية، صالح الشِّعْرِ؛ ولا تَزال تندر له الأبيات الجيدة؛ وهو القائل:

من شعره

جانبت أطْيَب لذَّتى وشرابى ... وهجرت بعدك عامداً أصحابى

(١) الحافظ: الموكل بالشىء. (٢) المعيل: من أعول: كثر عياله.
(٣) ذيل اللآلى: ٢٥. (٤) الأدباء: ٢ — ٢٤١. (٥) فى الأدباء: آلة البحرية. (٦) فى الأدباء: عكس. (٧) وفيات الأعيان ١ — ٤١.

فإذا كتبتُ لكى أنزِّه ناظرى ... فى حُسْنِ لفظك لم تجُدْ بجَوابِ
إن كنت تنكر ذِلّتى وتذلّلى ... ونحولَ جسمى وامتدادَ عَذَابى
فانظر إلى بَدَنِى الذى موَّهتُه ... للناظرين بكَثْرةِ الأثوابِ

وقال[1] :

وإذا جفانى صَاحِبٌ ... لم أستَجِزْ ماعِشْتُ قَطْعَهْ
وتركْتُه مِثْلَ القُبُو ... رِ أزورها فى كُلِّ جُمْعَهْ

وقال :

ضاقت علىَّ وجوهُ الرأى فى نَفَرٍ ... يلقون بالجَحْدِ والكُفْرَانِ إحسانى
أقلّبُ الطرْفَ تصعيداً ومُنحدَراً ... فما أقابل إنسانا بإنسانى[2]

وقال :

لقد مات إخوانىَ الصالحون ... فمالى صديقٌ ومالى عماد
إذا أقبل الصبحُ وَلّى السرور ... وإن أقبل الليل وَلّى الرقاد

وقال يهجو رجلا :

لا تعذلونى إن هَجَرْتُ طعَامَهُ ... خوفا على نفسى مِنَ المأكولِ
فمتى أكلت قتلتُه من بُخْلِه ... ومتى قَتَلْتُ قُتِلت بالمقتولِ

ومن حكاياته ما حدّثنى خالدُ الكاتب[3] قال : جاءنى يوماً رسولُ إبراهيم بن المهدى فصرت إليه ، فرأيتُ رجلا أسْوَدَ على فُرُش قد غاص فيها ، فاستجلسنى ، وقال : أنشدنى من شعرك ، فأنشدتُه :

رأتْ منه عينى منظَرَيْنِ كما رأتْ ... من الشمسِ والبدرِ المنيرِ على الأرضِ
عشيّةَ حيّانى بوَرْدٍ كأنهُ ... خدودٌ أضيفت بعضُهن إلى بعضِ

---

(١) الأدباء ٣ ـ ٢٦٦ . (٢) فى س : إنسانى بإنسان .
(٣) المختار من شعر بشار ١٨٢ .

ونازعني كأساً كأنّ حبابَها ... دموعيَ لمّا صَدّ[1] عن مقلتي غمضي

وراح وفِعْلُ الراحِ في حَرَكاتِه ... كفِعْل نسيم الريح بالغُصُنِ الغضّ

فزحف[2] حتى صار في ثلثي الفراش ، وقال : يافتى ، شبهوا الخدودَ بالوَرْدِ ، وأنت شبهت الورد بالخدود ، زِدْني؛ فأنشدته :

عاتبتُ نفسي في هوا ... كِ فلم أجدها تقبلُ

وأطعتُ داعيَها إليـ ... ـكِ فلم أُطِعْ من يَعْذُلُ

لا والذي جعل الوُجُو ... هَ لحُسْنِ وَجْهِك تَمْثُلُ

لا قلتُ إن الصبرَ عنـ ... ـكِ من التَّصَابي أجْملُ

فزحف[2] حتى انحدر عن الفراش ثم قال لي : زدني ، فأنشدته[3] :

عِشْ فحُبّيك سَريعاً قاتلي ... والضَّنَى إن لم تَصِلْني وَاصِلي

ظَفِرَ الحبّ بقَلْبٍ دَنِف[4] ... فيك والسُّقم بجسمٍ ناحلِ

فهما بين اكتئابٍ وضَنًى ... تركاني كالقضيب الذّابل

وبكى العاذِل لي من رحمةٍ[5] ... فبكائي لبكاء العاذِلِ

فتَمر[6] طرباً، وقال: يا يَلْبَق ؛ كم معك لنفقتنا؟ قال: ثمانمائة وخمسون ديناراً. قال: اقسمها بيني وبين خالد ، فدفع إليّ نصفَها .

وأنشد جحظة أو غيره ولم يسمّ قائله :

لا يبعد الله إخواناً لنا سلفوا ... أفناهُم حدثَانُ الدّهرِ والأبدُ

نَمُدُّهُمْ كلّ يومٍ من بقيّتنا ... ولا يؤوب إلينا منهمُ أحَدُ

---

(١) في المختار : لما فارقت . (٢) في س : فزجف . (٣) المختار من شعر بشار ١٢٨ .

(٤) في المختار : كلف . (٥) في المختار : رقة . (٦) في س ، ف : فتمرى .

[السكاكين]

لأحمد بن يوسف

وكان أحمد بن يوسف جالسا بين يدى المأمون ، فسأل المأمونُ عن السكّين، فناوله أحمد السكين ، وقد أمسك بنصابها ، وأشار إليه بالحدّ ، فنظر إليه المأمون نظر مُنْكِر ؛ فقال : لعل أميرَ المؤمنين أنكر علىّ أخْذِى النصاب؛ وإشارتى إليه بالحدّ . وإنما تفاءلت بذلك أن يكونَ له الحدُّ على أعدائه ؛ فعجب المأمون من سُرْعَةِ فطنته ، ولطيف جوابه .

وقال بعضُ الكتاب : السكين مسنُّ الأقلام يشحذها إذا كلَّت ، ويَصْقُلُها إذا نَبَتْ ، ويُطْلِقُها إذا وقفت ، ويلمّها إذا شَعِثت ، وأحْسَنُها ماعَرُضَ صَدْرُه ، وأرْهِفَ حدُّه ، ولم ينصل على القبضة نِصَابُه .

لكشاجم

وقال أبو الفتح كشاجم يرثى سكيناً سرقت له :

يا قاتل اللهُ كتّابَ الدواوين ما يستحلُّونَ من أخْذِ السكاكينِ
لقد دهانى لطيفٌ منهمُ خَتِلٌ فى ذات حدٍّ كحدِّ السيفِ مَسْنُونِ
فأقفرَتْ بعد عُمْرانٍ بموقعها منها دواةُ فتًى بالكُتْبِ مَفتُون
تبكى على مُدْيَةٍ أودى الزمانُ بها كانت على جائرِ الأقلام تُعْديِنى
كانت تقدِّمُ أقلامى وتَنْحِتُها نحتاً وتُسْخِطها بَرْياً فتُرْضينى
وأضحكَ الطرسَ والقرطاسَ عن حُلَلٍ يتوب للعين من نَوْرِ البساتين
فإن قَشَرت بها سوداء من صُحُفٍ عادت كبعض خدودِ الخُرَّدِ العِين
جزْعُ النصاب لطيفات شَمَائِرُها محسَّنات بأصناف التحاسين
هيفاء مُرْهَفَةٌ بيضاء مُذْهَبةٌ قال الإله لهــا سبحانه : كُونى
لكن مِقْطَّى أمسى شامتاً جَذِلا وكان فى ذِلَّةٍ منها وفى هُونِ
قصين حتى يُضَاهِى فى سياسته جَارِى لصَوْنِيهِ[1] عمَّنْ لا يُدَانِينى

---

(١) فى س : أصونه .

ولستُ عنها بسَالٍ ما حَيِيتُ ولا … بواجدٍ عِوَضاً منها يُسليني
ولو يَرُدُّ فِدَاء ما فجعتُ بهِ … منها فديناه بالدنيا وبالدين

ألفاظ لأهلِ العصرِ في صفات السكاكين

سكّين كأنّ القدرَ سائقُها ، أو الأجَل سابقها ، مُرْهَفَة الصَّدْرِ ، مُخْطَفَة(١) الخَصْر ، يجولُ عليها فِرِند العِتق ، ويموج فيها ماء الجَوْهر ؛ كأنّ المنيةَ تبرق من حدِّها ، والأجل يَلْمَع من مَتْنِها ، رُكِّبَتْ في نِصَاب آبنوس ، كأنّ الحَدق نفضَتْ عليه صِبْغَها ، وحَبّ القلوب كسَتْه لباسها . أخذ لها حديدها الناسج بحظّ من الروم ، وضرب لها نصابها الحالِك بسهمٍ من الزنج ، فكأنها ليلٌ من تحتِ نهار ، أو بحر أبدَى سَنَا نَار ، ذات غِرارٍ ماضٍ ، وذُبَابٍ قاضٍ . سكّين ذات مَكْسَر(٢) بازِيّ ، وجَوْهر عوانٍ ، ونِصَاب زنجي ، إن أرضِيت أولت مَتْناً كالدِّهَان(٣) ، وإن أسْخِطَتْ أتَتْ بنَابِ الأفعوان . سكّين أحْسَن من التّلاق ، وأقطَع من الفِرَاق ، تفعل فِعْلَ الأعْداء ، وتنفعُ نَفْعَ الأصدقاء . هي أمْضَى من القَضَاء ، وأنْفَذُ من القَدَر المُتَاح . وأقطَعُ من ظُبَةِ السيف الحسام ، وألمع من البَرْقِ في الغَمام . جمعت حُسْنَ المنظر ، وكَرَمَ المَخْبَر ، وتملّكَتْ عِنان القلب والبصر ، ولم يُخْرِجْهَا عِتْقُ الجَوْهَرِ إلى إمْهاء(٤) الحجر .

[السمر والنادمة]

قال محمد بن أنس للقاسم بن صبيح : مازِلنا في سمَرٍ تَصِلُ فصولَه(٥) بتشوّقك ، فيُذْهِب ذِكْرُك ملَلَ السامر ، وتَعْسَة الساهر . فقال القاسم : مثلك ذكر صديقه فأطراه ، واعتذر إليه فأرضاه ، ولو كنتم آذَنْتُمُونى كنت أحدكم مسروراً بما به

(١) مخطف : ضامر . (٢) المكسر : المقار ، وهو كمجلس ومنبر .
(٣) الدهان : الأديم الأحمر الصرف (ارجع إلى اللسان ـ دهن) .
(٤) أمهى الحديدة : أحدها . (٥) في س : يصل في هوله .

سُرِدتم ، مُفيضاً فيما فيه أفضتم .

شرط المنادمة — قال بعضُ الظرفاء : شَرْطُ المنادمة قِلّة الخلاف ، والمعاملةُ بالإنصاف ، والمسامحةُ في الشراب ، والتغافل عن ردّ الجواب ، وإدمان الرضا ، واطِّراح ما مَضَى ، وإسقاط التحيّات ، واجتناب اقتراح الأصوات ، وأكل ما حضر ، وإحضار ما تيسّر ، وستر العَيْبِ ، وحفظ الغيب .

وقد أحسن أبو عبد الرحمن العطوى في قوله :

حقوقُ الكأس والنَّدْمَان خمسٌ ... فأوّلها التزيُّن بالوَقارِ
وثانيهـا مسامَحَةُ النَّدَامَى ... فكَمْ حَمَتِ السماحةُ مِنْ ذِمارِ(١)
وثالثها ، وإن كنتَ ابنَ خَيْرٍ ... بَرِيّة مَحْتِداً ، تَرْكُ الفَخَارِ
ورابعها وللنَّدْمَانِ حقٌّ ... سوى حقّ القرابة والجوارِ
إذا حدثته فاكْسُ الحديثا ... لذى حدّثته ثَوْبَ اختصارِ
فما حُثَّ النبيذُ بمثل حسنٍ ... أغانِي والأحاديثِ القِصارِ
وخامسةٌ يدلُّ بهـا أخوها ... على كرم الطبيعةِ والنِّجار
حديث الأمس تنساه جميعاً ... فإنّ الذّنْب فيـه لِلْعُقَار
ومن حكّمت كأسَك فيه فاحْكُمْ ... له بإقالةٍ عِنْدَ العِثار

وقال حسان بن ثابت(٢) :

نولّيها الملامةَ إنْ ألَمْنَا ... إذا ما كان مَغْثٌ(٣) أو لِحَاءُ

وشرب اليزيدى عند المأمون، فلما أخذَتْ منه الكأس أقبل يمتنّ عليه بتعليمه إياه ، وأساء مُخاطبته ؛ فلما أفاق من سُكْره عُرِّف ما جرى ، فلبس أكفانه ، ووقف بين يدى المأمون فأنشده :

أنا المذنبُ الخطّاء والعفوُ واسعٌ ... ولو لم يكن ذنبٌ لما عُرِفَ العفوُ

---

(١) الذمار : مايلزمك حفظه وحمايته . (٢) ديوانه ٣ . (٣) المغث : الشر والقتال ، وفي ق : مغث .

تَمِلْتُ فأبدَتْ منِّيَ الكأسُ بعضَ ما ... كرِهْتُ وما إن يستوى السُّكْرُ والصَّحْوُ
ولا سيما إنْ كنتُ عند خليفةٍ ... وفى مجلسٍ ما إنْ يجوز به اللَّغْوُ
فإن تَعْفُ عنى أُلْفِ خطوى واسعاً ... وإلا يكن عفوٌ فقد قَصُرَ الخَطْوُ

وشرب كورَان المغنّى عند الشريف الرضىّ، فافتقد رِدَاءه وزعم أنه سُرِق. فقال له الشريف : وَيْحكَ ! مَنْ تَتَّهم منا ؟ أما علمتَ أنّ النبيذَ بِساط يُطْوَى بما عليه ؟ قال : انشروا هذا البساط حتى آخذَ ردائى واطْوُوه إلى يوم القيامة !

وكان أبو جعفر أحمد بن جَدّار كاتب العباس(1) بن أحمد بن طولون ينقل أخبارَ أبى حفص عمر بن أيوب كاتب أحمد بن طولون على الشراب إلى العباس، فصار إليه(2) أبو حفص فقال : يا أبا جعفر ، إنما مجلس المُدَام مجلس حُرمة، وداعيةُ أُنْس ، ومسرح لُبانة ، ومَذَادُ هَمّ ، ومَرْتَع لهو ، ومَمْهَد سرور ، وإنما توسطته عند من لا يُتَّهم غَيْبُهُ ، ولا يُخشَى عَتْبه ، وقد اتصل بى ما تُنْهيه إلى أميرنا أبى الفضل أعز الله أمره، من أخبار مجالسى ، فلا تَفْعَل ، وأنشده :

ولقد قلتُ للأخلاء يوماً ... قولَ ساعٍ بالنُّصْح لو سمعوهُ
إنما مَجْلِسُ المُدَام بِساطٌ ... للمودّات بينَهم وَضَعُوهُ
فإذا ما انتهوا إلى ما أرادوا ... من نعيم ولذةٍ رفعوهُ
وهُمُ أحْرِياء إنْ كان منهم ... حافظٌ ، ما أتوه أن يمنعوهُ

فاعتذر ابن جدار ، وحلف ما فعل ، وقام من مجلسه .

وأنشد أبو حفص:

كم من أخٍ أوْجَسْتُ منه سجيّةً ... فأنِسْتُ بعدَ وِدَادِهِ بفراقِهِ
لم أحمَد الأيام منه خليقةً ... فتركْتُهُ مستمتعاً بخَلاقِهِ

(1) اسمه فى الأدباء : ٧ ـ ١٨٢ أبو القاسم جعفر محمد بن حدار (بضم الحاء) .
(2) الوافى بالوفيات : ٥٥ .

عوّل أبو حفص في أكثر كلامه على نَقْل كلام أبي العباس الناشيء في الشراب ، والأبيات التي أنشدها أولا له .

أبو القاسم الصاحب : قدماً حُمِلَتْ أَوْزَارُ السُّكْرِ ، على ظهور الخمر ، وطوى بساطُ الشراب ، على ما فيه من خطأ أو صواب . متابعة المُقار ، تعذر في خَلْعِ العِذَار ، وتُغني عن الاعتذار . متابعة الأرطال ، تبطل سورة الأبطال ، وتَدَعُ الشيوخ كالأطفال .

كتب إسحاق بن إبراهيم الموصلي إلى بعض الجِلَّة يستدعيه : يَوْمُنا يومٌ لَيِّنُ الحواشي ، وَطِيءُ النواحي ؛ وسماؤنا قد أقبلت ، ورعدت بالخير وبَرَقَتْ ، وأنتَ قُطْبُ السرور ، ونظام الأمور . فلا تُفْرِدْنا فنقلَّ ، ولا تنفرد عنا فنذلَّ .

وكتب بعض أهل العصر وهو السرى الموصلي إلى أخ له يستدعيه إلى مؤانسته :

خِلالُكَ ما اختلّ[1] الصديقُ سَحَائِبُ ... وبِشْرُكَ ، ما هبَّتْ رياحٌ ، مَوَاهِبُ
وأنت شقيقُ الرُّوحِ تُؤْثِرُ وَصْلَها ... إذا رَامَها بالهجرِ خِلٌّ وصَاحِبُ
ونحن خلالَ القَصْفِ والعَزْفِ نجتني ... ثمارَ مَلَاهٍ كلُّهنَّ أطايب
وعندي لك الرَّيحانُ زينَ بِساطُهُ ... بزَهْرٍ كما زانتْ سماءً كواكِب
وجيش كما انجرَّتْ ذُيولُ غلائلٍ ... مُصَنْدلة[2] تختالُ فيها الكواعِب
وقد أُطْلِقَتْ فيه الشمائلُ ، واتقتْ ... مُفَنَّدَةً[3] عن جانبيها الجنائبُ
وحافظة ماءَ الحياءِ لفتيةٍ ... حياتهم أن تُستلذَّ المشارِبُ
نُسَرْبِلُها أخفَى اللباسِ ، وإنما ... يُلَفُّ بها أفواهُهُ والسَّبَائِبُ
على جَسَدٍ مثلِ الزَّبَرْجَدِ لم تزل ... تشاكلُهُ في لونه وتُنَاسِبُ
إذا استُودعت حُرَّ اللُّجَيْنِ سبائكا ... تَصَوَّبَ في أحشائها وهو ذائِبُ

---

(١) اختل الصديق : أعدم وافتقر . (٢) الصندل شجر طيب الرائحة .

(٣) فنده : أعجزه وأضعفه .

وفوق رءوس القوم غَيمٌ معلّقٌ ... من النَّدّ لا يَجرِى ولا هو ذَاهِب
بوارقُهُ خَمرُ الكئوس ورَعْدُهُ ... أناملُ بيضٌ للطبول تُلاعِب
ولا عائق يَثْنِى عِنَانك عَنْ هوًى ... رَعَى جانبٌ منه وأوْمَضَ جَانبُ
فبادِرْ ، فإن اليوم صافٍ من القَذَى ... ويارُبَّ يوم بادَرَتْه النوّائب

وقال ابنُ المعتز :

لا شَيْءَ يُسْلى همّى سِوَى قَدَحٍ ... تَدْمَى عليه أوْدَاج[1] إبْرِيقِ
فِى غَيْمٍ نَدٍّ يُزجى[2] سَحَائِبَهُ ... بَرْقُ ابتسامٍ ورَعْدُ تصفيقِ

وقال الحسن بن محمد الكاتب يصف طبلاً :

يا حبَّــذَا يومنا نَلْهُو بمُلْهِيَةٍ ... تُلْهِى بشيء له رَأْسَانِ فى جَسَدِ
قد شُدَّ هذا إلى هـــذا كأنهما ... من شِدّةِ الشدِّ مقرونانِ فى صَفَدِ[3]
نَظَلُّ نلطم خَدَّيْهِ إذا ضَرَبَتْ ... بكلِّ طاقتها لَطْماً بلا حَرَدِ[4]
فتسمعُ الصوتَ منه حين تَضْرِبُه ... كأنه خارجٌ من ماضِغَىْ أسَدِ

ومن ألفاظهم فى الاستدعاء

نحن فى مَجْلِسٍ قد أبت رَاحُه أن تصفوَ لنا أو تتناولها يُمْنَاك ، وأقسم عِنَاؤه لا طاب أو تَمِيه أُذْنَاك ، فأمَّا خدودُ نارنجه فقد احمرَّتْ خجَلا لإبطائك ، وعيون نَرْجِسه قد حدَّقَتْ تَأْميلًا للقائك ، فبحياتى عليك إلّا تعجّلْت ، وما تمهّلْت .

نحن بنيتك كعِقْد قد تبيَّنَتْ وَاسِطَتُهُ ، وشبابٍ قد أخْلَقَتْ جِدَّتُهُ ؛ وإذ قد غابت شمسُ السماء عنّا ، فلابد أن تَدْنُوَ شمسُ الأرض منا . أنت من ينظم به شَمْل الطرَب ، وبلقائه يُبْلَغُ كلُّ أرَب ، طِرْ إلينا طيران السَّهْمِ ، واطْلُعْ علينا طلوعَ

---

(١) الودج : عرق فى العنق كالوداج . (٢) زجاه : ساقه مثل أزجاه وزجّاه .
(٣) الصفد : الوثاق . (٤) الحرد : الغضب .

النّجم . ثِبْ إلينا وُثوبَ الغزال ، واطْلُعْ علينا طلوعَ الهِلال ، في غُرَّة شوّال . كُن إلينا أسرعَ من السهم إلى ممرّه ، والماء إلى مقرّه . جشِّم إلينا قدمك ، واخلَعْ علينا كَرَمَك ، وإن رأيتَ أن تحضرنا لتتّصِل الواسِطَة بالعِقْد ، وتَحْصل بقُرْبِك و... الخُلْقِ ، وتُسْهِم لنا في قُرْبك الذي هو قوتُ النّفس ، ومادةُ الأُنْس .

ولهم في استدعاء الشراب

قد تألّف لي شَمْلُ إخوانٍ كاد يفترق لعَوَز[1] المشروب ، واعتمدنا فضلَك المعهود ، ووردْنا بحرَك المورود ، وأنا ومَنْ ساعدني الدهرُ بزيارته من إخواني وأوليائك وقوفٌ بحيث يقفُ بنا اختيارُك من النشاط والفتور ، ويَرْتَضيه لنا إيثارك من الهمّ والسرور ، والأمرُ في ذلك إليك[2] ، والاعتمادُ في جَمْعِ شَمْلِ المسرّةِ عليك ؛ فإن رأيتَ أن تَكِلَني إلى أوْلى الظّنّين بك فعلت . ألطفُ المِنَن مَوْقعا ، وأجلُّها في النفوس موضعا ، ما عمر أوْطَانَ المسرّةِ ، وطرد عوارض الهمّ والفِكْرَة ، وجمع شَمْلَ المودةِ والأُلْفَة . قد انتظمتُ في رُفْقَةٍ لي في سِمْط[3] الثريا ، فإن لم تحفظ علينا النظام بإهداء المُدَام عُدْنا كَبنات نَعْش ، والسلام . فرأيك في إرواء غُلّتنا بما ينقعها ، والطَّوْلِ على جماعتنا بما يجمعها .

ولهم في الكناية عن الشراب

قد نشط لتناول ما يستمدّ البِشر ، ويشرح الصَّدْر . قد استمطر سحابةَ الأُنْس ، واستدرّ حلوبة السرور ، وقَدَح زَنْدَ اللهو ، فهو يَمْرِي[4] دِماء العناقيد ، ويَفْصد عروقَ الدِّنان ، ويَنْظِم عِقْدَ النّدْمَان[5] .

---

(١) العوز — بالتحريك : الحاجة . (٢) في س : لأن الأمر .
(٣) السمط — بالكسر : خيط النظم ، وقلادة أطول من المخنقة .
(٤) مرى الشيء : استخرجه . (٥) الندمان : جمع نديم .

كتب الحسن بن سهل إلى الحسن بن وَهْب وقد اصطبح في يوم دَجْن[١] لم يمطر: أما ترى تكافؤ هذا الطمع واليأس في يومنا هذا بقُرْبِ المطر وبعده، كأنه قول كثير[٢]:

وإنى وتَهْيَامِى بعزَّةَ بعدما ... تَخَلَّيْتُ مما بيننا وتَخَلَّتِ
لَكالمرتَجِى ظِلَّ الغمامة كلما ... تَبَوَّأَ منها للمَقِيلِ اضمحلَّتِ

وما أصبحَتْ أمنيتى إلّا في لقائك، فليت حجابَ النَّأْى هُتِك بينى وبينك! رُقْعتِى هذه وقد دارت زجاجاتٌ أوقعتْ بعقلى ولم تَتَحَيَّفه[٣]، وبعثت نشاطاً حرَّكَنى للكتاب؛ فرأيك في إمطارى سروراً بسارِّ خَبَرِك؛ إذ حُرِمْتُ السرور بمَطَرِ هذا اليوم، موفقاً إن شاء الله.

وكتب الحسنُ بن وَهْب: وصل كتابُ الأمير أيَّده الله وفَمِى طاعِم، ويدى عامِلة؛ ولذلك تأخَّر الجوابُ قليلا، وقد رأيت تكافؤ إحسان هذا اليوم وإساءته، وما استوجب ذَنْباً استحقَّ به ذَمّا؛ لأنه إذا أشمس حكى حُسْنَك وضياءك، وإن أمطر حكى جودَك وسخاءك، وإن غام أشبه ظِلَّك وفناءك، وسؤالُ الأمير عنى نعمةٌ من نعم الله عزَّ وجل أعفّى بها آثارَ الزمان السيِّئ عندى! وأنا كما يُحِبُّ الأميرُ صرف اللهُ الحوادثَ عنه، وعَزَّ خَطْبٌ منه.

وذمَّ رجلٌ رجلا فقال: دعواته ولائم، وأقداحُه محاجِم[٤]، وكئوسُه محابِر، ونوادره بوادر.

وقال أبو الفتح كشاجم: كان عندى بعض المُجّانِ من النبيذيين فسمعنى، وأنا أحمدُ اللهَ جلَّ ذِكْرُه في وسط الطعام لشىء خطر ببالى من نِعَم الله التى لا تُحْصَى؛ فنهض وقال: أُعطِى اللهَ عهداً إن عاودْتُ! وما معنى التحميد هنا؟ كأنك تُعلِمُنا

(١) الدجن: إلباس الغيم الأرض. (٢) الشعر والشعراء ٤٩٧.
(٣) تحيفته: تنقصته من حيفته، أى نواحيه، وفى ق، س: تتخيفه.
(٤) المحجم: ما يحجم به.

أنا قد شبعنا . ثم مال إلى الدواة والقرطاس وكتب ارتجالا :

وحَمْدُ الله يحسُنُ كلَّ وقتٍ ... ولكن ليس في أولَى الطعامِ
لأنك تُحْشِم(1) الأضيافَ فيه ... وتأمرُهم بإسراعِ القِيَامِ
وتُؤذِيهم ، وما شبِعُوا بشِبْع(2) ... وذلك ليس من خُلُقِ الكِرَامِ

وكتب المَرِيُّ إلى بعض إخوانه وقد ترك النبيذ :

إنْ كُنْتَ تُبْتَ عن الصَّهْباء تَشْرَبُها ... نُسْكاً فَا تُبْتَ عَنْ بِرٍّ وإحسانِ
تُبْ راشداً ، واسقِنَا منها وإن عَذَلُوا ... فيها فعاتٍ — فقلْ ما تاب إخواني

وقال بعض النبيذيين وقد ترك الشراب :

تحامَوْني لتَرْكي شُرْبَ رَاحٍ ... أقَمْتُ مكانَها الماءَ القَرَاحَا(3)
وما انفردُوا بها دونِي بِفَضْلٍ ... إذا ما كنت أكثرَهم مِرَاحَا(4)
وأرفعهم على وترٍ وصَنْجٍ ... وأظرفهم وأظرفهم مُزَاحَا
إذا شقُّوا الجيوبَ شَقَقْتُ جَيْبي ... وإنْ صاحُوا عَلَوْتُهم صِيَاحا

فِقَر للنبيذيين

ماجُمِشَتْ(5) الدنيا بأظرَفَ من النبيذ . ما للمُقَارِ والوَقَارِ . إنما العيشُ مع الطَّيْش . الراح ترياق سمِّ الهَمّ . النبيذ ستر ، فانْظُرْ معَ مَنْ تَهتِكه . اشرب النبيذ ما استبشعْتَه ، فإذا استطبْتَه فدَعْه . لولا أنّ المخمورَ يعلم قصّته لقدّم وصيّته . الصاحي بين السكارى كالحيّ بين الموتى ، يضحك من عقلِهم ، ويأكُلُ من نُقْلهم(6) . أحق ما يكونُ السَّكْرَان إذا تعاقل . التبذُّل على النبيذ ظَرْف ، والوقار عليه سُخْف . حدّ السَّكْرَان أن تَعْزُبَ الهموم ، ويظهر السرُّ المكتوم .

---

(1) أحشمه : أخجله . (2) الشبع — بسكون الباء ، وكعنب : ضد الجوع .
(3) القراح : الماء الخالص . (4) وفى ء س : مزاحا .
(5) فى كل الأصول : جشمت . (6) ما يتنقل به على الشراب .

وقال الحسن بن وهب لرجل رآه يعبس عند الشراب : ما أنصفتَها ، تضحكُ في وجهك ، وتعبس في وجهها .

وقال الطائي(١) :

إذا ذاقها ، وهي الحياةُ ، رأيتَهُ يُعَبِّسُ تعبيسَ المقدَّمِ للقتلِ

وقد أحسن الشيخ صدر الدين حيث قال :

وأن أقطِّبَ وجهي حينَ تبسِمُ لي فعند بَسْطِ المَوالي يحفظ الأدبُ

وترك رجلٌ النبيذَ ؛ فقيل له : لمَ تركتَه ، وهو رسولُ السرورِ إلى القلب ؟ قال : ولكنه رسولُ بأسٍ يبعثُ إلى الجَوْف فيذهب إلى الرأس .

وقيل لبعضهم : ما أحبَّك بالخمر ! فقال : إنها تُسْرِج(٢) في يدي بنورها ، وفي قلبي بسرورها ؛ كأنَّ الناشئ نظر إلى هذا الكلام فقال :

راحٌ إذا علتِ الأكفَّ كئوسُها فكأنها من دونها في الرّاحِ
وكأنما الكاساتُ مما حولها من نورها يَسْبَحْنَ في ضَحْضاحِ(٣)
لو بُثَّ في غَسَقِ الظلام ضياؤُها طلع المساءُ بغُرَّةِ الإصباحِ
نفضَتْ على الأجسام ناصعَ لونِها وسرتْ بلذَّتها إلى الأرواحِ

البيت الأول كقول البحتري(٤) :

يُخفي الزجاجةَ ضوءها(٥) فكأنها في الكفِّ قائمةٌ بغيرِ إناءِ

وللناشئ في هذا المعنى :

ومُدامةٍ يَخفَى النهارُ لنورِها وتَذِلُّ أكنافُ الدُّجا لضيائها .
صُبَّتْ فأخْدَقَ نورُها بزُجاجِها فكأنها جُعِلتْ إناءَ إنائها .
وتَرَى إذا صُبَّتْ بدَتْ في كأسها متقاصرَ الأرجاءِ عن أرجائها .

(١) ديوانه : ٢٠ ، ٤ .   (٢) تضيء — من أسرجت السراج ، وفي س : ما أحبك .
(٣) الضحضاح : الماء اليسير .   (٤) ديوانه : ٤ .   (٥) في الديوان : لونها .

وتَكادُ إنْ مُزِجَتْ لِرِقَّةِ لونِها ... تَمْتازُ عند مِزاجِها من مائِها
صفراء تُضْحِي الشمسُ، إنْ قِيسَتْ بها ... في ضوئها، كالَّليلِ، في أضوائِها
وإذا تصفَّحْتَ الهواء رأيتهُ ... كَدِرَ الأديمِ[1] عند حُسْنِ صفائِها
تزْدادُ مِنْ كَرَمِ الطباعِ بقدْرِ ما ... تُودِي بهِ الأيامُ مِنْ أجزائِها
لا شيء أعْجَب من تَوَلُّد بُرْئِها ... من سُقْمِها، ودَوائِها مِنْ دائِها

وقال :

إنْ رُمْتَ وَصْفَ الراحِ فأْتِ بما ... فيها من الأوْصاف من قُرْبِ
هي ماء ياقوتٍ وإن مُزِجَتْ ... في كأسِها بالباردِ العَذْبِ
فكأنَّها وحَبابُها ذَهَبٌ ... كَلَّلْتَه باللُّؤلؤ الرَّطْبِ

ولأهل العصر : الدنيا معشوقة رِيقُها الراح . أخذ هذا المعنى من قول ابن الرومى في صاعد بن مخلد :

فتًى هاجرَ الدنيا وحرَّم رِيقَها ... وهل رِيقُها إلا الرحيقُ الموَرَّدُ
ولو طَمِعَتْ في عَطْفِهِ ووِصالهِ ... أباحَتْه منها مَرْشَفاً لا يُصَرَّدُ[2]

الخمرُ أشبهُ شيء بالدنيا ؛ لاجتماع اللذاتِ والمرارة فيها . الخمر مصباحُ السرور ، ولكنها مفتاح الشرور . لكل شيء سرٌّ ، وسرُّ الراحِ السرور . لا يطيبُ المُدام الصافى ، إلّا مع النديم المُصافِى .

ومن ألفاظهم فى صفاتِ مجالس الأنس وآلات اللهو وذكر الخمر

مَجْلِسٌ رَاحُه ياقوت ، ونَوْره وَرد ، ونارَنجُه ذَهَب ، ونرجسه دينار ودرهم ، يحملهما زَبَرْجَد . عندنا أُتْرُج كأنه من خَلَائِقك خُلِق ، ومن شَمَائلِك سُرِق ، ونارَنج كَكُرَاتٍ من سَفَن[3] ذُهِّبت ، أو ثُدِى أبكار خُلِّقت . مجلسٌ أخذَتْ فيه الأوتارُ

(١) أديم النهار : بياضه . (٢) رشفه : مصه ، والتصريد : التقليل .
(٣) السفن ، بالفتح : جلد سمك خشن يسفن به الخشب حتى تذهب عنه آثار البراة .

تتجاوب، والأقداح تتناوب . أعلامُ الأُنسِ خافقة ، وألسُن الملاهى ناطقة: نحن بين بين بدور ، وكاسات تدور، وبروقِ راح، وشموس أقداح. قد نشأت غمامة النَّدّ[1]، على بساط الوَرْدِ. مجلسٌ قد تفتَّحت فيه عيونُ النَّرجس، وفاحتْ مجامِير الأُتْرُجّ، وفتقت فَارَات[2] النَّارَنْج ، ونطقت ألسُنُ العِيدَان ، وقامت خطباء الأوتار ، وهبَّت رياحُ الأقداح، وطلعتْ كواكبُ النُّدْمَان، وامتدَّتْ سماء النّدّ. مجلسٌ مَنْ رآه حسب الجنانَ قد اصطفت عيونها ، فجمعات فى قدر من الأرض، وتخيَّرت فصوصها، فنقلتْ إلى مجلس الأُنسِ واللَّهْوِ . قد فضَّ اللهوُ ختامه ؛ ونشر الأُنس أعلامه . قد هبَّتْ للأُنس ريحٌ، برْقها الراح ، وسحابها الأقداح ، ورعودها الأوتار ، ورياضها الأقمار . قد فرغنا للهو والدهرُ عنا فى شغل .

حُلَّ هذا من قولِ بعض أهل العصر :

كم جوًى مثله رَسْم مَثَل — ودَم قد طُلَّ أثناء طَلَلْ
ولآلٍ كمَّـل الخدّ بهـا — لعب البين بربّاتِ الكِلَلْ
حبذا عيشُ الليالى باللِّوى — لو تجافَى الدهْرُ عنّا وغفَلْ
إذ فرَغْنَا فيه للّهو وقد — باتَتِ الأقدارُ عنّا فى شُغُلْ
وأدَرْنَا ذهباً فى لَهَبٍ — كلما أخمِدَ بالمـاء اشتعَلْ

قد اقتعَدْنا غاربَ الأُنسِ ، وجرينا فى مَيْدَانِ اللهو . عمدنا إلى أقداحِ اللهو فأجلْنَاها ، ولراكبِ السرور فامتطَيْنَاها . قد امتطينا غواربَ السرور بالأقداح . مُدَامة تُورِد ريحَ الوَرْدِ ، وتَحْكِى نَارَ إبراهيم فى اللَّون والبَرْدِ ، ولستُ أدرى أشقيق أم عقيق ، أم رحيق أم حريق . راحٌ كأنَّ الديوكَ صبَّتْ أحداقَها فيها . راح كأنما اشتقَّت من الرَّوْح والراحة . قال ابن الرومى[3] :

(١) الند : طيب .   (٢) فارة المسك : نافجتها
(٣) ديوانه : ٢ — ١٠٢ .

والله ما تدرى[1] لأيّة علّةٍ ... يدعونها فى الرّاح باسم الرّاح
أَلِرِيحها أمْ روحها[2] تحتَ الحشا ... أمْ لا رْتياحِ نديمها المرْتاح

راحٌ كالنار والنُّور والنَّوْر ، أصفَى من البَلُّور ، ومن دَمْع المهجور . روح نور لها من الكأس جسم ، كأنها شمسٌ فى غِلالةِ[3] سراب . شراب أكادُ أقولُ : هو أصفَى من مودّتى لك ، ومِنْ نعم الله عندى فيك ، وأطْيَبُ من إسعافِ الزمان بلقائك . مُدَامة قد سبك الدهرُ تِبْرَها فصفَا . كأسٌ كأنها نورٌ ضميرهُ نارٌ . راح كياقوتة فى دُرَّةٍ أصفَى من ماء السماء ، ودَمْعِ العاشقة المَرْهاء[4] ، أحسن من الدنيا المُقْبِلة ، والنعم المكملة . أحْسن من العافية فى البَدَن ، وأطْيَبِ من الحياة فى السرور . أرَقّ من نسيمِ الصَّبا ، وعَهْدِ الصِّبا . أرقّ من دَمْع محبّ ، وشَكْوَى صَبّ . أرقّ من دموع العشّاق ، مَرَتْها لَوْعَةُ الفراق . مُزِجَ نَارُ الرّاح بنُورِ الماء . راحٌ كأنها معصورة من وَجْنَةِ الشمس ، فى كَأْسٍ كأنها مخروطة من فِلْقَةِ البَدْرِ . كأسُها مِلْءُ اليدِ ، وريحها ملء البَلَد ، تصبُّ على الليل ثَوْبَ النهار ، كأنها فى الكأس معنى دقيق ، فى ذِهْنٍ لطيف . كأنّ الراح من خَدّه معصورة ، وملاحة الصورةِ عليها مقصورةٌ . وهذا من قول الطائى * كأنها من خَدِّهِ تُعْصَرُ * .

وقال عبد السلام بن رَغْبان الملقب بديك الجن الشاعر المشهور :

معتّقة مِنْ كَفِّ ظَبْيٍ كأنما ... تناوَلها من خَدّه فأدارَها

تمشّت الشهباء فى عظامهم ، وترقّت إلى هامِهم ، وماسَتْ فى أعطافهم ، ومالَتْ بأطْرافهم . سارَتْ فيهم الكئوس ، ونالَتْ منهم سَوْرَةُ الخَنْدَرِيس . شربت عقولَهم ، وملكت قلوبَهم .

---

(١) فى الديوان : تالله ما أدرى . (٢) فى الديوان : أرِيحها ولروحها . . . ، وقال شارحه : ضبطت فى الأصل بضم الراء بمعنى ماية الحياة ، ويصح أن تضبط بفتح الراء بمعنى النسيم .
(٣) الغلالة : شعار تحت الثوب . (٤) مرهاء : بيضاء . ومرهت عينها : خلت من الكحل

وقال أبو نواس ، وهو أستاذ الناس في هذا الشأن[١] :

صِفَةُ الطلولِ بَلاغَةُ الفدم[٢] فاجعل صفاتك لابنَةِ الكَرْمِ
تصفُ الطلولَ على السماع بها أفذو العِيان كثابتِ العلْمِ
وإذا وصفت[٣] الشيء متبعا لم تَخْلُ من[٤] غلَطٍ ومن[٤] وَهْمِ

وقال :

الكأس أهواها وإن رَزَأَتْ بُلَغ المعاشِ وقلَّلتْ فضلي[٥]
صفراء مجَدُها مَرَازِبُها جلَّت عن النظراء والمِثْلِ
ذُخِرت لآدَمَ قبل خلقته فتقدمته بخطوة[٦] القَبْلِ
فاعذر أخاك فإنه رجلٌ مَرَنَتْ مَسَامِعُه على العَذْلِ

وقال[٧] :

فتسليت بشُرْبٍ[٨] عُقَارٍ نشأتْ في حِجْرِ أمِّ الزمان
فتناساها الجديدان حتى هي أنصاف شطور الدِّنَان
وافترعنا مُزَّة[٩] الطَّعْم بها نَزَقُ البكر ولين العَوَانِ[١٠]
واحتسينا من رحيق عتيق[١١] وشديد كامل[١٢] في ليان
لم يُخفِها منزلُ القوم[١٣] حتى نجمتْ مثلَ نجوم السنان
أو كَقرْنٍ السام تنشقّ منه[١٤] شُعَبٌ مثل انفراج البنان

---

(١) ديوانه : ٣٢٣ . (٢) الفدم : العي عن الكلام في ثقل ورخاوة وقلة فهم وفي رواية : القدم . (٣) في الديوان : وإذا نعت . (٤) في الديوان : عن .

(٥) رواية هذا البيت في الديوان :

والراح أهواها وإن رزأت بلغ المعاش وقللت فضلي

وبلغ المعاش : مواد الرزق .

(٦) في الديوان : بخطوة . (٧) ديوانه : ٣٣٨ . (٨) في الديوان : فتفريت بصرف .

(٩) في الديوان : مزة الطعم فيها . (١٠) في س : القوان .

(١١) في الديوان : من عقيق رقيق . (١٢) في الديوان : كامن .

(١٣) في الديوان : لم يخفها مبزل القوم ، ويخفها : يبلغ جوفها . (١٤) في الديوان : أو كقرن السام تشتق منه .

وقال[١] :

وخَدِينِ لذّاتٍ معلّل صاحبٍ ... يَقْتَاتُ منه فكاهةً ومُزَاحا
قال اْبغِنِي المصباحَ قلتُ له: اتَّئِدْ ... حسبي وحسبُك ضَوْءُها مصباحا
فسكبت منها في الزجاجة شربةً ... كانت له حتى الصباح صَبَاحَا

وهذا كقوله[٢] :

وخَمَّار أنخْتُ[٣] عليه ليلا ... قلائصَ قد تَعِبْنَ[٤] من السِّفار
فترجم[٥] والكَرَى في مُقْلَتَيهِ ... كمخمورٍ شكا ألم الخُمَارِ
أَبِنْ لي كيف صرتَ إلى حريمي ... وجَفْنُ الليلِ مكتحلٌ بقارِ
فقلت له ترفّق بي فإني ... رأيتُ الصبحَ من خَلَلِ الديارِ
فكان جوابُه أنْ قال كلّا[٦] ... وما صبحٌ سِوَى ضوء العُقَارِ
وقام إلى الدِّنانِ[٧] فسدَّ فاها ... فعاد الليلُ مسدولَ[٨] الإزارِ

وقال بعض المحدَثين :

ما زال يَشْرَبُها وتَشْرَبُ عَقْلَهُ ... خبلا وتُؤْذِنُ رُوحه برَوَاحِ
حتى انْثَنَى متوسّداً بيمينه ... سَكَراً وأَسْلَمَ رُوحَه للرَّاحِ

وقال الصنوبري ــ وذكر شَرْبا[٩] :

نازعتهم كأسا تخالُ نسيمَها ... مِسْكًا تضوّعَ في الإناء فتيقا
شقّتْ قِناعَ الفَجْرِ لما غادرَتْ ... كفُّ النديم قناعَها مشقوقَا
صبغت سوادَ دُجاهُ حمرةُ لونِها ... فكأنه سَبَجٌ[١٠] أُعيد عقيقا

---

(١) ديوانه : ٢٥٦ . (٢) ديوانه : ٢٧٥ . (٣) في الديوان : خلعت إليه .
(٤) في الديوان : قد ونين . (٥) في الديوانه : فجمجم . (٦) في الديوان : قالصبح .
(٧) في الديوان : إلى العقار . (٨) في الديوان : مسود الإزار .
(٩) الشرب ، بالفتح : القوم يشربون . (١٠) السبج : خرز أسود .

وقال أبو الشيص :

وكأس كما الساقي لنا بعد هجعةٍ ... حواشيها ما مجّ(١) من ريقة العنبْ
كأنّ اطّرادَ الماء في جنباتها ... ترقُّمُ ماءِ الدرّ في سُبُك الذهبْ
سقاني بها، والليلُ قد شابَ رأسُه، ... غزالٌ بحنّاء الزجاجةِ مختضِبْ

وقال أبو عدي الكاتب :

وليس لها حدٌّ تحيطُ بوصفهِ ... لغاتٌ، ولا جسمٌ يباشرهُ لمسُ
ولكنه كالبرقِ أومضَ ماضياً ... فلم يبقَ منه غيرُ ما تذكُرُ النفسُ

وقال ابن المعتز(٢) :

ألا فاسقنيها قد مشى الصبح في الدجا ... عُقاراً كمثل(٣) النارِ حمراء قرقفا(٤)
فناولني كأساً أضاءت(٥) بنانَهُ ... تدفّقُ ياقوتاً ودُرّاً مُجوّفا
ولما أريناها(٦) المزاج تسعّرت ... وخِلْتُ سناها بارقاً قد(٧) تكشّفا
يطوف بها ظَبْيٌ من الإنس شادنٌ ... يقلّب طرفاً فاسقَ اللحظِ مُدْنفا
عليم بأسرار(٨) المحبين حاذقٌ ... بتسليم عينيهِ إذا ما تخوّفا
فظل يناجيني يقلّب طرفه ... بأطيب من نجوى الأماني وألطفا

وقال(٩) :

ألا عُجْ على دار السرورِ فسلّمِ ... وقل أينَ لذّاتي وأينَ تكلّمي
وقل ما حلَتْ بالعين بعدك لذةٌ ... سواكِ وإنْ لم تعلمي ذاك فاعلمي
وصفراء من صبغ المِزاج برأسها ، ... إذا مُزِجت ، إكليلُ دُرٍّ منظّمِ
قطعتُ بها عُمرَ الدجى وشربتُها ... ظلاميّةَ الأحشاء نوريّةَ الدّمِ

---

(١) في ق ، س : ما فح . (٢) ديوانه : ٢ — ٥٥ . (٣) في الديوان : كلون .
(٤) القرقف : الخمر يرعد منها صاحبها . (٥) في الديوان : أضاء .
(٦) في الديوان : أذقناها . (٧) في الديوان : بارقا متكشفا .
(٨) في الديوان : عليما بألحاظ المحبين . (٩) ديوانه : ٢ — ٦٣ .

[من رسائل البديع]

رسالة إلى أبي عدنان يعزيه

كتب أبو الفضل بديع الزمان إلى أبي عدنان بن محمد الضبي يعزّيه عن بعض أقاربه[1]:

إذا ما الدهرُ جرَّ على أناسٍ حوادِثَه أناخَ بآخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا سيَلْقَى الشامتون كما لقينا

أحْسَنُ ما في الدهرِ عمومُه بالنوائب، وخصوصه بالرغائب، فهو يَدْعو الجَفَلَى[2] إذا ساء، ويخصُّ بالنعمة إذا شاء، فليفكّر[3] الشامت ؛ فإن كان أفلت، فله أنْ يَشْمت، ولينظر الإنسانُ في الدهر وصُروفه، والموتِ وصنوفه، من فاتحةِ أمْرِه إلى خاتمة عُمْرِه ؛ هل يجدُ لنَفْسه أثراً في نَفَسه، أم لتدبيره عَوْناً على تَصَوّره، أم لعمله تقديماً لأمله، أم لِحيَلِه تأخيراً لأجَلِه ؟ كلا، بل هو العَبْدُ لم يكن شيئاً مذكوراً ؛ خُلِق مقْهوراً، ورُزِق مقدوراً، فهو يَحْيا جَبْراً، ويهلك صَبْراً، وليتأمّل المرء كيف كان قَبْلا ؛ فإن كان العَدَمُ أصلا، والوجودُ فصلا، فليعلم الموت عَدْلا. فالعاقل من رقَّع من جوانب الدهر ما ساء بما سرّ، ليذهب ما نَفَع بما ضرّ[4] ؛ فإنْ أحبَّ ألّا يحزن فلينظر يَمْنة هل يرى إلا مِحْنَة، ثم ليعطف يَسْرَة هل يرى إلّا حَسْرَة ؟ ومثلُ الشيخ الرئيس أطال الله بقاءَه من فَطِنَ لهذه الأسرار، وعَرَف هذه الدار، فأعدّ لنعيمها صَدْرًا لا يَملؤه فرحا، ولبؤسها قَلْبًا لا يطيره تَرَحا[5] ؛ وصحب الدنيّة برأي من[6] يعلم أنّ للمتعة حدًّا، وللعاريّة رَدًّا، ولقد نُعي إليَّ أبو قبيصة قدّس الله رُوحه، وبرّد ضريحه، فعرضت عليَّ آمالي قُعودا، وأمانيَّ سوداً، وبكيت ؛ والسخيُّ جودُه بما ملك، وضحكت، وشرُّ الشدائد ما يُضْحِك، وعضضت الأصبع

---

(١) رسائل البديع : ١٣١ . (٢) الجفلى : الدعوة العامة .

(٣) في الرسائل : فلينظر . (٤) في الرسائل : من رقع من حوائل الدهر ما ساء ليذهب ما ضر بما نفع .

(٥) في الرسائل : جزعا .

(٦) في الرسائل : وصحب الدهر برأي من يعلم .

حتى أَدْمَيْتُه ، وذممت الموت حتى تمنَّيته ؛ والموتُ أطال الله بقاء الشيخ الرئيس خَطْبٌ قد عظُم حتى هـان ، وأمرٌ قد خشُن حتى لاَنَ ، ونُكْرٌ قد عَمَّ حتى عادَ عرفاً ؛ والدنيا قد تنكَّرت حتى صار الموتُ أخَفَّ خطوبها ، وخَبُثَتْ حتى صار أقلَّ عيوبها ، ولعل هذا السهم قد صاب آخر ما في كِنَانتها ، وأنكا(1) ما في خزائنها ، ونحنُ معاشر التَّبع نتعلمُ الأدبَ من أخلاقه ، والجميلَ من أفعاله ، فلا نحثّه على الجميل وهو الصَّبْر ، ولا نرغِّبه في الجزيل وهو الأجر ، فليَرَ فيهما رَأْيَه إن شاء الله .

رسالة منه إلى بعض إخوانه

وله إلى بعض إخوانه جواباً عن كتاب كتبه يهنِّيه بمرض أبي بكر الخوارزمي وكانت بينهما مُقَارَعــة ، ومنازعة ، ومنافَرة ، ومهاتَرة ؛ ولهما مجالس مستظرفة قهره البديع فيها وبهره ، وبكّته حتى أسْكَتَه ، ليس هذا موضعها ، لكني أذْكر بعد هذه الرسالة بعضَ مكاتبات جرَتْ بينهما ؛ إذ كان ما لهما من الابتداء والجواب آخذاً بوَصل الحكمة وفَصْل الخطاب :

الحرُّ(2) أطال الله بقاءك — لا سيما إذا عرف الدهر معرفتي ، ووصف أحواله صفتي — إذا نظر علم أنّ نِعَمَ الدَّهْرِ ما دامت معدومة فهي أمانيّ ، وإن وُجدت فهي عَوَارِي ، وأنّ مِحَنَ الأيامِ وإن طالت فستنفد ، وإن لم تصب فكأنْ قَدِ ، فكيف يشمت بالمِحْنَةَ مَنْ لا يأمنُها في نَفْسِه ، ولا يَعْدَمُها في جِنْسِه ، والشامتُ إن أفلت فليس يفوت ، وإن لم يَمُتْ فسيموت ؛ وما أقْبَح الشماتة ، بمن أمِن الإماتة ، فكيف بمَنْ يتوقَّعُها بعد كل لحظة ، وعَقِبَ كلّ لفظة ، والدَّهْرُ غَرْثَان(3) طُعْمه الخِيار ، وظمآن شرْبُه الأحرار ، فهل يشمت المرء بأنياب آكِلِه ، أم يَسُرُّ العاقلُ بسلاح قاتله ؟ وهذا الفاضلُ شفاه الله وإن ظاهرناه بالمداوة قليلا فقد باطَنَّاهُ وُدّاً جميــلا ، والحرُّ عند الحمِيَّةِ لا يصطادُ ، ولكنه عند الكرم يَنْقَادُ ، وعند الشدائد تَذْهَبُ الأحقاد ،

---

(1) في الرسائل : ولعل هذا السهم آخر ما في كنانتها وأربى .

(2) الرسائل : ١١٦ .　　(3) غرثان : جوعان .

فلا تتصور حالى إلا بصورتها من التوجُّع لمأتيه ، والتحزُّن لمرضته ، وقاهُ اللهُ المكروه ، ووقانى سماعَ المحذور فيه ، بمَنّه وحَوْله ولُطفِه وطَوْله .

بينه وبين الخوارزمى

قال البديع فى سياقة أخباره مع أبى بكر الخوارزمى(١) :

أولها أنّا وطئنا خُراسانَ ، فما اخترْنا إلّا نيسابور داراً ، وإلّا جوارالسادة جوَاراً ، لا جرم أنا حطَطْنَا بها الرَّحْلَ ، ومدَدْنَا عليها الطُّنُب(٢) ، وقديماً كنا نَسْمَعُ بحديث هـذا الفاضل فنتشوَّقه ، ونخبره على الغَيْبِ فنتعشَّقه ، ونقدّر أنا إذا وطئنا أرْضَه ، ووردْنا بلدَه ، يخرج لنا فى العِشرة عن القِشْرَة ، وفى المودَّة عن الجلدة ، فقد كانت كلمةُ الغُرْبة جمعتنا ، ولُحْمَةُ الأدب نظَمَتْنَا ، وقد قال شاعر القوم غير مدافع :

أجارتنا إنّا غريبانِ هاهُنا وكلُّ غريبٍ للغريبِ نَسيبُ

فأخلف ذلك الظنّ كلَّ الإخلاف ، واختلف ذلك التقدير كلَّ الاختلاف ، وكان قد اتفق علينـا فى الطريق من العرب اتفاقٌ(٣) ، لم يوجبه استحقاقٌ ، من بِزّة بزُّوها(٤) ، وفِضّة فضّوها ، وذهب ذَهَبُوا به ؛ ووردنا نيسابور براحَةٍ ، أنقى من الراحة ، وكيس أخلى من جَوْفِ حمار ، وزِىّ أوحش من طلعة المعلم ، بل اطلاعة الرقيب ، فما حَلَلْنَا إلّا قصبة جواره ، ولا وَطِئْنَا إلا عتبة داره ؛ وهذا بعد رُقْعَةٍ قدّمْناها(٥) ، وأحوالِ أنسٍ نظمناها — ونسخة الرقعة : إنا بقُرْبِ الأستاذ أطال اللهُ بقاه كما طَرِبَ النَشْوان مالتْ به الخمرُ ، ومن الارتياح للقائه كما انتفض العُصفُور بلّله القَطْرُ ، ومن الامتزاج بولائه كما التقت الصَّهْباء والبارد العَذْبُ ، ومن الابتهاج لمزاره(٦) كما اهتزّ تحت البارح الغُصْن الرَّطْبُ ، فكيف نشاطُ الأستـاذ سيدى

---

(١) الرسائل : ١٨ . (٢) أصل الطنب : حبل طويل يشد به سرادق البيت أو الوتد .

(٣) هكذا فى ط ، والرسائل ، وفى ق : قد أتفق علينا فى الطريق إتفاق .

(٤) فى ق : من بز بزوه . (٥) فى الرسائل : كتبناها .

(٦) فى الرسائل : لمرآه .

لصديقٍ طرأ إليه ممّا بين قَصَبتى العراق وخُراسان ، بل عتبتى نيسابور وجرجان ؟ وكيف اهتزازه لضيف :

رثّ الشمائل مُخْلَق الأثوابِ   بَكَرَتْ عليه مُغيرَةُ الأعرابِ

وهو ـ أيّده الله ـ ولىُّ إنعامه ، بإنفاذ غُلامه ، إلى مستَقَرّى ، لأُفضِى إليه بما عندى إن شاء الله ـ فلما أخذتنا عَيْنُه سقانا الدُّرْدِىّ[1] من أوّل دَنّه ، وأجْنَانا سوءَ سوءَ العِشرة من باكورة فنّه ، من طَرْفٍ نَظَرَ بشَطْرِه ، وقيامٍ دَفَع فى صَدْرِه ، وصديقٍ استهان بقَدْرِه ، وضيف استخفّ بأمره ؛ لـكنا أقطعناه جانب أخلاقه ، ووليّناه خطّةَ نفاقه ؛ فواصلناه إذ جانَب ، وقارَبْناه إذ جاذب ، وشَرِبناه على كُدُورته ، ولَبِسناهُ على خُشُونته ، ورَدَدْنا الأمر فى ذلك إلى زِىّ استغثّه ، ولباس استرثّه ، وكاتبناه نستمِدُّ وِداده ، ونستلِينُ قيادَه ، و نقيمُ مُنَادَه ، بما هــذه نسخته :

الأستاد أبو بكر ، والله يطيل بقاءه ، أزْرى بضيفه أنْ وجده يَضْرِبُ إليه آباطَ القلّة، فى أطمار الغُرْبة، فأعمل فى رُتْبَتِه أعمالَ الصارفة[2]، وفى الاهتزاز إليه أصناف المضايقة، من إيماء بنِصْفِ الطَّرْف، وإشارة بشَطْرِ الـكف، ودَفْعٍ فى صدر القيام عن التمام ، ومَضْغٍ للـكلام ، وتكلُّفٍ لردّ السلام ؛ وقد قبلت ترتيبه صَعَراً[3]، واحتملته وزرا ، واحتضَنْته نكرا ، وتأبّطته شرّا ، ولم آلهُ عُذْرا ؛ فإن المرءَ بالمال وثياب الجمال، ولستُ مع هذه الحال وفى هذه الأسمال، أتقزّز من صَفّ[4] النعال، فلو صدقتُه العتاب ، وناقشته الحساب ، لقلت : إنّ بوادينا ثاغية صباح[5] ، وراغية رَوَاح ، وناسا يجرّون المَطارِف ، ولا يمنعون المعارف :

(١) دردى الزيت : مابقى أسفله .   (٢) فى ق : فأعمل فى ترتيبه أعمال المصادقة .
(٣) الصعر : ميل فى الوجه ، ويكون تهاونا من كبر ، وربما يكون خلقة .
(٤) فى الرسائل : أتقزز صف النعال . وفى س ، ق : أتقزز .   (٥) ثغت الشاة : صوتت.

وفيهم مقاماتٌ حِسانٌ وجوهُهم وأنْدِيَةٌ يَنْتَابُها القَوْلُ والفِعْلُ

فلو طوّحت بأبي بكر — أيّده اللهُ — إليهم مطارحُ[1] الغُرْبة، لوجد منزلَ البِشْرِ رحيبا ؛ ومحطَّ الرَّحْلِ قريبا ، ووَجه الضيف خصيبا ؛ فرأى الأستاذ أبي بكر أيده الله في الوقوف على هــذا العتاب الذي معناه وُدّ ، والمرْءُ الذي يَتْلُوه شَهْد ، موفقاً إن شاء الله .

فأجاب بما نسخته[2] : وصلَتْ رُقْعَةُ سيدي ورئيسي أطال اللهُ بقاه إلى آخر السِّكْبَاج[3] ، وعرَفْت ما تضمّنه من خَشِنِ خطابه ، ومُؤْلِمِ عِتَابه ، وصرفت ذلك منه إلى الضَّجْرة التي لا يخلو منها مَنْ مسَّه عُسر ، أو نَبَا به دَهر ؛ والحمدلله الذي جعلني موضعَ أُنْسِه ، ومظنَّة مشتكَى ما في نفسه ، أما ما شكاه سيدي ورئيسي مِنْ مصانعتي[4] إياه في القيام، فقدوفيته حقّه —أيّده اللهُ— سلاما وقياما، على قَدْرِ ماقدَرْت عليه ، ووصلت إليه ، ولم أرْفَعْ عليه إلا السيّد أبا البركات أدام الله عزه، وما كنتُ لأرفع أحدا على مَنْ أبوه[5] الرسول ، وأمُّه البَتُول[6] ، وشاهداه التوراة والإنجيل، وناصراه التأويل والتنزيل ، والبشير به جبريل وميكائيل ؛ فأما القومُ الذين صدر عنهم سيدي فـكما وصف : حسن عشرة ، وسدَاد طريقة ، وجمال[7] تفصيل وجملة ، ولقد جاوَرْتُهم فأحمدت المَراد ، ونلت المُرَاد :

فإن كنت قد فارقت نجداً وأهلَهُ فما عهد نجدٍ عنــدنا بذَميمِ

والله يعلم نيّتي للأحرار كافة ، ولسيدي من بينهم خاصة ؛ فإن أعانني الدهرُ على ما في نفسي بلغتُ له ما في النيّة ، وجاوزْتُ به مسافةَ القَدْر والأمنية ، وإن قطع عليَّ طريقَ عَزْمي بالمعارضة ، وسوء المناقضة ، صرفتُ عِنَاني عن طريق الاختيار ، بيد الاضطرار .

(١) في س : مطاريح ، وفي الرسائل : طوارح . (٢) الرسائل : ٢١ .
(٣) السكباج : فاخرة ألوان الطعام ، ودواؤه . (٤) في الرسائل : مضايقتي .
(٥) في الرسائل : من جده . (٦) فاطمة بنت النبي . (٧) في الرسائل : وكمال .

فما النفسُ إلّا نطفة بقَرارةٍ إذالم تـكدّر كان صفواً غَديرُها[١]

وبعد ، فحبذا عتابُ سيدي اذا استوجَبْنا عَتبا ، واقترفْنا ذَنْبا ؛ فأما أن يسلفنا العَرْبَدة[٢] فنحن نَصونهُ عن ذلك ، ونَصونُ أنفسنا عن احتماله ، ولستُ أسومه أن يقول[٣] : ﴿ استَغْفِرْ لنا ذنوبَنا إنّا كنّا خاطئين ﴾ ، ولـكن أسأله أن يقول[٤] : ﴿ لا تَثْريبَ عليـكم اليومَ يغفر اللهُ لـكم وهو أرْحَمُ الراحِمين ﴾ .

فحين وردَ الجواب وعينُ العُذر رَمِدة[٥] تركناه بمرّه ، وطويْنـاهُ على غرّه ، وعمدنا إلى ذِكْرِه فسحَوْناه[٦] ، ومن صحيفتنا محَوْناه ، وصِرْنا إلى اسمه ؛ فأخذناه ونبذناه ، وتنكّبْنا خطاته ، وتجنّبنا حِطّته[٧] ، فلا طرنا إليه ، ولا طرنا به ، ومضى على ذلك الأسبوع ، ودبّت الأيام ، ودَرَجت الليالي ، وتطاولَتِ المُدّة ، وتصرّم الشهرُ ، وصِرْنا لا نُعيرُ الأسماعَ ذِكْرَه ، ولا نودع الصدورَ حَديثَه ؛ وجعل هـذا الفاضل يستزيد ، ويستعيد ، بألفاظ تقطعها الأسماع من لسانه ، وتؤدّيها إليّ ، وكلمات تحفظها[٨] الألسنة من فمه ، وتُعيدها عليّ ؛ فـكاتبناه بما هذه نسخته[٩] :

أنا أرِدُ من الأستاذ سيدي ـ أطال الله بقاه ـ شرعة وُدّه وإن لم تَصْفُ ، وألبَس خلعة برّه وإن لم تَضْفُ ، وقصاراي أن آكيله صاعا عن مدّ ؛ فإني وإنْ كنتُ في الأدب دَعِيّ النّسب ، ضيق المُضْطرَب ، سيّ المنقلَب ، أمتّ إلى عشرة أهله بنيقة ، وأنزع إلى خِدْمَة أصْحابه بطريقة ، ولـكن بَقِي أن يكون الخليطُ مُنْصِفا في الوداد ، إذا زرت زارَ ، وإنْ عُدْتُ عاد ، وسيدي ـ أبقاه الله ـ ناقشني في القبول أولا ، وسارَّني في الإقبـال آخرا ؛ فأما حديثُ الاستقبال وأمرُ الإنزال والأنزال[١٠] ، فنطاقُ الطمع ضيّق عنه ، غيرُ متسع لتوقّعه منه ، وبعد فـكافة الفضْل بيّنة ، وفروض

(١) في الرسائل : معينها . (٢) العربدة : سوء الخلق . (٣) سورة يوسف ، آية ٩٧ .
(٤) سورة يوسف ، آية ٩٢ . (٥) في الرسائل : رائدة . (٦) سحاه : جرفه ، والشعر حلقه .
(٧) في الرسائل : خطئته . (٨) في الرسائل : تحفظها . (٩) الرسائل : ٢٢ .
(١٠) الأنزال : جمع نزل وهو النزل . وما يهيأ للضيف أن ينزل عليه .

الودِّ متعيّنة ، وأرْضُ العشرة ليّنة ، وطرقها هيّنة، فلِمَ اختار[1] قُعود التّمالي مركبا، وصمودَ التغالي مَذْهَبا ؟ وهلاّ ذاد الطيرَ عن شجر العِشْرَة ، وذاق الحُلْوَ من ثمرها؟ فقدعلم اللهأن شوق إليه قدقد[2] الفؤادَ بَرْحاً إلى برح ، ونكأه قرحا إلى قرح، ولكنها صِرّةٌ مُرّة ، ونَفْسٌ حرّة ، لم تُقَد إلا بالإعظام ، ولم تُلْقَ إلا بالجلال والإكرام ، وإذا استعفاني من معاتبته ، فأعْفَى نفسه من كُلَف الفَضْلِ بتجشّمها ، فليس إلّا غصص الشوق أتجرّعُها، وحلل الصّبْرِ أتدرّعها، ولم أعره من نفسي، وأنا لو أُعِرْتُ جناحَيْ طائرٍ لما طِرْتُ إلّا إليه ، ولا وقعت إلا عليه :

أحبك يا شَمْسَ النهارِ وبدرَهُ وإنْ لامني فيك السها والفراقِدُ
وذاك لأنّ الفضلَ عندك باهرٌ وليس لِأنّ العيشَ عندك بَارِدُ

فلما وردت عليه الرُّقعة حشَد تلاميذَه وخدَمه ، وجَشِم[3] للإيجابِ قدمه، وطلَع علينا مع الفجر طلوعُه ، ونظمتنا حاشيتا دار الأمير أبي الطيب ؛ فقلنا : الآن تُشْرِق الحشمة وتنوّر ، وتُنْجِدُ في العشرة وتُغوّر ، وقصدناه شاكرين لما أتاه[4] ، وانتظرنا عادةَ بِرِّه ، وتوقّعنا مادّةَ فضله ؛ فكان خُلّبا شِمْناه ، وآلا وردْناه[5] ، وصرفنا في تأخُّرِه وتأخُّرِنا عنه إلى ماقاله ابن المعتز :

إنّا على البعاد والتفرُّقِ لَنَلْتقِي بالذِّكْرِ إنْ لم نَلْتَقِ

وأنْشَدنا قول ابن عَصْرِنا :

أُحبك في البتول وفي أبيها ولكني أحبّك من بعيدِ

وبقينا نَلْتَقِي خيالا ، ونقنع بالذكر وصالا ، حتى جعلت عواصفه تَهُبُّ ، وعقاربه تَدِبّ .

والمجلس طويلٌ جداً[6] .

(١) في الرسائل : فلم أختر . (٢) في الرسائل : قد كد ، وفي ق : قد قيد .
(٣) جشم الأمر : تكلفه على مشقة ، وفي الرسائل : وجشم الإيجاف قدمه ، وفي س : وحشم . (٤) في الرسائل : لما أتاه . (٥) الخلب : البرق الكاذب ، والآل : السراب .
(٦) اختصره الحصري ، وهو تام في الرسائل كما أشرنا .

قلت : إن كنتُ خرجت لطولِ هذا الكلام عن ضبط الشرط ، فلعلى أُسامَح فيه لفضله ، وعدم مثله ، وهو وإن كان فى باب الانفصال ، فهو بتقدير الاتصال ، لقيامِ كلّ رسالةٍ بذاتها ، وانفرادِها بصفاتها .

وكتب إلى رئيس هراة عدنان بن محمد يصفُ ما جرى بينه وبين الخوارزمى[1] : كتابه إلى رئيس هراة

ما أَلُومُ هـــذا الفاضل على بساط شرٍّ طواه ، وموقد حَرْبٍ احتواه ، ولكنى أَلُومُه على ما نواه ؛ ثم[2] لم يتبع هواه ، ورَامَه ، ثم لم يبلغ آثامه ، وأقولُ : قد ضرب فأَيْنَ الإيجاع ، وأَنْذَر فأين الإيقاع ، وهذه بَوارِقه فأَيْنَ صواعقه ، وذلك وعيدُه فأين عديده ، وتلك بنودُه ، فأين جنودُه ، وأنشد :

* هذى مَعَاهِده فأين عُهوده *

وما أَهْوَل رعده ، لو أمطر بعده ! اللهمَّ لا كُفْرَانَ[3] ، ولعن اللهُ الشيطان ، فإنّه أشفق لقريب أن يُظهِر عَوارَه ، وإن طارَ طَوارَه ، وإنْ كان قصد هذا القَصْدَ فقد أساء إلى نفسه من حيث أَحْسَنَ إلىّ ، وأَجْحَفَ بفضله من حيث أَبْقَى علىّ ، وأوْهم الناسَ أنه هاب البَحْرَ أن يخوضَه ، والأسد أنْ يَرُوضَه ، وشجّعنى على لقائه ، بعد ما بَرَعَنى[4] بإبائه ، فبينا كنت أُنشد :

* إنّ جَنْبى على[5] الفراشِ لَنَابِ * إذ أنشدت : * طاب لَيْلِى وطاب فيــه شَرَابِى * وبينا أنا أقول : * ما لقلبى كأنه ليس منى * إذْ قلت : * أين مَنْ كان مُوعِداً لى بأنى[6] * فلو أنّ[7] هــذا الفاضلَ قضى حقّنا بالزيارة عند قدومِنا أو الاستزارة ، لكان فى الضّرب أحسن ، وفى طريق المعاشرة أذهب . لا ، ولكنه

---

(١) الرسائل : ٣١٧ . (٢) عبارة الرسائل : ثم لم يبلغ هواه ، وأراده ثم لم يور زناده ، ورامه ثم لم يبلغ مرامه . (٣) عبارة الرسائل : ولا كفران فلعله أشفق على غريب . . . والعوار : العيب . (٤) برع صاحبه : غلبه . (٥) فى الرسائل : عن .
(٦) فى الرسائل : أين من كان قائلا أنا على . (٧) هنا اختلاف كثير عما فى الرسائل .

وعَد بالمُباراة أولا ، وهدّدنا بالمسائل ثانياً ، وأخلف بالتخلّف ثالثا ؛ فأبْلِـغْ وَجْدى إليه ، واعْرِض شوقى عليه ، وقل له : إن كنت ندمت على النضال فلا تندَمْ على الإفضال ، فإن طَوَيْتَنا حيث الجهاد ، فانشُرْنا حيثُ الوداد ، وإن لم تلْقَنا فى باب المكاشرة[1]، فأْتنا من بابِ المعاشرة .

كتابه إلى سهل بن محمد

وله إلى الإمام أبى الطيب سهل بن محمد[2] : قد كان الشيخُ يَعِدُنى عن هذه الحضرة عِدَاتٍ أشمّ لها الأنف ، لا ذهابا بتلك الفواضل عنها ، لكن استحالةً من هذا الزمان أنْ يجودَ بها ؛ فحين أشرفتُ على الحَضْرَة ماجَتْ إلىّ أمواجُ الشرف منها ، وخلص إلىّ نسيمُ الكَرَم عنها ، وأُتْحِفْتُ[3] على رسم الإجلال بمركوب شامخ ، ومركَبٍ[4] ذهبٍ سابغ ، وجنيبٍ[5] شرفٍ زائد ؛ وسرتُ بحمد الله محفوفا بأعيانِ الكُتّاب[6] ، وعيونِ الرجال ، حتى شافَهْتُ بِسَاطَ العزّ ، مستقبلا مَلِكَ الشرق أدام الله علوّه ، فجذب بضَبْعِى[7] عن أرضِ الخدمة ، إلى جوارِ ولىّ النعمة ، حرس اللهُ مكانه ، فاهتزّ اهتزازا فات سِمَةَ الإكرام ، وتجاوز اسْمَ الإعظام ، إلى القيام ، فقبلت من يُمْنَاه مِفْتاحَ الأرزاق ، وفتّاح الآفاق ، ولحقت منه بقاب[8] العقاب ، وخاطبنى بمُخَاطبات تَشَدّتُ بها ضالّةَ الكِرام[9] ، وهلمّ جرّا إلى ما تبعها من جميل الإنزال ، وسَنِىّ الأجْزال[10] .

وطرأت[11] من الشيخ العميد على شَخْصٍ يسَعُه الخاتَم ، ولا يَسَعُه العالَم ، ويهتزّ عند المكارم كالغُصن ، ويثبت عند الشدائد كالرُّكْن[12] ، وسلطانٍ يحمل حِلْمَ السيفِ مُغْمَدا ، ويغضب مجرّدا ، فهو عند الكرم لين كصَفْحَتِه ، وعند السياسة خشِنٌ كشَفْرَته ،

---

(١) كاشره : إذا ضحك فى وجهه وباسطه . (٢) الرسائل : ١٢١ .
(٣) فى الرسائل : وتلقيت . (٤) فى الرسائل: وموكب . (٥) فى الرسائل: وجنين شرف زائد . (٦) فى الرسائل : الكتائب . (٧) أى بعضدى . (٨) فى ط : تقاب .
(٩) فى ق : الكرم ، وفى الرسائل : الآمال . (١٠) فى الرسائل : الأنزال .
(١١) فى الرسائل : نظرات من الشيخ . (١٢) فى الرسائل : كالنكر .

وملك يَأْبى الكرمَ نيّة(١) ، والفضلَ سجيّة ، ويفعـل الشرّ كُلفَةً أو خطيّة ، فهو ضَرُود بآلاته(٢) ، نَفُوع بذاته ، عطارد قلمُه ودَوَاتُه ، والمريخ سَيْفُه وقَنَاتُه ؛ عَيْبُه(٣) لا عَيْبَ فيه ، فيصرف عَيْن الكمال عن معاليه .

وصادفت من الشيخ الموفق أيّده الله ملَكا يُشاهَدُ عِيَانا ، وجبلا قد سمّى إنسانا ، وحسنا قد مُلِئ إحسانا ، وأسدا قد لُقّبَ سلطانا ، وبحرا قد أمسك عِنَانا ، وحطَطْتُ رَحْلِي بفِناء الأمير الفاضل أبي جعفر أدام الله عِزّه ، فوجدت حكمى فى ماله أنفذ من حكمه ، وقِسْمى من غِنَاه أوْفَرَ من قِسْمه ، واسْمى فى ذاتِ يده مقدّما على اسْمِه ، ويَدى إلى خزائنه أسْرَعَ من يَدِه ، وإن قصدت أنْ أفْرِدَ لكلٍّ مدحا(٤) ، وأعبر الجملة شرحا ، أطَلْت ، فهلمّ جرّا إلى ما افتتحت الكتاب لأجله .

وردَ للخوارزمى كتاب يتقلّب فيه على جَنْبِ الحردِ ، ويتقلّى على جَمْرِ الضّجَر ، ويتأوّه من خُمار(٥) الخجل ، ويتمرّغ فى أذيال الكلال ، ويذكر أنّ الناصبة قد علمت لأيِّنا كان الفَلَج(٦) . فقلت : است البائن أعلم ، والخوارزمى أعرَف ، والأخبار المتظاهرة [أعدل ، والآثار الظاهرة](٧) أصْدَق ، وحلبة السباق أحْكَم ، وما مضى بيننا أشهد ، والعَوْدُ إن نشط أحْمد ، ومتى(٨) استزاد زِدْنا ، وإن عادت العقرب عُدْنا ، وله عندى إذا ما شاء ، كلُّ ما ساء(٩) !

وهى طويلة فيها هَنَات صُنْتُ الكتابَ عنها . وقد أعاد البديع معنى قوله فى صدر حكايته مع الخوارزمى ، فقال فى رقعة كتبها إلى أبى سعيد الإسماعيلى ، وقد وقفت به الضرورةُ على تلك الصورة من سلب العرب ماله :

---

(١) فى الرسائل : نقية . (٢) فى ط ، ق : ضرورى لأنه . (٣) فى الرسائل : حسب .
(٤) فى الرسائل : أن أفرد ذلك مدحا . (٥) فى س : خمار . (٦) الفلج : الظفر .
(٧) من الرسائل . (٨) فى س : ومن . (٩) فى س : ما شاء ، وفى الرسائل : كل ما ساء وناء .

كتابه إلى الإسماعيلي كتابي[1]، بل رُقعتي، أطال الله بقاء الشيخ، وقد بكرت عليَّ مُغيرةُ الأعراب، كمهلهل، وربيعة بن مُكَدَّم، وعتيبة بن الحارث بن هشام[2]، وأنا أحمد الله إلى الشيخ الفاضل، وأذمُّ الدهر؛ فما ترك لي من فضّةٍ إلّا فضّها، ولا ذهب إلا ذَهب به، ولا عِلْق[3] إلّا عَلقه، ولا عَقار إلا عقره، ولا ضَيْعَة إلا أضاعها، ولا مال إلا مال إليه، ولا سَبَد إلا استبدَّ به، ولا لَبَد[4] إلا لَبَد فيه، ولا بِزَّة إلا بَزَّها، ولا عارية إلّا ارتجعها، ولا وَديعة إلا انتزعها، ولا خِلْعَة إلّا خلعها، وأنا داخل نيسابور ولا حِلْيَة إلا الجلدة، ولا بُرْدَ إلا القِشْرَة، والله وليُّ الخلف بمجّله، والفرج يسّهله، وهو حَسْبي ونعم الوكيل.

وليس البديع بأبي عُذْرَة هذا الخطاب؛ وسترى نظير هذا المعنى في هذا الكتاب.

ومن إنشائه في مقامات أبي الفتح الإسكندري

من مقاماته المقامة الفزارية قال[5]: حدّثني عيسى بن هشام قال: كنتُ في بعض بلاد بني فَزارة مرتحلا نَجيبة، وقائدا جَنيبَة، يَسْبَحان سَبْحا، وأنا أهيم[6] بالوطن، فلا الليل يَثْنيني بوعيده، ولا البُعْد يُدْنيني[7] ببيده، وظَلِلْتُ أخبط ورقَ النّهار بعصا التّسيار، وأخوضُ بطنَ الليل بحوافر الخيل، فبينا أنا في ليلة يصلُّ بها القَطاط[8]، ولا يُبصر بها الوَطْوَاط، أسْبحُ ولا سانح إلا السبع، ولا بارح إلا الضّبع؛ إذ عنّ لي راكب تامّ الآلات، يطوى منشور الفَلَوات، فأخذني منه ما يأخذ الأعْزَلَ من شاكى السلاح، لكنى تجلّدت فقلت: أرضَك لا أمّ لك! فدونك شَرْطُ الحِداد، وخَرْطُ القَتاد، وخَصْمٌ ضخم، وحية أزْدِيَة، وأنا سِلْمٌ إن شئت، وحَرْبٌ إن أردت،

---

(١) الرسائل: ٦٨. (٢) في الرسائل: وعتبة بن الحارث بن شهاب.

(٣) العلق: النفيس من كل شيء. (٤) أصل اللبد: القليل من الشعر. ويقال: ماله سبد ولا لبد؛ أي لا قليل ولا كثير. (٥) المقامات: ٧٤. (٦) في المقامات: أهم.

(٧) في المقامات: يلويني. (٨) القطاط: القطا.

فقل : من أنت ؟ قال : سداً أصبت ، وخيراً أجبت . قلت : فمن أنت ؟ قال : نصيح إن شاورت ، فصيح إنْ حاوَرْت ، ودون اسمى لِثام ، لا تُميطه الأعلام . قلت : فما الطُّعْمة ؟ قال : أجُوب جُيوبَ البلاد ، حتى أقع على جَفْنَة جواد ، ولِى فؤاد يَخْدُمه لسان ، وبيانٌ يَرْقُمه بَنان ، وقصارَاىَ كريمٌ ينفض إلىّ حقيبته ، ويخفّف[1] لى جَنِيبته ، كابن حُرّة طلع إلىّ بالأمس طُلوع الشمس ، وغرب عنى بغُروبها ، لكنه غاب ولم يَغِبْ تَذْكارُه ، وودّع وشيّعتنى آثارُه ، ولا ينبئك عَنْها أقْربُ منها، وأومأ إلى ما كان يَلْبسه ، فقلت : شحاذ وربّ الكَعبة أخاذ ، له فى الصَّنْعة نَفَاذ ؛ بل هو فيها أستاذ ، ولابد أن تَرْشَح له وتَسِيحَ عليه ، وقلت له : يافتى، قد أجليت عبارتك، فأين شعرُك من كلامك ؟ فقال : وأين كلامى من شِعْرِى ! ثم استمدّ غريزته ، ورفع عَقِيرته بصوت ملأ الوادى، وأنشأ يقول:

وأَوْدَعَ أعداه لِىَ الليـــل والفَلَا ... وخَمْسٌ تمسُّ الأرْضَ لكن كلاوَلَا
عرَضْتُ على نارِ المكارمِ عُودَهُ ... فكانَ مُعمًّا فى السوابق[2] مُخْــولا
وخادَعْتُه عن ماله فخَدَعْتُه ... وساهَلْتُه فى بِرّه فتسهَّلَا
ولما تَجالَيْنا وأحـــدَ مَنْطِق ... بَلَائىَ فى نَظْمِ القريضِ بِما بَلَا
فما هزّ إلا صارماً حين هزّنى ... ولم يَلْقَنى إلا إلى السَّبْق أوَّلا
فلم أرَه إلا أغرّ محجّباً[3] ... وما نَحتـــه إلا أغرّ محجّلَا

فقلت : على رِسْلِك يافتى ، ولك مما يصحبنى حكمك . فقــال : الجنيبة . قلت : إنّ ، وما عليها[4] . ثم قبضت بجُمْعِى عليـــه ، وقلت : لا والله الذى ألهمها لَمسا ، وشقّها من واحدة خَمْسا ، لا تُزايلنا أو تَمْنَحَ عِلْمك ، فحدَر لِثامه عن وَجْهه ، فإذا والله شيخنا أبو الفتح الإسكندرى ، فما لبثت أن قلت :

---

(١) فى المقامات : ويخفض . (٢) فى المقامات : السيادة .

(٣) فى المقامات : محجلا . (٤) فى المقامات : فقال : الحقيبة بما فيها . فقلت : إنّ وما فيها.

توشّحتَ أبا الفتح   بهـــذا السيفِ مُخْتالا
وما تصنعُ بالسيف   إذا لم تَكُ قتّالا
[فصُغْ ما أنت حليت   به سيفَك خلْخَالا](١)

[بعض طرف الأدب]

نسب ورحم وعلى ذكر قوله: «إنّ وما عليها» قال أبو عبيدة: وفَد عبدُ الله بن الزبير الأسدى على عبد الله بن الزبير بن العوام فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنّ بينى وبينك رَحِا من قِبَل فلانة الكاهلية؛ هى أختنا، وقد ولدتكم، وأنا ابنُ فلان؛ ففلانة عمّتى. فقال ابنُ الزبير: هذا كما ذكرت، وإن فكّرت فى هذا أصبت، الناسُ كلهم يرجعون إلى أبٍ واحد، وأم واحدة.

فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ نَفَقَتى قد ذَهَبَتْ. قال: ما كنت ضمنت لأهلك أنها تكفيك إلى أنْ تَرْجِع إليهم. قال: يا أمير المؤمنين؛ إن ناقتى قد نَقِبت ودَبِرَتْ(٢). فقال له: أنْجِد بها يَبْرُد خفّها، وارقعها بسِبْت، واخْصِفها بهُلْب(٣)، وسِرْ عليها البردين. قال: يا أمير المؤمنين، إنما جئتك مستَحْمِلا، ولم آتك مستوصفا، لعن اللهُ ناقةً حملتنى إليك. قال ابنُ الزبير: إنّ وراكبها! فخرج وهو يقول:

أرَى الحاجاتِ عنـــد أبى خُبَيْبٍ(٤)   نَكِدْنَ ولا أُمَيَّـــةَ فى البلادِ
من الأعياص(٥) أو مِنْ آل حَرْبٍ   أغرّ كغُرَّةِ الفرس الجوادِ
ومالى حين أقْطَع ذات عرقٍ   إلى ابنِ الكاهلية من مَعَاد
وقلت لصحبتى أدْنُوا ركابى   أفارقُ بَطْنَ مَكّةَ فى سَوَادِ

(١) من س، والمقامات. (٢) نقب الخف: تخرق، والبعير: حفى أو رقت أخفافه، والدبر: قرحة الدابة. (٣) السبت: كل جلد مدبوغ، خصف النعل: خرزها، الهلب: الشعر، أو شعر الخنزير الذى يخرز به. (٤) أبو خبيب: عبد الله بن الزبير.
(٥) الأعياص من قريش: أولاد أمية بن عبد شمس الأكبر.

فبلغ شعره هـــذا عبد الله بن الزبير ، فقال : لو علم أنّ لى أمًّا أحسن من عمته الكاهلية لنسبنى إليها ، وكان ابنُ الزبير يكنى أبا بكر وأبا خُبيب .

قال الصولى : أخذ المعتصم من محمد بن عبد الملك الزيات فرساً أشهب أحمّ[1] ، وثناء فرس كان عنده مَسكينا ، وكان به ضَنينا ، فقال يرثيه :

قالوا جزعت فقلتُ إنّ مصيبةً ۞ جلّت رزيّتها وضاق المذهبُ

قال أبو بكر : هكذا أنشدنيه ابنُ المعتز على أن (إنّ) بمعنى نعم ، وأنشد النحويون :

قالوا : كبرتَ فقلتُ إن وربما ۞ ذَكَرَ الكبيرُ شبابَه فتطرّبا

كيف العزاء وقد مضى لسبيله ۞ عنّا فودّعنا الأحمُّ الأشهبُ

دبّ الوُشاةُ فباعدوه ، وربما ۞ بَعُدَ الفتى وهو الحبيبُ الأقربُ

لله يومَ غدوت فيه ظاعناً ۞ وسُلبتُ قُربَك أىّ عِلْقٍ[2] أُسْلَبُ

نفسى مقسّمة أقام فريقُها ۞ ومضى لِطيّته فريقٌ يُجنَبُ

الآن إذ كَمُلَتْ أداتك كلُّها ۞ ودعا العيونَ إليك حُسْنٌ مُعْجِبُ

وغدوت طَنّان اللّجام كأنما ۞ فى كل عُضْوٍ منك صَنْجٌ[3] يُضرَبُ

وكأنّ سَرْجَك[4] ، إذ علاك ، غمامةٌ ۞ وكأنما تحت الغمامة كوكبُ

أنساك ؟ لا زالَتْ إذاً منسيةً ۞ نفسى ، ولا بَرِحَتْ بمثلك تنكب

أضمرتُ منك اليأسَ حين رأيتنى ۞ وقُوَى حبالى مِنْ حِبالِك تُقْضَب

يا صاحبىّ لمثل ذا من أمره ۞ صَحِبَ الفتى فى دَهْرِه من يَصْحَبُ

إنْ تُسْعِدا فصنيعةٌ مشكورةٌ ۞ أو تَخْذُلا فصنيعةٌ لا تَذْهَبُ

عُوجا فقولا مرحبا وتزوّدا ۞ نظراً ، وقَلّ لمن تُحِبُّ المرحب

---

(١) لونه بين الكمتة والدهمة ودون الحوة . (٢) العلق : النفيس من كل شىء .

(٣) الصنج : شىء يتخذ من صفر يضرب أحدهما على الآخر ، وآلة بأوتار يضرب بها .

(٤) فى س ، ق : سرجك .

منعَ الرقادَ جَوًى تضمَّنه الحَشَى ... ممّا أكابده وهَمٌّ مُنْصِب

[المزاح]

قال الحجاج بن يوسف لابن القِرِّيّة : ما زالت الحكماء تكره المُزاح ، وتنهى عنه ، فقال : المُزاح من أدنى منزلته إلى أقصاها عشرة أبواب : المُزاح أوله فَرَح ، وآخره تَرَح . المزاح نقائضُ السفهاء كالشِّعرِ نقائض الشعراء . والمزاح يُوغِر صدْرَ الصديق ، وينفِّر الرفيق . والمزاح يُبْدِى السرائر ؛ لأنه يظهر المَعَايِر[1] . والمزاح يُسْقِطُ المروءة ، ويبدى الخنى . لم يجُرّ المزح خيراً ، وكثيراً ما جَرّ شرًّا . الغالب بالمزاح وَاتِر ، والمغلوب به ثائر . والمزاح يجلب الشتمَ صغيرُه والحرب كبيرُه ، وليس بعد الحرب إلا عفوٌ بعد قدرة .

فقال الحجاج : حسبك ، الموت خيرٌ من عَفْو معه قدرة .

وذُكِر المزاح بحضرة خالد بن صفوان فقال : يُنْشِق أحدُكم أخاه مثل الخَرْدَل ، ويُفْرِغُ عليه مثل المِرْجل ، ويَرْميه بمثل الجَنْدل . ثم يقول : إنما كنت أمزح !

أخذ هذا المعنى محمود بن الحسن الوراق فقال :

تَلْقَى الفتى يلقَى أخاهُ وخِدْنَهُ ... فى لَحْنِ مَنْطِقِه بما لا يُغْفَرُ
ويقول : كنت ممازحاً ومُلَاعباً ... هيهات نارُك فى الحشى تَتَسعَّرُ !
أو ما علمت وكان جهلك غالباً ... أنّ المُزاحَ هو السِّبَابُ الأصْغَر

فقر فى هذا النحو لأهل العصر وغيرهم

المُزاحة[2] تَذْهَبُ بالمهابة ، وتُورِثُ الضغينة . الإفراط فى المُزاح مُجون ، والاقتصاد فيه ظَرْف ، والتقصير عنه نَدَامة . أوكد أسباب القطيعة المِرَاء والمُزاح .

ابن المعتز — من كَثُر مُزاحه لم يَخْلُ من استخفافٍ به أو حِقْدٍ عليه .

---

(١) المعاير : المعايب . (٢) المزاحة : المزاح .

قال أيوب بن القِرِّيّة : الناس ثلاثة : عاقل ، وأحمق ، وفاجر ؛ فالعاقل الدِّينُ شريعتُه ، والحلم طبيعتُه ، والرأيُ الحسنُ سجيَّته ؛ إن سُئل أجاب ، وإن نطق أصاب ، وإن سَمِعَ العلم وَعَى ، وإن حدّث روى . وأما الأحمق فإنْ تكلّم عَجِل ؛ وإن حدّث وَهِل[(١)] ، وإن استُنْزِل عن رأيه نزل ، فإن حُمل على القبيح حَمل . وأمَّا الفاجر . فإن ائتمنته خانك ، وإن حدّثته شانَك ، وإن وثقت به لم يَرعَك ، وإن استُكْتِم لم يكتُم ، وإن عُلِّم لم يعلم ، وإن حُدِّث لم يفهم ، وإن فُقِّه لم يَفْقَه .

[الطيرة والزَّجْر]

قال أبو حية النميرى[(٢)] :

جَرَى يومَ رُحْنَا عامِدِين[(٣)] لأرضنا ... سَنِيحٌ فقال القوم : مرَّ سَنِيحُ

فهاب رجالٌ منهمُ فتعيفوا[(٤)] ... فقلت لهم جارى إلىَّ ربيحُ

عُقَابٌ بأعقابٍ من الدار بعد ما ... نَأَتْ نَأْيَةٌ بالظاعنين طَرِيحُ

وقالوا حمامات فحُمّ لِقاؤها ... وطَلْحٌ فنيلت[(٥)] والمطىُّ طَلِيحُ

وقال صحابى هُدْهُدٌ فوق بانةٍ ... هُدًى وبيانٌ بالنجاح يلوحُ

وقالوا دمٌ دَامَتْ مواثيقُ بيننا ... ودام لنا حُلْوُ الصفاء صَرِيح

لَعَيناك يومَ البين أسرعُ واكفًا ... من الفَنَنِ الممطور وهو مَرُوح[(٦)]

ونسوةِ شَحْشَاحٍ غَيُورٍ يَخَفْنَهُ ... أخى ثقةٍ يَلْهُونَ وهو مُشيح[(٧)]

يقلن وما يَدْرِين أنى[(٨)] سمعتُهُ ... وهنَّ بأبواب الخيام جُنُوحُ

أهذا الذى غنَّى بسمراء مَوْهِناً ... أتاحَ له حسنَ الغناء مُتِيحُ

---

(١) وهل : ضعف وفزع . (٢) اللآلى : ٣٤٣ ، الأمالى : ١ — ٦٩ .

(٣) فى ف : عامرين . (٤) العائف : المتكهن بالطير أوغيرها . وفى الأمالى : وتقاعسوا

(٥) فى الأمالى : فزيرت . (٦) مروح : أصابته الرياح . (٧) فى ف : يلهين .

مشيح : بخيل حريص . (٨) فى الأمالى : عنى ؛ قال هناك : عنى بمعنى أنى بإبدال الهمزة عينا ، وتسمى قيس وتميم هذا الإبدال عنعنة ؛ وفى س : سمعته .

إذا ما تغنَّى أنَّ مِنْ بَعْد زَفْرَةٍ   كما أنَّ من حَرِّ السلاح جَرِيحُ
وقائلةٍ يادَهْم وَيْحَك ! إنهُ   على ما به من عُنّةٍ[1] لمليحُ
فلو أنَّ قولا يجرح الجلد قد بدا   بجلدىَ من قول الوُشاة قروح

وهذا من غريب الزجر مليح التفاؤل .

قال أبو العباس محمد بن يزيد : أنشدنى أعرابىّ فى قصيـــدة ذى الرمة التى أوّلها[2] :

ألا يا اسْلَمى يادَارَ مىّ عَلَى البِلَى   ولازَالَ مُنْهَـلًّا بجَرْعائكِ[3] القَطْرُ

بيتين لم يروهما الرواة فى ديوانه وهما :

رأيتُ غراباً ساقطاً فوق قَضْبَةٍ   من القَضْبِ[4] لم يَنْبُتْ لها وَرَقٌ خُضْرُ
فقلت غرابٌ لاغترابٍ وقَضْبَةٌ   لقَضْبِ النوى هذى العيافةُ والزَّجْرُ

وقال آخر :

دعا صُرَدٌ[5] يوماً على غُصْنِ بانةٍ   وصاح بذات البين منها غُرَابُها
فقلت أتصْرِيدٌ[6] وشَحْطٌ وغُرْبَةٌ   فهذا لعمرى نَأْيُها واغترابُها

النهى من الطيرة وقد أكثرت العرب من ذكر الطِّيَرة ، والزَّجْرِ ، وكانت تقتدى بذلك وتجرى على حكمه ، حتى ورد النَّهْىُ فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا عَدْوَى ولا طِيَرَة . وقد قال الأول :

لعمرك ماتَدْرِى الضَّوَارِبُ بالحصى   ولا زَاجِراتُ الطَّيْرِ ما اللهُ صانعُ

---

(١) فى الأمالى : على غنة فى صوته . (٢) ديوانه ٦٤ .
(٣) الجرعة : الرملة الطيبة المنبت ، أو الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل ، أو الكثيب جانب منه رمل وجانب منه حجارة كالأجرع . (٤) القضبة ، القضيب : الغصن . والقضب : كل شجرة طالت وبسطت أغصانها (٥) صرد : طائر ضخم الرأس يصطاد العصافير .
(٦) التصريد : التقليل ، وفى السقى دون الرى .

وقال ضابئ بن الحارث البرجمي :

وماعاجلات الطير تدنى من الفتى ... نجاحاً ولا عن ريثهن تخيب
ولا خير فيمن لا يوطن نفسه ... على نائبات الدهر حين تنوب
ورب أمور لا تضيرك ضيرة ... وللقلب من مخشاتهن وجيب

وقال الكميت بن زيد الأسدي :

ولا أنا ممن يزجر الطير همه ... أصاح غراب أم تعرض ثعلب
ولا السانحات البارحات عشية ... أمر سليم القرن أم مر أعضب[1]

وقال شاعر قديم[2] :

لا يمنعنك من بغا ... ء الخير تعقاد التمائم
ولا التشاؤم بالعطا ... س ولا التيامن بالمقاسم
فلقد غدوت وكنت لا ... أغدو على واق وحاتم[3]
فإذا الأشائم كالأيا ... من والأيامن كالأشائم
وكذاك لا خير ولا ... شر على أحد بدائم
قد خط ذلك في الزبو ... ر الأوليات القدائم

ولقد أحسن ابن كناسة في رثاء ولده يحيى ، أنشده أبو العباس ثعلب :

تيممت فيه الفأل حتى رزئته ... ولم أدر أن الفأل فيه يفيل[4]
فسميته يحيى ليحيا فلم يكن ... إلى رد أمر الله فيه سبيل

كثير عزة يتطير

وروى المدائني قال[5] خرج كثير من الحجاز يريد مصر ، فلما قرب منها نزل بمنزل ، فإذا هو بغراب على شجرة بان ينتف ريشه وينعب ؛ فأسرع الرحيل ،

---

(١) الأعضب : المكسور القرن الداخل ، وقد يكون العضب في الأذن أيضا .
(٢) اللسان ـ مادة حتم ، عيون الأخبار ١ ـ ١٤٥ ، وقد نسبت هناك إلى المرقش .
(٣) في ط : وحائم . والحاتم : المشئوم والأسود من كل شيء كما في اللسان ، وفي عيون الأخبار : الواق : الصرد ، والحاتم : الغراب الأسود ، وكانت العرب تتشاءم بهما .
(٤) يفيل : يخطىء . (٥) عيون الأخبار ١ ـ ١٤٧ .

ومضى لوجهه ؛ فلقيه رجلٌ من بنى نَهْد ، فقال : يا أخا الحجاز ؛ مالى أراكَ كاسِفَ اللون ؟ قال : ما علمت إلا خيراً ، قال : فهل رأيت فى طريقك شيئاً أنكرْته ؟ قال : لا والله إلا فى منزلى هذا ، فإنى رأيتُ غراباً يَنْتِف رِيشَه على بانة وَيَنْعِب . قال : أما إنك تطلب حاجةً لا تدركها .

فقدم مصر والناسُ منصرفون من جنازة عزّة ، فقال :

رأيتُ غراباً ساقطاً فَوْقَ بانة   يُنَتِّفُ أعْلى رِيشه ويطايِرُهْ
فقلت : ولو أنى أشاء زجرتُهُ   بنفسىَ ، للنهدىّ هل أنت زاجره ؟
فقال : غرابٌ لاغترابٍ من النوى   وفى البانِ بَيْنٌ من حبيب تجاورهْ
فما أعيفَ النهدىَّ لا دَرَّ دَرُّهُ   وأزجرَه للطير ، لا عَزَّ ناصِرهْ

ثم أتى قبر عزة فأناخ به ساعة ثم رحل ، وهو يقول[1] :

أقولُ ونِضْوى واقفٌ عند رأسها   عليكِ سلامُ الله والعَيْنُ تَسْفَحُ
فهذا فراقُ الحق لا أنْ تُزيرنى   بلادَكِ فتلاء الذراعين صَيْدحُ[2]
وقد كنتُ أبكى من فراقك حيّة   وأنتِ لعمرى اليومَ أنأى وأنْزَحُ

التطير بالإبل وقال جرير[3] :

بَانَ الخليطُ برامَتَيْن فوَدَّعُوا   أوَكُلَّما نعبوا[4] لبَيْنٍ تَجْزَعُ
إن السَّوانح[5] بالضُّحَى هَيَّجْننى   فى دار زَيْنَبَ والحمامُ الوُقَّعُ

وقال عوف الراهب خلاف هذا :

غلط الذين رأيتهم بجهالةٍ   يَلْحُونَ كلُّهم غراباً يَنْعَق
ما الذنبُ إلّا للأباعر إنها   مما يشتِتُّ جميعَهم ويفرّق
إنّ الغرابَ بيُمْنِه تَدْنُو النَّوى   وتُشتّتُ الشملَ الجميعَ الأيْنُق

---

(١) المباهد ٢ ــ ١٤٦ .   (٢) صيدح : الفرس الشديد الصوت ، والصياح الصيت .
(٣) ديوانه ٣٤٠ .   (٤) فى الديوان : رضوا .   (٥) فى الديوان : الشواحج
وفى س : السواحج .

وقد تبعه فى هذا المذهب أبو الشيص ، فقال :

ما فرّق الأحبابَ بَعْـ ... ـدَ اللهِ إلّا الإبلُ
والناس يَلْحَوْن غُرا ... بَ البين لَمّا جهلوا
وما على ظَهْرِ غُرا ... بِ البَيْنِ تُطوى الرّحل
ولا إذا صاح غُرا ... بٌ فى الديار احتملوا
وما غرابُ البين إلْـ ... ـلَا ناقةٌ أو جَمَلُ

وما أملح ما قال القائل :

زعموا بأنّ مَطِيَّهم عَوْنُ النوى ... والمؤْذِناتُ بفُرْقَةِ الأحبابِ
وَلَوَ أنّها خُتِفِى لما أبْغَضتُها ... ولها بهم سببٌ من الأسبابِ

وكان علي بن العباس الرومي مُفْرِطَ الطِّيَرَة ، شديدَ الغلوّ فيهـا . قال عليّ ابن الرومي ابن عبد الله بن المسيب : وكان يحتجُّ لهـا ، ويقول : إن النبي صلى الله عليه وسلم وتطيره كان يُحِبُّ الفأل ، ويَكْرَه الطِّيَرَة ؛ أفتراه كان يتفاءلُ بالشيء ، ولا يتطيّر من ضدّه ؟

ويقول : إن النبي صلى الله عليـــه وسلم مرّ برجل وهو يَرْحَل[1] ناقةً ويقول : يا ملعونة ، فقال : لا يَصْحَبْنا ملعون ، وإن عليا رضى الله عنه كان لا يَغْزُو غَزَاة[2] والقمرُ فى العقرب ، ويزعم أنّ الطيرة موجودةٌ فى الطباع قائمةٌ فيهـا ، وأنّ بعضَ الناس هى فى طباعهم أظهر منها فى بعض ، وأن الأكثرَ فى الناس إذا لقى ما يكرهُه قال : على وَجْهِ من أصبحت اليوم .

فدخل علينا يوم مهرجان سنة ثمان وسبعين وقد أهـــدى إلىّ عدةٌ من جوارى القيان ، وكانت فيهنّ صبيّةٌ حَوْلَاء ، وعجوزٌ فى إحدى عينيها نُكتة ، فتطيّر من ذلك ، ولم يُظهِرْ لى أمره ، وأقام باقى يومه ؛ فلما كان بعد مدة يسيرة سقطت ابنة لى

(١) رحل البعير : حط عليه الرحل . (٢) فى س : لا يغزى غزيا .

من بعض السطوح ، وجفاء القاسم بن عبيد الله ، فجعل سبّب ذلك المنيين المنيجين ، وكتب إلى[١] :

أيها المُتحقى بحُولٍ وعُورٍ أين كانت عنك الوجوهُ الحسانُ
قد لَعَمْرِى ركبت أمرا مهينا[٢] ساءنى فيك أيها الخُلْصَانُ[٣]
فَتَحُكَ المهرجان بالحُول والنو رِ أرانا ما أعْقَب المهرجانُ
كان من ذاك فقدُك ابنتُك الحرّ ة مصبوغةً بهــا الأكْفَانُ
وتجافى مؤمّلٍ لى جَليلٍ[٤] لجّ فيــه الجفاء والهجْرَان
وعزيز علىّ تقريبُ خلٍّ لا يُدَانيه عندىَ الخُلّانُ
غير أنى رأيت إذكاره الحز م وإشمارهُ شعاراً يُصَانُ
لا تَهاوَنْ بطيرة أيهــا النظ ار واعْلَمْ بأنها عُنْوان
قف إذا طيرة تلقّتك وانْظُرْ واستمع ثمّ ما يقولُ الزّمانُ
قلّما غاب من أمورك عنوا ن مبين وللزّمانِ لِسَانُ
لا تــكن بالهوى تــكذّب بالأخ بارِ حتى تهين مالا يُهان[٥]
لا يَقُدْكَ الهوى إلى نصرة الأخ بارِ حتى يقــدّم البرهان[٦]
إن عُقْبي الهوى هُوِىٌّ وعُقْبي طول تلك المهوّنات[٧] هَوان
لا تصدق عن التبيين إلّا بحديث يلوحُ فيــه البيان
خبرُ الله أنّ مشأمةً كا نت لقــومٍ وخبّرَ القرآن
أفَزُور الحديث تقبــل أم ما قاله ذُو الجــلال والفرقَانُ
أترى من يرى البشيرُ بشيرا يَمْتَرى فى النــذيرِ يا وَسْنَانُ
فدع الهزل والتضاحك بالطـ يرة والنصح مُثمنٌ مجّان

(١) ديوانه : ١٧٢ . (٢) فى الديوان : مهيبا . (٣) الخلصان : الخالص المودة .
(٤) فى الديوان : خليل . (٥) ليس هذا البيت فى ديوانه المطبوع بأيدينا .
(٦) فى الديوان : حتى تهين مالا يهان . (٧) فى الديوان : التهاونات .

وقد فرّق حُذّاقُ أهل النظر فى الفال ، بين الطيرة والفأل، فقالوا : الطيرة كانت العرب ترجعُ إلى ما تمضيها ، وتَجْرِى على نَقضِّها ، وكان الذى يهُمُّ بهم إذا ما رأى ما يتطيّر منه رجع عنه؛ وفى ذلك ما يصرف عن الإحالة على المقادير الجارية بيد مُمْضيها، النازلة على حكم قاضيها . والفأل لايردّ المريد عما يريده، إنما يقوى مُنّته، ويَسُرُّ مهجته؛ وليس هذا موضع تطويل ، فى إيراد الدليل .

* * *

عتاب ابن الرومى للقاسم بن عبيد الله

وفى جفاء القاسم بن عبيد الله إياه يقول معاتباً :

ألم ترَنى أقرضتك الودّ طائما ... ولم تر قبلى مُعسِراً قطّ أقرَضا

لعمرى لقد صوّرت أبيض مُشرقاً ... فلِمْ لا تُرينى وَجْهَ نُعماك أبيضا

فياويح مولاك استغاث بمشربٍ ... فأشرق فاستشفى شفاء فأفرضا[1]

ولولا اعتقادى أنك الخيرُ كلُّه ... لأزمعتُ توديعاً قضى الله ما قضى

وإنى وإن دارتْ علىّ دوائرٌ ... لأعرِض عمّنْ صدّ عنى وأعرَضا

وما زلت عزّافاً إذا الزاد رابنى ... بخبثٍ وعيّافاً إذا الماء عرمضا[2]

وهذا البيت كقول الآخر :

وإنىَ للماء المخالط للقذَى ... إذا كثرت وُرّاده لعيُوفُ

رثاء ابن الرومى لابنة المسيبى

وفى ابنة المسيبى يقول ابن الرومى يعزّيه[3] :

أنا تقى أعزز علىّ بنكبةٍ[4] ... مَناك بها صرْفُ القضاء المقدّرُ

أُصِبتَ وما للمرء[5] من حُكم ربّه ... محيدٌ[6] وأمرُ الله أعلى وأقهرُ

وقدمات من لايخلف الدهر مثلَه ... عليك من الأسلاف والحقُّ يَبهَرُ

تعزيت عمن أعمرتك حياتُه ... ووَشْك التعزّى عن ثمارك أجدرُ

---

(١) أفرض : شرب من القرضة ، وهى المشرع . (٢) عرمض : خبث وطحلب .
(٣) ديوانه : ٤ : ١٠٤ . (٤) فى الديوان : بنوبة . (٥) فى الديوان : للعبد عن .
(٦) فى الديوان : محيص .

لأن اختيال الدهر في ابنٍ وفي ابنةٍ ... يسيرٌ وكرُّ الدهرِ شيخيك أعسَرُ
تمنَّى أنْ نعتاض من أمهاتنا ... وآبائنا والنسل لا يتعذّر
فلا تهلِكنْ حُزْناً على ابنة جنةٍ ... مضت(١) وهي عند الله تحيا(٢) وتُحْبَرُ
لعلَّ الذي أعطاك ستر حياتها ... كساها من اللَّحْدِ الذي هو أسْتَرُ
فكم من أخي حرية قد رأيتهُ ... بنارِ ذوي الأصهار يكوى ويُصهر
فلا تتهم لله فيهـا ولايةً ... ولا نظراً فاللهُ للعبد أنظرُ
وأنت وإن أبصرت رشدك مرةً ... فذو النظرِ الأعلى برشدك أبْصَرُ

من تعازيه

ومن مليح تعازيه عن أبيه قوله لعليّ بن يحيى المنجّم :

لا تَبعدنَّ كريمة أودعتها ... صِهْرًا من الأصهار لا يخزيكا
إني لأرْجُو أنْ يكونَ صداقَها ... من جنة الفردوس ما يرضيكا
لا تيأسنَّ لهـا فقد زوَّجتها ... كفؤا وضمِّنت الصَّداق مليكا

[موت البنات]

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

لكل أبي بنت يرجّى بقاؤها ... ثلاثةُ أصهار إذا ذُكر الصِّهْرُ
فبيتٌ يغطّيها وبَعْلٌ يَصُونُها ... وقبر يُوَاريها وخيرها القبْرُ

وقال عقيل بن علفة ، وكان أغير العرب :

إني وإن سِيق إليَّ المهرُ ... ألفٌ وعُبدانٌ وذَوْدٌ عشرُ
أحبُّ أصهاري إليَّ القبرُ

ومنه أخذ عبيد الله .

قال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد : دخل علينا ابن خلف البهراني فأنشدنا :

لولا أُمَيْمَةُ لم أجزع من العدمِ ... ولم أجُبْ في الليالي حِنْدِسَ الظُّلَمِ

---

(١) في الديوان : غدت . (٢) في الديوان : تحيي .

وزادني رغبة في العيش معرفتي ... أنَّ اليتيمةَ يَجْفُوها ذوو الرَّحِمِ
أحاذِرُ الفقر يوماً أن يُلِمَّ بها ... فيهتك الستر عن لَحْمٍ على وَضَمِ
تَهوى حياتي وأهوى موتَها شفقا ... والموتُ أكرمُ نزَّال على الحُرَمِ

وكانت أميمة بنت أخته وكان قد تبنَّاها ، ثم غابت غيبة ، فسألناه عنها فأنشد .

أمست أُميمة مغموراً بها الرَّجَمُ ... لدى صعيدٍ عليه التُّربُ مُرْتَكِمُ[1]
ياشِقَّةَ[2] النفس إن النفسَ والهةٌ ... حرَّى عليك ودَمْع العين مُنْسجِم
قد كنت أخشى عليها أن يؤخرها ... عنى الحِمامُ فيُبْدِي وجهَها العُدُمُ[3]
فالآن نمت فلا همٌّ يُؤَرِّقُني ... تَهدَا العيونُ إذا ما أُودِعَت الحُرَمُ
فالآن نمت فلا همٌّ يُؤَرِّقُني ... بعد الهدوء ولا وَجْد[4] ولا حُلُمُ
للموت عندي أيادٍ لست أنكرها ... أحيا سروراً وبي مما أتى ألم

[رجع إلى تطيّر ابن الرومى]

عاد ذكر ابن الرومى – وكان أبو الحسن على بن سليمان الأخفش غلام أبي العباس المبرد في عصر ابن الرومى شاباً مترفاً ، ومليحاً مستظرَفاً ، وكان يعبث به ، فيأتيه بسَحَر فيقرع الباب ، فيقال له : مَن ؟ فيقول : قولوا لأبي الحسن مُرَّة بن حنظلة ، فيتطيّر لقوله ، ويقيم الأيام لا يخرجُ من داره ، وذلك كان سبب هجائه إياه ، فمن أول ما عاتبه به[5] :

قولوا لنحوينا أبي حسن ... إن حسامى متى ضربت مَضَى
وإنَّ نبلى إذا هممت بأنْ ... أرْمِى نَصَلْتُها بِجَمْرِ غَضَا
لاتَحسبنَّ الهجاء يحفل بالرفـ ... ـع ولا خفض خافضٍ خَفَضَا

(١) الرجم : القبر وحجارة تنصب على القبر ، والمرتكم : المتراكم .
(٢) الشقة : نصف الشيء إذا انشق . (٣) العدم : فقد المال . (٤) حزن .
(٥) ديوانه : ١٠٨ .

ولا تَخَلْ عودتى كَبادِيتى ... سأُسْقِطُ السمّ من أبى الحَضَنا

أعرف فى الأشقياء[١] بى رجلا ... لا يَنْتَهِى أو يصير لى غَرَضاَ

يُلِيح[٢] لى صَفْحَةَ السلامة وال — لم ويُخْفِى فى قلبـــه مَرَضا

أضحى منيظا علىّ أنْ غضب ا لـ — لّه عليه ، ونِلْتُ منه رضا

وليس تُجْدِى[٣] عليه موعظتى ... إن قدّر اللهُ حَيْنَهُ وقضى

كأننى بالشقىّ معتـــذرا ... إذا القوافى أذقْنَهُ المَضَضا

ينشدنى العهد يوم ذلك وال — عهدُ خضاب إذا له قبضا[٤]

لا يأمنَنّ السفيـــهُ بادِرَتى ... فإننى عارِضٌ لِمَنْ عَرَضا

عندى له السوط إن تلوّم[٥] فى ال — سير وعندى اللجام إن رَكَضا

أسمعت إنْبَاضَتى[٦] أبا حسن ... والصفحُ لاشكّ نصحُ من مَحَضَا

وهو معاق من السهاد فلا ... يحمل قيمسى فراشه قَضَضا[٧]

أقسمت بالله لا غفرت لهُ ... إنْ واحدٌ من عُروقِهِ نَبَضا

فاعتذر إليه، وتشفع عنده بجماعة من أهل بغداد .

وكان الأخفش أكثر الناس إخوانا ؛ فقبـــل عذره ، ومدحه بقصيدته التى يقول فيها[٨] :

ذُكِرَ الأخفش القديمُ فقلنا ... إن للأخفش الحديثِ لَفَضْلا

وإذا ما حكمتـــ والرومُ قومى ـــ فى كلام مُعَرّب كنت عَدْلا

أنا بين الخصوم فيـــه غريبٌ ... لا أرى الزّور للمُحاباة أهْلا

ومتى قلت باطلا لم ألقّب ... فيلسوفا ولم أسمّ[٩] هِرَقْلا

* * *

(١) فى الديوان : أعرف بالأشقياء . (٢) كل من لم يخف وأظهره فقد لاح به ولوح وألاح ، وفى ف : يبيح . (٣) فى ف : تجرى . (٤) هكذا فى ف ، س ، وفى ط : يوم ذاك والعهد خضاب أذاله نفضا . (٥) تلوم فى الأمر : تمكث . (٦) أصل الإنباض : أن تمد الوتر ثم ترسله فتسمع له صوتا . (٧) القضض : التراب يعلو الفراش . (٨) ديوانه : ٤٦٥ .

(٩) فى الديوان : أسوّد .

الأخفش القديم هو أبو الخطاب، وكان أحد أستاذى سيبويه، وهو من المتقدّمين الأخفش في النحو ، ويُعْرَف بالأخفش الكبير ، وكان في عصر سيبويه أبو الحسن سعيد بن مسعدة ، وهو الأخفش الصغير ، وهو الذى قال : كان سيبويه يَعْرِض ما وَضَع من النحو علىّ ، ويرى أنى أعلمُ منه ، وكان في وقته ذلك أعلم منى .

ثم عاد على بن سليمان إلى أذاه ، واتصل به أنّ رجلا عرض عليه قصيدة من شعره. فطعَن عليها، فقال قصيدته التى يقولُ فيها[1] :

أعتقتُ عبدىَّ في القريض مما   عبدةَ والفَحْل[2] من بنى عبده
إن أنا لم أرم[3] بالإساءة مَنْ   زَاغَ عن القَصْد أو أبى سددَه[4]
قلت لمن قال لى عرضت على الأ   أخفش ما قلته فما حَمِدَهْ
قصرت بالشعر حين تعرضه   على مبين العمى إذا انتقدهْ
أنشدته مَنْطِق ليشهدَه   فغاب عنه عمّى وما شَهِدَهْ
ما بلغت بى الخطوب رتبة مَنْ   تَفْهَمُ عنه الكِلابُ والقِرَدَه
ولا أنا المفهم البهائم والـ   طير سليمان قاهر المَرَدَه
فإن يقل إننى حفظت[5] فكا   د فتو جهْلاً بكل ما اعْتَقَدَه
سأسمع النــاسَ ذَمَّهُ أبداً   ما سَمِعَ اللهُ حَمْدَ مَنْ حمده

عَبْدة بن الطبيب ، وعلقمة بن عبدة الفحل ، وكانا شاعرين مجيدين ، وقال علقمة ابن عَبْدة لرجل ورأى آخر يعتذرُ إليه وهو معبّس في وجهه : إذا اعتذر إليك المعتذر فتلقّه بوجهٍ مُشْرِق ، وبِشْر مطلَق ؛ لينبسط المتذلّل، ويؤمَن المتنصّل .

* * *

(١) ديوانه : ٢٨٩ .   (٢) في ق : العجل ، والفحل هو علقمة .
(٣) في الديوان : أجز .   (٤) في الديوان : رشده .   (٥) في الديوان : رويت .

ولابن الرومى فى الأخفش إهاش صُنْتُ الكتابَ عنه . قال[1] علىّ بن إبراهيم كاتب مسروق البلخى : كنت بدارى جالسا فإذا حجارةٌ سقطَتْ بالقرب منى ، فبادرتُ هاربا ، وأمرتُ الغلام بالصعود إلى السَّطْح ، والنظر إلى كل ناحية ؛ من أين تأتينا الحجارة ؟ فقال : امرأةٌ من دارِ ابن الرومى الشاعر ! قد تشوّفتْ[2] ، وقالت : اتقوا الله فينا ، واسقونا جَرّةً من ماء ، وإلّا هلَكْنَا ، فقد مات مَنْ عندنا عطشا .

فتقدمتُ إلى امرأةٍ عندنا ذاتِ عَقْل ومعرفة أنْ تصعدَ إليها وتخاطبَها ، ففعلَتْ وبادرتْ بالجرّة ، وأتْبَعَتها شيئا من المأكول ؛ ثم عادت إلىّ فقالت : ذكرتِ المرأةُ أنّ الباب عليها مقفلٌ من ثلاث بسببِ طِيَرة ابن الرومى ، وذلك أنه يَلْبَس ثيابَه كلَّ يوم ، ويتعوّذُ ثم يصيرُ إلى البـاب ، والمِفْتَاحُ معه ، فيضَعُ عينَه على ثَقْبٍ فى خشب الباب ، فتقعُ عينُه على جارٍ له كان نازلا بإزائه ؛ وكان أحْدَب يقعُد كل يومٍ على بابه ، فإذا نظر إليه رجع وخلع ثيابه ، وقال : لا يفتح أحدٌ البابَ .

فعجبتُ لحديثها ، وبعثتُ بخادمٍ كان لى يعرفه ، فأمرتُه بأن يجلسَ بإزائه ــ وكانت العينُ تَمِيلُ إليه ــ وتقدّمت إلى بعض أعوانى أن يَدْعوَ الجار الأحدب ؛ فلما حضر عندى أرسلتُ وراء غلامى ، لينهض إلى ابن الرومى ، ويستَدْعيه الحضور ؛ فإنى لجالسٌ ومعى الأحدب إذْ وافى أبو حذيفة الطَّرَسُوسِىّ ومعه بِرْذَعَة الموسوس صاحبُ المعتضد ، ودخل ابنُ الرومى فلما تخطّى عتبة باب الصَّحْن عَثَرَ فانقطع شِسْعُ[3] نَعْلِه ، فدخل مذعورا ؛ وكان إذا فاجأه الناظر رأى منه منظراً يدلّ على تغيُّرِ حالٍ ؛ فدخل وهو لا يَرَى جارَه المتطيّر منه ، فقلت له : يا أبا الحسن ؛ أيكون شىءٌ فى خروجك أحسن من مخاطبتك للخادم ، ونظرك إلى وجهه الجميل ؟ فقال: قد لحقنى ما رأيت من العَثْرَة ، لأنى فكرت أنّ به عاهة ! وهى قطع أُنْثَيَيْه ، قال بِرْذَعَة : وشيخُنا

---

(١) معجم الأدباء : ١٣ ــ ٢٩٦ . (٢) تشوفت : نظرت وتطاولت .

(٣) الشسع : أحد سيور النعل .

يتطيّر؟ قلت: نعم ويُفرِط، قال: ومن هو؟ قلت: على بن العباس[1]. قال: الشاعر؟ قلت: نعم. فأقبل عليه وأنشده:

ولما رأيت الدهرَ يُؤذِنُ صَرْفُه ... بتفريقِ ما بيني وبين الحبائبِ
رجعتُ إلى نفسي فوطّنْتُها على ... ركوبِ جميلِ الصَّبْرِ عند النوائبِ
ومَنْ صَحِبَ الدنيا على جَوْرِ حُكْمِها ... فأيامُه محفوفةٌ بالمصائبِ
فخُذْ خُلْسَةً من كل يومٍ تعيشُه ... وكُنْ حَذِراً من كامناتِ العواقبِ
ودَعْ عنك ذِكْرَ الفألِ والزَّجْرِ واطَّرِحْ ... تطيُّرَ جارٍ أو تَفَاؤُلَ صاحبِ

فبقى ابنُ الرومى باهتاً ينظرُ إليه، ولم أدْرِ أنه شَغَلَ قَلْبَه بحفظ ما أنشده، ثم قام أبو حذيفة وبِرْذَعة معه، فحلف ابنُ الرومى لا يتطيَّر أبداً من هذا ولا مِنْ غيره، وأومأ إلى جاره فقلت: وهذا الفكر أيضاً من التطيّر، فأمسك، وعجب من جودة الشعر ومعناه، وحُسن مأْتاه، فقلت له: ليتنا كتبْناه! قال: اكتبه فقد حفظته، وأملاه علىّ.

ومن شدة حذره، وعظيم تطيّره، قوله لأبى العباس[2] بن ثَوَابة وقد نَدَبَه إلى الخروج إليه وركوب دجلة[3]:

حَضَضْتَ[4] على حَطْبى لِنَارِى فلا تَدَعْ ... لكَ الخيرُ، تَحْذيرِى شُرُورَ المَحاطبِ
ومَنْ يَلْقَ مالاقيتُ فى كُلِّ مُجْتَنَى ... من الشَّوْكِ يَزْهَدْ فى الثِّمارِ الأطايبِ
أذاقتنِىَ الأسفارُ ما كَرَّهَ الغِنَى ... إلىّ وأغرانى برَفْضِ المَطَالبِ
ومِنْ نَكْبَةٍ لاقيتُها بعد نَكْبَةٍ ... رَهِبْتُ اعتِساف[5] الأرضِ ذاتِ المناكبِ
فصَبْرِى على الإقتارِ أيْسَرُ مَطْلَبَاً ... علىّ من التغريرِ بعدَ التجاربِ
لقيتُ من البَرِّ التَّبَارِيحَ بعدما ... لقيتُ من البَحْرِ ابيضاضَ الذوائبِ

(١) اسم ابن الرومى. (٢) اسمه أحمد بن ثوابة. (٣) ديوانه صفحة ٢٦٠.
(٤) فى س، ق: حطلت. (٥) الاعتساف: الذهاب فى الطريق على غير هداية.

سُقيتُ على رَيٍّ(١) به ألفَ مَطرةٍ … شُغِفْتُ لبُغْضيها بحُبِّ المَجادِبِ
ولم أبغِها(٢) بل ساقَها لمكيدتي … تلاعُبُ(٣) دَهْرٍ جَدَّ بي كالمُلاعبِ
أبَى أنْ يُغيثَ الأرضَ حتى إذا ارتمَتْ(٤) … برَحْلي أتاها بالغُيوثِ السّواكبِ
سقَى الأرضَ من أجلي فأضحتْ مَزَلّةً(٥) … تمايلَ صاحيها تمايُلَ شاربِ
فمِلْتُ إلى خانٍ مُرِثٍّ بناؤهُ … مَميلَ غريقِ الثَّوْبِ لَهْفانَ لاغِبِ
فما زِلْتُ في جوعٍ وخوفٍ ووَحْشةٍ … وفي سَهَرٍ يَسْتغرقُ الليلَ واصِبِ
يُؤرّقُني سَقْفٌ كأنّي تحتَهُ … من الوَكْفِ تحتَ المُدْجِناتِ(٦) الهواضِبِ
يَظَلُّ(٧) إذا ما الطينُ أثقلَ مَتْنَهُ … تَصِرُّ نَواحيهِ صَريرَ الجنادِبِ
وكم خانِ سَفْرٍ خانَ فانقضَّ فوقهمْ … كما انقضَّ صَقْرُ الدَّجْنِ فوقَ الأرانبِ
وما زالَ ضاحي البَرِّ يضربُ أهلَهُ … بسَوْطَيْ عذابٍ جامدٍ بعدَ ذائبِ
فإنْ فاتهُ قَطْرٌ وثَلْجٌ فإنّهُ … رَهينٌ بسافٍ تارةً وبحاصِبِ
فذاكَ بلاءُ البَرِّ عندي شاتياً … وكم لِيَ من صيفٍ به ذي مَثالِبِ
ألا رُبَّ نارٍ بالفَضاءِ اصطليتُها … من الضِّحِّ يُودي لَفْحُها بالحواجِبِ(٨)
فَدَعْ عنكَ ذِكْرَ البَرِّ إنّي رأيتُهُ … لِمَنْ خافَ هَوْلَ البحرِ شرَّ المهارِبِ(٩)
وما زالَ يَبْغيني الحُتوفَ مُوارِباً … يَحومُ على قتلي وغيرَ مُوارِبِ
فطَوْراً يُغاديني بلصٍّ مُصَلِّتٍ … وطوراً يُمَسّيني بوِرْدِ الشّوارِبِ
وأمّا بلاءُ البحرِ عنـدي فإنّهُ … طَواني على رَوْعٍ مع الرّوحِ واقِبِ(١٠)
ولو ثابَ عقلي لم أدَعْ ذِكْرَ بعضِهِ … ولكنّهُ من هَوْلِهِ غيرُ ثائِبِ
ولِمْ لا ولو ألقيتُ فيه وصخرةً … لَوافَيْتُ منهُ القَعْرَ أوّلَ راسِبِ

---

(١) في س : ريّ . (٢) في الديوان : ولم أسقها . (٣) في الديوان : تحامق .
(٤) في الديوان : إذا ارتمت . (٥) في ط : مدلة . (٦) الوكف : أن يقطر الماء من سقف البيت . وفي س : المرجيات . (٧) في الديوان : تراه .
(٨) الضح ، بالكسر : الشمس . (٩) في الديوان : المهاوب ، وقال شارحه : هي جمع مهوب : أي المكان الذي يهاب فيه . (١٠) واقب : مستكن .

وَلم أتسلَّ قطُّ من ذى سِباحَةٍ ... سِوَى الغَوْصِ والمضْعُوفُ[1] غير مُغالِبِ
وأيْسَرُ[2] إشفاقٍ من الماءِ أنَّنى ... أمُرُّ به فى الكوزِ مَرَّ المُجانِبِ
وأخْشَى الرَّدَى منهُ على كلِّ شارِبٍ ... فكيفَ بأمْنِيهِ على نَفْسِ[3] راكِبِ

أخذه من قول أبو نُوَاس وقد رأى التمساح بمصرَ أخذَ رجلا :

أضْمَرْتُ للنِّيلِ هجرانًا ومَقْلِيَةً ... مُذْ[4] قيلَ لى إنَّما التِّمساحُ فى النيلِ
فمن رأى النيلَ رأىَ العينِ عن كَثَبٍ ! ... فما أرى النيلَ إلّا فى البَرَاقيلِ[5]

دجلة

أظلُّ إذا هَزَّتْهُ ريحٌ ولَألَأَتْ ... لهُ الشمسُ أمْواجاً طِوالَ الغَوارِبِ
كأنّى أرَى فيهنَّ فُرْسانَ بُهْمَةٍ ... يليحُونَ[6] نحوى بالسيوفِ القَواضِبِ
فإنْ قلتَ لى قد يُرْكَبُ اليَمُّ طامياً ... ودِجْلَةُ عنـد اليَمِّ بعضُ المَذَانِبِ[7]
فلا عُذْرَ فيها لامْرِئٍ هابَ مِثْلَها ... وفى اللُّجَّةِ الخضْراءِ عُذْرٌ لِهائِبِ
لدِجْلَةَ خِبٌّ ليْسَ لليَمِّ إنَّها ... تَرَاءَى[8] بحِلْمٍ تحتَهُ جَهْلُ وَاثِبِ
تَطَامَنُ حَتَّى تَطْمَئِنَّ قلوبُنا ... وتَغْضَبُ من مَزْحِ الرِّياحِ اللَّوَاعِبِ
ولِليَمِّ إنْذارٌ بِمَوْجٍ مُتُونِهِ ... وما فيـه من آذِيِّهِ المُتَرَاكِبِ[9]

وهى طويلة، وفيما مرّ كفاية تنبئ عنه وتدلّ عليه ، ولو مددت أطناب الاختيار لتتبُّع هذا النحو من شعره لخرجتُ عن غرضِ الكتاب .

[من مليح العيافة والزجر]

ومن مليح العيافة والزجر ما رواه الصُّولى ، قال : كان لأبى نواس إخوانٌ

(١) المضعوف : الضعيف . (٢) فى الديوان : فأيسر . (٣) فى الديوان : على كل .
(٤) فى س : إذ . (٥) البنفق الذى يرى . (٦) يليحون : يشيرون .
(٧) المذنب : الجدول يسيل عن الروضة بمائها إلى غيرها . (٨) فى الديوان : ترائى .
(٩) فى الديوان : إعذار بمرس ، والآذى : الموج .

لا يفارقهم ، فاجتمعوا يوماً فى موضع أخفوه عنه ، ووجّهوا إليه برسولٍ معه ظهرُ قرطاس أبيض ، لم يكتبوا فيه شيئاً ، تخزَمُوه بزير[(١)] ، وختموه بقار ، وتقدموا إلى رسولهم ليرى بالكتاب من وراء الباب ، فلما رآه استعلم خبرَهُمْ ، وعلم أنه مِنْ قِبَلِهم ، فتعرّفَ موضِعَهم وآثارَهم ، فأتاهم فأنشدهم[(٢)] :

وجدتُ كتابَكم لمـا أتانى يمرُّ بسانِح الطيرِ الجَوَارِى
نظرت إليه مخزوماً بزيرٍ على ظَهْرٍ ومختوما بِقَارِ
فقلت الزِّير ملهيةٌ[(٣)] ولَهْوٌ وخِلْتُ القارَ من دَنِّ العُقار
وخِلْتُ الظَّهرَ أهْيَفَ قُرْطَقِيّاً[(٤)] يحيل العقلَ منـه باخْورَار
فهِمْتُ إليـكمُ طَرَبا وشَوْقا فمـا أخطأت دَارَكُمُ بدار
فـكيف ترونى وترون وَجْدِى أأَسْتُ من الفلاسفة الـكِبَارِ !

وقال الطائى[(٥)] :

أتضمضمت[(٦)] عبراتُ عَيْنِك أنْ دَعَتْ وَرْقَاه حين تضمضعَ الإظْـلَامُ
لا تنشجنّ[(٧)] لهـا فإنّ بُـكَاءها ضَحِكٌ وإن بكاءك استغرامُ
هنّ الحَمَام وإنْ كَسَرْتَ عِيَافةً مِنْ حَائِهنّ فإنهنّ حِمَامُ

* * *

الجمل الشاعر أخـذ معنى أبى تمـام

وروى يموت بن المزروع قال : كان أحمدُ بن المدبر إذا مدحه شاعرٌ فلم يَرْضَ شِعْرَه قال لغلامه : امْضِ به إلى المسجد الجامع فلا تفارِقْه حتى يُصلّى مائةَ ركعة ، ثم خلِّه ؛ فتحاماه الشعراء ، إلا الأفرادَ المجيدين ؛ فجاءه أبو عبد الله الحسين بن عبد السلام المصرى المعرف بالجَمَل ، فاستأذنه فى النشيد ، فقال : قد عرفت الشَّرْط ؟ قال : نعم . وأنشده[(٨)] :

(١) الزير : الـكتان ، والدقيق من الأوتار . (٢) ليست فى ديوانه المطبوع بأيدينا .
(٣) فى س : ملهاة . (٤) القرطق : لبس . (٥) ديوانه : ٢٧٩ ، عيون الأخبار : ١ — ١٥٠ . (٦) فى ديوانه : أتضمرت . (٧) فى الديوان : لا تشجين .
(٨) تحفة المجالس للسيوطى : ٣٥٥ .

أَرَدْنَا فى أَبى حَسَنٍ مَدِيحاً   كما بالمَدْحِ يُنْتَجَعُ الوُلَاةُ
فقلنا أَكْرَمُ الثَّقَلَيْنِ طرًّا   ومن كفَّاه دجلةُ والفراتُ
فقالوا : يقبل المدحات لَكِنْ   جوائزُهُ عليهنّ الصَّلَاةُ
فقلت لهم : وما تُغْنِى صَلَاتى   عيالى ! إنما الشأنُ الزَّكَاةُ
[فأما إذْ أبَى إلا صَلَاتِى   وعاقتنى الهموم الشاغلاتُ](١)
فيأمر لى بكَسْرِ الصَّادِ منها   فتصبح لى الصِّلَاةُ هى الصِّلاتُ

فضحك واستظرفه ، وقال : من أين أخذت هــذا ، قال من قول أبى تمـام الطائى :

هن الحَمَامُ فإن كَسَرْتَ عِيَافةً   مِنْ حَائِهِنّ فإنهنّ حِمَام

فأحسن صلته .

* * *

الميكالى

وقال الأمير أبو الفضل الميكالى لقوم من أهل مَرْو انخلعوا عن طاعته : وأهل مرو

يارا كبا أضْحَى يَخُبُّ بِنِضْـوِهِ   ليؤمَّ مَرْوَ على الطريق المَهْيَعِ (٢)
أَبْلِـغْ بها قَوْماً أثاروا فِتْنَةً   ظلَّتْ لها الأكبادُ رَهْنَ تقطّعِ
إذ أقدموا ظُلْماً على سُلْطَانهم   بالغَدْرِ والخَلْعِ الذميم المفظِعِ
ويحـلّ عقدِ لوائه وإباحة   لجنابه وحريمـه المتمنّعِ
أبلغهمُ أنى اتخـذت لفعلهم   فألا ، له فى القوم أسوأ موقع
أمّا اللّوَاء وحلّه فمخبّرٌ   عن حَلّ عقدٍ بينهم مُسْتَجْمِـع
والخلعُ يخبر أنْ ستُخْلَعُ عنهم الـ   أرواحُ بالقتـلِ الأشدّ الأشنَعِ
والغدرُ ينبى أنْ تُغَادَرَ فى الوَغَى   أشلاؤهم لنُسوره والأضْبُعِ
والفرقتان فشاهدٌ معناها   بتفرُّقِ لجميعهم وتصدُّعِ

---

(١) من س . (٢) النضو : الناقة الصلبة . وطريق مهيع : بين .

فتسمَّموا لِقَـالتى وَتأهَّبُوا بذميم بَغْيِـكمُ لشرِّ المَصْرَعِ
فالله ليس بغافلٍ عن أمرِكم حتى يَحِـلَّ بكم عقوبةُ مُوجِعِ

صفة رجل النظام قال أبو عثمان الجاحظ : سمعت النظام ، وذكر عبد الوهاب الثَّقفى ، قال : هو أحْلَى من أمْنٍ بعد خوف ، وبُرْء بعد سقم ، ومن خصب بعد جَدْب ، وغِنًى بعـد فَقْر ، ومن طاعة المحبوب ، وفرج المكروب ، ومن الوصال الدائم ، والشبابِ الناعِم .

[ابن أبى داود يعفو عن الجاحظ]

وكان الجاحظ مائلا عن ابنِ أبى دُواد إلى محمد بن عبد الملك الزيات ، فلما نُكِب محمد بن عبـد الملك أُدْخِل الجاحظُ على ابنِ أبى دُواد مقيّداً ؛ فقـال له أحمد : والله ما أعْلَمُك إلّا مُتناسِياً للنعمة ، كفوراً للصَّنيعة ، معدّداً للمساوى ، وما فُتّنى باستصلاحى لك ، ولكن الأيام لا تُصْلِح منك لفسادِ طويّتك ورداءة دَخيلتك ، وسوء اختيارك ، وتَغَالُبِ طباعك .

فقال الجاحظ : خفِّض عليك ، أصلحك الله ، فوالله لأنْ يكونَ لك الأمرُ علىّ خيرٌ من أن يكونَ لى عليك ، ولأنْ أُسِيء[1] وتُحسن أحسنُ فى الأُحْدُوثة من أن أُحْسِن فتسىء ؛ ولأن تعفوَ عنى على حالِ قدرتِك علىّ أجْمَلُ بك من الانتقام منى . فعفا عنه .

[عتبة وأعرابى]

قال سعد مولى عُتْبَة بن أبى سفيان : خطب عُتْبَة النـاسَ فى الوسم سـنة إحدى وأربعين ، والناسُ إذ ذاك حديثو عَهْدٍ بالفتنة ؛ فقال[2] : قد وَلِينا هذا المقام الذى يُضَاعَفُ فيـه للمحسن الأجْرُ ، وللمسىء الوِزْر ؛ ونحن على سبيل قَصْد ،

---

(١) فى س : نسىء .

(٢) الأمالى : ١ — ٢٣٦ ، العقد الفريد : ٢ — ١٥٩ ، البيان والتبيين : ٣ — ٢٣٠ .

فلا تمدُّوا الأعناقَ إلى غيرنا! فإنها تُقطَع دوننا، فربَّ مُتَمَنٍّ أمراً حَتْفُه فى أمنيته؛ فاقبلوا منا العافية ما قبِلْنَاها منكم ؛ وأنا أسأل الله أن يُعِين كلاًّ على كلّ .

فناداه أعرابىٌّ من ناحية المسجد : أيها الخليفة ، فقال : لستُ به ولم تُبْعِد . قال : يا أخاه. قال : سمعتُ فقل؛ فقال : والله لأنْ تحسنوا وقد أسأْنا خيرٌ من أن تُسيئوا وقد أحسنّا ؛ فإن كان الإحسان منكم فما أوْلاكم بإتمامه ، وإن كان منّا فما أوْلاكم بمكافأتنا عليه، وأنا رجلٌ من بنى عامر بن صعصعة يمتّ بالعمومة، ويختصُّ بالخؤولة، كَثُرَ عِيالُه ، ووَطِئه زمانُه ، [وبه فقر][1] وفيه أجْر ، وعنده شُكْر .

فقال له عتبة : أستغفر الله منك ، وأستعين به عليك ، وقد أمَرْتُ لك بغناك ، فليت إسراعى إليك يقوم بإبطائى عنك !

[الجاحظ يستعطف ابن الزيات]

قال الجاحظ : تشاغلتُ مع الحسن بن وَهْب أخى سليمان بن وهب بشُربِ النبيذ أياماً ، فطلبنى محمدُ بن عبد الملك لمؤانسته ، فأُخْبِر باتصال شُغْلى مع الحسن بن وهب، فتنكّر لى ، وتلوّن علىّ ؛ فكتبتُ إليه رقعة نسختها : أعاذك الله من سُوء الغضَب ، وعصَمَك مِن سَرَفِ الهوى، وصَرَف ما أعارَك من القوّة إلى حبّ الإنصاف، ورجّح فى قلبك إيثار الأناة ، فقد خِفْتُ — أيّدك الله — أن أكون عندك من المنسوبين إلى نَزَقِ السفهاء ، ومُجانَبة سُبُلِ الحكماء . وبعد ، فقد قال عبد الرحمن بن حسان ابن ثابت :

وإنّ امرأً أمسى وأصبح سالِماً ... من الناس إلّا ما جَنَى لَسَعِيدُ

وقال الآخر :

ومَنْ دعا الناس إلى ذَمّهِ ... ذَمُّوهُ بالحقّ وبالبَاطِلِ

فإن كنتُ اجترأْتُ عليك — أصلحك الله — فلم أجترئْ إلّا لأنّ دوامَ تغافلك

---

(١) زيادة من المرجع السابق .

عنى شبيهٌ بالإهمال الذى يُورِثُ الإغفال، والعفو المتتابع يؤمنُ مِنَ المكافأة، ولذلك قال عُيَينة بن حِصْن بن حذيفة لعثمان رحمه الله: عمر كان خيراً لى منك أرْهَبنى فأتْقَانى، وأعطانى فأغنانى ، فإن كنت لا تَهَبُ عقابى – أيدك الله – لخدْمةٍ فَهَبْه لأياديك عندى ؛ فإنّ النعمة تَشفع فى النِّقْمة[1] ، وإلّا تفعلْ ذلك لذلك فَعُدْ إلى حُسْن العادة، وإلّا فافعَلْ ذلك لحُسْن الأحدوثة ؛ وإلا فأتِ ما أنْتَ أهلُه من العفو دون ما أنا أهلُه من استحقاق العقوبة ، فسبحان مَن جعلك تَعفُو عن المتعمّد ، وتتجافى عن عقابَ المُصِرّ، حتى إذا صرت إلى مَنْ هَفْوَته ذِكْر ، وذَنْبه نسيان ، ومن لا يعرف الشكرَ إلّا لك . والإنعامَ إلّا منك ، هجمتَ عليه بالعقوبة . واعلم – أيّدك الله – أنّ شَيْن غضبك علىّ كزَيْن صَفْحِك عنى ، وأنّ موت ذِكْرى مع انقطاع سببى منك كحياةِ ذكرك مع اتصال سببى بك، واعلم أنّ لكَ فطنة عليم، وغَفْلَة كريم، والسلام.

[أعجب ما فى الإنسان]

قال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : أعْجَبُ ما فى الإنسان قَلْبُه ، وله موادّ من الحكمة ، وأضْدَاد من خِلَافها ؛ فإنْ سَنَح له الرجاء أذَلَّه الطمع ، وإن هاجه الطَّمَعُ أهلكه الحِرْص ، وإن مَلَكه اليأسُ قتله الأسَف ؛ وإن عرض له الغضَب اشتدّ به الغَيْظ، وإنْ أسْعِد بالرضا نَسِى التحفظ، وإن أتاه الخوفُ شغَلَه الحذَر، وإن اتّسع له الأمْن استلبته الغِرّة، وإن أصابته مصيبة فَضَحه الجَزَع ، وإن استفاد مالًا أطغاه الغِنَى ، وإنْ عضّته فاقةٌ بلغ به البلاء ، وإن جَهد به الجوعُ قعد به الضَّعْف ، وإن أفرط فى الشبع كَظَّتْه[2] البطْنَة . فكلُّ تقصيرٍ مُضِرٌّ ، وكلّ إفراطٍ له قاتِل .

* * *

استطراد فى النقد

البيت الذى أنشد الجاحظ لعبد الرحمن بن حسان فى أبيات يقول فيها :

متى ما يَرَى الناسُ الغنىَّ وجارُهُ ... فقيرٌ يقولوا : عاجزٌ وجَلِيدُ[3]

---

(١) فى س : فى النعمة . (٢) كظه الطعام : ملأه حتى لا يطيق النفس .

(٣) جليد : قوى شديد .

وليس الغِنَى والفقرُ من حيلةِ الفتى   ولكنْ أحاظٍ قُسِّمَتْ وجُدُودُ
وإنّ امرأً يُمسِي ويُصْبِحُ سالمًا   من الناسِ إلّا ما جَنَى لَسَعيد

والبيت الذي أنشده[1] بعده لمحمد بن حازم الباهلي في أبياتٍ يقول فيها :

إنْ كنتَ لا تَرْهَبُ ذَمّي لما   تعلمُ مِنْ صَفْحِي عن الجاهلِ
فاخْشَ سكوتي آذِنًا مُنْصِتا   فيك لمسموعِ خَنَى القائلِ
فسامعُ الشرِّ شَرِيكٌ لهُ   ومُطْعِمُ المأكولِ كالآكِلِ
مقالةُ السوءِ إلى أهلِها   أسْرَعُ مِنْ منحدرٍ سائلِ
ومَنْ دعا الناسَ إلى ذَمِّهِ   ذَمُّوه بالحقِّ وبالباطلِ
فلا تَهِجْ، إنْ كُنْتَ ذا إرْبةٍ[2]،   حَرْبَ أخي التجربةِ الغافلِ
فإنّ ذا العقلِ إذا هِجْتَهُ   هِجْتَ به ذا خَبَلٍ خابِلِ
تُبصِرُ به في عاجلِ شَدّاتهِ   عليك غِبَّ الضَّرَرِ الآجلِ

وفي ابن الزيات يقول الجاحظ[3] :

بَدَا حين أثْرَى لإخوانهِ   ففلَّلَ منهم[4] شَباةَ العَدَمْ
وأبصر كيف انتقالُ الزمانِ   فبادَرَ بالعُرْفِ قبل النَّدَمْ

[الجاحظ في مرضه]

قال بعضُ البرامكة[5]: كنتُ أتقلّدُ السِّنْدَ، فاتّصل بي أني صُرِفْتُ عنها، وكنتُ كسَبْتُ ثلاثين ألف دينار، فخِفْتُ أن يَفْجَأني الصارف، ويُسْعَى إليه بالمال، فصُغْتُه عشرة آلاف إهْليلَجَة في كل إهليلَجَة[6] ثلاثةُ مثاقيل، وجعلتها في رَحْلي، ولم أبعد أن جاء الصارف؛ فركِبْتُ البحرَ، وانحدرتُ إلى البصرة؛ فخُبِّرْتُ

(١) آخر صفحة ٤٩٥ . (٢) الإربة: الدهاء والعقل. (٣) المختار من شعر بشار: ١٩٦ .
(٤) في المختار : عنهم . وفلله : ثلمه . (٥) اللآلئ ١٩٨ .
(٦) الإهليلج : ثمر ، والواحدة بهاء ، ويظهر أنه صاغها على شكل هذا الثمر .

أن بها الجاحظ ، وأنه عليل ؛ فأحببت أن أراه قبل وفاته ، فصرتُ إليه ، فأفضيتُ إلى بابِ دارٍ لطيف ؛ فقرعْتُه فخرجت إليّ خادمٌ صفراء ، فقالت : مَنْ أنت ؟ فقلت : رجل غريب أحبّ أن يدخل إلى الشيخ فيُسَرّ بالنظرِ إليه . فأدّتْ[1] ما قلت ، وكانت المسافةُ قريبةً لصغر الدهليز والحجرة ، فسمعتُه يقول : قولي له : وما تصنعُ بشِقٍّ مائل ، ولُعابٍ سائل ، ولونٍ حائل[2] ؟ فأخبرتني . فقلت : لا بدّ من الوصول إليه . فقال : هذا رجل قد اجتاز بالبَصْرَة ، فسمع بي وبِعِلّتي ، فقال : أراه قبل موته ؛ لأقول : قد رأيت الجاحظ .

فدخلتُ فسلّمت فردّ ردًّا جميلا واستَدْناني ، وقال : مَنْ تكون ؟ أعزك الله ! فانتسبْتُ له ، فقال : رحم الله أباك وقومك الأسخياء الأجواد ، الكرام الأمجاد ، فلقد كانت أيامُهم رَوْضَ الأزمنة ، ولقد انجبر بهم خَلْق ، فسَقْياً لهم ورعياً ؛ فدعوتُ له ، وقلت : أنا أسألُ الشيخ أن يُنْشِدَني شيئاً من الشعر أذكره به ؛ فأنشدني :

لئن قُدِّمَتْ قبلي رجالٌ فطالما   مَشَيْتُ على رِسْلي فكنت المقدّما[3]
ولكنّ هذا الدهرَ تأتي صروفُه   فتُبْرِمُ منقوضاً وتنقضُ مُبْرَما

ثم نهضتُ ، فلما قاربتُ الدهليز صاح بي فقال : يافتى ؛ أرأيتَ مفلوجاً يَنْفَعُه الإهليلج ؟ فقلت : لا ، قال : فأنا ينفعني الإهليلج الذي معك ، فأنفذْ إليّ منه . فقلت : السمع والطاعة . وخرجت مُفْرِطَ التعجب من وقوعه على خَبَرِي ، حتى كأنّ بعضَ أحبابي كاتبه بخَبَرِي حين صُنْتُه ، فأنفذْتُ إليه مائة إهليلَجة .

مقامة من إنشاء البديع تتعلق بذكر الجاحظ

قال : حدثنا عيسى بن هشام قال[4] : جمعتني مع رُفْقَة وليمةٌ ، وأجَبْتُ إليها للحديث

---

(١) ق س : فردت .   (٢) حائل : متغير .   (٣) على رسلى : على مهل .
(٤) المقامات : ٧٩ .

المأثور فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو دُعِيتُ إلى كُرَاع[1] لأجبتُ ، ولو أُهْدِيَ إليّ ذراع لقبلت . فأفضى بنا السيرُ إلى دار قد فُرِش بساطُها ، وبُسِطت أنماطها ، ومُدّ سِمَاطُها ، وقوم قد أخذوا الوقت بين آسٍ مخضود[2] ، ووَرْدٍ منضود ، ودَنّ مَفْصود ، ونَاي وعُود ؛ فصِرْنا إليهم وصاروا إلينا ، ثم عكفنا على خِوَان قد مُلِئت حياضُه ، ونَوَّرَت رِياضُه ، واصطفت جِفَانُه ، واختلفت ألوانُه ؛ فمن حالكٍ بإزائه نَاصِع ، ومن قانٍ فى تلقائه فَاقِعٌ ، ومعنا على الطعام رجلٌ تُسَافِرُ يَدُه على الخِوَان ، وتَسْفِرُ بين الألوان ، وتأخذُ وجوهَ الرُّغفان ، وتَفْقَأ عيونَ الجِفَان ، وتَرْعَى أرضَ الجيران ؛ يَزْحَم اللُّقْمَة باللُّقْمَة ، ويهزمُ المَضْغَة بالمَضْغَة ، وهو مع ذلك ساكتٌ لا يَنْبِس ، ونحن فى الحديث نَجْرِى معه حتى وقفَ بنا على ذِكْرِ الجاحظ وخَطَابته ، ووَصْفِ ابن المقفّع وذَرابته ، ووافق أولُ الحديث آخرَ الخِوَان ، وزُلْنا عن ذلك المكان ، فقال الرجلُ : أين أنتم من الحديثِ الذى فيه كنتم ؟ فأخذْنا فى وَصْفِ الجاحظ ولَسَنِه ، وحُسْنِ سَنَنِه فى الفصاحة ، وسُنَنِه فيما عرفناه ؛ فقال : يا قومُ ؛ لكلٍّ عمل رجال ، ولكل مقام مَقَالٌ ، ولكل دارٍ سُكّان ، ولكل زمان جاحظ ، ولو انتقدتم لبطَلَ ما اعتقدتُمْ . فكلٌّ كشر له عن ناب الإنكار ، وشَمّ بأنفِ الإكبار ، وضَحِكتُ إليـه ، لأجلبَ ما لديْهِ ، وقلت : أفِدْنا وزِدْنا . فقال : إنّ الجاحظَ فى أحدِ شِقّى البلاغة يَقْطِف ؛ وفى الآخر يَقِف ، والبليغُ من لم يقصّر نظمُه عن نَثْرِه ، ولم يُزْرِ كلامُه بشعرِه ، فهل تَرْوُونَ للجاحظ شعراً رائعاً ؟ قلنا : لا . قال : فهلمّوا إلى كلامه ؛ فهو بعيدُ الإشارات ، قريبُ العبارات ، قليلُ الاستعارات ، منقادٌ لعريان الكلام يستعمله ، نَفُورٌ من مُعْتاصِه يُهْمِلُه ، فهل سمعتم له بكلمةٍ غيرِ مسموعة ؛ أو لفظة غير مصنوعة ؟ فقلت : لا ، فقال : هل تحبّ أن تَسْمَعَ من الكلام ما يخفّفُ عن مَنْكِبَيْك ، ويَنِمّ على ما فى يَدَيْك ؟ فقلت : إى والله . قال : فأطْلِق لى عن

(١) الكراع : فى البقر والغنم كالوظيف فى الفرس والبعير ، وهو مستدق الساق .

(٢) الآس : الريحان ، ومخضود : اتخذت منه أشكال للزينة فتجمع وتثنى من غير كسر .

خِنْصِرِكَ ما يعين على شكرك ، فأنلته ردائى فقال :

لَعَمْرُ الذى أَلْقَى إِلَىَّ ثِيابَهُ   لقد كسبت(1) تلك الثيابُ به مَجْدا
وقد قَمَرَتْهُ راحةُ الجودِ رِزْءةً(2)   فما ضربتْ قِدْحاً ولا نَصَبَتْ نَرْدا
أَعِدْ نظراً يا مَنْ كَسَانِى ثِيَابَهُ   ولا تَدَعِ الأيامَ تَهْدِمُنى هَدّا
وقل للأُلى إنْ أَسْفَرُوا أَسْفَرُوا ضُحًى   وإن طلعوا فى غُمَّةٍ طَلَعُوا وَرْدًا(3)
صِلُوا رَحِمَ العَلْيا وَبُلُّوا لَهاتَها   فَخَيْرُ النَّدَى ما سَحَّ وابِلُه نَقْدَا

قال عيسى بن هشام : فارتاحت الجماعةُ إليه ، وانثالت الصِّلاتُ عليه ، وقلت لما تَوانَسْنَا(4) : من أين مطلع هذا البدر ؟ فقال:

إسكندريةُ دَارِى   لو قَرَّ فيها قَرَارِى
لَكِنَّ ليلى بنَجْدٍ   وبالحجاز نَهَارِى

أردشير ورعيته

[من كلام الملوك]

تظلَّمت رعيَّة أردشير بن بابك إليه فى سنة مُجْدِبة لعَجْزِهم عن الخَراج ، وسألته أن يخفِّفه عنهم؛ فكتب لهم ما نسخته : من أردشير المؤيد بالبهاء ، ابن الملوك العظماء ، إلى الفقهاء الذين هم حَفَظَةُ البَيْضَة ، والكُتَّاب الذين هم سَاسَةُ المملكة ، وذوى الحرث الذين هم عمَرَة البلاد ، أما بَعْدُ ، فإنّا نحمدُ الله تعالى حَمْدَ الصالحين ، وقد وضعنا عن رَعيّتنا بفَضْلِ رأفتنا إتاوتنا(5) الموظفة عليهم سنتنا هذه ، ونحن كاتبون مع ذلك عليهم(6) بوصيَّة تنفعُ الكُلَّ: لا تستشعروا الحِقْدَ لئلا يَغْلِبَ عليكم العدوّ ، ولا تحتكروا الاحتكار لئلا يشملكم القَحْط ، وكونوا للغرباء مُؤْوِين ، لتؤووا غداً فى المعاد . وتزوَّجوا فى القرابة فإنه أخشنُ للرحم ، وأثبتُ للنَّسَبِ ، ولا تعدُّوا هـذه

(1) فى المقامات : حنيت . (2) فى المقامات : فى قرنه المكرمات رداءه .
(3) فى المقامات : سعدا . (4) فى المقامات : تآنسنا .
(5) الإتاوة : الخراج . (6) فى س : عليكم .

الدنيا شيئا فإنهـا لا تُبْقِى على أحد ، ولا تَرْفُضُوها مع ذلك ؛ فإن الآخرة لا تُنَالُ إلا بها .

وقيل لبزرجمهر : أيُّ الاكتساب أفضل ؟ قال : العلمُ والأدب كَنْزَانِ لا يَنْفَدان ، وسِراجانِ لا يُطْفَآن ، وحُلَّتان لا تَبْلَيَان ؛ مَنْ نالهما أصاب الرَّشادَ ، وعرَفَ طريق المَعَاد ، وعاش رفيعاً بين العِبَاد . أفضل الاكتساب لبزرجمهر

وقال أنو شروان لبزرجمهر لمـا ظفر به : الحمد لله الذى أظْفَرَنى بك . قال له : فكافِئْه بما يحبُّ كما أعطاك ما تحبّ . قال : وبِمَ أُكافِئه يافاسقُ ؟ قال : بالعفو عمَّنْ أظْفَرَك به اليوم ، كما تحب أنْ يعفوَ عنك غدا .

ونظيرُ هذا الكلام قد تقدّم لعلىّ رضى الله عنه .

وقيل لكسرى : أيُّ الملوك أفضل ؟ قال : الذى إذا حاوَرْته[1] وجَدْتَه عليما ، وإذا خبرْته وجدتَه حكيما ، وإذا أغضب كان حليما ، وإذا ظفر كان كريما ، وإذا استمنح منح جسيما ، وإذا وعدَ وفى ، وإن كان الوعد عظيما ، وإذا شُكِى إليه وُجِد رحيما . أفضل الملوك لكسرى

[من رسائل الميكالى] .

كتب الأمير أبو الفضل الميكالى إلى أبى منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبى[2] : كتابى وأنا أشكو إليك شَوْقاً لو عالجه الأعرابى لما صَبَا إلى رَمْل عالج ، أو كابده الخَلِىُّ لا نْثَنَى على كَبِدٍ ذات حُرَق ولَوَاعِج ؛ وأذمُّ زماناً يفرِّقُ فلا يحسن جمعاً ، ويخرق فلا ينوى رَقْعا ، ويُوجِعُ القلب بتفريق شَمْلِ ذوى الوِدَاد ، ثم يبخلُ عليهم[3] بما يَشْفِى الصدور والأكْبَاد ؛ قاسِى القلبِ فلا يلينُ لاستعطاف ، جائرُ الحُكْمِ فلا يميلُ إلى إنصاف ، وكم أستَعْدِى على صَرْفِه وأستَنْجِد ، وأتلظّى غيظا عليه ، وأنشد : من الميكالى إلى الثعالبى

---

(١) ق ط : حاورته . (٢) يتيمة الدهر ٤ — ١٣٣٩ . (٣) ق ق ، س : يبخل علينا .

متى وعسى يَثْنى الزمانُ عِنانَه ... بِعَثْرَة حالٍ والزّمانُ عَثُورُ

فتُدْرَكَ آمالٌ وتُقْضَى مآرِبٌ ... وتَحدُثُ من بعد الأُمور أُمُورُ

وكَلّا ، فما على الدهر عَتْبٌ ، ولا له على أهْلِه ذَنْبٌ ؛ وإنما هى أقدار تَجْرِى كما شاء مُجْرِيها ، وتَنفُذُ كالسهام إلى مَرَامِيها ؛ فهى تَدورُ بالمكروه والمحبوب ، على الحُكْمِ المقدور المكتوب ، لا على شهواتِ النفوس وإرادات القلوب ؛ وإذا أراد اللهُ تعالى أذِنَ فى تقريب البعيد النازح ، وتَسْهيلِ الصَّعْبِ الجامح ، فيعود الأُنْسُ بلقاء الإخوان كأنْ لم يَزَلْ معهوداً ، ويجدّد للمذاكرة والمؤانسة رسوماً وعُهوداً ؛ إنه المليُّ به ، والقادرُ عليه .

من الميكالى إلى أبيه

وله إلى أبيه : لو مَلَكْتُ عِنانَ اختيارى ، وأسْعَفنى ببعض ما أقْتَرِحُه القَدَرُ الجارى ، لما غِبْتُ عن حضرته آنسها اللهُ ساعةً من دهرى ، كما لا أعُدّ ساعاتِ بُعْدِى عنها ، وإخلائى لبابها من أيّام عُمْرِى ؛ ولكنت أبداً ماثِلاً بها فى زُمْرَة الخَدَمِ والعبيد ، جامعاً بها بين حاشيتى العزّ المديد ، والشَّرَفِ المتيد ؛ لاسيما فى هذا الوقت وقد أشْرَقَتِ البلادُ بنور طَلْعَتِهِ التى هى فى ظُلْمَة الدهر صَباح ، وعزّ مطالعته التى فيها لصدور ذوى الشنأ شجاً ، ولزَنْدِ الآمال اقتداح ، ومعاودة ظلّه التى أضْحَتْ الشمسُ مِنْ حسّاده ، والزمانُ من عَدَدِ ساكنيه وعَتاده ، إلا أنّ الحريص — كما علمه مولانا — مُخلّى عن أعذب موارده ، وممنوعٌ بالعوائق عن أكرم مَطالِبه ومَقاصِده .

الميكالى إلى بعض إخوانه

وله يستفتح مكاتبة بعض إخوانه :

أنا وإن لم تتقدّمْ بينى وبينه المكاتَبَةُ ، وعادةُ المساجَلَة والمفاوضة ، من فَرْطِ حِرْصِى على افتتاحِها وتَعاطيها ؛ واعتراض العوائق دون المراد والغَرَضِ فيها ، فإنّ قلبى بودّه مَعْمُور ، وضميرى على مُصافاته مقصور ، فاعتدادُه لفضائله التى أصبح فيها أوْحَدِىّ العِنان ، وزاحم فيها مَناكِبَ العَنان[1] ، واستأثر فيها بالغُرَرِ والأوْضاح ،

---

(١) العنان بالفتح : السحاب .

ما أوفى بها على غُرَّةِ الصباح، حتى تشاهدَتْ بها ضمائرُ القلوب، وتهادَتْ أنباءها ألسنةُ البعيد والقريب، اعتدادَ من يَجْمَعُ بالاعتداد لها بين شهادةِ قلبه ولسانه، ومَنْ ينظم في إجلالِ قَدْرِها صفقــةَ إسرارِه وإعلانه، فهو يتنسَّمُ الريحَ إذا هبَّتْ من ناحيته شوقا ونزاعا، ويَسْتَمْلى الوارد والصادرَ خبرَ سلامته انصياعا بالودِّ إليه وانقطاعا.

من كلام الميكالي في رسائل شتى

شذور من كلامه في أثناء رسائل شتى: أياديه التي غمرتني سِجَالُها، واتَّسع عندي مَجَالُها، وأعيَا شكرى عَفْوها وانثيالها، تناولت فيها المُنَى دانيةَ القطوف، واجتليت أنوار العيش مأمونةَ الكسوف، ليس يكادُ يبرد غليلُ شوقي وحنيني، أو ترجع نافرةُ أنسي وسكوني، أو تَخْلُو من الاهتمام والفكرة فيه خواطري وظنوني، إلا بالتقاء يدنو أمدُه، ويَقْرُبُ مَوْعِدُه، وتعلو على الفراق يَدُه، فتعاودِ العيشَ طَلْقاً غزيراً، ونجتنى ثمرَ المُنَى غضًّا نضيراً، ونَجْتَلى وجهَ الزمان مُشْرقا منيراً. فوائده لها عندي أثرُ الغَمام أو أنفع، ومحلُّ السِّمَاكِ أو أرفع. حالي في مفارقة حَضْرَتِه حالُ بنات الماء، قد نَضَب عنها الغديرِ، وبناتِ الأرض أخطأها النَّوْءُ المطيرُ. لهفي على دهر الحداثة إذ غُصْنُ شبابي غضٌ وَريق، ونُقْلُ شرابي عضٌّ وريق. كلامٌ أحلى من رِيق النحل، وأشفَى من رَيق الوبل. من تسوَّد قبل وقته وآلته فقد تعرَّض لِمَقْتِه وإذالته. نظمُه له:

إن مَنْ يلتمس السُّؤْ … دَدَ بلا وَقْتٍ وآلَه
لحقيق أنْ يُلَقَّى … كل مَقْتٍ وإذاله

الشكلُ للكِتاب، كالحلى للكعاب. لو كان الشبابُ فِضَّة لكان الشيبُ له خبثاً. النعمةعروسٌ مَهرُها الشكر، وثوبٌ صَوْنُه النَّشر. الخضاب تذكرة الشباب. لا تقاسُ الهاوى بالمَرَاقِ، ولا الأقــدام بالتَّراق[1]، ولا البحورُ بالسواق. كم أبلاني من عُرْفٍ جزيل لا يُبْلى الدهرُ جِدَّة رِدَائه، وقضاني من دَيْن تأميل

---

(١) الترقوة: مقدم الحلق في أعلى الصدر.

لا يَقْضِي الشكرُ حقَّ نعمائه . الشكر للنعمة نتاج ، والكُفْرَان لها رِتاج ، وكلما زدت النعمةَ شكراً ، زادت طيباً ونَشْراً .

قطعة من شعره فى تجنيس القوافى

قال فى أبيه :

مبتدعاً فى شمائل المجدِ خِيماً[1] … ما اهتدَيْنا لأَخْذِه واقتباسِهْ
فهو فظٌّ بالمـالِ وقت نداهُ … وجَوادٌ بالعفو فى وَقْتِ باسِهْ

وقال فيه :

إذا ما جادَ بالأموال تَنَّى … ولم تُدْرِكْهُ فى الجودِ الندامَة
وإن هَجَسَتْ خواطرُه بجَمْعٍ … لرَيْبِ حوادثٍ قال الندى مَهْ[2]

وقال فيه :

ولما تنازع صَرْفُ الزمان … فزِعْنا إلى سيبِه نَابِهِ
إذا كشَّرَ الدهرُ عن نابِه … كشفْنا الحوادثَ عنّا بِهِ

وقال فيه :

إنْ نابنا خَطْبٌ فآراؤُهُ … تُغْنى عن الجيشِ وتَسْرِيبِه
وإن دَجَا ليلٌ بَدَا نورُهُ … للرَّكْبِ تَجْماً فهو يَسْرِى بِهِ

وقال يفتخر :

وكم حاسدٍ لى انبَرى فانثَنى … لِغُصَّة نَفْسٍ شَجَاها شَجَاها[3]
ومن أينَ يَسْمُو لنَيْلِ العُلا … وما رَبَّ مالًا ولا رَاشَ[4] جَاهَا

---

(١) الخيم : السجية والطبيعة . (٢) مه : اسم فعل بمعنى اكفف .

(٣) شجاه : حزنه وطربه . والشجا : ما اعترض فى الحلق من عظم ونحوه . وفى س : لقصة .

(٤) راش السهم : ألزق عليه الريش . وراش : جمع المال .

ومنها قوله :

وسائلةٍ تُسائِلُ عن فعالى ... وعمّا حازَ فى الدنيا جَمَالى
فقلت إلى المعالى حَنَّ قلبى ... وفى سُبُلِ المكارمِ لجَّ مَالِى
وللعلياء نَهْجٌ مستقيمٌ ... فمالى تارِكًا ذَا النَّهجِ مالِى
إذا أسرجْتُ فى فَخْرٍ سَمَابى ... فَمالى والنِّجَارُ[1] فَالْجَمالى

وقال فى نوع من هذا الجنس :

ومن يَسْرِ فوقَ الأرضِ يطلبُ غايةً ... من المجد يَسْرِى فوق جُمْجُمَةِ النَّسْرِ
ومن يختلفْ فى العالمين نِجارُهُ ... فإنّا من العلياء نَجْرِى على نَجْرِ[1]
ومن يتّجرْ فى المال يَكسب ربحهُ ... فبالمال نَشْرِى رابحَ الحَمْدِ والنَّشْرِ[2]

***

البستى ينحو نحو الميكالى

وعلى نحو هذا الحَذْوِ يقول أبو الفتح البستى :

أبا العباس لا تحسب بأنى ... لشىء من حُلَى الأشْعارِ عارِ
ولى طَبْعٌ كسَلْسَالٍ الجارِى ... زُلَالٌ من ذُرَا[3] الأحجارِ جارى
إذا ما أكْبَتِ الأدوارُ زَنْداً ... فلِى زَنْدٌ على الأدْوَارِ وَارِى

وقال أبو الفتح البستى أيضاً[4] :

بسَيْفِ الدولةِ اتّسقَتْ أُمورٌ ... رأيناها مُبَدّدةَ النِّظَامِ
سَمَا وحَمَى بنى سامٍ وحَامٍ ... فليس كمثلِه سامٍ وحامٍ

[واجب الحاجب]

قال بعضُ الملوكِ لحاجبه : إنك عينى التى أنظرُ بها ، وجُنّتى التى أستنيم إليها ؛ وقد وليّتُك بابى ، فما تراكَ صانعاً برعيّتى ؟

(١) النجار والنجر : الأصل . (٢) ق ق : النثر . (٣) ذرا الشىء : أعاليه .
(٤) يتيمة الدهر ٤ — ٢٩٧ .

قال : أنظر إليهم بعينك ، وأحلهم على قَدْرِ منازلهم عندك ، وأَنْصِفهم لك ، في إبطائهم عن بابك ولزومهم خِدْمتك ، مواضعَ استحقاقهم ، ورَتِّبهم حيث جعلهم ترتيبك ، وأَحْسِنْ إبلاغَهم عنك .

قال : قد وَفَّيْتَ بما عليك قولا إن وَفَّيْتَ به فعــلا ؛ والله وليّ كفايتك ومعونتك .

المهدى والفضل ابن الربيع

قال المهدى للفضل بن الربيع : إنى قد وَلَّيتُك سَتْرَ وجهى وكَشْفَه ، فلا تجعل السّتر بينى وبين خواصّى سبباً لِضِغْنهم بقُبْح رَدِّك ، وعُبُوسِ وَجْهك ؛ وقدّم أبناء الدعوة؛ فإنهم أَوْلَى بالتقديم ، وثَنِّ بالأولياء ، واجعل للعامة وَقْتاً إذا دخلوا أعجَلَهُمْ ضِيقه عن التلبُّث ، وسَرَّحَهُم عن التمكُّث .

الحسن بن سهل فى ذلك

وقال الحسنُ بن سهل : إذا كان الملك محتجباً عن الرعيّة ، ولم يُنزل الوزير نفسه منزلةً تكون وسائلُ الناس إليه أنفسهم واستحقاقهم دون الشفاعات والحرمات ، حتى يختصّ الفاضلَ دون المفضول ، ويرتّب الناسَ على أقدارهم وأوزانهم ومعرفتهم ، امتزج التدبير[1] ، واختلَّت الأمور ، ولم يميّز بين الصــدور والأعجاز ، والنواصى والأذناب ، وكان الناسُ فوضى ، ووَهَتْ أسبابُ المُلْك ، وانتقَضَتْ مَرَائِرُه[2] ، وشاعت سرائره ، وإنّ أقْرَبَ ما أرجو به صلاحَ ما أتولّاه اسْتِماعى من المتوسّمين بأنفسهم ، المتوسّلين بأفهامهم ، المتوسّلين بكفايتهم ، وابتذالُ نفسى لهم ، وصبرى عليهم ، وتصفُّحى ما توسّلوا به وانتحلوه : من العقول والآداب ، والحماية والكفاية ؛ فمَنْ ثبتت له دَعْواه أنزلتُه تلك المَنْزِلة ، ولم أتحيَّفه حقّه ، ولا نَقَصْتُه حَظّه ، ومن قَصّر عما ادّعى كانت منزلتُه منزلَةَ المُقَصّرين ، ولم أُخيّب أمَلَه من مقدارِ ما يستحقه .

لبعض البلغاء

وقال بعضُ البلغاء : إذا أسْدَل الوالى على نفسه سِتْر الحِجاب ، وَهَى عَمُودُ

---

(١) جواب إذا فى أول الرسالة .   (٢) المريرة : الحبل الشديد الفتل ، والجمع مرائر .

تدبيره ، واسترخت عليه حائلُ الحَزْمِ ، وازدلفتْ إليه وفودُ الندمِ ، وتولَّى عنه رشد الرَّاجي ، ونال أمورَه خَلَلُ الانتشار ، وآفةُ الإهمال ، وتسرَّع إليه العائبون بلواذع ألسنتهم ودَبيب قوارضهم .

حاجب لئيم الطبيعة

وحُجِب سعيد بن عبد الملك عن عبيد الله بن سليمان فكتب إليه : سِرْتُ إلى بابك ـ أعزَّك اللهُ ـ عندما حدث من أمرك ، فلم يُقْضَ لقاؤك ، وعلمت أنَّ ثقتك بمـا عندى قد مثَّلَتْ لك حالِي من السرور بنعمةِ اللهِ عندك ، وأَرَتْكَ موضعي من الاعتداد بكل ما خَصَّك ووصَل إليك ، فوكلت العُذْرَ إلى ذلك . ثم إنّا نأتيك متيمِّنين بطلْعَتك ، مشتاقين إلى رؤيتك ، فيحجبنا عنك مُلاحظ . وهو كما علمت زَنيم[1] الصنيعة ، لَئِيم الطبيعة ، يحْجُبُ عنك الكِرَام ، ويأْذَنُ عليك لِلّئام ، كلما نجمتْ له يدٌ بيضاء أتبعها يدا سوداء ؛ فإن رأيت ـ أعزَّك الله ـ أن تصرفَه عن باب مكارمك فعلت ، إن شاء الله .

حاجب نافع

وقال أبو السمط بن أبي حفصة :

فتًى لا يُبالِي الدَّلْجُونَ[2] بنُورِهِ ... إلى بابِه ألّا تُضِيءَ الكواكبُ

له حاجبٌ في كلِّ خَيْرٍ يُعِينهُ ... وليس له عن طالبِ العُرْفِ حاجِبُ

* * *

استطراد في النقد

أخذ البيت الأول من قول جده مرْوان بن أبي حفصة الأكبر :

إلى المصطفى المهديِّ خاضَتْ رِكابُنا ... دُجَى الليل يخبِطْنَ السَّريحَ المُخَدَّما[3]

يكون لها نورُ الإمامِ محمدٍ ... دَليلاً به تَسْرِى إذا الليل أظْلَمَا

وقال إدريس بن أبي حفصة ـ وذكر إبلا :

لها أمامك نورٌ تَسْتَضِيءُ بهِ ... ومِنْ رَجائك في أعْناقِها حَادِى

---

(١) الزنيم : الدعى . وفي س : كز ، وفي ق : كن . (٢) أدلج : سار من أول الليل . (٣) المخدمة : السير الغليظ المحكم مثل الحلقة يشد في رسغ البعير . قال الأعشى : وطايفن مشيا في السريح المخدم ـ اللسان : مادة خدم . وفي ط : السريح .

لهـا أحاديث من ذِكْرَاك تَشْغَلُها ... عن الشُّرْبِ وتُلْهيها عن الزَّادِ

وأصله قول عمرو بن شأس الأسدى(١) :

إذا نحنُ أدْلَجْنَا وأنْتَ أمَامنا ... كَفى لمطايَانَا بوَجْهك هَادِيا

أليس يَزِيد العِيسَ خِفّةَ أذْرُعٍ ، ... وإنْ كُنَّ حَسْرَى(٢)، أنْ تَكُونَ أماميا

وقال بعض أهل العصر :

وليل وَصَلْنَا بين قُطْرَيه بالسُّرى ... وقد جَدَّ شوقٌ مُطْمِعٌ فى وصالكِ

أَرَبَّت علينا من دُجَاهُ حَنَادِس(٣) ... أعَدْن الطريق النَّهْجَ وَعْرَ المَسَالكِ

فناديتُ يا أسماء، باسمك ، فانْجَلت ... وأسْفَرَ منها كلُّ أسودَ حَالكِ

بنا أنت من هادٍ نَجَوْنَا بذكرهِ ... وقد نَشِبَتْ فينا أكُفُّ المهالكِ

منحتك إخلاصى وأصْفَيْتُك الهوى ... وإن كنت لمَّا تُخْطِرِينى ببالِكِ

وقال القُطامى :

ذكرتكم لَيْلًا فنوَّر ذِكْرُكم ... دُجَى الليل حتى انجابَ عَنْه دَياجرُه(٤)

فوالله ما أدرى أضَوْءُ مُسَجَّرٍ(٥) ... لذِكْرَاكمُ أم يَسْجُر الليلَ سَاجِرُه

وقال القينى :

وإنى من القوم الذين هُمُ هُمُ ... إذا مات منهم سيدٌ قام صَاحِبُه

نجوم سماء كلما انقضَّ كوكبٌ ... بدَا كَوْكَبٌ تأوى إليه كواكبُه

أضاءت لهم أحسابُهم ووجوهُهم ... دُجَى الليل حتى نَظَّمَ الجَزْعَ ثَاقِبُه(٦)

وقال الحطيئة :

نَمْشِى على ضَوْءِ أحْسَابٍ أضَأْنَ لنا ... كما أضاءت نجومُ اللّيْلِ للسَّارى

وقد ردّده فى موضع آخر فقال :

---

(١) اللآلى، ٨٢٦ . (٢) حسرى : متعبات . (٣) أربّ : زاد ولزم وأقام .
والحنادس : جمع حندس : الظلمة . (٤) الدياجر : الظلمات . وفى س : يسحر الليل ساحره .
(٥) المسجر : المرسل . (٦) الجزع : الخرز اليمانى .

هم القوم الذين إذا ألمّتْ ... منَ الأيامِ مُظلمةٌ أضاءوا

وكلام القاسم بن حنبل المرّى من هذا ، حيث يقول :

من البِيض الوجوه بَنى سِنانٍ ... لوَ أنّك تستضيء بهم أضاءوا
فلوْ أنّ السماءَ دَنَتْ لمَجْدٍ ... ومَكْرُمةٍ دَنَتْ لهمُ السّماء
همُ حازُوا من الشّرفِ المعلّى ... ومن كَرَم العشيرة حَيثُ شاءوا

وقال بعض المتقدّمين :

إذا أشرقَتْ فى جُنْحِ ليل وجوهُهم ... كَفَوْا خابِطَ الظلماء فَقْدَ المَصابحِ
وإنْ نَابَ خَطْبٌ أو ألمّتْ مُلِمّةٌ ... فكم[1] ثمّ مِنْ آسى جِراحٍ وجارِحِ

وقال أبو البديل الوضاح بن محمد التيمى فى المستعين :

وقائلةٍ والليلُ قد نَشَرَ الدُّجى ... فغطّى بها ما بين سَهْلٍ وقَرْدَدِ[2]
أرى بارقاً يَبْدُو من الجَوْسَقِ[3] الذى ... به حلّ مِيرَاثُ النبىّ محمدِ
أضاءت لهُ الآفاقُ حتى كأنما ... رأينا بنصفِ الليلِ نُورَ ضُحى غدِ
فظلّ عَذَارَى الحىّ ينظمن تحته ... سُلوكا من الجَزْعِ الّذى لم يُسَرّدِ[4]
فقلت : هو البَدْرُ الذى تعرفونهُ ... وإلا يَكُنْ فالنُّورُ من وَجْهِ أحمد

[حث الاشتياق]

وقال عُمَرَ بن عبـــد الله بن أبى ربيعة فى معنى قول عَمْرو بن شاس فى حثّ الاشتياق[5]:

خليلىّ ما بالُ المطايا كأنما ... نَرَاها على الأعْقَابِ بالقَوْمِ تَنْكُصُ[6]
فقد أتْعَبَ الحادِى سُراهُنّ وانْحَى ... بِهِنّ ، فما بَالُوا ، عَجولٌ مقلّصُ[7]

---

(١) فى س ، ق : ثمّ .   (٢) القردد : ماارتفع من الأرض .
(٣) الجوسق : القصر .   (٤) لم يسرد : لم يثقب .   (٥) الأغانى ١ — ١١٣ .
(٦) تنكص : ترجع وتولى وتحجم .   (٧) فى الأغانى : وانتحى بهن فما بالو .
والمقلص : الجاد فى السير .

وقد . قطَّعت أعناقهنّ صَبَابَةً   فأعْيُنُهَا ممــا تكلَّفُ تَشْخَصُ[1]

يَزِدْنَ بنــا قُرْبًا فيَزدادُ شَوْقُنَا   إذا ازدادَ قُرْبُ الدارِ والبُعد يَنْقُصُ

وقال بعض الرجاز وذكر إبلا[2]:

إنّ لهــا لسائقًا خَدلَّجا   لم يُدْلِج الليلةَ فيمَنْ أدْلَجا

يريد امرأة يحبها فيحثّه ما يجدُه من الشوق على إجهاد مطاياه بالسوق . كما أنشد

إسحاق الموصلى :

صبّ يحثُّ مطاياهُ بذكركُمُ   وليس يَنْسَاكُمُ إنْ حَلَّ أو سارَا

لو يستطيعُ طَوَى الأيامَ نحوكُمُ   حتى يبيعَ بعُمْرِ القُرْبِ أعمارا

يَرْجُو النَّجاةَ من البلوى بقربكُمُ ،   والقربُ يُلهِبُ فى أحشائه نارَا

هــذا البيت يناسب أبيات ابن أبى ربيعة . يقول : كلما دنا ازدادَ حِرْصًا على

• اللقاء .

وشَخَصَ إسحاقُ الموصلى إلى الواثق بسُرَّ مَنْ رأى ، وأهْلُهُ ببغداد فتصيَّد

الواثق وهو معه إلى نواحى عُكْبَرَاء ، فلما قرب من بغداد قال[3] :

طربتَ إلى الأُصَيْبِيَةِ الصِّغار   وهاجَكَ[4] منهمُ قُرْبُ المَزَارِ

وكلّ مسافر[5] يَزْدَاد شوقًا   إذَا دَنَتِ الديارُ من الدِّيَارِ

ولحَّنه وغنَّاه الواثق ، فاستحسنه وأطربه ، فصرفه إلى بغداد على ما أحَبّ ، وكان

إسحاق قال أولا :

وكلُّ مسافرٍ يَشْتَاقُ يومًا   إذا دَنَتِ الديارُ من الديار

فعابوا قوله «يومًا» ، وقالوا : هى لفظة قَلِقة فى هذا الموضع ، لم تحلّ بمركزها ،

---

(١) الأغانى: * فأنفسنا مما يلاقين شخص *

(٢) اللسان — مادة خدلج ، اللآلى — ذيل : ٥٣ .

(٣) الأغانى : ٩ — ٢٨٥ ، اللآلى : ٢٠٩ . (٤) فى الأغانى : وشاقك .

(٥) فى الأغانى : مفارق .

ولا لها هنا موقع . قال : فضَعُوا مكانها مِثْلَها لا خيراً منها . فما استطاعوا ذلك ، فغيّرها إلى ما أنشدت أولا .

وقال أبو نواس :

أمّا الدّيارُ فقلما لَبِثوا بها ... بين اشتياقِ العِيسِ والرّكبانِ
وضعوا سياطَ الشّوْقِ فوقَ رقابِها ... حتى طَلَعْنَ بها على الأوْطانِ

وقال مَخلَد بن بكّار الموصلي :

أقُولُ لِنِضْوٍ أنْفَدَ السّيْرُ نَيَّهَا ... ولم يُبْقِ منها غيْرَ عَظْمٍ مجلّدِ[(1)]
خِدِى[(2)] بى ابتلاكِ اللهُ بالشّوْقِ والهوَى ... وشاقَكِ تَحْنَانُ الحَمَامِ المُغَرِّدِ
فَرَنَّتْ سريعا خَوْفَ دَعْوَةِ عاشِقٍ ... تَشُقُّ بِىَ الْمَوْمَاةَ فى كلِّ فَدْفَدِ[(3)]
فلما وَنَتْ فى السير ثَنَّيْتُ دَعْوَتى ... فكانت لها سَوْطاً إلى ضَحْوَةِ الْغَدِ

وكان مخلد حلو الطّبع ، وهو القائلُ يمدحُ رجلا :

يَطْلُعُ النّجْمُ على صَعْدَتِهِ ... فإذا واجَهَ نحراً أفَلا
مَعْشَرٌ إنْ ظَمِئَتْ أرماحهُم ... أوْرَدُوهنّ مُجَاجاتِ الطُّلَى[(4)]
تَحْسُنُ الألوانُ منهم فى الوَغَى ... حين تُستنكر للرُّعْبِ الحُلَى
سُخط عبد الله يُدْنِى الأجلا ... ورِضَاهُ يَتَعَدّى الأمَلا
يُعْشِب الصَّلْدُ إذا سالمهُ ... وإذا حارَب رَوْضاً أمْحَلا
[مَلِكٌ لو نُشِرت آلاؤه ... وأياديه على الليل انجلى][(5)]
حَلّ بالبأسِ ابنُ عَمْرو منزلًا ... طال حتى قَصُرَتْ فيه المَلا
حَطّ رَحْلِى فى ذَرَاه جُودهُ ... وتمشّى فى نَدَاهُ الخَيْزَلَى[(6)]

(١) النضو : المهزول من الإبل . والنى : الشحم . (٢) خدى : أسرعى .
(٣) الفدفد : الفلاة . (٤) الأعناق أو أصولها . أو هى الطلا بالفتح : الدم .
(٥) من س . (٦) الخيزلى : مشية فى تثاقل .

[الخط الجيد]

سُئِل بعضُ الكتاب[1] عن الخطِّ متى يستحقُّ أن يوصَفَ بالجودة ؟ فقال : إذا اعتدلَتْ أقسامُه ، وطالت أَلِفُه ولامُه ، واستقامت سطورُه ، وضَاهَى صعودَه حُدُورُه ، وتفتَّحَتْ عيونُه ، ولم تشتبه رَاؤه ونونُه ، وأشْرَق قِرْطَاسُه ، وأظلمت أنْقاسُه[2] ، ولم تختلف أجْناسُه ، وأسرع إلى العيون تصوُّرُه ، وإلى العقول تَثَمُّرُه[3] ، وقدِّرت فصولُه ، واندَمَجَتْ وُصُولُه ، وتناسب دقيقُه وجَلِيلُه ، وخرج من نَمَطِ الورَّاقين ، وبَعُدَ عن تصنُّعِ المحررين ؛ وقام لصاحبه مقام النسبة والحِلْيَة ، كان حينئذ كما قال صاحب هذا الوصف في صفة خط[4] :

إذا ما تجلل قِرْطَاسَهُ … وساوَرَه القلمُ الأرْقَشُ
تَضَمَّنَ مِنْ خَطِّهِ حُلَّةً … كنَقْشِ الدنانيرِ ، بَلْ أنْقَشُ
حروف تُعيدُ لعين الكَلِيل … نشاطا ويقرؤها الأخْفَش

قال أبو هفّــان[5] : سألت ورَّاقا عن حاله ، فقال : عيشي أضْيق من مَحْبَرةٍ ، وجسمي أدقّ من مِسْطرة ، وجاهي أرقُّ من الزجاج ، ووَجْهي عند الناس أشدّ سوادا من الحبر بالزّاج ، وحظّي أخْفى من شقّ القلم ، ويَدَاى أضْعَف من قَصَبَة ، وطعَامى أمرّ من العَفْص ؛ وشَرَابى أحمر[6] من الحبر ، وسوء الحال ألزمُ لي من الصّمْغ ! فقلت له : عبَّرْتَ عن بلاء ببلاء ؟

وقال الحدوني :

ثِنْتَانِ مِنْ أدَوَاتِ العِلْم قد تَنَتَا … عِنانَ شَأْوى عما رُمْتُ مِنْ هِمَمى
أمَّا الدَّواةُ فأدْمَى جرْمُها جَسَدِى … وقلّمَ الحظّ تحريفٌ مِنَ القَلَمِ

---

(١) النويرى : ٧ — ١٤ . (٢) جمع نقس : المداد ، وفي كل الأصول : أنفاسه .
(٣) في النويرى : ثمره . (٤) ديوان المعانى ٧٦ . (٥) ديوان المعانى ٨٢ .
(٦) في ديوان المعانى : أسود .

وجَرَّتْ لي صُحُفَ الحُرْفِ مَحْبَرَةٌ تَذُودُ عنّي سَوَامَ المالِ والنَّعَمِ
والعِلْمُ يَعْلَمُ أنّي حِينَ آخُذُهُ لمعصمي نافِرٌ خِلْوٌ من العِصَمِ

وللحمدونى فى الحرفة أشعار مستطرَفة ، وكان مليحَ الافتنان ، حُلْوَ التصرّف ؛ والحمدونى وهو إسماعيل بن إبراهيم بن حَمْدَويه ، وحمدويه جدّه ، وهو صاحبُ الزنادقة فى أيام الرشيد ، والحمدونى القائل :

مَنْ كان فى الدنيا له شارَةٌ فنحْنُ مِنْ نَظّارةِ الدينـا
نَرْمُقُها مِنْ كَثَبٍ حَسْرَةً كأننا لَفْظٌ بلا مَعْنَى

وقال :

قد قُلْتُ إذْ خرجوا لـكى يستَمْطِروا لاتقنَطوا واستمطِرُوا بثيـابى
لو فى حُزَيرانٍ[1] هممْتُ بغَسْلِها غَطَّى ضياءَ الشمس جوُّ سَحابِ
فـكأنها العبـاسُ يستَسْقى به عمرٌ فيرويهم دُعاء مُجابِ

[حرفة الأدب]

وقال آخر فى المعنى الأول :

لـمـا أجدْتُ حروفَ الخطِّ حرّفنى عن كل حظٍّ وجاءت حِرْفَةُ الأدبِ
أقْوَتْ منازلُ مالى حين وَطّنَها مخيِّمًا سَقَطُ الأقلامِ والـكُتُبِ

وقال أبو يعقوب الخريمى :

ما ازْدَدْتُ فى أدَبى حَرْفًا أُسَرُّ به إلا تَزَيّد حَرْفًا تحتـه شُومُ
كذاك من يَدّعى حِذْقًا بِصَنْعَتِه أنّى توجّهَ فيهـا فهوَ محرُومُ

ولما قتل المقتدر أبا العباس بن المعتز ، وزعم أنه مات حَتْفَ أنفِه قال على بن محمد ابن بسام :

---

(١) حزيران : اسم شهر بالرومية .

لله درُّكَ مِنْ مَيْتٍ بِمَضْيَعَةٍ ناهيك في العلم والآداب والحسبِ
ما فيه لَوٌّ ولا لَيْتٌ فينقصه وإنما أدركته حِرْفَةُ الأدبِ

[أرزاق الحمقى والعقلاء]

قال ابن الرومي :

ياليت أهلَ البيتِ إذْ حُرِموا عُصِموا من الشهوات والفِتَنِ
لكنهم حُرِموا وما عُصِموا فقلوبهم مَرْضَى من الحَزَنِ
وهُمُ أَطَبُّ على بَلِيَّتِهِمْ من غيرهم بِمَضَاضَةِ[1] الشَّجَنِ

وقال جعفر بن محمد : إن الله وسَّع أرزاقَ الحَمْقَى ليعتبرَ العقلاء ، ويعلموا أنَّ الدنيا لا يُنَالُ ما فيها بِعَقْلٍ ولا حِيلة ؛ ألا إن كسبَ المال بالحظِّ ، وحِفْظَه بالعقل .

قال إبراهيم بن سيَّار النظام : الذهبُ لئيم ؛ لأنَّ الشكلَ يصيرُ إلى شَكْلِه ، وهو عند اللئام أكْثَرُ منه عند الكرام . قال المتنبي ــ وأخذ هذا المعنى[2] :

وشِبْهُ الشيء مُنْجَذِبٌ إليْهِ وأشْبَهُنَا بِدُنْيَانَا الطَّغَامُ

النظام وكان النظام له نظرٌ بوجوه التصرف ، وكان السلطان يَصِلُه بالكثير ، وكان محظوظا ؛ فإذا اجتمع له مالٌ حَبَس لنفسه بُلْغَةً ، وفرَّق الباقيَ في أبواب المعروف ؛ فقيل له في ذلك ، فقال: مِنْ حقِّ المال عليَّ أن أطلُبَه من مَعْدِنه، وأُصِيب به الفُرْصَةَ عند أهله ؛ ومن حقِّي عليه أنْ يَقِيَني السوءَ بنفسه ، ويصونَ عِرْضي بابتذاله ، ولا يفعل ذلك إلا بأن أسمح به ؛ ألا ترى ذا الغنى ؛ ما أدْوَمَ نَصَبه[3]، وأقلَّ راحته ، وأخسَّ مِنْ ماله حَظَّه ، وأشدَّ من الأيام حذَرَه ، وأغرى الدهرَ بِثَلْبِه ونَقْصِه ؛ ثم هو بين سلطانٍ يَرْعَاه ، وذوي حقوق يسبُّونه ، وأكفاء يُنافسونه ، وولد يريدون فِرَاقَه ؛ قد بعث عليه الغِنَى من سلطانه العَنَاء ، ومن أكفائه الحَسَد، ومن أعدائه

(١) المضاضة : وجع المصيبة . (٢) ديوانه : ٤ ــ ٧١ . (٣) النصب : التعب .

البَغْى ، ومن ذوى الحقوق الذَّم ، ومن الولد الملال . وذو البُلغة قَنِع فدامَ له السرور ، ورفض الدنيا فسَلِمَ من المحذور ، ورَضِيَ بالكفاف فتنكَّبته الحقوق .

قال الصولى : أنشدنى محمد بن أحمد بن إسحاق :

أدْمَى البُكا جفنَىَّ والمآقِ فظلْتُ ذا هَمٍّ وذا احتراقِ
ما إن أرى فى الأرض والآفاقِ أذَلَّ ولا أشقَى من الورَّاقِ
إذا أتى فى القُمُص الأخْلاقِ رأيته مطيرة المُشَّاقِ[1]
يفرح بالأقلام والأوراق كفرْحَةِ الجندىِّ بالأرْزَاقِ

وقال بعض الورّاقين :

إذا كُنتُ بالليل لا أكْتُبُ وطول النهار أنا ألعبُ
فطوراً يبطّلنى مَأكَلٌ وطوراً يبطّلنى مَشْرَبُ
فإنْ دامَ هذا على ما أرى فبيتىَ أوّل ما يَخْرب

وقيل لورّاق : ما تَشْتَهِى ؟ فقال : قلماً مَشَّاقا ، وحِبْراً برّاقا ، وجلوداً رِقَاقا . وكل امرىء فأمنيته على ما يُطَابِقُ غريزته ، ويوافِقُ نَحيزته[2] .

[أطيب اللذات عند الشعراء]

قال علىّ بن جبلة العكوك[3] : قال الأصمعى : سُئِل امرؤ القيس : ما أطيب لذاتِ الدنيـــا ؟ قال : بيضاء رُعْبوبة[4] ، بالحسن مكبوبة ، بالشحْم مكروبة[5] ، بالمِسْكِ مَشْبُوبة .

وسُئل الأعشى عن ذلك ، فقال : صَهْبَاء صافية ، تمزُجُها ساقية ، من صَوْبِ غادية .
وسئل طرفة عن ذلك ، فقال : مركب وَطِىّ ، وثوبٌ بَهِىّ ، ومطعم شهِىّ .

---

(١) القمص : جمع قيص . والأخلاق : جمع خلق بفتحتين وهو البالى . (٢) النحيزة : الطبع
(٣) النويرى : ٣ ـ ١٤ . (٤) رعبوبة : حسنة حلوة ناعمة .
(٥) مكروبة : ممتلئة .

قال الكوكب : فحدّثتُ بهذا أبا دُلَف فقال :

أطيبُ الطيبات قَتْلُ الأعادي ... واختيالٌ على مُتُونِ الجيادِ
ورَسولٌ يأتي بوَعْدِ حبيب ... وحبيبٌ يأتي بلا ميعادِ

وحدّثت بذلك حُميدا الطُّوسى ، فقال[1] :

فلولا ثلاثٌ هنّ مِنْ لَذّةِ[2] الفتى ، ... وجدِّكَ ، لم أحْفِلْ متى قام عُوَّدِي
فمنهنّ سَبْقُ العاذلاتِ بشَرْبةٍ ... كُمَيْتٍ ، متى ما تُعْلَ بالماء تُزْبِدِ
وكَرّى إذا نادى المُضافُ مُحنَّبا[3] ... كَسِيدِ الغَضَا ذى السَّوْرةِ المتورِّدِ[4]
وتقصيرُ يَوْمِ الدَّجْنِ ، والدَّجْنُ مُعْجِبٌ ، ... ببَهْكَنَةٍ[5] تحت الخِبَاء المُعَمَّدِ[6]

· الشعر لطرفة بن العبد .

وحدثت بذلك يزيد بن عبد الله ، فقال : ما أدْرِى ما قالوا ، ولكنى أقول :

فاقْبَلْ من الدَّهْرِ ما أتاكَ بهِ ... مَنْ قَرَّ عينا بِعَيْشِه نَفَعَه

فكان أسدَّهم .

والبيت للأضبط بن قُرَيع[7] أنشده أبو العباس ثعلب . قال : وبلغنى أن هذه الأبيات قيلت قبل الإسلام بدَهْرٍ طويل :

لكل ضيقٍ من الأمورِ[8] سَعَه ... والصبحُ والمُسْى[9] لا فَلاحَ مَعَه
ما بالُ مَنْ سَرَّهُ مصابُك لا ... يملك شيئاً من أمْرِه وَزَعَهْ
أذُود عن حَوْضِه ويَدْفعُنى ... يا قومِ ، مَن عاذِرى مِنَ الخُدَعَهْ

---

(١) الشعر والشعراء : ١٤٤ ، النويرى : ٢ — ١٤ ، معلقة طرفة ، فى المعلقات : ٨٣ .

(٢) فى الشعراء : من عيشة . (٣) المضاف : الذى أحيط به . والتحنيب : انحناء وتوتير فى رجل الفرس ، والتحنيب فى الخيل مما يوصف به صاحبه بالشدة ، اللسان — مادة حنب ، حنب ، وفى رواية : مجنبا . (٤) فى الشعراء والمعلقات : نبهته ، والمتورد : الذى يطلب أن يرد الماء .

(٥) البهكنة : الجارية الخفيفة الروح الطيبة الرائحة المليحة الحلوة .

(٦) فى ط : المعدد ، والمعمد : ذو العمد . (٧) الأمالى : ١ — ١٠٧ ، والشعراء : ٣٤٣ ، اللآلىء : ٣٢٦ . (٨) فى الأمالى : لكل هم من الهموم سعه والمسى والصبح . . .

(٩) فى ط : والمسا .

حتى إذا ما أنجلت عَمايَتُهُ ... أقبَلَ يَلْحَى وغيُّهُ فَجَمَهْ

قد يجمعُ المالَ غيرُ آكلِهِ ... ويأكلُ المالَ غيرُ من جَمَعَهْ

ويقطعُ الثوبَ غيرُ لابسِهِ ... ويلبس الثوبَ غيرُ مَنْ قَطَعَهْ

فاقبَلْ من الدَّهْرِ ما أتاكَ بهِ ... مَنْ قرَّ عينا بعيشه نَفَعَهْ

وصِلْ حبالَ البعيد إنْ وَصَلَ الْ ... حَبْلَ وأقصِ القريبَ إنْ قَطَعَهْ

ولا تُعَادِ الفقيرَ عَلَّكَ أنْ ... تَرْكعَ يوماً والدهرُ قد رَفَعَهْ

هذا البيت شبيه بما رُوى عن عائشة رضي الله عنها ؛ قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يستنشدنى قولَ اليهودى[1] :

ارفع ضَعِيفَكَ لا يَحُرْ[2] بك ضعفهُ ... يوما فَتُدْرِكَه العواقبُ[3] قد نَمَا

يَجْزيك أو يُثْنِى عليك ، وإنَّ مَنْ ... أثنَى عليك بما فَعَلْتَ كَمَنْ جَزَى

فأنشده فيقول : إنى فَطِنٌ لها .

وكان الأضبط سيد بنى سَعْد ، وكانوا يشتمونه ويؤذونه ، فانتقل إلى حيٍّ من العرب ، فوجدهم يؤذون سادتَهم ؛ فقال : حيثما أوجِّه ألق سعدا ! فذهبت مثلا ، قال الطائى[4] :

فلا تَحْسَبَنْ[5] هنداً لها الغَدْرُ وحدها ... سجيةُ نفسٍ ، كلُّ غانيةٍ هِنْدُ

[وصف المحابر والأقلام]

قال بعضُ الكتاب يصف محبرة . بعض الأدباء يصف محبرة

ولقد مضَيْتُ إلى المحدِّث آنِفاً ... وإذا بحضْرَتِهِ ظِبَاءٌ رُتَّعُ

وإذا ظِبَاءُ الإنْسِ تكْتُبُ كلَّما ... يُمْلَى وتحفظُ ما يقولُ وتسْمَعُ

---

(١) الشعراء : ٣٤١ ، اللآلى : ٢٠٦ ، الأغانى ٣ — ١٢ ، وفيها خلاف فى نسبتهما .
(٢) فى ط : لايجز . (٣) فى الشعراء : فتدركه عواقب ماجنى .
(٤) ديوانه : ١٢٠ . (٥) فى الديوان : فلا تحسبا .

يتجاذبون الحِبْرَ مِن ملمومةٍ(1) بيضاء تحمِلُها عَلائقُ أربعُ
من خالص البَلُّورِ غُيِّرَ لونُها فكأنها سَبَجٌ(2) يَلوحُ ويَلْمَعُ
إنْ نَكَّسوها لم تَسِلْ، ومليكها فيا حوتُهُ عاجلا، لا يَطمعُ
ومتى أمالوها لِرَشْفِ رُضابِها أدّاه فُوها وهي لا تتمنّعُ
وكأنها قلبي يَضِنُّ بسرِّهِ أبداً ويكتمُ كلَّ ما يُستَودَعُ
يمتاحُها ماضِي الشَّباةِ مُذَلَّقٌ(3) يجري بميدانِ الطُّرُوس فيُسْرِعُ
رِجلاهُ رأسٌ عنده لكِنَّهُ يلقاه برد حَفاهُ ساعةَ يقطعُ
وكأنه والحِبْرُ يَخضِبُ رأسَهُ شيخٌ لوَصْلِ خريدةٍ يتصنّعُ
لِمَ لا أُلاحظه بعَيْنِ جلالةٍ وبه إلى اللهِ الصحائفُ تُرْفَعُ

كشاجم

وقال أبو الفتح كشاجم :

مَحْبَرةٌ جادَ لي بها قمرٌ مستحسَنُ الخَلْقِ مُرتضَى الخُلُقِ
جوهرةٌ خَصَّنِي بجوهرةٍ ناطَتْ له المكرماتِ في عُنُقِ
بيضاءُ والحِبْرُ في قَرارتِها أسْوَدُ كالمِسْكِ جِدّ مُنْفَتِقِ
مثل بياضِ العيون زَيَّنهُ مُسْوَدُّ ما شابَهُ مِنَ الحَدَقِ
كأنما حِبْرُها إذا نَثَرَتْ أقلامُنا ظِلَّهُ على الوَرَقِ
كُحْلٌ مَرَتْهُ(4) العيونُ مِنْ مُقَلٍ نُجْلٍ فأوْقَتْ بهِ على يَقَقِ(5)
خرساءُ لكنها تكونُ لنا عَوْناً على عِلْمِ أفصحِ النُّطُقِ

وقال عبد الله بن أحمد : القلم أمْرَهُ(6)، ما لم يَكتحِل بإثمِدِ الدَّواة .

وكتب إبراهيم بن العباس كتاباً فأراد مَحْوَ حرف فلم يجد منديلا، فمحاه بكُمِّه،

---

(1) يقال صخرة ململومة : مستديرة . (2) السبج : خرز أسود .
(3) الشباة : حد كل شيء . وذلقه : حدده . وفي ق ، س : ماضي الشباب .
(4) مرى الشيء : استخرجه . (5) أبيض يقق : شديد البياض .
(6) مرهت عينه : خلت من الكحل ، أو فسدت لتركه أو ابيضت حالقها .

فقيل له فى ذلك ، فقال : المالُ فَرْعٌ ، والعلمُ أصل ؛ وإنما بلَغْنا هذه الحالَ ، واعتقدنا هذه الأموال بهذا القلم والمِدَاد ، ثم قال[(١)]:

إذا ما الفكرُ أضْمَرَ[(٢)] حُسْنَ لَفْظٍ ... وأدّاه الضميرُ إلى العِيَانِ
ووَشّاه وَنَمْنَمَهُ مُسَدٍّ[(٣)] ... فصيحٌ بالمَقَالِ وباللّسانِ
رأيتَ حُلَى البيانِ منوّراتٍ[(٤)] ... تَضَاحَكُ بينها صُوَرُ المعانى

ألفاظ لأهل العصر فى أوصاف آلات الكتابة والدوِىِّ والأقلام

الدواة من أنفع الأدوات ، وهى للكتابة عتاد ، وللخاطر زِنَاد . غدير لا يرِدُه غَيْرُ الأفهام ، ولا يمتح بغير أرْشِية الأقلام[(٥)] . دواة أنيقة الصَّنْعَة ، رَشيقة الصبغة ، مسكية الجلد ، كافُورِيَّة الحِلْيَة . غدير تَهِيض ينابيعُ الحِكْمَة من أقْطَارِه ، وتنشأ سُحُبُ البلاغة مِنْ قَرَاره . دواة تُداوِى مَرَض عُفَاتك ، وتُدْوِى[(٦)] قُلُوبَ عُدَاتك ، على مَرْفَعٍ يُؤْذِنُ بدوام رِفْعَتِكَ ، وارتفاعِ النوائب عَنْ سَاحَتِك ، ومدادٍ كسواد العَيْنِ ، وسُوَيْدَاء القلب ، وجناحِ الغُرَابِ ، ولُعَابِ الليل ، وألوانِ دُهْمِ الخيل . وهذا من قول ابن الرومى :

حبرُ أبى حَفْصٍ لُعابُ الليلِ ... كأنه ألوانُ دُهْمِ الخيلِ

قال العاصر : مدادٌ ناسب خافِيةَ الغُرَابِ ، واستعار لونَه من شَرْخِ الشباب ؛ وأقلام جَمّةُ المحاسن ، بعيدة من المَطَاعِن ، تحاصى الكَلَامى[(٧)] ، وتحاكى القانِزَ القاسِى . أنابيب ناسبت رِماح الخطِّ فى أجناسها ، وشاكَلَت الذهبَ فى ألوانها ، وضاهَت الحديدَ فى لمعانها ؛ كأنها الأميالُ استواء ، والآجالُ مَضَاء ، بطيئة الحَفَى ، قوية القُوَى ،

(١) ديوانه : ١٨٨ ، الأدباء : ١ ـ ٢٦٩ . (٢) فى الديوان : واف .
(٣) مسد : من السداد . (٤) فى الديوان : منضرات تجلى .
(٥) الأرشية : جمع رشاء ، وهو حبل الدلو . (٦) أدويته : أمرضته .
(٧) فى س : الكلامى .

لا يُشظِّيها[1] القطُّ ، ولا يتشعَّبُ بها الخطّ . أقلام بَحْرِيّة موشية الليط[2] ، رائقة التخطيط . قلمٌ معتدل الكُعُوب ، طويل الأنبوب ، باسقُ الفروع ، رَوِيّ اليَنْبُوع ، هو أولَى باليد من البَنان ، وأخفَى للسر من اللسان . هو للأنامل مطيّة ، وعلى الكتابة معونة مَرْضِيّة ، نعم العُدّة القلم ؛ يقلم أظافر الدَّهر ، ويملك الأقاليم بالنّهي والأمر ، إن أردتَ كان مسجونا لا يملّ الإسار ، وإن شئتَ كان جواداً جاريا لا يعرفُ العِثار ، لا ينْبُو إذا نَبَت الصِّفاح[3] ، ولا يُحْجِمُ إذا أحجمت الرِّماح .

قال أبو الفتح كشاجم ، يصف محبرة ومقلمة وأقلاماً وسكيناً :

جِئْنِي من اللَّهْوِ وآلاتِ الطَّرَبْ ... ومن عقارٍ وتَرَاهٍ ونَشَبْ
ومن مُدَامٍ ومَثَانٍ تَصْطَحِبْ ... وعمقٍ طمَّاحَةٍ إلى الرُّتَبْ
مَجَالِسٌ مَصُونَةٌ مِنَ الرِّيَبْ ... معمورة من كلِّ عِلْمٍ وأدَبْ
تَكَادُ مِنْ حَرِّ الحديثِ تَلْتَهِبْ ... شِعْراً وأخباراً ونحواً يقتضبْ
ولغةٌ تجمعُ ألفاظَ العربْ ... وفِقَرا كالوَعْدِ في قلبِ الأَحِبْ
أو كتأتّي الرزق مِنْ غَيْرِ طلبْ ... أجَلْ وحَسْبِي من دُوِيٍّ[4] تُنْتَخَبْ
محلّيات بلُجَيْنٍ وذَهَبْ ... محبّرة يزْهى بها الحِبْرُ[5] الأَلَبْ
مثقوبة آذانُها وفي الثُّقَبْ ... مثل شُنُوفِ[6] الخُرَّدِ البِيضِ العربْ
تضمّن قطراً فيه للكُتْب عُشُبْ ... أسود بَحْرِيّ عِمانٍ كالشُّهُبْ
لا تَنْقُبُ الحكة إلا إنْ نَصَبْ ... نِيطَتْ إلى يُسْرَى يَدَيَّ بِسَبَبْ
كالقُرْطِ في الجيدِ تَدَلَّى فاضْطَرَبْ ... تصحبها ، والأخَواتُ تُصْطَحَبْ
كأنّه يودع نَبْلا من قَصَبْ ... لم يَعْلُها رِيشٌ ولم تَحْمِلْ عَقَبْ[7]

---

(١) تشظى العود : تطاير شظايا . (٢) الليط : قشر كل شيء .
(٣) يريد السيوف ، وكل شيء عريض صفاحة ، وجمعه صفاح . (٤) جمع دواة .
(٥) الحبر : العالم أو الصالح . (٦) الشنف : القرط الأعلى ، وجمعه شنوف .
(٧) العقب : العصب تعمل منه الأوتار .

لا تُضْحِكُ الأوراقُ حتى يُنْتَحِبْ ... تَرْمِي بها عيناى أغراضَ الكُتُبْ
رمياً متى أقصِدْ به السَّمْتَ أُصِبْ ... ومُدْيَة كالعَضْبِ ما مَسّ القَصَبْ
غَضْبَى على الأقلامِ من غير سبَبْ ... تَسْطُو بها في كلّ حينٍ وتَثِبْ
وإنما تُرْضِيكَ في ذاك الغَضَبْ ... فتلك آلاتى وآلاتى تُحَبّْ
والظَّرْفُ في الآلاتِ ممــا يُسْتَحَبْ ... لا سيَّما ما كان منها للأدَبْ

[المأمون وبعض عماله]

تظلّمَ رجلٌ إلى المأمون من عامل له ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما ترك لى فِضّةً إلّا فَضّها ، ولا ذهباً إلّا ذهب به ، ولا غلّةً إلا غَلّها ، ولا ضَيْعَةً إلّا أضاعها ، ولا عِلْقاً(١) إلا عَلِقَه ، ولا عَرَضاً إلا عَرَض له ، ولا ماشية إلا امْتَشّها(٢) ، ولا جليلا إلا أجْلاه ، ولا دقيقاً إلا أدقّه . فعجب من فصاحته وقضى حاجَته .

قال عمرو بن سعد بن سلم : كانت علىّ نوبة أنوبها في حرس المأمون ، فكنتُ في نَوْبتى ليلة ، فخرج متفقّدا مَنْ حَضَر ، فعرفته ولم يعرفنى ؛ فقال : من أنت ؟ قلت : عَمْرو ، عمرك الله ، ابن سعيد ، أسْعَدك الله ، ابن سلم سلّمك الله . فقال : تَكْلَؤُنا منذ الليلة . قلت : الله يَكْلَؤُك قبلى ، وهو خيرٌ حافظاً وهو أرحم الراحمين .

فقال المأمون :

إنّ أخاك الحق(٣) من يَسْعَى مَعَكْ ... ومَنْ يَضُرُّ نَفْسَه لِيَنْفَعَكْ
ومَنْ إذا صَرْفُ زمان(٤) صدَعَكْ ... بدّد شَمْلَ نَفْسِه ليَجْمَعَكْ

وقال على بن العباس الرومى(٥) :

خَجِلَتْ خُدودُ الوَرْدِ من تَفْضِيله ... خجلا تَوَرُّدها عليه شاهِدْ

---

(١) العلق : النفيس من كل شيء . (٢) امتش ما في الضرع : أخذه جميعه .
(٣) في س ، ف : إن أخا الهيجاء . (٤) في ط : الزمان .
(٥) ديوانه ٧٦ ، النويرى ١١ — ٢٣٤ ، اللآلئ ٣٩٣ ، الأمالى ١ — ٢٦٧ .

لم يخجل الوردُ المورَّدُ لونهُ إلّا وناحِلُه الفضيلةَ عانِدُ[1]
للنرجس الفضْلُ المبين إذا بدا بين الرياض طريفه والتالدُ[2]

لابن الرومى

[الورد والنرجس]

وكان ابنُ الرومى متعصباً للنرجس ، كثير الذمّ للورد ، وكتب إلى أبى الحسن ابن المسيب[3] :

أدرِك ثِقاتك إنهم وقعوا فى نرجِسٍ معه ابنةُ العنبِ
فهُمُ بحالٍ لو بصُرْتَ بها سبَّحتَ من عُجْبٍ ومن عَجَبِ
ريحانُهم ذهبٌ على دُرَرٍ وشرابُهم دُرٌّ على ذهبِ
فى روضةٍ شتويةٍ رَضَعَت دِرَرَ[4] الحيا حَلَباً على حَلَبِ
واليومُ مدَّجِنٌ حُجْرتُهُ[5] فيه بمُظْلِمٍ ومُحتجِبِ
ظلت تسامرنا[6] وقد بعثت ضوءها يلاحظنا بلا لهبِ

وكان كسرى أنوشروان مستهتراً[7] بالنرجس ، وكان يقول : هو ياقوتٌ أصفر ، بين درّ أبيض ، على زمرّد أخضر . نقله بعض المحدَثين فقال :

وياقوتةٍ صفراء فى رأسِ دُرَّةٍ مركّبةٍ فى قائمٍ من زبرجدِ
كمثل بعيّ الدُرّ عقد نظامها نثيرُ فريدٍ قد أطاف بعسجدِ
كأنّ بقايا الطلّ فى جنباتِها بقيةُ دمعٍ فوق خدّ مورَّدِ

رجع ابن الرومى[8] :

فَصْلُ القضيةِ أنّ هـــذا قائدٌ زَهَرَ الربيعِ وأنّ هذا طاردُ
شتّانَ بين اثنين هذا مُوعِدٌ بتصرُّمِ[9] الدنيا وهذا واعِدُ

---

(١) فى س ، ق : إلا وناحله الفضيلة عاقد . (٢) فى الديوان : لأنه زهر ونور وهو نبت واحد . وفى النويرى والأمالى : ولابن أبى آب وحاد من الطريقة حائد .

(٣) ديوانه : ١١٨ . (٤) فى الديوان : درر . (٥) حرة اليوم : شمسه .

(٦) فى الديوان : شمس تسايرنا . وفى الشارحه : وفى الأصل : تسائرنا . (٧) مستهترا : مولعا .

(٨) المرجع السابق . (٩) فى النويرى : بتسلب .

فإذا احتفظتَ به فأمْتَعُ صاحبٍ　　بحياته لو أنّ حيًّا خالدُ
ينهى النديمَ عن القبيح بلَحْظِهِ　　وعلى المُدَامَةِ والسّماعِ يُسَاعِدُ
اطلب بِعَقْلِك(١) فى الملاح سَمِيَّهُ　　أبداً ، فإنك لا عالةَ وَاجِدُ
والوردُ إنْ فتّشت فردٌ فى اسمهِ　　مافى الملاح له سمِىٌّ وَاحِدُ
هذى النجوم هى التى ربّتْها(٢)　　بحَيَا السحابِ كما يُرَبِّى الوالدُ
فانْظُرْ إلى الولدين(٣) ، مَنْ أدناهما　　شَبَهاً بوالده فذاك الماجِدُ
أين الخدود من العيون(٤) نفاسةً　　ورياسةً ، لولا القياسُ الفاسدُ

وقد ناقضه جماعة من البغداديين وغيرهم فى هــذا المذهب ، وذهبوا إلى تفضيل الوردِ ؛ فما دانَوْه وما استطاعوه .

قال أحمد بن يونس الكاتب رادًّا عليه(٥) :

يا مَنْ يُشَبِّه نَرْجِساً بنواظرٍ　　دُعْجٍ ، تَنَبَّهْ إنّ فهمَك راقدُ
إنّ القياسَ لمن يصحُّ قياسهُ ،　　بين العيون وبينــه مُتَبَاعدُ
والوردُ أصدقُ للخدودِ حكايةً　　فعلامَ تَجْحَدُ فضْلَه يا جاحِدُ
مَلِكٌ قصيرٌ عُمْرُه مُسْتَأْهِلٌ　　تخليــده ، لو أنّ حيًّا خالدُ
إنْ قلت إنّ الوردَ فَرْدٌ فى اسمهِ　　ما فى المِلاح له سمِىٌّ وَاحِــدُ
فالشمسُ تَفَرّدُ باسمها والمشترى　　والبدر يُشْرِكُ فى اسمه وعُطَارِد
أو قلت إنّ كوا كبا ربتْها　　بحَيَا السّحابِ كما يُرَبِّى الوالد(٦)
قلنا أحقُّهما بِطَبْعِ أبيه فى الـ　　جَدْوَى هو الزّاكى النجيبُ الرّاشدُ
زُهْرُ النُّجُومِ تَرُوقُنا بضيائها　　ولهــا منافعُ جمّةٌ وعَوَائِدُ
وكذلك الوَرْدُ الأَنِيقُ يَرُوقُنا　　وله فضائلُ جَمّةٌ وفَوَائِد

(١) فى النويرى : إن كنت تطلب .　(٢) فى الديوان : ربيتها .
(٣) فى الديوان : فتأمل الاثنين .　(٤) فى الديوان والنويرى : أين العيون من الخدود .
(٥) اللآلى : ٤٩٥ .　(٦) حيا السحاب : المطر .

وخليفهُ إن غاب ناب بنفْسِهِ ... وبنفْحِه أبدا مقيمٌ راكِدُ
إنْ كُنْتَ تُنْكِرُ ما ذكرْتُ بعدما ... وضَحَتْ عليه دَلائلٌ وشَواهِدُ
فانْظُرْ إلى المُصْفَرّ لوناً منهما ... وافطن فما يَصْفَرُّ إلّا الحاسِدُ

نبذ من النظم والنثر فى صفات النَّور والزهر

لعلى بن الجهم قال على بن الجهم[1]:

لم يضحَكِ الوردُ إلّا حين أعْجَبَه ... حُسن الرِّياضِ[2] وصوتُ الطائرِ الغَرِدِ
بدا فأبْدَتْ لنا الدُّنيا محاسِنَها ... وراحَتِ الرّاحُ فى أثوابها الجُدُدِ
وقابلَتْهُ يَدُ المُشْتاقِ تَسْنُدُهُ ... إلى الترائب والأحْشاء والكَبِدِ
كأنّ فيــه شفاء من صَبَابتهِ ... أو مازماً جَفْنَ عينيه مِنَ السُّهُدِ
بَيْنَ النَّديمِ والخِلّين مَصْرَعُه ... وسَيْرُه مِن يَدٍ موصولةٍ بِيَدِ
ما قابلَتْ طَلْعَةَ الرَّيحانِ طَلْعتــه ... إلا تبيَّنْتَ فيــه ذِلَّةَ الحسدِ
قامَتْ بحُجَّته ريحٌ مُعَطَّرَةٌ ... تَشْفِى القلوبَ من الأوْصَابِ والكَمَدِ
لا عَذَّبَ اللهُ إلّا من يُعَذِّبه ... بِمُسْمِعٍ[3] باردٍ أو صاحبٍ نَكِدِ

وكان أردشير بن بابك يصفُ الورد ويقول: هو درٌّ أبيض، وياقوتٌ أحمر، على كراسى زَبَرْجَد أخضر، توسطه شذورٌ من ذَهبٍ أصفر، له رِقّةُ الخمر، ونفحات العِطْر.

أخذه محمد بن عبد الله بن طاهر فقال:

كأنّهنّ يواقيتٌ يُطيفُ بها ... زُمرّدٌ وسْطَه شَذْرٌ مِنَ الذّهبِ
فاشْرَبْ على مَنْظرٍ مستطْرَفٍ حَسَنٍ ... من خَمْرةٍ مَزّةٍ كالجمْرِ فى اللّهَبِ[4]

المتوكل والحسين ابن الضحاك وقال يزيدُ المهلبي: أحَبَّ المتوكِّل أن ينادمَه الحسين بن الضحاك الخليع البصرى، وأنْ يَرَى ما بَقِىَ من ظَرْفِه وشهوته لما كان عليه؛ فأحْضره وقد كبر وضَعُفَ، فسقاه

(١) ديوان على بن الجهم: ٨٩، حماسة ابن الشجرى ٢٢٥. (٢) فى الديوان: حسن النبات.
(٣) المسمع: المغنى. (٤) المزة: الخمر اللذيذة الطعم.

حتى سكر ، وقال لخادمه شفيع : اسْقِهِ ؛ فسقاه وحيّاه بوَرْدَة ، وكانت على شفيع أثوابٌ موَرّدة ، فمدّ الحسين يده إلى دِرْع شفيع ، فقال المتوكل : أتخمش غُلَامى[1] بحضرتى ؟ كيف لو خَلَوْتَ به ! ما أحوجك يا حسينُ إلى أدب ! وكان المتوكل غمز شفيعا على العبث به . فقال الحسين : سيدى ، أريد دواة وقرطاسا ؛ فأمر له بهما فكتب :

وكالوردة البيضاء حَيّا بأحْمَرٍ ... من الوَرْدِ يسعى فى قَرَاطِقَ كالوَرْدِ[2]
له عَبَثَاتٌ عنــد كلِّ تحيّةٍ ... بِكَفّيْهِ يستدْعِى الخلِىّ إلى الوَجْدِ
تمنيتُ أنْ أسْقَى بكفيه شَرْبَةً ... تذكّرنى ما قد نسيتُ من العَهْدِ
سَقَى اللهُ عيشا لم أبِتْ فيه ليلةً ... من الدهر إلّا من حبيب على وَعْدِ

ثم دُفع الرقعةَ إلى شفيع ، وقال : ادْفَعْها إلى مولاك ؛ فلما قرأها استملحها ، وقال : لو كان شفيع ممن تَجُوز هِبَتُه لوهَبْتُه لك ، ولكن بحياتى يا شفيع إلّا كنتَ ساقيه بقيّةَ يومه ! وأمر له بمالٍ كثير حُمِل معه لما انصرف .

قال يزيد المهلبى : فصرتُ إلى الحسين بعد انصرافه من عند المتوكل بأيام فقلت : ويحك ! أتدرى ما صنعت ؟ قال : لا أدَعُ عادتى بشىء ، وقد قلت بعدك :

لا رأى عطفة الأحِبْـ ... ـبَةِ من لا يصرحُ
أسْفَرُ الساقِيَيْن أشْـ ... ـكَلُ عِنْدِى وأمْلَحُ
لو تراه كالظبى يَسْـ ... ـنح طَوْراً ويَبْرَحُ
خِلْتَ غُصْناً على كثِيـ ... ـبٍ بنَوْرٍ يُوَشَّحُ

قال الصولى : وكأن الأول من أبيات الحسين من قول العباس بن الأحنف[3] :

بيضاء فى حُمْرِ الثياب كوَرْدَةٍ ... بيضاء بين شقائقِ النعمانِ
تهتزُّ فى غَيَدٍ[4] الشباب إذا مَشَتْ ... مثل اهتزاز نَوَاعِمِ الأغصانِ

---

(١) فى س ، ق : أتخشن . (٢) القرطق ــ كجندب : لبس .

(٣) ليس فى ديوانه المطبوع بين أيدينا . (٤) غيد ــ كفرح : لانت أعطافه .

قال أبو بكر الصولى : كان عند الخصى[1] الوزير ظبى داجن ربيب[2] فى داره ، فعمد إلى نيلوفر فأكله ، فاستملح الغزال وأنسه ، وقال : لو عمل فى أنس هذا الغزال وفعله بالنيلوفر لا شتمل العمل على معنًى مليح ! فبلغ الخبرُ أبا عبد الله إبراهيم بن محمد ابن عرفة نفطويه ، فبادر لئلا يُسبق ، وعمل أبياتا أولها :

جرَتْ ظَبْيَةٌ غنَّاء تَرْعَى بِرَوْضَةٍ تَنُوشُ[3] لدَى أفنَانِها ورَقًا خُضْرا

للصولى فى أبيات غير طائلة ، فاستبرد ما أتى به ، قال الصولى : فقلت :

وَنَيلَوفرٍ يحكى لنا المِسْكَ طيبُهُ تراه على اللذاتِ أفضَلَ مُسْعِدِ

قد اجتنَّ خوفَ الحادثات بجُنَّةٍ تروقُ كثوبِ الراهب المتعبِّدِ

تُرَكَّبُ كالكاساتِ فى ذَهبيَّةٍ على قُضُبٍ خضرٍ كالزَّبَرْجَدِ

وألبس ثوبًا يفضُلُ اللَّحظَ حُسْنُه كما عِيقَتْ عينٌ بحَتْرٍ مُوَرَّدِ

غذَتْه أهاضيبُ[4] السماء بدَرِّها تروحُ عليه كلَّ يومٍ وتَغتَدِى

تلبّس للأنوارِ ثوبَ سمائه ففضَّلَ عنه الحسن فى كلِّ مَشْهَدِ

وفى وسطه منه اصفرارٌ يَزِينُه كياقوتةٍ زرقاء فى رأسِ عَسْجَدِ

أطاف به أحْوَى المدامع شادِنٌ حَكَى طَرْفَ من أهوى وحسن التقلّدِ

كما أخذ الظمآنُ بالفم كاسَه ولم يستَعِنْ فى أخذه الكاسَ باليَدِ

لابن وكيع وقال أبو محمد الحسن بن على بن وكيع[5] :

يومٌ أتاك بوَجْهِهِ المتهلِّلِ تاهيك من يومٍ أغرَّ مُحجَّلِ

خلع الغمامُ على اخضرارِ سمائه خاما فبَيْنَ مُمَسَّكٍ ومُصَنْدَلِ

وكسا الرُّبى خِلَلاً تخالَفَ شكلُها بمُورَّدٍ ومُعَصْفَرٍ ومُكَحَّلِ

وتمايلَتْ فيه قدودُ غصُونِه من شُرْبِ كاساتِ العيونِ الهُطَّلِ

---

(١) فى س : الخصيبى . (٢) فى س : ربيت . (٣) تنوش : تتناول .

(٤) الهضبة : المطرة ، وجمعه هضب وهضاب ، وجمع الجمع أهاضيب .

(٥) فى ق ، ط : أبو الحسن محمد بن على .

وعلا على الأشجار قطرُ سمائها   فبدت لعين الناظر المتأمل
يحكى قباب زمرّدٍ قد كُلِّلت   بمنظّمٍ من لؤلؤ ومفصّل
وأتاك نورُ الباقلاء كأنما   يرنو إليك بعين أكحل أقبل (١)
الوردُ يخجل كلَّ نورٍ طالع   وتراه منتقبا بحمرة مُخجل
وحكى بياضُ الطلْع فى كافوره   وجهَ الخريدة فى الخمار الصّندلى
فكأنما الدنيا عروسٌ أقبلت   فى كل أنواع الملابس تجتلى
فاشرب معصفرة القميص سلافةً   من صنعة الرّدان أو قطربّل

لأبى الفتح البستى

وقال أبو الفتح البستى (٢) :

يومٌ له فضلٌ على الأيام   مزج السحابُ ضياءه بظلام
فالبرقُ يخفق مثل قلبٍ هائم   والغيمُ يبكى مثل طرفٍ هام
وكأنّ وجهَ الأرض خدُّ متيّم   وُصِلت سجامُ دموعه (٣) بسجام
فاطلبْ ليومك أربعا : هنّ المنى   وبهنّ تصفو لذّةُ الأيام
وجهَ الحبيب ومنظرا مستشرفا   ومغنّيا غردا وكأس مدام

للميكالى

وقال الأمير أبو الفضل الميكالى :

سلّ الربيعُ على الشتاء صوارما   تركته مجروحا بلا إغماد
وبكت له عينُ السماء بأدمع   ضحكت لساجعها ربى الأنجاد
وبدت شقائقها خلال رياضها   تزهى بثوبى حمرةٍ وسواد
فكأنها بنتُ الشتاء توجّعت   لمصابه كشقيقة الأولاد
فقنوء حمرتها خضابُ نجيعه   وسوادُ كسوتها لباسُ حداد

---

(١) القبل : إقبال السواد على الناظر ، أو مثل الحول ، أو أحسن منه .

(٢) يتيمة الدهر : ٤ — ٢٩٠ . (٣) فى اليتيمة : وصلت دموع سحابه .

وقال(١):

تصوغُ لنا كفُّ الربيعِ حدائقا ... كعقدِ عَقِيقٍ بين سِمْطِ لآلِي
وفيهن أنْوَارُ الشقائقِ قد حَكَتْ ... خُدودَ عَذارَى نُقِّطت بِغَوالِي

وقال(٢):

كأنَّ الشقائقَ إذ أبرزَتْ ... غِلالةَ دادٍ(٣) وثوْباً أحَمّْ
قطاعٌ من الجَمْرِ مشبوبةٌ ... فأطرافُها لُمَعٌ مِنْ حَمَمْ

وقال فى حديقة ريحان(٤):

أعدَدْت مُحْتَفلا ليوم فَرَاغِى ... روضا غدا إنسانَ عَيْنِ الباغى
روض يَرُوضُ همومَ قلبى حُسْنُهُ ... فيه لكأس الأُنْسِ أىّ مَسَاغِ
فإذا بدَتْ قُضْبَانُ ريحانٍ بهِ ... حيَّتْ بمثلِ سلاسلِ الأصْداغِ

وقال فى النرجس(٥):

أهْلًا بنرجس رَوْضٍ ... يُزْهَى بحُسْنٍ وطِيبِ
يَرْنُو بمُقْلَةِ(٦) غزالٍ ... على قضيبٍ رَطِيبِ
وفيه معنى خفىٌّ ... يَزِيدُه(٧) للقلوب
تَصْحِيفُه إنْ نَسَقْتَ الْـ ... حُرُوفَ بِرُّ حَبِيبِ

وقال(٨):

وما ضمَّ شَمْلَ الأُنْسِ يوماً كنَرْجِسٍ ... يقومُ بِعُذْرِ اللَّهْوِ عن خَالِعِ العُذْرِ
فأحداقُه أحـداقُ(٩) تِبْرٍ وساقُهُ ... كقامةِ ساقٍ فى غَلائِلِ الخُضْرِ

---

(١) اليتيمة : ٤ — ٣٤٢ . (٢) اليتيمة : ٤ — ٣٤٣ . (٣) فى اليتيمة : لاذ ، والدادى : المولع باللهو لا يكاد يبرحه . (٤) اليتيمة : ٤ — ٣٤٢ .
(٥) نهاية الأرب : ١١ — ٢٣٣ ، اليتيمة : ٤ — ٣٤٣ . (٦) فى ط ، س : بعين .
(٧) فى النويرى واليتيمة : فى القلوب . (٨) اليتيمة : ٤ — ٣٤٣ .
(٩) فى اليتيمة : أقداح .

وقال البحترى(١) :

للبحترى

سَقَى الغيثُ أكنافَ اللّوى(٢) من محلّةٍ   إلى الحِقْف من رَمْل اللوى(٣) المتقاودِ
ولا زال مخضرٌّ من الرّوْضِ يانعٌ   عليـــه بمحمرٍّ من النّوْر جاسدِ(٤)
شقائق يحملن الندى فكأنّه   دموعُ التصابى فى خدودِ الخرائدِ
ومن لؤلؤ فى الأقحُوان(٥) منظّمٍ   ومن نُكَتٍ مصفرّة كالفرائدِ
كأن جنى الحوذان فى رَوْنَق الضحى   دنانير تبرٍ(٦) من تُوْام وفاردِ
إذا راوحتها مُزْنَةٌ بكرت لهـا   شآبيبُ مجتازٍ عليها وقاصدِ
رباعٌ تردّتْ بالرياض مجُودَةً   بكل جديد المـــاء عَذْب الموارد
كأنّ يدَ الفتح بن خاقان أقبلت   تَليها بتلك البارقات الرّواعدِ

***

قال أبو محمد عبد الله بن جعفر بن دَرَسْتَويه : قال لى البحترى ، وقد اجتمعنا على خلوةٌ عند المبرد وسَلَكْنَا مسلكا من المذاكرة : أشعرت أنى سبقتُ الناسَ كلهم إلى قولى : شيءٌ من النقد

شقائق يحمِلْنَ النّدَى فكأنّهُ   دموعُ التصابى فى خُدودِ الخرائدِ
كأن يدَ الفَتْحِ بن خاقان أقبلَتْ   تليها بتلك البارقات الرّواعدِ

هكذا أنشد . فاستحسن ذلك المبرد استحسانا أسرف فيه ، وقال : ما سمعت مثل هذه الألفاظ الرّطبة ، والعبارة العَذْبة لأحد تقدّمك ولا تأخّر عنك . فاعتَرَتْهُ أرْيَحِيّةٌ جرّ بها رِداء العُجب ؛ فكأنه أعجبنى ما يُعْجب الناس من مراجعة القول ؟ فقلت : ياأبا عُبَادة ، لم تَسْبِق إلى هــذا ، بل سبقك سعيد بن حميد الكاتب إلى البيت الأول بقوله(٧) :

---

(١) ديوانه : ١ — ١٣٦ ، المختار من شعر بشار ٢٤٥ . (٢) فى الديوان : الحى .
(٣) فى الديوان : إلى الحقف من رمل الحى . (٤) فى ط : حاسد .
(٥) فى الديوان : الأرجوان . (٦) فى الديوان : نثر .
(٧) المختار من شعر بشار : ٢٤٧ .

عَذُبَ الفراقُ لنا قُبَيلَ وَداعِنا ... ثم اجترعناهُ كسمٍّ ناقعِ

وكأنما أثرُ الدموع بخــدِّها ... طَلٌّ تساقطَ[1] فوق وَرْدٍ يانعِ

وشركك فيه صديقُنا أبو العباس الناشئ ، بما أنشدنيه آنفاً[2] :

بكَت للفراق وقد راعَني ... بكاءُ الحبيب لبُعْدِ الديارْ

كأنَّ الدموعَ على خدِّها ... بقيةُ طَلٍّ على جُلَّنارْ

وما أساء على بن جريج ، بل أحسن فى زيادته عليك بقوله[3] :

لو كنتَ يوم الوداع شاهِدَنا ... وهنَّ يُطْفِئنَ غُلَّةَ الوَجْدِ

لم تَرَ إلا دموعَ باكيةٍ ... تَسفَحُ من مُقْلَةٍ على خدِّ

كأنَّ تلك الدموعَ قطرُ ندًى ... يقطرُ من نَرْجِسٍ على وَرْدِ

وسبقك أبو تمام إلى معنى البيتين معاً بقوله[4] :

من كل زاهرةٍ تَرقرَقُ بالندَى ... فكأنها عينٌ إليه[5] تَحَدَّرُ

تبدو ويَحْجُبُها الجميمُ كأنها ... عَذراءُ تبدو تارةً وتخفَّرُ[6]

خَلْقٌ أطلَّ من الربيع كأنه ... خُلُقُ الإمامِ وهَدْيُه المتنشِّرُ

فى الأرضِ من عَدْلِ الإمامِ وجُودِهِ ... ومن الربيعِ الغضِّ سَرْحٌ يُزهِرُ[7]

يَنسى الربيعُ وما يُرَوِّضُ جودُه[8] ... أبداً على مَرِّ الليالى يُذكَرُ

قال : فشقَّ ذلك عليه ، وحلَّ حَبْوَته ونهض ، فكان آخر عهدى بمؤانسته ؛ وغَلُظَ ذلك على محمد بن يزيد ، وقدح ذلك فى حالى عنده .

* * *

---

(١) فى المختار : سقيط . (٢) المختار من شعر بشار : ٢٤٦ .

(٣) المختار من شعر بشار : ٢٤٥ ، النويرى : ٢ — ٢٤٨ ، العكبرى : ٢ — ٣٠٢ .

(٤) ديوانه : ١٥٧ . (٥) فى الديوان : إليك . (٦) فى س : الجسيم ، والجميم : النبت المغطى الأرض . (٧) فى الديوان : * ومن النبات الغض سرج تزهر * والسرح : كل شجر عال . (٨) فى الديوان : * تنسى الرياض وما يروض فعله *

والبحترى

وقال البحترىّ يمدح الهيثم بن عثمان الغنوى (١) :

ألست ترى مدَّ الفُراتِ كأنّهُ ... جبال شرورَى (٢) جئن فى البحر عوَّما

وما ذاك (٣) من عاداته غــير أنّهُ ... رَأى شِيمَةً من جارِه فتعلّما

وقد نبّــه النَّوْرُوزُ فى غَبَشٍ (٤) الدُّجا ... أوائل وردٍ كُنَّ بالأمس نُوّما

يُفَتِّحها (٥) بَرْدُ النّــدَى فكأنّهُ ... يَبُثُّ حديثاً بينهن (٦) مُــكَتَّماً

ومن شجرٍ رَدَّ الربيعُ لِبَاسهُ ... عليــه كما نَشَّرْتَ بُرْدًا (٧) مُنَمْنَماً

أحَلَّ فأبدى للعيــونِ بَشاشَةً ... وكان قذًى للعين مُذْ (٨) كان مُحْرِماً

فما يمنع (٩) الراح التى أنت خِلُّها ... وما يَمْنَــعُ الأوتار أنْ تَتَرنَّما

وما زلت خِلًّا للنّدَامى إذا اغْتَدَوْا (١٠) ... وراحُوا بُدوراً يستحِثُّون أنْجُما

تــكرّمْتَ من قبل الــكئوس عليهمُ ... فما اسْطَعْن أنْ يُحدثن فيك تــكرُّما

وقال (١١) :

حيَّتْكَ عنــا شمالٌ طافَ طائفُها ... بجنّةٍ فجرتْ راحاً (١٢) ورَيْحانَا

هبَّتْ سُحَيْرًا فناجَى الغُصْنُ صاحبَهُ ... سِرًّا بهــا وتداعَى الطَّيْرُ إعلانا

وُرْقٌ تغنّى على خُضْرٍ مُهَدَّلَةٍ ... تَسْمُو بها وتَمَسُّ الأرضَ أحيانا

تخالُ طائرَها نَشْوانَ من طَرَبٍ ... والغُصْنَ من هزِّهِ عِطْفَيْهِ نَشْوانَا

ولابن المعتز فى أرجوزته البستانية التى ذم فيها الصَّبوح صفة جامعة ، إذ قال (١٣) : أرجوزة ابن المعتز

أمَا ترى البُسْتَانَ كيف نَوَّرا ... ونَشَّرَ المنثور بُرْدًا أصْفَرا

وضَحِكَ الوردَ إلى الشقائقِ ... واعتَنَقَ الورد (١٤) اعتناقَ الوامقِ

---

(١) ديوانه : ١ — ٢٣٤ . (٢) فى ط ، ف ، س : شدورى .

(٣) فى الديوان : ولم يك . (٤) فى الديوان : غلس . (٥) فى الديوان : يفتقها .

(٦) فى الديوان : كان قبل . (٧) فى الديوان : وشيا .

(٨) فى الديوان : إذ (٩) الديوان : يحبس . (١٠) فى الديوان : انتشوا .

(١١) نسبه فى النويرى لابن الرومى : ١١ — ٢٦٤ ، ١ — ١٠٠ . (١٢) فى النويرى: فى جنة قد حوت روحا . (١٣) ديوانه ١١١ . (١٤) فى الديوان : القطر .

في رَوْضَةٍ كحلية[1] العروسِ … وخُــدَّمٍ[2] كهامةِ الطاوسِ
وياسمين في ذُرَى الأغصانِ … منتظم[3] كقِطَعِ العِقْيانِ
والسَّرْوُ مثل قَصَبِ الزَّبَرْجدِ … قد استمدَّ الماءَ من تُربٍ نَدِ
على رياضٍ وثَرًى ثَرِيِّ … وجدْوَلٍ كالبَرَدِ الحليِّ
وفَرْج[4] الخشخاش جَيْباً وفَتَق … كأنّه مصاحفٌ بيضُ الوَرَق
أو مثل[5] أقداحٍ من البَلُّورِ … تخالها تجسَّمت من نورِ
وبعضُه عُرْيانُ من أثوابه … قد خَجِل اليابس[6] من أصحابهِ
تُبْصِرُه عنــد انتثار الوردِ … مثــل الدبابيس بأيدى الجُنْدِ
والسَّوْسَنُ الآزار مَنْشور الحُلَل … كقُطْنٍ قد مسَّهُ بعضُ بَلَل
نوَّرَ في حاشيتي بُسْتانِهِ … ودَخَل الميدان[7] في ضَمانِهِ
وقد بدت فيه ثمار الكَنْكَرِ[8] … كأنّها جماجمٌ من عَنْبَرِ
وحلَّق البهارُ بَيْنَ الآسِ … جُمْجُمَةً كهامَةِ الشَّمَّاسِ
خلال شيح[9] مثل شيب النَّصَفِ … وجوهرٍ من زَهَرٍ مُخْتَلِفِ
وجُلّنار كاحْمِرارِ الوردِ[10] … أو مثل أعْراف ديوك الهندِ
والأقحوان كالثنايا الغُرِّ … قد صُقِلَتْ أنواره[11] بالقَطْرِ

لكشاجم وقال أبو الفتح كشاجم[12] :

ورَوْضٍ عن صَنِيعِ الغيثِ رَاضٍ … كما رَضِيَ الصَّديقُ عن الصديقِ
إذا ما القَطْرُ أسْعَدَهُ صَبُوحاً … أتمَّ لهُ الصنيعةَ في الغَبُوقِ

---

(١) في الديوان : كحلة . (٢) في س ، ف ، ط : وحرم .
(٣) في الديوان : منتظما . (٤) في الديوان : وفرش ، وفي س : وفرخ
(٥) في الديوان : صار كأقداح . (٦) في الديوان : الأعين .
(٧) في ديوانه : البستان . (٨) في ديوانه : الكبر . (٩) في ديوانه : جبال نسج .
(١٠) في ديوانه : مثل جمر الهند . (١١) في ديوانه : نوارها . (١٢) في النويري :

يمير الرّيحَ بالنفحات ريحاً ... كأنَّ ثراه مِنْ مسْك فتيق[1]
كأنَّ الطلَّ مُنْتَثِراً[2] عليه ... بقايا الدَّمْعِ فى خدّ مَشُوقِ[3]
كأنَّ غصونَه سُقِيَتْ رَحيقاً ... فمالَتْ مِثْلَ[4] شرَّاب الرَّحيق
كأنَّ شقائقَ النعمانِ فيه ... مُخَضَّرةٌ شقائقُ[5] مِنْ عقيقِ
يُذَكِّرُني بنفْسجُه بقايا ... صنيعِ اللَّطْمِ فى الخدِّ الرَّقيقِ

وقال :

غيثٌ أتانا مُؤْذِناً بالخفضِ ... مُتَّصِلُ الوَبْلِ سريعُ الرَّكْضِ
دنا بخلناه دُوَيْنَ الأرضِ ... مُتَّصِلاً بطولِهِ والعَرْضِ
إلْفاً إلى إلْفٍ بسرٍّ يُفْضِى ... ثم سَما كاللُّؤلُؤِ المُرْفَضِّ
فالأرضُ تُجْلَى بالنباتِ الغَضِّ ... فى حَلْيِها الأحمرِ والمُبْيَضِّ
مِنْ سَوْسَنٍ أحْوَى ووَرْدٍ غَضٍّ ... مِثْلِ الخدودِ نُقِّشَتْ بالعَضِّ
وأقْحُوانٍ كالُّلجَيْنِ المَحْضِ ... ونَرْجِسٍ ذاكى النَّسيمِ بَضِّ
مثلِ العيونِ رَنَّقَتْ للغَمْضِ ... تَرْنُو فيَغْشاها الكَرَى فتُغْضِى

جملة من هذا النوع لأهل العصر

قال أبو فراس الحمدانى[6] : لأبى فراس

وجُلُّنارٍ مُشْرِق ... عَلَى أعالِى شَجَرِهْ[7]
كأنَّ فى رءوسِه[8] ... أحمرِهِ وأصفرِهْ
قُراضةً من ذَهَبٍ ... فى خِرْقَةٍ مُعَصْفَرَهْ

---

(١) فى النويرى : سحيق . (٢) فى النويرى : منتثراً . (٣) و ط ، ق : فى الخد المشوق . (٤) فى النويرى : فماست ميس ... (٥) فى النويرى : عصفرة كئوسا .
(٦) النويرى : ١١ — ١٠٤ . (٧) فى النويرى : الشجرة .
(٨) فى النويرى : أغصانه .

وقال :

ويوم جَلَا فيه الربيعُ رِياضَهُ بأنواعِ حَلْيٍ فوقَ أثوابِهِ الخُضْرِ
كأنَّ ذُيولَ الجُلَّنارِ مُطِلَّةً فضولُ ذيولِ الغانياتِ من الأُزْرِ

وقال أبو القاسم بن هانىء ، يصف زهرة رُمّان قطفت قبل عَقْدِها :

وبنتِ أيْكٍ كالشبابِ النَّضْرِ كأنها بين الغُصُونِ الخُضْرِ
جَنانُ بازٍ أو جَنانُ صَقْرِ قد خَفَّقَتْه[1] لَقْوةٌ بوَكْرِ
كأنّما سَحَّت دَماً مِنْ نَحْرِ أو بَثَّتْ فى تُرْبِهِ من بِرٍّ
[أو سُقِيَتْ بجَدْوَلٍ من خَمْرِ][2] لو كفَّ عنها الدهرَ صَرْفُ الدَّهْرِ
جاءت كمثل النَّهْدِ فوق الصَّدْرِ تَفْتَرُّ عن مِثْلِ اللِّثاتِ الحُمْرِ
فى مثل طَعْمِ الوَصْلِ بعد الهَجْرِ

ولهم فى هذا المعنى

روضة رقَّتْ حَوَاشيها ، وتأنَّق واشيها . روضة كالعقود المنظّمة ، على البرود المُنَمْنَمَة . روضة قد رَاضَتْها كفُّ المطر ، ودَبَّجَتْها أيدى الندى . أخرجتِ الأرْضُ أسرارَها ، وأظهرَتْ يدُ الغيثِ آثارها ، وأبدت الرياضُ أزهارها . الرياض كالعرائس فى حَلْيِها وزَخارِفِها ، والقيانِ فى وَشْيِها ومَطَارِفِها ، باسطة زَرابِيَّها[3] وأنماطها ، ناشرةً حِبَرَاتِها[4] ورِيَاطها ، زَاهية بحَمْرائها وصفرائها ، تائهة بميدانها وغُدْرانها ، كأنما احتفلت[5] لوَفْدٍ ، أو هى من حبيبٍ على وَعْد . روضة قد تضوَّعَتْ بالأَرَجِ[6] الطيِّبِ أرجاؤها ، وتبرَّجَتْ فى ظُلَلِ الغمام صحراؤها ، وتنافَجَتْ بنوافجِ[7] المِسْكِ

---

(١) اللقوة : العقاب الأنثى أو الخفيفة السريعة ، وفى س : قد خلقته .

(٢) هذه الشطرة ليست فى س .

(٣) الزرابى : النمارق والبسط . (٤) ضرب من برود اليمن .

(٥) فى ف ، س : اختلفت . (٦) الأرج : توهج ريح الطيب .

(٧) النافجة : وعاء المسك .

أنوارُها ، وتعارضت بغرائب النُّطْق أطيارُها . بستان رقّ نورُه النضيد، وراق عودُه النضير . بستان عودُه[١] خضر ، ونوره نَضِر ، ويَنْعه[٢] خَضِل ، وماؤه خَصِر . بستانٌ أرضُه للبقل والريحان، وسماؤه للنخل والرمان. بستان أنهارُه مفروزةٌ بالأزهار، وأشجارُه مُوقَرَةٌ بالثمار . أشجارٌ كأنّ الحورَ أعارَتْها قُدُودَها ، وكَسَتْها بُرُودَها ، وحلّتها عقودها . الربيعُ شبابُ الزمانِ ، ومقدمة الورد والريحان . زَمَنُ الوردِ مَرْمُوق ، كأنه من الجنّةِ مسروق . قد ورد كتاب الورد بإقباله إلى أهل الوُد . إذا وَرَدَ الوَرْد ، صدَرَ البرد . مرحبا بإشراف الزهر ، فى أطراف الدهر ، وأنشد :

سقى الله وَرْدًا صار خَدًّا رَبِيعنا   فقد كان قبل اليوم ليس له خَدٌّ

كأنّ عَيْنَ النرجس عيْن ، وَوَرقه وَرِق[٣] . النرجس نُزْهَة الطَّرْف ، وظَرْفُ الظَّرْف[٤] ، وغذاء الروح . شقائقُ كثيجان العقيق على رءوسِ الزنوج ، كأنها أصْداغُ المسك على الوجَنَاتِ المورّدة . شقائق كالزنوج تجارحت وسالت دِماؤُها ، وضَعُفَت فسال دَماؤُها . كأن الشقيقَ جامٌ من عقيق أحمر ، مُلِئتْ قرارَته بمسكٍ أذفَر . الأرض زمرّدة ، والأشجارُ وَشْى ، والماء سيوف، والطيور قِيَان . قدغرّدت خطباء الأطيار على منابر الأنوار والأزهار . إذا صدح الحَمامُ ، صدع الحَمامُ قَلْبَ المُسْتَهام . انظر إلى طَرَبِ الأشجار لغناء الأطيار . ليس للبلابل[٥] كغناء البلابل، وخمْرِ بابل .

ولهم فيما يتعلق بهذا النحو فى وصف أيام الربيع

يوم سماؤه فاختيّة[٦] ، وأرضه طاوُسيّة . يومٌ جلابيبُ غيومه رواق ، وأرْدِيَة نسيمه رِقَاق . يوم مُمَسّكُ السماء ، مُعَصْفَرُ الهواء ، مُعَنْبَرُ الرَّوْضِ ، مُعْتَدل الماء .

---

(١) فى س : غصنه .   (٢) الينع ـ بالضم: من جنى الشجر . وبالفتح : الأثمار الناضجة .
(٣) العين : الذهب . والورق : الفضة .   (٤) فى س . الظرف .
(٥) البلابل : الهموم والوساوس .   (٦) الفاختة : طائر

يوم زُرَّ عليه جَيْبُ الضَّباب ، وانسحب فيه ذَيْلُ السحاب . يوم سماؤه كالخزّ الأدْكَن ، وأرْضُهُ كالديباج الأخْضَر :

شادِنٌ يَرْتَعِي القلوب بِبغدا … دَ ولا يَرْتَعِي الكلا بالنِّبَاجِ[1]
أقبلَت والربيعُ يختالُ فى الرَّوْ … ض وفى المزن ذِى الحيا الثَّجَّاجِ[2]
ذو سماء كأدْكَنِ الخزّ قد غيـ … مَتْ وأرضٍ كأخْضَرِ الديباجِ
فتجلى عن كل ما يتمنى … موعد الكدخداةِ والهيلاجِ[3]
فظللنا فى نُزْهَتَيْن وفى حُسْـ … نين بين الأرْمَالِ والأهْزاجِ
بفتاةٍ تسرُّنا فى الثَّانِى … وعجوزٍ تسرُّنا فى الزُّجاجِ
أخذَتْ من رءوسِ قومٍ كرامٍ … ثارَها عند أرْجُلِ الأعلاجِ

يوم حَسَنُ الشمائل ، مُمْتِعُ الخمايل ، سَجْسَجُ الهواء ، مُونِقُ الأرْجاء . يوم تبسَّم عنه الربيعُ ، وتبرَّجَ عنه الروضُ المَرِيع . يوم كأنَّ سماءَه مؤتم تتباكى ، وأرْضه عَرُوسٌ تتجلَّى . يوم مشهّر الأوْصاف ، أغرّ الأطراف . يوم يُخْفِى فيه النَّوْر ويَقْلِبه ، وتُسْفِر فيه الشمس وتَنْتَقِب ، وتَمْتَنِقُ الغصون وتفترق ، ويوشى الغيم ويفسكب . يوم غاب نَحْسُه وهَوَى ، وطلع سَعْدُه واعْتَلَى ، والزمانُ ساقطة جاره[4] ، مُفْعَمَةٌ أنهاره ، مُونِقَةٌ أشجارُه ، مغرّدة أطيارُه . نحن فى غبّ سماء ، قد أقلعت بعد الارتواء ، وأقشعت عند الاستغناء ، فالنَّبْتُ خَضِلٌ ممطور ، والنَّقْعُ ساكن محصور . يوم جوُّه طاروني[5] ، وأرْضه طاوسى . يوم دَجْنُهُ عاكف ، وقَطْرُه واكف . يومٌ من أعياد العُمْرِ ، وأعْيانِ الدَّهْرِ .

---

(١) النباج : موضع . (٢) ثج الماء : سال . (٣) فى كل الأصول : الكدخداة وهذا من رسائل البديع ، والضبط من س . (٤) فى س : غاره
(٥) الطرن : الخز ، والطاروني : نوع منه .

ولهم في تشبيه محاسن الربيع بمحاسن الإخوان والسادة

غَيْثٌ متشبهٌ بكفّك، واعتداله مُضاهٍ لخلقك، وزَهْرُه مُوازٍ لنَشْرِك، كأنما استعار حُلَلَه من شيمتك، وحَلْيَه من سجيّتك، واقتبس أنوارَه من محاسن أيامك، وأمطارَه من جُودك وإنعامك. قدم الربيعُ مُنْتَسِباً إلى خلقك، مُكْتَسِبا محاسِنَه من طَبْعك، متوشّحا بأنوار لفظك، متوضّحاً بآثار لسانك ويدك. أنا في بُستان أذْكَرَني وَرْدُه المفتّح بخلقك، وجَدْوَلُه السائح بطبعك، وزَهْرُه الجَنِيُّ بقُرْبك. أنا في بستان كأنّه من شمائلك سُرِق، ومن خُلُقك خُلِق، وقد قابلتني أشجارٌ تتمايل فتذكرني تمايُحَ الأحباب إذا تداولتهم أيدي الشراب، وأنهار كأنّها من يدك تَسيل، ومن راحتيك تَفيض. أنا على حافة حَوْضٍ أزرق كصفاء مودّتي لك، ورِقّة قولي في عتْبك.

[في الصوم]

الصوم في الربيع

وقال ابن عَوْن الكاتب:

جاءنا الصومُ في الربيع فهلا اخْ ... تار رُتْبَتَه من سائر الأرباع
وكأنّ الربيعَ في الصوم عِقْدٌ ... فوق نَحْرٍ غطّاه فَضْلُ قِناع

يوم الشك

وكتب أبو الفتح كشاجم إلى بعض إخوانه يستدعيه إلى زيارته في يوم شك:

هو يوم شَكٍّ يا علىُّ وبشرهُ مُذْ كان يُحذَر[1]
والجوُّ خُلْقَتُه مُمَسَّكة ومُطْرَفُه[2] مُعَنْبَر
والماء فضّيُّ القميص وطَيْلَسانُ الأرض أخضر
نَبَتَتْ بِمُصَعَّدٍ زَهْرُه في الرَّوْضِ قَطْرَ ندًى تَحَدَّر
ولنا فُضَيْلاتٌ تكون ليومنا قوتاً مُقدَّر

(١) في ط: يحزر، والحزر: التقدير. (٢) المطرف: رداء من خز مربع ذو أعلام

ومُـدامةٌ صفراءُ أدْ رك عُمْرَها كِسْرَى وقَيْصَرْ
فانْشَطْ لـنا لِنَحتَّ مِنْ كاساتِنا ما كان أكْبَرْ
أو لا فإنَّكَ جاهـلٌ إن قلت إنَّكَ سوف تُعْذَرْ

كتاب البديع في شهر رمضان — وكتب بديع الزمان إلى بعض أهـل هَمَذان : كتابي أطال الله بقاك عن شهر رمضان ، عرَّفنا الله بركة مَقْدَمِه ، ويُمْنَ مُخْتَتَمِه ، وخصَّك بتقصير أيامه ، وإتمام صيامه وقيامه ؛ فهو ، وإن عَظُمَتْ بركتُه ، ثقيلٌ حركتُه ؛ وإن جلَّ قَدْرُه ، بعيد قَعْرُه ، [وإن عمّت رأفته ، طويل مسافته ؛ وإن حسنت قُرْبته ، شديد صحبتُه ، وإن كبرت حرمته ، كثير حشْمَته ؛ وإن سرّنا مُبْتَداه ، فلن يسوءنا منتهاه][1] ؛ فإنّ حَسُن وجْهُه فليس يَقْبُح قفاه ، وما أحْسَنَه في القَذَال ، وأشْبَه إدبارَه بالإقبال ، جمل الله قدومه سببَ تَرْحاله ، وبَدْرَه فِداءَ هـلاله ، وأمدّ[2] فَلَكه تحريكا ، بتقضى[3] مُدَّتِه وَشِيكا ، وأظهر هلالَه نحيفا ، ليَزِفَّ إلى اللذاتِ زفيفا[4] ، وعفا الله عن مَزْحٍ يكرهه ، ومُجونٍ يُسْخِطُه .

عوّل البديع في هذا الـكلام على قول أبي الفضل بن العميد في رسالة له في مثل ذلك :

لابن العميد في مثل ذلك — أسألُ اللهَ أن يُعرِّفَني بركته ، ويُلقِّيني الخيرَ في باقي[5] أيامه وخاتمته ؛ وأرْغَبُ إليه في أن يقربَ على الفلكِ دَوْرَه ، ويقصِّر سَيْرَه ، ويُخفِّفَ حَرَكته ، ويعجِّل نَهْضَته ، ويُنقِصَ مسافةَ فلكه ودائرته ، ويُزِيل بركةَ الطُّولِ عن ساعاته ؛ ويَرُدَّ عليَّ غُرَّةَ شوال ؛ فهي أسْنَى الغُرَرِ عندي ، وأقرُّ لعيْني ؛ ويُطْلِعَ بَدْرَه ، ويُرِينى الأيْدي متطلّبة هلالَه ببِشْر ، ويسمعني النَّعْيَ لشهر رمضان ، ويعرض عليَّ هلاله أخْفَى من السِّحْرِ ، وأظْلَمَ من الـكُفْر ، وأنْحَفَ من مجنونِ بني عامر ، وأبْلَى من أسيرِ الهَجْرِ ؛

---

(١) من س ، ق . (٢) في ق : وأمر . (٣) في س : يقضى .
(٤) زف : أسرع . (٥) في س : ويلقني الخير في أيامه .

وأستغفرُ اللهَ جلّ وجهُهُ مما قُلْتُ إن كَرِهه ، وأستَعْفِيه من توفيق لما يذمُّه ؛ وأسأله صفحاً يُفيضه ، وعَفْواً يُوسِعه ، إنَّه يعلم خائِنةَ الأعْيُنِ وما تُخْفِي الصدور .

[الأمين]

قال المأمون لطاهر بن الحسين : صِفْ لي أخلاقَ المخلوع[1] . قال : كان واسعَ الصَّدْرِ ، ضَيِّقَ الأدَبِ ، يُبيحُ من نفسه[2] ما تأْنَفُه هِمم الأحرار ، ولا يُصْغِي إلى نصيحة ، ولا يقبل مَشُورة ؛ يستبدُّ برأيه ، ويُبْصِرُ[3] سوء عاقبته ؛ فلا يَرْدَعُه ذلك عما يَهُمُّ به . قال : فكيف كانت حروبُه ؟ قال : كان يجمعُ الكتائبَ بالتبذير ، ويفرِّقُها بسوء التدبير . فقال المأمون : لذلك حلّ ماحلّ[4] به ؛ أمَا والله لو ذاق لذّاتِ النصائح ، واختار مَشُورَاتِ الرجال ، وملَكَ نَفْسَه عن شهواتها ، لما ظُفِر به .

ولما عقد الرشيدُ البيعةَ للأمين وهو أصغرُ من المأمون لأجل أمّه زُبَيْدة ، وكلامِ أخيها عيسى بن جعفر ، وقدّمه على المأمون ، جعل يرى فَضْلَ عقله فيندَم على ذلك ، فقال :

لقد بان وجهُ الرّأيِ لي غَيْرَ أنّني ... غُلِبْتُ على الأمْرِ الذي كان أحْزَما
فكيف يُرَدُّ الدَّرّ[5] في الضَّرْعِ بعدما ... تَوَزَّع حتى صار نَهْباً مقسَّما
أخافُ الْتِوَاءَ الأمرِ بعد استوائه ... وأنْ يُنقَضَ الحَبْلُ الذي كان أُبْرِما

قال أسد بن يزيد بن مزيد[6] : بعث إليَّ الفضلُ بن الربيع بعد مقتل عبد الرحمن الأنباري ، قال : فأتيته وهو في صَحْنِ داره ، وفي يده رُقْعة قد غضِب لما نظر فيها ، وهو يقول : ينامُ نَوْمَ الظَّرِبَان[7] ، وينتبهُ انتباهَ الذئب ، هِمَّتُه بَطْنُه ، ولذّته فَرْجُه ، لا يفكِّر في زوالِ نِعْمَة ، ولا يتروّى في إمضاء رَأْي ولا مَكِيدة ، قد شمّر له عبدُالله

(١) يعني الأمين . (٢) في س ، ق : يبيح نفسه . (٣) في س ، ق : فيبصر .
(٤) في س ، ق : ماحل عليه . (٥) الدر : اللبن . (٦) تاريخ الطبري : ١٠ — ١٥٨ .
(٧) الظربان : دويبة كالهرة منتنة .

عن ساقه ، وفوّق له أشدّ سهامه ، يرميه على بُعْد الدار بالحتف النافذ[١] ، والموت القاصد[٢] ؛ قد عبّى له المنايا على مُتون الخيـــل ، وناطَ له البلاءَ في أسنّة الرماح وشفار السيوف ، ثم تمثّل بشعر البَعيث :

يُقارِعُ أتراكَ ابنِ خاقانَ ليلَهُ ... إلى أن يرى الإصباحَ لا يتلعثمُ
فيُصبحُ في طُولِ الطِّرادِ وجسْمُهُ ... نَحيلٌ وأضحى في النعيم أصمّمُ
فشتّانَ ما بيني وبين ابن خالدٍ ... أميّةَ في الرِّزقِ الذي اللهُ يقسم[٣]

ثم قال : يا أبا الحارث ، أنا وأنت نَجْري إلى غاية إنْ قصّرْنا عنها ذُمِمْنا ، وإن اجتهدنا في بلوغها انْقطعْنا ؛ وإنما نحن شُعْبة[٤] من أصلٍ ، إن قَوِيَ قوينا ، وإن ضَعُفَ ضعفنا ؛ إن هذا الرجل قد ألقى بيده إلقاءَ الأَمَة الوَكْعاء[٥] ، يشاور النساءَ ، ويعتمدُ على الرؤيا ، وقد أمكنَ أهلَ اللهو والخَسارة[٦] من سَمْعه ؛ فهم يَعِدونه الظَّفَرَ ، ويَمُدّونه عواقب[٧] الأيام ؛ والهلاكُ إليه أسرعُ من السيل إلى قِيعانِ الرَّمْل ؛ وقد خشيتُ أن نَهْلِكَ بهلاكه ، ونعطَبَ بعَطَبه ، وأنت فارسُ العرب وابنُ فارسها ؛ وقد فزِع إليك في[٨] لقاء طاهر لأمرين : أحدهما صِدْقُ طاعتك ، وفَضْلُ نصيحتك ؛ والثاني يُمْنُ نَقيبتك ، وشِدّةُ بأسك ؛ وقد أمرني أنْ أبسطَ يدك ، غير أنّ الاقتصاد رأسُ النصيحة ، ومفتاحُ البركة ؛ فبادِرْ ما تريد ، وعَجِّل النهضة ، فإني أرجو أنْ يوليكَ اللهُ شَرَفَ هذا الفَتْح ، ويلمّ بكَ شَعَثَ الخلافة .

فقلت له : أنا لطاعتك وطاعةِ أمير المؤمنين مُقْدِم ، ولما وَهَنَ عدوّكما مُؤْثِر ؛

---

(١) في ط : الناقر ، وفي س : الناقر . (٢) هكذا في الطبري ، وفي ط ، س ، ف : القاصر . (٣) في الطبري : قاسم . (٤) في الطبري : شعب .

(٥) من الوكف : وهو الإثم والعيب والنقص . وفي الطبري : الوكعاء ، وهي الحمقاء .

(٦) في الطبري : وقد أمكن مسامعه ما معه من أهل اللهو والجسارة .

(٧) في ف ، س : عقب . (٨) عبارة الطبري : فزع إليك في لقاء هذا الرجل وأطمعه فيما قبلك أمران .

غير أنّ المحارب لا يفتتحُ أمرَه بتقصير؛ وإنما ملاكُ أمرِه الجنود، والجنودُ لا تكون بلا مال؛ وقد رفع أمير المؤمنين الرغائبَ إلى قوم لم يُجْدُوا عليه، ومتى سُمت مَنْ أقدرُ به الانتفاع له الرضا[1] بدون ما أخذه غيرُه ممن لم يكُنْ عنده غناء ولا مَعُونة، لم ينتظم بذلك التدبير؛ وأحتاجُ لأصحابي رِزْقَ سنة قَبْضًا. وحملا[2] إلى ألفِ فرس لحمل من لا أرْتَضِي فرسه، وإلى مال أستَظهِرُ به، لا أُلام على وَضْعِه حيث رأيْت.

فقال: شاوِرْ أمير المؤمنين؛ فأدخلني عليه، فلم تَدُرْ بيني وبينه كلمتان حتى أمر بحبْسِي.

ويروى أن الأمين لما أعْيَتْه مكايدُ طاهر قال[3]:

بُليت بأشْجَعِ الثقلين نَفْسًا ... تَزُول الراسياتُ وما يَزُولُ

له مع كل ذي بَدَن[4] رقيبٌ ... يشاهده ويَعْلَمُ ما يقول

فليس بِغُفِلٍ أمراً عَنَاهُ[5] ... إذا ما الأمْرُ ضَيَّعَه الجهولُ[6]

وفي الفضل بن الربيع يقول بعضُ الشعراء: في الفضل ابن الربيع

كم مِن مقيمٍ ببغدادٍ على طَمَعٍ ... لولا رجاء أبي العباس لم يُقِمِ

البدرُ إن نظروا والبحرُ إنْ رَغِبوا ... والحِصْنُ إن رهبوا والسيف ذُو النقَمِ

وقال عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع: ما مدحنا شاعرٌ بشعر أحب إلينا من قول أبي نواس[7]:

ساد الملوكَ ثلاثةٌ ما منهمُ ... إن حُصِّلوا إلا أغرُّ[8] قَرِيعُ

ساد الربيعُ وسادَ فَضْلٌ بعدهُ ... وعَلَتْ بعبّاس الكريمِ فروعُ

عباس عباسٌ إذا احتدم الوَغَى ... والفَضْلُ فَضْلٌ والربيعُ ربيعُ

وقيل للعتّابي: أمدحت أحدا؟ قال: لا، وليس لي على ذاك قدرة. فقيل له:

---

(١) هكذا في كل الأصول. (٢) في الطبري: وأحمل ألف رجل ممن معي على الخيل.
(٣) الطبري: ١٠ — ١٨٩. (٤) في الطبري: بعد. (٥) في الطبري: عنادا.
(٦) في الطبري: الفضول. (٧) ديوانه ٩٧. (٨) في الديوان: إلا أغر.
القريع: الذي يغلب في المقارعة أو هو السيد في قومه.

فقد مدحتَ الربيع ، فقال : ذلك ليوم يستحقّ فيه المدح ، فقلت :

ومعضلةٍ قام الربيع إزاءَها   ليُعمِد[1] ركن الدِّين لما تهدَّما
بمكةَ والمنصور رهن كما أتى   أخا الوحْي داعى رَبِّه فتقدَّما
غداةَ عداةُ الدين شاحذةُ المُدى   إليه وغُولُ الحربِ فاغرةٌ فَمَا

[بيعة المهدى]

وكان المنصور قد تُوفِّى بمكةَ وهو حاجٌّ فى ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة ، فأخذ الربيع للمهدىّ البيعةَ على الناس ، وأخذ بتجديدها عن المنصور على أنه حىّ ، وأدخل إليه قوماً فرأوْه من بعيد وقد جلَّله بثوب ، وأقعد إلى جنبه من يحرِّك يده وكأنه يُومِئ بها إليهم ، فلم يشكُّوا فى حياته ؛ فما خالف أحد ؛ فشكره المهدى لذلك.

وفى ذلك يقول أبو نواس فى مدحه الفضل بن الربيع[2] :

أبوك جلَّى عن مُضَرْ   يوم الرواقِ المحتضر
والحربُ تَفْرِى[3] وتَذَرْ   لمـا رأى الأمر اقمطَرّْ
قام كريماً فانتصَرْ   كهزة العَضْبِ الذَّكَرْ
ما [..]س من شىء هبَرْ   وأنت تقتافُ الأثرْ
من ذى حُجول وغُرَرْ

وقال أيضاً[4] :

آل الربيع فَضَلْتمُ   فضل الخَميس على العشير[5]
من قاس غيرَكم بكم   قاس الثِّماد[6] إلى البُحُور
أين القليلُ بنو القلي   ل من الكثير بنى الكثير

---

(١) عمده وأعمده : أقامه بعماد . (٢) ديوانه : ٨٠ . (٣) فى الديوان : والموت يفرى ويذر . (٤) ديوانه : ٨٤ . (٥) الخميس : الخمس ، والعشير : العشر . (٦) الثماد : الماء القليل لا مادة له .

أين النجومُ التاليا ... ت من الأهلّةِ والبدور
قومٌ كَفَوا أيام مـ ... كّة نازل الخَطْبِ الكبير
وتداركوا نَصْرَ[1] الخلا ... فة وهي شاسعة النّصير
لولا مقامُهُمُ بهـا ... هَوَتِ الرواسى من ثَبير

ومن قول أبى نواس: «من قاس غيركم بكم...» البيت، أخذ أبو الطيب المتنبى[2]: من النقد

قواصِدَ كافورٍ توارِكَ غيرِهِ ... ومَن قَصَد البحرَ استقلَّ السواقِيا
فتًى ما سَرَيْنَا فى ظُهورِ جُدودِنا ... إلى عَصرِه إلّا نُرَجِّى التّلاقِيا

[وقت كلام الملوك]

وقال الفضل بن الربيع: مَنْ كلَّم الملوكَ فى الحاجات فى غيرِ وَقْتِ الكلام لم يَظْفَر بحاجته، وضاع كلامُه؛ وما أشبههم فى ذلك إلّا بأوقات الصلوات لا تُقْبَلُ الصلاةُ إلا فيها، ومن أراد خطابَ الملوك فى شىء فلْيَرْصُد الوقتَ الذى يصلح فى مثله ذِكْرُ ما أراد، ويسبّب له شيئاً من الأحاديث يحسن ذِكْرُه بعَقِبه.

وقال المأمونُ للفضل بن الربيع لما ظَفِر به: يافضلُ؛ أكان فى حق عليك، وحق آبائى ونعمهم عند أبيك وعندك، أنْ تَثْلِبَنى وتَسُبَّنى، وتُحرِّض على دمى؟ أتحبُّ أن أفعل بك مافعلتَه بى؟

فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنّ عُذْرِى يُحْقِدُك إذا كان واضحا جميلا، فكيف إذا حفّته العيوب، وقبَّحَتْه الذنوب؟ فلا يَضِيقُ عنى من عَفْوِك ماوسع غيرى منك؛ فأنت كما قال الشاعر فيك:

صَفوحٌ عن الأجرام حتى كأنّهُ ... من العفو لم يَعْرِفْ من الناس مُجْرِما
وليس يُبالى أن يكونَ به الأذَى ... إذا ما الأذى لم يَغْشَ بالكُرْهِ مُسْلِمَا

والشعر للحسن بن رجاء بن أبى الضحاك.

---

(١) فى الديوان: جزر. (٢) ديوانه: ٤ — ٢٧٧.

[بين المنصور والربيع]

وقال سعيد بن مسلم بن قتيبة : دعا المنصور بالربيع فقال : سلني ما تُريد ، فقد سكتَّ حتى نطقْتَ ، وخفَّفت حتى ثقّلت ، وأقللْتَ حتى أكثَرْتَ .

فقال : والله ياأمير المؤمنين ماأرْهَب بُخْلَك ، ولا أستَقْصِر عُمْرَك ، ولاأستَصْغِر فَضْلَك ، ولا أغْتَنِم مالك ؛ وإنّ يومى بفضلك علىّ أحسنُ من أمسى ، وغدك فى تأميلى أحْسَنُ من يومى؛ ولو جاز أن يَشْكُرَك مثلى بغير الخِدْمَةِ والمُناصحة لما سَبَقنى لذلك أحد .

قال : صدقْتَ ، عِلْمى بهذا منك أحلّك هذا المحلّ؛ فسلنى ما شئت. قال: أسألك أن تقرّب عبدَكَ الفَضْل ، وتؤثره وتحبّه .

قال : ياربيع ؛ إنّ الحب ليس بمال يُوهَب ، ولا رُتْبَة تُبذَل ؛ وإنما تؤكّده الأسباب . قال : فاجعل لى طريقا إليه ، بالتفضّل عليه . قال : صدقت ، وقد وصَلْته بألف ألف درهم ، ولم أصل بها أحداً غير عمومتى ؛ لتعلم مالَه عندى ، فيكون منه مايَسْتَدْعِى به محبّتى . ثم قال: فكيف سألتَ له المحبة ياربيع ؟ قال : لأنها مفتاحُ كلّ خير ، ومِغْلاق كلّ شر ، تُستَر بها عندك عيوبُه ، وتَصير حسناتٍ ذنوبه . قال : صدقت وأتيت بما أردت فى بابه .

* * *

شىءٌ من النقد أخذ قوله : « خففت حتى ثقلت » أبو تمام فقال لمحمد بن عبد الملك الزيات(١) :

على أنّ إفراطَ الحيــاء استمالنى ... إليكَ ولم أعدِل بمرضىَ مَعْدِلا
فثقّلتُ بالتخفيف عنك وبعضهم ... يخففُ فى الحاجات حتى يُثقّلا

(١) ديوانه : ٢٥٥ .

[سهل بن هارون يدعو للمأمون]

ودخل سهلُ بنُ هارون على الرشيد وهو يُضَاحِكُ المأمون ، فقال: اللهم زِدْهُ من الخيرات، وابْسُطْ له من البركات ، حتى يكونَ فى كل يوم من أيامه مُرْبِيا على أمْسِه، مُقَصِّرًا عن غده .

فقال له الرشيد : ياسَهْلُ ، من رَوى من الشعر أحسنَه وأرْصنه ، ومن الحديث أفصحَه وأوضَحه إذا رام أن يقولَ لم يُعْجِزه القول .

فقال سهل بن هارون : ياأمير المؤمنين؛ ما ظننت أنّ أحداً تقدّمنى إلى هذا المعنى.

قال : بل أعشى همدان حيث يقول :

رأيتك أمْسِ خَيْرَ بنى لؤىٍّ   وأنْتَ اليوم خيرٌ منك أمسِ
وأنْتَ غدا تَزيد[1] الخَيْرَ ضِعْفا   كذاك تَزيد[1] سادةُ عَبْدِ شَمْسِ

[من شعر الفضل بن الربيع]

ومن شعر الفضل بن الربيع ما أنشده الصولى :

إنّى امرؤٌ من هاشمٍ   بفِناء مَعْمُور النَّواحِى
أهل الهدى وذوى التُّقَى   وأولى البَسالة والسَّماحِ
أهلِ المعالم والمكا   رم فى المَسَاء وفى الصَّبَاحِ
أهل النبوّة والخِلا   فَة والكمالِ برَغْم لاحِى
يتألّمون من الصُّدُو   دِ ويَصْبِرُونَ على الجِرَاحِ

[دابة]

حمل محمد بن عبيد الله بن خاقان أبا العيناء على دَابّة زعم أنها غيرُ فارِه[2] ، فكتب إليه : أعلمَ الوزير ، أعزه الله ، أن أبا على محمدا أراد أن يَبرّنى فعقّنى ، وأن

(١) فى ف ، س : تريد .   (٢) فره : حذق ، فهو فاره .

يُرْكِبني فأرْجَلني ، أمر لي بدابّة تَقِفُ للنَّبْرَة[1] ، وتَعْثُر بالبَعْرة ، كالقضيب اليابس عَجَفا[2] ؛ وكالعاشق المهجور دَنَفا[3] ، قد أذْكَرَتِ الرواة عذرة العذرىّ ، والمجنون العامرى ، مساعد أعلاه لأسفله ، حُبَاقُه مقرون بسُعَاله ، فلو أمْسَكَ لترجيت ، ولو أفْرِد لتعزّيْت ، ولكنه يَجْمَعُهما في الطريق المعمور ، والمَجْلِس المشهور ، كأنّه خطيبٌ مُرْشِد ، أو شاعر مُنْشِد ، تَضْحَكُ من فِعْلِه النِّسْوَان ، وتَتَنَاغَى من أجله الصِّبيان ؛ فمن صائح يَصِيحُ : دَاوِه بالطباشير ، ومن قائل يقول : نَوِّله الشعير ، قد حفِظَ الأشعار ، ورَوَى الأخبار ، ولحق العلماء في الأمْصار ، فلو أُعِينَ بنطق ، لروى بحقٍّ وصدق عن جابر الجُعفىّ ، وعامر الشَّعبي ؛ وإنما أُتيت من كاتبه الأعور ، الذى إذا اختار لنفسه أطاب وأكثر ، وإن اختار لغيره أخْبَثَ وأنْزر ، فإن رأى الوزير أن يُبَدِّلني به ، ويُريحني منه بمركوب يُضْحِكني كما ضحَّك مني ، يَمْحُو بحُسْنِه وفَرَاهَته ما سطَّره العَيْبُ بقُبْحه ودمامته! ولست أذكُرُ أمْرَ سَرْجِه ولجامه ؛ فإن الوزير أكْرمُ من أن يَسْلُب ما يهديه ، أو يَنْقُض ما يُمْضيه .

فوجّه عبيد الله إليه بِرْذَونا من بَرَاذِينه بِسَرْجِه ولجامه ، ثم اجتمع مع محمد بن عبيد الله عند أبيه ، فقال عبيد الله : شكوت دابّة محمد ، وقد أخبرني الآن أن يشتريه منك بمائة دينار ، وما هذا ثمنه لا يُشْتَكَى .

فقال : أعز الله الوزير ، لو لم أكذب مستزيداً لم انصرف مستفيداً ، وإنى وإياه لكما قالت امرأة العزيز[4] : ﴿ الآنَ حَصْحَصَ الحقّ أنا رَاوَدْتُه عن نَفْسِه وإنه لمن الصادِقين ﴾ . فضحك عبيد الله ، وقال : حجّتك الداحضة بمَلَاحَتِك وظَرْفِك أبلغُ من حُجّة غيرك البالغة .

---

(١) النبرة : صيحة الفزع . (٢) العجف : ذهاب السمن .
(٣) الدنف : المرض الملازم . (٤) سورة يوسف ، آية ٥١ .

قطعة من رسالة أجاب بها أبو الخطاب الصابى
عن أبى العباس بن سابور إلى الحسين بن صَبرة[١]
عن رقعة وردت منه فى صفة حَمَل أهْدَاه

وصلت[٢] رُقْعَتك فقَضَضْتُها عن خطٍّ مُشْرِق ، ولفظ مُونِق ، وعبارة مُصيبة، ومعانٍ غريبة ، واتساع فى البلاغة يَعجِزُ عنه عبدُ الحميد فى كتابته، وقُسّ وسَحْبَان فى خطابته ؛ وتصرف بين جدٍّ أمْضى من القَدَر ، وهَزْلٍ أرقَّ من نسيم السَّحَر ، وتقلُّب فى وجوه الخِطَاب ، الجامع للصَّوَاب ؛ إلا أنّ الفعلَ قصر عن القول ، لأنك ذكرت حَمَلًا ، جملته بصفتك جَمَلًا ، فكان المُعَيْدِيّ الذى تسمعُ به ولا أنْ تراه .

وحضر فرأيت كَبْشًا مُتَقَادِمَ الميلاد من نِتَاج قَوْمِ عَاد ، قد أفْنَته الدّهور، وتَعَاقَبَتْ عليه العصور ، فظننته أحَد الزَّوْجَين اللذين جعلهما نوحٌ فى سفينته ، وحفِظَ بهما جِنْسَ الغنم لذرِّيته ؛ صَغُرَ عن الكِبر ، ولَطُفَ عن القدم[٣] ، فبانَتْ دَمامتُه ، وتقاصرت قامَتُه ، وعاد ناحلا ضئيلا ، باليًا هزيلا ، بادِىَ السَّقَام ، عارِى العِظَام ، جامعًا للمعايب ، مشتملا على المَثَالِب ، يَعْجَبُ العاقلُ من حلول الحياةِ به ، وتأتّى الحركةِ فيـــه ، لأنه عَظْمٌ مجلّد[٤] ، وصوف مُلَبَّد ، لا تجد فوق عظامه سَلَبًا[٥]، ولا تَلْقَى يدك منه إلا خَشَبا ، لوْألقِىَ إلى السَّبع لَأَباه، ولو طرح للذئب لَعافَه وقَلاه، قد طال للكلأْ فَقْدُه ، وبَعُدَ بالمَرْعَى عَهْدُه ، لم يَر القتّ[٦] إلا ناعًا، ولا عرف الشعير إلا حالمًا ، وقد خيّرتنى بين أن أقْتَنيه فيكون فيه غِنَى الدهر ، أو أذبحه فيكون فيه خِصْب الرَّحل[٧]؛ فمِلْتُ إلى استبقائه لما تعرف من محبّتى فى التوفير، ورغبتى للتّثمير، وجَنْى للولد ، وادّخارى لغَد[٨] ، فلم أجِدْ فيـــه مستمتعًا للبقاء ، ولا مَدْفَعًا للفناء؛

(١) فى ط : الغير بن ميزة . وفى س : بن ميرة . (٢) نهاية الأرب ١٠ — ١٢٨ .
(٣) فى النويرى : القدر . (٤) عظم مجلد : لم يبق عليه إلا الجلد .
(٥) السلب : ما على الرجل من اللباس . يريد هنا اللحم . (٦) القت : نبات تعلفه الدواب . (٧) فى النويرى : العسهر . (٨) فى ط ، س : لعتد ، ويقال : فرس عتد : معد للجرى ، أو شديد تام الخلق .

لأنه ليس بأنثى فتَحْمِل ، ولا بفتى فيَنْسُل ، ولا بصحيح فيَرْعَى ، ولا بسليم فيَبْقَى ؛ فلتُ إلى الثانى من رأييك ، وعوّلت على الآخر من قَوْلَيك ، وقلت : أذبحه فيكون وظيفة للعيال ، وأقيمه رَطْباً مقام قديدِ الغَزال ، فأنشدنى وقد أضرمت النار ، وحُدَّت الشِّفار ، وشمّر الجزّار[1]:

أُعيـذُهَا نظراتٍ منك صادِقةً ، أنْ تَحْسِبَ الشَّحْمَ فيمَنْ شَحْمُه وَرَمُ ...

وقال : ماالفائدة لك فى ذَبْحى؟ وأنا لم يَبْقَ منى إلا نَفَس خافتٌ ، ومُقلةٌ إنسانُها باهت . لستُ بذى لَحْم ، فأصلح للأكل ؛ لأنّ الدهرَ قد أكل لحمى ، ولا جِلْدى يصلُح للدِّباغ؛ لأنّ الأيام قد مزّقَتْ أدِيمى، ولالى صُوف يصلُح للغزل، لأن الحوادث قد حَصّت[2] وَبَرى ؛ فإن أردتنى للوَقُود فكفُّ بَعْرٍ أبقى من نارى ، ولن تَفِىَ حرارةُ جمرى بريح قُتَارى[3] ، فلم يبق إلّا أن تطلبنى بذَحْل[4]، أو بينى وبينك دَم ؛ فوجدتُه صادقاً فى مقالته ، ناصحاً فى مَشُورته ، ولم أعلم من أى أمرَيْه أعجب ؟ أمِن مماطلته للدهر بالبقاء ، أم من صبره على الضُّر واللأواء ، أم من قدرتك عليه مع إعواز مثله ، أم من تأهيلك[5] الصديق به مع خَساسة قَدْرِه ؟ وياليت شعرى إذ كنتَ — وإليك سوق الغنم ؛ وأمرُك يَنْفُذ فى الضأن والمَعز ، وكلُّ كبش سمين وحمل بطين مجلوبٌ إليك ، مقصورٌ عليك — تقول فيه قولا فلا تُرَدّ، وتريده فلا تُصَدّ ، وكانت هديتك هذا الذى كأنه ناشر[6] من القبور ، أو قائم[7] عند النفخ فى الصُّور ، فما كنتَ مُهْدِيا لو أتاك رجل من عُرْض الكُتّاب ، كأبى علىّ وأبى الخطّاب ، ما كنت تهدى إلا كلبا أجرب ، أو قرداً أحدب .

---

(١) ديوان المتنبى : ٣ — ٣٦٦ . (٢) حصت : حلقت وأذهبت .
(٣) القتار : الدخان من المطبوخ . (٤) الذحل : الثأر .
(٥) فى النويرى : إتحافك . (٦) فى النويرى : أنشر . (٧) فى النويرى : أقيم .

[الحدونى وشاة سعيد]

وقال الحدونى فى شاة سعيد بن أحمد خوستداذ[١] :

أسعيد قد أعطيتنى أضحيّةً … مكثتْ زمانًا عندكم ما تطعمُ
نِضْواً تعاقرتِ الكلابُ بها وقد … شدّوا عليها كى تموت فيولموا
فإذا الملا ضحكوا بها قالت لهم … لاتهزءوا بى وارحمونى تُرْحَمُوا
مرّت على عَلَفٍ فقامت لم تَرِم … عنه وغنّت والدامعُ تُسجم
وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى … متأخَّر عنــه ولا متقدَّمُ

وقال أيضاً[٢] :

أبا سعيدٍ لنا فى شاتِك العِبَرُ … جاءت وما إن لها بَوْلٌ ولا بَعَرُ
وكيف تبعَرُ شاةٌ عندكم مكثتْ … طعامُها الأبيضانِ الشمسُ والقمرُ
لو أنَّها أبصرتْ فى نومها عَلَفاً … غنَّتْ له ودموعُ العين تنحدر
يا مانعى لذَّةَ الدنيا بأجمعها[٣] … إنى ليفتننى[٤] من وَجْهِك النظرُ

وقال أيضاً :

شاةُ سعيدٍ فى أمرِها عِبَرُ … لما أتتنا قد مسّها الضررُ
وهى تغنّى من سوءِ حالتها … حَسْبى بما قد لقيت يا عُمَرُ
مرّت بقطفِ خضرٍ ينشّرها … قومٌ فظنّتْ بأنها خُضَرُ
فأقبلتْ نحوها لتأكلها … حتى إذا ما تبين الخبرُ
وأبدلتها الظنونُ من طَمَعٍ … يأساً تغنّتْ والدمعُ منحدرُ
كانوا بعيداً وكنت آملهم … حتى إذا ما تقربوا هجروا

وقال[٥] :

(١) الفوات : ١ — ١٨ . (٢) النويرى ١٠ — ١٣١ ، الفوات ١٠ — ١٨ .
(٣) فى النويرى : بما رحبت . (٤) فى النويرى والوفيات : ليفتنى .
(٥) النويرى ١٠ — ١٣٢ ، الفوات ١٠ — ١٨ .

لسعيدٍ شُوَيْهَةٌ … سلّها الضُّر والعَجَفْ
قد تغنّتْ وأبصرت … رجلا حاملا عَلَفْ
بأبي مَنْ بكفِّهِ … بُرْءُ ما بي من الدَّنَفْ
فأتاها مطمِّعًا … وأتتْه لتَعتَلِفْ
فتولى فأقبلتْ … تتغنَّى من الأسَفْ
ليتَه لم يكن وَقَفْ … عذَّب القلب وانصَرَفْ

[الحمدونى وطَيْلَسان ابن حَرْب]

[قال][1] : وإذ قد جَرَتْ بعضُ تضمينات الحمدونى فى هذا الموضع فأنا أذكرهنا قطعةً من شعره فى الطيلسان ، وأنعطف فى غير هذا الموضع إليها وأكر عليها ؛ وكان أحمد بن حَرْب المهلّبى من المُنعِمين عليه والمحسنين إليه ، وله فيه مدائح كثيرة ؛ فوهب له طيلسانا أخْضرلم يَرْضَه، قال أبو العباس المبرّد : فأنشدنا فيه عشر مقطعات، فاستَحْلَينا مَذْهَبه فيهــا ، فجملها فوق الحسين ؛ فطارت كل مَطار ، وسارت كل مسار ، فنها[2] :

يا بْنَ حربٍ كَسَوْتَنى طَيْلَسانًا … مَلَّ من صُحْبة الزمان وصَدّا
فحسِبنا نَسْج العناكب قد حا … لَ[3] إلى ضَعف طَيْلَسانِك سدّا
طال تَرْدادُه[4] إلى الرَّفْو حتى … لو بَعَثْناه وَحْدَه لتهدَّى

وقال فيه أيضاً :

يا طيلسان ابن حرب قد هممت بأنْ … تُودِى بجسمى كما أوْدَى بك الزَّمَنُ
ما فيك مِنْ ملبس يغنى ولا ثمن … قد أوْهَنَت حيلتى أركانُك الوُهُنُ
فلو تَرَانى لَدَى الرَّفّاء مُرْتَبطا … كأننى فى يَدَيْهِ الدهرَ مُرْتَهن

---

(١) من س ، ق .   (٢) الفوات ١ — ١٧ ، الوفيات ٣ — ٤٣٧ .
(٣) فى س ، ق : حين .   (٤) الترداد : الترديد .

أقولُ حين رآني الناسُ ألزمهُ ... كأنما ليَ في حانوته وَطَنُ
مَنْ كان يسأل عنّا أينَ منزلُنا ... فالأقحوانة مِنّا منزِلٌ قَمِنُ

وقال[1] :

قل لابْنِ حَرْبٍ طيلسا ... نُكَ قومُ نوحٍ منه أحْدَثْ
أفنَى القرونَ ولم يَزَلْ ... عمّنْ مضى من قبل يُورَثْ
وإذا العيونُ لحَظْنَهُ ... فكأنه باللَّحْظِ يُحرَثْ
يُودِى إذا لم أرْفُهُ ... فإذا رَفَوْتُ فليس يَلْبَثْ
كالكلب إن تَحْمِل عليـ ... ـه الدهْرَ أو تترُكْه يَلْهَثْ

وقال :

قل لابْنِ حَرْبٍ طيلسانُك قد ... أوْهَى قُوَاى بكَثْرةِ الفُرُمِ
متبيّنٌ فيـه لمُبْصِرِه ... آثارُ رَفْوٍ أوائلِ الأمم
وكأنّه الخمرُ التى وصفت ... فى : ياشقيق الرّوح مِن حكَم
فإذا رَمَمْناه فقيـل لنا ... قد صَحّ قال له البلى : انْهَدِم
مثـل السّقيم بَرَا فراجَعهُ ... نُكْسٌ[2] فأسلمه إلى سَقَم
أنشدت حين طَفَى فأعْجزَنى ... ومن العَناء رياضةُ الهرم

***

« الخمر التى وُصِفت » من قول أبى نواس[3] : ... من العقد

ياشقيقَ النفْسِ من حكَمِ ... نِمت عن ليْلى ولم أنمِ
فاسْقِنى البِكْرَ التى اعْتَجَرتْ[4] ... بِخمارِ الشّيْبِ فى الرّحِم
ثُمّتَ انْصاتَ[5] الشباب لها ... بعد أن[6] جازت مَدَى الهرم
فهى لليـوم الذى بُزِلت ... وهى تِلْوُ[7] الدّهْر فى القِدَم

(١) وفيات الأعيان ٣ ـ ٤٣٨ . (٢) النكس : عود المرض .
(٣) ديوانه : ٣٢٤ . (٤) فى الديوان : اختمرت . (٥) انصات : أجاب ، وأقبل .
(٦) فى الديوان : بعد ما جازت . (٧) فى الديوان : ترب الدهر .

مُتِقَتْ حتى لو اتصلت ... بلسانٍ ناطقٍ وفمِ
لاحتَبَت فى القوم مائلةً ... ثم قصَّت قِصَّةَ الأُمَمِ
قَرَعَتْها بالمزاج يَدٌ ... خُلِقَت للكأس[1] والقلمِ

وقال الحمدونى :

طَيْلَسانٌ لابنِ حربٍ جاءنى ... خِلْعَةً فى يوم نَحْسٍ مستمِرّْ
فإذا ما صِحتُ فيه صَيْحَةً ... تَركتْه كهشيم المحتضر
وإذا ما الريح هبَّتْ نحوهُ ... طيَّرَتْه كالجرادِ المنتشِرْ
مُهْطِعٌ[2] الداعى إلى الرّاق إذا ... ما رآه قال : ذا شىءٌ نُكُر
وإذا رفَّاؤه حاول أن ... يتلافاه تعاطى فعقَرْ

وقال :

أيا طيلسانَ أعْيَيْت طِبِّى ... أسلٌّ بجسْمِك أم داءُ حبٍّ
ويا ريح صَيَّرتنى أتَّقيك ... وقد كنتُ لا أتَّقى أن تَهُبِّى
ومستخبر خَبَرَ الطيلسان ... فقلت له الروح من أمرِ ربِّى

وقال فيه :

طَيْلَسانٌ لابنِ حربٍ جاءنى ... قد قَضَى التمزيقُ منه وَطَرَهْ
أنا من خوفٍ عليه أبداً ... سامِرىٌّ[3] ليس يألو حَذَرَه
يا بْنَ حرب خُذْه أو فابْعَثْ بِما ... نشترى عِجْلا بصفرٍ عشرَه
فلعل اللهَ يُحْيِيه لنا ... إن ضربناه ببَعْض البَقَرَهْ
فهو قد أدرك نوحا ، فعسى ... عنده من علم نوحٍ خَبَرَه
أبدا يَقْرأ مَن أبصرَهْ ... أئذا كُنّا عِظاماً نَخِرَهْ

---

(١) فى الديوان : للسيف والقلم ، وقرعتها : افتضتها . (٢) المهطع : الساكت المنطلق إلى من هتف به . (٣) السامرى : الذى عبد العجل ، كان عظيما من بنى إسرائيل .

وقال فيه[١] :

يابْنَ حربٍ أطَلْتَ فَقْرِي[٢] بِرَفْوِي ... طيلسانا قد كنتُ عنه غَنِيّا
فهوَ في الرَّفْوِ آلُ فِرْعَوْنَ في العَرْ ... ضِ على النــار غُدْوَةً وعَشِيّا
زُرْتُ فيــه معاشراً فازْدَرَوْني ... فتغنَّيْتُ إذ رأوني زَرِيّا
جئتُ في زِيِّ سائلٍ كي أراكم ... وعلى الباب قد وَقَفْتُ مَلِيّا

وقال فيه[١]:

وهبتَ لنا ابنَ حربٍ طَيْلَسانا[٣] ... يَزِيدُ المرء ذا الضَّعَةِ اتِّضاعا
يُسلِّمُ صاحبي فيعيــد شتمي ... لأنَّ الروحَ يُكْسِبُه انصداعا[٤]
أُجِيل الطَّرْفَ في طَرَفَيْهِ طُولًا ... وعَرْضاً ما أرى إلّا رِقاعا
فلستُ أشكّ أنْ قد كان قِدْماً ... لنُوحٍ في سفينتــه شِراعا
فقد غنَّيْتُ إذ أبصرت منــهُ ... جوانبه على بَدَني[٥] تَداعَى
قِفِي قَبْــلَ التفرُّقِ يا ضُباعا ... ولا يَكُ مَوْقِفٌ مِنكِ الوَداعا[٦]

[المأمون والحسن بن رجاء]

دخــل المأمونُ بعضَ الدواوين فرأى غلاما جميلا على أذنه قلم ؛ فقال : من أنتَ يا غلام ؟ فقال : أنا يا أمير المؤمنين الناشئُ في دولتك ، المتقلِّبُ في نعمتك ، المؤمِّل لخدمتك ، خادِمك وابنُ خادمِك الحسنُ بن رجاء ، فقــال : أحسنت يا غلام ، وبالإحســانِ في البديهة تفاضَلت العقُول . فأمر أن يرفع عن مرتبة الديوان .

قال أبو إسحاق إبراهيم بن السرى الزجاج : قال لى أبو العباس المبرّد : ما رأيتُ

---

(١) الوفيات : ٣ — ٤٣٧ . (٢) في الوفيات : وترى . (٣) في الوفيات : رأينا طيلسانك يابن حرب . (٤) رواية البيت في الوفيات :

يسلم صاحبي فيقد شبرا ... به وأقد في ردى ذراعا

(٥) في الوفيات : بقاياه على كتفي . (٦) البيت للقطامي ، وضباعة : اسم امرأة .

فى أصحاب السلطان مثل إسماعيل والحسن ؟ كنت إذا رأيته رأيت رجلا كأنما خُلق لذِرْوَة مِنْبَر ، أو صَدْرِ مجلس ، يتكلّم وكأنه يتنفّس ، يُسْهِبُ ويُطْنِب ، ويُغْرِبُ ويُقْرِب ، ولا يعجَب ويعجِب .

أراد القاضى إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد ، والحسن بن رجاء ابن أبى الضحاك .

[المبرد والمتوكل]

وكان أبو العباس يُعَدّ فى البلغاء ، وقال : لما دخلت على المتوكل اختار لى الفَتْحُ ابن خاقان وَقْتَ شُرْبه ، وكان الشراب قد أخذ منه فسألنى وقال : يابصرى ، أرأيت أحسنَ وجهاً منى ، فقلت : لا والله ولا أسْمَح راحة ، ثم تجاسرت فقلت :

جَهَرْتُ بِحَلْفَةٍ لا أتّقيها ... بشكٍّ فى اليمين ولا ارتيابِ
بأنك أحسنُ الخلفاء وَجْها ... وأَسْمَحُ راحتين ولا أحابى
وأنّ مُطِيعك الأعلى مَحَلاًّ ... ومَنْ عاصاك يَهْوِى فى تَبابِ (١)

فقال : أحسنت وأجلت فى حُسْن طبعك وبديهتك ، فقلت : ما ظننتُنى أبلغُ هذا الشرف ، ولا أنال هــذه الرتبة ، فلا زال أميرُ المؤمنين يسمو بخدمه إلى أعْلى المراتب ، ويصرفهم فى المذاهب .

[من أدب المبرد]

وكان ابنُ المعتزّ قد غضبَ على بعض وكلائه ، فصار إلى أبى العباس المبرّد يسأله أن يكلّمه له ؛ فكتب إليه المبرّد : أنتَ والله كما قال مسلم بن الوليد فى جدك الرشيد :

بأبى وأمى أنتَ ما أنْدَى يَدًا ... وأبرّ ميثاقاً وما أزْكاكا
يَغْدُو عدوُّك خائفا فإذا رأى ... أن قد قدرت على العِقاب رَجاكا

وهذا معنى كثير .

---

(١) التباب : الهلاك .

[استطراد في المدح]

أنشد أحمد بن يحيى ثعلب الأعرابي(١) :

كريمٌ يغضّ الطّرْفَ فَضْلَ حَيَائه   ويَدْنُو وأطرافُ الرماحِ دَوَانِي
وكالسيفِ إن لاينته لَانَ مَتْنهُ   وحَدّاه إنْ خاشَنْتَهُ خَشِنَان

وهذا يناسب قول ابن المعتز في بعض جهاته(٢) :

وَيجْرَحُ أحشائي بعَيْنٍ مريضةٍ   كما لانَ مَتْنُ السيفِ والحدُّ قاطعُ

وقال الأخطل في بني مروان(٣) :

صُمٌّ عن الجَهْلِ ، عن قِيل الخنا(٤) أُنُفٌ   إذا ألمّتْ بهِمْ مكروهةٌ صَبَرُوا
شُمْسُ العداوةِ حتى يُسْتَقَاد لهم   وأعْظَمُ النــاسِ أحلاماً إذا قَدَرُوا

وقال إبراهيم بن عليّ بن هرمة يمدح أبا جعفر المنصور :

كريمٌ له وَجْهَان : وجهٌ لدى الرضا   طليقٌ ، ووَجْهٌ في الــكريهة باسِلُ
وليس بمُعْطِي الحقّ من غَيْرِ قُدْرَةٍ   ويَعْفُو إذا ما أمْــكَنَتْه المَقَاتِلُ
له لحظاتٌ من حِفَافَيْ سريرهِ   إذا كرّها فيها عِقابٌ ونَائِلُ
فأمّ(٥) الذى أمّنت آمنةُ الرّدى   وأمّ الذى حاولت بالثُّــكْلِ ثَاكِلُ

وقال الطائي في أبي سعيد محمد بن يوسف(٦) :

هو السيلُ إن واجهتَه انقدْتَ طَوْعَهُ   وتقتادُهُ من جانِبَيْهِ فيتبعُ

رجع إلى الحسن بن رجاء

وكان عصابة الجرجاني ، واسمه إسماعيل بن محمد منقطعا إلى الحسن بن رجاء متصلا به ، وهو القائل فيه :

ومحجَّبٍ بالنور ليس يدركُهُ   إلا بما تأتي به الأنباءُ

---

(١) اللآلئ — ذيل : ٣٨ .
(٢) ديوانه ١ — ٨٨ ، اللآلئ : ٢٠٥ .
(٣) الشعراء : ٤٧٠ .
(٤) في الشعراء : حشد على الحق عيافو .
(٥) في س ، ق : فأما .
(٦) ديوانه : ١٩٠ .

مَلِكٌ يُحِبُّ اللهَ فهو يُحِبُّهُ ... ويطيعه فتطيعه الأشياءُ
يمشى الهوينا للصلاة يُقيمها ... وإذا مشى للحرب فالخُيَلاءُ
لله درّك أيُّها ابن عزيمةٍ ... يشوى الزمانَ ومالَهُ إشواءُ

ثم عتب عليه فى بعض الأمر ، فهجاه هجاء قبيحا ؛ فهرب إلى عمان ، ثم اعتذر إليه بقصيدته التى أولها :

لا تحضبنَّ عوالِيَ المُرّانِ ... إلا من العلق[1] النَّجيع الآنِ[2]

وهى أجودُ شعر قيل فى معناه ، وهى التى يقول فيها :

اقرَ السلام على الأمير وقل له ... إن النادمة الرضاعُ الثانى
ما إنْ أتى حشمى بأنك ساخطٌ ... حتى استخف بموضعى غِلمانى
وغدت علىّ مطاعمى ومشاربى ... وملابسى من أعوَنِ الأعوانِ

فكتب إليه الحسن :

أبلغ أبا إسحاق أنّ محلّهُ ... منى بحيث الرأسُ والعينانِ
لاتبعدنَّ بك الديارُ لنزغةٍ ... ولتُبعِدَنَّ نوازغَ الشيطانِ
فليفرخ الرَّوعُ[3] الذى رُوِّعتَه ... إن الحلَّ محلُّ كلِّ أمانِ

[جميل وعمر بن أبى ربيعة]

اجتمع جميل بن معمر العذرى بعُمَرَ بن أبى ربيعة المخزومى ، فأنشده جميل قصيدته التى أولها[4] :

لقد فَرِحَ الواشُونَ أنْ صَرَمَتْ حَبْلِى ... بُثَيْنَةُ أو أبدَتْ لنا جانبَ البُخْلِ
يقولونَ مهلًا يا جميلُ وإنّنى ... لأُقْسِمُ مالِى عن بُثَيْنَةَ مِنْ مَهْلِ

---

(١) العلق : الدم . والنجيع من الدم : ما كان إلى السواد . (٢) فى ط : القانى . وهذا من ت ، س : وآنى الحميم : انتهى حره فهو آن . (٣) الروع : الفزع .
(٤) ديوانه ٤٨ ، الأغانى ١ — ١١٤ .

خَلِيلَيَّ فِيمَا عِشْتُمَا هَلْ رَأَيْتُمَا   قَتِيلًا بَكَى مِنْ حُبِّ قَاتِلِهِ قَبْلِي

فقله أبو العتاهية فقال :

يامَنْ رأى قَبْلِي قتيلا بكى   من شِدَّةِ الوَجْدِ على القاتلِ

فلما أتمها قال لعمر : يا أبا الخطاب ، هل قلت في هذا الرويّ شيئاً ؟ قال : نعم ، ثم أنشده(١) :

جرى ناصحٌ بالود بيني وبينها   فقربني يوم الحِصَاب(٢) إلى قتلي
فما أنْسَ مِ الأشياء لا أنْسَ قولَها   ومَوْقِفها يوما بقارعة النخل
فلما تواقفْنَا عرفتُ الذي بهـا   كمثل الذي بي حَذْوَكَ النَّعْلَ بالنَّعْلِ
فسلَّمْتُ واستأنستُ خِيفَةَ أنْ يَرَى   عدوٌّ مكاني أو يرى حاسد(٣) فعلي
وأقبلَ أمثالُ الدُّمى يكتنِفْنَها   وكلٌّ يُفَدِّي بالمودَّةِ والأهْلِ
فقالت وأرْخَتْ جانب السِّتْرِ إنما   معي فتكلَّمْ غَيْرَ ذِي رِقْبَةٍ أهلي
فقلت لها : ما بِي لهم من تَرَقُّبٍ   ولكنَّ سرِّي ليس يحمِلُه مِثْلِي

فاستخذى جميل وصاح : هـذا والله الذى طلبَتْ الشعراء فأخطأته ، فتعلَّلُوا بوصف الديار ، ونعت الأطلال .

ولما مات عمر بن أبي ربيعة نُعِي لامرأة من مولَّدات مكة وكانت بالشام ، فبكت طويلاً وقالت : مَنْ لأباطح مكة ، ومن يَمدحُ نسـاءها ، ويصفُ محاسنهن ، ويبكي لعتبهن ! فقيل لها : قد نشأ فتى من ولد عثمان بن عفان على طريقته ، فقالت : أنشدوني له فأنشدوها(٤) :

وقد أرسلت في السر لَيْلَى(٥) بأنْ أقِمْ   ولا تَقْرَبنَّا فالتجنُّبُ أجْمَلُ

(١) ديوانه : ٢٨٠ ، الأغاني ١ — ١١٥ ، اللآلي : ٧٠٩ . (٢) الحصاب : موضع رمي الجمار ، وفي ط : المضاب ، وفي ق : يوم المطاب . (٣) في الديوان والأغاني : كاشح .

(٤) هذه الأبيات ساعدنا الأخير في ديوان عمر بن أبي ربيعة صفحة ٨٠ ، ورويت في أمالي الزجاجي للعرجي . (٥) في ط : ليلا ، وفي أمالي الزجاجي : لقد أرسلت ليلى رسولا بأن أقم .

لعلّ العيونَ الرامقات لِوَصْلنا ... تــكذب عَنّا أو تَنَامُ فتغفل
أُناسٌ أمنّاهم فبثُّوا حَديثنا ... فلما كتَمْنَا السرّ[1] عنهم تقوَّلُوا
فما حفظوا العَهْدَ الذى كان بيننا ... ولا حين هَمُّوا بالقطيعة أجْمَلُوا

فتسلّت وقالت : هذا أجلُّ عوض ، وأفضل خَلَف ، فالحمدُ لله الذى خلف على حرمه وأمته مثل هذا .

وقال عُرْوةُ بن أُذَينة : ابن أبى عتيق للعرْجى :

فما ليلةٌ عندى وإنْ قِيل لَيلةٌ ... ولا ليلة الأضْحَى ولا ليلة الفِطْرِ
بِعادلةِ الإثنين عندى وبالحرَى ... يكونُ سواء مثلها ليلةُ القَدْرِ
وماأنْسَ مِ الأشياء لاأنس قولَها ... لجارتها قُومِى سَلِى لى عن الوِتْرِ
فجاءت تقولُ الناسُ فى ست عشرةٍ ... ولا تَعْجَلِى عنه فإنك فى أجْرِ

فقال ابن أبى عتيق : هــذه أفقه من ابنِ أبى شهاب ؛ أُشهدكم أنّها حُرّةٌ من مالى إن أجاز أهلُها ذلك .

العرجى والعَرْجى هو عبد الله بن عمرَ بن عمرو بن عثمان بن عفان ، وكان ينزل بعَرْج الطائف[2] فنُسِب إليه ، وهو القائل :

هل فى ادّكَارِى الحبيبَ مِنْ حَرَجِ ... أمْ هل لِهَمّ الفؤادِ مِنْ فَرَجِ
أمْ كيف أنْسَى مسيرنا حرما ... يَوْم حَلَلْنَا بالنّخْلِ مِنْ أمَجِ[3]
يوم يقولُ الرسولُ قد أذنت ... فأْتِ على غــير رِقبةٍ فَلِجِ[4]
أقبَلْتُ أهْوِى إلى رِحالِهِمُ ... أُهْدَى إليها بريحها الأرِجِ

وكان محمد بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم واليا على مكة ، وهو خال

---

(١) فى ديوانه : السر . (٢) قرية جامعة فى واد من نواحى الطائف .
(٣) قرية كثيرة المزارع والنخل ، وأهل أمج : خزاعة — معجم ما استعجم ١٩٠ .
(٤) من ولج .

هشام بن عبد الملك بلغه أنّ العرجيّ هجاه ، فضربه ضربا مبرحا، وأقامه على أعين الناس، فجعل يقول[١] :

سيغضب لى الخليفة بعد رقّ ... ويسأل أهل مكّة[٢] عن مساقى

علىّ عباءةٌ بَرْقاء[٣] ليست ... من البَلْوى تجاوزُ نِصْفَ سَاقى

وتَغْضَب لى بأسرتها[٤] قُصَىٌّ ... ولاةُ الشعبِ والطُّرق العِماق[٥]

فحلف محمد بن هشام ألا يخرجه ما دامت له ولاية ؛ فأقام فى السجن سبع سنين حتى مات ، وهو القائل فى سجنه[٦] :

أضاعونى وأىّ فتًى أضاعوا ... ليوم كريهة وسِدَادِ ثَغْرِ

وخَلَّونى[٧] ومعترك المنايا ... وقد شُرِعت أسنّتهم لنَحْرِى

كأنى لم أكن فيهم وَسِيطاً ... ولم تك نسبتى فى آلِ عَمْرِو

أُجرَّرُ فى الجَوامع[٨] كلَّ يوم ... ألاَ لله مَظْلِمتى وصَبْرى

عسى المَلِكُ المجيبُ لمن دعاهُ ... سيُنْجِينى فيعلم كَيْفَ شُكْرِى

فأجْزِى بالكرامة أهْلَ وُدِّى ... وأجْزِى بالضغائن أهْلَ ضُرّى

جملة من الفصول القصار لابن المعتز

البشر دالٌّ على السخاء كما يدلّ النَّوْر على الثمر . إذا اضطررت إلى الكذّاب فلا تصدّقه ولا تُعلِمْه أنك تكذّبه ، فينتقل عن [illegible] ، ولا ينتقل عن طبعه . كما أن الشمس لا يخفى ضوءها وإن كانت تحت السحاب [illegible] عقله وإن كان مغموراً بأخلاق الحداثة . كَرَمُ الله عزّ وجل لا يَنْقُضُ حِكمته ، ولذلك

(١) معاهد التنصيص ٣ — ١٧٨ ، الأغانى ١١ — ٤١١ . (٢) رواية المعاهد :
سينصرنا الخليفة بعد ربى ... ويغضب حين يخبر . . .
(٣) فى المعاهد : ناقاه . (٤) فى المعاهد : بأجمعها . (٥) فى المعاهد : قطين البيت والدمث الرقاق .
(٦) الأغانى : ١ — ٤١٣ . (٧) فى الأغانى : وصبر عند .
(٨) الأغانى : وصبرى . والجوامع : مفردها جامعة، وهى الغل .

لا يحمل الإجابةَ في كل دعوة. كما أنّ جلاءَ السيف أهْوَنُ من صُنْعه، كذلك استصلاح الصديق أهونُ من اكتساب غيْرِه. إذا استرجع اللهُ مواهبَ الدنيا كانت مواهب الآخرة. لولا ظلمةُ الخطأ ما أشرق نورُ الصواب. الحوادث المِمضّة مُكْسِبةٌ لحظوظ جزيلة، من ثواب مدّخر، وتطهير من ذَنْب، وتَنْبيه من غَفْلة، وتعريف بقَدْرِ النعمة، ومُرُون على مُقَارَعَةِ الدهر.

ومثل هـــذا الفصل محفوظ عن ذى الرياستين، قاله بعقب علّةٍ فأغار عليه ابن المعتز.

وكتب إلى أحمد بن محمد جوابا عن كتابٍ استزاده فيه: قَيَّدْ نِعْمَتى عندك بمـا كنت استدْعيتها به، وذُبَّ عنها أسْبَابَ سوء الظن، وَاسْتَدِمْ ما تُحِبُّ منى بمـا أحبُّ منك.

وكتب إليه: واللهِ لاقابَلَ إحسانك منى كفرٌ، ولا تَبِعَ إحسانى إليك مَنٌّ، ولك عندى يدٌ لا أقبضُها عن نفعك، وأخْرَى لا أبْسطها إلى ظُلْمِك، فتجنّبْ ما يُسْخِطنى؛ فإنى أصون وجهك عن ذُلّ الاعتذار.

وكان أحمدُ بن سعيد يؤدّبه فتحمل البلاذرى على قبيحة أم ابن المعتز بقومٍ سألوا أن تأذن له أن يدخلَ إلى ابن المعتز وقتاً من النهار، فأجابت أو كادَتْ تجيب، قال ابنُ سعيد: فلما اتصل الخبرُ بى جلستُ فى منزلى غضْبَانَ لما بلغنى عنها، فكتب إلىَّ ابنُ المعتز وله ثلاث عشرة سنة:

أصبحتَ يابن سعيد خِدْنَ مَكْرُمَةٍ — عنها[1] يُقَصِّرُ مَنْ يَحْفَى ويَنْتَعِلُ
سَرْبَلْتَنِى حِكْمةً قد هذّبت شِيَمِى — وأجّجَتْ نارَ ذِهْنِى فهى تَشْتَعِلُ
أكونُ إنْ شِئْتَ قُسّاً فى خَطَابَتِهِ — أو حارثاً وهو يوم الحَفْلِ مُرْتَجِلُ
وإنْ أشأْ فَكَزَيْدٍ فى فرائضه — أو مِثْلَ نعمانَ لما ضَاقَتِ الحِيَلُ

---

(١) فى ط: عما.

أو الخليل عَرُوضيًا أخا فِطَنٍ ... أو الكِسائىّ نَحْويًّا له عِلَلُ
تَمْلُو بَدَاهةُ ذِهْنِى فى مراكبها ... كمِثْلِ ما عَرَفَتْ آبائىَ الأُوَلُ
وفى فمى صارِمٌ ما سَلَّه أحدٌ ... من غِمْدِهِ فدرى ما العيشُ والجَذَلُ
عُقباك شُكْرٌ طويل لا نَفادَ له ... يَبْقَى بجِدَّتِه ما أطَّتِ[1] الإبِلُ

وقسّ الذى ذكر هو قسّ بن ساعدة الإيادى ، وقد سَمِع النبى صلى الله عليه وسلم شِعْرَه ، وعجب منه .

وحارث هو الحارث بن حِلِّزة اليشكرى ، وصف ارتجاله يوم فَخْرِه بقصيدته التى أنشدها بحضرة عمرو بن هند التى أولها[2] :

آذَنَتْنا بِبَيْنِها أسْماءُ ... رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ منه الثَّوَاءُ

وزيد هو زيد بن ثابت الأنصارى ، وإليه انتهى علم الفرائض . ونعمان هو أبو حنيفة النعمان رضى الله عنه ابن ثابت ، وسبق أهْلَ العراق فى الفِقْه . والخليل بن أحمد الفُرْهُودى ، ويقال الفَرَاهيدى ، منسوب إلى حىّ من الأزد اليحمرى . والكسائى على بن حمزة الكوفى .

[لابن العميد إلى بعض إخوانه]

وكتب أبو الفضل محمد بن العميد إلى بعض إخوانه : أنا أشكو إليك — جعلنى الله فِداك — دهراً خَؤُوناً غَدُوراً ، وزماناً خَدُوعاً غَروراً ، لا يَمنحُ ما يَمنح إلا ريْثَ ما ينتزع ، ولا يبقى فيما يهب إلا ريْثَ ما يَرْتَجِع ، يبدو خَيْرُه لما ثم ينقطع ، ويَحْلُو ماؤه جُرعاً ثم يَمْتَنِع . وكانت منه شيمَةٌ مألوفة وسجيّةٌ معروفة أن يُشفِع ما يُبْرِمُه بقُرْبِ انتقاض ، ويُهْدِى لما يبسطه وَشْكَ انقباض ، وكنا نَلْبَسُه على ما شرط ، وإن خان وقَسَط[3] ؛ ونَرْضَى على الرغم بحكمه ، ونَسْتَنِيم بقَصْدِه وظلمه ، ونعتدّ

(١) أطت الإبل : أنت تعبا أو حنينا . (٢) المعلقات : ٢٥١ .
(٣) قسط : جار وعدل .

من أسباب الميسرة ألّا يجيء محذوره مصمتا بلا انفراج ، ولا يأتي مكروهه صرفا بلا مزاج ، ونتعلل بما نختلسه من غفلاته ، ونسترقه من ساعاته . وقد استحدث غير ما عرفناه سُنّة مبتدعة ، وشريعة متّبعة ، وأعدّ لكل صالح من الفساد حالا ، وقرن بكل خلّة[1] من المكروه خِلالا . وبيان ذلك — جعلني الله فداك — أنه كان يمتنع من معارضته الإلفين ، بتفريق ذات البين ؛ فقد أنثني ممنوّا[2] فيك بجميع ما أوغره ، وما أطويه من البلوى منك أكثر مما أنشره ؛ وأحسبني قد ظلمت الدهر بسوء الثناء عليه ، وألزمته جرما لم يكن قدره بما يحيط به ، وقدرته ترتقي إليه ، ولو أنك أعنته وظاهرته ، وقصدت صرفه وآزرته ، وبعتني بيع الخلق وليس فيمن زاد ولكن فيمن نقص ، ثم أعرضت عني إعراض غير مراجع ، واطّرحتني اطراح غير مجامل ؛ فهلّا وجدت نفسك أهلا للجميل حين لم تجدني هناك ، وأنفذت من حل ما عقدت من غير جريمة ، ونكثت ما عهدت من غير جريرة ، فأجبني عن واحدة منهما ؛ ما هذا التّقيّ بنفسك ، والتّمالي على صديقك ؟ ولِمَ نبذتني نبذ النّواة ، وطرحتني طرح القذاة ؛ ولم تلفظني من فيك ، وتمجّني من حلقك ؟ وأنا الحلال الحلو ، والبارد العذب ، وكيف لا تخطرني ببالك خطرة ، وتصيّرني من أشغالك مرة ؛ فترسل سلاما إن لم تتجشم مكاتبة ، وتذكرني فيمن تذكر إن لم تكن مخاطبة ؟ وأحسب كتابي سيرد عليك فتنكره حتى تتثبت ، ولا تجمع بين اسم كاتبه وتصوّر شخصه حتى تتذكر ؟ فقد صرت عندك ممن محا النسيان صورته من صدرك ، واسمه من صحيفة حفظك ، ولعلك أيضا تتعجب من طمعي فيك وقد توليت ، واستمالتي لك وقد أبيت ، ولا عجب فقد يتفجر الصّخر بالماء الزلال ، ويلين من هو أقسى منك قلبا فيعود إلى الوصال ، وآخر ما أقوله أنّ ودّي وقف عليك ، وحبس في سبيلك ، ومتى عدت إليه وجدته غضّا طريّا ، فجرّبه في المعاودة فإنه في العود أحمد .

(١) الخلة : الخصلة . (٢) مناه يمنوه : ابتلاه .

اجتليت هذا الكلام على اختيار الاختصار .

استطراد في النقد

* * *

حلّ قوله: «فقد يتفجر الصخرُ بالماء الزلال» من قول ابن الرومى :

يا شبيه البدر في الحسـ ـن وفي بُعْد المَنالِ
جُد فقد تنفجر الصَّخْـ ـرة بالماء الزُّلالِ

وفي هذه الرسالة في ذكر فتح وإن لم يستبق منه المعنى : وقد خصّنا اللهُ تعالى معاشرعبيد الأمير عضد الدولة بنعمة يَعْلُو مراتبَ النعم مَوْقِعُها، ويفوتُ مقدار المواهب موضعها ، فباسْمِه — أبقاه الله — فُتِح الفَتْح ، وبشماره استُنزل النّجْح، وبيُمْن نَقِيبته فُرِج الكَرْب ، وبسعادة جدّه كُشِف الخَطْب ، وباهتزازه للدولة وحمايته عاد إليها ماؤها ، ووراجمها بهاؤُها ، فعزّ الملك ونُصِر ، وذلّ العدو وقُهِر ، وحُمِيت أطرافُ الدولة ، وحُفِظت أكنافُ الملْك ، واستجدّ نظام النعمة ، وسُدِلَتْ ستورُ الصيانة دون الحرمة ، ولو جعل المولى — تقدّس اسمه — لنعمته إذا تناهت على عبيده جزاء غَيْرَ الإخلاص في شكره ، وقَبِل ما في مقابلة المَوْهِبة التى يستجدها عند خَلْقِه غَيْرَ الإغراق في حَمْده ، لرأيت ألّا أقتصر في قضاء حقه على بعض الملك دون بعض ، ولجعلت في صَدْرِ ما أبذل عن هذه النعمة الأعزّيْن : الأهل والولد ، والأنْصَرين : الساعد والعَضُد ، بل العميدين : القلب والكبد ؛ بل النفس كلها ، والمُهْجَة بأسرها .

[عتاب]

وقال سعيد بن حميد يعاتبُ بعض إخوانه :

أقلِلْ عتابك فالبقاء قليلُ والدّهرُ يعدِل تارةً ويميلُ
لم أبْكِ من زمن ذَمَمْتُ صُروفهُ إلّا بكَيتُ عليـه حين يزُولُ
ولِكُلّ نائبةٍ ألَمّتْ مُدّةٌ ولكل حالٍ أقبلَتْ تحْويلُ
والمنتمون إلى الإخاء جماعةٌ إنْ حصّلوا أفناهم التحصيل

ولعل أحداثَ المنيّةِ والرَّدى ... يوماً ستَصْدَعُ بيننا وتَحول
فلئن سَبقْتُ لتبكِينَ بحسرةٍ ... وليكثرنَّ علىَّ منك عَويل
ولتُفْجَعَنَّ بمُخْلِصٍ لك وامقٍ[1] ... حَبْلُ الوفاء بحَبْلِه موصول
ولئن سبقتَ — ولا سبقتَ — ليمضيَنْ ... من لا يُشَاكِلُه لدىَّ خليل
وليذهبنَّ بهاء كلِّ مروءةٍ ... وليُفْقَدن جمالُها المأهول
وأراكَ تَكْلَفُ بالعتاب ووُدُّنا ... صافٍ عليه من الوفاء دليل
ودٌّ بدا لذَوِى الإخاء جمالُه ... وبدت عليه بَهْجَةٌ وقَبول
ولعل أيامَ الحياة قليلةٌ ... فعَلامَ يكثر عَتْبُنا ويَطُول

وقال أيضاً :

لقد ساءنى أنْ ليس لى عنك مَذْهَب ... ولا لك عن سوء الخليقة مَرْغَبُ
أفكر فى وُدٍ تقادم بيننا ... وفى دونه قُرْبَى لمن يتقرَّبُ
وأنت سقيمُ الودِّ رثٌّ حِبالُهُ ... وخيرٌ من الودِّ السقيمِ التجنبُ
تُسِىء وتأْبَى أنْ تعقَّب بَعْدَهُ ... بحُسْنَى وتَلْقَانى كأنّىَ مُذْنِب
وأَحْذَرُ إنْ جازيت بالسوء والقِلَى ... مقالَةَ أقوامٍ هُمُ منك أنْجَبُ
أساء اختياراً أو عَرَتْه ملالةٌ ... فعاد يُسِئ الظنَّ أو يتعتَّبُ
نَفِيتُ من الودِّ الذى كان بيننا ... كما خاب رَاجِى البرق والبَرْقُ خُلَّبُ

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

إلى كم يكونُ الصَّدُّ فى كل ساعةٍ ... ولِمْ لا تملَّنّ القطيعةَ والهَجْرَا
رويدك ! إنَّ الدهرَ فيـه بقيَّةٌ ... لتفريقِ ذاتِ البين فانتظر الدَّهْرَا

آخر :

ولقد علمت فلا تكن متجنِّباً ... أنَّ الصدُودَ هو الفِرَاقُ الأوَّلُ

---

(١) الوامق : المحب .

حَسْبُ الأحِبَّةِ أن يفرِّقَ بينهم ... صَرْفُ الزمانِ فما لنا نَسْتَعْجِلُ

آخر :

دَعِ النفسَ تأخذ وسعها قبل بَيْنِها ... فمفترقٌ جارانِ دارهما العمرُ

ويقرب من المعنى قول المتنبي أيضاً (١) :

زَوِّدينا من حُسْنِ وجهكِ ما دا ... مَ فحُسْنُ الوجوهِ حالٌ يَحُولُ

وَصِلِينا نَصِلْكِ في هذه الدُّنْـ ... ـيا فإنَّ المُقامَ فيها قليلُ

[من كلام الأعراب]

وقف أعرابيٌّ يسأل، فعبث به فتى ، فقال : ممن أنت ؟ فقال : من بني عامر بن صعصعة ، فقال : من أيّهم ؟ فقال : إن كنت أردت عاطفة القرابة فليكفك هذا المقدار من المعرفة ، فليس مقامي بمقام مُجادَلة ولا مفاخرة ، وأنا أقولُ : فإن لم أكن من هاماتهم فلستُ من أعجازهم . فقال الفتى : ما رويتَ عن فضيلتك إلّا النقص في حسبك .

فامتعض الأعرابي لذلك ؛ فجعل الفتى يَعْتذِر ، ويخلط الهَزْل والدعابة باعتذاره ، وأطال الكلام ؛ فقال له الأعرابي : يا هذا، إنك منذ اليوم آذيتني بمَزْحِك، وقطعتني عن مسألتي بكلامك واعتذارك، وإنك لتكشف عن جَهْلِك بكلامك ما كان السكوت يَسْتُره من أمرك ، وَيْحك ! إنَّ الجاهل إن مَزَح أسْخَط ، وإن اعتذر أفرط ، وإن حدّثَ أسقط ، وإن قَدَر تسلّط ، وإنْ عزم على أمر تورَّط ، وإن جلس مجلس الوقار تبسّط ؛ أعوذُ منك ومن حالٍ اضطرتني إلى احتمالِ مثلك !

وقال إسحاق الموصلي : قال أعرابي لرجل كان يعتمده بالعطية : أسأل الذي رحمني بك أن يرحمَك بي .

وسأل أعرابي رجلا فأعطاه فقال : الحمـد لله الذي ساقني إلى الرزق وساقك إلى الأجر .

(١) ديوانه ٣ ــ ١٤٩ .

[من المقامات]

المقامة البلخية

ومن إنشاء البديع من مقامات الإسكندرى[1] :

قال : حدثنا عيسى بن هشام قال : أفضتْ[2] بى إلى بَلْخ تجارة البَزّ ، فوردتها وأنا بفَرْوَةِ[3] الشباب ، وبَالِ الفراغ، وحِلْية الثروة، ولا يهمُّنى إلا نُزهة[4] فكر أستفيدها ، أو شَريدة من الكلام أصيدها ؛ فما استأذن على سَمْعِى مسافةَ مُقامى أفصحُ من كلامى . ولمَّا حتى التفرقُ بنا قَوْسَه أو كاد ، دخل إلى شابٌّ فى زى مِلْءِ العَيْن ، ولحيةٍ تشوكُ الأخْدَعَيْنِ ، وطَرْفٍ قد شرب بماء الرّافدين ، ولَقِيَنِى من البِرّ فى السماء ، بما زِدْتُه من الشكر والثناء ؛ وقال : أظَعْناً تُريد ؟ قلت : إى والله ، فقال : أخصَبَ الله رَائِدَك ، ولا أضلَّ قائِدَك ، فمتى عزَمْتَ ؟ فقلت : غداةَ غد ، فقال:

صباحُ اللهِ لا صُبْحُ انطلاقِ   وطَيْرُ الوَصْلِ لا طَيْرُ الفِرَاقِ

قال : أين تُريد ؟ قلت : الوطن ، قال : بلغتَ الوَطن ، وقضَيْتَ الوَطَر ، فمتى العَوْد ؟ قلت : القابل ، قال : طويت الرَّيْط[5] ، وثَنَيْتَ الخيط ، فأين أنتَ من الكرم ؟ قلت : بحيث أردت ، قال : إذا رجعك الله من هذه الطريق ، فاستَصْحِب لى عدُوًّا فى بُرْدَةِ صديق من تُجَّار الصُّفْر ، يدعو إلى الكُفْر ، ويرقُص على الظُّفْر ، كدَارةِ[6] العين ، يحطُّ ثِقَلَ الدَّين ، وينافِقُ بوَجْهين ! فعلمت أنه يلتمس دينارا ، قلت : لك ذلك نقدا ، ومثله وَعْدا ، فأنشأ يقول :

رَأْيُك مِمّا خَطَبْتُ أعلى   لا زلتَ للمَكْرُمات أهْلا

---

(١) المقامات : ١٨ ، وهى المقامات البلخية . (٢) فى المقامات : نهضت .

(٣) فى المقامات : بعذرة . (٤) فى المقامات : مهرة فكر أستفيدها .

(٥) الريطة : الملاءة ذات لفقين ، أوكل ثوب لين رقيق ، وجمعه ريط . والمراد طويت أيام البعد . (٦) مستدير مثلها .

صَلُبْتَ عُوداً ودمتَ[١] جُوداً   وفُقْتَ فرعاً وطِبْتَ أصلا
لاأستطيع[٢] العطاءَ حَمْلا   ولا أطيق السؤالَ ثِقْلا
قصُرْتُ عَنْ مُنْتَهاكَ ظَنّا   وطُلْتُ عما ظَنَنْتَ فِعْلا
يا رحمة الله[٣] والمَعَالى   لا لَقِىَ الدَّهْرُ منكَ ثُكْلا

قال عيسى بن هشام : فنُلْتُه الدينار . وقلت : من أين نبَتَ هذا الفضْل ؟ قال : نمتنى قريش ، ومُهد لى[٤] الشرفُ فى بَطْحَائها . فقال بعض من حضر : ألَسْتَ أبا الفتح الإسكندرى ؟ ألم أرك بالعراق ، تطوفُ بالأسواق ، مُكْدِيا بالأوراق ؟ فأنشأ يقول :

إنَّ لله عبيـــدا   أخذوا العُمْرَ خَلِيطا
فهمُ[٥] يُمْسُون أعرا   باويُضْحُون نَبِيطا[٦]

من البديع إلى الميكالى

وله إلى أبى نصر الميكالى يشكو إليه خليفته بِهَرَاة[٧] :

كتابى أطال اللهُ بقاء الشيخ الجليل ، والماء إذا طال مُكْثُه ظَهَرَ خُبْثه ، وإذا سكن مَتْنُه ، تحرّك نَتْنُه ، كذلك الضيفُ يَسْمُج لقاؤه إذا طال ثَوَاؤه ، ويثقل ظِلّه إذا انتهى مَحَلّه ، وقد حلَبْت أشطار خمسة أشْهر بِهَرَاة وإن لم تكن دار مثلى لولا مُقامهُ ، وما كانت تسمى لولا ذِمَامُه[٨] ، ولى فى بيتى قيس[٩] مَثَلُ صدق ، وإن صدرا مَصْدَر عِشْق :

وأدْنَيتنى حتى إذا ما سَبَيْتَنى[١٠]   بقولٍ يُحِلّ العُصْمَ سَهْلَ الأبَاطِحِ
تجافَيْتِ عنى حيث لا لِىَ حِيلةٌ   وخَلَّفْتِ ما خَلَّفْتِ بين الجوانِحِ

---

(١) فى ط : وفقت جوادا ، وطبت . (٢) فى ا : أستطيع .
(٣) فى المقامات : يارحمة الدهر ، والرحمة : السناد . (٤) فى ا : بى .
(٥) فى ا : صحبة . (٦) النبيط : جماعة من العجم . (٧) الرسائل : ١٠٠ .
(٨) الذمام : العهد ، وفى الرسائل : إمامه . (٩) هو قيس بن الملوح الذى يعرف بالمجنون ، وفى الرسائل : ولى فى ثنتين مثل صدق . (١٠) فى ا : ما استبيتنى .

نعم، قنصتنى[1] نِعَمُ الشيخ الجليل، فلما عَلِق الجناح، وقَلِق البَرَاح، طرت مطارَ الريح، بل مطار الرّوح، وتركتنى بين قوم ينقض مَسُّهم الطهارة، وتُوهِن أكفُّهم الحجارة، وحُدِّثت عن هذا الخليفة، بل الجيفة، أنه قال: قضيت لفلان خمسين حاجةً منذ ورد هذا البلد، وليس يَقْنع، فما أصنع؟ فقلت: يا أحمق! إن استطعت أن تَرانى محتاجاً، فاستطع أن أراك محتاجاً إليك، أفّ لقولك ولفعلك، وللدهر أحْوَج إلى مثلك! وأنا أسأل الشيخ الجليل أن يبيِّضَ وجهى بكتاب يُسَوِّد وجهه، ويعرِّفه قَدْره، ويملأ رعباً صدره، إلى أن تَبِين على صفحات جَنْبِه آثارُ ذنبه.

وله إليه[2] يعاتبه:

كتابه فى العتاب

قد عرف الشيخ الجليل أنَّسامى بعبوديَّته، ولو عرفت وراءَ العبوديَّة مكاناً لبلغته معه، وأرانى كلما قدمت[3] صُحْبة، رجعت رُتْبة، وكلما طالت خِدْمة، قصُرت حِشمة، ولست ممن يذهب عليه أن للسلطان أنْ يرفع عَبْداً حبشيا، ويَضَع قُرَشِيّا، ولكن أحب أن أقف من مكانى على رُتْبةٍ كوكبُها لا يغور، ومنزلةٍ نَيِّرها لا يَدُور؛ فإذا عرفت قَدْرى[4] وخطه، لم أتخطَّه، ثم إن رأيت محلّ وحدّه، لم أتعدّه، إن قدَّمنى يوماً عليها علمت أن عنايةً قدمتنى، وإن أخّرنى عنها علمت أنّ جناية أخرتنى. رُفِع علىّ اليوم فلان ولستُ أُنكِر سِنَّه وفَضْله، ولا أجحد بيته وأصله، ولكن لم تَجْرِ العادة بتقدّمه لا فى الأيام الخالية ولا فى هذه الأيام الباقية؛ وشديدٌ على الإنسان ما لم يُعوَّد؛ فإن كان حاسدٌ قد همّ، أو كاشِح قد نمّ أو خَطْبٌ قد ألمّ، أو أمرٌ قد وقع وتَمّ، فالشيخُ الجليلُ أولى من يعرفه ويعرّفنيه، وإلا فما الرأى الذى أوْجَب اصطناعى ثم ضياعى، والسبب الذى اقتضى بَيْعِى بعد ابتياعى؟

---

(١) فى ا: قيصتنى. (٢) فى الرسائل ٢٠٨: وله إلى الوزير أبى نصر بن أبى بريدة.
(٣) فى الرسائل: فكلما أحدثت صحبة. (٤) فى ا: مكانى وخطه.

[المأمون وإبراهيم بن المهدى]

ولما رضى المأمون عن إبراهيم بن المهدى أمر به فأُدْخِل عليه[1] ، فلما وقف بين يديه قال : وَلِىُّ الثأر مُحَكَّم فى القصاص ، ومَنْ تَناوَله الاغترار بما مُدّ له من أسباب الرجاء أَمِن عادية[2] الدهر من نفسه ، وقد جعلك اللهُ تعالى فوق كل ذى ذنب ، كما جعل كلَّ ذى ذَنْب دونك ، فإن أخذتَ فبحقِّك ، وإن عفوت فبفضلك . ثم قال :

ذَنْبى إليــك عظيمٌ ... وأَنْتَ أعظم منــهُ
فَخُذْ بحقِّك أوْ لا ... فاصْفَحْ بفَضْلِك عنــهُ
إن لم أكن فى فعـالى ... مِنَ الكرام فكُنْهُ

فقال لى : إنى شاورتُ أبا إسحاق والعباس فى قَتْلك فأشارا به ، قال : فما قلتَ لهما يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت لهما : بدأناه[3] بإحسان، ونحن نَسْتَأْمِره[4] فيه ، فإن غيَّر فالله يغيِّر مابه ، قال : إما أن يكونا قد نصحا فى عظيم ما جَرَتْ عليــه السياسة فقد فعلا وبَلَغا ما يبلغك ، وهو[5] الرأيُ السديد ، ولكنك أبيت ألّا تستجلب[6] النصر إلّا من حيث عوَّدك الله . ثم استَعْبَرَ باكيًا . فقال له المأمون : ما يُبكيك ؟ قال : جَذَلا ! إذ كان ذَنْبى إلى مَنْ هذه صفته فى الإنعام ، ثم قال : إنه وإن كان قد بلغ جُرْمى استحلال دمى ، فحِلْمُ أمير المؤمنين وفَضْلُه يبلغانى[7] عفوه ، ولى بعــدهما شفاعة الإقرار بالذنب ، وحقُّ الأبوة بعد الأب . فقال : يا إبراهيم ، لقد حُبِّب إلىَّ العفو حتى خِفْتُ ألّا أُوجَر عليــه ، أما لو علم الناسُ مالنا فى العفو من اللذة لتقرّبوا إلينا بالجنايات ، لا تَثْرِيبَ عليك يغفر الله لك ، ولو لم يكن فى حق نَسَبك ما يبلغ الصفح عن جرمك لبلَّغك ما أملت حسن تنصّلك ولطف توصلك . ثم أمر بردّ ضياعه وأمواله . فقال :

---

(١) اللآلى : ٤٧٧ . (٢) فى ط : أمن من دعابة الدهر ، وهذه من ا .
(٣) فى ا : بدأت له . (٤) فى ا : نشمره . (٥) فى ا : مايبلغه ذو الرأى .
(٦) فى ا : أن تستجلب . (٧) فى ا : يبلغانى .

رددتَ مالى ولم تَبْخَل علىّ بهِ ... وقبل رَدِّكَ مالى قد حَقَنْتَ دمى
وقام علمك بى فاحتجّ عندك لى ... مقام شاهدِ عدلٍ غيرِ متَّهَمِ
فلو بذلتُ دمى أبغى رضاكَ بهِ ... والمالَ حتى أسلَّ النَّعلَ عن قدمى
ما كان ذاك سوى عاريةٍ سَلَفَتْ ... لو لم تَهبها لكنتَ اليوم لم تُلَمِ

الطائى يأخذ قول المأمون

أخذ معنى قول المأمون : « لقد حُبِّب إلىَّ العفو حتى خفتُ ألّا أُوجَرَ عليه » — أبو تمام الطائى ، فقال[1] :

لو يعلمُ العافون كم لكَ فى الندى ... من لذة[2] وقريحةٍ لم تَحْمَدِ

فكان أبو تمام فى هذا كما قال أبو العباس بن المعتز فى القاسم بن عبيد الله :

إذا ما مدحناه استمتعنا بفعله ... فنأخذ منى قولنا من فعالهِ

وكان تصويبُ إبراهيم لرأى أبى إسحاق المعتصم والعباس بن المأمون ألطفَ فى طلب الرضا ودَفْع المكروه واستمالتهما إلى العاطفة عليه من الإزراء عليهما فى رأيهما ، وكان إبراهيم يقول : والله ما عفا عنى لرَحِمٍ ولا لمحبّةٍ ، ولكن قامت له سوقٌ فى العفو كره أن يفسدها [بى][3] .

وكان المأمون شاوَر — فى قتل إبراهيم — أحمدَ بن أبى خالد الأحول فقال : إن قتلته لك نظير ، وإن عفوتَ عنه فلا نظيرَ لك ؛ فأختار لك[4] العفو .

وقال المأمون لإسحاق بن العباس : لا تحسبنى أغفلت أمْرَ ابن المهدى وتأييدك له وإيقادك لناره .

قال : والله يا أمير المؤمنين لإجرامُ قريش إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أعظمُ من جُرْمى إليك ، ولرَحِمى أمسّ بك من أرحامهم ، وقد قال لهم كما قال يوسفُ على نبينا عليه الصلاة والسلام لإخوته : لا تَثْريب عليكم اليومَ يَغْفِرُ اللهُ لكم

---

(١) ديوانه : ١١٣ . (٢) فى الديوان : من فرحة .
(٣) من ا . (٤) فى ا : فاختار العفو .

وهو أرْحَم الراحمين . وأنت ياأمير المؤمنين أحَقُّ وارث لهذه الأمة فى الطَّوْل ، وممتثل لخلال العَفْو والفَضْل .

قال: هيهات ! تلك أجرامٌ جاهلية عَفَا عنها الإسلام ، وجُرْمُك جُرْمٌ فى إسلامك ، وفى دارِ خلافتك .

قال: ياأمير المؤمنين ؛ فوالله للمسلم أحقّ بإقالة العَثْرَة وغُفْرَان الذنب من الكافر . وهذا كتابُ الله بينى وبينك إذ يقول : وسَارِعُوا إلى مَغْفِرةٍ من ربكم وجَنّةٍ عَرْضُها السمواتُ والأرْضُ أُعِدَّتْ للمتقين . الذين يُنْفِقُون فى السراء والضَّرَّاء والكاظِمِين الغَيْظ والعافِين عَنِ الناس والله يحب المحسنين . والناس يا أميرَ المؤمنين نسبةٌ دخل فيها المسلم والكافر ، والشريف والمشروف . قال : صدقت ، وَرِيَتْ بك زنادى ، ولا بَرِحْتَ أرى من أهلك أمثالك .

وقال رجل لبعض الملوك وقد وقف بين يديه : أ. ألك بالذى أنت بين يديه غداً أذَلُّ منى بين يديك اليوم ، وهو على عقابك أقْدَرُ منك على عقابى إلا ما[1] نظرتَ فى أمرى نَظَرَ من بُرْئِى أحبُّ إليه من سُقْمِى ، وبراءتى أحبُّ إليه من بليتى .

[بين معاوية وروح بن زنباع]

وأراد معاوية عقوبة رَوْح بن زِنْبَاع[2] فقال: ياأمير المؤمنين، أنشدك الله تعالى ألّا تضع[3] منى خَسِيسة أنتَ رفعتها ، أو تنقض منى مَرِيرة[4] أنتَ أبرمتها ، أو تشمت بى عدوًّا أنت كبَتّه ، وحاسداً بك وَقَمْتَه[5] ؛ وأسألك بالله إلا أرْبَى حِلْمُك على خطائى وصفحك على جَهلى .

فقال معاوية رضى الله عنه : إذا الله ثنّى عقد شىء تيسّرا .

(١) فى ا : إلا نظرت . (٢) الأمالى : ٢ — ٢٠٩ ، اللآلى : ٨٨٩ .
(٣) فى ا : أن تضع . (٤) المريرة : الحبل الشديد الفتل .
(٥) وقمه : قهره وأذله .

أشار إلى هذا أبو الطيب[1] المتنبي إذ قال[2] :

أزِلْ حَسَدَ الحُسَّادِ عنى بكَبْتِهِمْ   فأنتَ الذى صيَّرْتَهُم لِيَ حُسَّدَا
إذا شَدَّ زَنْدِى حُسْنُ رَأْيِك فى يَدِى   ضَرَبْتُ بسَيْفٍ[3] يَقْطَعُ الهامَ مُغْمَدَا

[عفو الملوك]

المأمون — وعَتَبَ المأمون على بعض خاصته ، فقال : يا أمير المؤمنين، إن قديم الحرمة وحديث التوبة يَمْحُوَان ما بينهما من الإساءة . قال : صدقت ، وعفا عنه .

من ملوك فارس — وكان فى ملوك فارس ملك عظيم المملكة، شديدُ النقمة، فقرَّبَ له صاحبُ المطبخ طعامَه فسقطت نُقْطَةٌ من الطعام على المائدة ، فزَوَى له الملك وَجْهَه ، وعلم صاحبُ المطبخ أنّه قاتله، فعمد إلى الصَّحْفَة فكفأها على المائدة ثم ولّى ، فقال له الملك: ما حملك على ما فعلت، وقد علمتُ أن سقوطَ النقطة أخطأتْ بها يدك ولم يَجْنِ بها تعمُّدك ، فما عندك فى الثانية ؟ قال : استحَيْتُ للملك أنْ يُوجِب قتلى ، ويُبيح دَمَ مثلى ، فى سنّى وحُرْمتى ، وقديم اختصاصى وخِدْمتى ، فى نُقْطة أخطأتْ بها يَدى ، فأرَدْتُ أن يَعْظُم ذَنْبى ليَحْسُنَ بالملك قَتْلى .

قال : لئن كان اعتذارُك يُنْجيك من القتل، فليس يُنْجيك من التأديب؛ اجلدوه مائةَ جَلْدة ، واخلعوا عليه خلع الرِّضا .

بهرام جور — وخرج بهرام جور متصيدا فعنّ له حمار وَحْشٍ ، فاتبعه حتى صَرَعه، وقد انقطع عن أصحابه . فنزل عن فَرَسه يريدُ ذَبْحه ، وبصُر براعٍ فقال : أمْسِكْ علىّ فرسى، وتشاغل بذَبْح الحمار ، وحانَتْ منه التفاتة ، فنظر إلى الراعى يقطع جَوْهَر عِذار فرسه ، فحوّل بهرام جور وَجْهه وقال : تأمُّلُ العيبِ عَيْب ، وعقوبةُ من لا يستطيع الدفاع عن نفسه سَفَه ، والعفوُ من أفعال الملوك ، وسُرْعَة العقوبة من أفعال العامة .

---

(١) فى ا : إلى قول روح أبو الطيب . . . فى قوله .   (٢) ديوانه ١ — ٢٨٩ .
(٣) فى الديوان : ضربت بنصل .

ثم قال : ياغلام ، ما بال شِرْيانك يضطربُ لعلّ آذاك تكسيرُنا أرْضك بحوافر خَيْلنا ؟ فقال : نعم ، وقد عزمتُ على أن أنتقل مائةَ فرسخ ، فقال بهرام : لا تُرَع ، فهذا الموضع وما فيه لك ، وكان الراعي خبيثا ، فقال : إن الملوك إذا قالت قولا تَمّتْ على قولها . فرجع بهرام إلى عسكره وقال : اتبعني لأُوثق لك من هــــذه الأرض ، فاتّبعه ، فلما بَصُر به الوزير قال : أيها الملك السعيد ، إني لأرى جَوْهر عِذار فرسك مُقَلّعا(١) ، فتبسم وقال : أخذه من لا يردّه ، ورآه من لا ينمّ به ، فمَنْ أخذه صاحبُنا ولا نُطالبه به .

* * *

نقل ابن الرومى قول بهرام : « تأمل العيب » كما اتفق موزونا فقال(٢) :

تأمّلْ الْعَيبِ عَيْب ما في الذي قُلْتُ(٣) رَيْبُ
وكلُّ خَــيْرٍ وشَرّ دُونَ الْعَوَاقِبِ(٤) غَيْبُ
وربّ جِلْبابِ هَمٍّ(٥) فيـــه مِنَ الصُّنْعِ جَيْبُ
لا تَحْقِرنّ سُيَيْبًا كم قاد خيرا سُيَيب(٦)

أخذ البيت الأخير من قول الطائي(٧) :

رُبّ قليــلٍ غدا كثيراً كَمْ مَطَرٍ بَدْؤُه مُطَيْرُ

وقوله(٨) :

لاتزيلن(٩) صَغِيرَ هَمّك وانظرْ كم بذى الأَثْــلِ دوحة مِنْ قضيبِ

وقد أعاد ابن الرومى قوله :

وكُلُّ خَــيْرٍ وَشَرّ دُونَ الْعَوَاقِب غَيْبُ

---

(١) قلعه : انتزعه . (٢) ديوانه ١ – ١١٧ . (٣) في الديوان : وليس في الحق ريب . (٤) في الديوان : خلف العواقب . (٥) في الديوان : يارب غمة خطب . (٦) بالتصغير ، والسيب : العطاء ، وانظر الديوان ص ١١٨ جزء أول .
(٧) المختار من شعر بشار ١٧٢ . (٨) ديوانه ٣٦ ، المختار من شعر بشار ١٧٢ .
(٩) في الديوان : لاتذيلن . ومعناه لاتحقرن .

فى قصيدته التى مدح بها أحمد بن محمد بن ثوابة حين ساوره ، وقال : لو أتى لبيد لتعجّب منه ، فاستجزله وقال[1] :

وَلَمَّا دَعَانِى لِلْمَثُوبَةِ سَيِّدٌ ... يَرَى الْمَدْحَ عَاراً قَبْلَ بَذْلِ الْمَثَاوِبِ
تَنَازَعَنِى رَغْبٌ[2] وَرَهْبٌ كِلَاهُمَا ... قَوِىٌّ وَأَعْيَانِى طُلُوعُ[3] الْمَذَاهِبِ
فَقَدَّمْتُ رِجْلًا رَغْبَةً فِى رَغِيبَةٍ ... وَأَخَّرْتُ رِجْلًا رَهْبَةً لِلْمَعَاطِبِ
أَخَافُ عَلَى نَفْسِى وَأَرْجُو مَفَازَهَا ... وَأَسْتَارُ غَيْبِ اللهِ دُونَ الْعَوَاقِبِ
أَلَا مَنْ يُرِينِى غَايَتِى قَبْلَ مَذْهَبِى ... وَمِنْ أَيْنَ وَالْغَايَاتُ بَعْدَ الْمَذَاهِبِ

[اعتذار للبديع]

نسخة رقعة كتبها بديع الزمان إلى أبى على إسمعيل يعتذرُ إليه[4] : سوء الأدب من سكر الندب، وسكر الغضب من الكبائر التى تنالُها المَغفِرَة، وتَسَعُها المَعْذِرَة، وقد جرى بحَضْرةِ الشيخ ما جَرَى ، وقد أفْنَيْتُ يدى عضًّا ، وأسنانى رَضًّا ، وإن لم أوف ماجَرَى فالعُذْرُ أمدّ خطا ، فإنْ كان بِساطاً يطوى ، وحديثا لا يُرْوَى فأولى مَن عذَرَ اللاعب، وأحْرَى من غفَرَ الصاحب؛ وإن كان ميتا يُنْشَر، وسببا يُذْكَر، فليَكن العتابُ ما كان، إن لم يكن الهجران، على أنى قد أخذت قِسْطِى من العقاب واستَفَدْت من ردِّ الجواب ما كفى وأوْجَعَ القَفَا ؛ فكان من مُوجِب أدب الخِدْمَةِ إبقاء الحِشمة لولىّ النعمة ، باحتمال الشّتم ، والإغضاء عن الخَصْم ، لكنى أخذَقتْ بى ثلاثة أحوال لا يَسْلَمُ صاحبها : اللعب وسكره ، والخصم وهُجْره ، والإدلال والثقة ، وهى اللواتى حملتنى على ماء الوَجْهِ فهرَقْتُه ، وحجابِ الحشمة فخرَقْتُه، وقد منعنى الآن فَرْطُ الحياء من وَشْكِ اللقاء ، وعَهْدِى بوجهى وهو أصْفَقُ من العُدم الذى حملنى على جَهْلِه ، وأوْقَحُ من الدهر الذى أحوجنى إلى أهله ؛ لكن النعم إذا توالَتْ على وَجْهٍ رقَّت قِشْرَته ، وألَانت بَشَرَته ؛ وأنا منتظرٌ من الجواب مايريش

(١) ديوانه ١ ــ ٢٠٨ . (٢) فى الأصل : رعب، بالعين المهملة .
(٣) فى الديوان : اطلاع . (٤) الرسائل : ١١٢ .

رسالته إلى ابن مشكويه

جَنَاحِي إلى خِدْمَته ؛ فإنْ رأى أن يكتب فَعَل إن شاء الله .

وله رقعة إلى أبي على بن مشكويه أولها[1] :

ويا عزّ إن وَاشٍ وَشَى بِيَ عندكم ... فلا تُمْهِليهِ أنْ تَقُولِي له مَهْلا

كما لو وَشَى واشٍ بعِزّةَ عنــدنا ... لقلنا تَزَحْزَحْ لا قريبا ولا أهلا

بلغني أطال اللهُ بقاء الشيخ أن قِيضَةً[2] كَذِبٍ وافَقَتْه بأحاديث لم يُعِرْها الحقُّ نورَه ، ولا الصدقُ ظهورَه ، وأنه — أدام الله عزّه — أذن لها على مَجال أذنه ، وفسح لها فِناء خلقه ، ومعاذ الله أن أقولها ، وأستجيز معقولها؛ بل قد كان بيني وبين الشيخ عِتابٌ لا يَنزِل كَتِفَه ولا يجدف ، وحديث لا يتعدّى النفسَ وضميرها ، ولا يعرف الشفة وسَميرها ، وعَرْبَدة كَعَرْبَدة أهْل الفضل[3] ، لا تتجاوزُ الدّلال والإدلال ، ووحشة لا يكشفها عتابُ لَحْظة ، كعتاب جَحْظة ، فسبحان مَنْ رَقَى هذ الأمرَ حتى صار أمراً ، وتأبّط شرّا ، وأوْجَب عُذْراً ، وأوحش حُرّا . وسبحان مَنْ جعلني في حَيّزِ[4] العدو أشيم بَارِقَته ، وأتخوّف صاعِقَته ، وأنا المُسَاء إليه ، والمجنيُّ عليه ، ولـكن من بُلِيَ من الأعداء بمثل ما بُليت ، ورُمِي من الحسد بما رُميت ، وقف من التوحّد والوحدة حيث وقَفْت ، واجتمع عليه من المـكارِه ما وصَفْت ، اعتذر مظلوما ، وضَحِك مشتوما ، ولو علم الشيخُ عددَ أولاد الجهد ، وأبناء العدد ، بهذا البلد ، ممن ليس له همٌّ إلا في سعاية أو شكاية أو حكاية أو نـكاية ، لضَنَّ بِعِشْرَة غريب إذا بعد ، وبعيد إذا حضر ، ولصَانَ مجلسه ممن لا يَصُونُه عما رق إليه، وهَبْنِي قد قلت ما حكى، أليس الشاتم من أسْمع ، والجانِي مَنْ أبلغ ؟ فقد بلغ مِنْ كيد هؤلاء القوم أنهم حين صادفوا من الأستاذ نفسا لا تُستفزّ ، وجبلا لا يهزّ ، وشَوْا إلى خدمه بما أرّثوا نارهم، وورد عليّ ما قالوه فما لبثت أن قلت :

فإن تَكُ حربٌ بين قومي وقومها ... فإني لها في كلّ نائبة سِلْمُ

---

(١) الرسائل : ١٠٠ . (٢) القيضة : القطعة من العظم الصغيرة .

(٣) العربدة : سوء الخلق . (٤) في الرسائل : جنب .

وليعلم الأستاذ أنّ فى كبد الأعداء منى جَمْرة ، وأنّ فى أولاد الزنا عندنا كَثْرة ، وقُصاراهم نارٌ يشبُّونَها ، وعقرب يُدَبِّبُونَها ، ومَكِيدة يَطْلُبُونَها ، ولولا أن العذْرَ إقرارٌ بمـا قيل ، وأكره أن أستقيل ، لبسطتُ فى الاعتذار شاذَرْوانا ، ودخلت فى الاستقالة مَيْدانا ، لـكنه أمرٌ لم أضعْ أوّله ، فلم أتَدارَكْ آخره .

وقد أبى الشيخ أبو محمد ــ أيده الله ــ إلا أن يوصل هـــذا النثر الفاتر بنظم مثله فيا كَدَّ يلعن بعضه بعضا :

مولاى إنْ عدتُ ولم ترض لى أنْ أشرب الباردَ لم أشْرَبِ
امتطِ خدى وانتَعِل ناظرى وصِدْ بكفى حُمةَ العَقْربِ
تالله ما أنطِقُ عن كاذبٍ فيك ولا أبْرُقُ عَنْ خُلَّبِ
فالصفوُ بعد الـكذب المفترَى كالصَّحو عقْبَ المَطَرِ الصَّيِّبِ[1]
إن أجْنِ الغلطَة من سيدى فالشوكُ عند الثمر الطيب
أو يفسد الزَّوْر على ناقد فالخمر قد يعصب بالثيِّب[2]

ولعل الشيخ أبا محمد ــ أيده الله ــ يقوم من الاعتذار بما قعد عنه القلمُ واللسان ؛ فنعم رائد الفضل هو ، والسلام .

فِقَر من كلام سهل بن هارون للمأمون

كان المأمون استثْقَل سَهْلَ بن هارون ، فدخل عليه يوماً ، والناسُ على مَراتبهم ، فتكلّم المأمون بكلام ذَهب فيه كلَّ مذهب ؛ فلما فرغ من كلامه أقبل سهلُ بن هارون على الجَمْع فقال : ما لـكم تسمعون ولا تَعُون ، وتشاهدون ولا تَفْقَهون ، وتفهمون ولا تتعجَّبون، وتتعجَّبون ولا تُنْصِفون؟ والله إنه ليقولُ ويفعلُ فى اليوم القصير ما فعل بنو مروان فى الدهر الطويل ، عَرَبُكم كعجمكم ، وعَجَمُكم كعبيدكم[3] ، ولـكن كيف يَعْرِف الدواء من لا يشعر بالداء ؟ فرجع المأمونُ فيه إلى الرأى الأول .

---

(١) الصيب : المنصب . (٢) ليس هذا البيت فى ا . (٣) فى ا : كعجمهم .. كعبيدهم .

وكان أبو عمرو سهل بن هارون من أهـل مَيْسان[١] نزل البصرة فنُسِب إليها ، وهو القائل : سهل بن هارون

يأهل مَيْسان السلام عليـ ... ـكم الطيبون الفرع والجِذْمُ[٢]
أما الوجوهُ ففضّةٌ مُزِجَت ... ذهبا وأيد سَحّةٌ هُضمُ[٣]
أتُريدُ كلْبٌ أن أناسبها ... قد قلّ من كلْب بى العِلْمُ
اجملت بيتا فوق رابيـــة ... فرع النّجوم كأنّه نَجْمُ
كُبَيْت شَمر وسط مجهلة ... بفنائه الجِمْلانُ والبَهْمُ[٤]

وكان سهل شعوبيا ، والشعوبية فِرْقَةٌ تتعصب على العرب وتنتقصُها ، وكان أبو عبيدة يُزَنّى بذلك .

وسهل ظريفٌ عالم ، حسَنُ البيان ؛ وله كتب ظريفة صنّفها معارضاً للأوائل فى كتبهم بما لا يستقصُونه منهم[٥] حتى قيل له بزرجمهر الإسلام . وقال يمدح رجلا : بعض شعره

عدوُّ تِلادِ المـــال فيما يَنُوبهُ ... مَنُوعٌ إذا ما مَنْعُه كان أحْزَما
مذال نفس قد أبَتْ غيرأن تَرَى ... مَكارِمَ ما تأْتِى من العيش مَغْنَمَا

وهذا نظير قوله فى كتاب ثَمْلَة وعُفرة الذى عارض به كليلة ودمنة: اجعلوا أداءَ ما يَجِبُ عليكم من الحقوق مقدّما قبل الذى تجودون به من تفضّلكم ؛ فإن تقديمَ النافلة مع الإبطاء عن الفريضة مُظاهر على وَهَنِ العقيدة[٦] ، وتقصير الروِيّة ، ومُضِرٌّ بالتدبير ، مخلٌّ بالاختيار ، وليس فى نفع محمدتِه عِوَضٌ من فساد المروءة ولزوم النقيصة .
وكتابه هذا مملوء حكما وعلما . وسهل القائل :

تقسّمنى هَمّانِ قد كسفا بالى ... وقد تركا قلبى محلة بَلْبَالِ
هما أذرَيا دَمْعِى ولم تدر عَبْرتى ... رهينة[٧] خِدْرٍ ذات سمط وخَلْخَالِ
ولا قهوة لم يَبْقَ منها على المدى ... سوى أن نحا كالنور فى رأس ذبال

---

(١) كورة بين البصرة وواسط . (٢) الجذم : الأصل .
(٣) يد هضوم: تجود بما فيها ، وجمعه هضم مثل كتب . (٤) الجمل : دويبة ، البهم : أولاد الضأن والمعز والبقر . (٥) فى ا : لايقصر به عنهم . (٦) فى ا : العقدة . (٧) فى ا : ربيبة .

تحلّل منها جرمها وتماسكت   لها نَفَسٌ معدوم على الزمن الخالى
ولكنما أبكى بعَيْنٍ سخينة   على حدَث تبكى له عَيْنُ أمثالى
فراق خليل لا يقوم به الأسى   وخَلَّة حرٍّ لا يَقوم لها مالى
فواحسرتى حتى متى القلب مُوجَع   لفَقْد خليل أو تَعَذُّرِ إفضال
وما الفَضْلُ إلا أنْ تجودَ بنائلٍ   وإلا لقاء الحُرّ ذى الخلق العالى

وهو القائل:

إذا امرؤٌ ضاق عنى لم يَضِق خلق   من أنْ يرانى غنياً عنه باليأسِ
لا أطلبُ المال كى أغْنَى بفضلته   ما كان مَطْلَبُه فقْراً إلى الناس

وأنشد له الجاحظ يهجو رجلا :

من كان يَفْخَرُ ماشادَتْ أوائلُهُ   فأنت تَفْخَرُ ماشادُوا وما سَمَكُوا[1]
ما كان فى الحق أنْ تحوى فعالَهم   وأنت تحْوى من الميراث ما تركوا

من نثره وقال محمد بن زياد الزيادى : وجَدْتُ[2] على سهل بن هارون فى بعض الأمر فهجوته فكتب إلىّ : أما بعد فالسلامُ على عهدك وداعَ ذى ضَنٍّ بك ، فى غير مَقْلِيَة[3] لك، ولا سَلْوَة عنك ، بل استسلامٌ للبَلْوَى فى أمرك ، وإقْرار بالمعجزة فى استعطافك ، إلى أوان فيئتك[4] ، أو يجعل لنا دَولة من رجعتك ، والسلام .

وكتب فى أسفل الكتاب :

إنْ تَعْفُ عن عبدك المسىء فى   عفوك مَأْوَى للفضل والمِنَنِ
أتيتُ ما أستحقّ من خطأ   فجُدْ بما تستحق[5] من حسن

الحسن البصرى فى يوم فطر وقال الحسن البصرى رحمه الله فى يوم [فطر][6] وقد رأى الناسَ وهيآتِهم : إنّ اللهَ تبارك وتعالى جعل رمضان مضماراً لخَلْقه ، يستَبِقُون فيه بطاعته إلى مَرْضاته ، فسبَقَ قوم ففازوا، وتخلّف آخرون فخابُوا؛ فالعجب من الضاحك اللاعب فى اليوم الذى يفوز فيه المحسنون ، ويَخْسَرُ فيه المبطلون ، أما والله لو كُشف الغطاء لشغل محسن بإحسانه ومُسِىء بإساءته .

ونظر إلى قوم منصرفين من صلاة الفِطْر يتدافعون ويتضاحكون ، فقال : الله

(١) سمكوا : رفعوا . (٢) وجد عليه : غضب . (٣) مقلية : بغض .
(٤) فى ط : بينك . (٥) فى ا : أستحق . (٦) من ا .

فلستمان ! إن كان هؤلاء قد تقرّر عندهم أنّ صومهم قد تُقُبِّل فما هذا عملُ الشاكرين، وإن علموا أنه لم يتقبل فما هذا عملُ الخائفين .

وكان الحسن من الخطباء النّساك الفقهاء الأجواد ، ويقـال : إنه لم يكن تابعيّ أفضل منه . هـذا قول أهل العراق جميعا ، وأهلُ الحجاز يقدمون سعيد بن المسيب عليه ، وكان سعيد أحسن من الحسن وَرَعا ، وأشدّ الناس حَذَرا ، وأقلهم كلاما؛ وكان الحسن لا يَدع أن يتكلّم بما هَجَس في نفسه ، وجاشَ في صدره .

وعلى ذكر الحسن شهر رمضان [نقول][1]:

ألفاظ لأهل العصر في التهنئة بإقبال شهر رمضان مع ما يتصل بها من الأدعية

ساق اللهُ تعـالى إليكَ سعادةَ إهلاله ، وعرّفك بَركةَ كماله . قسم اللهُ لك من فَضْله ، ووفّقك لفَرْضه ونَفْله . لقّاك الله ما ترجوه ، ورقّاك إلى ما تحبّه فيما تتلـوه . جعل اللهُ ما أظلّك من هـذا الصوم مقرونا بأفضَلِ القبـول ، مُؤْذِنا بدرك البُغْيَةِ ونجح المأمول ، ولا أخْلاك من برّ مرفوع ، ودعاء مسموع . قابل الله تعالى بالقبول صيامَك ، وبعظيم المَثُوبة تهجُّدك وقيامك . عرّفك الله من بركاته ما يُرْبِى على عدد الصائمين والقائمين ، ووفّقك اللهُ تعالى لتحصيل أجْرِ المتهجّدين . أسأل اللهَ تعالى أن يضاعِفَه بمَنّه لك ، ويجعلَه وسيلة بقبوله إلى مَرْضاته عنك . أعاد اللهُ إلى مولاى أمثاله ، وتقبّل فيه أعماله ، وأصلح في الدين والدنيا أحواله ، وبلّغه منهـا آماله . أسعده الله بهذا الشهر ، ووفاه فيـه أجزل المَثُوبة والأجر ، ووفّر حظَّه من كل ما يرتفع من دُعاء الدّاعِين ، ويتزل من ثواب العاملين ، وقبل مساعيه وزكاها ، ورفع درجاته وأعلاها ، وبلّغه من الآمال مُنْتهاها، وظَفِر بأبعدها وأقصاها .

من نثر الحسن

وقال الحسن : من أخلاق المؤمن قوةٌ في دين ، وحَزْمٌ في لين ، وحِرْص على العِلم ، وقناعة في فَقْر[2] ، ورحمة للمَجْهود ، وإعطاء في حق ، وبِرٌّ في استقـامة ، وفِقْهٌ في يقين ، وكسب في حلال .

وقال محمد بن سليمان لابن السمّاك : بلغني عنك شيء . قال : لا أباليه ! قال : ولِمَ ؟ قال : لأنه إن كان حقًّا غفرته ، وإن كان باطلا كذبته .

(١) ليست في ا . (٢) في ا : فاقة .

لابن السماك — وقال محمد بن صُبيح المعروف بابن السماك: خيرُ الإخوان أقلُّهم مصانعة في النصيحة، وخيرُ الأعمال أحلاها عاقبة، وخيرُ الثناء ما كان على أفواه الأخيار، وأشرف السلطان ما لم يخالطه البَطَر، وأغنى الأغنياء من لم يكن للحِرْصِ أسيرا، وخيرُ الإخوان من لم يخاصم، وخيرُ الأخلاق أعونُها على الورع، وإنما يختبر وُدُّ[1] الرجال عند الفاقة والحاجة.

وصف رجل لبعض البلغاء — ووصف بعضُ البلغاء رجلا فقال: إنه بسيط الكف، رَحْب الصَّدْرِ، موطَّأ الأكناف، سَهْل الخلق، كريم الطباع، غَيْثٌ مُغيث، وبَحْرٌ زخور، ضَحُوك السنّ، بشير الوَجْهِ، بادى القبول، غير عَبُوس، يستقبلك بطَلَاقة، ويحيِّيك[2] ببِشْر، ويَسْتَدْبِرك بكرم غَيْب، وجميل سرّ. تبهجك طَلَاقَتُه، ويرضيك بِشْرُه، ضَحَّاك على مائدته، عَبْدٌ لضيفانه، غير ملاحظ لأُكَيله[3]، بَطِين[4] من العقل، خَمِيص من الجهل، راجح الحِلْم، ثاقب الرَّأى، طيِّب الخلق، محصَّن الضريبة[5]، مِعْطاء غير سائل، كاسٍ من كل مَكْرُمة، عارٍ من كلّ ملامة، إن سُئِل بذَل، وإن قال فَعَل.

لكشاجم — قال أبو الفتح كشاجم:

مزاجك للمُتَنَى من العودِ والصَّبا — من الرِّيح والصافي الرقيق من الخَمْرِ
فلو كنت وَرْداً كنت وَرْداً مُضاعَفا — ولو كنت طيبا كنت من عَنْبَر الشِّحْر[6]
ولو كنت لَحْناً كنتَ تأليف مَعْبَدٍ — ولو كنت عُوداً ما افتقرتَ إلى زَمْرِ

لأعرابى — وقال أعرابى:

ألا حَبَّذا البُرْدُ الذى تَلْبَسِينه — ويا حبذا مَنْ باعكِ البُرْدَ من تَجْرِ[7]
فلو كنت ماء كنت ماء غمامةٍ — ولو كنت درًّا كنت من دُرَّةٍ بِكْرِ
ولو كنت لَهْوًا كنت تَعْليل ساعةٍ — ولو كنت نَوْمًا كنت إغفاءةَ الفَجْرِ
ولو كنت لَيْلًا كنت قَمْرَاء جُنِّبَتْ — نحُوسَ لَيَالِى الشَّهرِ أو ليلة القَدْرِ

﴿ تمّ الجزء الأول ويليه الجزء الثانى، وفيه الفهارس العامة للكتاب ﴾

(١) فى ط: ذل. (٢) فى ا: ويحبوك. (٣) الأكيل: الآكل. (٤) فى ا: ريان من العقل. (٥) الضريبة: الطبيعة. (٦) فى ط: البحر. (٧) التجر ـ بالفتح: جمع تاجر.

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٦٩/٣١١٩

فهارس الكتاب

فهرس الموضوعات*

* ماوضع قبله هذه العلامة * من العناوين فهو من وضع المؤلف، وما عدا ذلك فهو من وضعنا.

نهاية فهرس الجزء الأول